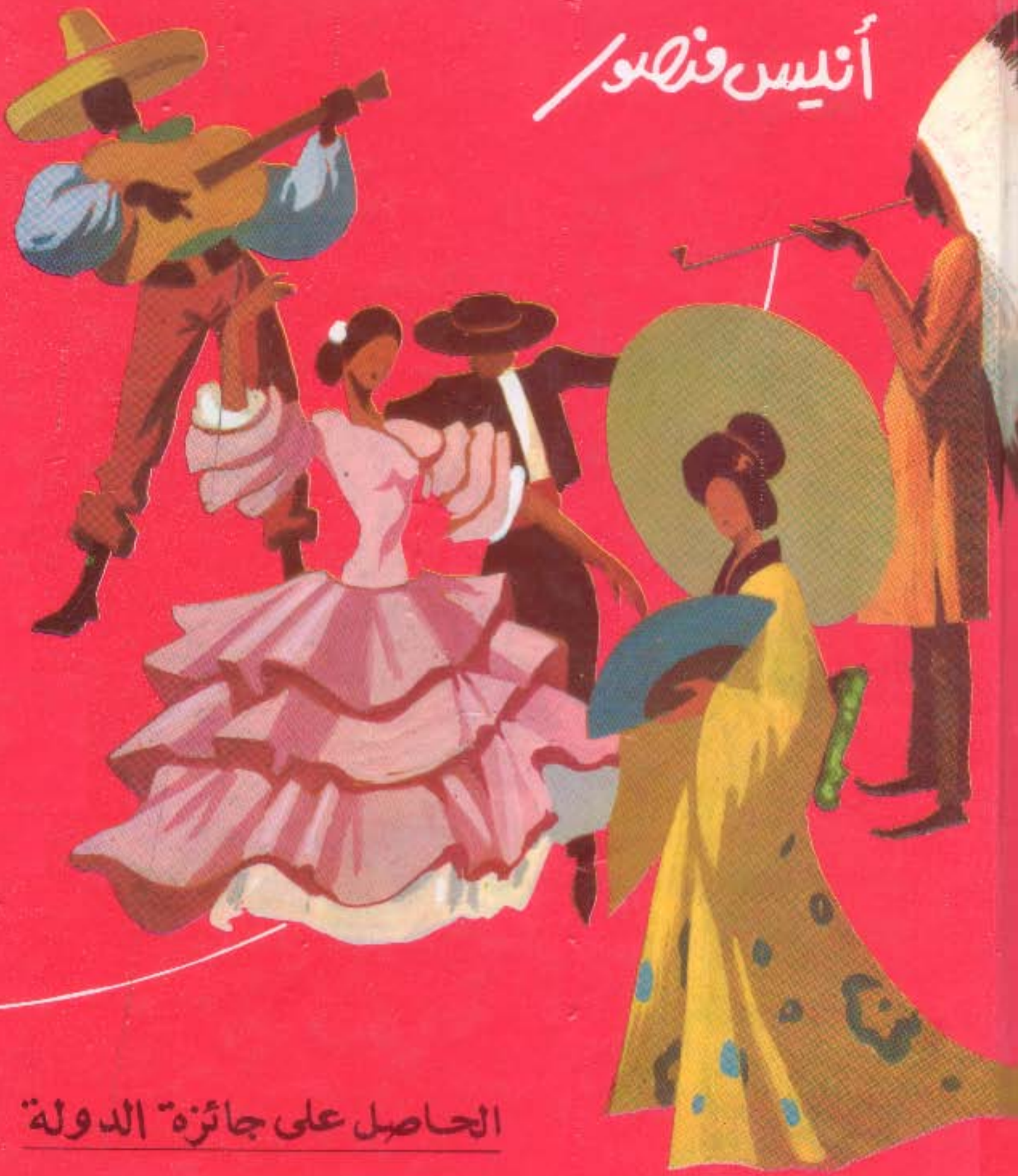


أنيس فنسوا



الحاصل على جائزة الدولة

حول العالم في... اليوم



حول العالم في ٢٠٠ يوم

الطبعة الثانية والعشرون في رحلة العمر أنيس منصور .. بعد أن نقتطع طبعاته كنها وسجلت انقاسا قياسية في التوزيع .. وبعد أن حاز جائزة الدولة

يقول طه حسين في مقدمة الطبعة الثالثة لهذا الكتاب : « هذا كتاب ممتع حقاً ، تقرأه ، فلا تنقص منك ، بل تزيد كلما تقدمت في قراءته . »

ويقول محمود تيمور في مقدمة الطبعة التاسعة : « كاتب الرحلات الناجح هو الذي تتوفر له اللعبة الملاحظة ، ورهافة القطعة ، وسرعة الالتقاط والقدرة على استبانة الملاحظ والمعلم وخاصة ما جدق منها على النظرة العابرة ، وما يتصل منها بالعادات والسلوك والأوضاع الاجتماعية التي لا تخلو من غرابة .. وكل هذه الملاحظات تستصعب للأستاذ أنيس منصور . »

والكتاب هو رحلة أنيس منصور حول العالم التي استغرقت ٢٠٠ يوم ، وطلت حديث الملايين بين العالم العربي وقلتها المصنف العالمية ووكالات الأنباء ... إذ كانت أطول وأروع رحلة في تاريخ الصحافة العربية ، كما كانت أول دورة كاملة يقوم بها صحفي حول العالم !

فمن القاهرة إلى الهند ، والسلام ، والأفاس ، واخية ، وعيادة الأقطار ، إلى مقبرة غاندي عند مغلي المحور الثلاثة .. إلى بيت عراقى باشا في (كاتدي) ، إلى إندونيسيا وتحضير الأرواح بالنسلة .. إلى جزيرة البهود العربية .. إلى اسراليا فارة الصحبة والكاتنجور والمثل والمستقل .. إلى التيليين التي ترقص نهاراً لكل الساتحين .. إلى هونغ كونج جزيرة الانبسام والقسائين المشقوفة .. إلى اليابان حيث المزلزل والجنشا وكل شيء صغير .. إلى الجنة الحمراء في جزيرة « هاواي » ، حيث البراكين والأنتاناس وبنات الموالا في ظل القمر تحث أشجار جوز الهند .. إلى أمريكا نصف العالم الجديد ، بلاد السيارات الفخمة والشوارع الجميلة والكواكب والسرعة والملايين من أصحاب الملايين .. إلى أوروبا نصف العالم المنحصر .





سلسلة جدران المعرفة

تحتوى السلسلة الثانية على (١١) كتاب جداد ، يطرحوا لأول مرة فى ثوب إلكترونى لكبار المثقفين والأدباء. بالإضافة الى مجموعة من المقالات المختارة من بعض الكتب القيمة. (تجدون فهرس الكتب الصادرة فى آخر الكتاب) .

* كما أننا نوجه شكر خاص الى كل من ساعدنى وأرسل لى اقتراح او نقد أو تشجيع ، سوء من خلال الايميل او على صفحات المنتديات أو من خلال الرسائل الخاصة أو على الماسنجر حقيقى ، كنتم نعم العون ، ومنتظر منكم المزيد 🌸

واخيراً ، نحب أن نعلمكم ، اذا كان أى شخص لديه القدرة على المساعدة المادية البسيطة جداً جداً فى هذا المشروع حتى يكون متجدد باستمرار ، ولا يتوقف ، يتفضل بمراسلتنا ... لمزيد من التفاصيل :

theknowledge_walls@yahoo.com

مع تحيات

Jgm

مقدمة الطبعة الأولى

ركبت البغال في أعالي الهملابا ، وركبت الثفائة من هولود إلى واشتتون ، وكان الأمريكان ينظرون لى بإعجاب وحسد ، فقد كانت الثفائة شيئاً جديداً ، وركبت الفهيل وركبت زورقاً وظللت واقفاً ست ساعات ، فقد كانت المياه مليئة بالأناعي والنماسيح في أقصى جنوب الهند ، وأكلت الموز بالشطة في سنغافورة ، وشربت الشاي بالملح في أندونيسيا ، وأكلت الأناناس مع الغربان في سيلان ، وأكلت الخبز المصنوع من السمك في جزيرة بالى ، وأكلت الضفادع والثعابين البرية في هونج كونج ، وأكلت البيض وهو ملء بالكثاكيث ، وحتى لا أصاب بقليل من القرف فإنهم في الفلبين يضيفون إليه بعض الفلفل والملح ، وارتديت الدوق في كيرالا ، وليست الكيمونو في طوكيو ومشيت ربيع عريان في هونولولو ؛ وكان لى أصدقاء من أصحاب الملايم ، وأصدقاء من أصحاب الملايين . . وكانت صداقتى لا تستغرق إلا ساعات أو أياماً ، وبعد ذلك أرحل إلى بلاد جديدة . . .

لقد كان العالم كتاباً كبيراً عريضاً طويلاً غنياً بألفاظه ومعانيه . . كنت أقرأ بعقل وقلبى ، وأقلب الصفحات بيدي ورجلي . . وكنت أضع حقيقتى الوحيدة في مهب الطائرات والعواصف ؛ ودخلت المستشفيات في أندونيسيا ، وفي اليابان دخلت مستشفى الولادة ، وفي استراليا دخلت مستشفى الملكة ، وفي أمريكا دخلت عيادة كل أطبائها من المصريين ؛ كنت أكتب ليلاً ونهاراً ، وكنت أبحث بمقالاتى لأخبار اليوم والأخبار وآخر ساعة والجيل ، وعندما أجد متسعاً من الوقت كنت أكتب مذكراتى .

* * *

فلم أكن وحدى . . كانت الصحف تسبقنى إلى السفارات ، وكانت تسبقنى إلى أكشاك بيع الصحف حول العالم كله .

بل إننى وجدت نسخة من «أخبار اليوم» في أحد محلات السجائر في «السوق الدولية» بمدينة هونولولو . . ولما سألت عن صاحبها الذى تركها فإذا به أحد رجال السفارة الأمريكية في كيوديا !!

وكننت كلما وجدت مقالات منشورة أحسنت أنها صواريخ . . صواريخ
متعددة المراحل ترفعى إلى أعلى ، وأعلى . . حتى اتخذت لى مداراً فوق . . فوق
ما كنت أتصور !

* * *

لقد كان الفرض من رحلتى هذه أن أسافر فقط إلى ولاية كيرالا فى الهند
وأن أكتب تحقيقاً صحفياً عن الولاية الوحيدة فى الهند التى فاز فيها الحزب الشيوعى
بحكومة شيوعية ١٠٠٪ . . وقد ثار حزب الحكومة المركزية على هذه الولاية وآتهم
حكومتها بالظفیان والاستبداد ، والتدخل فى معتقدات الناس ، وتغيير كتب
التاريخ . . .

وقابلت رئيس وزرائها نامبود ريباد . وهو رجل متوسط القامة ممتلئ ، وله
رأس كبير ، وقابلنى حافى القدمين ، وكذلك أولاده . . وكان يضع يده على رأسه
كلما سألته سؤالاً ، وكننت كلما تطلعت إليه لأسمع الجواب ، كانت حركات
يديه تخفى صورق لبتين وماركس على الحائط وراءه . . وفى كل مرة ينفعل كنت
أعنى أجمع الكتب التى سقطت على مكتبه وكلها عن ستالين . . .

وكان هذا الحديث الذى دار بينى وبينه هو الصاروخ الذى دفعنى إلى الدوران
حول الأرض . . فقد نشر هذا الحديث فى نفس اليوم الذى سقطت فيه الوزارة
فى كيرالا !

ونقلت الحديث وكالات الأنباء العالمية . فقد كنت الصحفى الوحيد الذى قابله
أثناء الأزمة . . وكننت آخر من خرج من مكتبه ، متوقفاً هذه الكارثة له . .

* * *

وبعد ذلك سافرت إلى التبت لأقابل الدلاى لاما . . وقابلته . . وتحدثت إليه
عن حياته ، عن أزمته ، وطلبت أن أقابله ، فرفضت السلطات ، فذهبت إليه
فى بيته ، ورفض الحراس أن أقابله . . وقابلت وزراءه وادعيت أنى مريض قادم
من مصر ، وأن شفاى على يديه . . ونقلونى له على محفة . . وأنا ملفوف بكل ما عندى
من بطاطين . فقد كنا فى الصيف ، وكان الجو بارداً جداً فوق الهملايا . .

ومن تحت البطاطين والأغطية أخرجت الكاميرا وصورته . . وصورت أمه
لأول مرة فى حياتها ولأول مرة فى العالم !

* * *

وسافرت إلى جزيرة سيلان بحثاً عن العشرين عاماً التى قضاهما الزعيم أحمد عرابى
باشا . . ذهبت إلى المكتبة . . وذهبت إلى صحيفة « الأوبزرفر » الإنجليزية التى
هاجمت عرابى باشا طول مدة إقامته . وحصلت على وثيقة نادرة سجلت فيها
الصحيفة كيف كان نزول عرابى وأصحابه إلى الجزيرة . . وكيف كان وماذا

كان يأكل . . . وكيف أن الصحف الإنجليزية اندحشت جداً عندما سئل عرابي باشا : هل الدين الإسلامي يحرم تعليم البنات ؟ فأجاب : لا . . . وسألوه : هل يحرم تعليم البنات لغة أخرى غير لغة القرآن ؟ فأجاب : لا . . . وسألوه : هل الدين الإسلامي يتناق مع الطب ؟ فأجاب : لا . . . فقالوا له : حتى لو كان الطبيب الذي يكشف على زوجتك ليس من دينها ؟ فأجاب : لا .

وذهبت إلى البيت الذي كان يعيش فيه في مدينة كولومبو ولا يزال يقسمه اثنان أحدهما صحفى والآخر طبيب . وذهبت إلى البيت الذي كان يعيش فيه بمدينة كاندى . . . ومكتوب على هذا البيت باللغة الإنجليزية « عرابي باشا » بحذف الألف . . . وينطقونها أيضاً هكذا . وقد أخبرني أصحاب البيت أن جدهم قد أوصاهم بالاحتفاظ به كما هو ، دون تغيير . . .

وقابلت عميد مدرسة الزاهرة الإسلامية وأطلعني على وثيقة نادرة عن يوم افتتاح هذا المعهد الدينى الكبير . . . وكيف حضره عرابي باشا وكيف أشهد له الطلبة نشيداً جميلاً . . . ونقلت الوثيقة وترجمتها ونشرت النشيد . . .

وفي أندونيسيا زرت مواطنة مصرية جميلة ولطيفة وكريمة اسمها فوزية . . . وهى متزوجة من أحد أبناء أندونيسيا ، الذى يملك مصنعاً للزجاج في مدينة بوجور . . . وكان معى في هذه الزيارة سفيرنا العمروسى والصدىق لطفى ملحقنا العسكرى في ذلك الوقت ، وسفيرنا الآن في العراق ، والدكتور محمود رضوان مستشارنا الثقافى . والصدىق أحمد والى ملحقنا الصحفى في جاكرتا ، في ذلك الوقت . . .

وفي إحدى الجلسات أطلعنى السيدة فوزية على تحضير الأرواح عن طريق « السلة » . . . ولم أصدق في أول الأمر . . . ولكن لاحظت أن كل الذين معى رجلاً ونساء يصلفون . وأعادت التجربة . . . ووسط البخور والهدوء والآيات القرآنية . . . رأيت السلة وهى تتحرك وتكتب . . . ولاحظت أن هناك إثنين يحملان السلة وأنها تتحرك وتكتب بلغات مختلفة . . .

واستحضروا أرواح بعض المصريين . . . ولاحظت أنها تكتب . . . وأنها تكتب بعض النكت المصرية . . . ولم أصدق أيضاً . . . وأخذت عربة السفير والتقطت من الشارع آتئين لا أعرفهما . . . وحملتا السلة ، ورحنا نتلو الآيات القرآنية ونلتزم الهدوء . . . وكانت السلة تكتب بلغات لا يعرفها معظم الحاضرين . . . فقد كانت تكتب بالألمانية والإيطالية واليونانية واللاتينية ، وهى لغات أعرفها جيداً .

إلى أن طلبت من الحاضرين أن يستحضروا روح المرحوم والدى . . . وكتبت السلة أنه لا يريد أن يحضر . . . فشرحت بشئ من الارتياح . . . وقلت لا بد أنها أكتوبة . . . وأحيراً حضرت الروح وكتبت .

ولم تنته دهشتي فقد كان عطلها طبق الأصل من عط والدي ، وخصوصاً
إمضاءه .

وكتبت عن هذه الظاهرة . . ولا أعرف حتى الآن أى تفسير علمي لما حدث !
وعندما سافرت إلى ماينلا قابلت سفيرنا الطواهري ، وهو ابن الشيخ الطواهري ،
شيخ الأزهر الأسبق .

وروى لي أن له أماً كان مفرماً بتحضير الأرواح وأنه منذ وفاة أخيه ، يكره
هذه السيرة . ولا يجب الكلام عن الأرواح ، ولكن مع ذلك يؤمن بوجودها
وبعد أن قرأ ما كتبتة أنا عن الأرواح ، أصابه الفزع ، فهو لم يعد يستطيع
أن ينام في الظلام . . لا بد أن تصاء المصاييح كلها .

وهذا ما أصابني أنا . . فلم أتمكن من النوم في الظلام حتى بعد أن عدت إلى
القاهرة . . وكنت أحجل من السيدة والدق - التي قالت عنها السلة إنها مريضة
جداً - وكانت مريضة فعلا ، وكنت أظاهر بأنني أقرأ في الليل . . وكانت والدق
تهض من فراشها وتطق "النور وأنا نائم" . . فكنت أنزعج وأعيد النور . . وظلت
كذلك وقتاً طويلاً .

وفي إحدى المرات حملت من هذا الفزع الصيباني ، فأطفأت النور . . ولم أعد
أفتحه عندما أنام حتى الآن .

* * *

وسافرت إلى جزيرة بالي . . أصغى جزيرة في أندونيسيا ذات الثلاثة آلاف
جزيرة !

وهي جزيرة غريبة نصف نساءها عاريات . . أقصد كل النساء لا يلبسن شيئاً
فوق الحزام ، أى النصف العلوى كله عريان تماماً . . وهن لذلك فرجة !

* * *

وسافرت إلى استراليا ، وهي القارة التي لم يرها حتى عربي قبل ذلك . . وناديت
بأن تكون لنا سفارة وأصبحت لنا سفارة ، وقابلت فيها المصرية الوحيدة التي
تعمل في أحد المطاعم . . ولكن وجدت ٣٥ ألف لبناني . وقابلت أفراد أسرة أسكيف .
وكلهم من أصحاب الملايين وكان أحدهم يبيع الأثشة على ظهر حصان . وفي إحدى
الحفلات التي أقامتها الجالية اللبنانية للقتصل الدكتور كريم عزقول . . ارتفع
الستار . . وصعدت موسيقى وأغانى عبد الوهاب وأغانى أم كلثوم .

وشعرت بالسعادة ، فقد كانت حفلة تكريم لفرن بلادي وعظمة بلادي .

وفي استراليا عندما كنت أجلس مع الرسميين كانوا لا يعرفون اسمي . وإنما
كانوا يقولون : يا مستر ناصر . . قل لنا يا مستر ناصر . . أو ماذا رأيت في بلادنا
يا أحد أبناء ناصر .

ونشرنا صور البركان قبل أن تنشرها مجلة « لايف » الأمريكية التي أرسلت أربعة من كبار مصوريها . . .

* * *

وفي أمريكا ألفت نظرة أحيرة على الفاتنة الرقيقة الحزينة الراحلة مارلين مونرو . . . ولا تزال عبارتها : إزيك يأنت . . . ترن في أذني . . . فقد عاشت وحيدة محبوبة في جهالها ، وفي مجدها وفي قم الشهرة والمال والجمال ، وماتت من شدة البرودة .

فكل القمم باردة ، وكل القمم ضيقة .

* * *

وعندما عدت إلى أوروبا كانت هذه المرة الأولى التي أدخل فيها أوروبا عن طريق أمريكا . . . ولكنها كانت المرة السادسة عشرة التي أزور فيها أوروبا من جديد . . .

* * *

وأنا لا أدعي أنني ألمت بكل شيء . . . ولا رأيت كل شيء . . . ولا حتى رقت هذا الكلام ، وإنما نشرته كما كتبته . . . بنفس الانطلاق والسرعة والمرح . . . فقد كان المرح والسخرية هما « التعويض » الوحيد الذي كانت تناله نفسى من التعب والإرهاق والوحدة .

فقد كنت مسافراً وحيداً . . . في يدي حقيبة بها ملابس قليلة جداً ، وكلمة بليت الملابس ألقيتها واشترت غيرها . . .

وقد مللت السؤال الذي لا يتغير في جوارك العالم كله : هل هذه كل امتعتك ؟ فأهز رأسي قائلاً : نعم .

ويسألونى : لماذا ؟

ويكون ردى : أريد أن أكون خفيفاً . . . فلا أستطيع أن أحمل حقيبة ثقيلة . وقلباً ثقيلاً أيضاً !

وقد جاءت فصول هذا الكتاب صورة لأفكارى ومتاعبي ومشاكلي . . . فقد كتبت هذه الفصول ، جالساً مقرفصاً . في سريري ، هرباً من نبوض . وأحياناً خوفاً من الأفاعى والعقارب ، وكتبتها تحت أشجار الموز ، وكتبتها في ضلّل جوز الهند ، وعلى منضدة أستأجرتها من حديقة الدومين في مدينة سيدنى . وكتبتها على مصابيح الجبشا في كيوتو ، وسجلتها وأنا مريض ، وسجلتها وأن خائف من الطريق الطويل الذي لم يمش فيه أحد قبلى . . .

وكننت أتفاهم بكل اللغات التي أعرفها ، وكننت أتفاهم بالإشارة . . . وكننت أتفاهم عن طريق الترجمة ، وعن طريق ترجمة للترجمة . . .

وأنا أتمنى أن يكون عندي وقت لكي أكتب كل رحلاتي إلى أوروبا والشرق الأوسط وأفريقيا ، بتفصيل وصح . . .

* * *

وسيرى القارئ أنني في هذا الكتاب أحاول أن ألعب على كل أصابع اليانو ، البيضاء والسوداء . ولا أستطيع أن أدعي أنني عزفت لحناً عظيماً ، ولكنه لحن في استطاعته أن يأخذك ، أن يجعلك تعتذر عن موعد غرامي جميل !

وقد جاءت بعض فصول الكتاب غير متناسبة ، وأحياناً كنت أكرر بعض المعاني ، تماماً كالمطرب الذي يعيد ويكرر !

وقد حذفته عشرات من الفصول السياسية لدرجة ستجد أنك أمام صفحات قليلة عن دولة أفتت فيها كثيراً مثل الفيليين !

فقد حدثت أنني سافرت إلى الهند ومن الهند إلى سيلان ومنها إلى سنغافورة ، ومن سنغافورة إلى أندونيسيا ومن أندونيسيا إلى الهند مرة أخرى . فقد جاءتني بركة تطلب مني أن أسافر فوراً لأكتب عن الصراع بين الهند والصين . . وبعد ذلك عدت إلى سنغافورة ثم إلى أندونيسيا ومنها إلى استراليا . . فأنا أذكر الهند وأندونيسيا في أماكن متعددة . . فكثيراً ما كتبت عن الهند وأنا في أندونيسيا . . أو في استراليا . . ورغم مرضي وعذابي ومخاوفي وطول الطريق ، وانتقالي من الحر في الهند إلى الجليد في استراليا ، إلى الحر والمطر في الفلبين إلى المطر في هونج كونج ، إلى العواصف والرعد في اليابان ، إلى الدفء والبراكين في هاواي ، إلى الجليد في نيويورك . . رغم كل هذا كتبت ولم أتوقف عن الكتابة !

ولكن يعزيني عن هذا كله : أنني رأيت الدنيا ، وأنتى درت حول العالم . . وأنتى رأيت من العالم أكثر مما يراه رواد الفضاء المحبسون في براميل من المعدن تنطلق بسرعة ٢٨ ألف ميل في الساعة وعلى ارتفاع ٢٠٠ ميل من الأرض . . لقد رأوا الدنيا من فوق ، ولكن مشيتها ، رأوا الغابات والمحيطات ، وأنا رأيت المدن والقرى والناس . .

ويعزيني أن الملايين تمنوا أن يفقدوا نصف عمرهم أو ثلاثة أرباع عمرهم ، وأن يسافروا مثل !

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أقدم بعض ما تمنوه . وأتمنى لكل قارئ أن يسافر مثل ، وألا يتعذب مثل ، وأن يسافر هو وأهله وأحب الناس إليه . لا أن يسافر وحده . وليس له أحد ، ولم يكن له أحد يودعه عند سفره من القاهرة ، ولم يكن له أحد يستقبله عند عودته إلى القاهرة .

خرجت وحيداً ، ورجعت أكثر وحدة !

* * *

وللسافر كما يقول المثل الإنجليزي : يجب أن يكون له عيناً صقر ليرى كل شيء ، وأن تكون له أذناً حمار ليسمع كل شيء ، وأن يكون له فم خنزير ليأكل أى شيء ،

وأن يكون له ظهر جميل ليحصل أوشىء ، وأن تكون له ساقا معزة لا تصبان من لثقي ..
وأن يكون له - وهذا هو الأهم - حقيبتان = إحداهما امتلأت بالمسالك والثانية امتلأت
بالصبر !

وقد حفظت هذا المثل جيداً . . وإن كنت قد نسيت كثيراً ما الذى أعطته كالصقر
وما الذى أعطته كالحمار . . ولكن لم أنس أن أكون جملاً وأن أصبر . فلقه مع الصابرين .
ولقد كان لقه معى . . لقد أنقذنى من الموت عدة مرات . . أنقذنى من جموعة مرضى
القبيل ، وأنقذنى من الفرق ، وأنقذنى من اللصياح فى الغلابات . .

وكنت أقول دائماً : إنه دعاء أسمى . . فليس طاقى الدنيا من عمل سوى أن أحصى لى . .
وهى كثيراً ماتدعوا الله وكننت اندعش لهذا الإسراف فى للدعاء ، وهذا الإصلاح على الله .
ولكن عندما رأيت الدنيا ، ومتاعب الدنيا للواسعة ، أدركت أنها على حق ، فهتلك أشياء
كثيرة لم أكن أعرفها تستحق الكثير جداً من عناية الله !

* * *

ولم أنس طول الرحلة هؤلاء الجبابرة من المغامرين من أمثال حاركو بولو . . وابن
بطوطة . . ولم أنس الذين داروا حول العالم فى سفن شراعية مثل ماجلان وباسكو داجاما . .
وكولومبوس وأمريكوفسوتشى . . هؤلاء العباقرة الذين ركبوا سفناً بدائية فى محيطات
جهولة . وفى ظروف بدائية . . بلا طعام ولا دواء ولا مخرايط . . لقد كنت أذكرهم
فى كل قارة اكتشفوها وأنحنى لإجلالهم .

ولم أنس أبدا تلك الرحلة اللوهمية الساحرة التى كتبها القس سويتف جمنوان
« رحلات جيلفر » . .

فهذا البطل جيلفر قد ألفت به السفينة فى بلاد الأتزام . . وربطوه بالحبال وسحبوه
إلى قصر الملك ، وانتقل من بلاد الأتزام إلى بلاد المألقة ، وكان الأطفال يلعبون به
بسبب الشبه الشديد بينه وبين الإنسان . . ثم ألفت به الأمواج إلى أرض المثقفين وهم
أناس فى حالة غيبوبة عقلية ولديهم مشاريع وهمية . . ووراء كل واحد منهم مخادم يذكره
بماذا يريد أن يقول ، وماذا يريد أن يقترح . . وبعد ذلك سافر إلى بلاد السحر . .
فهناك رأى كل عظمة التاريخ ، الذين أكنوا له أن التاريخ كله كذب فى كذب ، وأن
المؤرخ يكتب ووراءه مدافع الحاكم القوي ، فهو يكتب تاريخ الرجل للقوى . . وألفت
به السفينة بعد ذلك إلى أرض فيها أناس فى غاية البلاءة ؛ وهؤلاء للناس تحكهم حيول فى
غاية العقل . . واحتاروا فى أمر جيلفر هل يعتبرونه إنساناً أى غيبياً مع أنه ذكى ؛ أو
هل يعتبرونه حصاناً ذكياً مع أنه ليس حصاناً . .

وأخيراً طردوه لأن له جسم الإنسان وذكاء الحصان !!
وبعد ثلاث سنوات من هذه الرحلة التى أدرك فيها جيلفر أن كل شىء فى الدنيا نسبي . .

فأنت طويل في بلاد الأتزام . . وقزم في بلاد العمالقة ؛ وهي في بلاد الخيول ، وكذاب في العالم الأحمر .

وبعد هذه السنوات من العذاب والهوان ، دق باب بيته . وفتحت له الزوجة الباب ، ثم طبعت قبلة على عده

وهو منذ هذه القبلة الكريمة الباردة أخذ يكره الإنسان ويحب الحيوان . . وكلما ازدادت معرفته بالناس ، ازداد عشقه للحيوان !
ولم أجد أسداً يقبلني عند عودتي ، ولا أحداً أقبله .

وحدث افقه ، فأنا أحب الناس ، في كل مكان . . ولا أريد أن أكره أحداً كما فعل جيلفر في كل البلاد .

فأنا أحب الأسود والأصفر والأبيض . وكل إنسان مربوط بظروفه . . وكل إنسان مدفوع إلى الأمام بتاريخه . . والعالم يتكلم بعدة لغات وعدة مصالح .
ورأيت أن الفوارق بين الناس قليلة جداً . . لكل الناس تحت الجلد متشابهون !

* * *

إنني لم أعرف الكثير جداً من الدنيا ، ولم أعرف إلا القليل جداً من نفسي . .
فحينئذ مفتوحتان على الدنيا ، ولكنني بلا عيين عندما أنظر إلى داخل . . إلى الزحام في داخل . . إلى الوحشة المظلمة في أعماق . . إلى الإنسان الذي نسيته يصرخ ولا اسمه ولا ألقابه . . ولا أعتقد أنني سأستطيع يوماً ما . . فقد اتسعت المسافة بيني وبينه . . أو . . بيني وبينى . . وإني في حاجة إلى ترجمان . ترجمان صديق . . يخبرني ماذا أريد أن أقول لنفسي . . ماذا أريد من نفسي ، ماذا أستطيع . . ما الذي أقدّر عليه . .
إن كل الذي استطعت أن أعرفه في دوراني حول العالم هو أنني أستطيع الكثير . . وأن كل إنسان يستطيع أن يفعل الكثير . . أن يأكل رغيفاً في اليوم ، وأن يعمل عشرين ساعة . . دون أن يصعب .

في كل إنسان قوة هائلة ، لا يستطيع أن يستغلها . .

وفي كل إنسان كنز من الحيوية والقدرة على الفهم والقدرة على الاحتمال والصبر .
وأنا لا ننفق من هذا الكنز إلا القليل . .

وأن الإنسان يأكل ويشرب وينام أكثر مما يجب .

وأنه يجعل أقل مما يجب . .

وأنه يضاف أكثر مما ينبغي . .

وأنه لا يعرف نفسه . . وأنه لا يعرف حدوده الشاسعة الواسعة . .

وربما كانت هذه عدوى فلسفة « اللوجا » . . فلسفة الاحتمال والصبر . . فلسفة الزهد في الحياة . . فلسفة السلام مع الناس ومع النفس . . فلسفة معانقة الجوع والعطش . . فلسفة التمرد على الخوف والتمرد على الجبن . .

وربما كانت هذه الفلسفة هي المرض الوحيد الذى أصابنى وأنا أنتقل من معبد إلى حانة ، ومن حانة إلى غابة . . إلى جبل . . إلى قمة جبل . . إلى طائرة فوق محيط فى أثناء عاصفة والناس نيام . . والظلام حالك . . فوق السحاب . . ساعات من الاستسلام . . لا أسمع إلا محركات الطائرة . . أما قلبى فكان لا يدق . . كأنما كان يكتنق بقلب آخر فى مصر يدق من أجل . . ويخفق لى . .

وعدت إلى مصر الغالية العزيزة . .

وفى الطائرة ألصقت فى بالنافذة أقبل بلادى ، وفى المطار مددت ذراعى أعانق كل الناس . . فيلادى هي أكرم بلد وأهلى هم أطيب الناس !

* * *

وانتهت رحلة الغريب فى عالم غريب . .

أنيس منصور

القاهرة فى نوفمبر ١٩٦٢

مقدمة الطبعة الثانية

بعد أن انتهت رحلتى حول العالم ، عدت من جديد إلى السفر . لقد جمعت القليل جداً من ملابسى ، وبعض الأوراق . واتجهت في سيارة جيب إلى أقصى الجنوب . . . إلى الكونغو . ولم تتحرك هذه السيارة خطوة واحدة . ومع ذلك فقد وصلت بها وبسرعة ٥٠٠ كيلو في الساعة إلى مدينة كوكيا تفيل في الكونغو . !

وهذه الفزورة لها حل : إننى ركبت عربة جيب في داخل طائرة تابعة للأمم المتحدة مرافقاً لقواتنا العربية التى ذهبت تحمى ثورة الشعب بزعامة لوموبا . . وكانت هذه السيارة محاطة بالقنابل والمدافع وشباب أسمر أقوى من القنابل والمدافع يحمى قضية الحرية في القارة السوداء . .

وارتفعت الطائرة وانخفضت درجة الحرارة في داخلها فقد كانت طائرة غير مكيفة . . وبدأت أرتجف من البرد وكأني عريان فوق جبال الهملايا . . أو كأني سقطت في ميناء سيدنى في عز الشتاء . وعادت الطائرة إلى مطار القاهرة لتصلح جهاز التكييف . ثم ارتفعت للطائرة وارتفعت درجة الحرارة وكدنا نختنق . . ولا أعرف إن كان الغرض من ارتفاع درجة الحرارة هو إتاحة الفرصة للمواد المسلبة لكي تنفجر وتنتهى هذه الرحلة ، وتتحول من مسافرين إلى شهداء من أجل السلام . .

ونزلت الطائرة إلى أرض القاهرة ، وتم إصلاح جهاز التكييف . وحمدنا الله . وعدت إلى مكاني أمام عجلة القيادة أميل بصدري عليها محاولاً أن أستريح أو أهرب من المسامير التى برزت في كل جانب من جوانب السيارة . .

وهبطت الطائرة في الخرطوم في الشتاء الدافئ . .

وعادت لتبسط مرة أخرى بين الأحراش في الكونغو (١) .

وبعد أيام رجعت إلى القاهرة . . فقد استغرقت هذه الرحلة ألوف الأميال وثلاثة

أيام . . وقد سجلت بذلك أطول وأقصر رحلة قتت بها في حياتي !

* * *

(١) اقرأ كتاب « بلاد الله . . خلق الله .. »

وسافرت إلى الكويت للمرة الثانية . . . ورأيت هذه الدولة النامية قد تغيرت معالمها بسرعة . . . وزحفت على الصحراء بيوتها الجميلة الأنيقة . . . ورأيت شيئاً أهم وأعظم من بيوتها الجميلة . . . رأيت شعب الكويت الذي اتسعت آفاق وعيه ومستقبلاته نحو الكويت ونحو الأمة العربية . . . ولّى في الكويت أصدقاء كثيرين . أدباء وشعراء وساسة . وكلهم ثروة لنا ، وطلبة للوعي العربي في شبه الجزيرة وفي الخليج العربي .
وتمنيت أن أولف كتاباً عن الكويت . وأرجو أن أتمكن من ذلك .

* * *

ووقعت أحداث في العالم ، غيرت معالم الخريطة . . .
وكنت أتمنى أن أجمعها . وسأفضل إذا ما اتبعت لي الفرصة بعد ذلك . . .
انطلق الرصاص على رئيس سيلان باندرانيكة . وظهرت بعده زوجته العظيمة في مكانة الشرف للمرأة الآسيوية . . .

وقتل الرئيس كيندى . . . وهو تلك الظاهرة الغربية في تاريخ أمريكا . فهو يرأس دولة رأسمالية بعقلية سلامية . قتلته يهودى بولندى وجاء يهودى آخر وقتل القاتل . . . وضاعت معالم الجريمة في وضوح النهار . ولكن المؤكد أن أمريكا خسرت شاباً عظيماً . والعالم كله أيضاً . وبكت عليه عيون في كل الدنيا . . . بكت شبابه وشجاعته وحبه للتعايش السلمى بين الشعوب . . .

ونهر مات . . . ذلك الرجل العظيم الذى كان أروع معالم الهند وآسيا . . .
والعقاد الذى ولد مع نهرو في نفس العام مات هو أيضاً . . . إنه أكبر المفكرين العرب ، وأوسعهم أفقاً وأعلامهم رأساً وأشدهم حرصاً على كرامة الفكر والإنسان . . .
ومات أجينالدى الزعيم الفلبينى . . . وهو يشبه الزعيم العربى أحمد عرابى باشا . . .
وغرقت جزيرة بالى الجميلة على أثر بركان عنيف . . . أصاح معالم الجزيرة . هدم معابدها وجبالها الساحرة . . . وهربت القروء المقدمة تحتفى في أشجار جوز الهند ، ولكن هذه الأشجار تحولت إلى قوود . . . وأصبحت الجزيرة شعلة من المساء !
وظهرت دولة جديدة هي ماليزيا تضم لطلايو وجزراً أجمرى قريبة من أندونيسيا . . .
وسنغافورة أصبحت دولة مستقلة .

وأصبحت لنا سفارة في أستراليا . تماماً كما كنت أحلم بذلك . هذه القارة الفنية السعيدة .

وحذفت من هذه الطبعة الثانية كلمة « جداً » . . . وإن كنت في كثير من الأحيان قد نسيت ذلك . . . فقد سجلت في الطبعة الأولى فرحتى بالعالم المولع الملون بالباهر البكر . . . واحتفظت بهذه الدهشة . . . وأبقيت نبرقى العالية . . . فن الصعب أن يندعش الإنسان ويصرخ بصوت منخفض . . . وليست علامات « التعجب » المنتشرة في كل الكتاب ، وليست كلمات « جداً » إلا دليلاً على أن دهشتى لم تنته . وحسامى لم يخمه . . .

فالذى رأى ما رأيت ، وسمع ما سمعت ، كيف لا يندش ؟ وكيف لا يفكر بمد هذه
الدهشة في معنى العجائب التي يراها !

فالدهشة هي بداية للعرفة الإنسانية .

فالإنسان يندش وبعد ذلك يتسائل . . وبعد أن يتسائل يفتش عن الإجابة . وقد
تساءلت كثيراً جداً ، وحاولت أن أجيب بقدر ما أستطيع .

وإذا كنت في الطبعة الأولى قد اندهشت وتساءلت ، ففي هذه الطبعة الثانية قد أجبت
كثيراً . وعلمت بنصيحة الأصقاء . فقد نصحتني بأن أعيد قراءة ما كتبت . وقد فعلت .
وأن أجعل الكتاب كلة حلقات مترابطة . وأن أحفظ لها بروح المرح والخفة وأن أضحى
وراء هذا المرح بعض المعلومات . وقد فعلت وأرجو أن أكون قد وفقت في ذلك .

وقد لاحظت - مثلاً - أنني كنت مهوراً جداً بالراديوهات الترانزستور في اليابان .
وكنت أتأمل هذا الجهاز العجيب بدهشة لا تنتهي . وقد أصبح هذا الراديو من صناعاتنا
الناهضة . وأصبح في متناول يد الأطفال والشباب في كل مكان . . فلم يعد شيئاً باهراً .

حتى صناعة التلويج اليابانية التي رأيتها وكتبت عنها لأول مرة في تاريخ الصحافة العربية ،
هي الأخرى أصبحت من المشروعات العلمية عندنا . فهناك محاولات جادة لزراعة التلويج
في مياه البحر الأحمر .

ولقد لهذا الكتاب جمهوراً متطشاً لمعرفة الدنيا ، وانتشر في كل مكان . وطلعت
طبعته الأولى بسرعة أدهشتني . وهابقت الدار التي نشرته . فهي حريصة على أن يبقى الكتاب
معروفاً في المكتبات وقتاً طويلاً . يسأل عنه الناس ، ويتحدثون عنه . . ولكن هذا الكتاب
فاجاً للجميع بأنه احتفى في حوالي ثلاثة شهور . . عشرة آلاف نسخة في مائة يوم !

وتلقت هذا الكتاب أجهزة الإعلام كلها .

الصحف تتحدث عنه . وأشارت إلى المتعة التي يلقاها كل قارئ . .

فليس أسهل من أن يلف القارئ الدنيا وهو جالس في مكانه .

والإذاعة تنقله على شكل سلاسل . .

ولفحرت أستاذنا الكبير محمد التاجي أن يصوره التليفزيون في حلقات . . ويحدث
ذلك قريباً . .

وبحث عن هذا الكتاب قراء من اليمن ومن غينيا وغانا والكونغو ووريتانيا . . ووجدت
نفسى مضطراً إلى أن أبحث عن نسخ من هذا الكتاب كنت قد أهديتها إلى أصحابي ؛
فسحبها وأنا حائر بين الألم والسعادة . .

ثم كانت هذه الطبعة الثانية التي أعترف بأنني أدخلت عليها تعديلات جوهرية وربما
كان من الأنسب أن أقول : إنني أعدت كتابة الطبعة الأولى . وأضفت إليها مئات الصفحات .
وبذلك يصبح هذا الكتاب متمماً ومفيداً في نفس الوقت .

وقد أقسم لي توفيق الحكيم بشرفه وأولاده بأنه اشترى نسخة من جيبه . . أي من فلوله !

ألا ترى أن هذا الكتاب له أحدث تغييراً جذرياً في فلسفة كاتب عظيم مثل
تولستوي الحكيم .

وأعترف بأن فناد الطلبة الأولى بهذه السرعة يشجعني ولا شك على أن أكتب رحلاتي
إلى أوروبا وإلى الشرق الأوسط فيها بعد . فقد سافرت إلى أوروبا ١٦ مرة . . رأيته وهي
منهارة . . على شكل صفيح أسود ، وطوب وطين وضخم . . ورماد على وجوه النساء ،
وفي لغز الأبطال وفي أفكار الرجال .

ورأيته وهي تطلعا في الليل ، وهي حية نظيفة أنيقة في النهار . .
ورأيت الشرق الأوسط . . رأيت العراق بعد ثورة الطاغية عبد الكريم قاسم . .
ورأيت الأردن وسوريا ولبنان . . وعندي ما أستطيع أن أقوله . . وقد وقعت أحداث ،
وظهر واختفى أشخاص . . وشاعت آراء ومواقف .

لعلني قد أسرفت في وعدي . ولكن القارئ مسئول عن هذا الإسراف ، فهو الذي
شجني . وأنا أستمد من تشجيع القارئ شجاعتي ومتعني وأمل في الحياة . .

وأنا في كل مرة أفكر في رحلتي الطويلة جداً هذه . . أتذكر القصة التي يرويها
الكاتب الأمريكي جيمس متشر ، الذي ألف أروع قصة عن جزر هاواي . فهو يقول :
إنه في كل مرة يسأله الناس عن سبب ذهابه إلى جزر هاواي مرة أخرى يقف على لسانه
سؤال آخر يوجهه إلى نفس الشخص الذي يسأله : ولماذا أنت في جزر هاواي ؟

ولكن حياته يمنعه من توجيه هذا السؤال . . أو رده أو صده . . كأنه كرة ارتطمت
بالحائط . .

وأصبح من عادة متشر كلما سأله إنسان عن سبب وجوده في هذه الأماكن النائية
أن يقول : يا سيدي حدث أنني عندما ذهبت إلى جزر هاواي لأول مرة . . أحببت فتاة
حلوة . . سمراء وبقية صوتها حريير . . وشعرها حريير أبيض . . والحياة معها حريير . .
ومقارب الساعة كانت أيضاً من الحريير . . إننا لا نشعر بالزمن . . وقررت في يوم من
الأيام أن أتزوجها وذهبت لأشترى لها من أحد محلات المجوهرات هدية على شكل قلب
ذهبي ، وبينما أنا عائد إلى الفندق هاجمني بعض اللصوص وضربوني وسرقوا المحفظة .
ولا أدري بالضبط ماذا حدث بعد ذلك . لقد فقدت وعي . . وفقدت ذاكرتي أيضاً ! .
وعندما أفتقت وجدت سلسلة من الذهب ملفوفة حول عنق ويتدل منها قلب ذهبي . ولم
أستطع أن أعرف ما معنى وجود هذه السلسلة . فأنا لم أعد أتذكر شيئاً بالمرّة وسافرت
بعد ذلك إلى الهند . . وعلى سفوح جبال الهند . . كنت أتفرج على بعض الطيور وبعض
الناس المساكن الذين يرحفون على الأرض في قناعات وسعادة تامة . وبهرتني هذه القناعات
وأخذتني هذه السعادة . وسقطت على الأرض . لا أعرف كيف سقطت . . ربما كان
السبب هو أنني ضمنت بعض الشيء على أحد الأحجار . . وشكراً لهذه الأحجار الكريمة . .
فحينما سقطت على الأرض ارتطم رأسي بحجرة أخرى أكثر كرماء من الأولى . . وفي هذه
الحظة استعدت ذاكرتي . . وقد كرت بوضوح شديد جداً هذه القصة . فقررت السفر إلى

جزر هاواى لألحق بحبيبة القلب التى حرمى منها الصوص . . وسافرت إلى هاواى وأسأت
عن الحبيبة . . ووجدتها أما لعشرة أطفال ولد زاد وزنها فأصبح حول مائة كيلو . .
ولاحظت أن الذراع التى كنت أستند عليها وأنا أمشى إلى جوارها قد أصبحت مليئة بالعضلات .
ولما عرفت أن زوجها يعمل حداذاً علرتها وتمنيت له مزيداً من الأطفال وتمنيت لها
مزيداً من العضلات وتمنيت لنفسى مزيداً من القمص لكى أرد بها عل السؤال الذى يتكرر
دائماً : ولماذا أنت فى جزر هاواى ؟

وهذه القصة ابتكرها متشتر مفسراً بها سبب وجوده فى هاواى - مع أن الإنسان
ليس فى حاجة إلى أسباب خارقة ليكون فى مكان ما . . فى أى مكان . إن أهل هاواى
أنفسهم لم تخلقهم معجزة وإنما جاؤا وتكاثروا ولا يزالون هناك . . .

أما السبب الحقيقى الذى جعل الكاتب الأمريكى يسافر إلى هاواى فهو أنه كان
ضابطاً فى البحرية . سبب بسيط جداً . ولكنه ليس جميلاً .

وأنا شخصياً أحب القصة التى ابتكرها وأفضلها على السبب الحقيقى الذى ليس جميلاً
ولا ممتعاً !

وأتمنى أن يسألنى الناس هذا السؤال ، وأتمنى أكثر أن يسطنى خيالى بقصة جميلة
لسبب وجودى فى كل هذه البلاد التى ستقرأ عنها فى هذا الكتاب . .

* * *

أما الذى كسبته من هذه الرحلة المرهقة التى تركت علامات عميقة فى نفسى . فالجنواب
عل ذلك جاء فى آخر صفحة من قصة الكاتب الفرنسى « جيل فرن » التى ظهرت على الشاشة
وعنوانها : « حول العالم فى ٨٠ يوماً » . . فى الصفحة الأخيرة يسأل الخادم بطل هذه
القصة واسمه فيلياس فوج : ما الذى كسبته من هذه الرحلة ؟ أنت تراهن على مبلغ
عشرين ألف جنيه . ولكنك أنفقت ١٩ ألف جنيه . . والألف البالية أعطيتنى إياها ؟
والذى لا يعرفه هذا الخادم هو أن الرحلة نفسها ممتعة ومشيئة ومفيدة . . .

وأن المكسب هو المشوار . . هو الشوق والحنين . . وانتظار الناس حول لكى أتبول
لهم ما رأيت وكيف رأيت . .

ولو طلبت منى أيها القارئ أن أتق قلمى الآن وأدور حول العالم من جديد ،
نفس الطريق ، ونفس الأمراض ، ونفس المخاوف ، فإننى لن أتردد . . فليس فى الدنيا
أروع من السفر وذكريات السفر ، وليس أروع من أن يستمتع بقولتها بعد ذلك كل
الذين لم يسافروا ، وكل الذين يحملون ببلاد بعيدة جديدة !

أنيس منصور

القاهرة فى أغسطس ١٩٦٤

مقدمة الطبعة الثالثة

بقلم الدكتور طه حسين

هذا كتاب يمنح حقاً تفروقه فلا تتفحص مصطك بل تزيد كلما تقدمت في قراءته . ومع أنه من الكتب الطوال جداً ليزته الكبرى هي أنك حين تقرأه لا تحتاج إلى راحة وإنما تود لو تستطيع أن تمضي فيه حتى تبلغ آخره في مجلس واحد ، لأنك تجد فيه المصحة والراحة والسلى وإرضاء حاجتك إلى الاستطلاع .

ومن المحقق أن هذه الرحلة الرائعة يمكن أن تقرن إلى الرحلات العربية القديمة .

ومن يدري لعل أن تمتاز منها ببعض الخصال ، فصاحب الكتاب حلو الروح عفيف الظل بعيد أشد البعد عن التكلف والتزويد والإدلال بما يصل إليه من الغرائب التي يسجلها في كتابه .

وإنما هو يمهى في الكتابة مع اليسر والإسراع ، مرسلًا نفسه على مجيئها ، مطلقاً لقلبه الحرية في الجدل والمزحل وفيما يشق وما يسهل ، لا يتكلف الفصحي ولا يعتمد العامة . وإنما كتابه مزيج معتدل منسجم من اللهجين . . وهو لا يقصد إلى أن يبهرك ولا إلى أن يقرب عليك في لفظ أو معنى وإنما يستجيب لطبعه ويظفر بإرضاء الطباع السمحة التي تكره التكلف والتحذلق والإسفاف .

وقد أخذت في قراءته ذات يوم فكان أشد ما أصيب به العوارض التي تعرض فصرك عما أنت فيه على كرهك لهذا والفصيح به . والإحساس الذي لا يفارئك أثناء القراءة هو أنك مع الكاتب تشهد ما يشهد ، وتسمع ما يسمع وتجد ما يجد من ألم أو لذة ومن سخط أو رضى ، تسافر معه وتقيم حين يقيم مع أنك لا تبرح مكانك . وإنما هي براعة الكاتب وإسماحه يستأثران بك ويخيّلان إليك أنك تلمزه في حركته وسكونه كأنك ظل له لا تغارقه وأشهد بأنى وجدت هذا الشعور منذ أخذت في قراءة الكتاب إلى أن فرغت منه .

وما أرى إلا أني سأعيد قراءة فصول كثيرة منه وهذا أقصى ما يتمنى رحالة أن يبلغ من نفوس قرائه .

ومع أن الكاتب يسمي كتابه « حول العالم في ٢٠٠ يوم » فهو قد طوف فأكثر التطواف ووصف فأحسن الوصف ، فهو لم يزر العالم كله ، وإنما زار الأجزاء البعيدة منه في الشرق الأقصى وفي أمريكا .

وما زالت هناك بلاد كثيرة لم يلم بها ولم يتحدث عنها ، فهو لم يزر من الصين إلا هونج كونج ، ومن يدرى ماذا كان يقول لنا لو أنه زار الصين وبلاداً أخرى كثيرة في آسيا كآسيا الوسطى الروسية وكإيران وقرقيا وجزيرة العرب .
ولا أذكر للعالم العربي في آسيا فأكثر الناس يعرفون عنه الكثير .

وما زالت أمامه أجزاء خطيرة من العالم يجب أن تضاف إلى الصين وإلى الأجزاء الآسيوية الأخرى التي لم يزرها . وهو قد زار بعض البلاد الأوروبية ، ولكنه لم يزرها زيارة الرحالة .. كما أنه فيما أعلم لم يزر بلاداً كثيرة في أوربا . ولم يزر روسيا الأوروبية ولم يزر البلقان . وتبقى بعد هذا كله قارة كاملة تدعوه إلى زيارتها في إلحاح وهي القارة الإفريقية على اختلاف أقطارها .

لست أقول هذا نافذاً له وإنما أقوله متمنياً عليه زيارة هذه البلاد كلها ووصفها كما وصف البلاد التي زارها مهما يكلفه ذلك من مشقة في السفر والإقامة والكتابة بعد ذلك . وما دام قد بدأ فأحسن البدء فيجب عليه أن يتم ما بدأه فيزيد في إمتاع قرائه ، ثم هو لا يتمتع قراء هذا الجيل وحده وإنما يتمتع أجيالاً أخرى كثيرة كما استمتعت أجيال كثيرة برحلات العرب وبكثير من رحلات الأوروبيين .

ومن المحقق أن الذين سبقوه من أصحاب الرحلات لم يزوروا الأرض كلها ولم يصفوها ، وإنما اكتفوا بما زاروا من بعض الأقطار . ولكن الأستاذ الكاتب يستطيع أن يصدق بيت أبي العلاء :

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطع الأوائل

فأبو العلاء لم يغفل في هذا البيت لأنه أتى في شعره وفي بعض نثره بكثير مما لم يسبقه العرب إليه . ولم يلحقوه فيه إلى الآن . فما يمنع كاتبنا من أن يأتي في الرحلات بما لم يستطعه من سبقه من الرحالين . ولعله آخذ في بعض ذلك فيما يأتي من الزمان .
وليس من شك في أنه قد أتى في رحلته هذه بما لم يسبقه إليه أحد من معاصريه . وأنا أكره له أن يصدق عليه بيت المتنبي :

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على الكمال

وليه والحمد لله قدرة على الأسفار واحتمال للمشقات وقد منحه الله من الشباب والقوة وحسن الصبر والاحتمال ما يمكنه من ذلك إن أراد . وأنا أرجو أن يعينه الله على ما قد يحاول من ذلك ، ولا أحسن عليه أن يشوق كل الشوق إلى أن أقرأ وصفه لأفريقيا . وليكن ذلك في جزء أو جزئين . وهو قد أثبت بكتابه هذا أن الله قد يسره للطواف في أقطار الأرض ووصف ما يزوره منها كأحسن وأمتع ما يكون الوصف . وما أظن أن « أخبار اليوم » تحول بينه وبين ما يسره الله له . فليعزم وليتوكل على الله ، وأنا أهنته بكتابه هذا وأتمنى له النجاح والتوفيق حتى يبلغ من إتمامه ما نحب .

طه حسين

القاهرة في أغسطس ١٩٦٦

مقدمة الطبعة التاسعة

بقلم: محمود تيمور

التزمت أخيراً في سلسلة الصور الوصفية التي أعالج بها رسم شخصيات الأدباء والمفكرين المعاصرين لي ، أن أجمع في كل حلقة بين اثنين من هذه الشخصيات ، صاحبهما تتسع بينهما دائرة المشابهات ، أو على العكس من ذلك تتسع بينهما دائرة الفروق . فلما أسكت بالقلم لأصور صديقنا الأستاذ « أنيس منصور » ، حاولت جاهداً أن أجد له شبيهاً ، فلم يقم لي الشبيه ، وحاولت كذلك ماوسعتي المحاولة أن أجد له نقيضاً ، فزعل أن أوفق إلى النقيض ، فقد رأيتني أمام امرئ ليس من السهل اكتناه أمره ، واجتلاء سره .

نظرت إليه على أنه من الملاحكة ، فلم تنكشف لي شخصيته بهذا الاعتبار ، وعدته من زمرة الشياطين ، فاستبان لي ألقى ظلام له ، ذلك لأنه في الحق مزاج طريف نادر من الملاحكية الطاهرة ، والشيطانية المأكرة . .

استحاج من المتناقضات ترمي لك في هذه الشخصية العظيمة ، فإلا أنا أفرقت صاحبها بالحديث ، دون أن أفرقه بنصه ، فثلاثة هو نفسه - في الحق - ذو شخصيتين أو أكثر من اثنتين !

يتحدث إليك ، فلا تصوم : أجهول أم يجده ؟ ويهرس عليك القولي ، فتحار فيه :
أبصالح أم يداور ؟

انه لغز عصى . . . ولأن هذا اللغز ليتبلور في نقطة واحدة ، هي : ابتسامته . . . تلك الابتسامة التي تجمع في تضاعفها معالم شخصيته . . . وما أشبهها يجنين في بطن أمه خلال الأشهر الأولى من تحلقه ، فهو على الرغم من صفر حبه ، ودقة تكوينه ، يحوى كل العناصر التي يتشكل منها الإنسان المستقبل .

أنت تواجه هذه الابتسامة ، كما تواجه « ابتسامة الجيوكوندا » . . . مبهوتا حيران ، لا تملك لها تحليلاً ولا تعليلاً . . . هل هي ابتسامة كاملة الشكل ، ناصعة المعنى ؟ هل هي ظل ابتسامة لا تظهر من الحقيقة إلا الأبعاد التي يظهرها الظل ، لا تكشف سترها ، ولا تعطي خبراً ؟ هل هي شروع في ابتسامة لا تعرف ما وراها ؟ هل هي عاتمة ابتسامة ، فاتك أن تتابع مراحلها ، لتستبين مرامها ؟ ما لونها ؟ ابتسامة ترحيب هي ؟ أم ابتسامة

استهزاء؟ أم ابتسامة للامبالاة؟ أتريها تقل على واحدة من هذه الدلالات، أم هي
تجوى كل هذه للدلالات مجتمعة في وقت واحد؟

مهما تقل للقول في الصليل والصليل، فليس ثمة إلا حقيقة واحدة: إن ابتسامة
« أنيس منصور » هي « أنيس منصور » نفسه - هي هو - أو قل: هو هي، لا انفصال
بينهما ولا اختلاف.

سر « أنيس منصور » يكن خلف ابتسامته، فإذا قطعت إلى طواياها بدا لك الرجل
بكل ما فيه.

ربما دار بينك وبينه نقاش، وقرقران على رد، ولا تكاد تخطو خطواتك، تاركاً
إياه، مسعياً حديثه إليك، حتى يصاعد الدم إلى وجهك، إذ يفيم الجو من حولك
بأصداء هذا الحديث، وإذا أنت تقول لنفسك: شد ما هزأ بي الرجل، وشد ما نال
مني!.. وسرعان ما تقصده مهتاج الخاطر، لتحب عليه، كي يحضر إليك، فيلايك
رابط الجأش، ساكن النفس، وتحول ما استطعت أن تسعيد من ألفاظه ما يعينك على
مؤاعفته، فلا تظفر بما أردت، وتراجع عن مطلبك، وكأنك أنت المحتضر إليه عن
تسرعك، إذ تلوح لك في ذلك الوقت « ابتسامة الجيوكتندا » على وجهه.. حتم أنه هزأ
بك، ونال منك.. وحتم أيضاً أنه لم يفعل ذلك قط.. ولا غرابة في أن يجمع هذان
التقيضان في ابتسامة صديقتنا « أنيس منصور »!

تقدم له مقالك ليجيز نشره، فيقرؤه في ترحاب، ثم يقول لك: مقال هائل!
ويشير لوله فيك نوازع للشك واليقين في آن واحد، فلا تلمى: أمقالك هائل في الجودة
أم هائل في السخف؟ وتتوارد على سمعك جملة الهائلة، فيعتربك من هوها دوار!

إذ قرأت له مقالا في تقدير شخص أو تقييم كتاب، وجدت نفسك في متاهة،
تسائل نفسك: أمدح هذا الناقد أم قادح؟ وتجهد عقلك عبثاً في سبيل الوصول إلى خط
فاصل: هل المقال يرفع للشخص أو للكتاب إلى الأوج؟ أو هو يخسف به الأرض؟
ولو كنت ممن وهبهم الله تلك الحاسة السادسة التي هي لون من ألوان البصيرة النيرة، أو
الحس الكاشف، لو وجدت نفسك من عباراته المتلونة أمام جهاز كهربي لاكبر قوة
معتلة لا يلبث أن يتصدى لحاستك السادسة، فيلق عليها بضع إشعاعات، كإذا هي ترفع
راية التسليم!

يطالعك الفصل الذي يكتبه في أدب أو فن أو ضرب من ضروب المعرفة، فتفرغ
من مطالعته وقد طاب لك أن تراجع نفسك فيها وعيت: هل كسبت جديداً؟ هل أفدت
شيئاً؟ ولا يلبث أن يلهيك عن الجواب شعورك بأن وجدانك عامر بما أصبت من المنفعة،
حافل بما غمرك من البهجة، وفي دغيلتك تطلع إلى المزيد.

اجمع الظن أن « أنيس منصور » يحريج الدراسات الفلسفية الجامعية قد استفاد
منها أنه أتق بمذاهبها ونظرياتها وأعلامها جانباً، ولم يأبه لها جميعاً، ولم شتاته،

متجها إلى يتابع الحياة الفياضة ، فكانت فلسفته إزاحها أن يرتوى بها ، ويروى منها قراءه
الأجزاء . . فلقد ربا بنفسه أن يكون معلم فلسفات ، وعارض نظريات ، ومحلل مشكلات ،
وأبى على نفسه الا أن يكون صانع مسرات . . انه « مخرج » لأفلام المباحج الفكرية ،
فعمله يحمل من اسمه الأنيس أكبر نصيب .

من الدارسين من يجعلون قراءتهم الدراسية كزهم الثمين ، ويرجعهم الوثيق ، ولكن
« أنيس منصور » جعل كل ما قرأه في دراسته الفلسفية الجامعية نقطة بدء وانطلاق . .
فضى يخلق في مطالعته ، لا يقتنع بنوع ، ولا يقف عند حد ، يصوب ويصعد ، قارة
يفرغ إلى أعماق « أرسطو » ، وطورا يعكف على « دلائل الخيرات » ، ولا ينسى نصيبه
حيناً من قصص تباريح الهوى والشباب ، يقرأ المعرفة واللامعقول ، ويخوض في المعقول
واللامعقول ، يعضى في ذلك مدفوعاً بالزعة العارمة إلى تعرف المجهول في كل جانب من
فكر أو أدب أو فن . .

إن « أنيس منصور » من « فوارض » الكتب والمجلات والنشرات ، وكل ما خطه قلم
على ورق . . يقرأ لك المائتين من الصحائف ، ويحسن هضم ما قرأ ، ثم يعرض عليك
خلاصاتها في سياق رائع . . وهو مرهف النوق في الاختيار والعرض ، لا ينتق لك الا ما يشغل
ذهنك ، ويملا سمعك ، من موضوعات الساعة وفضايا العصر ، فإذا عرض لك الماضي
ربط بينه وبين الحاضر ، ونق عنه جفافه ووحشته ، وأدنى اليك قطوفاً من أطايب الثقافة
والفكر في القديم والحديث .

ذلك كله ، جعل من « أنيس منصور » كاتباً صحفياً ، أصيل الثقافة ، رفيع الطراز ،
تتم فصوله وتعليقاته بالطابع الموسوعي الذي يقفك على أكثر من جانب ويدور بك في
أكثر من زاوية ، ولا يدعك الا ملماً بأشتات الموضوع الذي يعرضه عليك . . .
« لأنيس منصور » أسلوبه الذاق ، وهو أسلوب تتضح به شخصيته ، وأكبر عناصره
تلك الجاذبية التي تجعل قارئه يحرص على أن يتابعه على تواصل الأيام . . . كأنه يتابع رسالة
موصولة الحلقات ، أو لكانه يوالى الاستماع لقصص « ألف ليلة وليلة » التي لم يمل « شهر يار »
الاستماع إليها في لياليه الطوال . . .

والجاذبية في أسلوب « أنيس منصور » ترينك على أن تدور معه حيث يدور بقلمه
فيما يتناول من الموضوعات ، وهو فيها يوماً من « الأحرار » ويوماً من « المحافظين » ،
ويوماً من « العمال » ، وأنت في جميع أحواله يمدوك بطرافة عرضه ورشاقة تصويره على أن
تقرأ له ، وتقتنع بما يقتنع به ، ولا تخرج آخر الأمر ، الا وأنت راض عن نفسك وعنه ،
مطمئن إلى مولفك منه ، وإن لم تكن تدرى عن أى شئ رضىت ، وفي أن موقفك استقر
بك المقام .

مفتاح الطابع الشخصي لكتابات « أنيس منصور » هو : « المفارقات » . . لا يكاد
يخلو منها مقال أو حديث له ، بل إنها هي القالب التقليدى للكلمات اللادعة أو الباسمة
التي يذبل بها أحاديثه ، ويجريها مجرى الحكم والأمثال . . وهو في هذا الطابع شبيه

« أوسكار وايلد » ولابد أنه أعجب به في هذه الناحية ، ووافقت منه هوى ... وليس من شك في أن « المفارقات » عنصر غلاب ، وسلاح نفاذ ، إذ هي تقوم على أساس المفاجأة والإثارة ، وتنطوي على التهمك والسخرية والمفاكهة ، وفي هذا ما يشد الانتباه ، ويجز المشاعر ... وذلك ماجعل « أنيس منصور » مفتونا باتخاذ هذا العنصر الغلاب ، والسلاح النفاذ .

أما لغة « أنيس منصور » فهي جانب آخر من ابتسامته « الجيوكندية » . . حينما يطالعك بالفصيح من التعبير ، فيبهرك بما يتخير من اللفظ ، وطورا يعتمد متطرفا اتخاذ كلمات علمية متطرفة ، على حين أن مقابلاتها العربية لا تعزب عنه ، ولا تستصعب عليه ... مرة تأخذ « الجلالة » اللغوية ، فيستمسك باستعمال كلمة « اللسات » للتعبير عما يقال له « الرتوش » ، وحينما تنجح به نزعة اللامبالاة ، فيجربى قلمه بكلمة « صرمان » بدلا من كلمة « الاسكاف » .

و « أنيس منصور » مؤلف كثير الإعجاب . . ولقد يتعذر على القارئ أن يلاحق كنه التي يوالى إصدارها ... وهو شغوف بانتخاب أسماء لكتبه تروك بطرافتها ، فهو صاحب كتاب « ساعات بلا عقارب » ، وكتاب « وداعا أيهل الملل » وغيرهما من الكتب التي تحمل لطائف الأسهل .

ولا ريب في أن كتابه « حول العلم في مائتي يوم » من خير ما أنتج . . ولعل إشارتي له يرجع إلى شغفي بالرحلات وكتب الرحلات ، حتى أني أقحمت نفسي في هذا الميدان ، بما كتبه في وصف بعض السفرات التي قمت بها فيما وراء البحار . .

وكتب الرحلات المتأخر لا بد أن تتوافر له المعنية الملاحظة ، ورهافة الضمطة ، وسرعة الاقتطاط والقفرة على استنباط الملامح والمعلم ، وبخاصة ما يدق منها على النظرة العابرة ، وما يتصل منها بالمداد واللسوك والأوضاع الاجتماعية التي لا تخلو من غرابة . . . وكل هذه الموهلات تستجيب للاختلا « أنيس منصور » وهو يضرب بصناه الأرض ، ويضع نظراته هنا وهناك ، فتضرق الزوايا والخبايا . . .

وفي هذا الكتاب تجل روح الظرف والمناومة ، وفيه أوصاف شائقة للمشاهدات والاطباعات في أسلوب كبير التوايل .

ول مع ذلك الكتاب قصة :

لثريته ، واستعظمت حجمه ، فتهيئت أن أشرع في قراءته ، كما استعظمت من قبل « الإلياذة » و « الأوديسة » ، صبيبا أن أمضى في قراءتهما بادئ يده . وتركت كتاب « أنيس منصور » على مكتبي أحالسه النظر بين يوم ويوم ، لا أمد إليه يدأ . . . رحلة طويلة عريضة استغرقت مائتين من الأيام ، وأكثر من ستمائة صفحة من القطع الكبير . . . وساعة وجدتي أمل بعض صحائفه ، والنظر فيما حوت من صور ، وبغنة ألفتني كأنما تهبط بي طائرة حوامة « هيلوكبتر » في قلب « هنج كونج » . . .

وسرعان ما طوتني زحمة الناس في أسوالها وطرفاتها ، أتطلع إلى مبانيها الشواهد

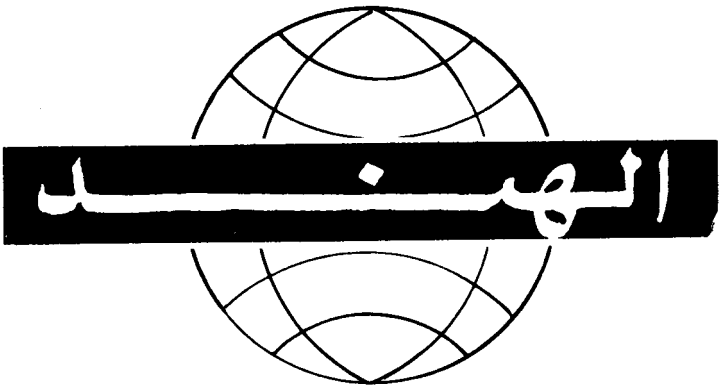
وأجوب درويها الملأى بفرائب السلع ، ثم أعطف على نوادها الليلية ذات الطابع البراق ...
وولمت عيني على هذه الفقرة :

« الصفي رجل متفوق في عمله ، يفكر بيديه ، ويتفلسف بمعدته ، لذلك الأدب
هزيل عنده . . . والموسيقى تدل على براعة الصينيين في شيء واحد ، هو أنهم استطاعوا
أن يجبسوا عشرات القطط والفيران في آلاتهم الموسيقية . فالبيانو صراع دائم بين دجاجة
وراحها عشرات من الكتاكيت الصغيرة ، ضد عرمة كاسرة . . . أما القيثارة فهي تشبه
أنفى قد تكومت على صدر أحد الحواة تنتظر عصفاً وأطلقه أحد المتخرجين . . . أما
بقية الأصوات الموسيقية فهي تشبه ضرب الحلل بالملاعق . . . ثم ضرب المستمعين بالجزم ..»
ومضيت أقرأ . . . واندججت في القراءة . . . وكل جارحة في جسدى تبتسم !

وأقبلت على « اليابان » . . . وأنست بينات « الجيشا » . . . وهبطت « أمريكا »
وزرت « هوليوود » . . . وتركت مدينة السينا والهوى والشباب . . . ونسيت نفسى ،
حتى أيقظتنى الصفحة الأخيرة من الكتاب ، فإذا بي لم أقرأ إلا شطر الكتاب الثانى ،
فعدت إلى الشطر الآخر من أول صفحة ، لاستكمل قراءة الرحلة .

ولقد أعادت رحلة « أنيس منصور » إلى ذاكرتى كتاب « جول فرن » المسمى :
« الطواف حول الأرض في ثمانين يوماً » . . . والشئ الباعث على الحيرة هنا هو : « كيف
استطاع « جول فرن » إتمام طوافه في هذه المدة القصيرة ، وهو يتخذ وسائل المواصلات
القديمة ، من بواخر بدائية ، إلى فيلة بطيئة الخطا ، إلى نعال غليظة تعوق السير - على
حين استنفذت رحلة « أنيس منصور » أكثر من ضعف هذه المدة ، وهو الذى كان
لا يترك في تنقلاته طائرة إلا ليستقل أخرى ؟ . . . إن هذا حقاً لغز ، وما أحسب أن
حله بالأمر اليسير !

ليس كتاب « أنيس منصور » المحتوى على رحلته هو كل ما كتب من هذا اللون
فالحق أن فصوله ومقالاته ليست إلا رحلات متواصلة . سواء أكانت في آفاق الأرض
المحدودة ، أم كانت في العوالم الفكرية التى ليس لها من حدود . . .



● كل شيء ركبتي!

بعد لحظات في مدينة بومباي ستشعر بأنك لست غريباً . . ولا أحد غريب عنك وإذا حاولت أن تتجه إلى أى إنسان ، فقد لا يتجه إليك . احتراماً لحريتك الشخصية في الحركة ، وفي اختيار أى اتجاه يعجبك . وفي نفس الوقت من الممكن أن يتجه ناحيتك أى إنسان عن غير قصد . فتظن أن عدم القصد في الحركة والاتجاهات هي ظاهرة عامة . ولكن من المؤكد أن أحداً لا يصطدم بأحد . . على نحو ما يحدث عندنا في جميع شوارع القاهرة .

في القاهرة في استطاعتك أن تجد شللاً من الناس يمشون بالعرض وعلى مهل ، كأن الشارع خال تماماً . وكأنهم وحدهم المشاة . ويدهشهم جداً أن يقوم واحد مثلك بتنبية الناس إلى أن هذا شارع عمومي . والدهشة التي سترها على وجوههم ليس معناها أنك نبهتهم إلى حقيقة لم يكونوا يعرفونها . وإنما نبهتهم إلى أنك قليل الذوق فقط !

وفي الهند في استطاعتك أن تستغنى عن أذنك . فكل الذي تسمعه لا معنى له . فهم يتكلمون لغات كثيرة ولهجات كثيرة جداً . حتى اللغة الإنجليزية وهي إحدى اللغات الرسمية في الهند ، لهم طريقة خاصة في نطقها . وعلى الرغم من أنهم يتكلمون الإنجليزية بشكل سليم ، من الناحية النحوية ، فإن اللهجة الهندية تجعلها لغة أخرى ويضعب عليك فهمها في كثير من الأحيان .

أنا شخصياً حاولت ذلك في الدقائق الأولى . .

وكانت النتيجة أنني أدركت أن معرفتي بالإنجليزية أحسن بكثير جداً

من ملايين الهنود . وبينى وبينك أنا زدتها شوية . . لأن هناك هنوداً بالملايين
قد تعلموا في إنجلترا !

ومعنى ذلك أنك من حين إلى حين ستعتمد على أذنك في التفاهم بهذه
اللغة الإنجليزية . .

ولكن ستعتمد على عينيك أكثر . . .

فأنت ستملاً عينيك بأشكال وألوان لم تكن تحظر لك على بال . . فالوجوه
غريبة جداً . . وستلمح على الأقل في أى جهة تتجه إليها ، عشرين شخصاً فيهم
شبه كبير جداً من المهاتما غاندى . . وفي أول لحظة قد تتصور أن هؤلاء الناس
أقارب لغاندى . وبعد ذلك ستفهم أنه ليس من الضروري أن يكون الأقارب
متشابهين إلى هذه الدرجة . . ثم ستدرك بوضوح أنك في الهند . . بلاد الديانات
والخرافات والملايين والأمراض والفقر والزهد والتسامح وغاندى والمعازر والبقرة
والمغزل وشركة إيرلندا !

* * *

مطار مدينة بومباى غريب من أول نظرة . .

فهو مطار كبير . . والجو قاتم أو خائق . . فهو قاتم بالوجوه الكثيرة التى
ازدحمت في كل مكان والتي تنظر إليك دون أن تركز عليك . فليست الوجه
الذى يستأهل الفرجة . فهناك ألوف غيرك قد نزلوا من الطائرات قبلك ومعك
ومسيزلون بعدك .

أذكر أنى عندما نزلت من الطائرة وجدت سيدة تبسّم . . ملاحظها بيضاء
وملابسها بيضاء أيضاً . ولا أعرف إن كانت هذه وردة التى رأيتها في شعرها أو بقعة
حبر أحمر فاقع . . ولكن من المؤكد أن ابتسامتها شخصية جداً . . أى موجهة
ناحيتى . . وظننت ، وربما كان هذا وهماً أو غروراً منى ، أنها إحدى سيدات
السفارة . موظفة . . سكرتيرة . . زوجة أحد الموظفين الهنود جاءت لاستقبالى . .
ولاحظت أن ابتسامتها مليئة بالوعود : وعد بأن تجد لى لوكاندة مريحة . وعد بأن
تقدم لى فنجاناً من الشاي الهندى الذى على أصله . . وعد بأن أركب في سيارتها
وأرى المدينة كلها في ساعات . . وعد بأن أجد لديها عدداً من الكتب التى

تعطيني فكرة شاملة سريعة عن هذه البلاد الواسعة . . . وعد بأن تركز نظرتها على عيني أكثر ، وترركز ابتسامتها على ابتسامتي أكثر فأكثر . . .

وخجلت من نفسي . . . فقد كانت هذه السيدة لا تنظر إلى أحد . . . وإنما تنظر في كل هذا الاتجاه . . . ولا تبسّم لأحد ، وإنما تبسّم للمطار كله . . . وللطائرات كلها . . . وللسماء الواسعة . . . كانت ابتسامتها لله . . .

فقد كانت عمياء !

وكأنني أكفر عن هذه الخطيئة ، خطيئة النظر إلى سيدة عمياء ، تصورت أن ابتسامتها من أجلى ، ونظراتها من أجلى ، وأنها جاءت من أجلى ، رحت أنظر إلى الناس نظرة عامة . . . وأبتسم لهم ابتسامة عامة . . . كأنني أتفادى النظر إليهم ، وأتفادى الابتسامة إلى واحد منهم .

وفي الزحام ، وكل شيء هنا في زحام ، ضاعت ابتسامتي وضاعت نظراتي . . . ورحت أتمدّد على أجساد الناس بعيني ، حتى لا أقع في دوامة الألوان . . . ودوامة الروائح الغريبة . . .

إن أول شيء يواجهك وأنت نازل إلى بلاد الهند ، هي هذه الروائح . . . إنها بحر آخر بالإضافة إلى بحر المطر . . . وبالإضافة إلى بحر الرطوبة ، وبالإضافة إلى بحر الناس . . .

هذه الروائح لا تعجبك أبداً . . .

لقد وهبني الله - الذي لا يحمد على مكروه سواه - حاسة شم غير عادية . . . فأنا أتعذب بها . لأنني أستطيع أن أشم روائح أشياء كثيرة لا يمكن أن تهتدى إليها الأنف العادية . وكثيراً ما توهمت روائح لا وجود لها . . . تماماً كما يحلم الإنسان وهو مفتوح العينين . . . فأنتي هو الآخر عنده أحلام يقظة !

ولكن في الهند لم أعرف بالضبط ما اسم هذه الروائح : هل هي أطعمة أو بخور أو جثث موتى أو عرق . . . وطين ومطر وأنواع أخرى من الطين لم أعرفها ، ومن الرمل لم نسمع عنها . . .

وعرفت بعد ذلك أنه يوجد في بومباي أعشاب وأطعمة وأبخرة تتصاعد من الأرض . . . ومن الحقول ومن البيوت والدكاكين ، ومن الأجسام الحية والأجسام

الميتة التي تحرم بعض الديانات الهندية دفنها ، وإنما تركها للصفور والنسور
تمزقها وتأكلها وتطير بها . . أو تطير ببقاياها . . أو من الأجسام التي أحرقتها
أهلها بالزيت والدهن .

أما الرطوبة الموجودة في الجوف فهي عبارة عن ملايين من الستائر الدقيقة .
أو ملايين الملايين من الخيوط الرقيقة التي تتعلق عليها هذه الروائح كأنها ملايين
الملايين من الذباب والبعوض !

وعندما اقتراب مني الجرسون طلبت إليه أن يحقق لي هذه الأمنية الغالية :
كوباً من الشاي !

ويبدو أن كوب الشاي ليس أمنية ولا شيئاً غالياً عند أحد من الناس
في الهند . ونعل لهجتي هذه قد أضحكته – إن كانت ترجمتي صحيحة لهذه
الابتسامة المعكوسة على وجهه – فقد كان يتسم من جاجبيه حتى شفته العليا
وربما كانت هذه ابتسامة . . وربما كانت محاولة لعدم الاكتئاب . .

وطبيعي جداً ألا يكون كوب الشاي شيئاً كبيراً في بلاد الشاي . . تماماً
كما يطلب سائح أجنبي طبق فول ودمس في مصر ، ثم يتوقع من الجرسون أن
ينحني له لإجلالا وإكباراً لأنه كلفه بشيء نادر !

فول في مصر ، وشاي في الهند ، وسمك في اليابان ، ونبيد في إيطاليا ،
ولحمة في أستراليا ، وأرز في أندونيسيا ، ليس بالشئ الهام !

وتذكرت ما فعلته في إحدى المرات عندما كنت أزور ألمانيا لأول مرة من
حوالي عشر سنوات . فقد طلبت من إحدى الجرسونات في مدينة ميونخ أن تأتي
لي بقطعة من اللحم المشوى – فضحكت الفتاة بصوت مسموع وضحكت أنا
أيضاً ، ولكن لسبب آخر . فأنا ضحكت عن طريق العدوى . فالجو يعدى
بالضحك والمرح . . وقد أخفيت بضحكتي هذه رغبتى الحقيقية في أن أعرف
بعد ذلك السبب الذي من أجله ضحكت هذه الفتاة . هل أخطأت في اللغة
الألمانية ؟ لا يمكن . فالذي قلته لا يتعدى عشر كلمات . ويستحيل أن أخطئ
في لغة أتكلمها منذ أكثر من عشر سنوات على الأقل . يستحيل أن أكون قد
أخطأت . ولكن الذي حدث بعد ذلك جعلني أصر على أن أعرف ما الذي أضحك

هذه الفتاة الحلوة . وإن كنت في ذلك الوقت لاحظت أن حلاوتها قد نقصت في نظري قليلاً . فشعرها أكرت . وشفتها رفيعة جداً . ثم إنها تهرش عادة وراء أذنها ، وليس سبب ذلك أنها تضع القلم هناك كثيراً ، تماماً كما يضع الفلاح خشب المحراث على عنق الثور أو البقرة ، ولكن سبب ذلك أنها لا تستحم . . وقد سجل أنني شيئاً يدل على ذلك عندما اقتربت مني . .

وقررت أن أسألهما لأنها راحت إلى زميلاتها وروت شيئاً فضحككن ضحكاً عالياً . . وعندما عادت ومعها اللحم سألتها بإصرار ، عن الذي أضحكها من كلامي . وتمنعت . ولاحظت أنها ليست أقل جمالاً كما تصورت . وإنما هي جميلة فعلاً . وأنها تضع الورود في ملابسها . . ووروداً حقيقية ثم عصيراً لهذه الورود أيضاً . والذي قالته لي هذه الفتاة جعلني أضحك من الذي قلته لها ، وعلى الذي قلته للجرسون الهندي في مطار بومباي أيضاً . فقد قلت لها ما ترجمته بالعربية هكذا : بالله ألا سمحت لي بقطعة من اللحم المشوى جداً إن كان هذا ممكناً .

طبعاً عبارة بخيفة . ولغة أخنف . وإذا وجهتها أنت إلى أية فتاة في مطعم أو حتى في « مسمط » ولم تضحك فهي غلطانة . . وإذا لم تمسك هذه الفتاة أقرب ملاحظة أو فوطة وتضعها في فك ، فهي ولا شك لا تعرف معنى الكرامة الوطنية . فليست هذه لغة ولا لهجة !

وإنما عذري أنني تعلمت ذلك في الكتب . . علمونا أن نكون مؤدبين جداً . على أمل أن ننسى كلمة « جداً » . . ونكتفي بأن نكون مؤدبين فقط !
وفهمت من الفتاة الألمانية أن هذه العبارة تكفي جداً : قطعة لحم مشوية جداً من فضلك !

وفهمت أيضاً أنه لا داعي لأن أقول عبارة « مشوية جداً » . لأن معنى ذلك أنني أقطع كل أمل في أن يستمر الكلام بيني وبينها .

فأنا إذا قلت لها : قطعة لحم فقط فسوف يدور هذا الحوار بيننا هكذا :
تقول هي : قطعة لحم ؟
فأقول : نعم
وتقول هي : مشوية ؟

فأقول : ممكن تكون مشوية جداً .

وترد هي : مشوية جداً إلى أية درجة ؟

وأقول مندهشا : هل عندكم درجات للمشوى أيضاً ؟

وتقول وهي تبادلني الدهشة بدهشة أخرى : وأنتم كيف يكون اللحم عندكم ؟

أليس على درجات ؟

فأقول وقد أحسست أن المناقشة قد أضيف إليها طعم العسل : والله في مصر

أفضل أن آكلها مسلوقة !

فتقر هل : تحب تأكلها هنا مسلوقة ؟

وتسألني بلهفة وكان كرامتها قد جرحت ، إذ كيف توجد لحوم مسلوقة في

مصر ولا توجد لحوم مسلوقة في ألمانيا . . وإذا كان عندنا نيل في مصر فعندهم

في ألمانيا أنهار مثل الراين وفروعه : إذا كنت تريد لحمًا مسلوقةً فهو موجود . .

وكانني انكسفت من أن أصبح تلميذًا لواحدة فنانة شامت الظروف أن

تجعلها جرسونة في مطعم : لأنني سأكل أى شئ يعجبك أنت !

ولأول مرة أشعر بالامتنان للبعوضة التي لسعتني في قفای . . فأعادتنى بذلك

إلى مطار بومباي لألمس بيدي قذح الشاي فأجده أقل التهاباً من قفای . وأعادتنى

إلى العبارة التي قلتها وأضحكت الجرسون الهندي . وقد فهمت فيما بعد أن

ابتسامه هذا الجرسون ، تعتبر نوعاً من القهقهة بالنسبة للهنود الذين لا يضحكون

عادة .

فكان هذا الجرسون قد قهقه بحاجبين عاليين جداً عندما قلت له : بالله

أحضر لي كوباً من الشاي الهندي المعتبر إذا كان هذا ممكناً ؟

وواضح جداً أن سؤالي سخيف ، لأن هذه هي بلاد الشاي . ولا بد أن يكون

الشاي متوفراً ولا بد أن تكون مهمة الجرسون أن يأتي بالشاي ، في أى وقت لمن

يطلبه . . سواء كان الطلب على طريقي ، أو على طريقة الهنود . وفي الحقيقة

لم ألاحظ هندياً واحداً يشرب الشاي خارج البيت . . ويظهر أنهم يفضلون عمل

الشاي في البيت لأسباب لم أعرفها حتى الآن . . أى حتى الساعات الأولى من

وجودي في مدينة بومباي !

وأشرت إلى الجرسون مرة أخرى أن يأتي لي بالصحف التي صدرت في ذلك اليوم وحرصت بأدب واضح أن تكون باللغة الإنجليزية . ولا أعرف كيف استقبل الجرسون إشارتي إلى أن تكون هذه الصحف بالإنجليزية . لا أعرف كيف كان رد الفعل . خصوصاً بعد أن لاحظ الجرسون أنني لا أتق في ذكائه . . فأشار الجرسون بيده ورأسه بما يدل على أن هناك رجلاً مختصاً ببيع الصحف . .

وذهبت إلى البائع واشتريت الصحف ، وقلبت فيها ، ولم الألاحظ شيئاً يلفت النظر . . وربما الذي لفت نظري هو وجود صفحات أدبية . . ولاحظت أن هناك مناقشات تدور حول الأدب الأمريكي . . ورأيت صورة لكاتبة فرنسية الشابة - التي كانت شابة - فرانسواز ساجان . . ثم رأيت بعض النكت لبرناردشو . وهزرت رأسي كأنني شعرت بالاطمئنان على أن الأدب العالمي بخير . . وخرجت من المطار لأتمشى في الشارع . .

وهبت عواصف من الروائح العنيفة . . ورأيت على الأرض بقعاً من الدم وعندما أطلت النظر إليها لم تكن دماً . . وإنما لونها أقرب إلى الدم البنفسجي قليلاً . . وهو اللون المعروف في الريف باسم « دم الغزال » . . ولم أشعر أنني في حاجة إلى أن أسأل أحداً عن سبب وجود هذه البقع . . إنه نوع من اللبان يسمونه - بان - يمضغه الناس هنا . . ثم يبصقونه على الأرض ، على عكس ما يفعله أبناء اليمن الذين يمضغون القات ، ثم لا يبصقونه على الأرض ، وإن كان هذا اللبان لا يصيب الناس هنا بالحمول ، لأنه عبارة عن لبان نباتي . . فهو مجموعة من الأعشاب وثمار الأعشاب يصنعونها أو يلقونها في ورق ، ثم يمضغونها . . وثمرتها أغلى من ثمن اللبان الأمريكي ، وبائع اللبان يجلس على الأرض . . ومعظم الناس هنا أقرب إلى الأرض ، وفي الليل تجدد مئات الألوف نياماً على الأرض . . دون أن يفصل بين أجسامهم وبين الأرض شوال أو سجادة أو حتى محدة .

وبائع اللبان يبيعه في ورق شجر . . والناس كلهم يمضغون اللبان . . بائع اللبان وأستاذ الجامعة والوزير . . واللبان مفيد للأسنان ، تماماً كما نعتقد في الريف عندنا أن « اللبان الذكر » مفيد للحلق أو مزبل البلغم . . واللبان يغذي الأسنان ويصبغها بلون وردى . .

وربما استفادت شركات معجون الأسنان العالمية من هذا اللون الأحمر فوضعتة في معجون الأسنان . . فمعجون الأسنان الفرنسي : إيمای ديامان لونه أحمر . . وهو يصبغ اللثة بلون وردى . وكذلك معجون الأسنان الإنجليزي « سبنال » به مادة حمراء تشبه الأحمر الذى يضعه الهنود في هذا اللبان . .

وربما كان الغريب في أمر اللبان الهندى هو أنه يشبه اللبان الذكر لأنه معروف بصورة بدائية . . وفي نفس الوقت بشكل خام ، ومن الأفضل تصنيعه محلياً .

ولكن الذى يدهشك هو كيف يبصق إنسان محترم على الأرض ، ولا أعرف إن كان السبب هو شعوره بأنه لا يضيف إلى الأرض شيئاً بهذا البصق ، فهى قدرة ، وإن كانت هذه البصقات أشبه ببقع في لوحة سريالية قائمة . . أو ربما كان السبب هو أن اللون الأحمر لا يخرج من المناديل مهما غسلوها — أذهلتنى هذه الفكرة . .

وكأننى توليت تعذيب نفسى في كل مرة أرى واحداً يَمْضغ ، فأظل طول الوقت أتوقع أن يبصق أمامى على الأرض !
وكثيراً ما خاب أملى ، فحمدت الله على أن أكثر من عشرين شخصاً لم يبصقوا أمامى على الأرض !

وبسرعة لاحظت أن الرجل الهندى رشيق . عمشوق القوام . وبين الهنود رجال طوال . . كالعالمقة . . ولاحظت أن بشرتهم مشدودة وإن كانت أميل إلى اللون الأصفر . . وهذا اللون خليط من الأصفر والأسود ، ولمسة أزرق . أما الملامح فأوربية . . جرمانية . . الشفة رفيعة . والأنف دقيق . والعينان واسعتان . والفك انسيابى . والجهة متوسطة . والشعر أسود فاحم ناعم . . كل الشعور سوداء فاحمة في لون الليل في الشتاء . والأسنان مستوية وناصعة البياض . ولا توجد أكراش . . كما أن أصابع اليدين رفيعة كأصابع عازفى البيانو . .
ولكن أول ما يلقاك من الهنود هو رائحة غريبة يضعونها في الشعر ، وهى مستخلصة من جوز الهند .

أما السيدات فهن أميل إلى السمنة . . وخصوصاً الأرداف . . وتضع كل واحدة نقطة حمراء في أسفل الجهة . . تدل على أنها متزوجة . وشعرها أسود جداً

تحسدها عليه كل نساء أوروبا وأمريكا . . . ووجهها مستدير . . . وشفنا المرأة أميل إلى الامتلاء . . . وعنقها مسحوب . . . وأذناها صغيرتان . . . والمرأة الهندية يجب أن تستر كتفها وساقها . . . أما ما عدا ذلك فليس عورة . فهي مثلاً تكشف بطنها كلها . . . كل الوسط وأسفل النهدين ، وأعلى العجز . وسرتها تبدو واضحة تحت السارى الهندى الذى هو قطعة واحدة من القماش الحريرى . . . قطعة واحدة ولا نعرف كيف تلفها حول نفسها . . . الهنديات خارج الهند يراعين التقاليد طبعاً ، فيخفين هذا الجانب من الجسم . ولذلك لا يمكن أن نرى هندية واحدة فى شوارع القاهرة وقد عرت هذه الشقة الحرام من جسمها . . . وإلا كانت فضيحة !

وهذه المنطقة من الهند ممنوع فيها شرب الخمر . نعتاً باتاً . . . لا على الأرض ولا فى الطائرات ولا فى السفن القريبة من الميناء . . . ومسموح فقط للأجانب وبترخيص خاص . وفى الفنادق فقط . أما فى الأماكن العامة فمستحيل . وعندما تهبط من الطائرة يسألك رجل الجمارك إن كانت معك خمر . فإذا كنت هندية احتجزوا الخمر . . . أما إذا كنت أجنبية ، فيسمح لك عادة بأخذ زجاجات الخمر معك !

وقد لاحظت منظرًا غريباً وأنا مسافر فى الطائرة الهندية إلى نيودلهى . . . لقد ارتفعت الطائرة إلى طبقة عالية من الجو . وشعرت بالبرودة الشديدة جداً وطلبت من المضيف - فقد كان رجلاً لأن الدنيا ليل - أن ينقذنى ببطانية . . . ثم ببطانية أخرى . . . ولكن هذه الأغشية لم تحمى من الهواء البارد الذى يتسلل إلى قدمى من أرضية الطائرة وجوانبها وسقفها . وطلبت من المضيف الرجل أن يلحقنى بأى كوب شاي ساخن جداً . وأى إسبرين إن أمكن . وغاب ليعود معك كوب من مشروب بارد جداً لا أعرف طعمه . . . وربما كان من المشروبات الغازية مثل الكوكا أو السيدر أو غيرها . . . وعدت أطلب إليه كوباً من أى شراب ساخن . . . حتى من الماء الساخن . . . ويبدو أن الساعة كانت متأخرة ، وأنا على موعد مع الفجر . . . ولا أعرف إن كانت الديوك تؤذن فى الهند . . . أو أن الفيلة هى التى ترفع زلائمها ، ابتهاجاً بقدوم الفجر . . . ولكن الرجل لم يعد . أو لعله انشغل عنى بشئ ما .

وأشار جارى بأن آخذ لى « بقاً » من هذه الزجاجات التى فى يده وكان تحت الغطاء والدم يضرب فى عينيه وفى وجهه ، وأنفاسه اللاهثة تتعالى ، والزجاجات تكاد

تسقط من يده . . ولكنى رفضت أن أرتكب هذه المخالفة لقانون البلاد ، أيا كانت الأسباب . وحتى لو فكرت في أن أخالف القانون ، فليس بهذه الصورة ، ولا بهذه الزجاجة . . ولا يمكن أن يكون فى هو الثانى ، وفى هذا الرجل المخمور هو القم الأول .

وعندما اقترب المضيف منا ، سحب جارى زجاجته ، وأخفاها تحت الغطاء وتعالى شخيره . . واعتقد أن المضيف قد يعرف هذه الحيلة . . ولأنه رآها كثيرا . فلم يشأ أن يهتم . . وأشار برأسه أنه هو شخصيا لا مانع عنده من أن أدفئ نفسى بجرعة من هذه الزجاجة ، وأنه سيبعد عنا وبذلك يتسّر علينا . وناولنى كوباً من الشاي الساخن . .

وكل ما أحسست به هو حرارة الكوب ، وحرارة السائل الذى فى داخله . . أما طعامه فأنا لا أعرفه . ولم أتبينه بوضوح . .

وبعد ساعات من الطيران المؤلم اكتشفت أن جارى قد ألقى بالزجاجة تحت قدميه . . لقد أفرغها على الأرض بشئ من الامتنان ، فقد كانت الزجاجة صاحبة الفضل الأول والأخير فى أنه اشتعل بالدفء ، وفى أنه نام . . وفى أن نومه كان شخيراً عاليا ، فأطار النوم من عيني ومن عيون أناس آخرين إلى جوارنا ! وفى ضوء النهار الذى تسلسل إلينا من فوق السحاب . ومن تحت السحاب رأيت وجوه الناس بوضوح . . لقد كان معظمهم من الهنود . . وإن كان الرجل الجالس إلى جوارى فاتح اللون . . فهو رجل إسباني . . مع أن ملامحه لا تفرق عن الهنود فى شئ . .

وقد بادرنى هذا الرجل بالكلام .

وكنت ألمح من النافذة المساحات الواسعة جداً للأراضى الهندية . . ولونها أميل إلى الحمرة . . تماماً كلون قرع العسل . . أو فى لرن المانجو الهندى . . والمساحات الخضراء واسعة ولونها قاتم . . ولم أكن أستطيع أن أتبين نوع النبات المزروع فى التربة . .

وعرفت من الرجل الإسباني أنه سينزل فى فندق اسمه « فونسيكا » وسألته إن كان لهذا الاختيار أى سبب واضح فأجاب بأنه يعرف هذا الفندق . وأنه يتردد كثيراً على الهند .

وعرف أنني مصري فهز رأسه وهو يقول لي : مصر والهند . . مهد الحضارة الإنسانية . فأنت لن تشعر بالغرابة في هذه البلاد .

وعرفت فيما بعد أنه كان محقاً في آرائه عن الهند .

فهم أناس طيبون جداً ، وفي غاية الهدوء . وحبهم للسلام قائم على شعور عميق . وكراهية الهنود لإسالة الدماء تنبع من أعمق أديانهم وتاريخهم . فالزهد هو العنصر المشترك في كل الديانات الهندية .

ففي الهند أناس لا يأكلون اللحوم ، ولا المواد المستخرجة من الحيوانات فلا يشربون اللبن ولا يأكلون الزبد ولا الجبن ، ولا يأكلون البيض ، ولا السمك ، ولا يذبحون الأبقار . لأن البقرة مقدسة ، وهي رمز الحياة والخصوبة . وهي حيوان سعيد في الهند . وسعادة البقرة واضحة في دلالها ودلعها وتمخطرها في الشوارع . في أحسن الشوارع . وفي دخولها أحسن المحلات دون أن يمسه أى إنسان . .

أما الثور فعلى الرغم من أن أمه بقرة وجدته بقرة ، وابنته بقرة أيضا ، إلا أنه ليس محترماً . وتنطبق عليه أقسى أنواع القوانين والعقوبات . فهو منبوذ . وفي الهند فئة من المنبوذين عددها حوالى ٦٠ مليون نسمة . ولا أعرف بالضبط عدد الثيران . ولكن هذا الحيوان المنبوذ يجر العربات ويحرق الأرض ويضربه الفلاحون على قفاه ليل نهار . واليد التى تضربه على قفاه ، هى نفس اليد التى ترتفع بالتحية لأمه أو لجدته أو حفيدته !

ولم ألاحظ أن هناك أية تفرقة جنسية عند الهنود غير هذه التفرقة بين الثور والبقرة !

وظلت كلمات هذا الرجل الإسباني ترن في أذنى وقتنا طويلا ، وربما كان سبب التصاق كلماته في أذنى أنه قالها بلهجة أعجبتنى . أو أنه قالها في لحظة كنت أتمياً فيها عقلياً لفهم الحياة في الهند . وإن كنت أخالفه في رأيه في الهنود إذا تقاتلوا فلا حدود لهذه المعركة .

لم أعرف بالضبط ما الذى يقصده ، ولا أى أنواع الهنود ، فأنا لم أر شجاراً في الهند ، لم أر اثنين قد أمسك واحد منهما في خناق الآخر لأتفه الأسباب كما يحدث في إسبانيا وإيطاليا واليونان وتركيا ، مثلاً !

ورويت لهذا الإسباني ما الذى أصابنى عندما زرت إسبانيا ، وكيف
أننى لأسباب تافهة جداً ، وجدتنى فى خناقة دامية مع إحدى بائعات الفاكهة
فى مدينة مدريد . مع أننى لم أتجاوز حدود الأدب ، إلا إذا كنت قد نسيت
أن أقول لسيدة عجيبة تبيع التفاح بالواحدة يا صاحبة العصمة !

وتشاء الصدفة أن يكون فندق « فونسيكا » هذا قريبا من سفارتنا بنيودلهى .
وصاحب هذا الفندق رجل برتغالى ؛ والبرتغال كانت لها مستعمرة صغيرة
على الشاطئ الغربى للهند اسمها « جوا » ، وكلها من الهنود ولكنها نقطة
ارتكاز قديمة جدا للبرتغاليين عندما رست سفنهم مئات السنين على ساحل
الهند ؛ وقد استردت الهند هذه المستعمرة بعد ذلك . .
وكل موظفى هذا الفندق من أبناء « جوا » أيضاً . .

ولهم طريقة خاصة فى الكلام . ولسبب غير واضح يفخرون بأنهم من هذا
المستعمرة الصغيرة .

وفى هذا الفندق عدد كبير جداً من الأوربيين . ومن الغريب أننى
وجدت معظمهم من أبناء السويد والنرويج ، ولأعرف ما الذى يبيعونه إلى الهند ،
ربما كان الورق والحديد والصلب .

وقد أعجبنى هذا الفندق ففيه مطعم أوربى وفيه أيضا أطعمة أوربية .
وهم يحرصون على أن يقدموا الطعام الأوربى . فمثلا يقدمون الشوربة الساخنة ،
مع أن الجو نار والعة . وهم حريصون على أن يقدموا المسطردة . والمسطردة والعة
نار أيضاً .

والهنود يأكلون أطعمة حريفة . . حراقة . . وهم يضعون هذه الشطة أو هذا
الفلفل على كل طعام وشراب . بل لاحظت أنهم يضعون ذلك على الحلويات .
على السكر مثلا . وعلى الجاتوه الذى يقدمونه مع الشاى . وهذه ظاهرة موجودة
فى كل البلاد الحارة . فعلى الرغم من أن الشمس تتولى وضع الشطة فى كل شعاع ،
وفى كل حجر وفى كل نسمة هواء إلا أن أهالى البلاد الحارة لا يكتفون بهذا
القدر من الشطة الشمسية فيضيفون هذه الشطة النباتية .

ربما كان الشبب هو أن حرارة الجو تؤدى إلى كسل فى الكبد . وإلى خمول

فى الجسم ، فىحس أبناء البلاد الحارة بانسداد نفسهم عن الطعام . وربما كان عدم الإقبال على الطعام الذى سببه الجو ، هو الذى دفعهم مع ذلك إلى الزهد ، فالزهد والتقشف ليس شيئاً صعباً وليس شيئاً غير طبيعى . وإنما هو حالة تملها الضرورة ؛ فالزهد يتمشى مع انسداد نفوس الناس عن الأكل والشرب ؛ فهم لا يريدون أن يجعلوا تقشفهم بلا ثمن . بلا مقابل . ولذلك يجعلون للإضراب عن الطعام معنى دينياً . ربما يجازيهم الله عليه !

واشتهار هذه المناطق الحارة بالشطة والفلفل وكل التوابل . هو الذى استدرج الأوربيين إليهم . وجعلهم يخوضون حروباً دامية من أجل الحصول على التوابل ، حتى كانت التوابل تساوى وزنها ذهباً .

وغرف هذا الفندق ، مقفلة ليلاً ونهاراً وطبعاً . وكل فندق أيضاً تفادياً للحرارة والذباب والبعوض . وفى الهند وحدها مئات الأصناف من البعوض وفيها كل أمراض البعوض والذباب وفيها كل حشرة خلقها الله ، لها أصل وفصل ومعجبون وضحايا . ثم علماء يدرسون ويسجلون حركاتها . وفى الهند مراكز للأبحاث لها سمعة عالمية . .

وفى الغرفة -غرفى طبعاً - يوجد جهاز تكييف .. أو على الأصح جهاز تبريد هوائى . وهو يجعل درجة حرارة الغرفة باردة . ولكن يسمح فى نفس الوقت بدخول الرطوبة . ولأن هواء الغرفة بارد طول الوقت كنت أحتاج إلى كثير من أكواب الشاي . ومع أكواب الشاي يدخل البسكويت والمرابي والبيض واللبن والزبدة والجبن ، ونظرات لا أنساها من عيون الجرسونات . فيها الكثير من النقد وفيها الكثير من الإشفاق . وفيها أكثر من ذلك : خوف من هذا المتوحش الذى يأكل كل هذه المنوعات دون أن تنطبق السماء على الأرض . أين عدالة السماء ؟ أين رحمة الأبقار ؟ أين غضب الآلهة ؟ كيف تسكت على أجنبي مثلى يأكل البيض ولا تنهد الدنيا ، ويشرب اللبن ولا ترحف مياه المحيط فتغرق الهند من أجل هذه الخطيئة التى يرتكبها بنظام : ثلاث مرات فى اليوم !

وبشعور من يريد أن يؤكد لهذا الجرسون المسكين أن هذه ليست مخالفت لقانون السماء ، كنت أكل البيض وأشرب اللبن فى حضوره ؟ فلا السماء وقعت ، ولا هو اقتنع !

ولا أدعى أبداً أن شجاعتي قد لازمتني طول الوقت .. أبداً . لقد تخلت عني منذ نزلت أرض بومباي . لقد دخل جسمي الكثير من المخاوف ، لقد أصبحت أنا الخوف نفسه . . الخوف من ماذا ؟ لا أعرف . الخوف من أن أصاب بأى مرض ؟ لا أعرف . . أى الأمراض ؟ . إنني خائف بصفة عامة .

وعلى الرغم من أن المستشار الصحفي في سفارة الهند في القاهرة قد أفهمني أنه لا داعي للخوف . فهذا الخوف إهانة له .. وإهانة لخمسة مئآت من ملايين الهنود يعيشون في سلام ومعظمهم لا يعرف المرض . .

ولكن زغبتي في أن أعرف ، هي التي تغلبت على خوفي . فأنا أريد أن أعرف بأى ثمن . . أريد أن أمشي في شوارع الهند وحواريها . وأن ألمس أبقارها وأن أملاً أنني يبخور معابدها . . ما الذي يمكن أن يحدث ؟ لا شيء !

إن الدكتور فاوست الذي تحدثت عنه أساطير العصور الوسطى باع نصف عمره لكي يعرف . .

إن حواء هبطت من السماء إلى الأرض . . وضحت بالسماء وجنة السماء ، لأنها أرادت أن تعرف . . أن تعرف طعم التفاحة . أو طعم المعصية فقررت أن تعرف . فكأنها اختارت المعرفة ، بأى ثمن . ولو كان ذلك هو النزول إلى الأرض . ولو كانت تلك الأرض هي الهند !

إنني لا أبالغ في قيمة ما سأعرفه . .

ولكن الذي جعلني أبالغ هو خوفي الشديد من كل مرض . وسبب خوفي هو أنني أجهل الطب . وسبب خوفي أيضاً أن الأمراض قد لازمت حياتي . ولا أقول لازمت جسمي . فقد رأيت المرض في بيتنا . . لم يبرحه . . وحتى الآن . . وقد رأيت الأطباء يدخلون ويخرجون . . يدخلون وجيوبنا ملأى ، ويخرجون وجيوبنا فارغة . وجيوبهم ليست ملأى أيضاً . فالذي كان يملأ جيوبنا الصغيرة ، لا يمثل إلا ركناً هزيباً من جيوبهم الكبيرة !

وعندما ذهبت إلى سفارتنا ، جلست إلى شاب لطيف من موظفي السفارة وراح يحدثني عن حياته في الهند ثم كشف لي عن عنقه . لقد كان ملتهاً . وقبل أن يغطي عنقه مرة أخرى أشار إلى أن عنقه ملتهاً منذ أربع سنوات . .

وعندما غصت في مقعدى وأسأله عن السبب أجاب بأن مياه الهند مليئة بالطفيليات .
وأن الأرض تحتلظ بالمستنقعات والمجارى وأنه لا يمكن لإنسان أن يشرب الماء في
الهند إلا إذا كان مغلياً . . . ولا أن يستحم طبعاً !

وهنا أحسست جهلى الشديد بطرق غلى المياه وتطهيرها . ومررت على كل
موظفى السفارة أسألهم ما الذى يفعلونه كل صباح . كيف يشربون ؟ كيف
يغسلون وجوههم وأجسامهم . وإن كانت الإصابة بمثل هذا المرض الجلدى
تظهر بعد أيام أو بعد أسابيع أو بعد سنوات . . . ثم كيف تكون الوقاية منه . . .
وكيف يكون العلاج إذا لم تنفع الوقاية ؟

وعرفت زجاجات الكولونيا . . . وزجاجات الكحول . . . تماماً كما كنت
أفعل فى باريس .

فالفندق الذى نزلت به فى باريس فى الحى اللاتينى كان اسمه «نيودهى»
— أيضاً ! وهو بالقرب من ميدان سان ميشيل . وليس بهذا الفندق دش ولا
حمام . . . ومعظم الفنادق والبيوت فى باريس ليست بها حمامات . وإنما عليك
أن تحمل ملابسك وتستحم فى أحد الحمامات العمومية . والحمام العمومى يبعد
عن اللوكاندة مئاة الأمتار . . . أو إذا كنت كسولاً ، ولا بد أنك كذلك ،
ما دمت فى بلاد حارة وذهبت إلى باريس فى الربيع أو فى الصيف فعليك
بزجاجات الكولونيا . . . والزجاجة كان ثمنها عشرة قروش . ثم هات قطعة من
الأسفنج وبللها . . . وامسح جسمك كله . . . كل يوم . وعلى فكرة معظم رجال
ونساء باريس لا يعرفون الماء . ويقال إن هذا هو الشئ الوحيد الذى تعلمه محمد
عبد الوهاب من فرنسا لأنه يستخدم الكولونيا فى الاستحمام !

ونصحنى بعض الأصدقاء من غير الهنود طبعاً ، أن ألقى بالكحول على
جسمى بعد الاستحمام بالماء الساخن . ونصحونى أيضاً بأن أحلق لحيتى بعد
الحمام حتى لا تنسرب الطفيليات إلى دى ، خصوصاً أن دى يسيل بعد كل
مرة أحلق فيها . . . وهنا أدركت كيف أن إطالة الحجية فى الهند حكمة طيبة . . .
فهم يهربون من الطفيليات الموجودة فى الماء بأن يتركوا شعرهم يطول ولا يسيلون
دماءهم بأمواس الحلاقة . بعض الهنود فقط من طائفة السيخ هم الذين يفعلون ذلك .

وعددهم حوالى مائة مليون نسمة . ثم يضع هؤلاء السيخ سيفاً صغيراً إلى جوار الحجية دليلاً على أنه ليس بسبب البخل أطلوا لحاهم . والدليل على ذلك أنهم وضعوا آلة الحلاقة إلى جوار الشعور الملقوفة فى شبكة تشبه الشبكة التى تضعها المرأة عندنا ، قبل ذهابها إلى الحلاق ، أو إذا كانت على البلاج وتحشى من الهواء — هذا إذا كان شعرها ناعماً . أما إذا كان خشناً . فهذه الخشونة تجعله فى مأمن من الهواء طبعاً !

ونصحنى آخرون بأن أطيل لحيتى . . وإطالة الحجية فى الهند شئ غير ملفت . وربما ظن بعض الناس أننى مجامل للهنود . أو أننى توطنت . . تماماً كما يفعل المستشرقون الذين يزورون البلاد العربية . . أو كما يفعل الفنانون فى باريس . !

وأطلقت لحيتى أسبوعاً . وبدأت أشعر بالوخز تحت الشعر . وخشيت أن أهرش . وتفاديت الهرش بالفعل لأن الهرش سيؤدى إلى ظهور دامل . وأخشى أن تلتهب الدامل وبذلك تصبح أكثر تعرضاً لأى مرض جلدى . وبإرادة من حديد ، لم أهرش مطلقاً . ولكن فى يوم ضبطت نفسى متلبساً بالهرش أثناء النوم ! وحلقت لحيتى بالمقص . . ثم بالموس . .

وبعد ذلك كنت أستخدم الكولونيا ، فكانت تلسغنى وتكوينى كأنها مليون موس حلاقة . . وكان هذه الأمواس جميعاً نوع من ماء النار المتجمد ! ولاحظت فى الصحف الهندية أنه لا يوجد إعلان واحد عن أمراس الحلاقة . وهذا طبيعى . ولم ألاحظ أيضاً أى إعلان عن صابون الحلاقة . واستنتجت من ذلك أن هناك أمواساً أخرى يصنعونها فى البيوت . وأن هناك نوعاً من الصابون يصنعونه فى البيوت . أو ربما كانوا يلجأون إلى استخدام بودرة نباتية . تزيل شعر الوجه والحجية . والشارب أحياناً . . ووجدت هذا النوع من البودرة . وخوفى من الجروح ومن أمواس الحلاقة ومن الطفيليات ، جعلنى أفكر فى استخدام هذه البودرة . ولولا أننى خشيت فى آخر لحظة أن تكون لهذه البودرة آثار مؤذية لا أعرفها لاستعملتها !

* * *

وفي يوم جلست بغرفتي المخبوقة . .

ولابد أن أصف شكل الغرفة لتعرف . كيف جلست . الغرفة بها سرير .
طبعاً بها سرير . والسرير بالضبط تحت جهاز التكييف . ولو نمت والجهاز
مفتوح فسأقوم من النوم وأنا لرح ثلج . ومعنى ذلك أنني لن أقوم . وإذا
أقفلت جهاز التكييف ونمت . فعنى ذلك أنني سأقوم من النوم مسلوفاً ،
أى غارقاً في شورية من العرق .

وكان الحل هو أن أغير وضع السرير .

وغيرت وضع السرير والمقاعد والمناضد والأباجورة .

على كل حال جلست أمام المنضدة في نفس الوضع السابق . .

ووجدت أن عواصف من جهاز التكييف تلسعني في جنيبي .. فأدريت
المنضدة والمقعد إلى وضع آخر . . وضغطت على الجرس . . وبعد دقائق جاء
الخدّام لأطلب منه أن يعاونني على إصلاح جهاز التكييف وأن يقفل الحنفيه
التي ينزل منها الماء بصورة تضايقتني وأن يربط مفتاح النور لأنني أخشى أن تؤدى
هذه الرعشة الموجودة في اللمبات إلى عمل ماس وإحراق الغرفة وتعطيل جهاز
للتكييف .

وبدون أن يقول لا أو نعم أو حاضر أو ربما أو حتى يهز رأسه ضرب الباب
وراءه واختفى .

وبعد دقائق جاء نفس الجرسون ومعهم ثمانية أشخاص . واستوضحته عن
سبب مجئ كل هؤلاء الأشخاص فقال لي أنهم سيصلحون كل ما في الغرفة :
واحد لإصلاح التكييف والثاني لإصلاح النور والثالث لإصلاح الحنفيه والرابع
لإصلاح المقعد الذي أجلس عليه فقد شكاه منه زبون سابق ونسيت إدارة الفندق
أن تصلحه . . أما الخامس الذي جاء بعد ذلك فهو يريد مجموعة من طوايع برید
مصر ! .. أما السادس فهو أحد سعاة السفارة . . والسابع هو سائق التاكسي
الذي نسيت أن أدفع له الأجرة . . والثامن الذي جاء بعد ذلك فهو صاحب
التاكسي جاء يسألني كم دفعت للسائق لأن العداد كان مكسوراً !

وهذا هو أول استقبال رسمي قابلتني به نيودلهي عاصمة الهند العظيمة بسكانها
الذين يبلغ عددهم ٤٩٠ مليوناً وبضع مئات من الألوف ! .

● باسم الله ..

سأدعوك إلى مطعم « موتى محل » أشهر المطاعم الشعبية في الهند . . المطعم صغير . وعلى بابه يقف أحد الهنود في درجة حرارة تشبه درجة حرارة أسوان في الصيف . ووراء باب المطعم توجد درجة حرارة أقل من ذلك بثلاثين درجة . عدد المناضد قليل . الإقبال شديد جداً على هذا المطعم .

لا تحاول أن تقرأ قائمة الطعام . فغيرك أشطر . ضع إصبعك على أى شئ واطلبه من الجرسون .

أنت لا تعرف ما الذى ستأكله . . كثيرون مثلك حاولوا وفضلوا . سيأتى ناك « الجرسون » بأكواب من الماء . نصف باردة . فهم في الهند لا يشربون الماء المثلج . إنهم يواجهون الحرارة القاتلة .. بشرب الشاي .. والشاي فيه سكر قليل .. وهو طبعاً أحسن من أى شاي تشربه في القاهرة في أى مكان . شاي له ورق وله طعم ولون ورائحة . . ما علينا !

وبعد الماء ستحضر السلطة . أشكال وألوان . كثيرون من الأجانب عندهم حب استطلاع شديد . أكلوا من كل شئ .. وفي نهاية كل صنف ينفخون من النار . . من الشطة يعنى !

هناك أرز به قطع من الفراخ . . لا بأس . .

وهناك مكرونة بها أشياء ، أغلب الظن أنها جبنة ومعها بعض الطماطم . وطعم آخر لا يمكن أن تعرفه . . ومن الصعب عليك أن تعرفه . . لأن كل

ما تستطيع أن تقوله للجرسون : إيه الرائحة دى ١٩

لا داعى فقد تكون هذه هى رائحة الجرسون نفسه. ويصبح سوالك بائناً جداً. ولكن بعد التجربة والرممة فى الأكل ، وجدت أن أحسن طعام هناك هو « التندورى » وهذه هى الكلمة الهندية الوحيدة التى عرفتها بعد ساعة من وصولى إلى المدينة ، إنها فرخة كاملة .. فرخة شكلها غريب . مصبوغة باللون الأحمر ، أحمر فاقع . لقد غمسوها فى هذا اللون ٢٤ ساعة . والفرخة مشدودة ممطوطة .. جناحها طويلان ورجلاها طويلتان . وعلى ظهرها أثر كلمات . أو آثار ضرب عنيف .. هكذا تصورت .. فقد وجدت هذه الفرخة المشوية بها علامات عميقة فى جسمها . وتحملت أنهم فى الهند ينطلقون وراء الفراخ ويضربونها حتى تموت ثم يرمونها فى اللون الأحمر . وبعد ذلك ينقلونها إلى النار ، ثم إليك !

ولكن الأمر مختلف عن ذلك وقد أخطأت فى ظنى . فهى فرخة عادية . ذبحوها . ثم صنعوا بها هذه العلامات العميقة فى جسمها . بعد أن سلخوها تماماً . كالأرانب . وهذه العلامات تسهل عملية وصول النار إلى جسم الفرخة ، ثم وضعوا فيها بعض الفلفل أو بعض الشطة . قليلاً جداً .

أما فيما عدا هذه الفرخة فلا يوجد طعام يستحق الذكر فى الهند كلها . . هذه الفرخة هى العلامة المميزة للمطبخ الهندى .

نسيت أن أقول لك إنه لا داعى لاستخدام الشوكة أو السكين . . بيديك أحسن وأسهل . . ولست وحدك الذى يفعل ذلك . فكل الناس حولك يأكلون بهذه الطريقة .

ومع هذه الفرخة يقدمون لك نوعاً من الخبز يشبه الرقاق وهو على هيئة أوراق الشجر الكبيرة . وإسم هذا الخبز « بان » وطعمه لذيذ .

وبعد ذلك أطلب أى فاكهة طازجة . فهذا أفضل وأحسن . . المانجو هنا ثمن الرطل منها يساوى قرشين أو أقل من ذلك . فهى أرخص وأكثر أنواع الفاكهة هنا .

بقى شئ هام . انتظر سيقدم لك الجرسون مجموعة من الجيوب والحجارة مد يدك إليها . لا تحف . إنها مجموعة من الينسون والحبان والمستكة وقطع

من سكر النبات . . ونباتات أخرى لم أعرفها حتى الآن ولكن سأسأل عنها فيما بعد . تستطيع أن تضع منها ما تشاء في فمك . يقولون إنها تساعد على الهضم . . وأنت حر في أن تأخذ هذه الأعشاب المهضمة هنا في المطعم أو أمامه . . فأمام المطعم يجلس رجل يبيع اللبان . . نوعاً ممتازاً من اللبان . هذا اللبان عبارة عن خليط كبير من أعشاب وأملاح ونباتات وبهارات . . تصل إلى العشرين . . ويضعها لك في ورقة شجر . وعليك بعد ذلك أن تمضغها . سيكون لونها أحمر . . سيمتلي فمك . ستعمل كالجمل تماماً . . تمضغ وتمضغ . وإذا ظهر شيء عن بين أسنانك أو نزل على شفتيك فلا تمسحه . فالناس حولك كذلك . انظر إلى نفسك في المرآة عندما تعود إلى البيت . لا تخف من نفسك ستبدو كأنك أكلت إنساناً بدمه . . وفي استطاعتك أن تبصق على الأرض وأمام الناس . وإذا رفعت رأسك إلى أعلى بحركة عصبية وظن الناس أنك محافظ العاصمة فلا تكذبهم . . فهو يفعل مثلك تماماً !

وستكتشف أن اللبان ليس أكلة شعبية أو لباناً شعبياً . . أبداً فثمنا غال . . يصل إلى روية . والروية ثمنها حوالي سبعة قروش . . . والناس هنا يجدون متعة في مشاهدة بائع « اللبان » وهو « يحوج » هذه المضغة ويختار لها الألوان البيضاء والحمراء والصفراء والسوداء . . وكلما تأخر البائع في عملية الخلط كان معنى ذلك اهتماماً خاصاً بالزبون . .

وإذا لم يكن يعجبك هذا « اللبان » الهندي فأليك أي لبان آخر لا قيمة له كاللبان الأمريكاني أو اليوناني . . وعليك أن تواجه احتقار الناس إذ كيف تبلغ بك الغباوة هذه الدرجة فتتصور أن هناك في الدنيا لباناً أحسن من اللبان الهندي !؟ وعلى فكرة - أنت طبعاً أعجبك الأكل . . إنه لذيذ وغريب . . وهو أكل أرستقراطي . . بقي شيء أهم من هذا كله . ويوسفني أن أقوله لك . ولكن الصراحة لا عيب فيها . . عليك أن تضع يدك في جيبيك وتدفع حسابك . . فنحن في الهند . . ويجب أن تفعل كما يفعل أهل الهند . . فلا أحد هنا يدعو أحداً إلى الغداء أو العشاء . .

فادفع الحساب لنفسك !

مرة أخرى ..

المنظر : محل جايلورد في نيودلهي . المحل ضيق والأضواء خافتة وفيه تكييف هواء . . . وتدخله أحسن العائلات ..

الزمن : الساعة الخامسة بعد الظهر . الأمطار شديدة جداً . . . والحرارة مرتفعة خانقة . . .

في اللحظة التي أدخل فيها المحل . . . أرى فتاة تبتسم وأحييها فترد التحية . وأفسح لها الطريق فتقدمني .

وأشير إلى أحد المقاعد . . . فتجلس . . .

ويجئ الحرسون فأسألها ماذا تريدان فتهز رأسها .. فأقول للحرسون : تعال بعد شوية . . .

وأقترب منها قليلاً دون أن أسألها عن شيء . . .

أنا : تعرفي أن ملامحك شرقية خالص . . . مش كده !

هي :

أنا : طبعاً أنت شرقية ، أمال يعني هي الهندى غريبة . . . أما سؤال بايخ صحيح .

هي :

أنا : تعرفي أن البنات في بلدنا لما الواحد يعاكسهم يعملوا زيك كده . . . برضه ما يردوش . . .

هي :

أنا : قال إيه دلال . . . وقال إيه تقل . . . على كل حال بعض الرجالة بيحبوا الدلال ده . لأن هذا يغرى الرجل أكثر . . . يخليه يحس أنه أمام حاجة صعبة . . . وأنه لازم يعمل مجهود كبير علشان يكسبها . . . يخطفها . . . لأن الرجل بطبعه صياد يجب يمسك بندقية ويضرب . ويجب يخطف البنت من أنياب الأسد ، ويمكن مفيش هناك لا أسد ولا أرنب . . . والبنت عارفه الحكاية دى . . . تلاقها هي كمان تسوق فيها . . . مش بس كده . وأول ما تعرف أن الرجل متعلق بيها . . . تقول له : فلان خطبني . . . وفلان بيتكلم . . . وفلان بيتقدم . . . يعني هي عاوزه

تخلق له أكثر من أسد وتحط نفسها بين أنيابهم . وعليه هو بقى أن يشدها من هذه الأنياب الوهمية .. لإشغى العرسان والخطاب ما ظهر وش إلا دلوقت ؟ كانوا فين قبل كده ؟ المهم أن البنت عاوزه تخلق صعوبات للراجل .. وأكثر من كده .. تروح تكلمه عن أهلها وأصلها وعن أخلاقها . وتحط نفسها فوق فوق .. يعنى فوق جبل علشان يخنى وراها .. يطلع لها الجبل كمان .. برضه مش عاوزه تردى ؟ زى بعضه . أنا حافرض إنك مش موجودة . وأكلم نفسى .. أنا عاجبنى الكلام .. الله يا واد إيه الحكم وإيه الكلام اللى زى الجواهر اللى بتنزل من بقلك .. برضه مش عاوزه تضحكى ؟ .

هى :

أنا : وفيه حاجة بتعملها المرأة .. تتظاهر بأنها خلاص وقعت فى دبايب الراجل .. ويشعر الرجل بأن المرأة تخلت عن دلالها وتقلها . وأنها لم تستطع أن تقاومه .. وينبسط وكرشه يكبر . ويقول يا واد مفيش منك . طبعاً الرجل حارمنا لأنه مش فاهم إيه الحكاية .. ولو كان الراجل ياخذ باله من الصياد لما ييجى يضرب بالرصاص يلاحظ أن الرصاصة عندما تخرج من البندقية أحياناً تكون شديدة لدرجة أنها تخليه يقع على الأرض . ولكن فى نفس الوقت تكون الرصاصة قد أصابت الفريسة .. فاللى يشوف الصياد وهو واقع يتبهاً له أن الرصاصة جت فيه هو .. فى حين أنه هو القاتل .. وكذلك المرأة اللى يشوفها واقعة ومستسلمة كده . يتبهاً له إنها هى القتيل مع أنها القاتلة . برضه كلامى مالوش معنى ؟ طيب جاملىنى . قولى كده حاجة تدل على أن إحنا قاعدين مع بعض . بينى وبينك أنتم أكثر منا كلاماً . أنا لم أجد هنا فى بيت واحد عندكم راديو ولا حتى فى سيارة ولا فى مكتبة . وعرفت الحقيقة وهى أن الهنود كل واحد قد بلع الراديو اللى عنده .. فالراديو اختفى من البيت وظهر على ألسنتهم .. علشان كده كلامكم كثير .. بايخه النكتة دى ؟

هى :

أنا : . . . طيب اضحكى .. أجبرى بخاطرى .. انتم كده وحشين مع الأجانب .. برضه مش حتتكلمى .. هزى رأسك زى أنا ما عملت للجرسون ..

اغمزى بعينك .. طيب اعطسى . طيب خدى نفسك انفخى بمناخيرك زى
كلب البحر . على فكرة احنا عندنا أكبر جنينة حيوانات فى الدنيا . . وفيها
حيوان زيك . . ساكتة زيك . . حيوان زيك . . بلاش حكاية الحيوانات دى ..

هى : . . .

أنا : يعنى عاوزه تفهمينى أن الهنود مع الأجانب بالشكل ده ؟ !

هى : . . .

« ويحى الحرسون يسأل ماذا نريد »

أنا : اتنين حاجة ساقعة . . دا حتى انتم أخذتم البرود من الإنجليز مع أن
بلادكم نار فى نار . . الهواء نار . . والشمس جهنم . . والأرض والعة . .
والشطة والعرق والرطوبة . . حاجات تخلى الواحد يتجنن . . أنا كنت أفهم إن
لما واحد يبجى يعاكسك زى . . طبعاً دى مش معاكسة ولا حاجة كنت
تيجى واخدها . .

هى : . . .

أنا : .. بالحضن على طول .. برضه مش عاوزه تضحكى خايغه من الناس ..
إنت عارفه كام واحد شايفك دلوقت . . مائة واحد . . كلهم بيقلوا عليك
كلاماً لا يعجبك . . كلهم بيقلوا إيه البنت البايخه دى . . إيه الحجر ده . .
إيه البقر ده . . مش عاجبك ده سيبه . . قولى له يسكت . . إنما على رأى المثل :
لا أنا عاوزك ، ولا قادر على بعدك . . إنت مكسوفة منى ؟

هى : (ضحكت وهى تنظر إلى ناحية من المطعم) . . .

أنا : (نظرت فوجدت رجلاً بكرش ومعه فتاة صغيرة) اسمعى إنت عارفة
أنا قابلت كم راجل فى بلدكم دى . . مئات من الوزراء والسياسيين والصحفيين
والأدباء والرهبان والسواقين . . ولم يضايقنى إلا رجال السلك الدبلوماسى . . قعدتهم
تقرف . . تصورى إنت إنك قاعدة مع راجل طول الوقت يقول لك : ربما .
قد يكون . . فيما أعتقد . . من المحتمل . . من المفروض . . كلام بالشكل ده . .
يقرف ولا لأ .. طبعاً يقرف . . وأنا لما أشوف واحدة زيك وأرمى نفسى عليها
كده . . من غلبي . . وحياتك من غلبي كل الكلام ده . . ويعنى كويس كده إنى

أتكلم طول الوقت وإن ساكته . برضه من غلبي . والله . ما شفت واحدة حلوة
من نهار ماجيت البلد دى .

هى : . . .

أنا : يا نايمين قوموا اسعروا . يا نايم وحد الدائم . يا نايمة نامت عليكى
حيطة . يا بت ردى . يا بت انطوى . نشفت ريقى الله ينشف . طريقك . طريقك
فى البلد اللى غرقانة مطر وطين دى . .

هى : . . .

أنا : شوفى بقى . . أنا حاغنى لك بشو يش . مش عاوزه تسمعى أغانى
بلدنا . والله فيه شبه كبير من أغانيكم . أقول لك إيه . أقول لك : عطشان
يا صبايا . أقول لك النحل ياهوه . أقول لك واحد اتنين . . خمسة فى ستة
بتلاتين يوم . اسمعى أغنية يقولها الناس فى الفلاحين عندنا : يا عم جوزة
من الهند متركب عليها غاب . ومدندشة بالذهب ومجمعة الأحباب . أنا خت
منها نفس والعقل منى غاب . يا عم جوزة من الهند . الله الله . ياسلام ياواد .
ياسلام . اسمحى لى أبدى إعجابى بنفسى وكمان حاسقف لنفسى . التسقيف
هنا فى بلدكم مالوش المعنى اللى عندنا . أقول لك حكاية بقى . طيب قولى أيوه .

هى : . . .

أنا : زى بعضه كأننى باتكلم فى الراديو . أحكى لك حكاية . أول
ما جيت البلد دى . ضربت الجرس ما جاش الجرسون . مرة واتنين وثلاثة . .
وبعدين زهقت . فوقفت قدام باب الأوضة ولقيت جماعة من الجرسونات
واقفين فقعدت أسقف لهم . وتلفتوا جميعاً ولكن ولا واحد منهم تحرك . وإنما
راحوا يضحكون وأنا مندهش جداً . أسقف وبرضه عاملين بيضحكوا . .
مش فاهم أنا . وأخيراً ناديت واحد منهم . ولما دخل الأوضة قلت له : إزاي
يا أخى أنا عمال أسقف ومفيش واحد منكم راضى يتحرك . فقال لى : احنا
كنا فاكرين حضرتك حترقص . لأن السقف عندنا فى الرقص بس . ولكن مش
علشان تنادى الجرسون . وعلشان كده احنا وقفنا مبسوطين منتظرين نشوف
رقص بلدكم ! .

هى : ...

أنا : الله يوجع دماغك .

(وأخرجت من جيبى بعض النقود ووضعتها فى الطبق وأشرت إلى الجرسون

وقت) .

هى : إلى أين أنت ذاهب يا قيس ؟

أنا : إيه . بتقولى إيه . وبتكلمى عربى فصيح يخرب بيتك . طيب

قولى كده من الصبح يا فضيلة الشيخة . .

هى : أدينى قلت يا دلعدى . . .

أنا : وكما بالبلدى ؟ إنت منين . . وساكتة ليه طول الوقت . . ومين

جانبك هنا ؟

هى : جانبى هنا . حضرتك .

أنا : حضرتى يعنى إيه ؟

هى : طبعاً أنا جاية علشان حضرتك . لأنك مش حتعرف طريق البيت . .

وأدينى جيت أنا والسواق . وهو واقف بره . .

أنا : سواق بتاع مين . .

هى : بتاع الناس اللي انت معزوم على الغدا عندهم . .

أنا : يا بنت الإيه . . وانت بتشتغلى عندهم إيه . .

هى : مربية . .

أنا : مربية لمين . . دا الأستاذ اللي انت بتشتغلى فى بيته معندوش أولاد . .

يمكن مربية له هو . .

هى : إيه بقى الكلام ده . .

أنا : . . .

هى : سكت ليه . . بقى علشان ما أنا لابسه سارى وسمره وشوية وشعرى

له ضفيرة بقيت هندية خلاص . . بقيت شكل الناس دول . . مفيش حاجة

تخلينى أفترق عنهم . . الدم . . مش باين . .

أنا : الدم إيه . . دمك كان واقف ولا قاعد أنا عارف . . يقطعك ميت

حتة . .

هى : ياللا بينا ..

أنا : بينا إزاي ؟ بس أفهم . إيه اللي خلاك انكثمت طول الوقت ..
إيه خلاك قاطعة النفس مرة واحدة كده ..

هى : هو انت إديتني فرصة .. أنا بصيت لقيتك دخلت في عبي مرة
واحدة كده .. وهات يا فلسفة . والناس اللي قاعدين قدامنا هناك في الركن
قعلوا يقولوا من بعيد لبعيد .. اسكتي .. ما تتكلميش . خليه هو يتكلم ..
وأنا لما كنت بضحك كانوا همه اللي بيضحكوني ..

أنا : ناس مين دول ؟ أنا ما شفتش حد خالص !

هى : ده .. اللي اسمه مش عارفه إيه .. اللي ساكن جنينا ..

أنا : عرفته الكلب .. هو اللي عمل الفصل ده .

هى : مش تقوم بقي ؟

أنا : آه تقوم بقي .. أنا تعبان شدي إيدي ..

هى : ياه .. للدرجة دي .. إنت زعلان مني ولا إيه ؟

أنا : وأنا حازعل منك ليه .. بس أنا عاوز الناس اللي شافوك ساكنة
يشوفوك وانت بتتكلمي ويشوفوك وانت بتشدني .. وبتتحاييل على علشان أقوم .
يعنى عاوز رد اعتبار لكرامتي ..

هى : تكونش عاوز تغني ..

أنا : عاوز والله .. قولي معايا : كسفوه .. كسفوه .. ولما جه يتكلم

كبسوه .. كبسوه ..

هى : ياريتني فضلت هندية على طول .

أنا : ياريتك .. كنت لقيت حاجة أكتبها .

هى : بقيت وحشة دلوقت ؟

أنا : بس لازم أنا اللي أمشي قدامك .. في الهند كده ..

(ووقفت أمام الباب .. وتقدمه مناسيق) .

هى : صحيح ... تعرف بقي حضرتك أن كل الكلام نبي أنا قلته ده تمثيل

في تمثيل .

أنا : إزاي بقى ؟

هى : تعرف بقى لانى مش مربية عند فلان ده . . تعرف أنى زوجة صاحب السيارة دى .

أنا : يانهار لاسود . . انت مراته . . يا خبر . والله أنا آسف جداً . .
لأنما بقى الكلام اللي أنا قلته ده مدح لذوقه . . إنه راجل عنده ذوق وعرف يختار . .

هى : أيوه عرف يختار مراته لكن ما عرفش يختار أصحابه . .

أنا : لأ . . أرجوك مش للدرجة دى . ثم لانى ما أعر فكيش . .

(وتوقفت السيارة فجأة . . وظهر صديقى وركب إلى جوار السائق) .

أنا : أهلا انت فين ؟

هو : « ينظر إلى الفتاة » فين إزاي ؟ . مش راحت تجيبك . . مش كان فيه ميعاد بيننا . . أنا أرسلت لك أخت مراتى . .

أنا : مين ؟

هو : مين إيه ؟ مش واخذ بالك ؟ ليه حصل حاجة ؟ . دى أخت مراتى
إزاي مش عارفها يا أخى : إنت مش قابلتها يوم حفلة السفارة . .

أنا : اسمع . . أرجوك ! وقف العربية . . نزلتى هنا . . أنا دماغى حيطق . .
نزلونى . . نزلونى هنا . . يا فرقة ممثلين . . يا فرقة الريحاني وإسماعيل ياسين يافرق
كاريو كا . . نزلونى . .

هو وهى : على فين ؟

أنا : أروح أكتب الكلام ده كله . .

« مفيش ستار علشان ينزل »

● صاحب القداسة رفض!

في الصباح الباكر جاءت الصحف . .

والصحافة في الهند ممتازة . . صفحاتها أنيقة . والطباعة جيدة . والموضوعات معروضة عرضاً ممتازاً . وأسلوب الصحفيين هنا لا يختلف عن أى صحفيين في أوروبا وفي أمريكا أيضاً .

قرأت مجموعة من الكلمات ألقاها الزعيم الهندي نهرو في البرلمان . فصيح جداً نهرو . ومناقشاته حقيقية . والناس هنا يحبونه . بل يكونون له شيئاً أكثر من الحب . ولا يخفون خوفهم عليه وعلى صحته . ويتساءلون : ماذا يحدث للهند بعد نهرو؟ ويؤكد الهنود أنه لا يوجد رجل واحد يقف إلى جواز نهرو . أو يصل إلى مركزه . وإن كانوا يذكرون في نفس الوقت رجالاً ممتازين يقفون وراءه . ولا يبعدون عنه كثيراً !

والناس الواقعيون يقولون إنه لا خوف على الهند . ولا خوف على الشعوب بعد وفاة زعمائها . فقد عاشت الشعوب ومات الأفراد . وليس هؤلاء الأفراد الممتازون إلا سائقى سيارات التاريخ . فإذا مات السائق فالسيارة تتوقف من تلقاء نفسها إلى أن يظهر سائق آخر وبسرعة ومع سرعة إنطلاق السائق الجديد يتهدد بعض الركاب ، ولكنهم يمضون في طريقهم . والزعماء هم آباء الشعوب . . وقد عاشت الشعوب بعد وفاة آباءها . فأنت مثلاً ، ألم يعش أبوك بعد وفاة أبيه ؟ لقد عاش وأنجبك ، وأنت بعد والدك ستعيش وهكذا . ولكنهم في الهند يشيرون إلى نهرو بتقديس أو احترام شديد . ويسمونه البانديت جى . أى صاحب السيادة أو سيادة الرئيس . .

وبالفعل نهرو شخصية فذة . تاريخه السياسي طويل . دخل السجن وتعب .
وخرج من السجن واستأنف كفاحه . وهو رجل مثقف وواسع القراءة وتعلم في
إنجلترا . وله كتب وله أسلوب في الكتابة باللغة الإنجليزية . ثم عنده إحساس
غريب بأنه أب للشعب الهندي على اختلاف ألوانه وأديانه .
وهو يتصرف على أنه أب .

وقد وصفه غاندى بقوله : صدقونى إذا كان جواهر لال نهرو ليس في
السجن الآن ، فليس معنى ذلك أنه خائف من السجن . فنهرو قادر على أن
يذهب إلى المشتقة وهذه الابتسامة العريضة على وجهه !
وظلت هذه الابتسامة على وجهه حتى اليوم كأن ينفذ أمراً صدر من غاندى
أن يتسم دائماً ؟

وقد كنت في نيودلهى في أحلك المواقف السياسية بالنسبة للهند . .
ففي الشمال يوجد زحف صينى على الحدود . أو على الخط المعروف
باسم خط ما كوهان . .
ويوجد الدلاى لاما الذى هرب من التبت أمام القوات الصينية ، والذى
من أجله سافرت إلى الهند . .

وفي أقصى الجنوب توجد ولاية كيرالا التى نجح الحزب الشيوعى في أن يفوز
في انتخاباتها بالحكم . وبذلك جاءت وزارة شيوعية رغم إرادة نهرو . أو رغم
أنف حزب المؤتمر الذى يزعمه نهرو . .

والرأى العام والصحف تطلب من نهرو أن يضرب . .
ولكن نهرو لا يضرب . فليس الضرب من سياسته . فلا هو يريد أن
يضرب الصين في هذه المناطق الجبلية من أقصى شمال الهند .. لأنه ليس من
المعقول أن تفقد الهند صديقها الصين من أجل بضعة مئات من الكيلو مترات
الجبلية . .

ولا يستطيع أن يضرب مواطنيه في كيرالا . .
ودارت المناقشات في البرلمان وثار عليه أحد أعضاء حزبه . لكنه كان
أعقلهم وأكثرهم هدوءاً .
كانوا يضربون المنصة بأيديهم . وكان يتسم . وكانت ابتسامته تشرق وتختف

بسرعة .. كأنها شرر ولاعة . . وبنفس الهدوء الذى دخل به البرلمان خرج به ..
وتصدر الصحف تؤكد أن نهرو هادئ . إذاً فكل شئ هادئ ..
وقد حدث أن أدلت ابنة نهرو وهى رئيسة حزب المؤتمر الذى يتزعمه أبوها فى
مؤتمر صحفى فشتمت الشيوعيين فى جنوب الهند . وسئل أبوها عن رأيه . فأجاب
بأن هذه هى ابنته . ثم ضحك وقال : لا أريد إنشقاقاً آخر فى داخل أسرتى !
والرئيس نهرو من مواليد ١٨٨٩ من مدينة الله آباد وهى نفس السنة التى
ولد فيها العقاد وطه حسين وهتلر وشارلى شابلن والفلاسفة مارتن هيدجر وجبريل
مارسيل والمؤرخان توينبى وعبد الرحمن الراعى . وهو ولاشك أكثرهم حيوية
ونشاطاً وأحبهم أيضاً . فهو إلى جانب أنه كاتب وسياسى وزعيم . هو إنسان
من أشد الناس إيماناً بالسلام بين الشعوب ..

وأذكر عبارة لنهرو تقول : الاشتراكية بالنسبة لى ليست فقط نظرية
أعشقها . وإنما هى عقيدة حيوية . وأتمسك بها من كل عقلى وقلبى .
وهو صادق فيما يقول . . والناس يعلمون أنه صادق وأنه حريص على ذلك
فى داخل الهند . . وفى خارجها أيضاً . وموقفه بين الكتل السياسية فى العالم ،
والنزاهة جانب الحياد بين المعسكرات السياسية . تؤكد أنه يريد أن يحقق السلام
فى العالم كله ..

وهو مطلب صعب ولاشك . ولكنه يساوى ما يبذله من مجهود فى سبيل
تحقيقه ..

والصحف التى أطلعها كل يوم تؤكد هذا المعنى .
وتؤكد أن الصين حتى لو صبغت جبال الهملايا بلون الدم .. فإن هذا
لن يغير من موقف الهند - أقصد لو صبغت هذه الجبال بدماء الهنود طبعاً !
والصحف أيضاً تتحدث عن الدلاى لاما ، ذلك المعبود الذى يحكم بلاد
التبت روحياً . هذا الشاب الطيب هرب ومعه بعض الرهبان إلى الهند وقطع
فى هذه الرحلة ألوف الأميال الجرداء على ظهر جمل . ويقال على ظهر بغلة .
ويقال على ظهور حواريبه والمؤمنين به . وأنا لا أصدق هذا الرأى الأخير .
فقد رأيت المناطق الجبلية التى مشى عليها الدلاى لاما بعد ذلك وأعتقد أنه
لا يكفيه مليون مؤمن لكى يركبهم عبر هذه الجبال والوهاد ، وفى تلك الليالى

الباردة . . أى ثلث سكان التبت . خصوصاً أن بلاد التبت صحراء باردة جداً .
ولذلك يسمونها سقف العالم . حيث توجد أقدم النظم التى عرفتها البشرية وعدلت
عنها لسخافتها : الحاكم الإله الذى يختاره الرهبان .. ثم أغرب من هذا كله
نظام تعدد الأزواج . . أى عدد من الأزواج للمرأة الواحدة !

والصور التى أراها للدلاى لاما تؤكد أنه شاب رشيق ووسيم ومرح . .
فعلى الرغم من المصائب التى انحطت فوق دماغ شعبه المؤمن فى التبت وفى العاصمة
لهاسا . فإن قداسته لا يتوقف عن الابتسام . لماذا ؟ ربما كان السبب ، هو
أن الدلاى لاما باعتباره إلهاً لا يحق له أن يحزن . فهو يجب أن يؤكد لشعبه مدى
قدرته على الاحتمال . فهو يضحك ، تماماً كما تضحك الشمس من وراء
السحب . . والأمطار لاتبها !

أو لعله يريد أن يقول لشعبه إنه كان يعرف ذلك من قبل . وأن الذى حدث
هو كلام مكتوب فى اللوح المحفوظ عنده . أليس إلهاً ؟ بلى إنه إله عظيم قادر
على كل شئ . ومن ضمن قدراته التى لم تظهر بعد أنه سيعود إلى التبت وسيطرده
الصين من بلاده - عدد الصينيين حتى هذه اللحظة ٧٠٠ مليون نسمة !
وقد قرأت كل ما كتبت الصحف عن الدلاى لاما . .

ونزلت إلى المكتبة أشتري كتباً عنه . لم أجد إلا كتاباً واحداً كتبه رجل
سويدي عن بلاد التبت . وكتاباً آخر كتبه رجل ألماني عن بلاد التبت أيضاً .
ولم أجد مجموعة التصريحات التى أدلى بها الدلاى لاما عن هذه الرحلة
السرية الخطيرة التى قام بها فى حماية المؤمنين من رجاله ورغم الحراسة الصينية
الشديدة على حدود الهند . ورغم أن الحكومة الصينية وعدت كل من يعثر
على الدلاى لاما حياً أو ميتاً بمبلغ كبير من المال ، فإنه استطاع أن يهرب .
ويقال إنه هرب ومعه أكياس من الذهب . ويقال من الماس . ويقال من
الأسرار والطلاسم التى ستودى - إذا ما وصل إلى الهند سالماً - إلى خراب
بيت ماوتسى تونج . !

هكذا نشرت الصحف الهندية . ولا بد أنها كانت تسخر من الدلاى لاما ،
ولكن واجب الضيافة يحتم عليها أن تلتزم الأدب . والتزمت الأدب الشديد !

وعندما بدأ الدلاى لاما يدلى بتصريحات للصحف يهاجم فيها الصين ،
مخرجاً بذلك حكومة الهند ، أشاروا عليه أن يلتزم هو أيضاً الأدب .
والترم الأدب ولم ينطق إلى أن قابلته أنا ، فخرج عن حدود الأدب وشتم ..
شتم الهنود الذين يحرسونه ويمنعون زائراً كريماً — هدد كلمته — مثلى جاء يزوره
من آخر الدنيا ليسأله عن الصحة وليدعو له الله أن يعيده إلى بلاده سالمأ !!
وتمشياً مع أقدم التقاليد الدبلوماسية أرسلت خطاباً إلى قداسة الدلاى لاما
في مدينة ميسورى في أقصى الشمال من الهند استأذن في المشول بين يديه . .
وكان خطابى في غاية الأدب طبعاً .

وأذكر أنني قلت في الخطاب ما نصه بالحرف الواحد : سيدى ومولاي اسمح
لعبد ضعيف جداً جاء من مصر (عدد سكانها ٣٠ مليوناً) كلهم يحبونك
وحزينون على ما أصابك على أيدي أعدائك من الصينيين . اسمح له بأن يتشرف
فيلمس بيده النظيفة طرف ثوبك . . ولقداستك الحق في أن تختار المكان من
الثوب الذى يشرفنى أن ألمسه . . واسمح لهذا العبد أيضاً أن يسألك عن صحتك
الغالية . . بل التى لا تقدر بجمال . . واسمح له بأن يتشرف بالجلوس على مسافة
تسمح له بأن يراك ، وتسمح له في نفس الوقت أن يسمع صوتك الهامس . واسمح
له إن شئت أن يلتقط لك صورة ترفع قدره في عين القراء في مصر والعالم العربى ..
وإذا وافقت يا صاحب القداسة ، فهذا ما يتوقعه العبد من مولاه العظيم . وإذا لم
تفعل يا صاحب القداسة ، فإنه لن يفقد الأمل ، ولن يعود إلى القاهرة في الطائرة
التي تقطع المسافة في ١٥ ساعة إذا لم تتوقف . وقد لا يعود إلى القاهرة وإنما سيموت
من الحسرة على أنه لم تسعده لقياك . . فإذا مات من أجلك فستظل روحه ترفرف
حولك ..

فأرحم هذه الروح من الدوخة حولك ، واسمح لها بأن تسعد بالقرب من
طلعتك البهية . وأدام الله قداستك . وأطال في عمر ألوهيتك . المخلص دائماً
والمسكين إلى أن تأذن له . . » .

وانتظرت طويلاً . . ورحت أقطع الوقت في شرب الشاى وأكل الأناناس
وشرب اللبن والبيض وإغاظة كل جرسونات اللوكاندة . .
وفي يوم دق جرس التليفون وكان المتحدث أحد موظفى اللوكاندة وقال لى

إن خطاباً جاعنى من الدلاى لاما . .

وقررت فى هذه اللحظة أن أخلق الحينى . وأن أغرق جسمى فى الكولونيا . .
وأن أتطر لكى أكون جديراً بهذا الشرف الذى لم يسبقنى إليه أحد . وتخيلت
العناوين التى ستصدر بها صحف « أخبار اليوم » فى القاهرة : أول صفى يقابل
الدلاى لاما . . أول حديث للدلاى لاما مع أخبار اليوم . . الدلاى لاما يوقع
بأصابع قدميه على صورته هدية منه لقراء صحف أخبار اليوم . . التوقيع بأصابع
القدم تقليعة لنجوم السينما فى أمريكا . . أكبر دليل على أن الدلاى لاما
أمريكانى . . إلخ .

وسمعت طرقات على الباب . وكان الجرسون ومعه الخطاب . وبسرعة
فتحت الخطاب وطارت عينائى من أول الصفحة إلى آخرها . اخصص عليك
دلاى لاما . اخصص على الذين جعلوك إلهاً . . إنهم مجموعة من البهائم لا تستحق
إلا شاباً أبه مثلك !

لقد كان الخطاب بالرفض .

قداسته يعتذر عن مقابلتى لانشغاله .

انشغاله فى أى شئ هذا الدائح . العريان الذى لا يجد قوت يومه . .
هذا الصعلوك الذى استغل سذاجة الناس فجعل من نفسه إلهاً . . هل من المعقول
أن أصل إلى الهند ثم أكون على مسافات ساعات منه ولا أراه . . لا يمكن
يا قداسة اللاما . . أو جناب الدلاى . . لا يمكن أن أعود إلى القاهرة دون
أن أراك أو دون أن أتحدث إليك . الموت أهون . . اعتزال الصحافة والكتابة
والانتحار أهون من هذا كله . . إنك طاقة القدر بالنسبة لى . . وأنا الذى
سأفتحها بيدي وأطلب من الله ما أريد وسأقفلها بيدي أيضاً . . أنا أفهم أنك
تتأله على غيرى يا طريد الاشتراكية !

ورحت أقلب فى الأوراق أبحث عن أصل هذا الشاب . وكيف وقع الاختيار
عليه ليكون إلهاً . .

على كل حال لا تزال أمامى بضعة أيام فى العاصمة قبل أن أتمكن من
السفر . . .

● إله في انتظاري!

الآن أصبحت عندي فكرة واضحة عن الدلاى لاما الرجل الذى يحكم بلاد التبت . هذا الشاب ليس له أصل واضح . فلا أبوه إله ولا أمه . ولا أى إنسان من أسرته تصادف أن اقترب من بيت الناس الذين حكموا بلاد التبت من ألوف السنين . وإنما هذا الشاب وقع عليه الاختيار ليكون إلهاً . فهو إله بالاختيار . أى إن الناس لم يولدوا ليجدوا أنفسهم مؤمنين به . وإنما انتظروه وتوقعوه وآمنوا به . . ثم إنهم يعرفون أمه ويعرفون أباه . وأبوه وأمهم من الفقراء وعليهما ديون كثيرة مستحقة . ولا بد أن تكون السيدة والدته قد طلبت حلة من جارتها . أو كوزاً من الأرز أو قالبين من السكر . ومن المؤكد أنها لم ترد هذه السلفيات .

أما كيف يختارون قداسته ؟ فهذا سر من أسرار الرهبان الذين يحكمون هذه البلاد حكماً حقيقياً ، وليس الدلاى لاما ، إلا ذبلاً لهم . أو لإتواجهه للدكان الخفى الذى يديره هؤلاء الناس . وأنا أعرفهم وقد رأيتهم وصافحتهم ولا أزال أشعر بالامتنان لهم . وأنا أعود فأؤكد له الآن .

فهؤلاء الرهبان ، لا أعرف عددهم بالضبط ، يختارون من بينهم واحداً ولا بد أن يكون هذا الواحد أكبرهم سناً وأكثرهم صلماً . لا بد أن تكون مساحة الصلح التى عنده أكبر من أى صلعة موجودة فى الأديرة . لأعرف كيف يتأكدون من ذلك . وأقرب إلى ظنى أنهم يقومون بعمل مسابقة فى جمال الصلح بين الرهبان . حتى يفوز هذا العجوز . ولا شك أن مركز هذا العجوز من الناحية الدينية ،

تسمح جداً بتزوير أية انتخابات ولو كان شعر رأسه طويلاً كثيفاً كشعر الأسد . .

وبعد أن يختاروا هذا العجوز الأصلع يطلبون إليه في عشرين يوماً . . ويقال ثلاثة وعشرين يوماً أن يبحث لبلاد التبت عن إله . . ويظل هؤلاء الرهبان يبكون ليلاً ونهاراً ويرجون هذا الراهب أن ينقذ البلاد من الشياطين التي تربص بها . . في هذه الأيام العشرين . . ولكن الراهب الأصلع . . يجبس نفسه في صومعته يفكر . . وفي نفس الوقت يفكر في طريقة لإنقاذ البلاد من الشياطين في الأيام التي خلت من وجود إله . . وأخيراً يتعطف الراهب ويتلطف ويعلن أنه قد عثر على طريقة . . وأن هذه الطريقة ستؤدى بغير شك إلى اختيار أصلح الآلهة لحكومة التبت !

وفي احتفال مهيب في مدينة لهاसा ، عاصمة التبت يظهر الراهب ويعلن للشعب في صمت وأسى أن مهمته شاقة جداً ، ولكنه في نفس الوقت لابد أن يوفقه الإله إلى اختيار إله جديد . أما الإله الذى سيوقفه ، فهو الذى اختفى قبل ظهور هذا الإله الجديد . فمن الظواهر الغريبة في هذه البلاد أن الإله يختفى في سن الثالثة والعشرين . لا أحد يعرف أين يذهب هذا الإله . ولكنه يختفى . وفي نفس الوقت تظل روحه ترفرف حول بلاد التبت من أولها لآخرها — مساحتها نصف مليون كيلو متر مربع !

والطريق الذى سيسلكه الراهب الأصلع معروف للرهبان . فهو عادة يحمل طعامه وشرابه وبعض ملابسه إلى شاطئ إحدى البحيرات ويظل ينظر إلى سطح الماء ليلاً ونهاراً . تماماً كما تنظر أنت إلى مرآة في ضوء الشمس عشرين يوماً متواصلاً . دون أن تغيب الشمس . ! وبعد هذه المدة المعروفة لدى الرهبان ، يرى الراهب الأصلع ، الذى انعكست صورة وجهه على الماء ومن الماء إلى صلعته . صورة الغلام الصغير الذى سيكون إلهاً للتبت . ويرى ملامحه ويتأكد منها . من عينيه ومن أنفه . . وخصوصاً من أنفه . لأنه لا يمكن أن يكون الإنسان إلهاً إذا كان أنفه ضيقاً وإذا كان يتنفس بصوت عال . فالتنفس بصوت عال يقلل من هيئة الآلهة !

ويتأكد الراهب الأصلع من ملامح الطفل الذى يراه . وفى نفس الوقت يتأكد من ملامح والديه . ويؤكد الرهبان أن كل هذا يبدو واضحاً فى الماء . ويؤمن الراهب العجوز بأنه قادر أيضاً على أن يعرف عنوان بيت هذا الطفل ويصف شكل البيت . . تماماً كما يفعل الذين يفتحون المنديل فيرون فى الفئجان الذى به قطرات زيت ، شكل الناس وعناوين بيوتهم .

وبعد أن تم ملامح الصورة أمام الراهب ، ينحنى راکعاً أمام البحيرة . . شاكراً للإله السابق معاونته الصادقة فى اختيار خلفه العظيم . ويعود الراهب إلى صومعته وقد ارتاحت نفسه . ويعم الفرح التبت . لأنها قد وجدت لها الإله المناسب . وتزبل أيدى الناس معلقة . ويظل الدعاء معلقاً بين السماء والأرض . وتظل العيون حائرة بين ملامح الإله الجديد . . أما أحلام الناس فهى طائشة ضائعة ، لم تتحدد لها وجهة بعد . .

ورحمة هؤلاء المؤمنين ، يعلن الراهب أنه قد حدد يوم كذا ليكون احتفالاً بالإله الجديد . .

وتسترح نفوس الناس . وينتظرون . .

أما الراهب العجوز ، فهو يذهب إلى إحدى القرى القائمة على إحدى البحيرات التى وقع اختياره عليها ، ويختار الطفل الذى رآه على صفحة الماء . وينقل هذا الطفل إلى الدير . . وتجربى على الطفل بعض العمليات القاسية جداً من بينها ختان الطفل . . ومن بينها أيضاً رسم علامات على ظهره وعلامات على قفاه وعلامات على قدميه . . هذه العلامات يستخدمون فيها الإبر الملتهبة .

ويقال : إن سبب ذلك هو تطهير هذا الإله من الشياطين . . أو تمييزه عن غيره من الناس . خصوصاً إذا جاء الموت . .

وبعد ذلك يدخل هذا الطفل المقدس الدير . . وهناك يتلقى أصول العبادات وأصول هداية الناس . وكيف يكون إلهاً . . فالبشر هم الذين يعلمونه كيف يكون إلهاً عليهم وعلى غيرهم . . وهم طبعاً يتظاهرون أمام الناس بالتقديس له . ولكنهم فى الواقع يستخدمونه لأغراضهم . . فهم الذين صنعوا هذا الإله ، وهم الذين يعبدونه !

ويتقدم الشعب بكل أنواع التقديس لهذا الإله الجديد الذى لا يراه الناس إلا نادراً . وفى المواسم الدينية . . وفى هذه المناسبات السعيدة يقدمون له الهدايا والطعام والأموال . . وإلى جانب أنه إله فهو حاكم للتبت . وله كل أموال هذه الدولة الصغيرة التى تضم أناساً يعيشون فى ظروف قاسية جداً تجعلك تتساءل : ولماذا يعيشون ؟

وعندما كانت الصين تهاجم الدلاى لاما ، كانت تسخر منه بقولها إن خروجه من التبت هو فى الواقع إطلاق لسراحه فقد كان سجيناً فى الأديرة . . ثم تقول أيضاً : إن الصين قد أطالت عمر الدلاى لاما عندما طردته . . فالدلاى لاما ، يعلم أن كل الآلهة الذين حكموا التبت قد اختفوا وهم فى الثالثة والعشرين . . فالرهبان هم الذين يتولون قتل هؤلاء الآلهة !
والدلاى لاما هو أحد اثنين يحكمان التبت . .

فهو الحاكم الروحى الذى يملك الأرض ومن عليها وما عليها . . وهو يقيم فى دير فوق تل بالقرب من العاصمة . .

أما الثانى فاسمه بانشا لاما وهو يحكم التبت إدارياً . . ولكن هذا الحاكم لا قيمة له ولذلك يعيش طويلاً . . يعيش إلى أن يموت كأي مواطن عادى !
والتبت تشبه جمهورية « سان مارينو » التى تقع فى شمال إيطاليا . . وهى إمارة مستقلة استقلالاً تاماً وعليها سور مرتفع . وكان بها أحد أندية القمار وبها برلمان ويحكمها اثنان من الملوك ! . . جمهورية يحكمها ملكان ! كل واحد منهما لمدة ستة أشهر . . وهى الجمهورية الوحيدة فى أوروبا الغربية التى بها حكومة شيوعية ! !
والفارق الوحيد هو أن التبت قاومت النظام الشيوعى . . ولكنها الآن قد ضمت نهائياً للصين . . وقد أقام الصينيون بها طرقاً طويلة ممتدة على حدود الهند . وأطاحوا بهذا النظام الدينى وعينوا بصفة مؤقتة أحد رجال الدين ليتولى هذه السلطة الروحية للدلاى لاما . . ظاهرياً طبعاً !

* * *

وبعد أن عرفت ما أراه ضرورياً عن هذا الدلاى لاما الذى أرسل خطاباً رقيقاً يعتذر فيه عن مقابلتى ، فقابلت خطابه هذا بإجراء غير مهذب وغير رقيق . .

تشهد بذلك سلة المهملات قررت أن أراه وأتحدث إليه ، وليكن ما يكون !
بعد هذا كله بدأت أبحث عن طريقة للسفر إلى مدينة ميسورى حيث
يرابط الدلاى لاما ورجاله فى سفوح الهملايا فى أقصى شمال الهند وعلى مقربة
من حدود التبت . .

إن الرحلة إلى ميسورى هذه لن تكون بالسيارة أو بالقطار . . وإنما سوف
أدلك على الطريقة التى رأيت بها الدلاى لاما . .

وأنا آخذاً من يدك لمقابلة قداسة الدلاى لاما . . والأخذ باليد سيتكرر
كثيراً ، كلما أهلت علينا طلعة الدلاى لاما . .

ومن الممكن أن تسافر إلى ميسورى على قدميك . . ومن الممكن أن تسافر
إليها على ظهر حمار أو ثور . . أو بطائرة هليوكوبتر . .

أما من نيودهى فالرحلة ستكون فى سيارة خاصة تستأجرها ذهاباً وإياباً ، وأجر
السيارة حوالى عشرة جنيهات إذا ذهبت ورجعت فى اليوم . . أما إذا بقيت حتى
الصباح فيجب أن تدفع أكثر . . هناك وسائل مواصلات أخرى كالقطار
مثلاً ، ولكن القطار يقطع هذه المسافة فى ١٨ ساعة ليلاً ونهاراً . . والطريق من
نيودهى إلى ميسورى متعة* ، هذا إذا كان عندك صبر على المرور فى الطين والوحل
والأمطار . . ولا تغضب إذا فوجئت بأن السائق قد توقف فجأة ثم ترك السيارة
بلا سابق إنذار . فلا تظن أنه هرب وإنما قد اعترضت طريقه بقرة ، والبقرة
مقدسة ولذلك فهو لا يستطيع أن يطردها أو يلمسها ، وإنما يجب عليه أن يتركها
حتى تمشى من تلقاء نفسها ، وفى هذه الأثناء لا مانع من أن يركم لها ركعتين . .
لا تضحك ولا تدهش فهناك ما هو أعجب وما هو أكثر غرابة من ذلك . .

ستجد القرى على الجانبيين شبيهة بالريف المصرى .. بيوت من الطين وأناس كالطين
أيضاً . ولكن هنا العدد أكبر والأمراض واضحة على وجوههم وعلى أجسامهم . .
ستجد حولك مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية . . مع الأسف هذه الأراضى
لا قيمة لها . فالأمطار تجولها إلى بحيرات ويموت البذر والزرع . . وإذا تبقى
للفلاح شئ أخذته السيول . . أخذت أنبائه وطيوره وحيواناته ثم هدمت بيته .
فلا يبقى له شئ* .

كل عام تحدث مجاعات في بلاد الهند الغنية بالأرض والماء والأشجار ، ويموت من المرض والسيول والجوع مئات الألوف . ومع ذلك لم تتمكن الدولة من وضع برنامج يطبقه الناس لتحديد النسل .

ستجد ببعض البلاد أن وسيلة المواصلات الوحيدة فيها هي الدراجات والدراجة يقودها شاب ويركب وراءه أربعة أو خمسة من الناس .

كل واحد منهم في حجم هذا الشاب مرتين وثلاثاً . وسرى الإرهاق والعرق على وجهه والناس مشغولون في كلام وحديث .
ستقول : أعوذ بالله ، هذه وحشية .

قل ما تشاء فلقمة العيش صعبة هنا . إن الركاب يتعبون أيضاً من أجل الملايم التي سيعطونها له . إن حالتهم تدعو إلى الشفقة أيضاً . وسرى أن هذا الشاب يقطع بدراجته مسافات تبلغ العشرة كيلومترات وهو يلهث .

وعلى الجانبين ستجد أشجاراً . هذه الأشجار لها أرقام متسلسلة . فالدولة رقت الأشجار . فقد كان الناس يقطعونها ليستخدموا خشبها في الأفران . وكانت الحكومة تفاجأ باختفاء جانب من الأشجار فجأة . . فلا تعرف من الذي قطعها . ولذلك جعلت لها أرقاماً ليسهل أن يتم الحراس عليها .

سأروي لك مشهداً رأيته وأعتقد أنه يتكرر كثيراً . وقفت في السيارة أمام سيل جارف وانتظرنا بعيداً حتى يتوقف المطر . ظللنا سبع ساعات .

ونحن في السيارة نأكل ونشرب ولا نعرف كيف نقطع الوقت ومن حين لآخر نفتح النوافذ للهوية وكان السيل يجتاح البيوت ومن تحت البيوت تظهر رعوس الناس . . النساء والرجال والأطفال والأبقار وبعض الناس كان يصعد إلى الأشجار . . ولكن هذه الأشجار كان يسبق الناس إليها عدد كبير من الطيور بعضها متوحش جداً كالصقور السوداء .

وقد رأيت طفلاً يقاوم السيول ويصرخ . ولا أحد يستطيع أن ينقذه ولم يكد الطفل يصل إلى حجر مرتفع ويمد يده عليه حتى رأيناه يرتد ويخنق تحت الماء . لقد كان في استقباله هناك ثعبان ضخيم لدغه . فقتله ، وراح الثعبان يسبح حياً . . أما الطفل فظهر بعد لحظات جثة طافية .

لم أتم تلك الليلة . وظللت أحلم أنني أنام تحت شجرة . وفجأة تتحول الشجرة إلى أفاع وإلى حيات ، على هيئة غصون تتلوى . . ولهذه الغصون أوراق ، وهذه الأوراق هي أجنحة البعوض . . أما الثمار فهي تشبه رءوس النور والقرود وكلها تبرق . . فأصحو من النوم منزعجاً وأتمنى أن أبقى متيقظاً حتى الصباح .

لعلك تقول لي : لاني نسيت الموضوع الأصلي وهو الرحلة . . . إن هذا من صميم الموضوع . . . وإلا فإذا عساك أن تفعل أو تفكر في رحلة تطول إلى ١٤ ساعة ولا تستطيع أن تتقدم أو تتأخر .

وعندما تصل إلى مدينة ديرادون ستجد أن المنظر قد تغير قليلاً . . فالمدينة مليئة بالمحلات التجارية لأنها مدينة سياحية . ولكن الناس هم الناس ستجد أسماء مطاعم وفنادق وبارات . . طبعاً قد لا تلتفت إلى ذلك ولكن لو عرفت أن كلمة « بار » هذه من الكلمات النادرة جداً في الهند ، فستعرف أنك في مدينة راقية . فالخمور ممنوعة في الهند . ومسموح بها لعدد قليل جداً من المحلات العامة وفي أيام معينة وساعات معينة . أما كل بلاد الهند فالخمور فيها ممنوعة منعاً باتاً . . وبعد ذلك تبدأ الصعود في الطريق الجبلي . هذا الطريق يجب ألا تمشي فيه السيارة أسرع من عشرة كيلومترات في الساعة . سيكون المشي بطيئاً جداً والسائق هنا يسمع القوانين وينفذها حرفياً . وربما كل الناس في الهند كذلك . وبعد ذلك سيبدأ الصعود إلى الجبل . الطريق مرصوف وجميل . إنه يشبه أي طريق جبلي في أوروبا . ويظهر أن كل المناطق الجبلية واحدة ومتشابهة . الطريق طوله ١٢ كيلومتراً . هذا الطريق يدور ويدور حول الجبل . كما يدور الشال حول العمامة . . أو « الألسين » حول ساق عساكر الحدود . . ستقطع السيارة هذا الطريق في ساعة بالضبط .

الفنادق هنا كلها جيدة . ستكتشف أنك أحضرت معك الملابس الصيفية . . وستذهب إلى الفندق . . والفندق جيد . وحجراته واسعة جداً . وهي لذلك باردة جداً . . وفي الغرف شئ غريب لا يعجبك وهو أن أبوابها مفتوحة معظم الوقت . أو يمكن قفلها بصعوبة . ولا تعرف إن كان السبب هنا هو أنه لا داعي لقفله بالمرة . أو أن صناعة المفاتيح لم ترتفع بعد إلى مستوى هذا الفندق .

هذا الفندق اسمه « شارل فيل » وقد عرفت هذا الفندق من نيودهي .
فالذى يملك هذا الفندق هو نفس الرجل الذى يملك الفندق الذى أسكنه فى
نيودهي .

ووسيلة المواصلات واحدة هنا وهى الريكشا . . .

والريكشا عبارة عن محفة تشبه عربة كارو قد نزعت عجلاتها . . . وبدل
العجلات والحصان أو الحمار ، يوجد عدد من الهنود القصار القامة يحملون
هذه المحفة وينطلقون بك فى أى اتجاه . وهم يلهثون وتزداد وجوههم صفاراً وتزداد
عيونهم احمراراً . وتحس أنك إنسان رأسمالى أو إقطاعى . أو على الأقل فيك
كل عيوب الإقطاعيين والرأسمالين ، بالمعنى الذى تشير إليه أكثر الكتب الاشتراكية
تطرفاً . . . فأنت تستأجر إنساناً ، أو تستعبد إنساناً أو تركب إنساناً كأنه حيوان . .
كأنه ليس آدمياً مثلك . وتضع رجلاً على رجل ، فوق كتف هؤلاء المساكين . .
وبعد هذا تسمى نفسك متحضراً .

ولكن ما الذى يمكن عمله . . . فأنت لست المسئول عن هذا النظام غير
الإنسانى . . . وإنما المسئول الأول والأخير هو الفقر . . . وصعوبة المواصلات هنا ،
وندره الحيوانات أيضاً . . . وكثرة الناس ، وشدة الحاجة ، ثم تشريفك إلى هذه
المنطقة !

ولو فعل كل إنسان مثلك وعدل عن الركوب لأسباب إنسانية لارتكب
أكبر الجرائم ضد الإنسانية . . . إنك بذلك تقتل هؤلاء الناس من الجوع . . .
فأنت فى اللحظة التى تريد أن تعاملهم كبشر ، تقتلهم أيضاً من الجوع . . . ومن
الممكن أن تفعل مثل فتعطيهم مبلغاً من المال على سبيل الصدقة ، ولكن كم فقيراً
تستطيع أن تتصدق عليه . . . كم فقيراً فى دولة بها ملايين الفقراء !؟

على كل حال اركب ودع هذه المشكلة الإنسانية لدولة الهند فهى مشغولة
بها أكثر منك . . .

وقبل أن يذهب بك الخيال مثلما ذهب بى ، يجب أن تتأكد من أنهم
سيسمحون لك بزيارة الدلاى لاما . . .

من هم الذين سيسمحون ؟ إنهم نفس الذين رفضوا زيارتى له !

وهنا اسمح لى أن أروى لك ما حدث . . فإنه شئٌ مثير جداً . . ولنترك
الريكشا جانباً . فليست لها أية ضرورة ولا قيمة الآن ما دام الطريق البعيد جداً
إلى الدلاى لاما مسدوداً !

لقد اتصلت بالتليفون بقصر الدلاى لاما .

وعرفت أن قداسته ينزل فى قصر اسمه « بيرلا هاوس » . وهذا القصر محاط
بحديقة اسمها « الغابة المقدسة » . كل أشجارها مقدسة . . وممنوع منعاً باتاً أن
يدنو منها إنسان . ولا أعرف لماذا يقدسون الأشجار فى هذه المناطق . ربما لأنها
نادرة . فهم يمنعون أنفسهم من الاستفادة منها . . أو ربما كانت خدعة إنجليزية
ليمنعوا الناس من الاقتراب من هذا البيت أو من ملعب الجولف . الحقيقة أنى لم
أتأكد من هذه الواقعة . ولو أردت فلن أجد أحداً . . فنحن هنا فى قمة الدنيا . .
نحن هنا فى جبال الهملايا الشاهقة . .

وفى التليفون ذكرت اسمى ووظيفتى . . وأكدت ما جاء فى خطابى . ولكن
الذى حدثنى قد صارحنى بأنه هو الذى بعث بالخطاب . وأن قداسة الدلاى لاما
مشغول جداً هذه الأيام . ولم أشأ أن ألعن آباء الدلاى لاما : ولم أشأ أن ألعن
آباء هذا السخيف الذى كلفته حكومة الهند برعاية شئون الدلاى لاما حتى لا ينطق
أو حتى لا يكلم أحداً من الناس ، أو حتى لا يتصل بالصحفيين ويدلى بتصريحات
تؤدى إلى أزمة بين الصين والهند . . وأفهمنى هذا السخيف بأن هذه هى مهمته وأنه
مضطر إلى التمسك بوظيفته . وأنه لن يسمح لى ولا لغيرى بمقابلته هذه الأيام .

وحاولت ألا تنتهى المكالمة عند هذا الحد ، وقبل أن ترن سماعه التليفون فى
أذنى معلنة نهاية آمالى ، قلت له إذن أنتظر يوماً أو اثنين . .

وعاد هو بكل قنزحة يقول لى : أو أسبوعاً . .

وأقفل السكة فى وجهى . وفى هذه المرة ازداد إصرارى . فالدلاى لاما الآن
على مسافة مئآت الأمتار منى . وكان فى الصباح على مسافة مئآت
الكيلومترات ..

ولم أكل فطورى . وارتديت ملابسى الخفيفة جداً . فقد نسيت أن الجـو
هنا بارد كسويسرة فى أوائل الربيع . وارتديت البالطو ، وابتلعت ، قرصين من

الإسبرين . وأشرت إلى أحد عمال الريكشا أو تنابلة الريكشا على الأصح .
وحملوني والمسافة طويلة باردة . وهم يلهثون ويسعلون ويوجعون قلبي من الألم .
ويتوقفون ليستريحوا ، وينظرون إلى وجهي ، لعلّي أقدر مجهودهم . وقدرت بمجهودهم
طبعاً . ولكن لم أجد قلبي رقيقاً بعد هذه المكاملة التي صدمتني في أعز ما أملك . .
صدمتني في آمالي .

ونزلت بي الريكشا في طريق منحدر . وعلى اليمين وجدت لوحة عليها : الغابة
المقدسة . . ولم أجد شيئاً يستحق القداسة . . لا الغابة ولا الدلاي لاما . وأشرت
إلى الذين يحملون الريكشا أن ينزلوا إلى مداخل قصر الدلاي لاما . .
ووقفوا عند بوابة من الخشب والأسلاك .

واقتربت منها . وسألني العسكري : هل عندي موعد ؟ فقلت : طبعاً على
موعد مع صاحب القداسة . .
وسمح لي بالتوجه إلى بوابة أخرى .

وعلى الجانبين كنت ألاحظ أبناء التبت . . إنهم جميعاً يرتدون الملابس
الحمراء . ولاحظت أن هذه الملابس يلبسونها على اللحم . رغم برودة الجو . وأن
هذه الملابس تشبه الروب دى شامبر وقد لفوها بجزام . . ثم إنهم حفاة تماماً
كرهبان الفرنسيسكان . ولاحظت أن معهم عدداً قليلاً جداً من النساء . وهذه
طبعاً ليست مشكلة . فهم يؤمنون بتعدد الرجال للمرأة الواحدة ! ولاحظت أنهم
غسلوا ملابسهم ونشروها . وشممت رائحة الطعام . ويبدو أن الطعام كثير . والسعادة
واضحة على وجوه هؤلاء الناس . رغم أنه من الصعب أن تتبين مشاعر هذه الوجوه
الجامدة لكن بصيصاً غريباً يلعب في عيونهم يمكن إدراكه بسهولة على أنه
سعادة !

ووجدت أماي خيمة . . وهذه الخيمة بها جنود هنود . واقتربت منهم وقلت
بصراحة لا بد أن أقابل الدلاي لاما . . لا بد . وأن أحد الهنود الملحقين بخدمة
الدلاي لاما قد رفض طلبي الذي أرسلته من نيودلهي . ثم عاد فأكد هذا الرفض
في التليفون . وأنه لا يمكن أن أصبح على هذه المسافة القريبة وأبقى بعيداً عن عينيه
وأذنيه . لا بد أن أقابله وبأى شكل وبأية طريقة حتى لو أدى ذلك . .

وقبل أن أكمل هذه العبارة ، وفي الحقيقة لم أكن أعرف كيف سأكمل هذا التهديد الذى لا معنى له ، والذى لا يمكن أن أحققه ، تقدم منى أحد الرهبان ، ورأتى وحيانى . وسألنى باللغة الفرنسية : ماذا تريد ؟ فشرحت له حكائى . وشرحت له كيف أن أحد الهنود قد أساء إلى سمعة الدلاى لاما . وأنى مضطر أن أكتب هذا الذى دار بينى وبينه . وهى فضيحة . . ثم إننى أريد أن أعرف إن كان هذا هو رأى الدلاى لاما فى كل من يجئ لزيارته من أقصى الدنيا . .

ورأيت على وجه هذا الراهب الذى يرتدى الملابس القاتمة ، ويعمل رئيساً للوزراء ؛ أنه لم يسترح إلى موقف هذا الهنود . . وإلى موقف كل الهنود الذين صادروا حرية الدلاى لاما . . والذين حبسوه فى هذا المكان باسم حمايته والدفاع عنه .

وهز رأسه واختفى .

وجلست أتحدث إلى أحد الجنود وأروى لهم ما رأيت فى الهند وما الذى أعجبنى . . واخترعت لهم مجموعة من القصص ، وأنا أتصور أن هذه القصص قد تكون لها أية قيمة فى مقابلتى للدلاى لاما أو فى تسهيل هذه المقابلة الصعبة . . فوصفت لهم المظاهرات التى ملأت شوارع القاهرة تهتف بحياة الدلاى لاما . . ثم الطوب الذى سقط فوق سفارة الصين الشعبية احتجاجاً على الموقف الشائن من قداسة الدلاى لاما . . ثم أخرجت من جيبي ورقة مكتوبة باللغة العربية وقلت : إن هذا خطاب من والدتى توصينى بأن أطلب إلى الدلاى لاما أن يباركها ويشفيها من مرضها . . وخطابات أخرى من تلميذات المدارس ونجوم السينما والصحفيين والفنانين ومضيفات هيلتون . . الجميع يطلبون البركات من قداسة الدلاى لاما .

فأنا لست صحفياً فقط ، وإنما أنا مندوب عن ملايين المصريين الذين أوفدوني للسؤال عن صحته ، والاطمئنان على أنه بخير وعافية . فإذا عرفت ذلك وتأكدت منه بنفسى . . ولا بد أن يكون بنفسى . . كتبت إلى القاهرة لتهدأ المظاهرات ، ويتوقف ضرب سفارة الصين بالطوب !
وهذه مهمتى ببساطة . . .

ثم لأنى بدأت أشكو من البرد . . وإذا بي أطلب - وهذا حتى - الدلاى لاما
أن يشفينى بعد أن تسلل البرد إلى جسمى وأنا فى بيته المقدس !
وهز الجنود رءوسهم موافقين على مطالبى العادلة . .
ولم يكن لهؤلاء الجنود أى نفوذ ولا قيمة . . ولكنى كنت أحاول أن أقنع
نفسى . . وأن أتمرن على الاختراع أو أستعد لمواجهة أى احتمال آخر .
وظهر الوزير وقبل أن أصارحه بلهفتى وقلتى . أشار برأسه قائلاً : لقد
أطلعت قداسته على هذا التصرف السخيف من جانب الرجل الهندى وهو
سيقابلك غداً . .

إذن هناك خلاف بين الدلاى لاما وبين الهند المكلفين بحراسته . . ووزراء
الدلاى لاما ، المثقفون الذين يتكلمون لغة فرنسية سليمة حريصون ، على الترد
على هذه القيود التى فرضتها الهند . . فكأننى أول مناسبة يثبتون فيها وجودهم ويخالفون
تعاليم الحكومة الهندية ويسمحون لى بمقابلة الدلاى لاما ، رغم أنف هذا الرجل
الهندى الذى يتولى العلاقات العامة لصاحب القداسة .

وشكرت رئيس الوزراء ، وطلبت إليه أن يبلغ صلواتى لقداسة الدلاى وأن
يبلغ الوزراء تحياتى . .

وشكرت الجنود . . وشكرت رجال الريكشا . . وأعطيهم من حملى إلى
الطريق الصاعد . وطرت من الفرحة . . بعد أن أعطيهم مبلغاً كبيراً من المال . .
وظلوا يلاحقونى بالريكشا وأنا أرفض أن أركب معهم . وحاولوا إقناعى بأن هذا
حتى . وأنا أرفض . وحاولوا أن يفهمونى أنهم أقوياء . وكان إصرارى على
الرفض .

ولأول مرة أشم هواءً نقياً . . ولأول مرة أملاً صدرى . ولأول مرة أجسدى
فى قمة العالم . ولأول مرة أتمنى أن يطلع النهار بسرعة .
وفى الفندق طلبت طعاماً ساخناً وكثيراً ، وابتلعت حبوباً منومة أستعجل
بها طلوع الشمس . . .

• • •

وظلعت الشمس . . .

واليوم فقط أشم هواءاً حقيقياً . .
هواء لا تمتصه أجهزة التكيف من الشوارع . .
هواء ليس نفاية الناس . ولا فضلة خيرهم . .
هواء لم تدوخه المروحة المشنوقة في السقف . .
هواء اليوم من الجبل . . النافذة مفتوحة أمامي . . الطبيعة كلها رائحة جميلة
مغسولة . . .

المطر جعلها مصنونة مكنونة في ورق سلوفان . . أو كأنها تغطت بالحريز
الهندي الشفاف . كل شيء له لون ثابت صادق لا يتغير . . كل شيء صدق .
لا سياسة ؛ لا أديان ؛ لا لغات ؛ لا جنسيات . فهذه الأشجار قد ظهرت قبل
الدين والسياسة واللغة . ظهرت قبل الإنسان وما تزال كما كانت عالمية في معناها
وكلامها وألحانها وعطورها .

طول ليلة أمس كانت الأمطار ثقيلة تلطم وجه الأرض . كأن ثقباً في
السماء قد انفتح . أو كأن الملائكة كانوا يغسلون الكواكب والنجوم استعداداً لأحد
أعيادهم التي لا نعرفها . .

في هذه اللحظات غرقت قرى كثيرة في الهند . هلك فلاحون . أما الأبقار
والجواميس فقد استراحت من أصحابها . انفلتت . . إن الليلة إجازة عندها من
الحراث والعربات . أما الأطفال الذين باغتهم المطر فقد ماتوا . . وتحولت جثثهم
إلى زوارق طافية تركبها الغربان والصقور وتقفز إليها الأفاعي . . لقد استراح
هؤلاء الأطفال أيضاً . .

وأمام الفندق الذي أقيم فيه مئات من عربات الريكشا . . ينام فيها أصحابها .
لأنها مأواهم الوحيد وهي بقرتهم الحلوب . إن أول شيء يعملونه في الصباح هو أن
يعرضوا الريكشا في الشمس لكي تجف حتى لا ينفر منها الزبون . . وليس مهماً
أن تجف ملابسهم هم . .

النافذة ما تزال مفتوحة على شاشة من فضة . . على شاشة من زجاج لامع . .
كل شيء ساكن . كأنه ينتظري أن أرسمه . . كل شيء يحاول أن يقلد الصور
المطبوعة . فالشجرة لا تتحرك ولا الورد ولا الدروب اللامعة التي تشبه أشرطة من

الحرير الأزرق مطرزة بعلامات بيضاء . . وعلى الحوائط صور بنات جميلات . .
صورة لأودرى هيبورن . . وصورة أخرى لمارلين مونرو . . وصورة لأنجريد برجمان . .
صباح جميل فعلا . كل شيء حلو .

كل شيء صنعته السماء . . فالإنسان لم يصح من نومه بعد ليفسد هذا الجمال
الإلهي !

كل شيء هادئ كأنه ينتظر مني أن أتم عليه . . أن أناديه بالاسم فأقول :
أشجار السرو هنا ؟!

فينحني صف من الأشجار على هيئة « نعم » وتطير العصفير إلى أعلى
وتتحول : كل منها إلى نقطة فوق كلمة نعم .

وأنادى الورود وأنادى البلابل . . وأملأ صدري منها ولا حاجة لي أن أناديهما . .
كل شيء يحولك إلى شاعر . ويجعل قلمك فرشاة . . ويجعل لك ألف رثة
وألف أذن . ويفريك بأن تمد يدك تلمس ما تراه كأنه قطعة من الحلوى . .
وتشعر أنك أمام مائدة ضخمة وأنت وحدك في صدر المائدة . . وأنتك الداعي
وأنتك المدعو . . وأنتك صاحب البيت والضيف . . وأنه لا معنى لأن تنتظر أحداً .
فليس هناك أحد سواك . .

ومن بعيد أسمع بعض الأجراس . . إنها أجراس معلقة في أعناق الأبقار .
لقد بدأت بنات الطبيعة في رحلتها اليومية الأبدية . إذاً أبناء آدم لم يستيقظوا بعد ،
فا تزال الدنيا بخير ماداموا نياماً : فالفتنة نائمة ولعن الله من أيقظها .

ولا يوقظ الفتنة إلا الشمس وإلا الجوع . . فالشمس هنا عكازة الفقراء . .
فهي وحدها تدق أبواب أصحاب الأعمال والسامحين وتفتح نوافذهم . . ومن نوافذهم
يرون الباعة وعربات الريكشا . .

وتبدأ الشمس تتحسس طريقها وراء السحاب . . والسحاب هو « رغبة »
الصابون التي غسلت بها الملائكة السماء والأرض . . ذاب الصابون ولم يبق الا هذه
الرغبة هائمة مثل إيشارب حول رأس الهملايا .

وتعود الشمس تهب الأشجار . . فتساقط من الأشجار قطرات الندى كأنها
دموع على الهدوء والسلام الذي ولى . وأما الطيور فتنهض مذعورة وتصرخ كلها

في وقت واحد كأنها جنود باعثها رئيسها فراحت توهمه أنها لم تم . . أو كأنها تريد أن تعتذر للنهار عن هدوء الفجر وسلام الليل . . وكان الراحة خطيئة يجب الاعتذار عنها . .

والماء الذي نزل من السماء . تحاول الشمس أن تسترده الآن . . إنها تبخره . . إنها ترفعه إلى أعلى ليسقط في شباك السحب . . فالشمس هي أمهر صياد . . إنها تلتقط الماء من الأرض وتخفيه في السحب .

وكلما ارتفعت الشمس في السماء تعالت الأبخرة من الأرض تحيها . . أبخرة الأتربة والتلال والأشجار وبقايا الناس والحيوان وأنفاس الزهر والثمار والتوابل والدموع والخنازير والأبقار وعرق الكادحين النائمين على الأرض المبللة . .

وكان الليل يسوى بين الناس . . بين الغنى والفقير . . بين الهندي والأوروبي بين اللاجئيين من أبناء التبت وبين من جاءوا يتفرجون عليهم . . بين البوذى والسيخ . . بين المسلم والذين يعبدون النمل . .

وعندما طلعت الفجر اختفى الناس ولم يبق إلا ما صنعتها السماء للناس . . وعندما طلعت الشمس . اختفى ما صنعتها السماء ، وظهر ما صنعه الناس بالناس والناس . .

زحام شديد من الكلام الصينى والهندي والإنجليزي والعربات والحيوانات والرائحة والصراخ واللعنات . . والباب يدق ويدخل الخادم بوجهه الذي لا معنى له والذي له رائحة وفي يده الصحف والشاي . .

وألقيت على الفقيدة الراحلة - على الطبيعة الجميلة - نظرة وداع . . لقد فتحت النافذة ، فانفتحت نفسى . . ورأيت الناس . . فانسدت نفسى . . فسددت النافذة .

واختفى الصباح الجميل . . في مدينة ميسورى !

وقبل الموعد المحدد ذهبت إلى حيث البوابة الأولى . . والبوابة الثانية . ومشيت في طريق على جانبيه رهبان . . . ثم مشيت في طريق آخر مرصوف بالظلطان الأحمر والأصفر . .

وجدت نفسى وجهاً لوجه أمام القصر الإنجليزي الذى يقيم فيه الدلاى لاما . .
القصر أصفر اللون . . ونوافذه بنية اللون . . وله زجاج نظيف كبير . . وأمام القصر
مدينة صغيرة . . وبها عدد كبير جداً من الناس . قد سبقونى إلى هذا المكان .
وبين لحظة وأخرى يظهر أحد الرهبان ويهمس بكلام وعبارات . لا بد أنها
شبه مقدسة . . ولا بد أنها تشبه الـ د.د.ت. تقتل السموم والشروور التى تحوم
حول المكان تريد أن تنقض على الدلاى لاما . . فى الهند آلهة كثيرون وليسوا
على وفاق مع قداسته . . رغم أن قداسته بوذى أو فيه شئ من البوذية . .

ويختنى هذا الراهب ويظهر راهب آخر وحركة فه مختلفة عن الأول وكأنه
يستخدم كلمات أكثر إبادة للشروور والشياطين . . ويظهر ثالث . . ويظهر
يميناً وشمالاً ولا ينظر لنا . . لأنه لا خوف منا . . ويبدو أنه تأكد من خلو الجو
تماماً من كل سوء . . .

أما وجوه الناس فأشكال وألوان ومعان غريبة . . هذه أم ومعها طفلها كلما
حاول أن يتكلم سدب فيه . وهمست فى أذنه بكلام غير مفهوم طبعاً . . ويسكت
الطفل ويحاول أن يقاطع أمه وهى تصلى . . وهذه عجوز أتت ببقرتها . . وهذا
شاب مجذوم . . وهذا رجل يحمل على كتفه اثنين من الأطفال . .

وفجأة يظهر راهب . . كأنه يباغت الشروور التى لا بد أن الدعوات لم
تصبها والصلوات لم تسقطها . . ثم يظهر الرهبان جميعاً ويفسحون الشرفة للدلاى لاما
الذى يرفع يده ويحنى رأسه ومن وراء منظاره الزجاجى تلمع عيناه . . تلمع أكثر
من ملابسه الملونة الزاهية بالأحمر والأزرق والأصفر . .

ويقرب منا قداسته بضعة سنتيمترات ويقول :

تكـد . . ثـك . . ره . . لى . . آه « لحظة صمت » . . بى . . أهو . .
لى تهوه . . شى . . منه . . بو . . تو . . توهان . . هاما . . سوفوت « صمت
طويل » . . اده له . . آه !

ليست هذه أخطاء مطبعية . . وإنما هو كلام حقيقى . . كلام مقدس له
أول وله آخر . وأنا رأيت أوله وهو يخرج من بين شفتين ناعمتين رقيقتين تستديران
وتصبحان كخاتم سليمان ، ثم تمتد إحداهما إلى الأمام فى اشمزاز مقدس ،

والأخرى تهبط إلى أسفل في قرف إلهي . . ورأيت آخر هذا الكلام وهو ينزل فوق رعوس حانية عارية .

رأيت الكلام ينزل على الرعوس فتلقفه الأيدي المبسوطة عند الركبتين . . ورأيت معناه في العيون الدامعة والصدور التي تعلو وتهبط وتلهث حائرة بين معاني هذه الآيات البلكونية – فقد كان قداسته واقفاً في البلكونة – ولا بد أن هذه البلكونة ترمز إلى إحدى السماوات أو الأبراج التي في السماء .

وفجأة يجتني الدلاي . . ويقفل الرهبان الأبواب وراهه حتى لا يصاب بأنفاسنا الإنسانية الآثمة . . وحتى لا تزعجه أصوات المؤمنين الذين يطلبون المزيد من الآيات والنظرات . . والمزيد من لعناتي أنا !

١٢ ساعة ذهاباً وإياباً في الوحل والمطر والبرد ورائحة العفونة والبعوض وبعد ذلك : تكك . . تكك . . موه . . موه !

روح يا شيخ منك لله !

وعدت في قرف شديد إلى الفندق . . ولم ألتفت إلى الحشد الذي يمثل عدداً من أبناء التبت لم تسعدهم الظروف لمشاهدة الدلاي لاما . ولو مددت يدي أو رجلي لقبولها بالترتيب حسب الحروف الأبجدية !

وفي اللوكاندة اتصلت برئيس وزارة التبت أطلب إليه أن يوافق على مقابلتي للدلاي لاما . لا أن أراه عن بعد . . فلم تكن هذه مقابلة . . إنما هي مواجهة . كما يتواجه المجرمون والكلاب البوليسية في أقسام البوليس .

ولك الآن أن تعرف أين المجرم وأين الكلب البوليسي ، بعد أن أخبرتك بطريقة خروج الحروف والكلمات من بين شفتي الدلاي لاما !

وبعد أن عرفت الكلب البوليسي الآن ، فلا يمكن أن أكون أنا المجرم . فالاعتداء على راحتي وعلى آمالي واضح جداً !

وقد لمست من صوت رئيس وزراء التبت لهجة ليست ودية بالمرّة . فلا أعرف إن كان الرجل قد رجع في كلامه . أو كان الرجل الهندي الذي يتولى قطع العلاقات العامة والخاصة للدلاي لاما قد أثر عليه .

ولاحظت أنني ذهبت في كلامي معه إلى أقصى درجات التوسل والرجاء .

وفهمت من رئيس الوزراء أنه لا يستطيع أن يقابل الصحفيين في هذه الأيام .
واستوضحت منه معنى « هذه الأيام » . فهذه الأيام بالنسبة لنا نحن البشر
معناها هذا الأسبوع أو هذان الأسبوعان على الأكثر . ولكن بالنسبة للآلهة . .
فلا بد أن تكون « هذه الأيام » معناها السنوات أو القرون !

ومع عبارة خرجت من فم رئيس الوزراء تقول : اتركتي أفكر . . بدأت
أنا في التفكير . .

وفي الصباح الباكر كنت قد نفذت فكري . .

وجاءت الريكشا وتمددت عليها ملفوفا بالبطاطين وملفوفاً بالقوط والبشاكير .
واندهش الناس . وقلت لهم بصوت غير واضح : إنني مريض وعلاجي الوحيد
عند قداسة الدلاي لاما . .

وبين طيات ملابسى توجد كاميرا . .

أما الرجل الذى يحمل الريكشا من الخلف فهو مصور محترف ، وقد
استدرجته إلى هذه المنطقة بين الجبال وراء أمل براق جداً هو أننى موفد من
إحدى شركات السينما العالمية لعمل فيلم عن الدلاي لاما . . ووعدته بأن يكون
ضمن الذين سيشترون فى تصوير هذا الفيلم . وأشهد أن هذا الشاب المصور
كان فى غاية الإخلاص . ومع الأسف لا أعرف اسمه الآن فقد أحضر معه عدة
كاميرات وعشرات الأفلام .

واجتزنا الحواجز الواحد بعد الواحد . . واقتربنا من الحديقة . ودخلت الباب
الخارجى والصالة والسلام .

ورأى رئيس الوزراء فسبقنى إلى فوق ، إلى حيث يعيش الدلاي لاما . . ويبدو
أنه أدرك هذه الحيلة . وأدرك أيضاً أن هذا انتصار على الرجل الهندى قاطع
العلاقات العامة . .

وعلى الحفة صعدت السلم .

الآن أصف لك البيت أولاً . . السلم من خشب كسلالم البيوت الإنجليزية ،
ومفروش عليه سجاد من جلود الأغنام أو الجمال أو حيوان اللاما . . ولكن
الخشب والجدران نظيفة كلها . وتفوح منها رائحة أقرب إلى البخور . وكل شئ

هامس تماماً . والسلم ضيق ودرجاته ضيقة . وهو يلتوى فجأة . وعند الالتواء تجد نفسك في مواجهة لوحات على الجدران . والأرض مغطاة بسجادة فخمة ، جميلة الألوان . وتتلى من السقف نجمة . وكل الأبواب مقفلة . ولكي يضعوا الحفة على الأرض ، كان لابد من زحزحة بعض المناضد والمقاعد . .

وابتسم رئيس الوزراء وأشار لي بأن أنهض من تحت البطاطين وأنه لا داعي لهذه الحيلة التي جازت على الرجل الهندي . وأن هذا يكفي . ولكنني تمسكت ببعض الأغذية وبعض الفوط الملقوفة حول عنقي . ورغم حرارة الجو في هذا القصر الدافئ ورغم خوفي من تيارات الهواء عند انفتاح شبك أو باب . فإني ظللت ملفوفاً مربوطاً وعلى استعداد لأن أقول آه . . بأعلى صوتي .

ومن ورأى انفتح باب صغير . وعند انفتاحه انحنى الرؤوس التي ظهرت فجأة ، وتقدم الدلاي لاما . .

والآن أراه بوضوح وأصفه لك عن قرب : شاب متوسط القامة . لامع الوجه والابتسامة أيضاً . . وصوته غليظ وشعر رأسه قصير . ويمشي مرفوع القامة . وقد لاحظت لمعاناً غريباً في عينيه . مع ميل إلى أن يغمض عينه اليسرى عند الضحك . . وهو لا يضحك وإنما يقهقه . ولم يكذب يراني حتى تعالت ضحكاته ومد يده المقدسة ووضعها على رأسي . ثم لمس أنفي . ولا أعرف إن كان المقصود هو أنفي بالذات ، أو أن يده أخطأت الطريق إلى فمي لعلني أقبلها . ثم اتجه مباشرة إلى كرسي وثير وجلس واضعاً شيشباً على شيشب . . فبعد أن جلس خلع الشبشت الذي يرتديه . ثم وضع واحداً منهما على الآخر . تماماً كما كنا نفعل في الريف عندما نتشاجر ، فنضع طوبة فوق طوبة دلالة على أن المعركة مستمرة . وكنا نقول ونحن صغار : طوبة فوق طوبة تبقى المعركة منصوبة !

ولاحظت أن قدمي قداسته لا ترقى إلى المستوى اللائق . ثم إن أظافره مصبوغة بلون أصفر . لا أعرف إن كانت هذه صبغة أو أي شيء آخر . .

وتحت الأغذية صرخت بشكل مكتوم : الله يخرب بيتك يادلاي !

فقد وجدت في ساقه آثار دامل . آثار هرش . . أي أنه بيده التي لامست وجهي قد هرش في ساقه . . وهنا فقط لم أعد في حاجة أن أقوم بتمثيل

دور الرجل المريض . فأنا بالفعل مريض وأنا في انتظار أى مرض . والذي هربت منه في نيودلهي ، قد سبقني إلى ميسوري . وعلى أعلى المستويات .. فوق الهملايا ، وعند رجل إله !

وقلت : آه - رداً على سؤال منه ، فقال المترجم : هل أنت مريض ؟
وقلت : آه - رداً على سؤال آخر : وهل أنت صحنى ؟

وقلت : آه - رداً على سؤال لم أكن أتوقعه : وهل تريد حديثاً معي وصوراً أيضاً ؟

وهنا نزعت الأغطية . بعد أن أحسست بأنني خنقت نفسي من غير مبرر .
وأن بعض هذه الأغطية كان يكفي للضحك على « قاطع العلاقات » الموجود في الدور الأرضي ..

وجلست إلى جوار الدلاي لاما ، لكي تظهر لي أول صورة نشرت له في العالم العربي . أو صورة تنشرها « أخبار اليوم » للدلاي لاما . وأنا أبتسم له وهو أيضاً . وسبب ابتسامتي أنني رويت له نكتة . وسبب ابتسامته أنه يضحك عادة . وأنه ليس في حاجة إلى أى سبب لكي يضحك . وفي صورة أخرى لم أنشرها بعد ما رأيت نفسي أقهقه . أما السبب فهو أن الدلاي لاما طلب مني أن أبلغ تحياتته إلى المؤمنين به . . المساكين في شوارع القاهرة والإسكندرية والمنصورة وغيرها من المدن !

سألت الدلاي لاما : كيف هربت من التبت إلى الهند ؟

فأجاب بصوت غليظ : سر ..

وسألته : هل أخذت معك كميات من الذهب ؟

فأجاب : سر

قلت : هل تنوى نشر مذكراتك بعد ذلك ؟

فأجاب : سر

سألته : ما سر حرصك على أن يكون كل شيء سرّاً ؟

فأجاب : سر ..

قلت : ولكن كل شيء معروف عنك . فمعروف عدد رجالك . وماذا تأكلون وماذا تشربون ؟ إن الذين يتولون حراستك هم الذين ينشرون أخبارك في كل مكان .

فأجاب : إنني أعرف ذلك .

قلت : إذا لا يوجد أى سر . .

فضحك . ثم عدت أسأل الدلاى لاما : هل أستطيع أن أعرف كيف

تعيش هنا ؟

وأشار إلى ملابسه وإلى غرفة فى مواجهتنا وضحك . .

وهنا التفت إلى المترجم أسأله إن كان المقصود هو أن قداسته قد زهق وأنه

يكاد يطلع من هدومه . .

ولكن المترجم لم يشأ أن يقول شيئاً . .

وعدت أسأله : ما الذى قلته قداستك الآن ؟

فضحك ولم يقل شيئاً .

وتلفت إلى المترجم أسأله . ويظهر أن المترجم يريد أن يقول لى : هذا سر .

وسألت الدلاى لاما : هل جاء دورك لكى تختفى فى سن الثالثة والعشرين

كما هى العادة ؟ أم وجودك فى بلاد أجنبية يجعلك تعدل عن هذه العادة ؟

وضحك .

وقبل أن ينطق قلت له : هذا رأى الصحف الصينية !

وسألته : ما هى حدود قدرتك كإله ؟

واعتمد أن السؤال كان صعبا ولم يكن متوقعا !

فأشار إلى الغرفة الضيقة .

والتفت المترجم يقول : إنه يصلى دائماً . .

أى أنه يطلب من آلهة أكبر أن تعاونه على أداء رسالته . .

يعنى هذا الدلاى لاما غلبان مثلنا !

وطلبت إلى الدلاى لاما ، قبل أن ينهض وقبل أن يزهد من عشرات الصور

التي التقطت له ، والتي التقطها المصور الهندي صاحب الطموح العظيم ، أن يسمح لي بتصوير صاحبة القداسة والدته . فالناس يتلهفون على التطلع إلى وجهها السماوي ..

وهز رأسه بالموافقة ..

وألقيت بآخر اللفات التي خنقت عنق ، واتجهت إلى الغرفة الضيقة التي كثيرا ما أشار إليها قداسته ..
والغرفة ضيقة جدا ..
وعلى الأرض توجد سجادة ضيقة . . سجادة للصلاة . .

وأمام السجادة توجد لفة كبيرة من الورق .. هذه اللفة تضم الأدعية والتراتيل التي يؤديها الدلاي لاما ، كل يوم في الصباح قبل أن يباشر مهام ألوهيته . . واللفة يبلغ طولها نحو عشرين مترا . والكلمات مكتوبة عليها بالطول . أي السطر الواحد طوله عشرون مترا . ولكي نقرأ السطر الذي يليه يعيد اللفة من أولها إلى آخرها . واللفة الواحدة بها عشرون سطرًا طوليا .
وليست هذه إلا إحدى اللقائف الخاصة بهذا اليوم فقط . وقيل لي إن قداسته يقرأ حوالي عشرين لفة في اليوم الواحد !

إلى هذه الدرجة هو مشغول في الدعاء لشعبه الطيب ؟

وعلى الجدران توجد لوحات للطواويس . .

لا أعرف إن كانت هذه اللوحات لها أية دلالة دينية عند البوذيين الذين ابتدعوا منصب الدلاي لاما في أواخر القرن التاسع عشر . . أو أن هذه اللوحات تخص الإنجليز الذين كانوا يسكنون هذا القصر . وأنهم أتوا بها من إيران مثلا ..
وقد لاحظت فيما بعد عندما زرت قصر الإمام أحمد ملك اليمن السابق في صنعاء مثل هذه اللوحات التي تضم مجموعة من الطواويس الملتهبة الألوان ؛ ولم أجد أحدا أسأله عن دلالة هذه الطواويس ، وإن كنت أعرف أنها لوحات مرسومة على سجاجيد إيرانية .

ولعل الدلاي لاما قد استعار ألوان ملابسه من هذه اللوحات .

وبيئنا أنا مندهش للقفائف الطويلة ، وللسجادة التي تشبه شريطا من الورق

مقصوداً بغير عناية .. وللشباب الصغير جداً الموضوع فوق السجادة ، حتى لا تطير ، إذا انفتح الباب أو الشباك فجأة ..

وفي هذه اللحظة تقدم أحد الرهبان وزغدني في جنبي .

والثفت لأراه وقد أمسك زجاجة عطر . وعلى الطريقة البدوية لمس يدي بالزجاجة فنزلت قطرة من عطر لونه أصفر . وأذيت العطر من أنفي . وكان لا بأس به . وقبل أن أسأله عن مصدر هذا العطر ، وإن كان يشني من الأمراض ، وجدته قد اختنى ..

وبعد أن أطلت التأمل في الغرفة التي ليس بها أي شيء أكثر مما قلت والغرض من التأمل هو أن أبين للدلاي لاما . أن في الغرفة شيئاً يغري بالتفكير والتأمل . والذي فكرت فيه وتأملمته هو كيف يعتقد هذا الرجل العبيط أنه إله ! وخرجت بسرعة لأن السيدة والدته في انتظارى ..

والله فرجت يا واد . الدلاي لاما وأمه أيضاً !

والله طاقة القدر انفتحت لي مرتين !

والطريق إلى غرفة قداسة الأم عبارة عن ممر صغير . وألم ألتفت إلى شيء في الممر . فلم يكن هناك أي شيء .

وانفتح الباب . وطلت سيدة تضع منظارا على عينيها . والسيدة ترتدي فستاناً من النايلون الأبيض . وظننت أنني جئت في الوقت غير المناسب خصوصاً وأن قداستها ما تزال في قميص النوم .

ولكن قداستها ابتسمت وأشارت لي بالجلوس وهي تمد يدها تسلم على .. توقفت مدة أخرى . فأنا لم أكن أعرف أن السلام على قداستها ليس حراماً .. وقابلت ابتسامتها وبساطتها بقولي : أنا كنت أتصور إنك أكبر سناً !

فقلت وكلها أنوثة عادية جداً : كم سني !

قلت : في الأربعين .

فضحكت وهي سعيدة جداً . هل تعرف أن أمي ما تزال على قيد الحياة

وأنا شابة !

ومعنى ذلك أنها صغيرة . ولكن ما معنى أنها ما تزال على قيد الحياة ؟ هل كان المفروض أن أمها تموت وهى فى ريعان الشباب ، تماما مثل الدلاى لاما الذى يجب أن يخفى فى أجمل سنوات عمره ! لا أعرف ولم أستوضحها . فنظرها وملابسها وخجلى والزكام الذى بدا يغزو أنى ويلسعه من الداخل ، كأننى تنشقت بمليون بعوضة ، كل هذا معنى من الاستمرار فى الكلام معها وفى التقاط صور لها فى أوضاع مختلفة . فى الفستان ووراء الناموسية النايلون أيضا .

وعدت أسألها : هل كنت تتوقعين أن يكون ابنك دلاى لاما ؟

قالت : شعرت بهذا . وكنت أحيانا أحلم بأنه على رأس جيش . وأحيانا بأنه يطير فى السماء . وكان المرحوم زوجى يتهمنى بالحنون ..

وقد رأيت وجه قداستها يتلون بالاحمرار . عندما أكدت لها أنها شابة .. وأنها أصغر بكثير جدا مما تصورت .

حتى أم الإله لم تنس أنها أنثى . وربما كانت هى الوحيدة التى لا يعنىها أمر دولة التبت من أولها إلى آخرها . إن دخولها إلى الهند قد ملأ غرفتها الصغيرة بالملابس النايلون والأبيض والأحمر والسوتيانات . وأعتقد أنى لمحت بعض اللبان الأمريكى وبعض السجائر أيضا !

وسألتنى قداستها : من أى بلد أنت !

فقلت : من القاهرة عاصمة مصر .

وقالت : وهل جئت لترى صاحب القداسة ابنى !

قلت : طبعا .

وسألتنى : ما رأيك ؟

وهل يكون لى رأى . طبعا رفعت يدى مضمومتين إلى أعلى . أحيى مجرد

ذكر اسم صاحب القداسة الدلاى لاما !

واستأذنت منها . لأتركها على حريتها تنزع الفستان النايلون وترتدى مسوح الراهبات . فهى راهبة طبعا . ولا يحق لها أن تزوج لعدة أسباب : أولا لأنها أنجبت إلهاً والتبت لا تؤمن بتعدد الآلهة . وثانيا لأنها أنجبت أربعة

إخوة للدلاى لاما ، رجلين وامرأتين . وإحدى بنتها تعيش فى منطقة دار جيلنج على مسافة قريبة من الدلاى لاما — هذه المنطقة هى أحسن مناطق الهند فى زراعة الشاى ، ويوجد شاى عالمى باسم دار جيلنج . ولعلك تلاحظ أيها القارئ أنه مضت عدة صفحات لم أشرف فيها إلى كوب واحد من الشاى دخل به جرسون أو رفضت أن أشربه . . والحقيقة أنى فقدت طعم الشاى واللبن والنوم والدنيا . . وفى اللحظة التى تحققت فيها أمنيتى بروية الدلاى لاما بدأت أشعر بالزكام والسعال ، وفقدت طعم الشاى واللبن والحياة .

ونزلت السلم بدون ريكشا . وقد سبقنى الشيالون—أو الذين يحملون الريكشا— ولم ألتفت كثيرا إلى الناس على الباب أو أمام الباب . حتى ضابط العلاقات الهندية ، لم أجد فى نفسى رغبة فى أن أنظر إليه . ورأيت أنه من العبث وتبديد الطاقة أن أنظر إليه بشئ من الشماتة . . أو الاحتقار !

وخرجت والناس المؤمنون والرهبان يتلفتون ناحيتى . وكل عيونهم تحسدنى وتقول بكل لهجات أهل التبت . يا بختك . . إتس . . إتس !

والكلمتان الأخيرتان هما اللحن المميز للزكام والسعال الذى انتقلت عدواه من صاحب القداسة إلى أنى !

ولو أعرف على أى شئ يحسدنى هؤلاء الناس . . هل يحسدوننى على المشوار الطويل الذى قطعته من مصر إلى الهند . أم من العاصمة الهندية فى سيارة قديمة حتى وصلت إلى هذه المناطق الجافة القاحلة . . أم على المغص الذى بدأ يلعب بأحشائى . .

أما السعال فقد انفرد بتمزيق صدرى . . كأن السعال « فنان » عصبي المزاج ، كلما كتب شيئا راح يمزقه . . ولكنه بدلا من أن يلتقى بما يمزقه فى فى أو فى أنى . فإنه يحتفظ به فى صدرى . فى مكان ما فى صدرى !
إتس . . . إتس . . وإخص على قداستك !

* * *

وبنفس السيارة الطويلة العريضة عدت إلى نيودهى ، بعد أن ودعت الشيالين ، ودعت المصور الذى تركته يحلم بذلك اليوم الذى تجئ فيه عدسات

السينما العالمية لتلتقط قصة حياة صاحب القداسة ، ويكون هو من ضمن الواقفين وراء الكاميرات . .

وعندما ودعته ، اضطرت إلى أن أقرصه . فقد كان نائما في أحلام سعيدة .. وفي ركن من السيارة بدأت أقرص نفسي ، لأتأكد إن كنت حيا أو ميتا ، فلم أصدق نفسي وأنا أقول باللغة العربية : أول صحفي في العالم كله يقابل الدلاى لاما شخصيا ، ويأخذ منه الزكام . ومن المؤكد أنني أول صحفي في الكرة الأرضية يصور أم الإله ، ولو طلبت منى أن أتزوجها . لو عدتها فوراً !



انه قداسة الدلاى
لما يتلقى الدعوات
ويوزع البركات بمنتهى
السخاء .. !

● عفاة تقديرون بهذا !

انتهت مهمتى الأولى فى الهند ..

والمهمة الثانية هى أن أذهب إلى ولاية « كيرالا » فى أقصى جنوب الهند :
لأكتب قصة الصراع بين الحزب الشيوعى وبين الحكومة المركزية فى نيودلهى ..
فالهند مجموعة من الولايات كل واحدة لها برلمان ولها وزارة . وهى جميعاً تتلقى
التعليمات من الحكومة المركزية . وبعض ولايات الهند يبلغ سكانها ثمانين مليون نسمة !
وولاية « كيرالا » تقع على الساحل الغربى للهند . إلى الجنوب من هذا
الساحل .

ويقال : إن اسمها « خير الله » . وإن هذه التسمية قد أطلقها العرب على
هذه البلاد . والمسلمون قد دخلوا إلى الهند من هذه النقطة . واليهود أيضاً . فعندما
انهدم المعبد فى أورشليم هرب اليهود على سفن فينيقية إلى هذه البلاد وأقاموا لهم
معابد كثيرة . وخصوصاً فى مدينة كوتشين .

عاصمة هذه الولاية اسمها « ترفندروم » . الاسم فقط جميل . ولكن المدينة
نفسها ليست كذلك .

جعلت ألف فى شوارع نيودلهى بحثاً عن أية معلومات عن ولاية كيرالا ..
لم أجد فى المكاتب إلا منشورات صغيرة . وأحياناً فصولاً ضمن الكتب . وفى
نيودلهى مكنتبات ممتازة بها كل الكتب التى صدرت فى إنجلترا بالذات .
ولم يكن أمامى إلا الحزب الشيوعى . وذهبت إلى مركز الحزب الشيوعى

وسألت عن كتب هذه الولاية . وهناك وجدت بعض الكتب . وبحث عن خريطة لهذه الولاية أيضا وبدأت أجمع كل ما نشره الصحف الهندية عن الموقف في كيرالا . عن مظاهرات الطلبة ورجال الدين . وعن الهجوم على رئيس الوزراء نامبودرياد . وجمعت صورته وخطبه . ولاحظت أنه رجل قوى الحججة . وأن له تعبيرات خاصة . وهذه التعبيرات مألوفة ومتكررة عند كل الزعماء الشيوعيين . وقد ساعدتني وزارة الخارجية الهندية . فأبرقت إلى ولاية كيرالا وطلبت إلى المسئولين هناك أن ينتظروني وأن يحجزوا لى مكانا فى أحد الفنادق . وسافرت بعد أيام إلى مدينة « مدراس » فى طريقى إلى ترفندروم عاصمة كيرالا .

و « مدراس » مدينة كبيرة واسعة . .

وهى تقع على الشاطئ الشرقى للهند إلى الجنوب . وهى أيضا لا تختلف عن المدن الأخرى ففيها نفس الروائح وربما كانت هناك أقوى . والجو هنا طبعاً حار والرطوبة عالية والبعوض كثير جدا . والناموسية المزدوجة لسريرى لا تكفى لحجز البعوض . والفليت الذى يرشون به غرفى لا يقتل البعوض . وأن هناك احتمالاً كبيراً فى القضاء على أنا إذا استمرت الرشاشة تبصق هذه المواد السامة فى وجهى .

وجلست فى ردهة الفندق الكبير أقلب الصحف . ووجدت أشياء طريفة . قرأت موضوعاً عن البوليس النسائى . فقد لجأت هذه الولاية إلى الاستعانة بالبوليس النسائى وجعلت له زياً خاصاً . ويبدو أن هذه الفكرة قد أثارت سخرية الناس ؛ وأنا أعرف كيف يسخر الهنود ، ولكن لا أعرف كيف يضحكون . فربما كان الشعب الهندى هو الشعب الوحيد فى كل القارة الآسيوية الذى لا يضحك أو من النادر أن تجد على وجه أى إنسان أى بارقة ابتسامة .. على عكس كل القارة الآسيوية التى تضحك شعوبها بلا مناسبة !

ربما كان هذا ما يسمونه التوازن الدولى !

وقرأت مقالا طريفاً . والمقال على شكل نداء موجه إلى الشعب فى ولاية

مدراس . .

المقال يطلب من الناس أن يكفوا عن قتل الثعابين . .

ويتساءل الكاتب لأى سبب يقتل الناس هذه الزواحف المسكينة . هل

هناك عذاب أو لعنة أصابت كائنا حيا فحزن فقطع أرجله وفضل أن يزحف على بطنه مثل الأفاعى ؟ ألا توجد فى قلوب الناس رحمة . ألا يذكر الناس أن الله لم يخلق لهم الأيدي ليقتلوا بها الكائنات التى بلا يدين ولا رجلين ؟ ثم لماذا يقتل الناس هذه الأفاعى ؟ يقتلونها لكى يسلخوها . ثم يبيعوا جلد لها . ولا يمضى وقت طويل حتى يتحول الجلد إلى حزام لامرأة . أو جزمة لفتاة . أو شنطة يد لعروس . فهل كل هذه الحزازر الشائنة من أجل إرضاء المرأة ؟ هل المرأة تساوى كل هذه النماء ؟

ثم من الذى يذبح الأفاعى من أجل المرأة ؟ إنه الرجل . الذى أذلته المرأة وجعلته كالأفعى ، يزحف على يديه وعلى رجليه وعلى شرفه . وعلى جثة كرامته ! إن الرجل ينسى ما فعلته المرأة به . أو لعله يتذكر جيدا ما فعلته المرأة . ولذلك فهو يقتل هذه الحيوانات المسكينة انتقاما من المرأة !

وشئ هام جدا أشار إليه الكاتب . . وقال لنترك هذه الاعتبارات الإنسانية . . إن هناك اعتبارا اقتصاديا هاما جدا ، يحتم علينا ، ولأسباب وطنية ، أن نترك هذه الثعابين تعيش بيننا . . كما تعيش حيوانات أخرى كثيرة لا فائدة لها ولا ضرر أيضا . . إن هذه الثعابين تأكل الفيران ، والفئران إذا لم تأكلها الثعابين فإنها تأكل حقول القمح . .

ويصرخ الكاتب قائلا : هل عرفتم هذه الحقيقة ؟ إن الفئران هى التى تأكل القمح قبل أن يتحول إلى دقيق لكم ولأولادكم . فلماذا لا تتركون الأفاعى والثعابين تدافع عنا بلا مقابل ! والفكرة وجيبة . . وهى مشكلة من المشاكل الموجودة فى هذه المنطقة . ولا بد أن لها نظيرا فى ولايات أخرى .

ورفعت سماعة التليفون لأسأل عاملة التليفون : هل قرأت صحف اليوم ؟ ولم تفهم هذا السؤال الذى يعتبر دخولا فى موضوع لا تعرف هى عنه أى شئ . .

أول هذه الفتاة قد تعودت معاكسة النزلاء ، ولذلك فهي لا تستبعد أن يكون كلامي معها مجرد مداعبة . وسيكون لهذه المداعبة ما بعدها . . .
يجوز . . .

وكان ردها استنكاراً ملفوفاً في ثوب مهذب من الدهشة المهنية — أى الدهشة التي تحتمها طبيعة المهنة — وأعدت السؤال مع شيء من التوضيح فقلت لها : هل قرأت ما كتبه الصحف اليوم من أنه يجب على المواطنين ألا يقتلوا الثعابين التي تأكل الفئران التي تأكل القمح ؟ هل هذا رأيك أنت أيضاً ورأى اللوكاندة ؟ هل أنتم تقتلون الثعابين ، أم أنكم من أنصار الحياة . أى أن الإنسان يجب أن يعيش وأن يترك غيره يعيش . غيره من الناس والأفاعي ؟ وبالاختصار هل في غرفتي ثعابين أو فئران ؟

أما الضحك الذي سمعته في التليفون فلم يقابله إلا غيظ شديد مني . . وألم متواصل في خدودي وفي قفاي . قبلات وصفعات من البعوض الذي تسلل إلى داخل الناموسية . وأنا أعتذر عن استخدام كلمة «تسلل» هذه . فعناها أن البعوض قد وجد صعوبة في الوصول إلى وجهي . والحقيقة أن الطريق كان مفتوحاً . وكان رد عاملة التليفون أن كاتب هذا المقال رجل مجنون . والحقيقة أنها قالت صحفى مجنون !

وقبل أن تسألني عن صناعتي ، اكتفيت بهذه الشتيمة الموجهة إلى أحد أبناء مهنتي . ودخلت الغرفة في انتظار ثعبان أو فأى !

وفي الليل خرجت أتمشى في المدينة . وركبت أحد التاكسيات . إنها هنا كثيرة . فالتاكسيات في مدينة نيودلهي كلها من ماركة موريس الصغيرة . وكل سائقها من طائفة السيخ . فالسائق يملأ المقعد وعمامته تضرب في سقفه . ومنظره غريب جداً . إن الذي يراه في القاهرة يحس لأول وهلة أنه حانوق . . أو سائق عربة موتى . والمرور هنا أيضاً على اليسار . وكل دول الكومنولث البريطاني تمشى سياراتها على اليسار ، مثل قطارات السكك الحديدية . . أى على عكس المرور عندنا وفي كل الدنيا !

وسألت سائق التاكسي : هل تعرف كيرالا !

وأجاب : طبعاً .

وسألته عن الأحوال هناك وما رأيه هو الشخصى . وأصبح رأيه معروفا عندما قال لى إنه من مواليد كيرالا ، وإنها جميلة . وإن الأزمة السياسية التى فيها لا بد أن تنتهى ولا بد أن ينتصر حزب نهرو مهما فعل الشيوعيون . وعرفت منه على الرغم من أنه شيوعى . ولكنه يعيب على الحزب الشيوعى هناك تفككه . فلو كان الحزب قوياً لبقى فى الحكم إلى الأبد .

ولم أجد فى آرائه السياسية ما يشجعنى على الاستمرار فى هذه المناقشة . . . وسألته عن الحياة هناك وعن الأمراض . وعرفت منه أنه لا توجد أية أمراض مشهورة . وإنما هناك كل الأمراض الموجودة فى الهند مضافاً إليها مرض الفيل . وهذه الإضافة ليست من عند السائق . وإنما من عندى أنا والذي أضافها ليس أنا الذى يكتب الآن ، وإنما أنا الذى يخاف . الذى فى خوف دائم من كل مرض . ومن اسم أى مرض .

والذى قرأته عن مرض الفيل أرعبنى . .

فهذا المرض ينقله الذباب وينقله البعوض أيضاً . .

دودة هذا المرض لا تنشط فى الدم إلا بعد منتصف الليل والساعة الثانية صباحاً . أى فى الوقت الذى يكون فيه المريض نائماً . ولاشك أن هذا يعتبر فى منتهى الذوق من الدودة الحقيرة . . حتى الدود عنده ذوق فى الهند !

فإذا جاء الطبيب ليكشف عن سر التهاب عين أو أنف المريض أو عنقه فلا بد أن يكون ذلك فى هذه الساعات من الليل . فدودة مرض الفيل لا تعمل إلا فى هدوء ، أى فى هدوء المريض . فإذا تحرك المريض توقفت عن العمل . .

وهم فى هذه المناطق من الهند يلجأون إلى نوع من الذباب أو الحشرات التى تمتص دم الأماكن الملتهبة فى الجسم . ولكن مرض الفيل المعروف ، والذي يودى إلى تضخم جسم الإنسان ، لا علاج له . وإن كان بعض الأطباء يستخدم مركبات السلفا . ولكن حتى الآن ليس له علاج أكيد . . . فرض الفيل هو نوع من التورم . . النفخة فى كل أعضاء الجسم دون أن يكون ذلك مؤلماً . . أى أنه مرض النفخة غير المؤلمة !

وهذه الدودة إذا دخلت الجسم انطلقت إلى الأعضاء الداخلية بسرعة . .
وظلت كامنة هناك تنمو وتنضج في صمت ، ولا تظهر أعراض الإصابة بها
إلا بعد مائة يوم . . ولا تنضج الدودة تماما إلا بعد سنة !

والدودة الرفيعة الدقيقة الخاصة بالإنسان لها اسم رقيق جدا هو : لو لو . .
ومعلوماتي أيضا أن هذه الديدان الفيلية موجودة في كل جزر المناطق الاستوائية ،
وموجودة في إفريقيا وأستراليا . أى باختصار في كل البلاد التي سأقوم
بزيارتها . أما الوقاية منها فكل الكتب الطبية تؤكد أن ال د.د. ت هو أحسن
شيء اخترعه الإنسان وال د.د. ت . الغرض منه طبعاً القضاء على البعوض الذي
يحمل هذه الدودة . وليس علاجاً للمريض إذا أصيب بها . فليس أمامي إلا
الوقاية : أولاً بال د.د.ت. وثانياً بالناموسية .

فإذا عرفت أيها القارئ أنه توجد هنا في هذا الجانب من الهند جميع أنواع
البعوض وجميع أمراض البعوض ، ويوجد معهد خاص بدراسة البعوض الذي يوجد
منه في الهند وحدها ٢٥٠ نوعاً ، أدركت المأساة التي أعيشها . أو أدركت المأساة
التي أنطلق إليها بسرعة ٢٥٠ كيلو مترا في الساعة — هي سرعة الطائرة الصغيرة
في أحسن حالاتها !

وربنا يستر . . وربنا هو الذي ينجي من المرض قبل الإصابة به وبعد
الإصابة به . ولا أحد يعرف أين يموت ولا متى ولا كيف ولا بأى شيء .
ثم إنه ليس من الضروري أبداً أن أموت بكل هذه الأمراض . ثم إن البعوض
في الهند ليس في حاجة إلى شخص غلبان يضاف إلى ال ٥٠٠ مليون نسمة
الموجودة في الهند . فالبعوض — والله الحمد — لا يشكو من قلة العمل ولا نقص
الغذاء .

وبهذا الاستسلام والتوكل على الله سافرت إلى ولاية كيرالا . . ونزلت الطائرة
في مطار عريان من الأشجار ومن الناس . الدنيا حر طبعاً . وإن كانت هناك
نسمة خفيفة تدل على أننا على شاطئ البحر . والناس هنا عددهم أقل والقليل
منهم يتفرج على هذه الطائرة . وملابسهم هنا تغرى بالفرجة فهم يرتلون «الدوتى»
هذا ما عرفته فيما بعد . وهو قطعة من القماش ملفوفة حول الجسم وملفوفة من

الخلف . لم أحاول أن أعرف كيف يلفونها ثم يتحركون بها وبسرعة . . كل الناس الذين رأيتهم في المطار حفاة . . وبعضهم يرتدى الجاكتة وفي جيوب الجاكتة توجد أقلام باركر أو شيفرز . ولكنه مع ذلك أيضا حافي القدمين ! .

ومن بعيد لمحت أشجار جوز الهند . والكثير جداً من الأشجار التي لا أعرف أسماءها . وبعد ذلك بدت الأرض كلها خضراء .

وتقدم مني شخص كل ملامحه تدل على أنه أحد الرسميين . وسألني إن كنت فلانا الفلاني فقلت نعم . فلم يرحب بي وإنما أخبرني على الفور أنه تلقى من وزارة الخارجية إشارة تفيد بأنني قادم إلى هذه الولاية وإنه قد أعد لي كل ما أريد . وحجز لي غرفة في الفندق الكبير . أو الوحيد في العاصمة . وإنه سيحاول غدا أن يحدد لي موعداً مع من أريد من الوزراء أو رئيس الوزراء . .

وشعرت بالارتياح الشديد . .

ونقائتي السيارة إلى الفندق . والفندق واسع جداً . ومريح . وغرفتي كانت على الحديقة . . الغرفة صغيرة ولها حمام ملحق بها . ولا أعرف لماذا لم أجده مريحاً في ذلك الوقت . ربما كان سبب ذلك أنه لا توجد ناموسية . ولكن الناموسية منصوبة حول سريري . . وأمام غرفتي ترابيزة وإلى جوارها كرسي لا يثبت في مكانه . لا أعرف من الذي ينقله في المساء ثم يأتي به في الصباح . نفس الكرسي . فقد علمت الكرسي بأن كتبت عليه اسمي . ومن الغريب أن كل الكراسي تخنق ثم يعود كل واحد إلى مكانه . .

ومنظر الأشجار العالية جميل . . والجو هادئ . والهواء منعش . والناس في حالهم ، ولون الأعشاب أخضر أميل إلى الزرقة . ولم يزعجني إلا الغربان وهي تحطف الأناناس من الأطباق أمامي . وفي الأيام الأولى لوجودي في هذه المدينة كنت أضيع بالغربان وبسوء أخلاقها . ولكن عندما عرفت أن الأناناس يشبه الخيار عندنا ، في رخص الثمن وفي كثرته ، كنت أرجو أن تخلصني الغربان من هذه الكميات الهائلة التي لا أعرف كيف أنتهى منها . .

والأناناس لذيذ . والموز والمانجو هنا ليست لذينة بالمرّة . فالموز كبير جداً في حجم القثاء . والمانجو أحياناً في حجم البطيخة الصغيرة . ولكنها غير لذينة

ولكن توجد كميات كبيرة من الكوكونتنس . أو البندق الهندي . وهو لذيذ
الطعم جدا . ويأكلونه هنا ساخنا مثل أبو فروة .

وقد لاحظت وجود عدد من الصحفيين من السويد والنرويج ومن ألمانيا وعرفت
أنهم جاءوا إلى هنا لنفس السبب . .

الكل يريدون أن يعرفوا ما الذى يحدث لهذه الوزارة الشيوعية الوحيدة فى كل
الولايات الهندية . أو كيف تغير الوضع فى إحدى ولايات الهند . أو ما مدى
قوة نهرو ؟

واندهشت جدا كيف أن الصحفيين السويديين والألمان الأوروبيين
غير حريصين إطلاقاً على أن يلتقطوا صورة لرئيس الوزراء . صورة لهم مع
رئيس الوزراء .

إن أحداً فى مصر لن يصدق أبداً أننى جئت إلى هذه البلاد وقابلت رئيس
الوزراء إلا إذا ظهرت معه فى صورة . . أو على الأقل زملائى الصحفيين !

بل إننا كثيراً ما نجد فى الصحف المصرية والعربية صورة لصحفى مع أحد
الوزراء ، كأن القارئ لا يصدق أو لن يصدق إلا إذا نشرت الصحف صورته
مع الوزير . مع أن مقابلة صحفى لوزير فى القاهرة ممكن جداً . ومقبول جداً .
ولن يندهش أحداً لم ير صورة للصحفى والوزير معاً ! .

ومفهوم من كلامى هذا أننى لابد أن أظهر فى صورة مع سيادة رئيس
وزراء كبر الا الذى قلب الدنيا فى الهند . . والذى أصبح مركز آمال الأحزاب
الشيوعية فى الهند . وفى كل آسيا . فهو يعتبر نقطة تحول خطيرة فى الحركة
الشيوعية فى الهند .

اتصلت بوزارة الاستعلامات . وطلبت تحديد موعد مع رئيس الوزراء .
ولم تكن هناك أية صعوبة فى مقابلته وطلبت مقابلة وزير الشؤون وهو وزير
مسلم اسمه عبد المحيد . ولم أجد أية صعوبة .

فى كل مرة أتحدث إلى وزير فى بيته يدور هذا الكلام بالحرف الواحد .
أقول : ولكن أنا لا أعرف البيت .
فيقول : السائق يعرف .

— أى سائق ! ..

— سائق أى تاكسى !

وفعلا وجدت أن أى سائق تاكسى يعرف بيت أى وزير . فمدينة تريفاندروم عاصمة ولاية كيرالا صغيرة وليس فيها إلا شارع واحد رئيسى .. ثم إن بيوت الوزراء معروفة لأنها بيوت رسمية . وليست بيوتاً خاصة .

هذا ما تصورته ولكن الواقع شئ آخر .. الواقع أن جميع شوارع وميادين العاصمة ليست لها أسماء ، بل كل مدن الولاية يوجد بها شارع له اسم .. وإنما لكل شارع أوصاف . فيقال : الشارع الذى يبدأ بالمتحف وينتهى بالمعبد ، أو الذى يبدأ با-بلاق وينتهى بالجزمجي ، هكذا .

فهؤلاء الوزراء إذا لا يهربون من الإجابة على أسئلتى وإنما هذا هو الجواب الوحيد الذى يملكه أى واحد . حتى رئيس الوزراء ..

تحدد الموعد فى الساعة الحادية عشرة صباحاً فى بيت رئيس الوزراء «نامبودرياد» وهو الرجل الثانى فى الهند فالصحف لا تتحدث إلا عن رجلين : نهر و هذا الرجل .

لأنه ابن الأكابر . فأبوه من أعرق عائلة دينية فى كيرالا على الإطلاق فهو ينتسب إلى أسرة «نامبودرى» وهم سادة طائفة الناير وسادة الأسرة المالكة التى تسمى ثامبى . . ويكنى لتعرف مكانة هذه الأسرة أن المنبوذيين كان يجب أن يقفوا على مسافة عشرة أمتار من أى فرد من طائفة الناير وعلى مسافة ١٥ متراً من طائفة الثامبى ولكن على مسافة ٣٥ متراً من طائفة نامبودرى !

هذا هو إذاً ابن الأشراف المتدينين جداً الذى يتزعم حكومة شيوعية ملحدة . ومنذ أيام سأله الصحفيون ما هو الحل ؟ . فقال : فى يد الله !

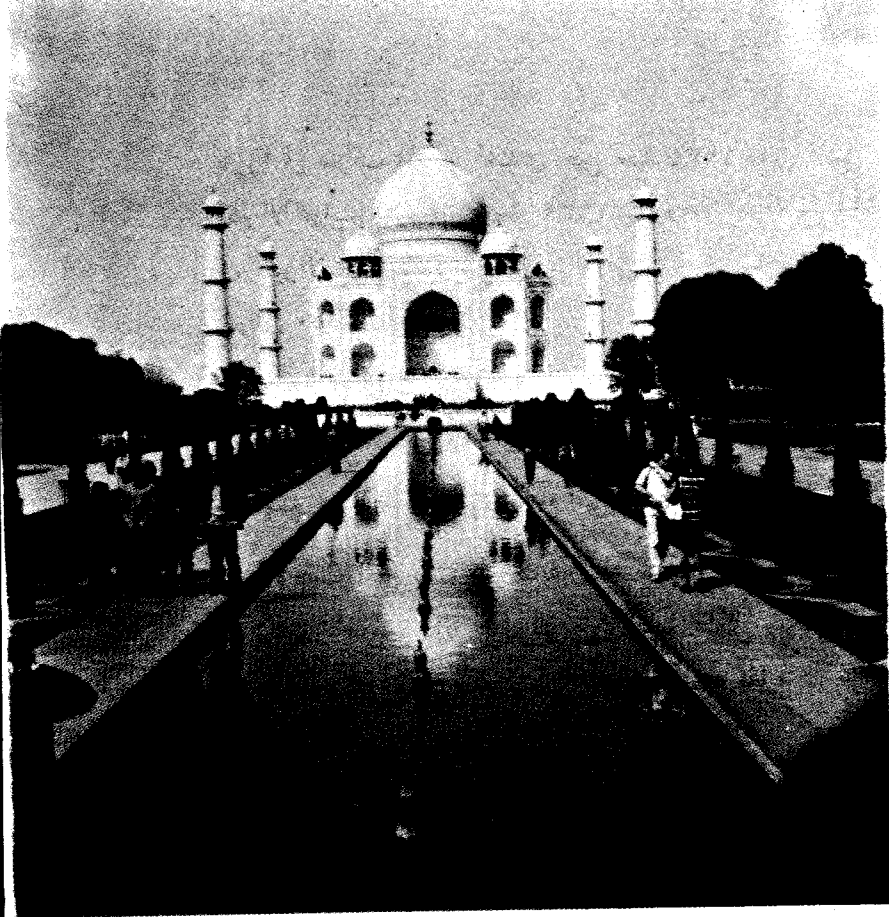
فضحكوا قائلين : وهل تؤمن بالله ! .

فأجاب : يعنى ! .

فقالوا : يعنى إيه ! .

وكان رده : أهوه كلام .

وهذا الرجل قد تشرد باسم الحزب الشيوعى ودخل السجن وكان عضواً



تاج محل : تحفة
العمارة ورمز الحب
والوفاء في كل العصور



و احد الأعياد لا بد من
تدريس الألوان والطور
ولبخور ..

بارزا في حزب المؤتمر الهندي حتى سنة ١٩٣٤ حين انشق عنه ، وتزعم « لجنة كيرالا للحزب الشيوعي » سنة ١٩٣٩ . . وهذا هو الاسم الحقيقي للحزب الشيوعي في كيرالا الآن . وودفع ما ورثه من أبيه للحزب . وقد قدر لي هذه الثروة بحوالى ٥٠ ألف جنيه .

والطريق إلى بيته يمر في غابة من الأشجار المحلية . . الطريق رطب ظليل هادئ ساكن . . وتدخل السيارة في بوابة عليها حراس ويقول لهم السائق كلاماً لم أفهمه ، ولا بد أن يكون معناه إنني على موعد .

وقفت أمام بيت من طابقين له حديقة صغيرة . وأمام المدخل يتقدم منا سكرتير خاص . . إنه حافي القدمين أيضاً ككل سكان كيرالا . . وينظر في ورقة معه ويقرأ اسمي ويقول لي : نصف ساعة كفاية . .

فأقول له : كفاية أشكرك .

وفي المدخل توجد غرفة استقبال ، انتظرت فيها لحظة حتى يتصل برئيس الوزراء في التليفون ويجزئه بحضورى .

على الحائط صورة لغاندى يبدو أن الرئيس السابق قد تركها في هذا المكان أو ربما كانت صورة جديدة . . فغاندى فيها يلبس قيصاً أحمر اللون !

• • •

وأشار السكرتير إلى السلم قائلاً : اتجه إلى اليسار دائماً وادخل مباشرة .

واتجهت إلى اليسار ، إلى السلم ، فالطابق الثانى إلى اليسار . ودفعت الباب أمامى . . وكان الرئيس نامبودريباد في وجهى جالساً إلى مكتب كبير . . المكتب عليه كتب معدولة ومقلوبة . . الكتب تتناسب مع ضخامة الرجل ، لأنه ممتلئ الجسم ، ويبدو أكثر امتلاء عندما يتحدث . . ولما وقف ليسلم على رأيتُه قصير القامة وكنت أراه في الصور طويلاً ثم جلس وانجه لي مباشرة وقال دون أن يعطينى فرصة للكلام :

— من القاهرة ؟

— أيوه .

— منذ متى هنا ؟

— فى كير الا من أسبوعين . وفى الهند كلها من شهر . .

— أين ؟

— فى نيودلهى والولايات الشمالية .

— مراسل دائم ؟

— لى جثت فى مهمة خاصة .

— ما اسم الصحف التى تمثلها ؟

— اسمها دار أخبار اليوم .

— أخبار . هذه كلمة هندستانية معناها الصحف اليومية .

— عندنا صحيفة يومية اسمها الأخبار والصحيفة الأسبوعية اسمها أخبار اليوم .

— وكم صحيفة فى القاهرة ؟

— الصحف الكبرى ثلاث .

— كلها بأية لغة ؟

— بالعربية . ولكن هناك صحف أخرى بلغات أجنبية .. بالفرنسية والإنجليزية

واليونانية والأرمنية .

ودهش جداً لهذا العدد من الصحف الأجنبية وأمال رأسه للوراء وقال : ولماذا

كل هذه الصحف !

— لأن عندنا جاليات أجنبية تقرأ كل هذه الصحف .

— وماذا يعمل هؤلاء الناس عندكم ؟ وكم عددهم ؟

— بضع مئات من الألوف .

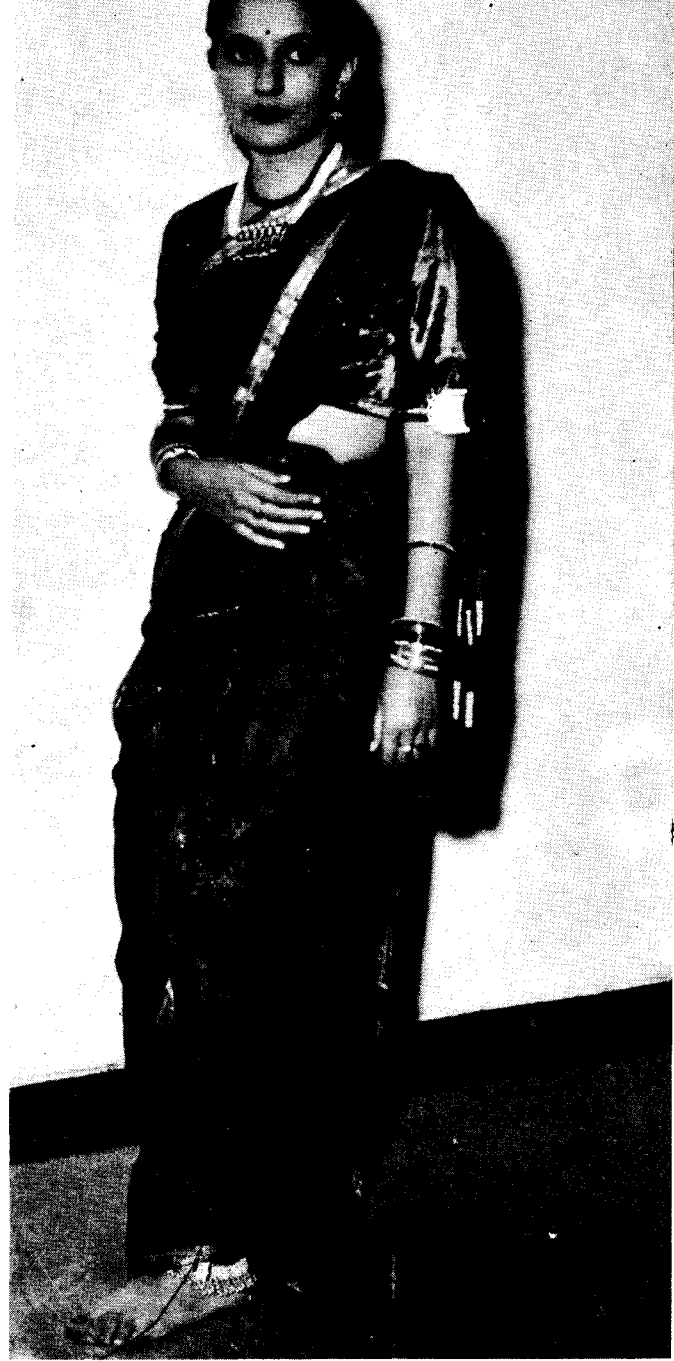
— ياه لماذا ؟ وهل هناك يهود ؟

— بضعة آلاف .

— وأية لغة يتكلم اليهود عندكم ؟

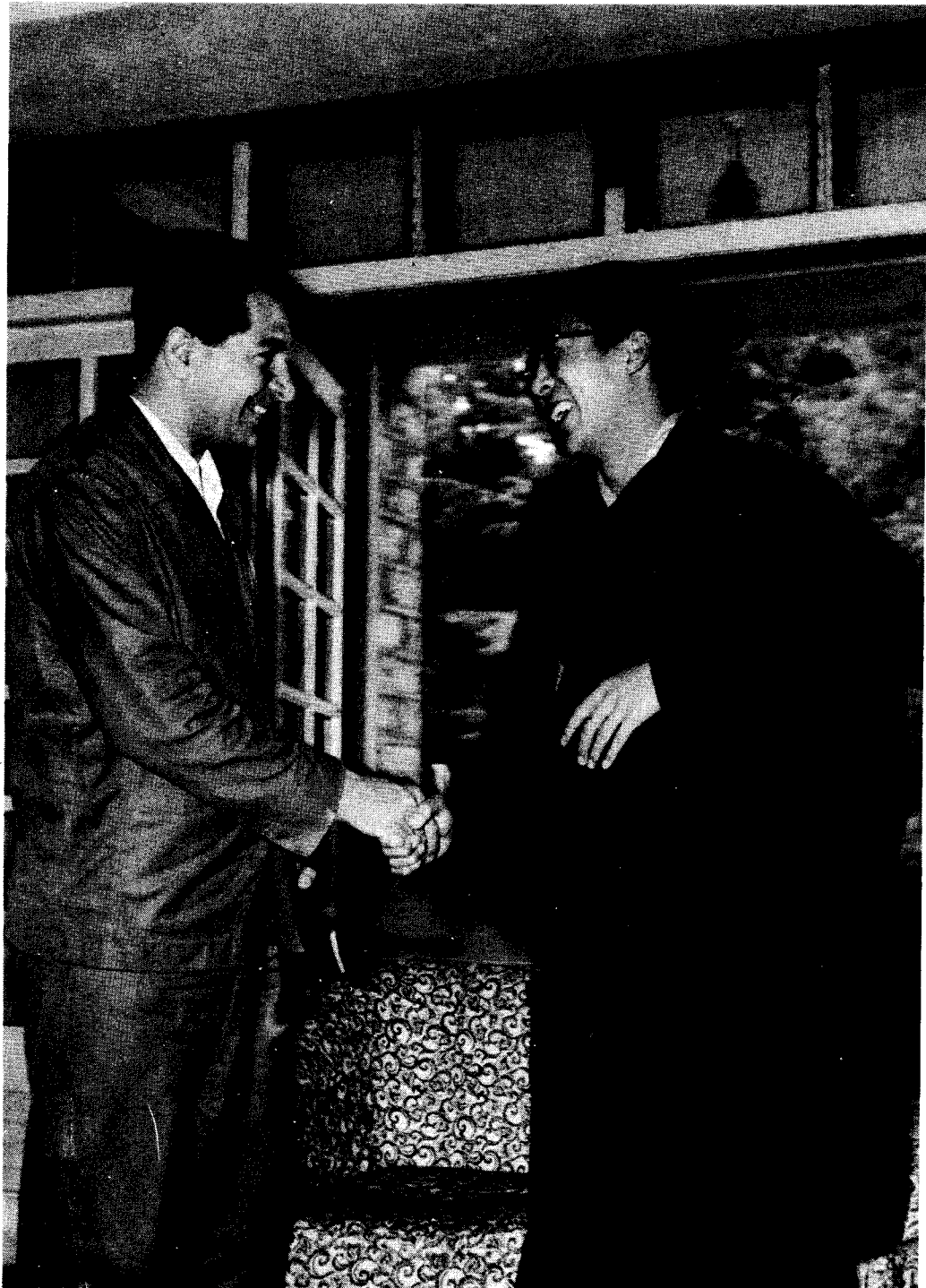
— العربية وبلغات أجنبية أخرى لكن معظمهم من المصريين الذين عاشوا فيها من

أجيال .



من الحرير كل هذا الثرى . . أما الألوان
فهادقة . وأما الجمال فأكثر هدوءاً . .
عن قرب تبدو المدينة أكثر وضوحاً . .
وتبدو هذه البقعة في الجبهة دليلاً على أنها
سيدة متزوجة . .





وكنت أول صحفي أنتق بقدماء الدلاي لاما . . (ليس واضحاً
في الصورة أن قدمته مزكوم . ولكني عانيت من ذلك فيما
بعد) ! .



واحدة أو واحد من أتباع الدلاي لاما الدين
هربوا وراه من التبت إلى جبال الهيمالايا . .

منظر مألوف جداً في الهند . . هذا
الأنقى لا يلدغ وإنما هو يعتصر
الإنسان حتى الموت . . وهذا الرجل
شهاداً !



عازقة في إحدى الفرق الموسيقية . .
الموسيقى حزينة ولكن المعاني تدعو
إلى حب الحياة وإلى الإيمان .





يمكن تمييز أبناء الولايات الهندية من
ملابس وزينات المرأة . . أما ملابس
الرجال فهي متشابهة إلى حد كبير .

— الشيوعية ما أخبارها ؟

— ممنوعة قانوناً . لا نشاط شيوعي عندنا ؟

— ما اسم عاصمة سوريا ؟

— دمشق .

— دمشق فيها نشاط شيوعي أقوى من النشاط الذي كان في القاهرة .

— كان فيها . . على كل حال لم تعد الشيوعية مشكلة إنما المشكلة هنا .

— هنا . . ! فين ؟

— في كيرالا . أو في الهند كلها .

وضحك . ولمعت عيناه جداً ووضع يده على رأسه الكبير وهو عندما يتحدث يتهته طويلاً ثم يشهق ويفهق ويفتح فمه ويرجع برأسه إلى الوراء ثم يندفع منه الكلام كأنه احتبس ثم أفرج عنه مرة واحدة .

وعاد يقول : هنا لا توجد مشكلة شيوعية . ليس لنا مشاكل . وإنما هي مشاكل الأحزاب الأخرى الضعيفة . ماذا نعمل نحن ؟ لقد جئنا بصورة دستورية .
— لتقوموا بإلغاء الدستور فيما بعد ؟

وضحك نامبودريباد وكأنه يقول : قديمة !

وقلت : هذا هو مصدر الخوف منكم . ليس اليوم ولكن غداً .

— لا داعي للتفكير في الغد . أنا أريد أن يناقشني واحد منهم الآن . . دعوتهم إلى المناقشة والجلوس معي على مائدة واحدة وأنا أقدم لهم ما عندي وهم يعرضون ما عندهم . . رفضوا . قالوا عندنا كتاب أسود .. انتظرناه . فلم يصدر حتى الآن . . ماذا أعمل ؟

— لا شيء إلا أن تبق في الحكم كما أنت . مهما كان رأيهم ورأى المتظاهرين لقد رأيتهم أمس بالألوف .

— يهتفون لنا . .

— كلا . . يهتفون ضدكم . .

— أنا لا أخاف من المظاهرات . .

— إذا ما الذي تخاف منه ؟ . .

– بيني وبينك لا شيء نحن أقوياء ! . وأنا لا أراهم كذلك . أين كانوا ماذا فعلوا للناس . أين كشف حسابهم . كل ما يقولونه هو : استقبلوا . .
– طبعاً غير معقول أن تستقبل حتى لو هدأت الأحوال . وهم يعلمون ذلك والصحف كل يوم تكرر هذا المعنى ..

– إنهم يعطلوننا وبالتالي يعطلون مصالح الشعب . ومن بين هذا الشعب أناس أتوا بهم إلى البرلمان وأتوا بهم فيما قبل للوزارة .. من الذى يستفيد من هذا كله ..

– لاحظت أنك بعد مقابلتك للرئيس نهرو صرحت فى أكثر من مؤتمر صحفى أنك متفائل جدا وأن احتمال تدخل الحكومة المركزية بعيد جداً . فعلى أى أساس بنيت هذا التفاؤل .

– مجرد إحساس لا أكثر ولا أقل .
– يعنى لا يوجد تصريح من نهرو بذلك .
– لا .

– إن خصومك عندما قابلوا نهرو كانت لهم تصريحات مخالفة . فقد شعروا أن تدخل الحكومة قريب جداً وتأكدوا من أن رئيس الجمهورية سيطردك أنت ووزارتك الشيوعية ! وأهم لذلك متفائلون .

ولمعت عيناه تحت المنظار الغليظ وعاد يتهق ويشهق ويختلج فى مقعده جداً ثم يبتسم ساخراً ، وهو يقول : كل الإحساسات غير مضبوطة . ومن أجل هذا نحن نطالب بأن تكون هناك أسس علمية لا خلاف عليها .. هذا هو أساس الخلاف بيننا وبينهم . المسألة عندهم عواطف ومشاعر .. والمسألة عندنا أرقام وقضايا منطقية .. طبعاً لا بد أن يكون هناك خلاف طبعاً .. لاشك فى هذا .. وكأنه كان يتحدث إلى نفسه ونظره إلى السقف .

– وهذا هو أيضاً سبب الثورة عليك فى الكنائس . لأنك ضد هذه المشاعر التى ليست علمية ..

– ضدها .. أبداً ، ماذا فعلت . . أجراس الكنائس أليست تدق كل

يوم ؟

وفجأة دقت الأجراس وارتعش رئيس الوزراء فوق مقعده ! وكأنه سمع صوتاً يقول له : إن الله معنا . .

ثم عاد يقول : لقد سمعت . . ماذا فعلت أنا . . الصلاة قائمة . . ورجال الدين آمنون . . يقولون لك إننا ملحدون هذا صحيح ولكن هل قضى إلحادنا على دينهم . . هل دعونا إلى ذلك . . إنهم كاذبون أفاقون . . ليس لديهم ما يقولونه !

- عندهم ما يقولونه عن الأراضي والعقارات وقانون إصلاح الأرض .
واعتدل في جلسته ونظر إلى نظرة جادة شرسة ، وكأنني أحد أصحاب الأراضي جئت أعترض على صدور القانون . . وبعد لحظة عندما تأكد أنني لست كذلك ابتسم وراح يحرك يديه الإثنتين قائلاً : هل تعرف أن القانون أصله من اقتراحات أحزاب المعارضة . . ما رأيك ؟ فإذا تقدم به الشيوعيون صار كذا . . لماذا وافقوا عليه أولاً . . ثم وافقوا عليه ثانياً . . والآن يعارضونه لقد وافقوا عليه أول الأمر على أساس أنه لن ينفذ وافقوا عليه للمرة الثانية على أساس أنه بعيد الاحتمال . . فلما حملناه محمل الجد . . ثاروا !

وفجأة وبلا أى مقدمات تلفت ناحيتي واقتربت مني قائلاً وعاد يسأل من جديد ؛ والصحف تطبعونها باللينوتيب ؟

- نعم . . .
- باللينوتيب أو الحروف تجمع ثم تربط وتطبع عليها الصحف .
- عندنا لينوتيب وأنترتيب . والدار التي أعمل بها عندها ٢٠ ما كينة لينوتيب . . وتوزيع صحيفتنا الأسبوعية يقرب من ٤٠٠ ألف .
- رقم كبير جداً وباللغة العربية ؟
- نعم . . .
- وما أخبار العراق ؟
- قرأتها في الصحف . .
- والأحوال مستقرة في العراق بعد ذلك ياترى !
- لا أعرف . . .

وحاولت أن أسأله أنا . . وأنا أقاطع أسئلته التي تنطلق الواحد وراء الآخر .
قلت : وهل هناك أحزاب شيوعية أخرى لها نفس قوة حزبكم هنا ؟
— طبعاً هناك حزب شيوعي في ولاية إندارا وكانت له أغلبية الأصوات
وإن لم تكن له أغلبية الأعضاء . . ولا أستبعد أن يكون بالغ القوة في الأعوام
القادمة .

— وأحزاب شيوعية في الولايات الأخرى . .
— إنها في حاجة إلى تنظيم .
— ومتى سنتنظم كلها وتصبح قوية ؟
وضحك كثيراً وبرقت عيناه وأدركت أنه سيتفادى الجواب على هذا
السؤال الذي معناه متى تسيطر الأحزاب الشيوعية كلها على الهند .
وأجاب : الذي تقصد إليه بعيد . . فالموقف عندنا صعب جداً . . فنحن
منقسمون إلى أقسام كثيرة طائفية لغوية . . وأنت ماذا ستري في ولاية كيرالا !
— قابلت رجال الدين .

— أنا أعرف ماذا قالوا لك أنا عرفهم أكثر منك . . وهل قابلت زعماء
المعارضة ؟ . . وأعرف ماذا قالوا لك . . وهل قابلت رجل الشارع . . هل هو
ضدنا ، لا أعتقد .

— وقابلت رئيس الوزراء وأنت تعرف ماذا قال لي . .
وضحك ونظر إلى التمثال الأبيض على مكتبه . . إنه تمثال لينين . . وأمامه
كتب أخرى عليها أسماء لينين وماركس .

وهنا دخل أحد أبنائه . ولما سألته إن كان هذا ابنه ؟ قال : نعم .
ونادى رئيس الوزراء أولاده الذين كانوا في الداخل . . وجاءوا . . إنهم
ثلاثة من الأطفال وفتاة . . والتفوا حول أبيهم ووقفوا جميعاً يتطلعون إلى عدسة
التصوير . . وكان أبوهم وراءهم . . كأنه أكبر الأطفال سناً . . مع أنه أخطر
الرجال في الهند مركزاً وأشدهم عناداً ، ولكنه كان لا يعرف هل يبق في الحكم . .
أم يخرج ! . . هل يستقيل أم يعزل !
إنه رئيس وزراء ولكنه لا يملك من أمره شيئاً .

وكنت آخر صحفي قابله وهو رئيس وزراء فقد قرر نهرو إقالته من الوزارة بعد
مقابلتى له مباشرة !

* * *

وفى الليل سقطت الأمطار بغزارة . بل إن كلمة بغزارة هذه ليس لها معنى
على الإطلاق . فالذى حدث لا يمكن أن يكون مطراً . وإنما هو نوع غريب
من ذوبان السماء فوق أدمغة الناس . السماء كانت قبة من الثلج سخنتها الشمس
فسقطت مرة واحدة . وتحولت الأرض إلى قنوات . . إلى بحيرات وتحول الناس
بقدره قادر من مشاة إلى سباحين . .

وبين الناس نزعت حدائى . . بل لم يكن لهذا الحذاء أى معنى . وعذرت
الناس الذين لا يلبسون أحذية . .

وملأت المظاهرات كل مكان وفى اتجاه واحد .

ومشيت فى اتجاه المظاهرات وأنا أعرف أنها ضد الحكومة فقط . ولكن
أى الأحزاب ضد الحكومة ! لا أعرف . والذى استطعت أن أفهمه فقط من
هتافات المتظاهرين هى كلمة : سندباد أو انداباد . ومعناها يعيش .

والناس هنا يتكلمون عدة لغات من بينها لغة . . ما لا يلم . . والتاميل . . وفى
الهند كلها توجد ألف لغة ولهجة ومائتا دين . . .

وانهالت الهتافات . وارتفعت المشاعل . ووقف أحد الحفاة يخطب فى
الناس . وانفض الناس يهتفون . وفى صباح اليوم التالى لم أر شيئاً غريباً لا فى
الشوارع ولا فى المحلات التجارية .

لقد انتهت المظاهرات فى سلام . وعاد الناس إلى عملهم . ولكنهم فى الوقت
نفسه ينتظرون سقوط الوزارة .

* * *

وبقى كل شئ على ما هو عليه . . .

وعدت إلى الفندق ، كأن شيئاً لم يحدث . . واستأنفت نشاطى الغذائى . .

وهذا النشاط يبدأ عادة بأن أشير إلى الجرسون وبعد لحظات تجيء أكدياس الأناناس وبعد دقائق تخطفها الغربان . . ويضحك الجرسون وأشير إليه بأن يأتي بالأناناس وتجيء الغربان وتخطف الأناناس لانشغالي بمقاومة البعوض وابتلاع بعض الأقراص والحبوب . . ثم لانشغالي بعد ذلك بتطهير أثر البعوض بالمواد المطهرة . وأتوهم بعد ذلك أنني نجوت من المرض .

وبعد الغذاء وعلى غير العادة جاء مدير الفندق يسألني إن كنت لا أزال في حاجة إلى الباطو . ولم أفهم ما الذي يقصده . فعاد يقول لي : الباطو الذي أخذته للوقاية من المطر !

فصرخت : ياخبر . . لقد جرفته الأمطار وضاع في الزحام أمس . وتركني الرجل دون أن أكمل اعتذارى عن الباطو الذي استعرت منه أمس . . وضاع . وقبل أن أكمل حلاقة لحيتي ، لأكون في حالة معنوية جيدة تسمح لي بالاعتذار الكامل عما حدث مع استعدادي لدفع ثمنه ، جاءني الجرسون ومعه الفاتورة . . وكان ثمن الباطو سبعة جنيهات .

دفعتها والنار والعة في كل جسمي ، كأنني سقطت في إحدى مستعمرات البعوض . . فقد كان الباطو قديماً ممزقاً وقديراً . . وكان من الواجب أن يحاسبني على تكاليف غسله في المطر . رغم أنه ضاع بعد ذلك . وأنا لا أستبعد أن يكون أحد جرسونات قد سرقه . . فقد لمحت واحداً منهم في المظاهرة .

هذا ما قلته لنفسى وأنا أغالطها .

فقد كان من المستحيل أن أعرف أحداً أو الملح أحداً ، أو حتى أرى أحداً ! وعلى مسافة بضعة مئات من الكيلومترات ، من عاصمة كيرالا توجد بقعة مقدسة للهند الحديثة . .

والآن أصف لك ما الذي أراه ، وكيف أراه . .

أنا أجلس الآن في آخر شبر من بلاد الهند . هذا الشبر اسمه « رأس كومورين » . . وعنده تلتقي مياه بحر العرب من الغرب ومياه خليج البنغال من الشرق ومياه المحيط الهندي من الجنوب . . أما البحر الرابع فهو يهطل فوق رعوسنا

منذ ٢٤ ساعة وبلا توقف . . ولو سقط هذا المطر وهذه الصورة الخيفة لمدة ساعة واحدة في القاهرة لأمسك كل ساكن في القاهرة بسنارة ووضع طوق النجاة حول عنقه ، وربط أمام باب شقته في الدور الثاني زورقاً كبيراً !

وأنا جالس على الأرض . . ومعى أحد أغنياء ولاية كيرالا . إنه من الأسرة التي كانت الككة . واسمها « تامبي » إنه تعلم في إنجلترا . . ومع ذلك يمشى حافي القدمين . ويلف حول وسطه فوطة تماماً كالتي كان يلبسها قدماء المصريين . . ويضع على عينيه منظاراً أمريكياً غالياً . وفي جيب قيصه الحريري قلم شيفرز من الذهب . . وفي يده ساعة من الذهب والماس . ومع ذلك يجلس على الأرض . . إنها التقاليد . وتتناول طعام الغداء . ولم نحضر معنا طبقاً واحداً ولا شوكة ولا سكين . وإنما أحضرنا معنا عدداً من الأواني الصغيرة في حجم سلطانية الزبادى . وجاء معنا خادم عار تماماً إلا من فوطة يد صغيرة جداً لفها بشكل ما !

ووضع الخادم أمام كل واحد منا ورقة من أوراق شجر الموز ، خضراء ناعمة مغسولة . . فهذه الورقة هي الصينية وهي الأطباق . . وأفرغ لكل منا كمية كبيرة من الأرز المسلوق ووضع عليه ملعقة من زيت جوز الهند . . ثم بدأ يفرغ العلب أو الأواني الصغيرة . وأعطى كل واحد ملعقة . . ملعقة بطاطس مسلوقة . . ملعقة تايوكا وهي تشبه البطاطا ثم ملعقة كاري في طعم النار . . وألواناً وأشكالاً من المانجو المخلل والمملح والمخلوط بالمرابي والمانجو بلا ملح ولا شطة . . وبعد ذلك قطعاً من الموز المجفف والموز المشوى . . وجوباً غريبة الأشكال والألوان . . وبعض الزبادى بالطهاطم . . كل ذلك قد وضع الواحد إلى جوار الآخر على ورقة الموز . . ثم وضع كوباً من النحاس به سائل لونه بنى . . هذا السائل هو عصير الدوم . . وهو مليء بالشطة أيضاً .

والخطوة الثانية هي أن يتركنا الخادم على حريتنا . أما حريتنا فهي أن نلخبط هذا كله بأيدينا وأن نجعل منه كرة واحدة وأن نأكلها بالهناء والشقاء ولم يكن في هذا الطعام لحم . فصاحب البيت من الهندوس الذين لا يأكلون اللحم . . حتى اللبن لم يكن حليياً ، وإنما هو لبن زبادى . . والزبادى عبارة عن خميرة صنعها البكتريا . . يعنى ليس حراماً !

ولاحظت أن زوجة صاحب الدعوة جاءت وسلمت وجلست وتحدثت بعض الوقت بلغة إنجليزية سليمة . . وعندما نهضنا للطعام – أى وقفنا لكي نجلس للطعام – انسحبت في هدوء ، ولم تأكل معنا . ويبدو أن هذه هي العادة في البيوت المحافظة . . فالنساء لا يأكلن مع الرجال .

وبعد هذا الغداء النباتي الخفيف اتجهنا إلى نهاية الهند ونزلنا منحدرًا من الرمال واتجهنا إلى الصخور التي كان يتعبد عليها رهبان الهند بين الماء والعواصف في وحدة أو وحشة تامة . .

وفي هذا المكان البعيد الهادئ أقامت الهند مبنى تذكاريًا للمهااتما غاندى . هذا المبنى لا يضم شيئًا . . وإنما فيه صندوق حديدي مكتوب عليه . هنا يرقد رماد المهااتما غاندى . .

فبعد مقتل غاندى أحرقوه . وما تبقى من جسمه من رماد وضعوه في هذا الصندوق الحديدي !

كأن غاندى أراد أن يمد في حدود بلاده . . أراد أن يضيف إليها ولو قليلاً . . أراد أن يعطيها بعض الذى أخذه منها . . مع أنه عاش جائعاً عارياً حافياً . . فأعطها حفنة من رماد حياته . . لقد أعطاها الكثير جداً !

وتركنا معبد غاندى . . وصفت السماء . . كأن السحاب ستار ارتفع أو نزل لتظهر الشمس المحرقة على مسرح الكون . . حتى العواصف سكنت . . كأن الطبيعة حبست أنفاسها . وبدأنا نحن تلهث وننفخ . . وعادت السحب مرة واحدة ونزل المطر . . وبدأ موج البحر يثور . . كأن الطبيعة تحاول أن تفصل بين البحور الثلاثة . . فهناك ثورة على الحدود كالتى بين الهند وباكستان وبين ألمانيا وروسيا . . أو كأن البحر لحاف استراحت تحته العواصف لحظات ثم ضربته وخرجت .

لقد اكتشفت هنا حقيقة هامة لم أكن أعرفها . . اكتشفت سر هذا التقلب فى الأرض والسماء . . فنحن هنا فى منطقة خط الاستواء . . وخط الاستواء هو « حزام » عريض من النار تلفه الأرض حول وسطها وهى لذلك تمايل وتتعوج وتتقصع . . بكتفها وساقها وصدرها . . كأن السحب

هى شعرها الأسود الغزير ، وكان الرعد هو بعض أسنانها ، وكان البراكين هى دقات قلبها . . وحركاتها ليست رشيقة كأنها راقصة مبتدئة . . مع أنها عجوز وعمرها بالملايين . . ولكنها لم تتعلم ، فليس هناك أحد ينافسها .

وعندما لا يجد الإنسان أو الحيوان أو حتى الأرض من ينافسها فسترى نفسها أعظم راقصة فى الكون .

وفجأة سكن كل شئ : الهواء والموج والمطر والسحاب . . كأنها لحظة تغيير « النمر » كما يحدث فى الكباريات . . وأظلم كل شئ . .

وكان الأرض توقفت عن الاهتزاز وكأنها ألقّت بحزامها فى وجوهنا وقالت : طيب ارقصوا أنتم !

. . . ورقصنا من الألم ! .

* * *

ونحن أطفال كنا نتصور أن الطريق إلى الجنة يمر على النار . . وأن هذا الطريق معلق فوق نار جهنم كحبل الغسيل . وأن هذا الحبل أدق من شعرة الرأس وأكثر حدة من موسى الخلاقة . . وأن الإنسان يمشى على هذا الموسيقى أو على هذه الشعرة وقد يسقط فى النار . وقد يصل الجنة : ولم نسأل أنفسنا فى ذلك الوقت : ولماذا يصل إلى الجنة ولماذا يقع فى النار ! وهل هذا الحبل حقيقى أو هو مجرد رمز . . وشغلتنا الدنيا عن الآخرة وعن الجنة والنار ولم نسأل أو نتساءل . وكأننا أرجأنا هذه الأسئلة إلى سن الشيخوخة أو المرض أو الإحالة إلى المعاش والتفكير فى هذه الأشياء على مهل .

ولكننى منذ أيام وجدتنى أفكر ليلاً ونهاراً فى هذا الخيط الدقيق الذى يمر على النار إلى الجنة . . فأنا هنا فى الليل لا أدرى ماذا أفعل . . لا شئ أبداً . . فلا سينما ولا سهرات ولا حفلات ولا موسيقى ولا غناء ولا راديو فى أى مكان . . ليس فى الفندق ولا فى المطاعم ولا فى السيارات ولا عند الجيران . . وأنا لا أستطيع أن أستمع إلى أى جار . . ففوق السرير مروحة تدور ليلاً ونهاراً . وفى الحمام مروحة . وفوق عند السقف جهاز تكييف . . فأنا أشعر دائماً أننى على ظهر مركب . . أو أننى لم أهبط من الطائرة بعد . . وفى كل مرة أدخل إلى السرير

أشعر أنني لابد أن أربط حزامي وأنظر من الشباك إلى السحب والبرق والرعد . .
تماماً كما يفعل المسافرون في الطائرة .

أو كأنني أعيش في وابلور طحين . . إنه يطحن ساعات الليل والنهار ويجعلها
ناعمة كالديقيق . . ولكن ليس لها أول ولا آخر !

وأنزل من السرير وأدخل الحمام فأجد على الباب ورقة صغيرة تقول : لقد
وضعنا الـ د.د.ت. من أجل صحتك ، على كل حال إذا شعرت بأى ارتفاع في
درجة الحرارة ففي استطاعتك أن تستدعي الأطباء الآتية أسماؤهم . . وقد اتفقت
معهم لإدارة الفندق .

ملحوظة : طبعاً نفقات انتقالهم واستدعائهم في ساعة متأخرة من الليل على
حسابك . . ونحن في خدمتك دائماً . .

وعلى الباب الرئيسي للغرفة أجد هذه اللافتة : « إذا لم تكن أطفأت النور
والمروحة وجهاز التكييف فيحسن بك أن تفعل الآن . فنحن نفكر لصالحك » .
وأنا أتمنى أن أقفل هذه الطواحين كلها وأنعم بلحظة هدوء . . لحظة واحدة . .
ولكن إذا أطفأتها قتلتني الحر وخنقتني العرق . . وإذا تركتها ونمت هلكت من هذه
العواصف . وإذا فتحت النوافذ دخل البعوض وإذا بقيت في الغرفة فهذا عذاب .
وإذا خرجت . فإلى أين أذهب فاللدينا حر جداً والمطر غزير جداً . ولا توجد
مطاعم فيها موسيقى ولا أماكن يسهر فيها الإنسان إلى ما بعد العاشرة مساء . .

وإذا ذهبت آخذ دشاً عملاً بنصيحة بريجيت باردو ، فهي عندما لا تجد
ما تعمله أو تفكر فيه فإنها تذهب إلى الحمام ، فإنني أرثي لحالي أنا . . فالماء
مليء بمواد زيتية عجيبة ولا يكاد يمر على جسمك حتى تشعر بأكلان شديد جداً . .
وإذا لم أستحم ازداد هذا الأكلان .

وإذا عطشت فاذا أشرب . . هل أشرب طول الليل وطول النهار شايًا وقهوة
لأنها مكونة من ماء مغلي . . إذاً فقل على النوم السلام . . وكذلك في الأكل وفي
المشي وفي الحديث إلى الناس أيضاً إنهم يتحدثون الإنجليزية . كثير منهم . والذين
يتحدثون الإنجليزية لا تفهم منهم شيئاً . وقليلون جداً يتحدثون الإنجليزية بطلاقة
ورصانة رائعة !

وأنا هنا أتمنى أن يخترع لى « العلماء » جهازاً يشبه الراديو . ولكنه جهاز لاستقبال الهواء فقط . فأنا أضبطه مثلاً على بلاج سيدى بشر فيأتى بهواء سيدى بشر ، أضبطه على بلاجات الريفيرا والكوت دازير وشاطئ ميامى فإذا هذا الهواء كله حرير ناعم حلو معطر بهفهب على وجهى ! .

الدنيا هنا واسعة جداً . والناس طيبون جداً . وكل شئ عندهم . ولكننى أراها ضيقة ، أضيق من عين الإبرة . ومن هذه العين يخرج هذا الخيط الدقيق الذى أمشى عليه وأجلس - أقصد أنام - عليه القرفصاء ، والذى آكل منه . . كالجنين الذى يتغذى من الحبل السرى من بطن أمه . . إنه خيط دقيق أيضاً .

فالذى أراه قليل ، والذى أسمعه قليل والذى أذوقه قليل ، وساعات النوم هى عدد أصابع لإحدى يديك .

وأخيراً بدأ الخيط يتسع . . بدأت الشعرة الدقيقة تصبح صغيرة غليظة . فى بلاد الهند مناظر طبيعية فاتنة حقاً . لديهم غابات وطرق زراعية وشواطئ ومدن جميلة وخصوصاً فى أقصى الجنوب . . بل إن الناس هنا ملاحظهم حلوة : النساء وحتى الرجال أيضاً .

إن الصراط المستقيم بدأ يتسع ويلتوى . . إنه أصبح كورنيشاً على النيل والسين والراين . . لماذا ؟

لأننى بعد أيام سأودع الهند !

* * *

وكلما سألت عن سبب إقفال دواوين الحكومة قيل لى : إنه مهرام . . عيد مهرام ! .

وفى نفسى أقول - لا بد - أنه أحد الهنود أو أحد الزعماء . . فلا داعى للمناقشة . . والذين سألتهم ينطقون هذه الكلمة وكأنها حقيقة كالشمس ، فكيف أتساءل أنا عن الشمس . فأهز رأسى كأننى نسيت السيد مهرام هذا ! .

واستدعيت أحد الخدم ، وسألته فقال : إنه مهرام أحد خلفاء المسلمين . إن الاحتفال غداً سيكون ممتعاً . . لا بد أن تراه .

وأقلب في رأسي وكأنه جيب ممزق في جلابب قديم . . وأحبه إلى الخارج ،
وأعيده مكانه . . وكأن رأسي جيب حقيقي كله ثقوب فيتساقط منه كل شيء . .
من هو مهرام هذا . . هل هو محمد أو المهدي؟

وأخيراً انتهى مهرام هذا إلى « محرم » شهر محرم . وأعياد شهر محرم . وأنا
لا أعرف ما هي أعياد شهر محرم في الهند . . وحتى لا أعرف إن كنا في
شهر محرم أو في شهر ذى القعدة . فالصحف هنا لا تذكر إلا الشهور التي
تبدأ بيناير وتنتهى بديسمبر .

. وذهبت إلى حيث ستبدأ المهرجانات وسمعت ورأيت الأعاجيب . . هذا
العيد هو ذكرى يوم ١٠ محرم ، يوم مقتل الحسين بن علي . وهو عيد الشيعة ،
وفي العام الماضي رأيت مدينتي النجف وكربلاء في العراق . وزرت مسجد
الحسين والإمام علي . ورأيت أبناء العراق وقد لبسوا السواد ونقلوا السواد إلى أبوابهم
ونوافذهم . . وأيامهم ولياليهم مملؤها بالدموع . . واتجهوا إلى أجسامهم فراحوا
يضرّبونها بالحديد والسيوف ، نلماً على مقتل الحسين .

وهنا في مدينة « تريفاندروم » عاصمة ولاية كيرالا . . يحتفلون بمقتل الحسين
بصورة مزرية مضحكة ، فيبدأ المهرجان بطبول تشبه بطول الأراجواز بالضبط ؛
ويتقدم المهرجان عشرون شاباً وطفلاً ، وقد دهنوا أجسامهم بالزفت وراحوا يرقصون
ويخرجون ألسنتهم للناس ويتجهمون على المحلات العامة وعلى المشاة ويطلبون منهم
شيئاً لله وبالقوة ، وقد التفتوا حولي . . وكنت قد أطلقت شاربي ولحيتي ولبست
بالطو مطر فصرت كأني أحد المبشرين . .

وخشيت على ملابسى من الزفت فأعطيهم بعض الروبيات فتركوا المهرجان
وراحوا يقتسمونها . . وبعد هولاء « المزفتين » يبحى عدد آخر من العراة وقد صبغوا
جلودهم باللون الأصفر الأرقط تماماً كجلد النمر . . وصبغوا وجوههم باللون الأصفر
وجعلوا فيها ملامح النمر أيضاً . . وبعد هذا يبحى الخليفة على ظهر الحصان وقد
ارتدى طاقية صوف . . وأخيراً نموذج صغير من الفضة لمسجد الحسين . . والطبول
والأصوات والصفير تكتسح الجميع !

ويتجهون إلى النهر وينزلون إليه جميعاً ثم يرمون في النهر بمجموعة من الأيدي

المصنوعة من الفضة ومن الذهب . . وأشياء أخرى في كل بلاد الهند في هذا اليوم .
ملحوظة : فاتني أن أنبه إلى أنني أكتب هذا كله وأنا جالس مقرص في
السرير وفي ناموسية . . والناموسية هي أغرب مخبأ ضد غارات الناموس . . مخبأ
مرتفع مضاء كل شيء فيه واضح . . والناموس الذي يغير على ساكن هذا المخبأ
يطلق صفارات الإنذار قبل أن يلسعني . . أشكره !

إذا جاءت أفكارى مقرصة مثل فاعذرنى ، وإذا جاءت أفكارى منكوشة
كشعري فاعذرنى . .

والذى يرانى جالساً يخيل إليه أنى قمت من النوم مع أنى لم أقم . . والذى
يرانى نائماً يخيل إليه أنى جالس - مع أنى أتخايل على النوم .
والذى يرى احمرار عيني يتوهم أنى شعبان نوم ، إن احمرار عيني سببه
أنى أمسحها في جدران الليل . .

ولولا عجزى عن النهوض من الفراش لبحثت في القاموس عن كلمة أخرى
للناموسية ، لأنها ليست عربية . وأعتقد أن المجتمع اللغوى يسميها « المبعضة »
نسبة إلى البعوض ، وعلى وزن « المدبة » أى المنشة ، لأنها « تذب » الذباب .
ولما كانت هذه الناموسية واسعة الفتحات لا تمنع إلا بعض الناموس كان
لابد أن أغير اسمها إلى : المبعضة لبعض البعوض !
. . والله أعلم ؟

* * *

يافتاح ياعليم يارزاق ياكريم . .
فلت منى هذه العبارة وأنا أقلب فى الصحف التى صدرت اليوم . . لقد
قرأت مقالا قصيراً يعلن أجدادى ويتهمنى بأخطر أنواع التهم . . ويقول لىنى
لم أر إلا كل ما هو قبيح وقذر فى الهند . وأن الهند التى فتحت ذراعها لواحد
مثلى كان جزاؤها منى . . إلخ !

فقد نشرت « الأخبار » و « أخبار اليوم » و « آخر ساعة » و « الجليل »
كل ما كتبتة عن الهند ويبدو أن هذه المقالات قد ترجمتها وكالات الأنباء . .
وقرأ الهنود هذه المقالات . وثاروا عليها . .

ولما عدت إلى القاهرة بعد ذلك بشهور عرفت أن السفارة الهندية قد نشرت
بلاغاً رسمياً تلحن فيه الكاتب - الذى هو أنا - وتلحن فيه الفلسفة التى تعلمها
وأوربا التى أفسدته . . وقالت إننى ذهبت إلى الهند أفتش عن باريس ، وأننى
ذهبت إلى معابد الهند أبحث عن صناديق الليل فى روما . . ولو عرفت السفارة
الهندية أننى عندما ذهبت إلى باريس نزلت فى فندق اسمه نيودلهى ، لعرفت مدى
اهتمامى بكل ما هو هندي حتى فى فرنسا .

وهنا فقط أدركت أننى هدف حقيقى . . وأن أى هندي يستطيع - لو
عرفنى - أن يلقى بى فى نهر من هذه الأنهار فأصبح طعاماً لا بأس به لبعوضة
القبيل التى تنفخنى حتى أصبح فيلاً ، ثم أصبح بعد ذلك لحمأ أبيض لحيوانات
الغابة الرائعة القريبة من العاصمة ..

ولكن لإحساسى بأن الهنود متسامحون جداً . وأنهم لا يحبون الدماء . وأنهم
يقابلون كلماتى هذه بروح متسامحة ، جعلنى أفكر فى البقاء يوماً أو يومين آخرين
قبل أن أحزم أمتعتى وأسافر إلى جزيرة سيلان أفتش فيها عن السنوات العشرين
التى أمضاها الزعيم أحمد عرابى هناك . .

ولكن الحقيقة أننى ازددت خوفاً . وبدأت أفسر نظرات الجرسونات تفسيراً
خاصاً . فأنا لا أستبعد أن يكونوا قد قرأوا ما نشرته الصحف ولا أستبعد أيضاً
أن تكون الغربان قد دربوها على الهجوم على وجهى وخطف عيني إذا لم تجد
طعاماً . فكل شئ فى الهند ممكن . فهم يلربون القروذ والثعابين والتمل .

لقد رأيت واحداً من الهنود يخرج كيساً به ثعابين ويطلق هذه الثعابين فإذا
هى تزحف اثنين اثنين . وثلاثة ثلاثة . . ثم إذا هو يطبل ويصر فتصبح هذه
الثعابين على شكل حروف . . هذه الحروف يتكون منها اسمى . . بالتقريب .
وأغرب من ذلك أن هذا الحواى الهندى سألنى إن كان هذا اسمى ، فأنكرت
أول الأمر فنطق هو باسمى كاملاً .

ومن المستحيل أن يكون هذا الرجل قد عرف اسمى . فقد كنت فى الطريق
بين نيودلهى ومدينة « تاج محل » . . وتوقفت بى السيارة فجأة . وخرج هذا الحواى
من حقول القصب !

ولذلك لا أستبعد أن تكون هذه الغربان قد سلطها أحد الحواة المثقفين الذين
قرأوا هذا المقال . . أو أحد الحواة الذين يعملون للدولة كخبير في تطقيش الأجانب
من الهند . .

وكان لا بد أن أنهى مدة إقامتي بالهند . . فلا يزال أمامي طريق طويل جداً .
ولكن لو قدر لي أن أزور الهند مرة أخرى لفعلت فهي بلاد فيها كل شيء . .
كل الألوان وكل الأديان وكل الطبقات . . ومئات اللغات وألوف اللهجات . .
والذين يملكون ألوف الملايين . . والملايين الذين لا يملكون أى شيء حتى طعام
اليوم الواحد !

مظاهرة انتخابية في إحدى المدن الهندية .. ومهما
كانت أسباب المظاهرة فالهنود ليس فيهم عنف
ولا ميل لاراقة الدماء .



● تأملت هندية!

قالت الأسطورة : جلس الإله يستريح بعد أن خلق العالم . . وبدأ الإله يفكر في حياة المخلوقات . . وكيف تكون هذه الحياة . وعرضت له مشكلة كم يكون عمر كل واحد منها .

وأخيراً قرر أن يجعل عمر كل كائن حي ٣٠ عاماً .

واستدعى الحيوانات واحداً واحداً وبدأ بالحمار وقال له : جعلت عمرك ٣٠ سنة ما رأيك ؟

قال الحمار : يا إلهي ماذا فعلت ؟ إن هذه الحياة طويلة . سأقطعها كلها في العمل والكفاح . أتوسل إليك يا إلهي أن تنقص هذا العمل الطويل . اقصف عمري أرجوك . .

وجعل عمر الحمار ١٨ سنة فقط . . .

وبعد ذلك استدعى الكلب وقال له : سيكون عمرك ٣٠ سنة ما رأيك ؟ وهنا نبح الكلب قائلاً : يا إلهي هذا كثير . إن هذا العمر طويل . . لا أريده . . لا أستطيع أن أتحمّله . . هل يرضيك أن أقضى العمر كله في التباح ومطاردة الناس . . أرجوك يا إلهي . . اجعل عمري قصيراً . .

وجعل عمره ١٢ سنة .

وجاء دور القرد وعندما سمع أن عمره سيكون ٣٠ سنة ثار وبكى وقال للرب براهما : يا إلهي حرام . . هذا كثير . . هل يرضيك أن أقطع كل هذه الشهور والسنين أقفز من شجرة إلى شجرة وأتعلق من ذيلي ٣٠ سنة . . أرجوك ! .

وجعل الإله عمره ١٠ سنوات . وأخيراً جاء الإنسان وقال له الرب : ما رأيك سيكون عمرك ٣٠ سنة . . هذا كثير أو قليل ؟

وبكى الإنسان وقال : تقول ثلاثين سنة يا إلهي . إن هذه حياة قصيرة جداً . إنني لم أبدأ حياتي إلا أخيراً لم أفرغ من بناء بيتي وزراعة بعض الأشجار وأريد أن أستريح . إن هذه الأعوام الثلاثين لا تكفي . ثم ما مصير زوجتي . . وما مصير أولادي عندما يكبرون ولا يجدون أباهم بينهم ماذا يفعلون . أرجوك يا إلهي . أتوسل إليك أعطني عمراً أطول لكي أربي أولادي وأطمئن إلى مستقبلهم أرجوك يا رب . .

وأجاب الرب : سأعطيك ٣٠ سنة أخرى أخذتها من عمر الحمار والكلب هل هذا يكفي ؟

فأجاب الإنسان : لا يا إلهي . . هذا لا يكفي لأن أولادي سيكون لهم أولاد وأريد أن أرى أولاد أولادي . . أريد أن أعيش معهم . . أن أعانقهم أن أحتضنهم . . أرجوك يا رب . . أرجوك . .

وقال الرب : لقد أعطيتك الكثير ولكنك كائن طماع لا تشبع . . سأعطيك ٢٠ سنة أخرى أخذتها من حياة القرد فهل يرضيك هذا ؟

وشكره الإنسان واختفى بين الغابات .

ومنذ ذلك اليوم وعمر الإنسان ٨٠ عاماً .

والثلاثون عاماً الأولى منها هي حياته هو . وهو في هذه السن يكون قانعاً راضياً .

وبعد ذلك تجيء الـ ١٢ سنة التي أخذها من عمر الحمار . وفيها يعمل الإنسان ويكد ليلاً ونهاراً من أجل أسرته .

وبعد ذلك يجيء الـ ١٨ سنة التي أخذت من عمر الكلب وفيها يتحول الإنسان إلى رجل يرقص ويلعب مع أحفاده ويخطف الطعام منهم ويقفز من مكان إلى مكان فلا يربطه بالناس إلا شيء قليل . .

وبعد ذلك تجيء السنوات التي أخذها من القرد ويكون عجوزاً يندم على

أيام النط من شجرة إلى شجرة . . ولا يجد من هذه الأشجار كلها إلا عكازاً
في يده !

وكل إنسان هو خليط من الحمار والكلب والقرد . .
وقد عرفت تاريخ هذه المراحل وعليك أن تبحث عن نفسك . أى واحد
من هؤلاء . . .

* * *

وعلى سبيل التجربة ومعرفتي لنفسي اكتشفت أمس أن ملابسى كلها ممزقة . .
البنطلونات والقمصان ولاحظت أن ألوانها أيضاً تغيرت . . قبصى الذى كان
رصاصياً أصبح اليوم نحاسياً . . وبنطلونى الذى كان نحاسياً أصبح اليوم برونزياً . .
إنها أشعة الشمس والغسيل والمكوى وكثرة الاستعمال . . ولو عرفت كم
عدد القمصان التى معى لدهشت كيف أسافر بها خارج بلادنا . إن الذين رأوا
الحقيقية التى أحملها لم يصدقوا أبداً أننى سابقى خارج القاهرة ٢٢٠ يوماً . .
لأنها ملابس تكفى أى إنسان لمدة أسبوع فى الإسكندرية .

ولكنى قررت ألا أشتري أى ملابس من الهند ولا من أندونيسيا . . وقررت
أن أشتريها من سنغافورة . ففيها ملابس جميلة ورخيصة . وعندما ذهبت إلى
سنغافورة عدلت رأى . . وقلت ما تزال أمامى بلاد أخرى أجمل وأحسن . . بلاش
يا واد دلوقت . .

والواد لم يصدق خبراً . . وراح يلبس الممزق ويقلع الممزق . .
وملابسى الصيفية تبدو شتوية هنا فى الهند . .

لأنها ثقيلة جداً . مع أننا فى القاهرة نقول إنها خفيفة جداً . وأحد أصدقائى
ذهب فى نقدها للدرجة أنه قال لى : يا أخى بلاش الهدوم الشفتشى دى !
وأمس فوجئت بدعوة موجهة لى من رئيس وزراء منغوليا . . الدعوة فى
فندق اشوكا الأنيق .

ولابد أن أرتدى بدلة كاملة . وهذه مسألة تضايقتى جداً . فأنا أكره
الكرافتة وأكره الجاكتة وأكره الياقة التى تلتف حول عنقى . . وأحس أننى مربوط
من شعر رأسى إلى السقف كأننى كيس قطن أو شوال أرز . . .

وتذكرت أن لى بنطلوناً عند الترسى وطلبت منه أن يستعجل البنطلون ...
واكتشفت أن هناك حذاء آخر عند الجزمى . البنطلون يجب تصليحه والحذاء
يجب تصليحه ..

وأخيراً وقبل الحفلة بساعة حضر البنطلون والحذاء ..

وحمدت الله فأنا الآن على ما يرام ومن باب الاستطلاع نظرت إلى الحذاء
فأعجبني تصليحه .. لا توجد أية آثار للخيط ولا للماكينة أو الإبرة ..
عال .. وأمسكت البنطلون فوجدت أن التصليح واضح جداً .. رقعة على اليمين
ورقعة على الشمال والخيوط واضحة جداً .. الخيوط تمسك الرقعة حتى لا تقع .
والخيوط ألوان أيضاً حتى لا تختفى على العين .. ولعل الرجل أراد أن يلفت نظرى
إليها حتى لا أظن أنه لم يعمل أو لم يبذل مجهوداً ..

وفى الحفلة التى شهدتها نهرو ورجال السلك الدبلوماسى كلهم . أحسست
أن هذه الحفلة قد أقيمت للفرجة على الرقعتين .. واحدة هنا وواحدة هناك ..
وأحسست أن هذه الابتسامات الكثيرة موجهة لى .. كلها مواساة أو كلها
تريفة .. ولم أجد مكاناً أضع فيه يدى . لا أستطيع أن أضعهما فى جيوبى فهذا
لا يصح وثانياً هذا يكشف الرقعتين . ولا أستطيع أن أضع يدى فى يد أحد
لأننى لا أعرف أحداً ..

فوضعت يدى ورأى ..

وكلمتا مر الجرسون الذى يحمل المشروبات . قلت له : أنا مريض ..
آسف .. مريض .. شربت ... متشكر .

وأحياناً كنت أنسى فأضع يدى إلى جوارى .

وأتذكر فأردهما إلى مكانهما فجأة فترتطمان فى سيدة فاستدير لأعتر
فأضرب واحدة أخرى .. أو واحد آخر ..

ووقفت إلى جوار الحائط .. ظهرى للحائط ..

وعاد الجرسون يطار دنى فقلت له : وحياتك مريض .. إننى مريض «باللوز» !
وهذا صحيح لأن الترسى قد وضع لوزة للبنطلون كالتى يضعها الجزمى للحذاء القديم ..
طبعاً لا داعى للندم .. إن الغلطة غلطتى أنا ..

كان يجب أن أبعث ببنتلوني للجزى ، وأن أبعث بجزمتي للترزى !
وهنا فقط أدركت أنني وحدي الذى ما أزال فى مرحلة الحمار - أى يجب
أن أعمل . وعملت !

* * *

وفى الليل جلسنا معاً . . شلة . . وفجأة نهض واحد منا وأقفل الراديو على أم
كلثوم وهى تقول : وأقول أقابلك فىن !
وقال : تقابليه فىن ؟ هنا ياأختى فى النار والرطوبة . .

وجلس وكأنه قام بعمل عظيم . وهو فعلاً قام بعمل عظيم بل جسم لقد حرمتنا
من أغنية جميلة .. ثم التفت إلينا بحركة عصبية وقال : ماتحبوش تسمعوا كلام
بلدى حلو ؟

ولم ينتظر حتى يقول واحد منا : نعم . . والحقيقة أننا جميعاً لم نكن قادرين
على أن نقول كلمة واحدة .. الدنيا ليل ، والحرارة مرهقة ، والرطوبة مرهقة أيضاً .
ولا مانع من أن يقول أى شئ . فهو لن يضيف إلينا تعباً ولا قرفاً أكثر من الذى
نعانيه . . .

وواحد منا وجد عنده بقايا قوة فقال له : قول ياأختى . قول ياسيدى . .
نعم . سمع . هس !

وجلس صاحبنا على الأرض وظهره للمقعد وقال : يا جرح . . يا جرح .
وقلنا كلنا فى نفس واحد : يا إيه ؟ موال ده واللا إيه ؟
ولكنه مضى يقول الموال وهو ينظر إلى أعلى . كأن هناك فتاة تطل من
ثقب السقف : يا جرح الجبال ماتوا . .

وأنت فاضل حى . . .

منين أجيب لك الطيب . . .

صفصف علينا الحى . .

من الصغر للكبر عمال تألمنى . . .

راح تقول إيه بين أيادى الحى . .

رد جرحى وقال . .

ومين قال لك أنى أنا حى . .

مين اللى مات له طيب ولسه فاضل حى .
زى الضرير يمك فى حبال داية . .
والشمعة بتموت ولهبها بيفضل حى . .
ومن غير أى تفكير قال واحد آخر باللغة الصعيدية :
تعالى يا طيب شوف ما جراى . .
رش الدوا بالدناشى . .
وإن عشت يا طيب لأديك ما جراى . .
وإن مت يا طيب ما بدناشى !

وتفسير الكلمات الصعيدية : ما جراى الأولى معناها ما جرى لى . وما
جراى الثانية معناها : فلوس . وبالدناشى الأولى معناها : قليلا قليلا . وبالدناشى
الثانية معناها : ما بيدناشى ! أرجو أن تكون قد فهمت . . وأنا
أعتذر لإخواني الصعايدة إذا كانت لهذه الألفاظ أى معان أخرى خبيثة .

وقال ثالث : أحسن كلام بلدى سمعته هو الذى يقول :

ليالى الهجر تطلع شمسها بكره

وليلة الوصل تطلع شمسها المغرب

ومضى يقول : شوف المعانى الحلوة . . تصوروا ليلة الهجر طويلة . . شمسها

تطلع فى اليوم الثانى . وليلة الوصل قصيرة شمسها تطلع بعد ما تغرب على طول . .

وسكتنا كأننا تعبتنا من الكلام أو من الاستماع إلى الكلام .

وفجأة تحدث الصديق الأول وقال : حد فاكر أغنية : أكل المحشى

ما ينفعشى للمطرب الشيخ الصفتى . . أغنية مشهورة قديمة . عاوزين تقولوا

إن كلكم مودرن . كلكم شبان . . أعوذ بالله . . أنتم مالكم هابتكموش كده

ليه . . النهارده إيه فى الأيام . . النهاردة التلات . . يبقى اليوم معنا إيه يا أستاذ

يا بتاع الأيام وفوائد الأيام .

ورد عليه واحد منا قائلا : اسمع وأنا أقول لك . . شوف يا سيدى . الحكيم

البلدى القديم قال :

السبت للصيد . .

والحد للبننا يا عم . .

ويوم الاثنين سافر . .
 ويوم الثلاثاء خد دم . .
 ويوم الأربعاء تداوو
 وفي الخميس ينفك الهم . .
 ويوم الجمعة شرح أحوال النساء ياعم . . يعنى النهارده ناخذ دم ليه رأيك . .
 مش ننام أحسن . . أحسن ما نعيها النهاردة ونتعالج يوم الأربعاء .
 وكان التعب كخييط قديم . . تمزق الخييط وتفرقنا واحداً واحداً . . كل
 واحد يتثاب . . كأن فى بطنه ذنباً عاويماً يريد أن ينطلق إلى الفراش . . وكان
 الفراش حمل وديع . .
 ومشى كل واحد منا إلى غرفته . . وفجأة ارتفع صوت أم كلثوم يقول وكأنها
 تتحدث إلى النوم الذى لا أجده : ولما أشوفك يروح منى الكلام وأنساه !

• • •

منذ آلاف السنين كتب السلطان « بابار » أحد ملوك منغوليا مذكراته :
 لوعرف أبناء وطنى فوائد الشطة ، كما عرفها أبناء الهند لغزو العالم كله !
 ولحسن الحظ لم يعرف شعبه فوائد الشطة والكوم والفلفل . .
 والأوروبيون عندما اكتشفوا هذه البلاد امتلأت أنوفهم برائحة الشطة وأفواههم
 بطعمها . فنقلوها من الشرق إلى أوروبا وكانوا يبيعونها بأسعار غالية جداً ،
 كانت الشطة تباع بوزنها ذهباً وفضة . . .
 وفى الهند وفى كل البلاد الآسيوية الحارة تجدهم يتناولون كميات كبيرة جداً
 منها . وأنت لا تعرف لون الشطة فقد تكون حمراء أو صفراء أو سوداء أو
 خضراء . . ولكنها تدخل كل الأطعمة . لأنهم يضعونها أيضاً فى الفاكهة وفى الحلوى .
 المهم أن تكون هناك شطة !
 ويظهر أن الشطة هذه لا بد منها فى المناطق الحارة . فالناس من شدة الحرارة
 كسالى جداً ، والمعدة كسول والكبد كسول ، والدم يتسكع فى الشرايين ، والفكر
 يتمسح فى الأعصاب . . كل شئ فى حالة تراخ تام .
 والشطة هى النار التى تلسع كل عضو وكل فكرة . . وهى الكبرياج الذى
 يبتلعه الهنود ليسوقهم من الداخل إلى الحياة .

وأمس صدر كتاب في الهند لعالم إنجليزي كبير اسمه البروفسور «راي» هذا الكتاب كله عن مزايا الشطة التي تنشط الدم والهضم . . . ولأنه لولا هذه الشطة لمات الناس من الأمراض المعوية والكبدية . . .

ومن رأيه أن الإنسان يجب أن يتناول الشطة بقدر ما يستطيع . وهو ينصح الأوربيين أبناء الشمال الذين يعيشون على اللحوم أن يضعوا القليل من الشطة في اللحوم . وبذلك لا يصابون بالقرف الذي يصيبهم عادة . وأحسن طريقة لطبخ الشطة هي أن تضعها والطعام يغلى . . . ففي هذه الحالة تتحول إلى مواد كيميائية نافعة جداً . . . فهي أحسن بكثير من تناول أقراص قبل الأكل وأملاح بعد الأكل وحبوب أثناء الأكل ، كما يحدث في أمريكا وأوربا .

والذين لا يدقون الشطة محرومون من متعة حقيقية . فالشطه هي لذة ملتبهه وهيب لذيد . . .

ولو . . . فلن أذوقها !

* * *

الهنود تعلموا من الإنجليزية أشياء مختلفة والذي تعلموه ولا يزالون يؤدونه كما هو . . . فهم تعلموا اللغة الإنجليزية وينطقونها بطريقة لا يمكن فهمها في كثير من الأحيان . . . وتعلموا منهم النظام والطاعة . . .

فهم يقفون في طوابير أمام الأتوبيسات وأمام شبائك التذاكر . هم منظمون فعلا وإدارات الحكومة والشركات منظمة الإجراءات فيها بسيطة . وكل الأعمال تم بنظام .

وشيء آخر تعلموه أيضاً . . . لا أعرف ماذا أسميه . ولكن سأذكر لك الأمثلة وعليك أن تجد الكلمة المناسبة . فقد اختلفنا هنا في وصفها . . . مثلاً أنا أسكن في أحد الفنادق . . .

وفي الصباح يدخل الخادم يحيك ويشير إلى أنه سينظف الغرفة . . . وبعد لحظات يخرج . وبعد لحظات يبيئ خادماً آخر ويشير إليك أنه سينظف الغرفة . . . ولا يشير دهشتك أنه يوجد اثنان من الخدم لغرفة واحدة . . . وبعد لحظات يخرج ويدخل ثالث . وهنا تلتفت ماذا عساه أن يفعل هذا الثالث والرابع . . . وفي اليوم التالي يبيئ ثلاثة أو أربعة آخرون طبعاً ليس هذا اهتماماً غير عادي

بشخصك . فأنت مهما كنت لا تعرفك أحد هنا . وهؤلاء الخدم معينون قبل تشريفك بزمان . . .

وتفسير ذلك أن كل عمل له رجل خاص . فالذى يعد لك السرير غير الذى يكنس لك الأرض ، غير الذى يغسل لك الحمام ، وغير الذى يأتي لك بالماء . غير الذى يأتي لك بالفطور . . غير الذى يحضر لك العشاء . . .
لإنهم كثيرون جداً وأجورهم رخيصة جداً . .

أذكر أنني أشرت إلى أحد الخدم أن يجمع بعض الأوراق من الأرض فهز رأسه وبعد لحظات عاد ومعه خادم آخر وانحنى هذا الخادم وجمع الأوراق من الأرض . وأذكر أن جهاز التكييف تعطل . وأشرت إلى الخادم فذهب وأحضر رجلاً آخر . . مع أن إصلاح جهاز التكييف لا يحتاج إلى أخصائى . . أو خبير فنى متخصص . . فقد كنت أريد ربط مسبار فقط !

وحاولت أن أدق الجرس ليجئ الخادم ولكنه لم يفعل . . فاستخدمت التليفون وجاء الخادم ونهني إلى أن التليفون يجب أن أستخدمة فقط بعد منتصف الليل . أما قبل ذلك فيجب أن أستخدم الجرس . .
وحاولت أن أتفاهم مع أحد الخدم ويبدو أنه لم يفهم كلامى . فقلت له وأنا أضحك : ابعث لى المختص . . فأنا أريد أن أتخاطب معه . . هل أنت المختص الخناق !
فهز رأسه جاداً جداً وقال إنه ليس المختص .

وجلست أقرأ . وبعد لحظات جاء الخادم ومعه رئيس الخدم . . فقلت له ضاحكاً . أنت المختص بالخناق .

ولم يضحك الرجل وقال : لا . . .

وخرجت . . وعرفت أنه سيأتى بمدير الفندق ! . .

* * *

يقيم هنا فى الهند طبيب مصرى جاء يدرس بعوض الملاريا فى الهند وسيتبقى هنا بضعة شهور . . زرته فى الفندق . . ليس فى غرفته إلا كتب وخرائط وعينات للبعوض فى الهند . . وهو مشغول بالأمراض ومقاومتها . . وكيف ترش ال.د.د.ت. على الجدران بدرجة معينة وبطريقة معينة . .

قلت للدكتور : تفتكر إن الطريقة الوحيدة للقضاء على البعوض هى أن

ترش البيوت فقط - وماذا ستعمل الهند في المساحات المائية الهائلة والغابات والحقول إن الناس معظمهم ينامون خارج البيوت . . فالبعوض سيصيبهم خارج البيت ولن ينتظرهم في داخل البيوت حتى يعودوا . . .

ولكن الدكتور قد أعد لكل سؤال جواباً . وقال : إن البعوض لا يلدغ حينما اتفق . فهناك قواعد لللدغ البعوض . هناك بعوض يقيم بعض الحفلات قبل أن يمتص دم الإنسان ، وهناك بعوض لا يلدغ إلا الإنسان النائم . والبعوض لا يلدغ الإنسان المتحرك . على كل حال هناك ٤٣ نوعاً من أنواع البعوض موزعة على مقاطعات الهند .

وكل بعوضة لها طريقة في نقل المرض .

ولكن الذى يلدغ عادة من البعوض هو الإناث فقط !

وبلاد الصين قد ضربت المثل على إمكان تحقيق المستحيل . فقد قضت على الذباب في وقت قصير ، الشعب كله قام وقضى على الذباب . والهند تحاول هى الأخرى أن تقضى على البعوض . فهناك وحدات طبية كثيرة تعمل على أسس علمية سليمة وتعاونها الصحة العالمية . . ويظهر أن النتائج مؤكدة .

وفجأة تلفت الدكتور قائلاً : طبعاً أنت ستضحك منى الآن . . طيب والله العظيم الست اللى هناك دى فيها شبه من بعوضة الفيل التى تنقل مرض الفيل . . وهو موجود بالهند بكثرة شديدة جداً . .

وسكت الدكتور وعاد يهمس فى أذنى بأغاني البعوض ويقول : ولكن سيبك أنت . . ربنا هو المنجى . . يعنى أنا لم أعتد أن آخذ أى دواء . . الوقاية خير من العلاج . . يجب أن ينام الإنسان فى ناموسية . .

قلت : وفى الشارع ماذا يعمل . .

قال : ولا حاجة . . خليها على الله .

وسكتنا نحن الإثنين . . هو يفكر فى البعوض . وأنا أفكر فى الوقاية من البعوض . .

وأخيراً تكلم الدكتور : على فكرة البلد اللى حنسا فر لها . . هذه البلدة هى

مركز بعوض مرض الفيل فى العالم كله . .

فصرخت فيه قائلاً : ياللا قوم بينا . .

— على فين !

— على الأجزخانة ! . .

* * *

وفي اليوم التالي جاءني صديق آخر ملهوفاً كأنه يحمل لى كنزاً ثمينا :
نصيحة كانت مثل طوق نجاتي . . هي المظلة التي سأهبط بها إلى بر الأمان . . هي
دعاء الوالدين . . هي الحكم ببراءتي . . هي وصية الحكيم لقمان . . قال لى :
أنت مسافر غدا ولماذا اخترت هذه المنطقة بالذات أنت لا تعرفها . .
ولم تكن هناك أية فائدة من المناقشة . ومد يده إلى المنظار فمسحه . لقد
أخنى دموع عينيه . . ولكن المنظار فضحه . . إن منظاره الزجاجي كان يبكي
من أجلى . .

البلاد التي سأسافر إليها غداً تبعد خمسة آلاف كيلو عن هذا المكان .
أمطار دائمة وعواصف ورعد وبرق . وأوحال . . كل قطرة عليها بعوضة ،
وفي جناح كل بعوضة مليون جرثومة . . وكلها في انتظار أى إنسان . . فلماذا
أكون أنا ذلك الإنسان دون سائر الناس !
ولكن لفته وخوفه وقلقه كان معناها أنى المقصود بهذا كله . . بالمطر والوحل
وكل الأمراض . . .

فيجب ألا أشرب الماء مطلقاً . . لأن الماء فى موسم الأمطار يختلط بالمجارى
ولا يمكن تطهيره أبداً إلا بغليه ثلاث مرات . . أول مرة لدرجة التبخر . وبعد ذلك
أتركه حتى يبرد ثم يغلى مرة أخرى حتى درجة ٨٠ . . وبعد ذلك يغلى الماء لدرجة
التبخر وأتركه حتى يبرد وأعصر عليه بعض الليمون . . !
ولا بد أن أنام داخل ناموسية . . لأن هذه المنطقة هي مركز توريد ذباب
مرض الفيل فى العالم كله . والإنسان عندما تلدغه هذه الذبابة فإنه لا يصاب بأى
ألم ولا تظهر عليه أعراض هذا المرض فى نفس اليوم أو الأسبوع . وإنما بعد سنوات !
هذا إذا تناولت الأقراص المضادة لهذا المرض . . .

* * *

وإذا ذهبت إلى حديقة ، فيجب ألا يكون ذلك فى ساعة مبكرة من النهار ،

أو ساعة متأخرة من الليل . ففي الحديقة أشجار لها عطر – طبعاً . فالبلاد مليئة بالغابات ويجب ألا تغريبي هذه العطور والألوان الحمراء والصفراء المنتشرة بين أزهار الشجرة وأوراقها . فهذه الأشجار تجتذب نوعاً من الأفاعى ، له سم يقتل بعد ٤٨ ثانية – أيوه ثانية – والذين شهبوا المرأة بشجرة تلتفت حولها أفعى لم يكونوا خياليين . فالسم وراء العطور والألوان !

وهناك نوع من الأفاعى اسمها « الكوبرا السلطانية » أو « الكوبرا الملكية » بعضها ينام على الأشجار ذات العطور وبعضها ينام بلاعطور . وهذه الأخيرة سمها يقتل في نصف المدة . . أى فى ٢٤ ثانية . . أى قبل أن يقول الإنسان : آه .. يعنى الموت هنا أسرع من الصوت !

وإذا سمعت فى غرفتي صرصاراً فيجب ألا تغفل عيني فأنام . يجب ألا أنام أبداً . فهناك نوع من الأفاعى صوته يشبه صوت الصرصار بالضبط . وهذا النوع من الأفاعى أعمى . ولكنه يتهدى بأذنيه إلى الأماكن التى يسمع فيها أنفاس النائمين . وهو يعض وليس ساماً . ولكن مفاجأة العضة ياناس !! انتهى بند الأفاعى . . .

* * *

وإياى أن أسكن فى فندق له حديقة .. فى هذه المنطقة ملايين القروء وكلها شرسة . وحادثة الصحفي الأمريكى الذى ظل طول الليل يكتب . وفى الصباح وجد الآلة الكاتبة والأوراق وملابسه كلها غير موجودة . . وأبلغ إدارة الفندق . . وفى قسم البوليس أتوا له بالمتهم وفى يده السلاسل ومعه الآلة الكاتبة وكوم من الأوراق الممزقة . . وكان المتهم قرداً !

* * *

أما أحدث اكتشاف طبي . . فهو أنى يجب ألا أصاب بأى إمساك . . والإنسان معرض دائماً للإمساك فى البلاد الحارة لأنه يشرب سوائل مثلجة . ولأنه متعب ولا يعرف كيف ينام .. ولكن يجب ألا أسرف فى الشطة فهى ولاشك تؤدى إلى اختفاء الإمساك وظهور أمراض أخرى من بينها الإسهال والدوسنتريا . وهذا المرض الأخير – ولا داعى لتكرار اسمه – قاتل فى هذه البلاد . .

* * *

ثم لا بد أن أضع منظاراً على عيني لأن هناك نوعاً من التراب ملتهب . .
إنه كالبارود . . إنه يجلو العين بمعنى أنه يسمح سوادها نهائياً . فاحترس !

* * *

ووضع يده على كتفي : لكن ربنا يسترها وياك !
ثم عاد يقول : وأهم من هذا كله مدينة « الله أباد » وهي المدينة التي ولد
فيها الرئيس نهرو . . .

هذه المدينة بالقرب من إحدى القرى . فيها أجمل فتيات الهند . وكلمة
« كده ولا كده » معناها أن أصحو من نوم ثقيل لا أعرف كيف بدأ فأجدني
مربوطاً من ذيل جلبابي وجلبابي مربوطاً في ذيل فستان . . صاحبة الفستان هي
عروسي الهندية . . كيف بدأ هذا ؟ بدأ بأني قلت كلمة كده ، ولا كده أى
أبديت اهتماماً . فعنى ذلك أن الفتاة أعجبتني . والإعجاب معناها الحب والحب
معناه الزواج فوراً . وأهلها يفرحون للعروسة ويحملون العريس على الأعناق بعد
أن يدقوا رأسه بعضاً خضراء ويملأوا فمه بشراب أحمر فيدوخ وتوضع أمامه
النيران وعلى النيران يلقون بالسمن وتزداد النار اشتعالاً . وبالرفاء والبنين . .
وانتهت نصائحهم . .

وهست أنا في أذنه : أنت سمعت هذا الكلام من فلان .

فقال : نعم .

قلت : أنا الذي قلت له هذه الحكايات كلها . . !

قال : يعنى هزار !

قلت : صحيحة كلها لكن ليس معقولاً يا أخى أن تتجمع كل هذه المصائب
من أجلى وتصيبني أنا وحدى دون السبعين مليوناً في هذه الولاية .

قال : يعنى مسافر !

قلت : طبعاً مسافر . . !

قال : وياك . .

وسافرنا معاً وأنا أكثر خوفاً منه . فأنا الذي أعطيته الطمأنينة التي لا أجدها . .

كنت كالشجرة التي تمددت تحتها روحه المسالمة وجعلته يغط في نوم عميق . .

أما أنا فتحرقني الشمس وتهزني الريح . .

.. ليس صحيحا المثل الذى يقول : فاقد الشيء لا يعطيه !

فأنا فقدت الطمأنينة ومع ذلك أعطيتها له .. !

بل الذين يفقدون الأمل هم الذين يتحدثون عنه . والذين يفقدون الحب هم أكثر الناس تغنياً به .. إن الشمس التى هى مصدر الحياة للدنيا كلها ، ليست فيها حياة !

ملحوظة : نحن هنا فى الهند . . وكل الناس حكماء وفلاسفة !

* * *

لا تسمع فى مدن الهند صوت راديو ولا تجده فى البيوت ولا فى السيارات مع أنه معروض فى المحلات التجارية . والسبب أنهم يكرهون الضوضاء أو لا يقدرون على شرائه ! .

* * *

إذا تزوجت فى الهند فأنت ضامن أن حماتك لن تزورك أبداً . لأن هذا حرام .. وإذا زارتك فرة واحدة كل بضع سنوات . ولا يجوز للحماة أن تأكل أو تشرب فى بيت ابنتها لأن هذا حرام أيضا . وإذا زرتها فالخير ان هم الذين يقدمون لها الطعام والشراب .

* * *

وعلى الرغم من الأمطار الغزيرة والأنهار التى تغرق مئات القرى كل يوم فإنك تجد فى مدينة نيودلهى عربات لبيع الماء البارد ، هذه العربات تابعة لمحلات كبيرة تشبه جروبي فى القاهرة ولكن مع الفارق الكبير جداً !

* * *

فى الهند توجد الموتوسيكلات التى تتسع لأربعة أو خمسة من الركاب وهى رخيصة وسريعة وتحمل أزمة الأتوبيسات . وهى أحسن وسيلة لإنقاذ أزمة المواصلات فى القاهرة !

أول شئ يلفت النظر هن فساتين السيدات . إن المرأة تلبس السارى وهو قطعة من الحرير تلتف حول الساقين وترتمى على الكتف . ويبدو كأنه فستان من قطعتين منفصلتين تماما . . بلوزة قصيرة جداً . وجيب تحت السارى ، ويبدأ من تحت الوسط . . وأنت ترى منطقة عارية من جسم المرأة عرضها شبر . فإذا لفت هذا نظرك ، وضبطت المرأة وأنت تنظر إليها فإنها تندهش جداً ويبدو

عليها الضيق . كأنك أنت الذى زحزحت البلوزة عن الحبيب ! . باسم !

* * *

يسمون الجرسون هنا : بيررر وهى كلمة إنجليزية معناها : شيال وأعتقد أنها أحسن من كلمة «جرسون» الفرنسية التى معناها ولد أو شاب صغير . فأحياناً يكون الجرسون فى سن الوالد أو الجد . وفى ألمانيا يسمونه : هر أوبر وفى إيطاليا يسمونه : كامريرى . وفى العراق يسمونه : بوى وهى كلمة إنجليزية معناها ولد أى جرسون وفى العراق والكويت ينادون الجرسون مهما كانت سنه ؛ تعالى يا ولد ! . . . ولكن فى الهند أحسن . . . والعرب القدماء كانوا يسمون الجرسون بالنندل . . ما رأيك ؟

* * *

إنهم هنا يكرهون القسوة . . يكرهون أن يقضى إنسان على حياة إنسان أو حيوان . . إن الناس يكرهون تحديد النسل لأن هذا قتل لأرواح بريئة . . إنهم يتكون الحيوانات ترعى فى أحسن شوارع العواصم . الأبقار فى الشارع والقروود على الشجرة . ولا يقتلون النمل أو الصرصار أو الثعبان أو البورص فلها جميعاً رزق ، ولنا جميعاً رب اسمه الكريم !

* * *

والهنود لا يدعون أحداً إلى بيوتهم وإذا دعوك فلا تنتظر أن يقدموا لك شيئاً على الإطلاق . . وإذا سمعت الأطفال يروحون ويحيثون ، وسمعت صوت ملاعق أو أطباق أو أكواب فعنى ذلك أنهم انتهزوا فرصة المصايح التى أضيفت بمناسبة زيارتك وجعلوا يغسلون أطباقهم وملابسهم ؟

* * *

الشاى يقدمونه لك ومعه طبق من الحمص واللب المقشر وبعض اللوز أو البندق وبعض الأرز وقطع من الخبز وكلها غارقة فى الشطة !

* * *

إن الشعب الذى عدده ٥٠٠ مليون نسمة لا يعرف معنى كلمة مليون ولا ملايين فعندهم كلمة لآك وهى تساوى ١٠٠ ألف وعندهم كلمة : كرور وهى تساوى مائة لآك !

* * *

مركز المرأة في آسيا كلها أحسن من مركزها في أفريقيا . فهي هنا في الهند
رئيسة أعظم حزب وهو « حزب المؤتمر » . وهي وزيرة ونائبة وزير ومستشارة
وقاضية وهي وكيلة البرلمان ورئيسة مئات من الهيئات الرسمية .

* * *

كنت قرأت مرة لألبرتو مورافيا عبارة على لسان رجل مشكلته أنه لا يعرف
كيف يحدد النسل فيقول : نحن فقراء غير قادرين على الذهاب إلى السينما أو
الحدائق فماذا نعمل ؟ إننا ننام في ساعة مبكرة . وتنجي الأولاد !
ومررت بهذه العبارة ضاحكاً ولم أقف عندها طويلاً . . والهند هي أحسن
تفسير لهذه الجملة . . فالليل عندهم يبدأ من بعد الظهر حتى الساعة العاشرة من
صباح اليوم التالي فلا سهرات ولا حفلات ولا سينمات !
وتنجي ملايين الأطفال . . طبعاً !

* * *

كل شيء هنا يتم ببطء شديد . الزمن بطيء والصيف بطيء ، والشتاء بطيء
والحياة بليدة جداً . إنها الحرارة التي تصيب الكبد فتنتقل متاعبه إلى بقية أعضاء
الجسم . ويقال إن الإنجليز عندما دخلوا هذه البلاد قرروا أن يعودوا إلى بلادهم
لولا الكسل الذي أصابهم فكثروا فيها ثلاثة قرون !

* * *

أحسن ما في الهند هو طريقة التحية عندهم . . فأنت لست في حاجة إلى
أن تصافح كل الموجودين عند دخولك وخروجك ووداعك . . وإنما يكفي أن
تضم كفيك وترفعهما إلى أعلى . . وفي هذا تحية لواحد . . وللمليون واحد !

* * *

ليس على لساني غير هذه الأغنية : أكلك نار . . شربك نار . . بعدك
نار . . قربك نار !!

ولا يمكن أن يفهم أحد في القاهرة معنى نار ، إلا إذا سافر إلى الهند .
النار حقيقة . . تخرج من أنفك وتدخل في صدرك . . الطعام كله شطة حمراء
وكما يوجد هواء سائل توجد أيضاً نار سائلة توضع في كل شيء . . النار في يدك
وفي فمك ، وفي معدتك . . نار يا حبيبي نار . .

* * *

الهواء هنا غير موجود . . لقد زحف البحر على البر فانسحب الهواء . أنت
تتنفس بخاراً من الماء . ولو سقطت سمكة من السماء الآن فلن أدهش ، لأننا
جميعاً نخوض في الماء . . بل لو سقطت هذه السمكة مشوية فلن أدهش بل
لو سقطت وهي في منقار عصفور محشو بالأرز بالكاري ومكتوب عليها السعر
فلن أدهش أبداً . . فنحن في بلاد الملايين . ملايين الناس . والحواة والأديان
واللغات والحيوانات . . كل شيء جأز ! .

* * *

لقد كنت في الهند كالسيارة التي ارتفعت حرارتها ، وتعطل فيها جهاز
التبريد . . اروحة واقفة . . الماء يغلي . . ولا أستطيع أن أوقف الموتور لكي
تنخفض درجة الحرارة . .

* * *

والجراثيم هنا تشبه السمك لأنها تسبح في هذه البحار وتنتقل من إنسان إلى
آخر وبسرعة ، ويكون ضحاياها بالألوف ! .

* * *

ملابسي ملتصقة بجسمي . كأن عشرين جردلا من الماء ألقيت على رأسي
وعلى ظهري . . ويبدو أن هذا منظر مألوف في الهند . . فالأجانب لم يتعودوا
بعد على هذه النار . . أما أبناء الهند فلا أحد يشكو من العرق أو من النار .

* * *

قرأت كتاب « أذرع وسيقان » . لعبد الحميد جودة السحار . إنه عندما
كان في الهند كان ينام عارياً وأمامه مروحة . . لأنني في نفس الوضع . . الغرفة
مقفلة التوافذ . . وأنا عريان . . المروحة أمامي كأنها فراشة دائخة . . وأنا أريد
أن أنزع جلدي لأنه لحاف ثقيل يرفع درجة حرارتي . ولذلك اقترحت على
مدير الفندق أن يأتي بمروحة أخرى لتقوم بتبريد هذه المروحة التي تبصق النار
في كل شيء حولها ، وفي وجهي .

* * *

قرأت « لسومرست موم » أن الإنسان في الهند يشعر بأنه فوق . . فوق

الناس جميعاً فحياته مستحيلة من غير أن يتخفف من كل ما يحمله من ملابس
ومن طعام ومن هموم . . إن راحته الكبرى في أن يجلس فوق . . فوق الجبال
بعيداً عن مشاغل الدنيا . .

فعللاً . . أستطيع أن أكون كما أريد هنا في الهند . . أن أمشي عارياً حافياً . .
أن أنام على المسامير . . فثلى مئات الألوفا . . أن أقف على ناصية أحد الشوارع
وقد حلقت رأسي بالموسى ولففت غطاء حول نصفي الأسفل وفي يدي طبق
كما يفعل رهبان البوذية . . وأنتظر من الناس أن يضعوا في الطبق ما تجود به
نفوسهم . . ولن أكون أعجوبة . . لن يلتفت أحد إلى هذا الشحاذا الذي ضاقت
عنه بلاده ، فجاء في « بعثة شحاذاية » إلى الهند . .

ملايين الناس . . راثون في الشوارع وجالسون على الأرصفة . . ينظرون
إليك ولا يهتمهم أمرك . . أنت الآن في الهند حر . . تماماً . . بل أكثر حرية
من أبناء الهند . . حر من عيون الناس ومن كلام الناس .

تستطيع أن تكتوى بالنار على الوجه الذي تريد . . بالهواء بالمطر بالمشي
بالجلوس . . بالأكل بالإضراب عن الأكل .

نار !! وأرجو أن تكون الألف ممدودة حتى آخر هذه الصحيفة !

* * *

قررت أن أمسك نفسي . ألا أصرخ . ألا أكون عصيباً . قررت ألا تكون
لي أعصاب . قررت أن أكون مثل بيت انقطعت منه أسلاك النور والراديو
والتليفون . وحتى عندما تسرى الكهرباء في هذه الأسلاك يجب أن تكون
فلسفتي هي : ودن من طين والودن الثانية من طين أيضاً .

لماذا ؟ لأنه لا فائدة من الصراخ . . لا فائدة من الثورة . . فأنا لا أستطيع
أن أصلح الدنيا حولي . ولا أستطيع أن أغير طباع الناس لكي تعجبني . يجب
أن أتغير أنا . . لا لكي أعجب الناس ، ولكن لكي أعيش مع الناس ، حتى
لا أصطدم بالناس . . أو على الأقل لكي أستريح . .

واقسمت ببني وبين نفسي أن تكون هذه هي فلسفتي اليوم فقط . واليوم
على سبيل التجربة . .

ومددت يدي إلى الجرس . وضغطت عليه . وفي هدوء تام مددت يدي إلى كتاب وجعلت أقلب فيه . . صفحة بعد صفحة ، واستغرقت في الكتابة والقراءة واكتشفت فجأة أنه منذ عشر صفحات لم يحضر الخادم . فنهضت بسرعة مندفعاً نحو الجرس . . وتذكرت الاتفاق بيني وبين نفسي وألقيت بنفسي في المقعد . وتمنيت أن تكون نفسي هذه قد سبقتني إلى المقعد . لكي أفحصها وأنا أرى فوقها بثمانين كيلو من اللحم والشحم . .

وفي هدوء تمثيلي جداً مددت يدي إلى نفس الكتاب وقلبت فيه وأنا أقرأ الصفحات ولا أراها . وحاولت أن أقاوم غيظي فجعلت أغني وأقول : يا عطارين دلوني الصبر فين أراضيه . . وقلت لنفسي . إذا كانت للصبر أراض . فهي الهند . إنها تتحداك . . إنها تستنفذ أي رصيد من الصبر مهما كان . . . إن النبي أيوب عليه السلام لو جاء إلى هذه البلاد لأحس أن صبره ليس إلا قليلاً من « الفكة » الصغيرة . فكل مواطن هنا مليونير في الصبر وهدوء الأعصاب . . نعمة من عند الله . يعني يبقى لا أكل ولا لبس ولا صبر كمان !؟

وفجأة دق الباب ودخل الخادم . وفي هدوء قلت له : من فضلك عاوز شاي ! ولم يقل الخادم شيئاً واخنتى وانطلقت وراءه أناديته . . وتذكرت الاتفاق الذي لم يمض عليه سوى دقائق . ثم قلت له في هدوء : من فضلك عاوز شاي . يكون الشاي لوحده والمية السخنة لوحدها .

وأخني الجرسون رأسه ومشى . . وناديته : يا أخى استنى لما أكمل كلامي . . المية تكون مغلية . . يعني المية من غير شاي . . والشاي ناشف ومحطوط في طبق . . وبينى وبين نفسي قلت : حتى لو جاب الشاي زى الطين والله ما أنا متكلم . . ساعة صبر مش قادر . . ساعة واحدة بس !

وبعد دقائق عاد الخادم ووراءه خادم آخر . . ووقفت أتفرج على البراريد والفناجين وأطباق الشاي الجاف ولم أفهم لماذا كل هذه الهيصة . . ولم أنطق بكلمة . وعندما خرج الاثنان وجدت ما يأتي : براداً من الشاي . . وبراداً من الماء المغلى . وطبقاً من الشاي الجاف . . وبراداً من القهوة . . ولم أجد قالباً واحداً من السكر . فددت يدي إلى الجرس . وجاء الخادم في ثانية . ودخل

الغرفة وجمع كل البراريد وخرج دون أن يقول كلمة . ودخل خادم آخر ومعه براد ماء ساخن وطبق فيه شاي جاف وبعض السكر . . وخرج وناديت الخادم لأفهم منه ما هذا الذي حدث . .

وعرفت أن الخادم الأول قرر أن يعمل في مكان آخر من الفندق ولما سألت عن السبب قال لي : إنك تهين الخادم .

فقلت : أهينه كيف ؟ لا أعتقد أن هناك أى سبب يجعلني أهين أى خادم هنا !
وناديت الخادم وسألته عن هذه الإهانة . . لكي أعذر له إذا كنت مخطئاً
ورفض الخادم أن يتحدثني عن حقيقة الإهانة . ولكنه أهانني عندما قال :
يا سيدى إننى خادم وليس من حقى أن أعترض . . مهما فعلت . . مهما قلت . .
فأنا خادم وأنت سيد . .

وهنا أحسست أننى مزقت الاتفاق بينى وبين نفسى وقلت : أرجوك أيها السيد . . أنا خادمك . . أريد أن أعرف لماذا أهنتك . . أرجوك . . إذا لم تقل فوراً فسأنزّل للمدير وأطلب منه أن يكرهك على الاعتراف . . فأنت أهنتنى أيضاً . . إنك أهنتنى فى الصميم وجعلتنى أمزق اتفاقاً غالباً !

وقال وهو لا يلبرى معنى ما أقول : آسف يا سيدى إذا كنت قد تسببت فى هذا كله .

وأخيراً قال : يا سيدى أنت كل يوم . . كل يوم تطلب منى نفس الطلب . وتطلبه بالتفصيل . . إنك تقول : براد من الشاي ملىء بالماء المغلى وإلى جواره طبق به شاي جاف . . كل يوم تقول لى نفس الكلام . . كأننى حمار أو بغل . . إنك تسيء الظن بى إلى درجة لا يتصورها العقل .

وقلت له : أنا آسف . . لى تجارب كثيرة فى الفنادق . . هذه التجارب جعلتنى أتوقع أن يحدث أى شئ . . وأنا لا أريد وجع دماغ . . آسف . .

وانحنى الرجل . . ورفع رأسه فى ضيق وهو يقول : هذه هى آخر مرة أعمل هنا . . أنا قررت ذلك . . وهذه هى آخر مرة أقدم لك فيها الشاي !
وأقفلت الباب وجلست وأعصابى مهتزة . تشبه أسلاك تليفونات لها دوى ولكننى لا أدرى ماذا يدور فيها . . ومددت يدى إلى براد الشاي . .

وعقدت اتفاقاً سريعاً بيني وبين نفسي . . وقررت أن أشرب فنجاناً من الشاي وفنجاناً من القهوة . . وبلا سكر . . وأنا أحفظ بأعصابي في براد . . (كلمة براد ؛ نسبة إلى البرد ، مع أن الماء فيه يغلي) .
وأصبحت في كل يوم أجلس أمام البراد وأصب ما أجده فيه دون أن أفتح في . . لا بالكلام ولا بالشرب !

* * *

كل شيء هنا له معنى وله قصة يعرفها الناس . .
مثلاً إذا نظرت إلى شعر الرأس . هل هناك شيء أبسط من شعر رأس الرجال ؟ ولن أتعرض لشعر السيدات . فليست فيه أية تقاليع . .
هناك رجال يطلقون شعر الرأس والحية طول العمر . ودينهم يمنعهم من أن يقصوا شعرة واحدة . . ويضع الواحد منهم عمامة كبيرة ملفوفة حول شعر أطول من أية امرأة ، هذه العمامة ملونة : خضراء زرقاء حمراء . كأنها كرافطة وصاحبها يلونها كما يريد ، ولحية طويلة أيضاً . ومعظمهم يضعون على الحية شبكة كالتى تضعها الفتيات فوق الشعر . . وبعضهم يكتفى بأن يضع منديلاً مشدوداً حول الحية . .

هؤلاء هم « الشيخ » وهم من أنشط الأقليات الهندية . وتجدهم في كل مجال من مجالات العمل . ويظهر أن رجال الشيخ يمتازون بقوام سليم . ولهم بنات وزوجات من أجمل فتيات الهند مع الأسف !

ويوجد في مطعم « جايلورد » في نيودلهي رجل من الشيخ مشهور ، وسبب شهرته أنه ليس في رأسه أو وجهه أو لحيته شعرة واحدة . وهو لذلك حزين جداً . إنه أقرع الرأس والحية والشارب . . حتى حاجباه مرسومان بقلم من الفحم !
وهناك رجال يضعون المشط في الرأس . .

وهناك رجال يضفرون شعر الرأس بعد سن معينة . ويضعون في هذه الضفائر مشطاً نصف دائرى .

ويوجد في الهند أناس يخلقون شعر الرأس تماماً . . بالموسى ويتركون مجموعة من الشعر في منتصف الرأس ولا يخلقونها طول العمر . .
وهناك المسلمون الذين يطلقون شعر الحية ، ولكنهم يقصرونه قليلاً بصورة

تلفت النظر إلا أنهم ليسوا من الشيخ . وهم لا يعرفون من اللغة العربية إلا « السلام عليكم » .
أما شعر المرأة فطويل أسود يوجع قلب كل نساء أوروبا !

* * *

والملابس تروى قصة أخرى . .
فهناك « الدوتى » وهى قطعة من القماش الطويلة جداً تلتف حول الجسم .
وأحياناً على شكل بنطلون يشبه اللباس الذى يرتديه أبناء البلد فى الإسكندرية . .
قماشه أكثر من اللازم .

وهناك من يكتفى بأن يضع شريطاً من القماش يغطى به مساحة ضئيلة جداً
من الجسم من أسفل . أما الباقى فعريان .
هناك من يرتدى الجاكتة الطويلة جداً كالبالطو وتحته بنطلون ضيق جداً
وملاصق للساق .

والرجل العظيم نهر و كان يرتدى هذا الزى دائماً . .
وأشكال من الجاكتات والبنطلونات والملابس الداخلية غريبة . .
أما رداء الرأس فهو أعجب . . هناك عمامم مشدودة ، وعمامم مفكوكة ،
وعمامم لها « عرف » كالديك وعمامم لها ذيل كالطاووس . . وعمامم « زعره »
بلا ذيل ولا منقار .

* * *

إن الهند ليست دولة ولكنها قارة واسعة .
الرجل الهندى يستطيع أن يعيش فى أسوأ الظروف وفى أصغر مساحة من
الأرض وبأقل طعام وشراب ممكن . ولا يشكو ويجد من دينه وفلسفة بلاده
ما يجعله يرضى بهذا القليل من كل شئ .
ولكن أى أجنبي فى الهند يملك من الحريات مالا يملكها فى بلده . . فأنت
فى الهند تستطيع أن تمشى نصف « عريان » وأن تطيل لحيتك وشاربك . وأن
تنظر إلى الأرض ، وأن تنظر إلى السماء . . وأن تأكل والطعام فى يدك وأن
تضعه على الأرض . . وأن تموت من الجوع وأن تموت من الشبع . .

* * *

فى الهند صحافة تحتفى بك ، وصحافة تشتمك ، وصحافة تدعو لك ، وصحافة
تدعو عليك . . وصحافة تجعلك تكره الصحافة !

وبين الصحفيين الهنود من يعرف بلادك ؟ كأنه يحدثك عن أسرته وأولاد وأن . . وبينهم من ينظر إليك وإلى بلادك ، كأنها غير موجودة ، وكأن الأراضي التي تحتلها بلادك هي مجرد «بياض» على الخريطة وعلى الكرة الأرضية . . .

* * *

كل شيء هنا موجود ، من الممكن أن تحب الهند وأن تكره آسيا كلها . . ومن الممكن أن تنهى نفسك لأنك جئت إلى هذه البلاد . ونهر هو أعظم رجل في الهند ، ولا يعرف الهند من لم يعرف نهر ، ولا يعرف آسيا من لم يعرف الهند ، ولا يعرف مستقبل العالم من لم يعرف آسيا ! والهند هي رأس آسيا . . وهي شعرها الطويل والقصير . . هي العمامة أم ديل ، والعمامة بلا ديل . هي العنوان الذي كله معنى ، وهي عنوان لا علاقة له بالموضوع . هي أغرب ما في آسيا وأغرب ما في الدنيا . . لكنها شيء كبير . . كبير جداً !

* * *

نشرت الصحف اليوم أن الحكومة قد تمكنت من القبض على ٨٠ قرداً . . وهذه القردة كانت تهجم على دواوين الحكومة وتمزق الدوسيات ، وقد اتفقت الحكومة مع عدد من الصيادين للقبض على هذه القردة بسعر ٨٠ قرشاً للقرد الواحد . وتمكن هؤلاء الصيادون من إمساك القردة . . أما طريقتهم فهي أنهم أتوا بقرد صغير وراحوا يضربونه والقرد يصرخ . . فجاءت القردة الكبيرة لإنقاذه فسقطت في الشبكة . .

واحتج الصيادون على ضالة الأجر ، وهددوا بإطلاق القردة . . فأعطتهم الحكومة عشرة قروش أخرى لكل قرد !

* * *

فوجئ الناس في العاصمة هنا بأن وجوههم مغطاة بالسواد . . بالهباب . . وظن بعضهم أن هذا بفعل الشياطين أو الأرواح الشريرة وذهبوا إلى البوليس . . واكتشف البوليس أن هذا الهباب الذي يملأ وجوههم وأجسامهم وطعامهم قد هبط من إحدى مداخن المصانع المجاورة . . وليس بفعل الشياطين . .

في الهند يسألون عن الجو وعن حال الجو ، مع أن الهند صيف معظم السنة وليس هناك تغير ملحوظ في الجو . . والصحف كذلك تهتم أيضاً بالجو . . كأن هذه الصحف تصدر في إنجلترا !

* * *

عندما وصل رئيس وزراء منغوليا إلى نيودلهي وزعت سفارة منغوليا هذه القصة الجميلة . والقصة لها مغزى . . وهي من الأدب الشعبي في منغوليا . . يقال : إنه كانت هناك دولة صغيرة سعيدة . ليس فيها فقر ولا مرض ولا شجار بين الناس . السماء في وفاق دائم مع الأرض ورسائل السماء إلى الأرض يحملها المطر وتحملها الطيور وتكتبها الزهور وتخفيها الثمار حلاوة ورائحة جميلة . . وفي يوم جلس الملك بين الحاشية يقول : بلادنا سعيدة وأعتقد أنني مصدر هذه السعادة . فلو لم أكن ملكاً عاقلاً عادلاً طيباً ما وجدت البلاد هذه السعادة التي تراها على وجه الطفل وعلى وجه أمه وأبيه . .

ولكن الملكة تلتفت إلى الملك وقالت : بل لولا وجودي أنا . . إنني عرفتك شاباً طائشاً كثير النزوات . كل يوم على حال . . أنا التي وضعت عقلي في رأسك . . ورأسك هو الذي يدير هذه الدولة وأنا التي أدير رأسك . . فأنا إذن التي أدير هذه الدولة . . أما سعادتها ، فأنا مصدرها الوحيد . . وتلتفت الملكة إلى الحاشية . .

ولكن أفراد الحاشية تهامسوا وقالوا فيما بينهم : إننا مصدر السعادة . فالملك لا يرى إلا بعيوننا ولا يحكم إلا بنا فنحن وهم عيناه وأذناه ويداها . ونحن السلام إلى الشعب ومن الشعب . . وإذا كان الملك عقلاً ، فلا عقل بغير جسم . . ونحن الجسم . . واختلف الجميع . .

وأخيراً اتفقوا على أن يسألوا أحد الحكماء .

وذهبوا إلى أحد الحكماء وسألوه : ما سر السعادة في بلادنا ، أهو الملك أهو الملكة ، أم الحاشية ؟

ولكن الحكيم نظر إليهم ضاحكاً وقال : لا أحد من هؤلاء ، وإنما سر السعادة في بلادنا يخبئ وراء أربعة من الأصدقاء هم : الفيل والقرود والأرنب والجمامة . . هؤلاء الأصدقاء الأربعة يعيشون في سلام وحب وسعادة . .

وقال الحكيم : في يوم اختلف هؤلاء الأربعة أيهم أكبر سنًا . . وأيهم أصغر سنًا . . ووقف الأربعة بالقرب من شجرة كبيرة في السن أيضاً .

فقال الفيل : عندما كنت صغيراً كانت هذه الشجرة أقصر مني . .

وقال القرد : عندما كنت صغيراً كانت هذه الشجرة تلتني ظلاً أصغر من جسمي .

وقال الأرنب : عندما كنت صغيراً كنت أكل أوراق هذه الشجرة وهي

ما تزال على وجه الأرض . .

وقالت الإيامة : هل تعرفون أن هذه الشجرة كانت بذرة في منقاري وأنا التي

ألقيتها على الأرض . .

فأمّنوا جميعاً بأن الإيامة هي أكبرهم سنًا ولذلك كانوا إذا ساروا صعد القرد

على ظهر الفيل وصعد الأرنب على ظهر القرد . . أما الإيامة فهي تجلس على رأس

الأرنب وهي وحدها التي تلتقط الثمار من أعلى الأشجار .

ومنذ ذلك اليوم لم تعد هناك ثمرة مهما كانت عالية لا يستطيع هؤلاء

الأربعة أن يقطفوها . .

وعندما يكون هناك خطر فإن الإيامة تطير إلى أعلى وتلهم على اقتراب الخطر . .

فيهربون جميعاً : الفيل يحمل القرد ، والقرد يحمل الأرنب ، والأرنب يحمل الإيامة . .

الخلاصة : لا يوجد شيء كبير أكثر من اللازم ولا يوجد شيء صغير أكثر

من اللازم . . فالكبير في حاجة إلى الصغير ، الصغير ينفع الكبير . .

والمثل الشعبي المصري يقول : النواة تسند الزير . ومعنى ذلك أن الزير يحتاج

إلى نواة لكي تسنده !

* * *

قرأت كتاباً بعنوان « الشرق شرق » للكاتب المرح جورج ميكش - أرجو

أن تنطقها جورج ميكش فهذه إحدى أمنيات الكاتب الإنجليزي الجنسية المحبري

المولد - والكتاب يتحدث عن الهند واليابان . وفورموزا ، وهونج كونج ، وتايلاند ،

والفلبين ، وتركيا . . والكتاب ٢٩٠ صفحة ممتعة مضحكة . .

وجورج ميكش يدهش من الذين يقولون : إن آسيا « قارة » أو يقولون « الشعب »

الآسيوي . . أو « الروح » الآسيوية . . أو التقاليد الآسيوية .

فآسيا ليست قارة وإنما هي مجموعة من القارات ، وكل واحدة منفصلة جداً

عن الأخرى . . فالصين قارة في آسيا . . والهند قارة في آسيا . . وكل واحدة مختلفة تماماً عن الأخرى .

ويضحك من الذى يقول : « الشعب » الآسيوى ، لأن آسيا مجموعة من الشعوب المختلفة بعضها عن بعض . . فالهندي لا يشبه الصينى والصينى لا يشبه الفلبينى . . والأفغانى لا يشبه اللبنانى . . وكل واحد من هؤلاء له طريقة خاصة فى الأكل وفى الملابس . .

وإذا كانت معالم الجمال عند المرأة الصينية هى نعومة البشرة وقلة الشعر فى الجسم . . فليس كذلك عند المرأة الهندية . . أو عند الرجل من طائفة السيخ . . بل إن فى داخل كل دولة من هذه الدول ولايات كبيرة . كل واحدة تساوى عدة دول أوروبية . . فى الهند وحدها توجد ولاية عدد سكانها ٥٠ مليوناً . وفى أندونيسيا جزيرة واحدة عدد سكانها ٦٥ مليوناً ، وفى اليابان جزيرة واحدة عدد سكانها ٤٠ مليوناً . . فى هذه الدول شعوب ، وشعوب ومئات اللغات ومئات الأديان — كالهند مثلاً . . .

والذين يقولون « الروح » الآسيوية . . أى مجموعة الصفات التى يمتاز بها جميع أبناء آسيا . ماذا يقصدون ؟ هل تستطيع أن تقول ما هو وجه الشبه بين اليابانى والهندي أو بين المغولى والتركى . . لا توجد روح واحدة وإنما توجد عشرات الأرواح وكلها تتفق على شئ واحد هو كراهية « الاستعمار » . . كراهية الأجنبي . . والكلمة الملعونة فى كل آسيا هى « الاستعمار » ، معناها استعمار رجل أبيض لرجل أصفر ، بغير سبب وبغير تقدير لظروفه . فالرجل الأبيض يقول للرجل الأصفر : أنت غير قادر على حكم نفسك بنفسك إذن أنت قادر على حكم نفسك بغيرك . . وهذا الغير هو أنا ؟ . .

ولا تزال فى آسيا دروس وعبر وعظات لم يعرفها الغربيون بعد . أما أعظم درس للغربيين والببيض عموماً فهو أنه لم يعد لهم عيش هنا . فإذا لم يكن واحد منهم يصدق ذلك فليحضر إلى هذه القارة ليرى !



● جزيرة السامى

عندما وجدت نفسى مرة أخرى فى مطار مدراس شعرت بسعادة غريبة . ولم يكن عندى متسع من الوقت لكى أفنش فى نفسى عن أسباب هذه السعادة . أو لم أجد أى داع لأن أبحث عن أصلها ومن هم آباء وأجداد هذا الشعور الذى نزل ضيفاً على قلبى وعلى عقلى ، فجعلنى أتمدد على كنبه خشبية وإلى جوارى رجل يهرش بصفة دائمة فى أماكن عميقة دقيقة من جسمه ، ومع ذلك لا ألتفت إليه ، وإنما أنظر إليه كأنه فتاة جميلة تضع الأبيض والأحمر تمهيداً لظهورها فى أحد عروض الأزياء !

لهذه الدرجة كنت سعيداً . . أو كنت مشغولاً بسعادتى عن النظر إلى هذا الرجل أو إلى رجال آخرين . . حتى الضوضاء فى المطار لم تضايقنى . وحتى عندما جلسنا فى غرف متباعدة ومعلق على أبوابها كلمات ممنوع الخروج ممنوع الدخول . . وحتى عندما فوجئت بأن صحيفة هندية أخرى قد نشرت تعليقاً على مقالاتى التى ظهرت فى القاهرة . وراحت تلعن اليوم الذى نزلت فيه بلادهم ! .

وإذا لم أكن مخطئاً ، فأنا أعتقد أن مصدر شعورى بالسعادة هو أنى مسافر إلى بلد جديد . . لا أعرف إن كان هذا البلد أحسن من الهند ، أر أغنى من ناحية الألوان الدينية والاجتماعية . لا أعرف . . إن الرحالة العربى ابن بطوطة قد أضع ثلاثة أرباع عمره يتغزل فى جمال الهند . فقد قرأ على مدخل أحد المعابد الهندية فى العاصمة عبارة تقول : هنا . . فقط توجد الجنة !

ولكن يكفينى أن أذهب إلى مكان جديد . فأى بلد جديد هو الجنة بالنسبة للبلد الذى قبله . . . فليس أروع ولا أمتع من رؤية بلد جديد . . . من معرفة شئ جديد . من الخوف من جديد والقلق من جديد . . . والاطمئنان من جديد !

وعندما تقدمت إلى ضابط الجمرك طلب منى جواز السفر . فأعطيته الجواز ووقفت . ويبدو أن سعادتي كانت زائدة عن اللزوم فلما سألتني عن وظيفتي وأين كنت في الهند فأعطيته بضعة عناوين لأناس أعرفهم وآخرين لا أعرفهم في الهند . ثم طلب منى بعدم اكتراث شديد أن أذهب إلى الغرفة المجاورة .

ولما سألته عن السبب لم يشأ أن يرد . ولكن لاحظت أن الوقت المتبقى لقيام الطائرة لا يزيد عن عشر دقائق . فنهته إلى أن الطائرة قد استقرت الآن على أرض المطار ومن الضروري أن أذهب إليها فوراً . . . ولكنه أصر على أن أبقى قليلاً إلى أن يتصل ببعض المستولين .

وأشار الرجل إلى خمسة من موظفي الجمرك وأمسك ورقة وقلماً وسألني في غاية الجهد :

— معك حشيش ؟!

— لا . . .

— معك أفيون ؟

— لا . . .

— معك ذهب !

— لا

— معك مجوهرات . .

— لا . . .

— مخدرات طيبة ؟

— لا . . .

— مواد ملتهبة ؟

— ملتهبة يعنى إيه ؟

— آه . . . طيب أشوف المواد التي معك وأنا أقول لك (وامتدت يده إلى

- حقيقتي وراح يقلب فيها . . . فيجد قصصاً وظروفاً وعلباً فارغة وزجاجات حبر وكولونيا وأملاح الصودا والإسبرين) أمال فين المواد اللي أنت بتقول عليها . .
- يا أخى أنا ماقلتش حاجة . . أنا سألتك فقط . . . مجرد استطلاع ،لكى أضيف إلى معلوماتي شيئاً جديداً . . خصوصاً وأنا ما تزال أمامي مطارات كثيرة ورجال جمارك كثيرون . . . مجرد حب استطلاع من جانبي فقط !
- معك قتابل . . أحماض . . . أفلام تصوير . . . أنت ماذا تعمل ؟
- مكتوب فى جواز السفر . .
- لم أتمكن من قراءته . .
- أنا أدلك عليه . . (لاحظت على وجهه رغبة واضحة فى أن التزم حدود الأدب . وأقف عند المكان الذى يجب أن يلتزمه أى مسافر خارج من الهند) .
- بالضبط ماذا تعمل !
- مطرب ! (قلنها وأنا أحاول أن أكون ظريفاً) .
- معاك فلوس طبعاً !
- لا . . .
- معاك كم من الفلوس ؟
- الستر (لم يفهمها) .
- بالعملة الهندية كم ؟
- الستر لا يقدر بأى مال . . .
- هل هو قطعة من الأحجار الكريمة .
- الستر كلمة عربية معناها شعورك بأنك لست فى حاجة إلى أحد . . وأن يخرج الإنسان من بلد كما دخلها بلا فضيحة ! (حاولت أن أضحك) .
- إذن كيف ستعيش فى جزيرة سيلان .
- سأعمل فى إحدى الفرق الغنائية هناك .
- الفرقة التى وصلت أمس ؟
- قلت : لا أعرف (وأنا فعلاً لا أعرف) !
- لحظة واحدة من فضلك !

ودار كلام باللغة الهندية طويل طويل .. وظللت أضحك أنا . وأحسست
أنى بايخ جداً . . وأن الضحك فى هذه الأوقات لعب بالنار وإشعال للبنزين فى
مهيب الريح .

واتجهت إلى الرجل وقلت له : إننى أداعبك فقط .. ومهنتى الحقيقية هى
الصحافة ... صحفى يعنى ... والله صحفى فى بلدنا ... وأنا أحاول أن أداعبك
قبل أن أرحل من بلادكم العظيمة بابتسامة عريضة ...

وجعل الرجل يقلب فى جواز سفرى وهو حائر بين الأسف والضحك والأدب
والوقاحة ، والغناء والصحافة ...
وأخيراً قال لى : معك فلوس .

— معى هذه (وأعطيته روية هندية) .

— ما هذا ؟

قلت إنها أزيد من المبلغ الذى نص عليه القانون . . . فالقانون ينص على
أن يحمل المسافر معه ٧٥ روية وأنا معى ٧٦ روية . . . !
ولم تعجبه النكتة وراح يقلب فى الحقبة ... وأشار إلى أحد الشياطين أن
يحملها . وعندما خرجت من الجمرك طالعت إحدى الصحف . .

وفى الصفحة الأولى قرأت أن أحد المطربين فى فرقة موسيقية قادمة من
بيروت فى طريقها إلى كولومبو كان يخفى فى ملابسه سبائك من الذهب !
وقرأت أن هذه الفرقة الراقصة قدشوها تفتيشاً كاملاً . اشترك فيها رجال
ونساء وكلاب البوليس . . وكان معهم ذهب ولؤلؤ وحشيش وأفيون . .
ومن المفروض أننى أحد أفراد هذه الفرقة !
وشكرت ضابط الجمرك واعتذرت له .

وتقدم لى هو أيضاً بالاعتذار الكافى ، لا عن التفتيش وسوء الظن بى ،
ولكن على التأخير . . فقد قامت الطائرة إلى سيلان . ولا بد أن أنتظر طائرة
أخرى فى اليوم التالى . .

ونمت جالساً أو جلست نائماً على مقعد غير مريح حتى صباح اليوم التالى .
وكنت أهرش تماماً كأى واحد من موظفى المطار .. ولو رأتى أحد المهتمين بالقضايا

السياسة لأعطاني الجنسية الهندية فوراً !

* * *

وفي اليوم التالي كأي تلميذ ضربه علقه ، ركبت الطائرة محطم الجسم . فلم تكن جلستي مريحة . . ولا ليلتي هادئة . فقد أحسست بأني أخذت شلوتاً . والسبب هو محاولتي أن أكون ظريفاً وأن أنكت . وتعلمت ألا أضحك في الهند بعد ذلك . وقررت أن ألزم نفس السياسة في جزيرة سيلان . فأبناء سيلان وأبناء الهند أولاد عم ، إن لم يكونوا إخوة .

والمسافة التي تقطعها الطائرة بين مدراس وكولومبو كانت الأساطير القديمة تتحدث عنها وتتكلم عن وجود جسر تاريخي عبر المحيط الهندي . هذا الجسر أقامته القروود بأن تماسكت بعضها في بعض . حتى قام أحد الأمراء وعبر على ظهر القروود من الهند إلى سيلان . ولذلك فالقروود حيوانات مقدسة ! .

فهناك أكثر من قصة وأكثر من تاريخ يربط شبه جزيرة الهند ، وجزيرة سيلان .

وفي الطائرة جلست إلى جوار رجل أوجع رأسي بالكلام . ولكنني استسلمت للنوم الذي كأنه سد أذني بالقطن ووضع تراباً على فمي ودق مسبارين في مقعدي ، فلم أكن أتحرك لا يميناً ولا شمالاً . . .

ولما يش الرجل قرر أن يوقظني بشخيرته ، ولكنني تمسكت بموقفي ، أقصد بحالتي التي أنا عليها . وكل نكتة جاءت في رأسي شنتها فوراً . وكل محاولة للتعليق على شيء أخذتها في حينها . وتخلت نفسي بطلاً يخوض معركة ضد الكلام . ونجحت في أن أسكت نفسي بنفسي . . .

حتى عندما هبطت الطائرة أرض سيلان ورأيت البهجة على وجوه الناس ، وحتى عندما عرفت أن الطائرة قد أصابها عطل في أحد محركاتها ، وأنا وصلنا بمعجزة لم أهنئ نفسي على سلامة الوصول .. ولكن صفقت لنفسي لنجاحي في أن أسكت . . .

ونقلني السيارة من المطار إلى الفندق .

ولم أحدد الفندق الذي أريده ... ولكن من نافذة السيارة وجدت المناظر

جميلة.... وجدت النسيم يغسل نفسي... وفتحت صدري لكي أسهل للهواء الطريق إلى قلبي ، ويبدو أن قلبي نام . وأن عقلي استرخى ... وانشتيت . وتمددت في مقعدي وانتهزت فرصة لأبدى إعجابي للسائق ببلاده . وكأنه كان يتوقع ذلك فأضاف هو أيضا أو صافاً جديدة إلى جزيرة سيلان ...

وفي شارع طويل على جانبه الأشجار العالية . انطلقت السيارة . وانحرفت . ودخلت في بوابة من الأشجار الغليظة ثم توقفت . وأمام باب الفندق وجدت عدداً كبيراً من السائحين الإنجليز . . الوجوه بيضاء . والعيون حلوة .. والملابس نظيفة.. والكلام همس ... والضحك سعيد ...

والفندق عبارة عن جناحين ...

الجناح الحديد هو الذى يضم المطعم وقاعات الجلوس . . والبار ومكتب الاستعلامات . .

أما الجناح القديم فهو الذى نزلت به . .

وفي أعلى طابق كانت غرفتي . .

ومن نافذة فندق « مونت لافينيا » بجزيرة سيلان أطل على البحر . .

لا شئ غير عادى .. الموج عال يضرب الشاطئ . الموج ناثرو ولكن ثورته بيضاء . الموج أبيض والشاطئ أحمر . فلا استطاع البحر أن يغير لون الشاطئ ولا استطاع الشاطئ أن يغير لون البحر . السحب عالية جداً . ولكن يكون مطر قبل ساعة . الأطفال في ملابسهم البيضاء وأحذيتهم البيضاء يركبون المراجيح ... إعلانات (باتا) في كل مكان . لا شئ جديد . ومن الممكن أن تجد هذه المناظر في الإسكندرية أو بورسعيد .

ولكن لو أنك أمضيت شهرا في الحر والعرق والمطر والطين والنوم من الساعة الثامنة والتاسعة كل يوم ، لو أنك ركبت طائرة ذات محركين يلعب بها الهواء ويلقى بها فوق سطح السحب . ورأيت وجوه المضيفات أصفر في لون الليمون ... لو أنك مددت يدك إلى الصحف التي صدرت في نفس اليوم ورأيت صورة طائرة ذات أربعة محركات قد اشتعلت فيها النار .. ولو تأملت المضيئة السمراء ذات العيون الزرقاء وهي تمسك قطعة من القماش الأحمر وتقول لك : إننا الآن

سنمر على المحيط ، وهذا هو جهاز النجاة . عندما تسقط الطائرة إلى الماء ،
ضع هذا على صدرك ، اربطه جيداً . انفخ في هذه الأنبوبة . ستبقى عائماً
حتى تبحر السفن أو الطائرات لإنقاذنا .. ولكن إن شاء الله نصل بسلام ! ..

وبعدها بلحظة واحدة ترى الأضواء الحمراء تعلن أننا يجب أن نربط الأحزمة
فالتائرة ستمر في أحد المطبات الهوائية ..

لو أنك قضيت عشرات الساعات فوق السحاب وفوق الماء ، لا ترى الدنيا
إلا من فوق ... لا تراها إلا على هيئة نقط وبقع وعلب كبريت .. لو أنك شعرت
أنك لأول مرة تشم هواء قادم من البحر .. هواء طبيعياً .. لو أنك شعرت هكذا
لوجدت أن منظر البحر في سيلان شئ عجيب غريب . حتى طعم الهواء .. حتى
طعم الرطوبة الموجودة في هواء سيلان ..

لقد كان منتهى أملى أن أصل إلى هذه الجزيرة وأستغرق في النوم أى عدد
من الساعات . وأكل كل الأشياء التي حرمتها على نفسي .. وبعد النوم أسهر
حتى الصباح ، صباح أى يوم أو يومين أو ثلاثة .. مش مهم !

ولكني في هذا اليوم أحسست بأنني لست في حاجة إلى نوم أو أكل أو شرب
أو سهر . إن مجرد شعوري بأنني وصلت إلى هذا المكان من الجزيرة ، آمناً
سالمًا .. هذا الشعور ملاً عيني بالنوم ، ونفسي بالراحة ، ومعدتي بالطعام ..
واكتفيت بهذا القدر .

لأنني أتطلع إلى السقف في الظلام .. كأنني أراه لأول مرة . وكأن الفنادق
التي نزلت فيها كانت بلا سقف .. أو كأنني كنت أنام على السقف فليس فوق
رأسي شئ ، إلا الضيق والقرف ...

إن المصاييح في الغرفة أراها شيئاً آخر .. أراها مضيئة خافتة كأنها نهذا فتاة
جميلة .. فتاة خرافية ترضع الليل لبنا مخلوطا بالشاي .. ليس هذا غريباً فنحن
في جزيرة الشاي ..

حتى السيجارة في يدي لها معنى آخر .. إن دخانها يتصاعد إلى أعلى ..
لأنني أراها شيئاً آخر .. أرى السيجارة قلماً من نوع غريب .. القلم ساكن وحبره

الأبيض هو الذى يتحرك ويكتب على ورقة فوقه .. القلم تحت والورقة فوق ..
والحبر يتصاعد إلى الورقة . وأنا الذى يمسك القلم لا أعرف ماذا يقول .
هذه هي جزيرة الشاي ، أشهر شاي في العالم ..

هنا مزارع لبيتون وبروك بوند . هذه الجزيرة استعمرها الهولنديون ١٥٠ سنة ،
وطردهم البرتغاليون واستعمروها ١٥٠ سنة أخرى . وطردهم البريطانيون
ولا يزالون فيها منذ ٢٦٣ عاما .. والآن قد أصبحت جمهورية مستقلة كالهند
وبباكستان ولكن ضمن التاج البريطاني ..

قمت إلى النافذة ألقها .. فإني أحب البحر ولكن صوته يذكرك بصوت
مليون محرك طائرة ومليون مروحة ومليون جهاز تكييف . وحاولت أن أقفل
النافذة فلم أستطع . فليست هناك نوافذ وإنما ستائر فقط .

وجلست أشرب الشاي .. شاي له أصل من ناحية اللون : أبوه الذهب وأمه
الوردة .. الشاي هنا له وطن .. فالشاي في هذا الفنجان مأخوذ من هذه الشجرة
التي تبعد عنى مائة متر ..

* * *

وكان لا بد أن أنتقل إلى فندق آخر في قلب العاصمة . واخترت فندق « جول
فيس » .

وبقيت في الفندق أياماً ..

عندما اطلعت على كشف الحساب في فندق « جول فيس » في مدينة
كولومبو عاصمة سيلان .. رقت بالصوت فعلاً .. لا أعرف كيف ، ولكن
هذا ما حدث ..

ولما سألتى الصراف عما حدث قلت له : مغص كلوى من تغيير الجو ..
وترحمت على أرخص وأحسن فندق تركته في الهند . في مدينة تريفاندرام
عاصمة كيرالا كنت أنزل في فندق ماسكوت ، الفندق تديره الحكومة ، الغرفة
على الطريقة بها مروحة . والسريير موضوع في منتصف الغرفة . وعليه ناموسية ،
وهناك غرفة كبيرة بها حمام ، وفي الحمام « كوز » يتسع لطفل صغير عمره تسعة
شهور وقد ابتلع بطيخة !

ولكن الله يرحم أيام هذا الفندق .

فى الساعة السابعة صباحاً يدق الخادم بابى ويفتحه ويدخل ويضع لى
الصحف اليومية . وفى الساعة الثامنة والنصف أذهب إلى غرفة الطعام لأتناول
الفتور : شاي وبيض وشمام أو موز أو مانجو وبعض البندق . . أى كمية تعجبنى
ومربى وزبدة وعيش محمر .

وفى الغذاء شوربة . . وسك مقلى ثم لحم دجاج ومعه أرز بالكارى ولحم
آخر ... ثم لحوم مشوية ومعها بعض جوز الهند المفروم وبعض المانجو المفروم
وبعض البندق مرة ثانية وفنجان من القهوة . .
وفى الساعة الخامسة يدق الخادم باب غرفى . . .

ويضع صينية على منضدة صغيرة أمام الباب الذى يطل على حديقة جميلة
بها أشجار جوز الهند والمانجو والدوم . . هذه الصينية عليها الشاي واللبن والبسكوت
وبعض حبات المانجو والموز . .

وفى العشاء : شوربة ولحوم وفاكهة بكميات كبيرة جداً . .

هل تعرف كل هذا بكم ؟ لا أحد يصدق . . كل هذا بحوالى ١١٠ قروش !!
كل هذا مع الاحترام التام والتحيات والسلام . . وهذا يفتح لك الباب وهذا يقفل
لك الباب . وهذا ينزل لك الناموسية ، ورايع يرش الـ د.د.ت وخامس يسحب عليك
الغطاء وسادس يقفل لك الأبواب ويسألك متى تشرب شاي الصباح . .

وطبعاً كل هؤلاء ستدفع لهم البقشيش . .

كان ذلك فى الهند !

أما فندق «جول فيس» فقد حاسبنى على أساس ستة جنيهات غير القهوة
والشاي والمكالمات التليفونية والصحف وغير ٥% نظير خدمة أخرى . . وغير أن
رحم الله فندق ماسكوت . . إن المعلومات التى تجمعت عندى عن الفنادق
التي أنزل فيها بعد ذلك قد أطارت النوم من عينى .

* * *

يقال إن آدم عليه السلام عندما نزل من الجنة إلى الأرض كانت جزيرة
سيلان هى أول مكان نزل فيه . وبعض الناس يعتقد أن مكان قدميه لا يزال
واضح الأصابع . .

وقد ذهبت إلى هذا المكان ولم أجد أثراً لقدى والدنا آدم . . وإنما وجدت الكثير من المياه والرطوبة . ولم أستبعد أن تكون رحلته من السماء إلى الأرض شاقة مرهقة . ولا بد أن العرق تصبب منه . على كل حال إن الجبال ما تزال تحتفظ ببعض هذا العرق . . بعضه على هيئة بحيرات وبعضه على هيئة دموع في أعيننا نحن السائحين ذوى الملايم المحدودة !

وأحسست بيد على كتفى تضربها بعنف . . إنه أحد الأمريكين التجار .
لقد رأى الفاتورة وقال لى : ادفع يا بطل ! . .

قالها بالعربية : فسألته وكيف تعلمت لغتنا !

فأشار بيده : إنها قصة طويلة . . لقد كنت في القاهرة وسهرت في الأوبرج ورأيت أحسن راقصة عربية . إنها « نادية جبال » . .

فقلت له : قصيدك سامية جبال ؟ !

فأجاب مؤكداً . لا . لا . لا . إنها نادية جبال . أنا أعرفها . . حدثها عنى . .
قل لها هل تذكرين فو . . فو . . فوستر . .

قلت : كانت تدللك هكذا !

فأجاب : ادفع أولاً وأنا أحكى لك بعدين .
ودفعت وجاء يهمس في أذنى : تحب تسمع حكايتها ؟

قلت : لا . .

قال : لماذا ؟

قلت : معنديش فلوس !

* * *

هذه الجزيرة الصغيرة تعتمد على زراعة الشاي وبيع الشاي للعالم كله ولا شئ يشغل الناس هناك غير بيع الشاي . . والشاي يزرعونه على سفوح الجبال . وكلما ارتفعت السفوح عن سطح البحر ، كان الشاي أحسن . . والشاي الذى ينبت فى أرض منخفضة هو شاي ردى جداً والشاي درجات . شاي ناعم وخشن ، وطويل وقصير ، ورأىته قوية أو ضعيفة ، ولونه فاتح أو غامق . . ومعرفة طعم الشاي ووضعه فى رتبة أو درجة مسألة صعبة وليست سهلة كما كنت أتصور . . !

أما شجرة الشاي نفسها فهي تعيش في الأرض ١٤ سنة . . . وجذعها غليظ وقوى . . . وأوراقها تشبه أوراق الملوخية . . . وفي كل يوم يقطفون أوراق الشاي . . . طبعاً ليس كل الأوراق . . . وإنما بعض الأوراق التي ظهرت حديثاً ولونها أصفر فاتح ، وربما كان عدد الأوراق المقطوفة من شجرة لا يزيد على كبشة واحدة . وعملية الجمع مرة كل أسبوع . . . ومرة كل أربع سنوات ينزعون كل أوراق شجر الشاي ، وينزعون أغصانها أيضاً لكي ينبت عليها ورق أصفر جديد . . . والشاي لا يمكن زراعته في بلادنا لأنه يحتاج إلى أمطار مستمرة وإلى حرارة شديدة وإلى ظلال وإلى تربة حمراء .

وكل فدان من الأرض به خمسة آلاف شجرة . . . وهناك نظام جديد لزراعة الشاي ينص على زيادة عدد الأشجار إلى سبعة آلاف شجرة . . . وهناك نظام جديد آخر يقضى بأن تكون زراعة أشجار الشاي بطريقة «التعجيل» أى عن طريق «العقل» كالعنب عندنا . . . وكان الفلاح الهندي والسيلاني يعتمد على زراعة الشاي عن طريق البذور . . .

وفي جزيرة سيلان مئات الألوف من الأفدنة مزروعة شاياً . . . ولكن مع الأسف يملك الأجانب ٨٠٪ منها . . . والأجانب هناك هم الإنجليز . . . فلهم مزارع واسعة جداً . والمزرعة تتكون من عشرات الألوف من الأفدنة تقوم فيها المصانع والفيالات الأنيقة جداً للمهندسين وكبار الموظفين .

* * *

وانتشار الشاي في العالم له قصص غريبة . . . فيقال مثلاً إن أحد الملوك كان يغلى الماء في «حلة» ليشربه فسقطت فيه ورقة من شجرة فلاحظ أنها أعطت الماء لوناً جميلاً . . . وكانت هذه «الحلة» هي أول فنجان من الشاي في العالم . وكان ذلك من خمسة آلاف سنة . . .

وبعد ذلك انتقل الشاي من اليابان إلى الصين إلى الهند إلى سيلان إلى أوربا . . . والعملية التي يتم بها تحويل ورقة الشاي الخضراء إلى الورقة السوداء التي تراها تستغرق في المصنع حوالي ٢٢ ساعة . . .

وتبدأ العملية بأن تنقل العاملات سلال الشاي إلى إحدى العربات وتنقلها

العربات إلى المصنع . . وفي المصنع يوضع الشاي الأخضر على ألواح تتعرض للهواء الساخن الطبيعي أو للهواء الساخن الصناعي والغرض من ذلك هو تجفيف الرطوبة الموجودة في الشاي على الأقل إلى النصف .

وبعد ذلك ينقل الشاي إلى عملية أخرى . . وهي وضعه في الآلات لتحطيم أوراقه . . وبعد تحطيمها تجعلها مبرومة . . والغرض من تحطيم أوراق الشاي هي لإخراج العصارة الموجودة فيها .

وبعد ذلك تبدأ عملية تجفيف أخرى . . تجفيف بخار الماء . . فلا يبقى إلا الشاي المركز فوق الورق المبروم المحطم . . ويدخل الشاي في أفران كهربية تهزه بصورة مستمرة . . وبذلك تصبح الرطوبة الموجودة في الشاي هي عبارة عن ٣٪ من الماء الذي كان به عند دخوله المصنع . .

ثم ينتقل الشاي المحطم المجفف الذي أصبح أسود اللون، إلى الغرايل تهزه ، أما الشاي الناعم فينزل إلى الأرض النظيفة، والشاي الخشن يعود مرة أخرى لتحطيمه وتجفيفه من جديد .

وهذا الشاي الناعم ينتقل إلى عملية تجفيف في الهواء العادي . .

وبعد التجفيف ينتقل الشاي إلى عملية فرز أخرى . . فرز حسب طول الورقة . .

* * *

ولكن العملية الهامة جداً بعد ذلك هي عملية معرفة رتب الشاي ودرجاته . . والذي يحدث أن عينات صغيرة تؤخذ من الشاي في المعمل ، ويوضع الشاي الجفاف في الفناجين ويوضع عليه الماء الساخن لمدة ست دقائق . . ولا بد من تغطية الفناجين . . وكل ست دقائق يتقدم الرجل « الذواقة » لتذوق طعم الشاي . . ويعرف بتجربته الطويلة ، رائحة الشاي ودرجة حموضته ولونه . . والرجل الذواقة له طريقة خاصة في معرفة رتب الشاي . . فهو « يشطف » الشاي بصورة عنيقة حتى يملأ به كل حلقة . . وينتظر لحظة ثم يلقى بكل ما في فمه، ويجرب ذلك مئات المرات في اليوم . .

والرجل الذواقة لا يشرب الخمر ولا يدخن لكي يحفظ بحساسية فمه سليمة .

St. 336.

Bi hamdi ka ya bari al alameen

Va Anthar Rahimu Va Anthal Mueen.

Va iyyaka na'budu fee kulli heen

Va iyyaka ya rabba na nasthaeen.

Izas subhu ahda ilayna sana

Arafna bi sham sika nooral Haya

Bi jad vaka nahya va anthal Ilah

Tha alay tha ya Arhamar Rahimeen.

Fa barik sarandiba fee ilmiha

Va mah hada Aada bi hamzahira.

Va Ali aladdahri zikras miha.

Va ahsin li abna ihal Aakhirah.

بِحَمْدِكَ يَا بَارِيَّ الْعَالَمِينَ
وَأَنْتَ الرَّحِيمُ وَأَنْتَ الْمُعِينُ

وَإِيَّاكَ نَعْبُدُ فِي كُلِّ حِينٍ
وَإِيَّاكَ يَا رَبَّنَا نَسْتَعِينُ

إِذَا الصُّبْحُ أَهْدَى الْبِنَاسَنَا
عَرَفْنَا بِشَمْسِكَ نُورَ الْحَيَا

بِحَدِّكَ وَكَانَ نَجِيًّا وَنْتَ إِلَهِ
تَعَالَيْتَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ

فَبَارِكْ سِرُّنَا فِي عِلْمِنَا
وَمَعْنَانَا أَدَابِنَا الزَّاهِرَةَ

وَعَالِ عَلَى الدَّهْرِ ذِكْرَ اسْمِهَا
وَأَحْسِنْ لِأَبْنَائِنَا الْآخِرَةَ

بهذا التمسيد استقبلت الكلية الزاهرة في مدينة
كولومبو عاصمة سريلانكا (سيلان) الزعيم
المصري احمد مرادى يوم ١٢ سبتمبر سنة ١٩٠١

صور من مقالاتي التي نشرتها في مجلة
 آخر ساعة عن رحلتي إلى جزيرة
 سيرلانكا (سيلان) .



EGYPTIAN EXILES IN CEYLON.

THE ARRIVAL.

As we announced briefly yesterday, the S. S. "Mareotis" with Arabi and his party on board was sighted at Colombo harbour. The news of the "Mareotis" in sight in the meantime spread far and wide, by the time the steamer dropped anchor, a considerable number of people, chiefly of the Musalman community, with a sprinkling of other races, assembled at the wharf to witness the landing of the exiled Arabi and his associates; but they were not to their disappointment! The police had some difficulty in keeping the wharf jetty clear, but on the whole there was much less enthusiasm displayed than might have been expected. Immediately on the steamer being alongside, the Master Attendant, Capt. Donnan, the Port Surgeon, Dr. Garvin, boarded her, and after about half-an-hour's delay the doctor passed on board. This was immediately the signal for a general rush, anything but pleasant no doubt to the crew of the ship, for notwithstanding the rumour that the Government had prohibited people from going on board, which by the bye proved to have no foundation, a number of boats containing many of the principal exiles, were at the vessel's side long before the Port Surgeon had passed her. The "Mareotis" left Suez on the 27th Dec., and after a stormy and uneventful voyage of 14 days was a most comfortable one, being marked by no extraordinary incident. The health of all on board was excellent, there being only a case of cholera among the crew, numbers 77 in all, in charge of the vessel, and a detachment of 20 Egyptian soldiers, who brought their families with them. The principal exiles are the seven pashas, the Minister of the Interior, and whose names are Arabi Pasha (late Minister of the Interior), Mahomed Femy, and the late Minister of

A correspondent, writing on the 11th, says:— "Yesterday, when it was known that Arabi had arrived in this port, many natives and others went to the steamer to see him, but it is said only a few succeeded. It was told some of these lucky ones that Arabi's favourite wife was not on board, but had to remain in Egypt till after an interesting stage in the lives of married ladies is over. All this morning thousands of all classes, creeds and colours crowded the roadway and wharf all anxious to see the Pasha landed. The jetty (landing) was kept clear by the guardians of the peace in the shape of two heads and a posse of our heroes of the red cap, who did their real best with English and Chinese umbrellas to keep an open space for Egypt's living mummies to pass out. (How the shade of poor Cheops would stare it still allowed that mundane supervision of old Egypt's affairs!) Well, to resume: about noon the first arrival at the jetty consisted of one tall sinister-looking rather light-colored gentleman in European dress, long overcoat and Turkish red cap, who came in a boat by himself, while in another boat at the same time came eight or nine ladies all in flowing Turkish robes of black silk, a turn of which passed over and shaded the head, but which was gracefully lifted up by the hands disclosing parts of the faces of the owners, three or four of whom were as fair as any European lady (one in particular). All wore the Turkish veil across the face, just under the eyes. They were all stout strong women. The fair one above alluded to took off the curtain or veil of white muslin and had a good look at the crowd, and immediately put it up again; but the glimpse thus obtained disclosed a fine lady, like a fair and beautiful woman who must have her descent from others than the children of the banks of the Nile. All the leaders were shewn into two carriages, and the gentleman above alluded to into another, which was followed by the two in which the leaders, were. I thought the gentleman was Arabi, but no; he was not yet landed. The greater part of the natives followed these three carriages, thinking they were Arabi and so when about 2 p.m. our real Arabi arrived there was not half such crowd to see him as he accompanied by another darker and more distinguished self. He (Arabi) looked quite

... of the cases... a few... information... only had no...
 ... Egyptian... houses... almost bare... supposed the... on their hands... fingers, and... but it seemed... have permeated... our Executive... dinner on the 11... demonstration... the late leaders... behind European... applies in regard... men are concerned... as yet to learn... life of an Egypt... derstand that... the wives... medical attention... habits but... as their an...

THE... the late... J. B... M...

صورة من المجلة الأسبوعية (سيلان أوبزرفر) بتاريخ
 ١١ يناير سنة ١٨٨٣ وقد نشرت مقالا عن زعماء الثورة
 العربية الذين نفاهم الإنجليز في جزيرة سيلان



▲ في هذا البيت كان يعيش الزعيم
أحمد عرابي في مدينة كولومبو .

وفي هذا البيت في مدينة كاندي كان يقم الزعيم
أحمد عرابي وأولاده . . اللوحة تقول : بيت
عربي . .



وتذوق الشاي يتم بالتجربة الطويلة والدراسة المستمرة للشاي .

وعن طريق تذوق الشاي يمكن معرفة درجته ومعرفة سعره أيضاً .

وكل الشركات لها معامل في جزيرة سيلان وبعثون بتقاريرهم إلى المركز الرئيسي في لندن .. وفي لندن تجرى تجارب أخرى في الشاي .. وكثيراً ما جاءت الأنباء من لندن تطلب من المعمل أن يعيد النظر - أقصد يعيد «التذوق» من جديد .

والشاي درجات .. وكل شعب له لون خاص من الشاي .. وهنا في الشركات الإنجليزية أناس متخصصون .. كل واحد في شاي خاص .. هذا في شاي جنوب أفريقيا .. وهذا في شاي بريطانيا .. وهذا في شاي الجمهورية العربية. والشريب عندنا يفضل الشاي الناعم الأسود القوي . فحتى يصلك هذا الشاي الأسود يكون قد قطع رحلة طويلة من الحقل إلى النار إلى المعمل ثم إلى البورصة ثم إلى الصناديق ، و ١٥ ألف ميل في البحر !

لا داعي لأن تهز فنجان الشاي ولا داعي لأن تقلبه على وجهه .. إنني سأقرأ لك هذا الفنجان وهو معتدل مستقر في طبقه ، وهو «لى» بهذا السائل الأحمر .

اسمع ياسيدى .. بهذا الفنجان الذي شربته أنت ، يصبح عدد الفناجين التي شربت اليوم ٨٠٠ مليون فنجان في العالم كله . والشاي الذي تشربه في القاهرة قد جاء ثلثاه من الهند ، والثلث الباقي من الصين . والصين هي أول دولة في العالم عرفت الشاي .

ويكفي أن أقول لك : إن أول إنسان شرب الشاي كان سنة ٢٧٢٧ قبل ميلاد المسيح . هذا الإنسان هو الإمبراطور شن توانج . وكان من عادة هذا الإمبراطور أن يغلي الماء قبل شربه ، وقد حدث وهو يشهد عملية غليان الماء أن - كما قلت لك من لحظات - سقطت ورقة جافة من إحدى الأشجار وانزعج الإمبراطور ولكنه لاحظ أن هذه الورقة قد غيرت لون الماء فوضع أوراقاً أخرى وأعجبه اللون والطعم . وكان الإمبراطور أول شريب الشاي في العالم . ويقال إن جنكيز خان قد نقل الشاي بهذه الصورة من آسيا إلى أوروبا . .

وبدأ الشاي ينتقل إلى كل هذه المنطقة حتى إن إمبراطور اليابان عندما عرف الشاي جعله خاصاً بالأسرة المالكة وكان ذلك سنة ١٨٥ وكان الإمبراطور يقيم الحفلات لشرب الشاي . .

وأوروبا لم تعرف الشاي إلا في القرن السادس عشر . وحرمة الكنيسة لهاجمه الأدباء والشعراء وأعلنوا الحرب على شرب الشاي الذي يفسد الأخلاق ويضعف القوى العاملة . وكان الأوروبيون يشربون الشاي بغير سكر .

وتقول الأديبة الكبيرة مدام دي سفينيه : إن أول امرأة في العالم خلطت الشاي باللبن هي مدام سابليه وكان ذلك في سنة ١٦٨٠ .

وأديب إنجلترا الكبير الدكتور جونسون اعترف صراحة بأنه يشرب الشاي وأن البراد الذي يصنع فيه الشاي لا يبرد أبداً . واعتبره المجتمع الإنجليزي رجلاً صريحاً أكثر من اللازم ، بل قيل عنه إنه رجل لا يستحي من إدمانه الشاي وتناوله علناً أمام النساء !

وأؤكد لك أن الشاي الذي ستشربه سيكون أجمل لوناً وأجمل رائحة فقد ذقت هذا الشاي قبلك . فهنا في مدينة كولومبو توجد بعثة رسمية من مصر ، وقد رأيت البعثة وهي تتذوق الشاي وتختاره لك . . ورأيت عملية الخلط وذقت الشاي المخلوط . لقد رأيت الشاي الحقيقي . . هذا الشاي ستتولى وزارة التموين خلطه لك . لن تتركه للتجار كما حدث في الشاي الذي تشربه الآن . فالتجار لا يخلطون الشاي كما يجب . إنهم يقدمون لك الشاي الصيني . أما الشاي الهندي أو السيلاني الممتاز فهم يحتفظون به .

وهذا الشاي الذي ستشربه قد رأيت على أشجاره . . رأيت أخضر اللون . أو على الأصح أصفر اللون . ومشيت مع هذا الشاي خطوة خطوة . ورأيت عملية « تمريك » أي جعل ماركات للشاي . . والشاي له درجات كثيرة جداً ورتب تبلغ الأربعين أو الخمسين رتبة . . رتب حسب لون الورقة وحسب لون النفل وحسب الطعم وحسب اللون وحسب الرائحة . . وكل شيء له أصول وقواعد . وينقل الشاي في صناديق كبيرة إلى معامل الشركات .

وهناك تجرى عليه تجارب غريبة . فالشاي الوارد من المزرعة يعرضونه على

رجل « ذواق » وبالعربي الفصيح « ذواقه » مثل رجل علامة وبجائة ورحالة . .
وكل فنجان يتذوقه يكتب عليه أنه من نوع كذا ودرجته من فئة كذا وسكره
يجب أن يكون كذا . . هذا الرجل يتقاضى حوالى ٥٠٠ جنيه فى الشهر وهذا
الرجل الذواق لا يشرب الشاى أبداً إنه قرفان منه . فهو يملأ عينيه وأنفه وفه .
إنه يقضى حياته كلها يضع الشاى فى فمه ثم يلقى به فى برميل كبير .

إن صانع الشاى لا يذوقه وإذا ذاقه فلا يشربه . . فاحمد الله أنك تشرب
الشاى ولا تذوقه !

* * *

ومن المؤكد أنك لا تستطيع أن تعمل الشاى . . فالشاى الحقيقى له قواعد . .
وأنا أنقل لك ما قرأته فى كتب « أصول الشاى » :

أولاً : يجب أن تضع بعض الماء الساخن فى فنجانك قبل أن تصب فيه الشاى . .
ثانياً : إذا غليت الماء يجب أن يكون ذلك مرة واحدة . فالماء الذى غلى
كثيراً يفسد طعم الشاى ولونه ورائحته . ويجب ألا تغلى الماء كثيراً . ويكفى أن
ترى الماء يغلى فتنزل البراد بعيداً عن الوابور أو البوتاجاز .

ثالثاً : إذا كان البراد يتسع لأربعة فناجين مثلاً يجب أن تضع فيه خمس
ملاعق شاى صغيرة . يعنى ملعقة أزيد دائماً . لماذا ؟ لم أفهم . ولكن هذه هى
الطريقة المثالية .

رابعاً : أترك البراد وبه الماء المغلى والشاى لمدة ست دقائق ولا بد أن يكون
البراد مغطى لأن الضوء يفسد لون الشاى ورائحته وطعمه .

خامساً : أحسن طريقة لتذوق الشاى هى أن « تشفطه » وأن تكون عملية
الشفط هذه قوية حتى يملأ الشاى فمك وينبه كل أعصابك . . الطريقة الرقيقة
الهوانى فى شرب الشاى مفسدة لطعم الشاى .

طبعاً الطريقة المثالية هى أن تضع الشاى فى « قلة » أو إبريق وأن تشربه
كما يفعل أبناء الريف ويكون للشاى - وهو ينساب فى حلقك - صوت كتنقيق
الضفادع .

لم يقل الرجل «الذواقة» هذه العبارة ولكنها محاولة منى لتعريب نظريته . .
سادساً : شرب الشاي من المستحسن أن يكون مع الأصدقاء وحبذا
لو كان مع فتاة أنت تحبها . وسبب ذلك أن الشاي : يجب أن يشرب على فترات
متباعدة ، يجب أن تشربه على شوق . . أما إذا كنت وحده فأنت تشربه مرة
واحدة أو تتركه نهائياً . . ولذلك فاشرب الحلبة أو الينسون . . أحسن ! ..
ولكن عندما تكون معك فتاة فإذا كان الشاي من صنعها فستجاملها
وتشرب وتستجد لذة . وإذا كان الشاي من صنعك فستجاملك هي وتشرب
بلذة وستصدق أنت كلامها وتؤمن بأن الشاي مصنوع جيداً . . وستشرب
بلذة . . ولذة أخرى . .

سابعاً : أحسن طريقة لشرب الشاي أن تشربه من غير سكر . .
ثامناً : رأيي الشخصي هو أنني جربت كل هذه القواعد ووجدتها
فعلاً مضبوطة فيما عدا القاعدة السابعة . .

* * *

وأمس حدث لى شىء غريب . .
أبناء الهند وسيلان يلبسون الدوتى وهو عبارة عن فوطة تلتف حول الوسط
وليس فوقها إلا قميص .
وقد تجد من بين هؤلاء الناس من تعلم فى إنجلترا أو أمريكا ويتكلم الإنجليزية
بطلاقة .

ولكن عندما انشغلت بحرارة الجو هنا وعندما أغرقتنى الأمطار الشديدة
وجدت أن هذه الملابس هى أنسب زى ، فالجو الحار لا ينفع معه البنطلون
والجاكتة بل إن البنطلون عبء ثقيل جداً والأحذية لا ضرورة لها ما دامت
مياه الأمطار تصل إلى منتصف قصبة الرجل وأحياناً إلى الركبة . . ثم إن الدوتى
هذا يمكن رفعه إلى الحصر عند الضرورة . .

وقد حدث عندما كنت فى جنوب الهند أن استمرت الأمطار تتساقط يومين
متوالين لا أستطيع أن أخرج من غرفتى . وإذا خرجت فللكى أتأكد من أن
الأمطار لن تصل إلى سريرى . . ورأيت أنها فرصة لكى أجرب الدوتى . .
وطلبت من مدير الفندق أن يعيرنى أى « دوتى » عنده . ودخلت الغرفة ووجدت

أن الدوتى هو عبارة عن ملاية سرير . . ولكن كيف ألفها حول وسطى ثم كيف أربطها ربطاً متيناً حتى لا تسقط وبدون حزام . لم أتمكن أبداً . . فإذا ربطتها من هنا سقطت من هناك . . وقررت أن ألفها حول وسطى وأضع فوقها الحزام لكي يمسكها . . ولاحظت وأنا أمام المرآة أنه لا ينقصنى إلا أن أضع على صدرى إبريقاً كبائع العرقسوس وأزول إلى الشارع وأنادى : شفا وخير يا عرقسوس !

وقررت أن أخرج . . إننى أحد الملايين . لن يلتفت إلى أحد . . ولكن لاحظت أننى شددت الدوتى على وسطى أكثر من اللازم . وإنه « دوتى » محرق قوى . دوتى بنائى كده . فككت الحزام وأعدت لف الدوتى وبجحت الحزام قليلاً وخرجت إلى الشارع أنظر إلى الناس ، ولم يهتموا . . أو هكذا قلت لنفسى . . وبدأت أقوم بحركات عصبية ، فالإنسان عندما يشعر بالحرج يحاول أن يضع يديه فى جيبه . . كأنه يتساند على نفسه حتى لا يقع .

ولكن لا جيوب . وحاولت أن أضع يدى على وسطى حتى لا يسقط الدوتى . . ومن شدة ارتباكى غصت فى الماء وتبلل الدوتى ووصل الماء إلى ركبتي وشعرت بالبرودة فى الزحام . . ورفعت الدوتى إلى أعلى . . وشدته فوق الحزام . . ووجدت أن الحذاء لا لزوم له . . فنزعت الحذاء وأمسكته فى يدى . ولاحظت أننى لا أزال ألبس جوربى . . فنزعت الجورب ووضعته فى الحذاء . . وانحشرت وسط الناس . . وفى الزحام ترحزح الدوتى وانسحب من تحت الحزام كأنه هو الآخر يريد التحرر . . وكأننى مقتصب له وهو يريد أن يعود إلى صاحبه . . كأن الدوتى حمام زاجل فإذا أطلقته عاد إلى الفندق . . ووضعت الدوتى على كتفى .

والصورة الآن هكذا : المطر على وجهى شديد جداً . . شعرى منكوش . . وجوز جزمة فى يدى ، والجزمة قد ابتلعت جوربى وزجاجتين من ماء المطر . . الدوتى على كتفى . . والقميص التصق بجسمى . . وتلفت إلى الناس فوجدتهم مثلى . . وحمدت الله على أننى لم أنس ملابسى الداخلية - بعضها فقط !

لقد دفعت ثمن هذا اليوم غالباً . . من السعال والزكام والعرق والنوم تحت أغطية من الصوف فى عز الصيف وفى قلب المنطقة الاستوائية !!

● هنا معنى عرابي

عشرون عاماً من حياة الزعيم أحمد عرابي لا يعرفها أحد . . . قضاها في المنفى لم يقربه أحد . . . لم يتحدث إليه أحد . . . لم يكتب عنه أحد . . . الذين عرفوه ماتوا . . . الذين اشتركوا معه في الجهاد ماتوا . . . الذين أحبوه وساروا وراءه ماتوا ، لم يبق منهم إلا خادمة عجوز تسكن بالقرب من بيته في مدينة كاندي ، إنها لا تتكلم ولكن عندما تسمع اسم عرابي تبكي . . . لم يبق إلا أربعة من أصدقاء أبنائه في كنجوود كوليدج ، ولكل واحد من هؤلاء قصة ورواية . . . ولم يبق إلا سيدة أخرى هي التي تملك البيت الذي كان يسكنه أحمد عرابي . . . !

* * *

ولكن كيف عاش عرابي ؟ وأين كان يسكن ؟ وماذا عمل ؟ وما هي المشروعات التي تقدم بها ؟ . . .
هل تعلم أن عرابي هو الذي أدخل الطربوش إلى الجزيرة ؟
هل تعلم أن المسلمين يرتدونه حتى اليوم ؟
هل تعلم أن عرابي هو الذي أدخل الزي المصري إلى الجزيرة ؟ حتى الأطعمة أدخلها عرابي . . .

هل تعلم أنه - وهو الذي لم يتعلم الإنجليزية إلا في رحلته من السويس إلى سيلان - دعا المسلمين إلى تعلم اللغة الإنجليزية وأن المسلمين هنا ثاروا عليه إذ كيف أن الإنجليز اضطهدوه ونفوه ثم يتعلم لغتهم بعد ذلك ؟

* * *

عندما زار الدكتور محمود فوزي جزيرة سيلان دعتة (مدرسة الزاهرة) في ١٧ مايو سنة ١٩٥٥ لرفع الستار عن لوحة أحمد عرابي . . . واللوحة رسمها أحد الطلبة عن صورة من إحدى مجلات القاهرة . . . وتحدث في ذلك اليوم مدير

المدرسة السناتور عزيز . . وروى كيف أقام عرابي في هذه البلاد وكيف كانت مشروعاته وكيف أحبه الناس . .

وفي نهاية كلمة السناتور عزيز وقف طلبة المدرسة ينشدون باللغة العربية التي لا يفهمونها نفس النشيد الذي ودعت به المدرسة الزعيم أحمد عرابي يوم ١٢ سبتمبر سنة ١٩٠١ ، أى قبل رحيله إلى مصر بستة أيام . . وكان ذلك آخر تكريم لعرابي .

وقف الطلبة ينشدون :

بحمدك يا بارئ العالمين
وأنت الرحيم وأنت المعين
فبارك سرنديب في علمها
ومعهد آدابها الزاهرة
وأحسن لأبنائها الآخرة . .
إلخ

و « سرنديب » هي جزيرة سيلان كما كان يسميها العرب . .

وعندما سمع الزعيم عرابي هذا النشيد بكى وأطال البكاء . . وقد تعود في أيامه الأخيرة أن يبكي من شدة الأسى والحزن . . وكان يخشى أن يموت بعيداً عن بلاده التي أحبها . . وكان الشيب قد توج رأسه تماماً مع أنه لم يكن قد تجاوز الستين إلا قليلاً ولكنه شاب قبل الأوان . .

وقصة العشرين عاماً تبدأ بعد الحكم على عرابي بالنفي مدى الحياة .

نقل عرابي من القاهرة إلى السويس ومعه ستة من زملائه في الثورة . .

كان عددهم جميعاً ٥٧ من الرجال والنساء . . وفي ميناء السويس ركبوا الباخرة الإنجليزية « ماريوتيس » وهي سفينة صغيرة حمولتها ١٣٩١ طنناً . . وكان بحرسهم عشرون من الجنود المصريين يرأسهم مورييس بك . . وكان يرافق الزعماء السبعة مترجم هو سامى عطا الله .

قطعت الباخرة الرحلة في ١٤ يوماً . . ولم تقع حوادث أثناء الرحلة . . ولكن عكف الزعماء جميعاً على تعلم اللغة الإنجليزية . . حتى عرابي كان يضع

في جيبه كتاباً عن تعلم اللغة الإنجليزية وكان ينصح بقية الزعماء بضرورة تعلم هذه اللغة .

وتدل التقارير على أن صحة الزعماء كانت طيبة جداً فيما عدا عبدالعال حلمي فكان يشكو دائماً من ضيق التنفس ، وكثيراً ما كان يصحو من النوم يصرخ ، فينهض الباقون لإنقاذه . . ولا يعرف أحد على التحديد نوع المرض الذي كان يشكو منه . وعبدالعال حلمي هو أول من مات من هؤلاء الزعماء . . فقد توفي في مدينة كولومبو وله قبر يزوره المسلمون . وعلى مدخل الضريح يوجد اسم عبد العال حلمي .

وفي أثناء الرحلة شكوا عرابي من اللحوم التي تقدمها السفينة .

وسأل إن كانت من لحم الخنزير فقبل له لأنها ليست كذلك .. فسأل إن كانت هذه الأبقار قد ذبحت أو خنقت . . فقبل له لأنها مخنوقة . . وامتنع عرابي عن تناول اللحوم هو وكل ركاب السفينة . .

وقبل أن تصل الباخرة إلى سيلان كانت صحيفة «الأوبزرفر» السيلانية الأسبوعية قد نشرت مقالاً شنيعاً في ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨٢ هاجمت فيه عرابي وثورة عرابي . وفي اليوم التالي أعلنت الصحيفة أن الباخرة التي تنقل عرابي قد غادرت مياه السويس في ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٢ وأنها ستصل إلى ميناء كولومبو يوم ١٠ أو ١١ يناير سنة ١٨٨٣ .

وأنقل كلام نفس الصحيفة - وهي المصدر الوحيد - بتاريخ ١٩ يناير ١٨٨٣ :

بدأ الناس يفدون من كل أنحاء الجزيرة . . معظمهم جاء من مدينة كاندي . . جاءوا ومعهم أطفالهم ونسائهم ، ومعهم حيواناتهم . . لأنهم جميعاً يحملون بروية البطل عرابي . . ويسمونه أحمد عرابي المصري .

وفي يوم ٢٠ يناير كتبت نفس الصحيفة : ظهرت في الأفق من بعيد الباخرة التي تقل الثوار المصريين وفي مقدمتهم أحمد عرابي ، ويبدو أن الباخرة لن ترسو على الشاطئ قبل الكشف على صحة الباشوات ، وعلى ذلك فلن يتم نزولهم إلى الشاطئ قبل صباح اليوم التالي . . وعلى المسلمين في الجزيرة أن يستحضروا من جديد مبادئ الدين الإسلامي ، فهو الدين الذي يدعو إلى الصبر والكفاح .

وأنقل الآن الوثيقة الوحيدة في العالم التي تصف كيف تم نزول الزعماء إلى ميناء كولومبو . . إنني أنقل عن صحيفة الأوبزرفر أيضاً :

« اقتربت الباخرة من الشاطئ . لا شئ غير عادي عليها ، كل ما هناك هو بعض العساكر المصريين بملابسهم الزرقاء ، وبعض بحارة الباخرة . . والشئ غير العادي هو الموجود على الشاطئ . . الناس يقفون على أطراف أظافرهم . . أرى الآن أن أحد الزوارق قد ابتعد عن الشاطئ وكان عليه بعض كبار الضباط البريطانيين ، صعدوا إلى الباخرة . وأقاموا فيها حوالي ساعة ونصف ساعة . . ولا بد أنهم تحدثوا إلى عرابي وإلى الزعماء . . أما لماذا طال الوقت فلأن أحداً من الزعماء لا يعرف اللغة الإنجليزية . . ولا بد أن الضباط البريطانيين قد طمأنوهم على الحياة هنا » .

وقالت الصحيفة : وقد صعد مراسلنا إلى ظهر السفينة وقابل عرابي . . وهو يسجل أن عرابي يبدو عليه أنه إنسان طيب وأن السباحة واضحة في وجهه وله ابتسامة فيها بساطة وفيها كبرياء أيضاً . . ويبدو من كلامه وحركاته أنه إنسان من السهل أن تحبه . . والزعماء قد سألوا المراسل عن الحياة في الجزيرة وعن مستوى المعيشة ، إن هذا يدل على أن الزعماء السبعة قد وطنوا أنفسهم على الحياة في الجزيرة واستسلموا للأمر الواقع !

وكتبت صحيفة الأوبزرفر في ٢١ يناير سنة ١٨٨٣ تصف نزول الزعماء فقالت بالحرف الواحد : لقد كانت الحماسة أمس بالغة . . وارتفعت اليوم إلى أقصاها . . فقد هز القلق الناس بدرجة غير معقولة وكل واحد منهم يريد أن يرى الزعيم المصري عرابي . . المسلمون أكثر المتفرجين قلقاً . . وكانت الساعة المحددة للنزول إلى الشاطئ هي السابعة ، ولكن البوليس لاحظ أن النزول سيكون عسيراً جداً ، ولذلك طلب من الجماهير أن تبعد عن الميناء وإلا فلن ينزل عرابي بل سيبقى في السفينة .

ومضت الصحيفة تقول : إن أول من نزل إلى الشاطئ كان علي فهمي وأفراد أسرته . . نزلوا في زورق وفي صمت تام والجماهير تهاشم فقد تصوروا أنه أحمد عرابي . وحتى عندما نزل إلى الشاطئ وركب إحدى العربات صارت الجماهير تطارده وهو يبتسم . .

وبعد ذلك وقفت سيدة بجلباب تركي من الحرير الأسود ونظرت إلى الجماهير ثم رفعت النقاب عن وجهها وأعدت النقاب . . لقد كانت بيضاء اللون كأية فتاة أوروبية ملامحها جميلة جداً . . وكانت هناك ثمانى نساء أخريات شقراوات كأنهن أوروبيات . . ثم نزل بعد ذلك محمود سامي ومحمد فهمي ، الاثنان معاً وتخير الناس أيهما يكون عرابي باشا .

أما عرابي باشا فقد نزل من الباخرة في الساعة الواحدة بعد الظهر ، نزل هو وأفراد أسرته وكان عددهم ستة . وهنا هتفت الجماهير . . وهجموا على عرابي يقبلون قدميه ويديه . . وكان الرجل على الرأس كأنه يستقبل مظاهرة في القاهرة أو الإسكندرية . . وأحس الناس بحيرة شديدة هل يمشون وراء عرابي دون أن يروا بقية الزعماء . . أم ينتظرون حتى يروا البقية . . لم يصبر على هذا الامتحان العسير إلا القليلون جداً ، وظلوا يتطلعون إلى بقية الزعماء . . أما الألوف فقد مشت وراء عرابي . .

ثم نزل طلبة باشا وأفراد أسرته وعددهم ثلاثة . .

ونزل يعقوب حلمي باشا وأفراد أسرته وعددهم ١٢ . . ولما تلفت يعقوب باشا إلى الجماهير راح يحييهم ويصافحهم واحداً واحداً . . وظن هؤلاء الواقفون أنه عرابي باشا فأشار يعقوب باشا إلى أن عرابي قد نزل منذ وقت طويل . . وآخر الذين نزلوا إلى الشاطئ كان أحمد فهمي باشا ومعه خمس من بناته ومثلهن من الأولاد . . وكان بادي الحزن والأسى . . وظن بعض الواقفين على الشاطئ أنه مريض . . فتقدم بعضهم يعطيه ثمار جوز الهند ، وكان يقبلها شاكراً . ونزل كل واحد من هؤلاء الزعماء في بيت مستقل . . أما الزعيم عرابي فقد نزل في بيوت متعددة ثم استقر في بيت واحد .

وفوجئ الزعماء بأن هذه البيوت لا يوجد بها أثاث !!

ونشرت صحيفة الأوبزرفر مقالا طويلا تتساءل فيه إن كانت الحكومة البريطانية تعلم ذلك أو أن الاتفاق تم مع حكومة الحديد على هذا كله . . ثم قالت : إن الجزيرة ترحب بقدوم هؤلاء المتمردين ولا مانع عندها من أن تحلى لهم جانباً من مستشفى الأمراض العقلية . . أو تبني لهم بيتاً واحداً على الجدران كالسجون ، واسع النواخذ كالقصور .

ولم يمض وقت طويل حتى علم كل المصريين أن الخديو قد جعل لكل منهم مكافأة يومية قدرها روبية - أى ثمانية قروش بسعر اليوم - كلهم فى ذلك سواء .
وتقول الصحيفة إن مراسلها قابل الزعيم عرابى فى بيته وسأله : وماذا ستصنع بأولادك !

فقال عرابى : سأدخلهم المدرسة .

- ولكن المدرسة مسيحية وعلى رأسها قسيس ؟
- هذا لا يؤثر فى الموقف فأولادى حفظوا القرآن .
- وهناك مدرسة خاصة للبنات .
- هذا أحسن على كل حال
- وهل عندك مانع فى أن المرأة المسلمة يعالجها طبيب مسيحي ؟
- لا مانع .
- وهل المرأة المسلمة تثق فى العلاج الذى يصفه الطبيب المسيحي ؟
- إنها تترك الأمر لضمير الطبيب نفسه .
- وهل للرجل غير المسلم ضمير ؟
- أعتقد ذلك .

وعلق المراسل على ذلك بقوله : ليس عرابى بالرجل الجاهل . ولكنه يعرف كيف يصوغ معلوماته القليلة فى عبارة ترضى البسطاء من الناس . .

وبعد نزول عرابى وزملائه إلى جزيرة سيلان واستقرارهم فى مدينة كولومبو لا نسمع عنهم أية أنباء . ولا نرى أى كلام عنهم فى الصحف . . فقد سكنت صحيفة الأوبزرفر تماماً ، ولم تعاود شتم عرابى إلا بعد أن صدر عفو الخديو عباس حلمى الثانى فى ١١ يونيو سنة ١٩٠١ .

وقد أقام عرابى فى كولومبو حتى سنة ١٨٩٢ فى بيت موجود الآن فى حى بوريبلا وفى شارع أوف كوتا ؛ والبيت كانت مساحته كبيرة جداً لا تقل عن عشرين فداناً . وكان معظم هذه المساحة حديقة واسعة أو على الأصح غابة . . وقد نزلت أشجار هذه الحديقة وأقيمت عليها البيوت . . أما البيت الذى كان يسكنه عرابى فلا يزال كما هو فيما عدا بعض التعديلات التى أدخلت عليه . . فقد

كان للبيت مدخلان : أحدهما يطل على الشارع والثاني لا يزال يطل على الحديقة ..
وقد انقسم هذا البيت الآن إلى قسمين . . القسم المطل على الشارع يسكنه الصحفي
« دفتون مالدريتش » رئيس قسم الأخبار بصحيفة « تايمز أوف سيلان » المسائية
وتوزيعها ٢٠ ألف نسخة . . وقد حضر إلى القاهرة أيام العدوان الثلاثي على
بورسعيد . . ويدفع لإيجاراً شهرياً قدره ٢٠٠ روية أى ١٦ جنيهاً .

وهذا الجانب من البيت مكون من أربع غرف واسعة عالية الجدران . .
والجدران لا تزال سميكة - طوبتان ونصف طوبة - والغرفة التي على يمين الداخل
كان يجلس فيها عرابي ويستقبل ضيوفه . . ثم جعلها غرفة نوم . . وبعد ذلك نقل
غرفة نومه إلى الداخل . . حيث القسم الثاني من البيت الذي يقيم فيه الآن صاحب هذا
البيت الدكتور رولاند فوسيريا طبيب الحميات بالمستشفى الحكومى فى كولومبو .

قال الدكتور رولاند إنه اشترى هذا البيت فى سنة ١٩٢٢ وكانت المنطقة
المحيطة به كلها من الغابات والأعشاب البرية . . وكان يملك هذا البيت رجل آخر
هو أوبسيكا باندرانيكا ابن أخى رئيس الوزراء الراحل باندرانيكا . ثم أدخل
عدة تعديلات على البيت . . فأضاف إليه جراجاً للسيارات . . وعدداً من
الأبواب والنوافذ .

وقال الدكتور أيضاً : إنه سمع عن عرابى باشا ، وكل الذى يعرفه أنه رجل
طيب وأنه كان مشغولاً بالقراءة والصلاة وأنه أحد زعماء المسلمين . . ولكنه لم
يره شخصياً ، ولكنه سمع من والده أن عرابى رجل عظيم . . ووالده لم يتحدث
إليه . . ولكن منظر عرابى يقنعك بأن هذا الرجل بطل من الأبطال .

وقد أقام عرابى فى هذا البيت تسع سنوات بالضبط . واعتلت صحته . وطلب
من السلطات البريطانية أن تأذن له بالسفر إلى الشمال حيث الجو أحسن . وسمحوا له .
ولكن عرابى كان له نشاط فى كولومبو .

فهو الذى دعا إلى تعلم اللغة الإنجليزية . . وكان يحطّب فى المسلمين ويردد
الحديث القائل : من تعلم لغة قوم أمن شرهم ومكرهم .

ولأول مرة يرى الزعيم عرابى الغضب والتمرد فى عيون المسلمين . . إنهم بدأوا
ينشقون عليه . . فقد لاحظ أن الذين يترددون على داره قد نقص عددهم . . فلما

سأل عن السبب قالوا له : دعوتك لتعلم الإنجليزية !!

ورأى عرابي أن يذهب هو إلى بيوتهم . وراح يستميلهم ويقنعهم الواحد بعد الآخر . . واقنعوا به ودعاهم عرابي لإنشاء مدرسة للمسلمين يتعلمون فيها أصول الدين . . وطلب من المسلمين أن يتبرعوا بالقليل من أموالهم لإنشاء مدرسة للتفقه في الدين . . ونجح عرابي في أن يجمع ٢٥ ألف روبية ونجح في أن يأخذ من الحكومة البريطانية مثل هذا المبلغ . وفي يوليو سنة ١٨٩٢ وضع عرابي أساس «المدرسة الزاهرة» التي أصبحت الآن «الزاهرة كوليديج» ولا يزال الجانب الذي أنشئ في عهد عرابي موجوداً حتى الآن وقد أضيفت إليه أجنحة عديدة حتى أصبحت تتسع لألوف طالب .

وأصبح عرابي الرئيس الفخري لهذه المدرسة . . وبين الحين والحين كان عرابي يزور المدرسة رغم أن المسافة بين مسكنه الجديده والعاصمة كولومبو تزيد على المائة كيلومتر من الطرق الجبلية الصعبة . . وترك عرابي في كولومبو جثمان الزعيم عبد العال حلمي الذي توفي في ١٠ مارس سنة ١٨٩٢ . ولا يزال له ضريح يزوره المسلمون . .

* * *

أما يعقوب سامي ومحمد فهمي وطلبة عصمت . .

فقد انتقلوا مع عرابي وأقاموا معه في مدينة كاندي .

أما البيت الذي سكنه عرابي في مدينة كاندي فهو لا يزال قائماً !

إنه في شارع هالولا . وهالولا هو اسم إحدى القرى التي ينتهي بها هذا الشارع . . والبيت مقام على ربوة وكان إيجاره الشهري مائة روبية . . وقد استأجرته السلطات البريطانية من أسرة فيانكا . والبيت من دورين . وهو عبارة عن غرفتين كبيرتين في الطابق العلوي بينهما صالة واسعة . . وهناك سلم خشبي يفضي إلى الدور الأرضي حيث توجد ثلاث غرف . . إحداها كان ينام فيها عرابي والأخرى لزوجته أو لزوجاته .

وقد أقام عرابي في هذا البيت عشر سنوات . .

وكان في مدينة كاندي بيت آخر يقيم فيه محمد بك وهو أكبر أبناء عرابي ويقال إن زوجته كانت سيدة من سيلان . وكانوا يسمونه الباشا الصغير . . وفي مدينة

كاندى توفى محمد فهمى فى يوليو سنة ١٨٩٤ ، واندرثرت الآن معالم قبره . .
وقد شاهدت هذا القبر فى مدينة كاندى . . وبعد ذلك توفى يعقوب سامى
فى أكتوبر سنة ١٩٠٠ ودفن بجوار محمد فهمى . .

وبدأت بعد ذلك السنوات المريرة فى حياة عرابى باشا . . وأصبح بياض
شعره كالثلج ، بل وديناه كلها صارت بيبضاء مهمة فقد ضعف بصره . .
وفى سنة ١٩٠٠ أفرج الخديو عن طلبة باشا ، فعاد إلى مصر ومات بعد خمسة
شهور . . ومحمود سامى البارودى فقد بصره نهائياً وعاد إلى مصر . ومات
فى ديسمبر سنة ١٩٠٤ . . وبقي على فهمى وعرابى معاً . .
ورحت أفتش فى مدينة كاندى عن الذين عرفوا عرابى . . أو عرفوا أولاده ،
معظم الناس سمعوا عنه ولم يروه .

قابلت شرى جورو وهو سمسار متقاعد فى الثالثة والسبعين من عمره وقال لى
إنه رأى عرابى باشا . وكان رجلاً ضخماً طويلاً ممتلئاً . . إنه نوع غريب من
الناس لم يكن مألوفاً بالنسبة لهم . . فالناس يمشون إلى جواره وكأنهم أقزام . . وكان
عرابى باشا يركب حصانه وينتقل بين الشوارع ويخرج إلى الجبل أو يزور بعض
أصدقائه . .

وقال شرى جورو إن أولاد عرابى كانوا زملاءه فى مدرسة سانت بول . .
كانوا ثلاثة أو أربعة . . إنه لا يذكر على التحديد . . وكانت أشكالمهم تلفت
النظر . . فقد كان لونهم أبيض . . وكانوا منعزلين . . ولا يتحدثون إلى أحد .
وسألنى إن كنت أعرف أحدهم الآن فقلت له أعرف أحدهم هو المرحوم
عبد السميع وكنا نعمل فى جريدة الأهرام معاً وقد توفى منذ سنوات . .
وسألنى : هل كان أبيض اللون ؟!

قلت : لا .

قال : أنا لا أعرف هذا . . ولا بد أنه ولد بعد ذلك . فقد كان عرابى
متزوجاً من عدد من نساء سيلان . . وكن صغيرات فى السن جميعاً .

أما صاحب البيت الذى يسكنه عرابى فهو « فيما نيكا » الأب وكان صديقاً
لعرابى . . وبعد سفر عرابى إلى مصر قرر صاحب البيت وهو من أغنياء كاندى

ومن أصحاب مزارع الشاى أن يحتفظ له باسم عرابى .. ولا يزال اسم عرابى مكتوباً
بالإنجليزية على جانب الربوة التى أنشئ عليها . . الاسم هو «عرابى هاوس» .
وقد توفى فيمانيكا الأب . وورث البيت ابنه الدكتور فيمانيكا الذى مات
سنة ١٩٥٦ . . وأرملته تعيش الآن فى لندن . . وقد زارت الجمهورية العربية
فى سنة ١٩٥٨ . .

وأهدت سفارتنا فى سيلان علبتين من الشوق كان يستخدمهما أحمد عرابى .
ولا يزال الطابق العلوى من هذا البيت مقفلاً . . فقد أمرت السيدة بإقفاله حتى
تعود . . وقد علمت من أخت زوجها التى تقيم الآن فى كولومبو بشارع هوجز
كورت رقم ١٤ . . أن فى هذه الغرفة المقفلة صوراً للزعيم عرابى وبعض الأدوات
والملابس التى كان يرتديها ، وأن زوجة أخيها احتفظت بهذه الآثار تنفيذاً
لوصية زوجها الدكتور فيمانيكا .

وقالت لى أخت الدكتور فيمانيكا : إنها تذكر بوضوح عرابى باشا . .
لأنه لم يكن يتحدث إلى أحد . ولكنه عملاق وضخم وأنه كان يركب الحصان وأن
الناس كانوا يحترمونه جداً . . وأن هذا الشارع كان معروفاً فى أيام عرابى باسم
عرابى . . وأنها تعلم أن أحد أولاده كان يسكن بالقرب منه .

وقالت لى : إننى أذكر واقعة واحدة . . أذكرها لأننى رأيت فيها لأول
مرة المرأة المصرية . . فقد رأيت سبعة منهن أو أكثر . وكن جميلات ولونهن
أبيض وعيونهن جميلة . . هذا اليوم احتفل فيه عرابى «بطهور» أحد أولاده . .
وقد ذهبت أنا وأختى إلى بيت عرابى . . ورأيت المصريين والمصريات . وقد
جلست النساء فى الطابق الأرضى . . ولم أر زوجة عرابى . وسمعت فى ذلك الوقت
أن له زوجة بيضاء . وأنه تركها فى القاهرة ، وأنه تزوج من بنات سيلان ، ولا
أحد يعرف كم عددهن . . وأنا أعلم أن المسلمات يرين فى زواج شخصية مثل
عرابى باشا من إحداهن شرفاً لكل أسرته . .

وقال الصحفى محمد رفيق نائب رئيس تحرير الأوبزرفر أيضاً ، إن جده
كان صديقاً لعربى باشا . . وإن تاريخ حياة جده هذا قد سجله على فؤاد طلبة ابن
طلبة باشا فى كتابه عن «سيلان الساحرة دائماً» وأنه عندما مات جده كان عرابى

باشا في مقدمة المشيعين . وأن المسلمين رأوا في هذا شرفاً عظيماً . . وكانت هذه هي آخر مرة يرى الناس فيها عرابي باشا . .

وقال لي محمد رفيق : إن عرابي باشا هو الذي أدخل الطربوش في الجزيرة . وأنتى سمعت من والدي أن أحداً لم يكن يلبس الطربوش قبل عرابي . . وأن عرابي هو الذي أدخل البنطلون الأبيض أو السروال إلى الجزيرة .

وقال أيضاً : إن عندهم طاهية في البيت هي ابنة الطاهية التي كانت تعمل في بيت عرابي . . وأن هذه الطاهية لا تزال حتى الآن تقدم أطعمة غير مألوفة في الجزيرة من بينها الكتافة والقطايف والغريبة والبادنجان والقوطة المحشوة . . وتصير الطاهية على تقديم هذه الأطباق لأنها تحية للزعيم الذي يجب هذه الأطعمة وكان يطلبها من أمها دائماً . .

أما الطاهية العجوز نفسها فليس لديها إلا الدموع . . وهي ترفض أن تتحدث عن عرابي باشا .

والكلمات القليلة التي سمعتها منها معناها : أن الناس هم الذين قتلوا عرابي . . وأن القتلة هم هؤلاء المسلمون . . فلو كانوا أقوياء لطردهوا الإنجليز من مصر ومن الجزيرة . . وأن المسلمين كانوا يتزاحمون على عرابي . . ولكن عرابي كان يتأوه آخر الليل دون أن يشكو لأحد . .

والكلام الذي فهمته منها أن عرابي في آخر أيامه كان قد يشس . . ولم يمنعه من فقدان الأمل ، إلا إيمانه بالله وبعدالة قضيته . .

وفي أيامه الأخيرة كان نتحدث عن قرب سفره إلى مصر . . ولم تكن لدى عرابي معلومات محددة عن سفره ، ولكنه شعور يتردد في نفسه . . وكان أصدقاؤه يستمعون إليه وهو يتحدث عن حنينه إلى الوطن ويشفقون عليه . وكان عرابي يقول دائماً : أريد أن أموت في بلدي ، وأن أدفن في الأرض التي دافعت عنها . وقد ساحت كل الناس وعفوت عنهم . .

وأصدر عباس حلمي الثاني قرار العفو عن عرابي وعن علي فهمي . . وأحس عرابي بالسعادة . وكان يتحدث دائماً عن الوطن والعودة ، وأن الله لم ينجيب أمه . وأن الله قد حقق له الشيء الوحيد الذي يريده . .

وواجه عرابي مشكلة لم تكن في حسابه . .

لقد صدر قرار العفو ولكنه لا يعرف كيف يعود إلى مصر . . فليس معه مال . .
وقالت صحيفة الأوبزرفر : أما السفر إلى مصر فليس هناك اعتمادات مالية
لذلك . . والحكومة لم تتخذ بعد قراراً في هذا الشأن والفرصة أمام المسلمين سانحة
ليبدو إعجابهم وعظفهم على الزعيم أحمد عرابي بصورة عملية مالية !
وسافر عرابي باشا على الباخرة الألمانية « برنيسس إيرين » في ١٨ سبتمبر
سنة ١٩٠١ ووصل إلى السويس في أوائل أكتوبر واتجه بالقطار إلى القاهرة .
إلى النسيان ويموت في ٢١ سبتمبر سنة ١٩١١ نسياً منسياً !

وقبل أن يغادر عرابي سيلان ، ذهب إلى المدرسة الزاهرة التي أرسى أساسها
وغنى له الطلبة - وهو يبكي - نشيدهم الساذج الطيب . .
وعندما استقل عرابي الباخرة التف الناس حوله . . وعندما تقدم ابنه محمد بك
طوقوا عنقه بالزهور . وبكى الناس . بكى النساء والرجال . ودخل عرابي غرفته
وراح يبكي . ولأول مرة منذ شهر نام عرابي واستغرق في اليوم .

* * *

وهناك مشروع وافق عليه الرئيس جمال عبد الناصر بشراء بيت عرابي الموجود
في كاندي وتحويله إلى متحف أو مكتبة أو مكان سياحي . .
ومشروع آخر لبناء نصب تذكاري للزعيمين اللذين ماتا في كاندي وهما
يعقوب سامي ومحمد فهمي ، وأن الاتفاق تم مع حكومة سيلان على أن تعطينا
قطعة أرض في كولومبو ، في مقابل قطعة أرض أخرى في القاهرة تبنى عليها سفارة سيلان .
وقال لي السناتور عزيز عضو مجلس الشيوخ ومدير « الكلية الزاهرة » إن لديه
مشروعاً لبناء جناح جديد في الكلية التي أنشأها عرابي . وأنه طلب من الجامعة
العربية مساعدته مالياً . وأن الجامعة وعدته بذلك .
ومن المنتظر أن ينقش حجر الأساس في القاهرة ويرسل إلى كولومبو .

* * *

إن قصة عرابي لم تكتب بعد . . إن المئات من صفحاتها مكتوبة باللغة
السنهالية ، لغة أهل سيلان . والقليل جداً مكتوب بالإنجليزية . والكثير جداً مات
مع أبطال هذه القصة .
لقد مات عرابي مؤثماً بأن دمه لن يضيع هباء . لقد انتقم مواطنوه له . .
فبعد أربعين عاماً من وفاته خرج الإنجليز من مصر ومن سيلان !



● بلاد السمك

حدث انقلاب على مسافة ٤٠٠ كيلومتر من كولومبو . ولا أحد يدري به مع أنه يهمننا جداً . فالذين قاموا بالانقلاب جماعة من المسلمين . أصلهم عربي . ولا يوجد في بلادهم أجنبي واحد . ولا توجد كلاب أيضاً . ثم يوجد بهذه البلاد ضريح واحد . صاحب الضريح هو الرجل الذي حمل الإسلام إلى هذه البلاد واسمه أبو البركات البربري . واسمه مكتوب على الضريح . ومكتوب أيضاً اسم الملك الذي أسلم على يديه . . فأسلم كل الناس . عملاً بالعبرة التي تقول : الناس على دين ملوكهم !

البلاد التي أتحدث عنها اسمها جزر المالديف . .

ولا أدعي أنني سمعت بهذه الجزر في حياتي ، وفي المرة الوحيدة التي رأيت فيها اسم هذه الجزر على خريطة آسيا ظننت أن المالديف هو اسم الرجل الذي قام بتصميم الخريطة !

وجزر المالديف عبارة عن مجموعة جزر صغيرة يبلغ عددها أثنى جزيرة . . مقسمة إلى ١٨ مجموعة . . ومعظم هذه الجزر في حجم جزيرة الزمالك . والأرض جزيرية بيضاء مغطاة بأشجار جوز الهند وأشجار المناطق الاستوائية . . فنحن هنا طبعاً في منطقة استوائية دائمة الحرارة والرطوبة والأمطار .

وأهل هذه البلاد يعيشون على صيد السمك ، وخصوصاً التونة ، والسمك يصدرونه إلى جزيرة سيلان . وهم مرتبطون بها ارتباطاً حيويًا . ويدينون لهذه

الجزيرة بالكثير من الفضل خصوصاً في إبان الحرب العالمية الثانية عندما ضربت غواصات اليابان زوارق صيد السمك والسفن التي تحمل السمك وكاد الناس يموتون جوعاً . وعازت سيلان أهل المالديف وعددهم مائة ألف نسمة . ومعظم أبناء المالديف من أصل سيلاني . حتى اللغة المالديفية خليط من اللغات الأردنية والسنيالية والسنسكريتية والعربية أيضاً .

وكلمة مالديف - معناها جزيرة السمك . فكلمة مالد : معناها سمك وديف : أصلها « ديب » أو « ذيب » ومعناها جزيرة . والكلمة كلها سنسكريتية . وكان ابن بطوطة يسمى هذه الجزر باسم جزر ديب المحل . . أو ذيبة المحل أو محل ديب . .

وإبن بطوطة الرحالة المغربي قد زار هذه الجزر في سنة ١٣٤٥ وأقام بها عاماً واشتغل فيها قاضياً . ولم يعجبه في نساء المالديف أنهم يمشين عاريات الصدر . وقد تزوج من بنات المالديف وحجب امرأته عن عيون الناس . وبعد ذلك سافر إلى سيلان .

واللغة التي يستخدمها أبناء المالديف يكتبونها هكذا : جزر . . ال م ال دى ف . . زارها بن بطوطة . . وزارها . أبو البركات البربرى . . فهم يكتبون الكلمات بحروف متفرقة . أما أسماء الناس وخصوصاً الأسماء العربية فإنهم يكتبونها كما هي . بنفس الشكل . وقد قابلت في مدينة كولومبو أحمد حلمى ديدى .

وهو السفير الوحيد لجزر المالديف في سيلان وفي العالم كله . والرجل ملئ الجسم أسمر وكل ملامحه هندية أو سيلانية وشعره أسود . . ويتكلم الإنجليزية . والمكتب الذى زرت فيه ، هو مكتب السفارة . . أو السفارة . وفي المكتب أناس كثيرون . . رجال ونساء وصوت آلات كاتبة وخريطة لهذه الجزر .

وعندما جلست إلى السيد حلمى ديدى . . وهو من الأسرة التي تحكم المالديف . فالملك اسمه السلطان ديدى . وكلمة ديدى غير معروف معناها بوضوح . وإن كان يقال : إن كلمة دى معناها يعطى . فربما كانت كلمة ديدى معناها الرجل الكريم .

والمالديف تخضع لنظام ملكي منذ ثمانية قرون . وقد تحولت إلى النظام الجمهورى سنة واحدة ، وبعد ذلك عادت إلى النظام

الملكي . ومن المنتظر أن تعود إلى النظام الجمهورى للمرة الثانية بعد استفتاء شعبي ينهى حكم السلطان ديدى وأسرته .

أخبرنى السيد حلمى ديدى أن أحد التجار قام بانقلاب ضد الحكومة . وأنه جمع عدداً من الرجال وأعلن استقلال جزر المالديف . أو بعض هذه الجزر . وطالب الأمم المتحدة بالاعتراف بالدولة الجديدة . ويقول : إن الإنجليز وراء هذا التاجر الجاهل الذى اسمه عبد الله عفيف . والذى يناصره فقط أبناء جزيرة واحدة مساحتها عشرة كيلومترات مربعة وعدد سكانها ستة آلاف نسمة .

* * *

وقد استولى البرتغاليون على هذه الجزر . ولكن أهل المالديف طردوهم . . . ولهم معارك مشهورة .

ومتاعب هذه الجزر بدأت بالفعل سنة ١٨٨٧ عندما تعاقبت بريطانيا مع السلطان معين الدين ديدى . وتقضى هذه الاتفاقية بأن تتعهد حكومة الملكة فكتوريا بالدفاع عن هذه الجزيرة ضد العدوان الأجنبي . .

وفى سنة ١٩٤٨ تجددت المعاهدة بين إنجلترا وجزر المالديف ، فتعهد الملك جورج السادس بالدفاع عن هذه الجزر ، ثم طلب من السلطان أن يأذن له باستئجار إحدى الجزر لتقيم عليها الإذاعة البريطانية لإحدى محطات الإرسال فى هذه المنطقة من جنوب آسيا . . وقد أقامت بريطانيا أخيراً مطاراً هائلاً على إحدى الجزر واسمها جزيرة جان فى مكان متوسط بين عدن وسنغافورة . فالمطار يبعد ألفى ميل عن كل منهما . .

أما الإيجار الذى تدفعه إنجلترا عن هذه الجزيرة فهو مبلغ ألفى جنيه استرليني . وفى سنة ١٩٥٣ جددوا المعاهدة وكانت حكومة المالديف جمهورية فى ذلك الوقت بسبب اضطرابات داخلية . . وعلى أثرها عاد النظام الملكى فجدد البريطانيون المعاهدة مع الدولة الملكية الجديدة . .

وما قاله لى السفير ديدى إن أهل الجزيرة التى استقل بها عبد الله عفيف هذا قد عانوا الشقاء والبؤس ، ومعظمهم هرب إلى جزيرة ماله ، وهى الجزيرة العاصمة وأخيراً قام السلطان على رأس قوة من البوليس من ٥٠ رجلاً - قوة البوليس كلها

٣٠٠ رجل - واستطاع أن يحتل مجموعة جزر سودوا التي كانت قد أعلنت انفصالها واستقلالها التام عن بقية الجزر .

ولم نعد نسمع شيئاً عن هذه الجزر ولا عن ثورتها . .

وفي الأيام الأخيرة حين قام عفيف هذا بمحاولة عمل انقلاب آخر ، كان من الواضح أن البريطانيين وراء هذا الرجل . ولكنه أمام ضغط الشعب وأمام إصرار الناس على موافقهم من هذا الرجل ، نقله الإنجليز إلى جزر سيشل ، كان في نية عفيف هذه المرة أن يفسد الاستفتاء الشعبي الذي يجري لانتخاب رئيس جمهورية جديدة للمرة الثانية . .

* * *

وقد فوجئت بوجود خمسة من أبناء المالديف يدرسون العلوم الدينية في القاهرة . ولاحظت أن واحداً منهم يحمل لقب ديدى . ولكنه أخفاه وتستر عليه . كأنه عار أن يكون واحداً منتسباً إلى الأسرة التي كانت مالكة . مع أنه لو أبقى هذا اللقب على ما هو عليه ، فإن أحداً في مصر لا يدري به . . ولكن يبدو أن هذا هو شعوره أمام زملائه الأربعة .

وعرفت من هؤلاء الشبان الخمسة أنهم عندما يعودون إلى بلادهم سيتولون مناصب القضاء .

ونبهني هؤلاء الشبان إلى أن الدكتور حسين فوزى قد كتب عن جزر المالديف . وأعجب بها جداً . لولا أنه تندر عليهم بعض الوقت . وهم لم ينسوا له هذه العبارات الساخرة التي أطلقها على البلاد - عفا الله عنه - . . وطلب العفو له ليس من عندي ، ولكن من عند هؤلاء الشبان الخمسة !

وقد روى لي الدكتور حسين فوزى أنه أعجب جداً بهذه الجزر وأنها جنة الله في أرضه . وأنه يتمنى لكل إنسان ، لو استطاع ، أن يزور اللجنة العائمة . وأخبرني الدكتور حسين فوزى أنه روى للملك السابق أحمد فؤاد أن سلطان المالديف له طريقة خاصة في حل أية أزمة وزارية . وقال : إن الملك فؤاد سأله

بلهفته العربية المكسرة : فيه كمان أزمت وزاريات في جزر امالديف ؟ فقال له نعم . وسأله وكيف يفعل السلطان بالوزراء . .

وضحك عندما أخبره الدكتور حسين فوزى أن السلطان يضع الوزراء في زورق ويأمرهم بالرحيل بعيداً عن البلاد . وكان الملك فؤاد في أزمة وزارية وأعجبه الفكرة ولم يتمكن من تنفيذها .

ولئما نفذت في ابنه فاروق بعد ذلك !

ومنذ أيام قرأت أن ماء المحيط قد أغرق بعض هذه الجزر . ويقال أغرق ٧٠٠ جزيرة . وحرصت وكالات الأنباء على نشره على أوسع نطاق . . ولكن لإغراق مثل هذه الجزر لا يعتبر خبيراً . . لأن الخبر أن الماء سوف ينحسر عنها بعد أيام لأنها لعبة الماء مع الجزر من ألوف السنين !



● أرخص بلد في الدنيا

(١)

أجمل مدينة رأيتها حتى الآن هي سنغافورة . . إنها جزيرة عدد سكانها مليون ونصف مليون ومساحتها ٢٠٠ ألف فدان ولها حكومة يرأسها حاكم صيني . . . فقد استقلت أخيراً . .

والوزارة كلها من الصينيين لأن عدد الصينيين هنا مليون والباقيون من أبناء الملايو والهنود وجاليات أجنبية أخرى . .

المدينة حلوة نظيفة فيها كل ما يتمناه عروسان من هدايا وعطور وفسحة . المحلات التجارية هنا ممتلئة جداً . إنها محلات بكرش . وكروشها طالعة ليرة . . الأسعار رخيصة جداً . . شنطة اليد من جلد الثعبان ثمنها ستة جنيهات ، زجاجة العطر التي تباع في القاهرة بعشرة جنيهات ثمنها هنا خمسون قرشاً . البلوزات والجيبات والراديوهات الصغيرة كلها تباع هنا على عربات اليد كما يباع الترمس والبقول السوداني . .

والقمصان التي يلبسها الشبان هنا تظهر على أجسام الأغنياء عندنا أو بعض الطيارين فقط . أما ملابس النساء في غاية البساطة والجمال . .

والذي يدخل محل « جون ليتل » أو « روبنسون » هنا يفقد عقله على مدخل أى واحد من هذين المحلين . . وقد كنت أتصور في يوم من الأيام أن بيروت

هى المدينة الوحيدة التى يجد فيها الإنسان كل شئ وبيروت فعلا بها كل شئ إلا شيئاً واحداً هو : الرخص . .

الأسعار هنا رخيصة جداً والسلع الموجودة هنا كثيرة جداً . .

الحقيقة أن أول يوم نزلت فيه إلى الشوارع أحسست بدوخة وأنى أخطأت الطريق إلى سنغافورة . وأنه كان يجب أن أمر على البنك الأهلى أولاً ، وبعد ذلك أجيء هنا ، ما الذى تريده . . هل تريد أن تضحك ، موجود أماكن الضحك واللهاو كأية عاصمة فى العالم . . كباريس ولندن بل وتوجد هنا « سينيراما » وهى ليست موجودة حتى فى أوربا . . وموجودة هنا كباريات لا يمكن حصرها . . وتوجد فتيات جميلات من كل بلاد الدنيا والمثل الذى يقول : لبس البوصة تبقى عروسة ، هذا المثل طبعاً ليس دقيقاً وإنما من رأى أن يكون المثل هكذا : لبس العروسة تبقى عروسة لبس البوصة تبقى بوصة . .

وكان من عادتي عندما أنام أن أفعل باب غرفتي وأنام وأفعل الحقيبة الكبيرة التى معي . . ولكن بعد أن رأيت هذا الذى بهرنى وقهرنى فى سنغافورة تركت باب الغرفة مفتوحاً وتركت الحقيبة مفتوحة وكتبت ورقة للخادم أقول فيها : وحياتى أبوك ما عندكش طريقة أتخلص بيها من الكراكيب اللى أنا جايها معايا .

طبعاً القميص الذى يلبسه الخادم يباع عندنا بثمان مرتفع . . وكذلك الحذاء الإنجليزى الذى يلبسه . . والساعة الزنيت التى فى يده . . وقلم الباركر ٦١ فى جيبه . . ومنظار شمس أمريكانى . . غير الأشياء الموحدة عنده فى البيت . . ولا بد أنها تجنن .

لأنها مدينة رائعة بلا شك .

بلد على هيئة جزيرة . . من أية ناحية أنظر من الفندق أرى الماء . . ومن بعيد أرى جزراً صغيرة . . أما فى الميناء فهناك مئآت السفن . . ومن هذه السفن تدخل خزنة المدينة مائة مليون جنيه سنوياً .

وسكان الجزيرة من أبناء الصين . والصينيون فى غاية النشاط والنظافة والبساطة .

والرجل الصيني لا يتعب من العمل وذكى ويرغمك على أن تشتري منه بأى شكل ..
والفتيات الصينيات يعملن أيضاً . وأعتقد أن للفتاة الصينية سحراً خاصاً .

* * *

تناولت طعام الغداء مع فتاة صينية جاءت من أندونيسيا تزور أقاربها هنا
وسألتها : لاحظت أنك تأكلين الكثير جداً من الأرز . فهل يا ترى أنت كل
يوم كده ولا النهارده بس ؟

قلت : ليه .

قلت : يعنى سؤال كدة ..

قالت : كل يوم : لا بد أن شكلى فظيع وأنا ألتهم الأرز .

- أبدأ .. ولا فظيع ولا حاجة .. دا شكلى أنا وأنا با أتفرج عليك .

- ليه ...

- إذا كنت بتأكلى الكميات دى كلها .. امال مش باين عليك ليه ؟ ..

وفعلاً لا يبدو عليها أنها تأكل على الإطلاق .. كأنها لا تشرب ولا تتنفس

ولا تنام .. مختصرة جداً .. وليست هى وحدها ولكن ٨٠٪ من بنات الصين

هكذا .. يبقى خلقة ربنا بقى !

سألها : ما هى وسائل الإغراء عندكم ..

قالت : إزاي .. من فاهمة ..

- يعنى إذا كانت الواحدة منكم لابسه بيجاما ليلاً ونهاراً .. والرجل يرى

ملاحظها بوضوح جداً .. فما الذى لا يراه الرجل ويحاول أن يجرى وراءه ولا يناله

إلا بالزواج .

- مش فاهمة ...

- إزاي بقى .. يعنى مفيش حاجة فى جسمك مستخينة عن عين الرجل .

- إن الرجال لا ينظرون هكذا .

- « هكذا » : يعنى إيه .. يعنى زى أنا .. هو أنا بصيت إلا وأنا بأكلمك

دلوقت . لا صحيح .. عاوز أعرف .

تفتكر إن البدائين اللي عايشين عرايا لا يتزوجون ..

— طبعاً يتزوجون كده بالغريزة . كالحوانات تماماً . دون أن تكون هناك وسائل للإغراء أو الفتنة .

— لازم الإغراء عندكم . . .

— عند كل الناس . . . طيب إنت لابسه كويس كده ليه . . . وقفت قدام المرايا قد إيه ! ليه علشان إيه ! مش علشان الرجالة ! أنت مكسوفة . هو أنت لوحده . كل البنات كده .

— قصدك أن الفتاة الصينية لا يمكن مقاومتها . . .

— رأي مفيش داعى . . . لأننى أضعف أمام الفتاة الصينية . . . ولا أقوى على مقاومة أية فتاة جميلة بالصين أو باليابان . . .

— أنت تفرجت على المحلات التجارية هنا . . .

— بعضها .

— شفت البائعات .

— آه . . . جميلات . . . يعنى مش كفاية البضائع لازم كان البائعات . . .

البضائع لا يمكن مقاومتها فما بالك إذا كانت البائعات جميلات أيضاً .

— تحب تشترى حاجة . . .

— أبداً . . .

طبعاً لا يمكن أن اشترى قلم رصاص فأنا فى منتصف الرحلة وما زال أمامى أكثر من ١٥ ألف ميل وبعد ذلك أمامى ٣٠ ألف ميل أخرى إلى القاهرة . . . لا يمكن أن اشترى شيئاً ولا أضع فى حقائبى أى شئ . . . إننى أكره « الشيلة » الثقيلة حتى لو كانت أجمل فتاة صينية .

لقد تعودت هذه الأيام أن أترك باب غرفتى مفتوحاً وباب حقيبتى مفتوحاً وباب قلبى مفتوحاً . . . اللعنة على المقاتيح فليس فى الدنيا أحسن من حياة بلا مفاتيح ولا أقفال !

(٢)

وسنغافورة معناها مدينة الأسد ولها قصة غريبة . . فقد اشتراها ضابط
إنجليزي بخمسة آلاف جنيه من سلطان جوهور منذ ١٤٥ عاماً . والضابط الإنجليزي
اسمه رافلس ، وكان يبحث عن قاعدة بريطانية يضرب منها الهولنديين . . وقرر
رافلس أن يجعل هذا الميناء حراً ، تدخله كل البضائع وكل الفلوس بجميع ألوانها .
وما زالت سنغافورة حرة ، وما تزال فيها كل فلوس هذه المنطقة .

واسم رافلس هذا في كل مكان له ميدان ورصيف وشارع . . والمكان
الذي هبط إليه بالجزيرة فيه تمثال للرجل الذي اشتراها لحساب الإمبراطورية
البريطانية .

الساعة الثالثة صباحاً أقف أمام الفندق الوحيد الذي وجدت به فرقة خالية
فينهض من فوق إحدى المناضد خفير الفندق . . ويفتح باب كبير وتضاء الأنوار
وأمد يدي إلى أحد الدفاتر الكبيرة وأجبل اسمي والجهة التي قدمت منها وجنسيتي
وعدد الأيام التي سأمكنها في الفندق . .
قلت للبواب : أوضة كويسة .

« يهز رأسه » .

فيها تكيف ؟

— وفيها مروحة أيضاً . . وبسريرين ؟

— وسريرين ليه بقى ؟

— مفيش غيرها . . ولدة يوم واحد . .

— وبعدين ؟

— بكرة تبحث لك عن فندق آخر .

— كده . . طيب أعمل إيه بالسرير الثاني ؟

— « يهز رأسه » ضع عليه الشنط .

— دى شنطة واحدة . . .

— (يهز رأسه) أبعث لك شنطة أخرى تضعها إلى جوار شنطتك . . .

- طيب شيلوا السرير ده . . وتبقى أوضه بسرير واحد . .
- إذا شلناه نحسبها بسريرين برضه . . هي كده .
- بقى من رأيك أنى أوجر الأوضة من بطنى . .
- « يهز رأسه » .

- وعلى كده أدفع فيها كام .
- ٢٨ دولاراً . . .

- إيه ٢٨ كام . . دولار إيه . .
- دولار ملايو . . يعنى حوالى أربعة جنيهات استرلينية . .
- يعنى لازم بكرة أفطر وأتغدى وأتعشى هنا . . مش معقول . .
- على حسابك .

- يعنى إيه . .
- ٢٨ دولاراً . . نوم فقط . . والأكل على حسابك . .
- ليه بقى ماتخلى النوم على حسابي كمان . .

- الدور الرابع أودة ١٠٢ . . تصبغ على خير « بالإنجليزية » .

وصعدت إلى الدور الرابع . . ورأيت غرفة واسعة جداً وسريرين وتليفوناً
وجهاز تكييف وميكروفوناً إذا أردت أن أستمع إلى موسيقى الروف جاردن .

ونزعت ملابسي وتمددت على السرير أفكر في الفندق القادم . . ومددت
يدى إلى « دليل سنغافورة » ورحت أبحث عن الفنادق الأخرى . . ووجدت
صفحتين كلهما عن الفنادق وأوصافها وأسعارها ، وقرأت عن الفندق الذى نزلت
به فوجدت أن السعر ليس ٢٨ دولاراً كما قالى لى البواب . . إن السعر هو ٣٢
دولاراً لأن غرفتى بحمام وماء ساخن وبارد . . وأن الفندق يبعد عن مدينة سنغافورة
حوالى ثمانية كيلومترات .

ومددت يدى إلى المصباح لكى أطفى النور فوجدت ورقة صغيرة أنيقة
موضوعة على السرير مكتوباً عليها : أهلا . . أهلا . .

فألقيت بها على الأرض فى حركة عصبية يائسة وانقلبت الورقة على الوجه

الآخر وكان مكتوب عليها أيضاً : أهلا . . أهلا . .

بعبارة أخرى : يعنى أنفلق !

(٣)

وفي الصباح قابلت السيد إبراهيم عمر السقاف من أغنى أغنياء سنغافورة . . يقولون إنه يملك مئآت الملايين . وله عمارات في القاهرة من بينها عمارة الإبراهيمية على الكورنيش أمام سينما الجزيرة . . وكل أفراد أسرة السقاف جاءوا من حضرموت وتفرقوا في البلاد . وفي الحجاز والعراق وأندونيسيا والملايو وفي الجمهورية العربية المتحدة . وغير معروف على التحديد مصدر ثروتهم الهائلة . . وإذا قابلت أي فرد من عائلة السقاف قال لك إنه ورث هذه الثروة عن والده . . ووالده من أين أتى بها . أتى بها عن والده أيضا ، وهذا صحيح فعندهم أربعة أجيال على الأقل من الأغنياء جدا .

والسيد إبراهيم السقاف رجل نحيف قصير القامة . . يعمل الآن قنصلا فخريا لجمهورية العراق . . وهو يتحدث اللغة العربية بلهجة أهل الحجاز . ويتحدثها بشبه مفتوحة لأنه لا يجد أحداً يتحدث إليه . فأبناؤه لا يعرفون العربية وإنما يتحدثون الإنجليزية أو الملاوية .

حدثني السيد إبراهيم السقاف فقال إنه كان يملك إحدى الجزر . وهي أكبر من سنغافورة وهي قريبة جدا من سنغافورة لا تبعد أكثر من عشرين كيلو مترا واسمها جزيرة القمر . وقد اشتراها بحوالي خمسة آلاف جنيه . . وكانت مليئة بأشجار المطاط وجوز الهند . ويوم أن اشتراها كان رطل المطاط بحوالي خمسة قروش . ويوم تركها كان رطل المطاط قد وصل إلى ثلاثين قرشا . . وهو لم يبيع هذه الجزيرة وإنما أهداها إلى جامعة جوججا كارتا بأندونيسيا . . ومساحة هذه الجزيرة حوالي ٣٥ كيلو مترا مربعا .

والقصر الملكي في مكة كان يملكه السيد إبراهيم السقاف ثم أهداه للملك عبد العزيز آل سعود . وقال لي إن الصحف المصرية نشرت أن الرئيس عبدالناصر قابل الملك السعودي في قصر السقاف ولا يزال الناس هناك في مكة يسمون القصر الملكي بهذه التسمية . .

وقد اشتغل السيد إبراهيم السقاف بالصحافة وبصورة غريبة . فقد أصدر صحيفة يومية وثلاث مجلات أسبوعية ومجلتين شهريتين في وقت واحد ، ولأول مرة ظلت هذه الصحف تصدر لمدة تسعة شهور وخسر فيها جميعا نصف مليون جنيه !

وسألت بعض أبناء سنغافورة فقالوا : إن خسارته كانت أكبر من هذا بكثير وعنده اليوم مجلة شهرية تصدر بالإنجليزية اسمها العالم الإسلامى . وفى نيته أن يوقفها لأن رئيس تحريرها قد عينته الحكومة نائبا عاما وليس عنده متسع من الوقت ليصدر مجلة شهرية فى ٣٢ صحيفة .

وعلى مكتب السيد السقاف بعض الصحف العربية وهى تصل إلى هنا بعد صدورها فى القاهرة وبغداد بيومين أو ثلاثة . .

وسألنى السيد السقاف هل تعرف أحدا من عائلة السقاف .

قلت : الملحق الصحفى بسفارة أندونيسيا عندنا اسمه السقاف .

قال : لا أعرفه .

قلت : وأعرف أدبيات فى مصر يحملن نفس الاسم .

قال : أنا لا أعرفهن . . يمكن ، طرف قرابة العائلة كبيرة . .

وضع يده فى درج مكتبه وأعطانى بطاقته الشخصية . . والبطاقة مليئة بالكتابة

المطبوعة على الوجهين بالإنجليزية وهذا نصها :

داتوه السيد إبراهيم بن عمر السقاف رئيس المجلس الاستشارى الإسلامى

بسنغافورة . رئيس جمعية الدعوة الإسلامية لبلاد الملايو . رئيس مجلس إدارة الكلية

الإسلامية العليا فى بلاد الملايو . قاضى الصلح . القنصل الفخرى لعراق فى

سنغافورة وأحاء بلاد الملايو . رئيس منظمة زعماء الأديان بسنغافورة . رئيس

تحرير ست صحف ومجلات أسبوعية شهرية .

وبعد ذلك عشرات الأرقام التليفونية .

وقرر السيد السقاف أن ينسحب من الحياة العامة لأنه تعب وأنه تجاوز

الستين ويقال السبعين .

سألته : ما مشروعاتك القادمة ؟

قال : أبدا . . أسافر إلى القاهرة وأنقل ابني إلى سويسرة وربنا يساعدنا في
الفلوس . .

قلت : في الفلوس يعني إيه ؟ . إنت متصور أنك حتشيل فلوسك كلها على
صلمك .

فضحك وقال : إنت بتصدق كلام الناس . والله كل فلوسى لا تزيد
على بضعة ملايين ومعها بضع آهات .
.. آهاتى أنا طبعا !

(٤)

اليوم نشرت الصحف خبرا هاما :

جمعت الحكومة فى سنغافورة الباعة المتجولين وبنت لهم أكشاك على
الكورنيش . الأكشاك نظيفة جدا وتشرف عليها الحكومة . وضعت أمام
الأكشاك مئات المناضد والمقاعد ، وهذه الأكشاك تباع المشروبات والمأكولات
الشعبية ومعظم هذه المأكولات يطبخونها أمامك .

وأعجب الأظعمة هى الصينية بلا شك ، والصينيون أناس فى غاية النظافة
والنشاط . والمرأة الصينية جميلة ونشيطة وحلوة ومختصرة كده ... وتجذ المرأة الصينية
هنا فى الشوارع والمحلات العامة بالبنتلون والجاكته .. وهوزى يشبه البيجامات
بالضبط وكلها من الحرير . وتلبس القبقاب الخشبى الخفيف ومعظم الصينيات بيعن
فى هذه الأكشاك .

جلست أنتظر الجرسون فجاء ولم أفهم كلمة واحدة مما يقول . فعدد الذين
يتحدثون الإنجليزية فى سنغافورة قليل جدا . وقررت أن أذهب إلى أحد الأكشاك
وأختار الطعام الذى يعجبني . وأشرت بيدي إلى بعض اللحوم فقال الرجل
بالإنجليزية : ساتو . ساتو . .

والساتو اسم أكلة ملاوية وليست أكلة صينية . وهى عبارة عن لحوم
موضوعة فى أسياخ من القش أو الخيزران الرفيع . وهى مشوية فى مادة حلوة . .

ومعها نوع من الأرز يسلقونه في سعف النخيل . وسعف النخيل مجبول على هيئة
محفظة صغيرة . ويضعون الأرز في البخار وهو في سعف النخيل ويتحول الأرز
إلى عجينة تماما وعليك أن تغمس الأرز واللحم في شطة مصنوعة من الفول
السوداني وجوز الهند والمانجو .

الأكلة لذيدة جداً . .

وكان معي الدكتور زكي بدوي الأستاذ بجامعة سنغافورة وهو من خريجي
الأزهر ومن مواليد قرية النحاس بمديرية الشرقية وقد تعلم في إنجلترا ، واشتغل
بالتدريس في الأزهر بعض الوقت وعاش هنا في سنغافورة مع زوجته الإنجليزية
وأولاده .

والدكتور زكي واسمه بالكامل محمد أبو الخير زكي بدوي تكلم الإنجليزية
بطلاقة وبلهجة إنجليزية صحيحة ، ويتكلم العربية بلهجة شرقاوية فظيعة لم أسمع
لها مثيلا في حياتي ، وتجيء على لسانه ألفاظ غير مألوفة ولا أدري كيف احتفظ
بها وهو يمر فوق المحيطات والجبال ولم يفكر في أن يلتق بها إلى الأبد . والدكتور
زكي هو العربي الوحيد في جزيرة سنغافورة ويعرفه كل الناس وتلجأ إليه الحكومة
إذا ما وقعت في مشكل بالنسبة لأي عربي .

وله مواقف صارخة أيام العدوان على بورسعيد ، فكان يخطب في الجامعة
ضد الإنجليز مع إنهم أصحاب الجزيرة . وكان يكنى أيام العدوان على بورسعيد أن
يقول لسائق التاكسي إنهم اعتدوا على بلادي . . . فيرفض السائق أن يتقاضى
الأجر ويرفض صاحب المطعم ويرفض الطبيب أن يتقاضى الروشنة .

وكنا نركب في سيارة الدكتور زكي عائدين إلى الفندق فقلت له : سني
يا دكتور ؟

قال : سنالك بتوجعك . .

قلت : بتوجعني . . ولازم لي واحد جواهرجي .

قال : إيه ده بتجول إيه ؟

قلت : يا شيخ باضحك . . أنت ماشفتش فيلم عبد الوهاب وراقية إبراهيم
بيقولوا الكلام ده في الفيلم .

وأشار بيده إلى مستشفى أنيق جدا . . وإلى مجموعة الممرضات الحسنات
وقال : تعرف النوم هنا بكام . . بعشرة جنيهات . . مجرد النوم . . غير الأكل
وغير العلاج وغير زيارات الطبيب المتكررة .. إيه رأيك ! ؟

فقلت : اللو كانددة أرخص . محفظتى يا دكتور .

قال : يلزمك واحد جواهرجى برضه ؟

قلت : يلزم لى الدكتور وزير الاقتصاد .

ملحوظة : أعتذر عن تساقط بعض الحروف وبعض الأفكار .. فأنا
أكتب بقلم باركر جديد ولا أعرف كيف أحركه على الورقة .. فهو يشبه
الحذاء الحديد ضيق وجاف وأفكارى تتعثر به .. أما لماذا اشتريت هذا القلم .
فلأنه أرخص من الأقلام الرصاص ..

(٥)

وقفت فى ميدان رافلس بسنغافورة أمام محل روبنسون الذى يشبه شيكوريل
فى القاهرة مع فارق قيمته عشرة ملايين من الجنيهات . يشبهه من ناحية البناء
فقط ومن ناحية موقعه فى شارع رئيسى . وكلما مرت سيارة أشار صديق الصينى
قائلا : هذا مليونير صينى .. وهذا مليونير . وهذا عنده على الأقل مائة مليون
جنيه . وهذه زوجة أحد أصحاب الملايين . وأخوها مليونير أيضا . .

ولو كان هذا الصينى من عامة الناس لقلت إنه ساذج . أو فشار أو متعصب
الأبناء جنسه . ولكن هذا الصينى طبيب وتعلم فى إنجلترا ويتكلم الفرنسية والألمانية
واليابانية ويتعلم العربية الآن . لأنه يريد أن يزور القاهرة وبيرت لمدة شهر واحد .
وكان قد قابل فتاة مصرية فى روما من عائلة الدراويش أو درويش أو أبو درش
لا أعرف . . ويقول : إنه وعدها بالزواج سنة ١٩٥٥ ولا يزال حريصا على وعده
ويطلب منى أن أعلن ذلك وأن أذكرها بالحب القديم . .

وقرر صديقى الطبيب الصينى أن يجمعنى بأحد أصحاب الملايين على سبيل
الفرجة . . فأنا لم أر فى حياتى مليونيرا واحدا سوى كروب صاحب مصانع الصلب

في ألمانيا ، وسوى « على خان » وبعض أصحاب الملايين العرب ..
وذهبنا معا إلى بيت المليونير المعروف جدا في الملايو وسنغافورة واسمه
« تك تشا » . يبدو هذا الاسم لا معنى له ويبدو كأنه من اختراعى ولكن ذكر
هذا الاسم في منطقة يشبه الكوكتيل من أسماء روكفيلر وروتشيلد وعشرة
بنوك أخرى !

الشاب الذى قابلته في السابعة والثلاثين رقيق لطيف مهذب جداً وصوته
جميل عندما يتحدث الإنجليزية المكسرة ، وزوجته فاتنة أول مارايتها قلت :
ما عندكيش أخذ، يا مدام ؟

قالت : ما إيش أخت .

قلت : فلامش ممكن يكون لك أخت .

لا لأنها حلوة فقط ، ولكن لأن « المدام » أبوها مليونير وتقدر ثروته بحوالى
٢٠٠ مليون جنيه موزعة في بنوك هونج كونج وسنغافورة . ولا داعى لأن أصف
كيف كان هذا القصر الذى تعيش فيه ، وكيف أنه في قمة جبل وأن أمامه
عشرات من السيارات المرسيديس والكاديلاك والرولررويس ولكن أروع .
ما فيه هو الذوق الصينى الساحر . ولا يمكن وصفه لامن قريب ولا من بعيد ..
هل أصف الأبواب أو النوافذ أو المفارش أو فناجين الشاي . لو كان
عندى فنجان واحد وطبق من هذا النوع لأقت له معرضاً في طريق الهرم وأجعل
الدخول بعشرين قرشا !

أما كيف أصبح هو مليونيراً ؟ فالمسألة بسيطة جدا . لقد ورث هذه الملايين
عن والده !

ثم فتح شركة بدأت مساهمة ثم انفرد بها ورأس مالها الآن حوالى سبعة
ملايين جنيه . . وسيفتح بنكا في القريب العاجل بسنغافورة أو في هونج
كونج . . أما أمواله فودعة كلها في لندن . .

أما كيف جاءت هذه الثروة إلى والده فهو الآخر ورثها عن والده وهو الرجل
الذى دخل هذه البلاد وليس معه مليم واحد .

جده رحمة الله عليه .. رجل قصير القامة . . صورته أمامى على الحائط .

يجلس على دكة ، رجل ذكى ، ولاشك ، جاء إلى هذه البلاد على ظهر مركب شراعى صغير وكان ذلك منذ ٧٠ عاما .. جاء هذا الرجل أو لا بمفرده ، ترك زوجته وأولاده فى الصين . ومكث هنا وحده عشرة أعوام ثم استدعى زوجته وأقاموا جميعا فى سنغافورة . وفوجئ الأولاد بأن أباهم قد افتتح دكانا صغيرا وأنه ينام فى هذا الدكان ليلا ونهارا . وفوجئ الأولاد بأن والدهم قد اشترى بيتا صغيرا وجعل للبيت حديقة ، وأنه هو الذى يحرث الحديقة . وأن لديه عشرة من العمال كلهم من الشبان الصغار واشترط عليهم ألا يتزوجوا قبل مضى مدة معينة ، وأن كل من سيتزوج سيخفض مرتبه . ولاحظوا أن هذا الرجل يعمل ليلا ونهارا وأن نصف العمال يعملون ليلا ، والنصف الآخر يعمم نهارا . وأنه لا ينام إلا ساعة واحدة فى اليوم فقد أصيب بأرق دائم ..

أما الذى يبيعه هذا الرجل فهو نوع من الزيت اسمه «زيت النمر» . . هذا الزيت يشفى من الروماتيزم وأوجاع المفاصل والظهر . وكان هذا الرجل يقوم بتوزيع هذا الزيت مجانا على الفقراء الصينيين . وكان يطلب من كل صيني أن يتحدث ولو دقيقة واحدة لأحد أقاربه عن مفعول هذا الزيت . وربما كان هذا الرجل هو أول تاجر فى العالم كله . استخدم رجال الدين فى الدعاية لزيت النمر . فقد أصيب أحد الرهبان بالآلام حادة فى أصابع قدميه وعالجه بهذا المرهم ، وعندما حاول الراهب أن يدفع الثمن أخبره الرجل العجوز بأن الثمن هو كلمة واحدة عن الدواء الذى يعطيه للناس مجانا . كلمة واحدة قبل الصلاة أو بعدها . .

وفى اليوم التالى اختفى هذا العجوز ، وظن الصينيون الطيبون أن هذا الرجل ليس إنسانا فراحوا يبحثون عنه فلم يجدوه . وبعد ثلاثة أيام ظهر الرجل فى دكانه ، جلس حزينا ، وكلما سأله الناس عن السبب قال إنه مضطر أن يبيع الزيت بالفلوس بعد أن عاهد ربه على أن يعطيه للناس مجانا ، غير أنه رأى فى المنام أن الآلهة يصرون على بيعه بالفلوس من أجل العمال الذين يعملون عنده . ومن أجل طفل فى بطن سيدة تزوجت سرا من أحد العمال .

وأقبل الناس على الزيت يشترونه .

أما الزيت فلا يعرف أحد من أى شئ استخلصه هذا الرجل . وشركة النمر تنتج الآن الكثير جدا من الأدوية والأطعمة وعشرات المواد الغذائية وأدوات الزينة . كلها من صنع شركة النمر التى أسسها هذا الرجل الذى قدرت ثروته بعد موته بأكثر من ٢٥٠ مليوناً من الجنيهات !

هل تعرف أن هذا الرجل لم يركب سيارة قط ولا عربة ولا حصانا . . هل تعرف أنه اشترى ثلاثة أحذية فى كل حياته . هل تعرف أنه لا يعرف القراءة . هل تعرف أنه لم يمرض قط ، هل تعرف أنه كان يحتفظ بأسنانه كاملة وبنظره سليماً ، وأنه مات غريقاً فى الثمانين من عمره .

إن أصحاب الملايين فى سنغافورة وفى الملايو وفى أندونيسيا كلهم من أبناء الصين . .

والحكومة الموجودة الآن يرأسها رجل صينى هو زعيم حزب العمال الشعبى ، والحكومة السابقة كان يرأسها يهودى صينى اسمه «مشعل» غير اسمه وجعله مارشال .

وفى سنة ١٩٥٩ أفلت أسرة « النمر » هذه صحيفتها الكبرى وفاجأت المحررين بقرار الإقفال . وآخر عدد صدر لها هاجمت فيه عبد الناصر وقالت : إن تهديده لإسرائيل حقيقى وليس على سبيل « التهويش » أو المناورة السياسية وأن الدول الكبرى يجب أن تضرب رأسها فى الحائط لأنها فشلت فى معركة بورسعيد ! لقد أوقفوا هذه الصحيفة وافتتحوا صحيفة أخرى فى الملايو . .

أما الرجل العجوز قبل أن يموت تبرع بعشرين مليوناً من الجنيهات لفقراء الصين المقيمين فى سنغافورة . . وأنفق أربعين مليون جنية أخرى على إنشاء حديقة النمر الموجودة هنا فى سنغافورة . وهى من أروع الأعمال الفنية التى يمكن أن يصنفها إنسان . . فكلها من التماثيل الملونة البارزة وبالجم الطيبى . . والدخول عام بالبحان . . وهى تصور حياة الصين كلها قديماً وحديثاً . والعادات والتقاليد والذائل والفضائل والحرافات فى الأدب والتاريخ وصور التعذيب التى كان يلجأ إليها الأباطرة . إنها رائعة مثيرة مخيفة مذهلة إنها تزيل الأوجاع والآلام وتزيل

الزمن الذى يشبه العرق فى حياتنا . . لأنها أكثر ! سحرا من زيت النمر .
إن هذا الشاب الذى رأيته ليس مليونيراً ، وإنما هو ملايينير !

(٦)

اليوم فقط أول أيام الشباب هنا فى سنغافورة . رئيس الوزراء الصينى دعا الشباب إلى مساعدة الدولة فى قطع الأشجار وإحراق الأعشاب وتمهيد التربة لإنشاء حدائق وملاعب للشباب . تطوع اليوم للعمل أكثر من عشرين ألف شاب . . تقدمهم رئيس الوزراء بالقميص والبنطلون وبدأ يعمل . لم يعمل دقيقة ولا خمس دقائق وإنما عمل خمس ساعات متواصلة . رفض أن يأكل الطعام الذى قدمته زوجته المحامية . وإنما جلس على الأرض إلى جوار العمال المتطوعين وفوجئ العمال برئيس الوزراء يجرى مرة أخرى بعد الظهر ويستأنف عمله بنفس القميص والبنطلون ومعه ثلاثة من خدمه وسائق سيارته .

وأعلن رئيس الوزراء هنا أنه لن يمضى أكثر من شهر واحد حتى تكون هذه المساحة من الأرض قد تحولت إلى قطعة من الجنة .

لقد مررت على هذه الأرض عند منتصف الليل . إن الشبان يعملون تحت الأضواء القوية . سألت إن كانوا هم نفس الشبان الذين عملوا بالنهار ؟ قالوا إنهم دفعة أخرى . عددهم لا يقل عن شبان النهار . فسألت إن كان رئيس الوزراء قد حضر فقالوا : لقد حضر فعلا . ولكن الشبان منعه طلبوا إليه أن ينام ليعاود العمل فى الصباح .

نشرت الصحف عن العمال المتطوعين وعن روحهم المعنوية وعن السعادة التى عملوا بها . وكيف أنهم كانوا منظمين . وقالت صحيفة «التايمز» فى افتتاحيتها : إن هذه الأرض لكم لأن المستقبل لكم أما نحن فذاهبون . إننا المعديّة التى نقلتكم من شاطئ الماضى إلى شاطئ الحاضر . فانزلوا إلى الأرض التى هى لكم لا تنتظروا

أجرا أو ثوابا أو حتى شكرا . بل نحن الذين ننتظر هذا منكم لقد أودعنا باسمكم
ثروة في بنوك الغد !

(٧)

تعطل المرور واتجهت السيارات إلى الشوارع الضيقة . والمرور في الهند وسيلان
وسنغافورة على الشمال دائما ، وعجلة القيادة على اليمين في السيارة -تقاليد إنجليزية
ونزلت من السيارة لأتحث عن مصدر الطبول والموسيقى ورأيت طلائع الفرح ..
والرود والبخور والموسيقى النحاسية يضربونها بصورة صارخة . وهناك شبان
في ملابسهم الزرقاء ووضعوا على رؤوسهم قبعات حمراء . وعربة صغيرة توزع
عليهم المظلات والمراوح .. وبعدهم تجمي عربات نقل ضخمة عليها أعلام
ولافتات باللغة الصينية وفيها أجهزة تسجيل تذيع موسيقى صينية حاملة . ثم فرقة
موسيقية أخرى لها لون خاص ولها لحن خاص . وعربات نقل كبيرة عليها لافتات
وورود وأعلام .. والناس فيها يضحكون ويتلفتون إلى المتفرجين وكل واحد منهم
في فمه سيارة . وعربات غريبة الشكل .. وفرقة موسيقية . ثم طاوور طويل
مزدوج من الناس قد أمسكوا جبلا وراحوا يجذبونه إلى الأمام . . والحبل مربوط
بعربة نقلت عليها الزينات . ولكن العربة تتحرك من تلقاء نفسها وليست في
حاجة إلى حبل ولا ناس يشدونها وعليها زينات وفيها بعض الناس قد جلسوا وحولهم
الورود . ولا بد أن يكونوا والدى العروسين ثم فرقة موسيقية أخرى .. وعربة
نقل ضخمة وضعت فيها الهدايا وكلها من الأقمشة الصوفية الإنجليزية الفاخرة . .
وكل قطعة قماش ، اسم الرجل الذي أهداها إلى العروسين .

ثم عربة أنيقة جداً . ويبدو أنها خرجت من الباخرة أمس على الأكثر
إن لم تكن الآن وعليها صورة أنيقة . إنها صورة العريس نفسه ، أما صورة العروس
فلم تظهر ويبدو أن التقاليد لا تسمح هنا بنشر صورة العروس . .

والآن أرى بوضوح العروسين أو أهل العروسين . فقد ارتدوا جميعا ملابس بيضاء ناصعة وتعلقوا بإحدى العربات الغربية الشكل . ويظهر لأنهم سيكون على فراق العروسين . تماما كما يحدث في الريف عندنا .. ولا بد أن هؤلاء السيدات من أهل العروسين . أخت العروس وأمها وأخت العريس وأمه . والدموع على خلودهن جميعا . ووراءهن عشرات من النساء والرجال ومعهم المباخر والورود والموسيقى التي تضرب النحاس بعبضه ببعض بعنف والناس قد اصطفوا على الجانبين وسألت فتاة صينية واقفة إلى جوارى ولا بد أنها رأت دهشتي باهتمام غريب :
أمال فين العروسين يا مدموزيل .

وضحكت .. وضحكت .. هذه جنازة .. ميت .

قلت : .أمال فين الميت ؟ هو العريس هنا يقولوا عليه ميت؟ ميت في العروسة ولا هو الراجل الذي ماتت حرите . يبقى ميت عندكم ؟
والله حلوة الفكرة دى .. الحرية معناها الحياة والجواز معناها الموت : حلوة قوى ! امال فين الميت ؟

قالت : هذا الذى رأيت صورته . وجثمانه في العربة التي يجلس فيها إخوته وأولاده .. وهو الميت .. ميت حقيقى !

وهذه بالفعل جنازة . والدموع على فراق الميت !

وعرفت بعد ذلك أن كل هذه الزهور وكل هذه الهدايا سيحرقونها على قبر الفقيد .. وأى هذه الهدايا ستصعد مع الدخان إلى السماء . حيث صعدت روح الفقيد : أما هذه الطبول العادية فهي لطرد الشياطين : إنها تنظف الطريق أمام روح الميت حتى يصعد إلى السماء بسلام . والموسيقى فعلا مزعجة يهرب منها العفريت !

إنها جنازة ميت . .ميت بحق وحقيقى !

(٨)

اليوم أحسست فعلا أن أذنى لها طبلة .. إن جلدها يشبه جلد الطبول . غليظ لا يحس بالأصوات الرقيقة .. لأننى لا أتصور ما حدث لى .. لأننى لم

أعد أستمع إلى أى موسيقى ولا أية أغان مع أننى - ولا فخر - أحفظ كل أغاني
عبد الوهاب وأم كلثوم وعبد الحليم . وبلغت بي الجراة أننى غنيت لعبد الوهاب
أمام عبد الوهاب !

وسمعت أن جلود الطبول مصنوعة من جلود حيوانات لا داعى لذكر اسمها
حتى لا يرتبط كلامى فى ذهنك بصورة هذه الحيوانات .

لا أعرف ماذا حدث .. لإننى أتهم نفسى بأن وزنى زاد .. يعنى أننى تخنت ..
والميزان يكذبنى ولكن شعورى يقول : لا .

واليوم أحسست أن التخن كله فى أذنى .

كنت فيما مضى أسمع أفكار النمل .. كنت أسمع المفتاح وهو يتعثر فى
الشقة التى فى الدور الأول فى بيتنا وأنا أسكن فى الدور الخامس . وكنت أسمع
الراديو فى أى مكان بعيد ، وأعرف ماذا يقول ، وكنت أدخل فى مراهنات على
قوة سمعى . . وكانت الموسيقى تحرك أذنى .. تحركها كما تتحرك أذن « ميكى
ماوس » فى أفلام والت ديزنى .. كأن أذنى تخرج بعيدا وتلتقط الأنغام وتعود
وتصبها فى رأسى .. كانت الموسيقى كالمشط « يسرح » شعورى . وكانت شعورى
« مسببة » لا تحتاج إلى مجهود موسيقى أما الآن فشعورى « مجمد » يتعثر فيه المشط
ويكاد ينكسر .

معقول أن هذه الموسيقى التى تنبعث من الميكروفون إلى جوار سريرى لانهزنى
لا تشيلنى وتهبلنى فى الأرض وترمينى داخل الدولاب فأرتدى ملابسى وأصعد إلى
سطح الفندق .. إلى حيث تجمى هذه الموسيقى ؟ أبدا وحياتك ولا حاجة ولا كأننى
أسمع شيئا ، ولا حتى عندى أية رغبة فى النوم من فراشى .. إنه برود . .
جمود .. موت !

هذه الكلمات الأخيرة قلها لنفسى بصوت عال .. فأنا عندما أتحدث
إلى نفسى أرفع الكلفة وأشم وأقول ألفاظا لا يصح نشرها . ولم تعجبني لهجتي مع
نفسى . لم تعجبني الصورة التى أرى بها نفسى الآن .. كأننى أنظر إلى
نفسى فى مرآة مكسورة .. مرآة مصغرة .. فى مرآة تجعل وجهى ملتويا كأننى

أنظر من فوق سور حديقة .. أو كأننى أتفادى صفة على خدى الأيمن أو الأيسر .

ومشكلتى قفزت فجأة أماى ..

فلم يكن ذلك برودا ولا جمودا ولا موتا وإنما هى مأساة يجب أن أعيشها يومين على الأقل .

لقد طار عقلى عندما دخلت غرفتى ولم أجد ملابسى .. إنها ليست بالشئ الذى له قيمة ، ولكن لا أستطيع أن أشتري غيرها الآن .. فليس فى جيبي ملين واحد ، وإنما بكل فلوسى محولة على بنوك ، بينى وبينها عشرات الساعات بالطائرة ، وأمسكت التليفون وصرخت أقول : إنت فىن ياماما .. ماماتونجو . وجاء صوت « ماما تونجو » هامسا عجوزا يتعثر على أسلاك التليفون كأنه صرصار أعرج .

وبعد دقائق جاءت مديرة الفندق .

وقلت لها : أين ملابسى ؟

قالت وصوتها يعرج بالإنجليزية الصينية المكسرة : ملابسك «؟ لا أعرف .. سأسأل الخادمة .

وأمسكت التليفون وسمعت كلاما صينيا لا أعرفه .. وأنزلت السماعة . وقالت : بعد لحظات ستعرف .

وبعد لحظات جاءت الخادمة .

وعرفت الحقيقة : لقد حملت كل ملابسى .. البدلة الوحيدة والبنطلونات والجاكيتات حتى الكرافات والمناديل والقمصان .. كل ما عندى .. لم تترك إلا البيجاما التى أرديتها ..

أما كيف حدث ذلك فهو أننى خرجت أزور أحد أصدقائى فى الفندق فى الصباح الباكر . وتناولت الفطور عنده . وقرأت الصحف وسمعنا نشرات الأخبار ، ويظهر أننى فتحت حقائبي أفتش عن شئ وأخرجت الملابس كلها وتركتها فوق السرير . ولم أفكر أبدا أن أعيدها إلى الحقيقة .. ويعلم الله أن الملابس

كلها مكوية ومغسولة في نيودلهي قبل سفرى ، ولكن الخادمة لم تتخيل أبدا أنها مغسولة أو مكوية —وعلى كل حال هذه شهادة ضد الغسالين والمكوية في الهند ثم أخذت كل هذه الملابس .

ونظرت إلى الخادمة فأحنت رأسها وكأنها تركع وتقول لى : إن شاء الله بعد غد ..

وصرخت فيها : بعد إيه ؟ يا نهار أسود .. دنا حاجز في الطائرة بكرة .
— ولكن بكرة أجازة .

— إذن آخذهم من غير غسل .

— ولكن الملابس في بيت الغسالة الآن .

— أروح لها البيت ..

— إنها عادة تنفسح يوم الأجازة ولا توجد في البلد .

— تنفسح فين ؟

— في جزيرة بعيدة ..

— الغسالة بتنفسح وعندها فلوس منين ؟

— من حضرتك ..

— حضرتى ؟ ليه ؟ هيه حتأخذ منى قد إيه ؟

— كم قطعة ملابسك ؟

— والله ما أنا عارف ..

واستأذنت ماما تونجو وخرجت ..

وسحبت الغطاء وابتلعت بعض الحبوب لكي استعجل النوم وأحلم بأن ملابسى المغسولة قد نشرتها إحدى المضيفات على جناحى الطائرة .. وبين الحين والحين أتخيل المضيقة وهى تفتح باب الطائرة وتقلب الملابس !

(٩)

لو كنت أعرف كيف أشتري أى شئ فى الدنيا ؟!

لو كنت أعرف كيف أدخل أى محل وأمد يدي إلى الأقمشة والقمصان

والكرافات والزجاجات العطرية والراديوهات الصغيرة وأدوات الحلاقة والزينة ثم
أقلب فيها وأنظر إلى ماركاتها بأعصاب من حديد وأقول للبائع :

— قل لي من فضلك . أنتم أسعاركم غالية كده ليه ؟

— غالية .. إنك أول واحد قال الحكاية دي .. دعني أفكر .. قال

الحكاية دي مين من مائة سنة !

— أنت غلطان يا حضرة .. هناك واحد قال كده قبل مني .. عارف مين ؟

الرجل اللي اشترى جزيرة سنغافورة .. عارف اسمه ؟ اسمه رافلس ..

الراجل ده اشترى الجزيرة دي بخمسة آلاف جنيه ولكن بعد فصال بينه وبين

الملك استغرق عدة شهور .. يعني كان شايف ثمنها غالى قوى .. مش مهم

برضه أسعاركم غالية .

— ليه غالية ؟ !

— أولاً زجاجة البارفان دي ثمنها كام ؟

— زجاجة ماجريف .. أكبر مقاس ثمنها أربعة جنيهات ونصف تبقى

غالية ؟

— طبعا غالية .. لقد رأيتها في عدن بثلاثة جنيهات فقط .

— معك حق .. ومع ذلك فنحن أرخص من أى بلد ثانية في الدنيا .

— طيب وربي دي .. بكام دي ؟

— علبة بودرة من الذهب .. مطعمة بالذهب .. مش غالية .. بستة

جنيهات .

— وربي ده من فضلك ؟

— شتوي .. بلوفر أورلون رجالي .. يساوي كام في عدن ؟

— أظن يساوي جنبيين .. صوف إنجليزي .. أقصد صوف استرالي ..

وربي ده والله . بكام ده ؟

— بلوفر أورلون حریمی .. بجنبيين برضه خد بالك فيه حرير أيضاً .. ويمكن

نديه لك أرخص .

— لا .. مش عاوز .. وربي الخزم الإنجليزي كده ؟

— اتفضل اقعد هنا .. مقاسك ؟

— بكام يا حضرة .. لا بد أنها أغلى هنا .

— أربعة جنيهات .. جزمة إنجليزى .. يدوب العمر وهية ما تدوبش .

— متشكر .. سلام عليكم . (قلتها بعنظرة شديدة أقرب ما تكون إلى قلة

الذوق أو قلة الأدب) !

— عليكم السلام ..

أتمنى أن يدور هذا الكلام بينى وبين أى بياع .. أملى أن تكون عندى
شجاعة المرأة عندما تدخل أى محل .. وتشوف ده وده وتقلب فى كل حاجة .
البدل والبنطلونات ولعب الأطفال والحلل والأكواب .. ساعة . وساعة .. وفى

آخر النهار تشتري إبرة لو ابور الجاز !

نفسى أدخل أى محل وحدى وأشترى أى شئ ..

وهذه هى المرة الثالثة التى أسافر فيها إلى سنغافورة فى خلال شهرين .. فى
أول مرة توقفت فيها عشرة أيام .. واشترت ملابس داخلية .. وجدت عدداً
من الناس يشترى فحشرت نفسى وسطهم .. وعندما فقدت شجاعى أمام
البائعات والبائعين قررت أن أنسحب ؛ وضبطنى بائع خضار سألنى ماذا تريد ؟
فقلت : ملابس داخلية ..

وأمسك المتر وجعل يقيس طولى ، وعرضى ويكتب فى ورقة .. وبعد لحظات
عاد لى بلفة كبيرة ومددت يدى وأخذتها ودفعت الثمن .. ولم أعرف عددها ولا
إن كانت تصلح لى أو لا تصلح .. إن محلات الخضروات تبيع الملابس الداخلية
أيضاً !

واليوم أحلم بأن أذهب لى هذا المحل وأستدعى هذا البائع الغشاش وأحاسبه
على الإساءة لى سمعة أكبر محل فى سنغافورة .. الإساءة لى محل « جين ليتل »
الذى يوجد به من البضائع ما يكفى لكسوة سكان مدينة كبيرة كالقاهرة وأقاربهم
فى الريف ..

وتمنيت أن يدور بينى وبينه هذا الكلام :

— لى إزى ياراجل إنت بتبيع لى ملابس داخلية تتمزق من غسلة أو غسلتين

هذا غش .. هذا ضحك على الأجانب .. أنت إذا كسبت منى جنياً فلن يزيد في ثروة المليونير صاحب المحل .. ولكنه يسىء إلى سمعته .. وسمعة سنغافورة كلها .. أهذا يرضيك ؟

ويقول الرجل : يا أستاذ أنا لم أسئ إلى أحد .. ولكن كل قطعة اشتريتها حضرتك مكتوب معها على ورق أنيق كيف يجب غسل هذه الملابس .. حضرتك قرأتها ؟ ..

— الحقيقة لا .

— الغسالة قرأت هذا الكلام ؟

— لا . طيب يا أخي مش لازم تنبهوا الزبائن إلى هذه التعليمات ؟

— عندما يكون الزبائن لا يعرفون اللغة الإنجليزية ..

— افترض يا أخي .

— يبقى ناقص نعلمه كيف يرتدى هذه الملابس .

— حضرتك بنهرز معايا ..

— العفو يا أفندم .. حتى طريقة ارتداء الملابس مكتوبة في التعليمات ،

ومع ذلك إذا كان فيها عيوب يمكن إصلاحها فنحن على استعداد لإصلاحها .

— مش المهم ده .. المهم سمعة المحل وسمعة البلد ..

— نحن نشكرك على غيرتك على بلادنا ..

وأحسست بكسوف وأنا أدير هذه المناقشة في رأسي .. فبعد أن ذابت كل

ملابسي اكتشفت أن لها طريقة خاصة في الغسيل .. وأن هذا الرجل لو تحايل

على لكي أرد إليه هذه الملابس فإنني لن أستطيع .. فقد أصبحت تشبه «شيش»

الشبابيك .. كلها فتحات طولية وعرضية ..

ولكن كيف أدخل أي عمل وأشترى أية حاجة .. نفسي أشتري .. نفسي

أعرف .. أفضل في وسط الناس وأقول : هات .. خذ .. هات .. إيه القرف

ده . هات .

يارب لقد أعطيتني الشجاعة فارتديت ملابس ممزقة ، فأعطني الشجاعة لكي

أشترى ملابس جديدة !

أشياء غريبة !!

في سنغافورة أحياء صينية كاملة وفيها ما يشبه حتى السيدة زينب تماماً . .
خصوصاً ميدان السيدة .. به عربات عليها كlobات وأمامها مقاعد يرى فيها الناس
الأطعمة على النار ويختارون منها ما يعجبهم . وقد يذوق الواحد منهم الطعام فلا
يعجبه فيلقى به في الأرض ولا يدفع ملياً واحداً . .

• • •

من الممكن أن تطلب من بائع الصحف نسخة من أية جريدة وتظل تقرأ
فيها عشر دقائق ثم تردها إليه لأنها لم تعجبك .

• • •

لا توجد طريقة لنداء الجرسون في أي مطعم وإنما يجب أن تنتظر حتى
يقرب منك وينظر إليك فتنتظر أنت إليه .

• • •

مدينة الملاهي هنا أروع ما فيها المحلات التجارية ، إنهم يبيعون فيها كل
شيء .. أجهزة الراديو الترانزستور الصغيرة جداً والكبيرة جداً .. ويبيعون الحرير
والأصواف والعطور التي جاءت من باريس اليوم أو أمس على الأكثر ،
والاسطوانات من كل بلد ومن كل حجم ويتحايلون عليك ويطاردونك . .

• • •

لاحظت أن الصينيين ليسوا صفرأ دائماً بل هناك صينيون بيض اللون
جدأ .. رأيت صينيات شقراوات .. ولا يميزهن عن الأوروبيات إلا عيونهن
وشعرهن الأسود الناعم . .

• • •

في سنغافورة تستطيع الفتاة أن تلبس الملابس الأوروبية وأن تلبس البيجاما
الحريرية وأن تلبس القبقاب .. القبقاب الصيني جميل .. وأن تلبس الفستان
المشقوق شقأ طويلاً كأنه آهة طويلة جداً .. والشق يبدأ من ذيل الفستان على
الجانب أو على الظهر أو من الأمام .. يا أخي ولا أحد ينظر ؟ !

• • •

تسمع وأنت جالس في الفندق طبولاً ودقاً غريباً طول النهار .. وتنظر من النافذة فتجد رجلاً يدفع أمامه عربة .. أو رجلاً يركب دراجة .. هذه هي المناذاة هنا .. فهم لا ينادون على السلع وإنما يدقون لها الأجراس والطبول .. وكل سلعة لها جرس خاص .. وأحياناً تجذ البائع وبعده بخمسين متراً ترى طفلاً يضرب قطعتين من الخشب الواحدة بالأخرى .. كأن لسانه ولسان أبيه قد نشفا فراح يدقهما معاً !

* * *

هل رأيت في حياتك - قبل عناق خروشوف وأيزنهاور - الدولار الأمريكى مع الروبل الروسى والاسترليني والروبية الهندية والسيلاية والأندونيسية والكب اللأوسى والجنهيه المصرى . كل هؤلاء معاً على منضدة واحدة ؟ ! هذا من المناظر المألوفة هنا فى مطار سنغافورة ، فهناك تجذ رجلاً حافياً يغير لك كل أنواع العملات وبسهولة جداً .

* * *

البوليس هنا يرى الناس يملأون جيوبهم بكل أنواع العملات المهربة من كل بلد فى الدنيا .. ولا يفتح فمه بكلمة واحدة .. فسنگافورة مدينة للتهرب .

* * *

وفى استطاعتك أن تأخذ التاكسى من المطار إلى أى بنك وتضع فيه كل أموالك وتحولها إلى أى بلد فى العالم فى عشر دقائق .. اغمز بعينيك لأى رجل صينى والباقي يتولاه هو بعناية وعناية أجمل بنات الصين . لقد ظننت أن كل هؤلاء الناس الذين يمشون بالألوف ورأى بسبب « الغمز » المتواصل من عيني .. فقد أصيبت عيناى بالتهاب جعلهما يذرفان الدمع طول النهار ..

وبعد ذلك اكتشفت أنهم فى طريقهم إلى حفلة فى الفندق الذى أنزل فيه !



● لا مكان لي؟!!

وجدت نفسي فجأة على طائرة صغيرة تابعة لشركة خطوط الملايو.. وابتسمت المضيئة - وقالت : مع السلامة .

والحقيقة أنني لم أجد نفسي فجأة ، وإنما عندما دخلت الطائرة أحسست أنني انزلت تماماً عن الجزيرة الحلوة والمدينة الحلوة والأشياء التي تتلألأ كعيون أبناء الصين وكأسنانهم وكالزراير في فساتين بنات الصين ..

وكان الكرسي الذي أجلس فيه ضيقاً .. كأنه فستان محرق . أو كأنه كرسي صيني .. أو كأنه دعوة عملية لأن أخس ولو قليلاً .. في هذا الجو المحترق وجدت نفسي ..

وتحركت الطائرة واختفت الابتسامات ووجدت عيني في قفا الذي أمامي .. القفا نظيف والحلاقة عالية جداً . فشعر الرأس يبدأ على ارتفاع شبر من ياقة القميص . وقبل أن ألحن ميوعة الشباب في هذه المنطقة . وجدت أن القفا الذي أمامي هو رجل عجوز مع أن كل شعره أسود وأسنانه بيضاء .. عجيبة !

وفي مطار جاكرتا وجدت المناظر التقليدية التي لا تعجب ولا تسر .. وجدت أعمال التفتيش على أشدها . لقد رأيت سائحاً أمريكياً نزعوا ملابسه من الحقائب .. ونزعوا قميصه من البنطلون . وتوقعت أن توارى السيدات وجهوهن بعد أن يتولى رجال الجمارك نزع بنطلون الرجل . لولا أن الأمريكي مال على الرجل وهمس في أذنه بشئ ضحك له الأمريكي فقط . وتشكك فيه الرجل الأنثوني سي .

لقد كان الأمريكي يرتدى القميص والبنطلون على اللحم !
ولا أعرف سر اختفاء الأمريكي بعد ذلك ، هل سمحوا له بالخروج ؟ أم
أنهم يتولون تفتيشه بصورة « أعمق » في إحدى الغرف الملحقة بالمطار . .
شيء فظيع !

ووجدت نفسي في أندونيسيا .. أى على عتبة ثلاثة آلاف جزيرة . الجزيرة
التي وضعت فيها قدمي اسمها جزيرة جاوة . وجاكرتا هي عاصمة كل أندونيسيا .
وهذه الجزيرة بها سبعون مليوناً من المسلمين ، أندونيسيا كلها ١٢٠ مليوناً . وليس
بين هؤلاء المسلمين جميعاً واحداً يمد يده إلى الغريب الذي جاء من بلاد الأزهر
الشريف ويأخذ عنه حقايبه ، أو يدلّه على طريقة يتفاهم بها مع أحد . فالناس
هنا يتكلمون لغتهم طبعاً والقليل جداً منهم يعرف الإنجليزية . ويظهر أن كلمة
مصر معناها أيضاً مصر في لغة أندونيسيا ولكن ينطقونها بشكل آخر . .

أنا الآن ملطوع أمام باب المطار . فقد سمحوا لي بالخروج .. فأنا مصرى
وهذا يكفى . فهم هنا من أعز الأصدقاء . وأنا أعتقد أن خروجي من المطار ،
بعد أن رأيت ما فعلوه بالأمريكي منتهى الترحيب . يكفى أنهم لم يضر بوني قلمي
وشلوتين .. يكفى أنهم لم يجعلوني فرجة لمن يساوى ولن لا يساوى ، ولم أجد حولي
أحداً يساوى شيئاً !

وخرجت أجر كرامتي وأحشر نفسي بين الناس . .

والعربات قليلة جداً ولكنها مليئة بالناس .

ومشكلتي واضحة جداً وهي كيف أصل إلى أى فندق ومن هذا الفندق
أصل بالسفارة .

وفي هذه الأثناء ظهر رجل كنت قد هزرت له رأسي في الطائرة . ويبدو
أن هذه الهزة لها معنى خاص . ويبدو أن هذا المعنى الخاص كان بعيد
الأثر . ولو سألتني لماذا هزرت رأسي لعرفت أن السبب هو أنني اصطدمت به
وكدت أوقع المنظار من فوق أنفه وألقى به تحت قدمي - تحت سبعين كيلو جراماً
هي وزني ، ليحمله بعد لحظة واحدة ، حفنة من الدقيق الأبيض . .

وجاء الرجل ودعاني إلى السيارة التي ستقله إلى الفندق .. إذن هذا الرجل قد

حجز فندقاً . فهو من أبناء الملايو وكثير التردد على أندونيسيا فله فيها أعمال كثيرة . إنه رجل يشتغل بالسنيما والملاهي والألعاب الرياضية .

ولمى جواره جلست فى السيارة . وأمامى ناس كالفيلة وورائى أيضاً ناس كالأبقار كلهم ضخام الأجسام . فهؤلاء هم الرياضيون ، أو هم السيرك الذى يتجول به من دولة إلى دولة . ولما عرف أننى مصرى رأيت السعادة على وجهه واعتدل فى جلسته ليبدى لى إعجابه .. أو أسباب إعجابه بمصر وأبناء مصر . وكل الذى توقعت أن يقوله . لم يقل منه شيئاً واحداً .. فلا عرف الأهرام ولا لاحظ وجه الشبه بين أنفه المطبق وأنف أبى الهول ولا بين جلسته الآن على المقعد وبين الكاتب المصرى الجالس القرفصاء ..

وإنما قال لى بحماس : لقد رأيت سامية جمال !

فسألته : إن كانت سامية جاءت هنا .

وكان رده : لا ..

وسألته : إن كان هو سافر إلى مصر ..

وكان جوابه : لا .. رأيتها فى أحد الأفلام ..

ومن حركة شفثيه أدركت طعم سامية جمال فى فمه . ومن بريق عينيه أدركت انعكاس ساقياها اللامعتين .. ومن اهتزازته فى مقعده . أدركت كم هى مثيرة بالنسبة لهذا الرجل ، ومن تراجعته إلى الخلف تخيلت مساحة السرير الذى يتمنى أن يتمرغ عليه !

وقال لى إن حكومة الملايو منعت أفلامها المثيرة . وعرفت فيما بعد أن الرقابة فى أندونيسيا تحذف رقصات كاريوكا وسامية جمال . أما السبب فهو أن ظهور هذه الرقصات يصدم الشعور العام هنا . فالناس يعتقدون أن كل ما تصدره مصر هو أفلام دينية وتفسيرات لكتاب الله .. وإذا ظهرت هذه الرقصات . فإن الجمهور لا يعرف أين يضع هؤلاء الراقصات بين آيات الله وأحاديث رسوله .. إلا إذا كان الغرض من ظهورهن هو بيان الطريق اللذيذ الذى يؤدى إلى جهنم ، وبئس المصير !

قال لى هذا الرجل الرياضى إنه حدث فى الملايو أن شاهد الناس أحد

الأفلام المصرية الذى يتحدث عن بطولات العرب وكيف أن الناس يعتبرونها نوعاً من الحج ، ولذلك فبعضهم يدخل السينما وقد خلع الحذاء .. ومعظم هذه الأفلام قد سقطت في مصر سقوطاً مريعاً ولكنهم في الملايو يرونها بصورة أخرى لحسن الحظ .

عندما انفعل هذا الرجل في استجوابي عن راقصات مصر . أدرك أن جهلى بهن واضح ، بدأ يشك في أنني مصرى . ولذلك قررت على الفور أن أروى قصصاً شخصية جداً عن راقصات مصر وعن علاقائى بهن وغرامياتى وليساعنى الله في كل ما قلت . فلم أكن أريد سوى أن أقدم أوراق اعتمادى لهذا الرجل .. وإلا تسليته حتى نصل إلى الفندق ، وأنا حسن النية جداً .. وأنا لن أعتذر لراقصات مصر فقد تحدثت فقط عن حاضرنهم ومستقبلهن والله يعلم أنني لم أشر إلى ماضيهن !

فالماضى للتاريخ ، والحاضر لهن . والمستقبل للجميع !

نسيت أن أقول إننى كنت أرفع صوتى بالكلام ليتمكن من سماعى كل هؤلاء الوحوش الذين أرغمونى على وضع يدي في جيوبى . فقد ضغطوا عليها حتى كادت تتحول إلى كفتة .. ويظهر أن من عادة هؤلاء الوحوش الآدمية أننى إذا قلت شيئاً أعجبهم ، عندما يترجم لهم ، فإنهم يسحبون يدي ويصافحونها بعنف إعجاباً بما قلت . ولعل هذا هو السبب في أننى أنكرت صلتى بأية راقصة في مصر ، أو فنانة عربية .

ووقفت السيارة وقبلها وقف قلبى أيضاً ..

وكان الفندق اسمه « ديزاند » وهو الفندق الوحيد في العاصمة . والذى تحتكره معظم السفارات . ومن النادر أن يجد فيه الإنسان مكاناً إذا لم يكن قد حجز ذلك من قبل والحجز ممكن . ولكن المشكلة هي « من قبل » .. من قبل كم يوماً أو كم شهراً !

تركنى الرجل لأدبر شأنى . فسألت عن غرفة لى فلم أجد .. وقال لى موظف الاستعلامات في استنكار شديد : كيف يمكن أن نجد غرفة الآن .. إن أقرب غرفة يمكن أن أحجزها لك تخلو بعد أربعة أسابيع !

ولا ينصحني بأن أحجزها لأنها مخنوقة ، وهو يفضل غرفة أخرى مطلة على الشارع . وهى ستخلو بعد شهرين !
وأخيراً عثر على غرفة عندما قلت له إننى مصرى ولا أعرف أحداً هنا ،
فما عدا موظفى السفارة الذين لا أعرفهم . وإن كان من السهل أن أتصل بهم
وأطمع فى مساعدتهم .

وصعدت السلام وانفتح الباب عن غرفة فى حجم ثلاثة توابيت فرعونية . .
وأحسست على الفور أننى أحد قدماء المصريين .. سأتمدد فى تابوت وأضع ملابسى
فى تابوت وطعامى فى تابوت ثالث .. ولست فى حاجة إلى دورة مياه . فالموتى
لا يغتسلون . لأن الموت قد طهرهم من كل ما هو جسد . أى من كل ما هو
عرق وتراب وقبلات !

وليست فيها مراوح ولا تكييف مع أن الأرض هنا فى مستوى سطح البحر .
وإننى على خط ٦ جنوب خط الاستواء . أى على نفس الامتداد بين كولومبو
ونصف جزر المالديف .. فالدنيا حارة جداً .. والرطوبة تصل إلى ٨٠ و ٩٠٪ .
وفى الغرفة—والله العظيم أقول الحق— يوجد سرير صغير والسرير من شدة
الحجل التصق بالحائط .. تماماً كما يفعل المارة عندنا لسبب ما !

وتمنيت أن أنام أمام باب اللوكاندة !
وابتلعت هذه «الأمنية» بكوب من الشراب بارد ، لم يعجبني طعمه .
ولكنى مع ذلك شربته دون أن أعرف طعمه إلا عند آخر قطرة . كنت أظن أن
الأمنية هى عبارة عن أقراص شديدة المرارة ، وأن هذا السائل سيحملها إلى أعماق
دون أن أشعر بطعمها ولكن جف ريقى من جديد ولم أعد أشعر إلا بطعم هذه
الأمنية المريرة !

وتذكرت ما دار بينى وبين أحد الأصدقاء فى القاهرة عندما سألتنى : هل
تسافر إلى الهند وأندونيسيا ؟

ولم يشأ أن يتوقف عند هذا السؤال وإنما مضى يقول : فى هذا البحر الحار ..
ووسط هذه الأمراض التى لاحد لها . .

قبل أن أقول «ياريت» ، راح يضاعف من مخاوفى بقوله : هل تقوم بهذه
المغامرة !

وكاننى لم أسمع إلا السؤال الأول فقلت متردداً فى رأسى صور مهرجانات
السينما التى تقام فى البندقية وفى برلين وفى كان ونيس وسان سباستيان وصور
وذكريات وآمال جديدة ورغبات فى الهرب.. ثم فرحتى ببلاد لم أرها كالهند وهى بلاد
حارة وغريبة وعجيبة . واعتقادتى أن التاريخ الجديد سيكتب هنا فى آسيا . وأن
الخطر القادم سيكون من الصين ومن الهند ، وأملى فى أن وزنى سينقص ولو خمسة
كيلو .. فأنا وزنى الآن ٨٢ كيلو وأريد أن أصل بأية طريقة إلى ٧٨ ، أو ٧٩
ولا بد أن حرارة هذه البلاد والتعب .. لا بد أن هذا كله سيحقق لى هذا الحلم .
وكان ردى :

أ... ر... و... ح ا

ولم أجد فى كل هذه البلاد الحارة إلا كل الوسائل الناجحة لزيادة الوزن ،
فالجو حار جداً . وهذا يجعلك تشرب الكثير من السوائل .. ويجعل المشى صعباً
عليك ليلاً أو نهاراً .. فلا بد من السيارة .. وهذه البلاد كلها تأكل الأرز .
وهذه البلاد الحارة تصيب الكبد والمعدة بكسل شديد . فلا بد أن تضع
فى طعامك بعض الشطة . والشطة تفتح الشهية فتجعلك تأكل أكثر وأكثر .
ثم إن هذه البلاد كلها لا تسهر الليل . وإنما تنام من الساعة الثامنة أو التاسعة
على الأكثر . ولا يوجد هنا أى نوع من أنواع الملاهى الليلية .. وأنا من
الذين تعودوا على السهر على الأقل حتى الساعة الواحدة أو الثانية صباحاً كل يوم ..
وكلما وجدت نفسى فى حالة ضيق أو غيظ احترقت كميات السكر الموجودة فى
دمى وأحسست بالجوع وعدت إلى الطعام من جديد . وهناك أناس إذا غضبوا
لا يأكلون وآخرون إذا غضبوا أكلوا .. ولم يكن للطعام أى معنى . وأنا من
هؤلاء وكاننا - نحن الذين إذا غضبنا أكلنا - ننتقم من الذين أغضبونا ونرفضونا
فنأكلهم !

وتكون النتيجة هى زيادة كمية الأرز ونقصان فى الحركة وسوء هضم ..
ونحاول أن نقضى عليه بزجاجات الصودا - وهذا سائل أيضاً - أو بأملاح
الفواكه - وهذا سائل أيضاً - أو بتناول كميات من الزبدة الطازجة وهى أحسن
وسيلة للسمنة !

وسألت عن السبب الذى من أجله لا يصاب الناس بسمفة في الهند أو سيلان أو حتى هنا في أندونيسيا .. مع أنهم يأكلون بالضبط ما نأكله وأكثر . فلماذا ؟ قيل لى إنهم يأكلون الأرز بغير سمن أوزيت .. ووجدت نفسى عاجزاً عن أكله . لأن رائحته فظيعة . وحتى أكله بالزيت صعب جداً لأنهم يطبخونه بزيت جوز الهند . وطعمه حلو . ولأنهم لا يشربون الكثير من الماء ويكتفون بالشاي . وحاولت ذلك وعجزت .. فنحن نشرب الماء كثيراً في بلادنا . . الإكثار من الشاي يسبب إلى الهضم ، ويصيبني بالأرق . ولأنهم يمشون كثيراً جداً والشمس لا تضايقهم .. وهذا مالا أستطيع أن أفعله .

ولكن قررت في أندونيسيا أن أبدأ تجربة جديدة وهى أن أمتنع عن الأرز وعن السوائل وأن أمشي كثيراً وأنام قليلاً . . ومن اليوم الأول عدلت عن هذا القرار فقد دعاني ملحقنا الثقافى إلى الغداء ورأيت من الذوق أن أكل معه .. وأكلت وكنت جائعاً . وشربت كمية من السوائل تكفى لتبريد ثلاث سيارات في طريقها إلى الإسكندرية بالطريق الصحراوى .. وفى العشاء كان كل الحاسنين معى من المواطنين . ورأيت أن الذوق يقضى بأن أكون لطيفاً وأن يمتد فى إلى كل يد تحمل طبقاً من الأرز بالكارى ، وطبقاً من اللحم بالشطة ، وطبقاً من السلطة بالفلفل . وكوباً من الماء بالعوض . وكوباً من الشاي بلاسكر . . وفى اليوم الثانى نسيت هذا القرار تماماً . .

نسيت لأن الإنسان ينسى كل شئ يكرهه أو يضايقه . . فالنسيان هو «الكماشة» التى تحمل المسامير من أحذية حياتنا ونحن لا ندري .. نسيت لأننى مشغول بأشياء أخرى ، هذه الأشياء تضايقتى وتقلبنى فى فراشى كاللحم فى النار . وهذا يضايقتى مرة أخرى . وكل الذى يضايقتى يحرق السكريات فى جسمى وجسمى لا يغفل عن مطالبه . فهو يطلب التعويض سراً والتعويض لا يكون إلا بالطعام . .

فإننى كلما تضايقت من كثرة الطعام ازدادت رغبتي إليه . .
كأننى قررت أن أمتنع عن الأكل لأسباب جسمية .

والنتيجة : شجرة جميز انضمت سراً إلى «الجمعية السرية» لأشجار الجميز فى القاهرة !

وفي اليوم التالي دعاني أبطال المصارعة إلى حضور التمرينات التي تسبق المباراة .. لماذا دعوني ؟ لأنني أصبحت صديقاً لهم . ولأنني صحتي من بلاد بعيدة ، ولأنهم يتفائلون بأول صديق . ويبدو أنهم فهموا أنني مهتم بالرياضة ولا أعرف إن كانوا قد فهموا أنني من المعجبين بأبطال المصارعة . لا أدري ، فأنا لا أعرف لغتهم والرجل الذي يترجم لهم قد سافر إلى أقصى الجنوب ليقوم بالدعاية لهم .

وجاءت بطاقة الدعوة . وذهبت إلى أحد الأندية الصغيرة ودهشت عندما وجدت جمهوراً لا يقل عن مائة من الرياضيين . وعندما دخلت توقفت اللعب وامتدت الأيدي تصافحني من وراء الحدران المنخفضة . وجلست في جانب .. ولكن فوجئت بمقعد فخم قد وضع لي .. وبدأ الفأر يلعب في عبي .. وبعد ذلك تزايد عدد الفئران عندما وقف واحد منهم وأعلن بعبارة قوية مدوية شيئاً لم أفهمه .. وبعد ذلك رأيت العيون تتجه ناحيتي وتبتسم وتتنظر مني أن أقول شيئاً ووقفوا ووقفت وابتسمت وأنا لا أفهم وقلت بالإنجليزية : ألا يوجد بينكم واحد يفهم الإنجليزية !

وسكت الرياضيون لحظة .. وتوقف اللعب نهائياً . ولم أر أية دلالة من دلالات الفهم على وجوههم .. وبعد ذلك توالى التصفيق . . ولم أفهم وظللت واقفاً وظلوا جالسين .. ومعنى ذلك أنني يجب أن أخطب .. أن أقول فيهم كلمة .. أحبيهم . أعبر لهم عن حيرتي وخيبة أملى ووقعتي التي لم تخطر لي على بال !

وفي دوخة وذهول أعتقد أنني قلت كلاماً شبيهاً بهذا :

أيها الأصدقاء .. لا بد أن هناك خطأ . فأنا لست من الرياضيين .. وإنما أنا أزعم في بلادنا أنني ألعب التنس .. وأقسم أنني نسيت هذه اللعبة .. فقد حاولت أن ألعب التنس منذ أسبوعين في أعلى جبال سيلان مع جماعة من المهندسين .. وسقطت على الأرض .. وأكلت الرمال جانباً من جلد يدي .. . وهو أنا لو كنت غاوى رياضة معقول أغوى رياضة زى دى .. شوفوا الرجل أبو كرش ده .. شوف الرجل اللي يببرق ده .. شوف الرجل الغرقان في العرق ..

شوف الراجل اللي عاوز يا كلني ده .. الحقوفى .. مفيش حد فيكم بيعرف عربى ..
عاوز أهرب من الناس .. عاوز أجرى . أريد الخلاص .. الحرية . مردیکا ..
مردیکا .. »

وكلمة مردیکا معناها بالأندونيسية : الحرية ..
وفوجئت بأن الناس رددوا ورأى مردیکا .. مردیکا !
وفى ذهول تام جلست أستريح وأستعد للهرب بأية صورة ..
ولكن فوجئت بمن يضع يده على كتفى .. إنه رجل فى الخمسين من عمره
لطيف على وجهه ابتسامة ترحب بك . بل تدعوك إلى الغذاء والعشاء والإقامة ،
ابتسامة كريمة جداً ، وقال : اسمح لى أيها السيد العزيز .
وهنا دخت حقيقة ..

وأعتقد أنه قال : أنا أترجم كلمتك الدقيقة إلى اللغة الأندونيسية .
ولم أستطع النظر إلى وجوههم .. وأعتقد أنى خرجت كما يخرج السكران
طينة من الكباريه عائداً إلى بيته !

● مالا يعجب سيدات مصر!

ولحسن حظى انتقلت إلى بيت صديقى - منذ ساعات - ملحقنا الثقافى الدكتور محمد رضوان .. ولحسن حظى مرة أخرى كانت زوجته وأولاده ما يزالون فى القاهرة ولذلك وجدت لى مكاناً فى بيته . وجدت لى غرفة وسريراً . وصديقاً أتسلى معه . وأعرف منه الكثير عن أحوال أندونيسيا وأهل أندونيسيا الطيبين الدائى الضحك ..

وأشهد أننى ما كرهت الأرز والدجاج فى حياتى كما كرهتهما فى بيت هذا الصديق ، فالأرز كثير وفى كل ساعات النهار والليل . والدجاج رخيص وكثير أيضاً . والطريقة التى تقدم بها الخادمة هذا الطعام تضايقتى جداً .. وبعد ذلك لم تضايقتى .. ولكنى لم أحب الأرز والدجاج . والخادمة فتاة سمراء أندونيسية .. ولكنها أندونيسية جداً فى كل ملامحها .. فى أندونيسيا أناس من أصل صينى وآخرون من أصل يابانى ، وأناس من أبناء حضرموت . ومن أصول عربية . وعلى فكرة الفتاة الأندونيسية تحب الرجل العربى . لا أعرف السبب . ربما كان السبب دينياً . مع أن العرب الذين يترددون على هذه البلاد ليسوامتدينين إلى هذه الدرجة !

والخادمة قصيرة القامة نظيفة جداً ، فهى تستحم ثلاث أو أربع مرات فى اليوم . وربما كان استحمام خادمة ليس شيئاً له أهمية الآن . ولكن المرأة الأندونيسية والرجل أيضاً نظيف . وهم يلبسون الملابس على اللحم . وحتى لا تلتصق هذه الملابس بأجسامهم فلأنهم يغسلونها فى النشا وبذلك تكون متباعدة عن الجسم .

والسيدة المصرية عندما ترى الفتاة الأندونيسية لأول مرة - وقد حدث هذا - يرتفع قلبها ولا ينزل إلا بصعوبة . فهي رشيقة حلوة وبسيطة . وبشرتها كخد التفاحة ملساء ناعمة مشدودة . ثم إنها مختصرة وأميل إلى النحافة مع أنها تأكل الأرز واللحم والفواكه . ويظهر أن طريقة طهو الأرز هنا هي التي تقطع نفس الأرز وتخلصه تماماً من المواد النشوية .. فلا يبقى منه إلا شيء لاهو عجيب ولا هو أرز . ثم لأنهم لا يعرفون السمن البلدى ولا الزبدة ولا المواد الدهنية التي نضعها في طعامنا .. وكلمة الأكل «المسبك» ليس لها معنى عندهم . لأنها غريبة على الآذان كغرابة أن نقول لهم :

لأنه يوجد بلد في العالم ليس به بعوض !

والفتاة مثلها الأعلى أن تكون من النوع الذي نسميه في مصر : العرسى ! وهذه الخادمة من الممكن أن تستحم وتغسل ملابسها عيني عينك .. ومن الممكن أيضاً أن يكون لهذه الخادمة صديق . وهذا الصديق تدعوه إلى غرفها ليتناول بعض الطعام . بعض طعامك .. ممكن جداً .. ومن الأدب أن تسكت .. ومن التقدم أن تبدو لها متسامحاً . ومن الحرية أن تحترم حرمتها ! وطبعاً كل هذا لا يعجب أية سيدة مصرية ..

ولذلك لا تكاد السيدات المصريات يصلن إلى هذه البلاد حتى يبدأ موسم فصل الخادومات بالجملة .. أى موسم اقتلاع أغصان البان، وزراعة أشجار الحمير ! وعندما دعيت إلى حفلات خاصة لاحظت أن الفتاة الأندونيسية لا تأكل إلا قليلاً جداً . وتندهش إذا عرفت أنها تعيش على الحد الأدنى من الطعام . ملعقة من الأرز وقطعة من اللحم . وبعض الفاكهة والقليل جداً من الماء . أو من السوائل . فهي تعلم أنها رشيقة وهي تحرص على ذلك .

والحياة في مدينة جاكرتا ليست مسلية بالمرّة . فلا يوجد بها لهُو ولا مرح . وإنما يوجد بها فندق واحد . وفي مواجهة هذا الفندق يوجد مطعم . ويوجد الحى الصينى . وهو متعة .

فأبناء الصين يمثلون النشاط التجارى والحياة والمرح والأرستقراطية . إن عددهم في كل أندونيسيا حوالى ثلاثة ملايين . ولكنهم أصحاب المصالح الحقيقية .. لأنهم الأقلية الساحقة .. والأندونيسيون هم الأغلبية المسحوقة .. وهم أصحاب المصانع والقصور والمطاعم والشركات والسيارات . وهم الذين يتولون التهريب من الثلاثة

آلاف جزيرة وإليها .. إلى سنغافورة وهونج كونج والفلبين .. ا
وفي الحى الصينى نجد الدنيا كلها .. نجد صورة صغيرة من سنغافورة
الصينية .. نجد السلع من كل لون .. نجد المرح .. كل ألوان المرح .. نجد
الأطعمة الغربية .. نجد دور السينما .. نجد كباريات الرقص ..

ولعلك تلاحظ أنى قلت كباريات الرقص فأنا لا أعرف كيف أسمى اثنين
يرقصان معاً .. ومتباعدان جداً . ولا يكلم أحدهما الآخر .. ثم ينصرفان .
فالشاب يتقدم ويقطع تذكرة وتتقدم له فتاة ترقص معه في مكان عام مفتوح
وتنتهى الرقصة ويذهب كل واحد لحاله .. أو هكذا يبدو لنا !
وهذا طبيعى في الرقص ، مادام الرجال يلبسون الملابس على اللحم ،
والنساء كذلك !

وكل شئ تشتريه هنا يجب أن تفاضل فيه على قدر ما تستطيع فلا توجد
أسعار محدودة لأى شئ !

بما فى ذلك الفتاة التى تطلبها للرقص على مسافة بعيدة منها !

وفى تلك الأيام شاهدت فيلماً مصرياً عن بورسعيد ..

لقد ظل هذا الفيلم معروضاً شهوراً طويلة .. واحتجت السفارة الفرنسية
على عرضه وظل الفيلم معروضاً .. ورأيت الناس يقفون ساعات لكى يحجزوا
لم مقعداً ، ولم أتمكن من مشاهدة هذا الفيلم ، فأنا أعرف بورسعيد ، وأعرف
كيف كانت لنا . وكيف أصبحت لنا . ومن الأفضل أن أترك مكافئ لمن
لا يعرفها !

وكنت أنتقل فى سيارات الأصدقاء .. ولولا ذلك لاضطرت إلى أن أركب
البيتشا .. وهى عربة يجرها شاب . أو عربة تتحرك بقوة ساقى شاب وهو
يبدل على دراجته .. وهذه هى وسيلة المواصلات الوحيدة فى البلاد . ومن الغريب
— أو ليس غريباً — أن هذه البيتشا يملكها رجل صينى !

ربما بدت هذه الملحوظة غير هامة بالنسبة لك ، ولكى أبين لك غرابتها
أقول لك : تصور أن رجلاً يهودياً هو الذى يملك الترام والمترو والأتوبيس فى
القاهرة الآن؟!

وبعد أسبوع أمضيته في أندونيسيا ، تجمعت عندي كل المؤهلات - فيما عدا الشكل - التي تجعلني أندونيسياً مائة في المائة . فأنا أحببت البلاد وأحببت أهلها . وأكلت أرزها ولحمها . ولم أعد أخاف من غارات الملايين من بعوضها ، وأركب البيتشا .. وأهم من هذا كله فأنا أضحك بسبب ومن غير سبب .. ومن غير سبب أكثر !

ثم إن هذه البلاد تحتفل بأعيادها يوم ١٧ أغسطس .. ولذلك فأعيادها على مسافة ٢٤ ساعة من عيد ميلادى .. وكل شيء يدل على أن هذا العيد سيكون شيئاً خطيراً . وقد تلقيت دعوة من وزارة الاستعلامات تدعوني إلى مشاهدة الرئيس سوكارنو وهو يخطب . ثم مشاهدة الحفل الكبير الذى سيعقب ذلك . ولم أتمكن من متابعة ما تنشره الصحف فى ذلك الوقت . أما الصحف الإنجليزية فهى قليلة والصحف الأمريكية أيضاً . وكذلك الكتب الأجنبية ..

وجاء يوم « توجوبلاس » ومعناها ١٧ أغسطس ، واحتشدت الشعوب الأندونيسية من كل الجزر .. واستعرضت قوات الجيش .. ومن الغريب أن زوجة أحد الوزراء كانت ضمن الحرس الوطنى ..

وكانت الشمس أكثر التهاباً من حماس الجماهير .. وخطب سوكارنو .. وفى خطابه عبارات كثيرة باللغات الأوروبية . وإشارة إلى « الجحيم » و« المطهر » و« الفردوس » للشاعر الإيطالى دانتي الليجيرى . ووصف سوكارنو المراحل التى مرت بها الثورة .. فقال إنها اجتازت جحيم الاستعمار ودخلت فى التطهير الاشتراكى وهى على أبواب الفردوس الموعود .

وتذكرت أن الرئيس جمال عبد الناصر قد استشهد فى كتابه « فلسفة الثورة » بمسرحية « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » للأديب الإيطالى لويجي بيراندللو .. فقد تصور الرئيس عبد الناصر هو وزملاؤه من الثوار أنهم كانوا مثل ست شخصيات عندهم أفكار وعندهم حماس وصدق ، ولكن ينقصهم البرنامج والخطة ..

وطال العرض العسكرى وشوتنا أشعة الشمس .. وخرجت أهت ..

وفي الليل شاهدنا الحفل الساحر ..

لقد كان استعراضاً لألوان الرقص الشعبي من كل الجزر الأندونيسية . .
ألوان وراء ألوان .. والفتيات كل واحدة منهن كالثعبان والموسيقى كالمسامير
أو كالتل قد تسلل إلى جسمها فيقرصها أحياناً بإيقاع ونظام موسيقى . . وأحياناً
تكون لسعات التمل بصورة مرتجلة .

ثم صفق الناس إلى غير نهاية عندما ظهرت فتاة ورقصت نصف عارية
أوربع عارية وكان رقصها طويلاً جداً .. إنها ابنة سوكارنو !
والرقص من معالم الحياة والثقافة في أندونيسيا .

إن سوكارنو نفسه لا يجد أى حرج في أن يرقص . . مع أنه في هذه الخطبة
هاجم الميوعة وهاجم الروك أندول بالذات . ولم يكن التويست قد ظهر بعد !
وأذكر أن الصديق عبد الحميد جوده السحار عندما ذهب ضمن وفد
ثقافي إلى أندونيسيا سألوه في المطار : وأين الرقصات ؟
وزالت دهشته عندما عرف أن الرقص من أهم الفنون الشعبية .

وأذكر أن سفيرنا أقام حفلة في بيته وحضر الحفلة عدد كبير من الوزراء
ثم حضرها عدد كبير من أبناء الجزر الذين كانوا يطبلون ويزمرون وهم جالسون
على الأرض .. وقد اندهشت عندما نهض أحد العازفين وطلب من زوجة أحد
الوزراء ، وكان وزير الأوقاف ، أن تسمح له بأن يرقص معها .. ورقصت
زوجة الوزير مع ابن الغفير . وعندما أحسست بدوخة كنت أظن أن الدنيا انقلبت ،
وأن الدوخة التي أصابتنى تشبه سلندرات مطابع الصحف وأنها إن شاء الله ستكون
فضيحة بجلاجل !

ولكن هذه الدوخة كانت شخصية جداً . وأصابتني وحدي . أما الأندونيسيون
فلم يفعلوا أكثر من الضحك والانشغال براقصات أخريات !

والمرأة هنا تستمتع بحريات أكثر ..

المرأة مقياس الحضارة أى مجتمع .

هل هي سيدة ؟ هل هي خادمة ؟ هل تمشي وراء الرجل ؟ إلى جواره ؟
أمامه ؟ إنها في أوروبا تمشي إلى جواره . وفي أمريكا تمشي أمامه .

ومكانة المرأة تدل على عقلية الرجل . . لأن الرجل هو الذى يضع القوانين وهو الذى يطبقها .

ولا شيء يدل على عقلية الرجل ومدى ثقافته وتقدمه أو تأخره غير نظرتة إلى المرأة .

وفى أندونيسيا أرى الرجل هنا يحترم المرأة ويجعلها تقف إلى جواره وأحياناً يقدمها عليه . والمرأة الأندونيسية هى ست بيت تحب بيتها وتخدم زوجها . ولا ترى عيباً فى أن تكون ست البيت هى خادمة الزوج . وهى ليست خادمة بعقليتها ، بل خادمة بوظيفتها . ولكن عندما تخرج إلى الشارع أو إلى الحفلات فهى «ست» وهى «أخت» . . وهى محترمة . .

وأندونيسيا تضع الفتى إلى جوار الفتاة فى كل مراحل التعليم بما فى ذلك المرحلة الثانوية - على عكس بلادنا . . وأندونيسيا بدأت هذه التجربة فى ظل الاحتلال اليابانى أى من سنة ١٩٤٢ . ونجحت التجربة . ولا توجد فى أندونيسيا جرائم خلقية . لا اغتصاب ولا اعتداء على الفتيات ، لأن الفوارق بين الحسنين متلاشية . فالشاب يشارك الفتاة فى كل مكان . . فى البيت . . ولا أحد يعترض ، وفى الشارع وفى المدرسة والحفلات وفى السينما . . والشباب الأندونيسى لا يعاكس الفتاة فى الشارع . . بل إن الشاب الأندونيسى رقيق جداً . إنه من النوع الذى يعجب الفتاة فى كل مكان . إنه خيالى شاعرى رقيق . .

فالفتاة لها أصدقاء . وبعض هؤلاء الأصدقاء يعرفهم أبوها . وينصحها أن تترك هذا وأن تمشى مع ذاك . ولكن الفتاة الأندونيسية تبقى محترمة فى كل هذه الأحوال . ومن الممكن أن يذهب الصديق إلى بيت والدتها . ومن الممكن أن يستأذن الوالد ويترك ابنته مع الصديق دون أن تشعر الفتاة أو أبوها بأى خوف أو ضيق . . أبداً . . لأنها مسألة عادية جداً .

ومن الممكن أن تجد أمام معظم بيوت أندونيسيا فتيات وفتياناً يتكلمون وعلى وجوههم عبارات طويلة باهتة أو صارخة للحب والهيام . .

سيدات أندونيسيا فى دهشة من سيدات بلدنا اللاتى لا يظهرن فى الحفلات الرسمية .

والحقيقة أن السيدة العربية تدهش للحريات التي تتمتع بها الفتاة الأندونيسية ..
والبساطة التي تعيش فيها .. ولأن الصداقة والزمالة والحب مسألة عادية جداً
لا تحتاج إلى قانون أو إلى تشريع .

والمرأة الأندونيسية تحب البيت والأولاد . وهي ككل النساء تريد أن تكون
أما وتفضل هذه الأمومة على أي عمل .

والمرأة الأندونيسية رشيقة أنيقة .. وجميلة . لا أعرف كم عدد الأندونيسيات
في القاهرة . ولا أعرف ما هي ملامحهن ولكن الذي أراه بالملايين فائن ورائع ..
لإنها رشيقة تراها في الستين من عمرها فتبدو في الأربعين ، لقد رأيت في منزل
الصديق أحمد والى الذي كان ملحقاً صحفياً ظاهية في الخامسة والستين .. رشيقة
لامعة الوجه تمشي على قدميها أميالا كل يوم .. ليس لها كرش .. لا يوجد في
جسمها مليمتر من اللحم أزيد من اللازم . .

والبلاد كلها غابات . . وفي الغابة يعيش الرجل والمرأة بلا فوارق .. فالغابة
لكل الناس . . لا أحد يملك شيئاً . .

وفي الغابات يخنق العشاق واللصوص .. وما أكثر العشاق ، وما أكثر

اللصوص !

● پهالان .. کون؟!

اعتذر عن عدم ذكر أسماء السادة المحترمين الذين اشتركوا في حضور هذه الجلسات فقد وعدت . . ووعد الصحفي دين عليه . . لقد كان السفير . . والملحق العسكري والملحق الصحفي والملحق الثقافي وزوجاتهم . .

والمهم أنني رأيت بعيني ولم أسمع وقد بدأ الفأر يلعب في عبي فعلا. وبدأت أرى أن لعب الفأر معقول . ولم أعد أحاول أن أجعل من أفكارى مصاديد لهذا الفأر ، بل إنني أحاول أن أخطط عبي ليلعب الفأر على أسس رياضية صحيحة ! ولا أريد أن أؤثر في أحد قبل أن أروى الأشياء الغريبة التي رأيتها وحاولت أن أفهمها . ولم أصل بعد إلى رأى .

يظهر أن هناك روحاً أو نفساً أو شيئاً مختلفاً عن الجسم . وإلا فما هو الفرق بين الميت والحي . هناك فارق طبعاً . هو هذه الحياة . ولكن ما هذه الحياة ؟ نقول : نشاط . . طاقة . . حرارة . . دورة للدم . . تفاعلات مستمرة . . لا تتوقف ليلاً ونهاراً .

ويظهر أن هذه الحياة أو النفس أو الروح لها وجود حقيقي خارج جسم الإنسان . . ولكن عندما تخرج أو تطرد أو تنطلق من الجسم فإنها تبقى متأثرة بهذا الجسم . فالجسم يشبه الثوب . وإذا كان الثوب مبتللاً فسيترك أثره في الروح . وإذا كان من الحرير أو من الشوك أو من النار أو من القلق فإن الروح تبقى بعد الموت كذلك .

وإذا أنت حملت حقيبة ثقيلة لمدة ساعة أو خمس ساعات . . ثم وضعتها على الأرض ، فإن ذراعك ستبقى متعبة كأنك لم تضع الحقيبة بعد . وإذا أنت ركبت باخرة يوماً أو شهراً أو خمسين عاماً متواصلة . ثم نزلت منها إلى الشاطئ فستشعر بعد هبوطك إلى الشاطئ أن صوت البحر ما يزال في أذنيك وأن الأرض ما تزال تهتز تحتك . .

ويبدو أن هذا هو الذى يحدث للروح . . فهى تعيش فى سجن اسمه الجسم . وكل خلية حية فى هذا السجن عبارة عن قيد، عن سلسلة..إنها ملايين السلاسل لمئات الألوف من الساعات . . فإذا تم الإفراج عن الروح بالموت ، فسيتبقى أثر هذه السلاسل ، هذه القيود ، وستبقى الروح متأثرة بهذه القيود: بهذه الحياة التى قطعها فوق سفينة قلقة . . سفينة بها عشرات الغرائز التى تشبه قطاع الطرق واللصوص . .

يبدو لى هذا . . - وإن كنت لا أعرف التفسير العلمى الدقيق لما رأيت ..

* * *

والآن أدخل فى الموضوع . لقد حدث هذا كله أمس فى مدينة « بوجور » على مسافة ٧٠ كيلو متراً من جاكرتا . . البيت الذى نحن فيه الآن خليط من أبناء دمياطوجاكرتا . وكانت الساعة الرابعة عصرأ، وقد علمت أن هذا الوقت غير مناسب لإجراء هذه التجربة: والتجربة اسمها باللغة الأندونيسية « جالان كون » ، ويقال إن معناها « الهيكل العظمى » ويقال ليس لها معنى .

وقد أصدرت الحكومة هنا قرارأ صريحأ بتحريم هذه التجربة . فقد شغل بها الطلبة عن مذاكرة الدروس ، وقد تفرغت لها العائلات . وهى فى أندونيسيا أكثر انتشارأ من قراءة الفنجان وفتح الكوتشينة عندنا . .

وفى استطاعتك أن تجربها فى بيتك . . فلم أر أسهل ولا أعجب منها فى حياتى . .

هات سلة . . سلة عادية جداً . وضع فيها خشبة طويلة على هيئة صليب . وضع على هذا الصليب قميصأ . وفى أعلى القميص ارسم صورة وجه على ورقة وضع فى أعلى الرأس عودين من البخور .

ثم ضع في مقدمة السلة قلماً من الرصاص . ضع القلم بين فتحات السلة .
وعليك بعد ذلك أن تحمل السلة أنت وصديق لك على أطراف الأصابع . على
أن يمسك زميل آخر بورقة أمام القلم . أطلق البخور . وردد كلمات : جالان
كون . . جالان بيس . . ومن الممكن أن تقرأ الفاتحة أو أى كلام ديني . .
هكذا سمعت . . .

بعد ذلك ، أى بعد دقيقة سترى السلة تندفع إلى الأمام وتكتب بلغة الروح
التي حلت في هذه السلة .

تستطيع أن تكلمها ، أن تسألها : من أنت ؟
وسترد عليك - كتابة - بلغتها . .

اطلب منها الروح التي تريدها . . ستحضر حالاً . .

ومن هذه الأرواح التي رأيت كتابتها روح رجل حشاش توفى في باب الشعرية
اسمه «حمود صالح» .. إنه يروى النكت .. نكتاً قديمة جداً ، لم نسمعها أبداً ،
ويبدو أنه كان يعمل كناساً أو بائعاً للخضر في القاهرة . . . ثقافته لا تزيد
على ذلك .

وقد لاحظت أن السلة تكتب بلغة عامية جداً .

ملحوظة : اللذان كانا يحملان السلة اثنان من الأندونيسيين ولا يعرفان
كلمة عربية واحدة .

ثم طلب الحاضرون روح السيدة «روز اليوسف» ولم أكن موجوداً .
فقد شتمت الحاضرين جميعاً .

وكتبت لهم : مفيش معاكم حد صحنى ؟

فقالوا : لا . . .

كتبت : بلاش لعب عيال . . .

وطلبت منهم أن يصرفوها . . وقالوا لها : انصرفي .

وبعض الأرواح تطلب من الحاضرين أن يأذنوا لها بالبقاء . وبعضها يصر
على البقاء .

ومن ضمن الأرواح روح رجل اسمه ناصر الدين . . وهو عصبي . . فهو

يضرب السلة في وجوه الحاضرين . ويصر أن يكتب دائماً ..
وسئلت لإحدى الأرواح : ألا يمكن أن تظهر الروح بدون سلة .
فأجابت : هل يمكن أن تمشي من غير ثوب . . .
طبعاً من الممكن . ولكن الأرواح يبدو أنها لا تعرف كل شيء . . وإنما
هى تتحدث بتجارها السابقة في الحياة .

* * *

ولا يوجد ممن يعتقدون في تخضير الأرواح أحد في أندونيسيا لا يسأل السلة
عن صحته وعن حياته .. وعن مستقبله .. وعن مرضه وعن أحوال الناس
الآخرين .. ومتى يسافر فلان ومتى تلد فلانة ومتى تزوج فلانة .. وهل فلان
هذا طيب ، وهل زوجته كذلك ..

كل أحوال الدنيا والدين ، الكبيرة والصغيرة يسألون فيها هذه السلة . .
وقد أصدرت الحكومة في أندونيسيا قراراً بمنع استخدام هذه السلة إطلاقاً ،
وكان هذا القرار على أثر حادث غريب . فقد شاهد البوليس ثلاثة من الأطفال
يحملون في أيديهم سلة ويمشون بها في الشارع وكان ذلك بعد منتصف الليل .
والذى حدث أن السلة كتبت لهم : أريد أن أذهب إلى بيت فلان .
وكان هذا البيت يبعد عن العاصمة عشرة كيلو مترات . ولما ضبطهم
البوليس مزق السلة واعتقل الأطفال الثلاثة .
وأصبحت هذه السلة ممنوعة .

* * *

وهناك تجربة أغرب من الجلالن كون بزمان . .
هذه التجربة رأيتها في بيت أستاذ جامعى تخرج في جامعات القاهرة :
وعاش في القاهرة عشرين عاماً . والتجربة تحتاج إلى ضبط أعصاب أكثر . .
اقفل الغرفة عليك . واجلس في الظلام واقراء آية سورة من القرآن .. ولكن
هذا الأستاذ قال لى إنه يجب اختيار بعض آيات من القرآن . وعندما تختارها
اطلب من « خادم » الآية أن يحضر .
أما حضور خادم الآية . فقد كان بصورة غريبة . . إنه يضرب أى شيء

في الغرفة : يزحزح المنضدة أو يضرب الحائط . ولكن لا ترى شيئاً . .
وامسك قطعة من الزجاج الأسود اللون واسأل هذا الخادم أو هذا الجني
أية أسئلة ، وانظر إلى الزجاج ستجد الكتابة بلون لامع كأنها عقارب الساعة
أو كأنها النيون . .

أنا شخصياً رأيت هذا . . في أكثر من عشرين بيتاً . .
ولم أجد بيتاً واحداً لا تحضر فيه الأرواح أو العفاريت أو الجن المسلمون
ويكتبون باللغة العربية . والكتابة واضحة جداً . .
والكثير من الشعب الأندونيسي يؤمن بهذه الظواهر ويستخدمها في حياته
اليومية . .

قال لي هذا الأستاذ الجامعي أمام كل أعضاء السفارة العربية هنا . . إنه
يستطيع أن يجرى هذه التجربة أمانى . وأنه يستطيع أن يكسر رجل أى إنسان
الآن، وأنه يستطيع أن يكسر رجل أى حيوان بعد جلسة واحدة في غرفته هو .
بل إنه ذهب إلى إجراء تجربة على أحد أعضاء السلك الدبلوماسي العربي
دون أن يقول له . . أو دون أن يعرف . ولكن التجربة كانت قاسية فأشفقنا
منها . . لقد طلب منا أن نوافق على أن نجعله يوقظ هذا الدبلوماسي العربي في
ساعة محددة من الليل . ويجعله ينهض من الفراش ويمسك ورقة وقلماً ويكتب
رسالة نعرفها نحن مقدماً .. ويذهب بالرسالة ويضعها في مكان معين نعرفه نحن ..
كل هذا وهو لا يعرف .

ورفضنا . . ولكنه يؤكد أنه يستطيع ذلك . . ويؤكد ألوف الأندونيسيين
أنهم يفعلون ذلك في بيوتهم .

والزوج الذى يعرف أن زوجته تشتغل بتحضير الأرواح ينحشى على نفسه
منها . ولذلك يشتغل هو أيضاً بتحضير الأرواح ويسخر روحاً خاصة لحمايته
من زوجته .

لأننى لم أسمع مثل هذا العدد من قصص الأرواح في حياتى كلها .

* * *

أما النوم بعد هذه القصص ، وأما الراحة بعد هذه الظواهر الغريبة المفزعة ،

فخرافة . . النوم هو أصعب شيء ولكن هؤلاء الناس ينامون وبعمق .. أما أنا فكان الله في عوفى !

وظلت السلة حائرة بين أيدينا طول الليل . . أو على الأصح ظلت الأرواح حائرة بين أيدينا طول الليل . . وكلنا يستدعى موتاه أو أقارب موتاه وينتظر وتهتز السلة وترنح . . ويكتب القلم بلغة لا يعرفها الاثنان اللذان يحملان السلة . واستدعينا سعد زغلول وبهوفن وسيد درويش ونايليون وشفيفة القبطية وسارة برنار . .

والسلة عادة تأخذ الأوضاع التي تناسب الروح التي تحمل بها . .

فعندما ظهرت روح بهوفن اعتدلت السلة وراحت ترتجف بجنون . والذين يقولون « بجنون » يعرفون أن بهوفن قد وصل إلى حالة الصمم التي أفضت إلى الجنون . . طبعاً واحد موسيقار مثل بهوفن يصاب بالصمم لا بد أن يؤدي به ذلك إلى ما يشبه الجنون أو الجنون نفسه !

وعندما استدعوا روح شفيفة القبطية يؤكدون أن السلة كانت ترقص . على واحدة ونص . . أنا شخصياً لم أتبن ذلك بوضوح وإن كنت لا أستبعد . وعندما ظهرت روح نابليون كانت السلة ثقيلة وشاحمة كأنها مدفع . وأحس اللذان يحملان السلة بشيء من القرف كأنهما يريان خيول نابليون تدوس حرمان المساجد في القاهرة !

وسيد درويش عندما حل في السلة مالت إلى جانب ثم عادت واعتدلت وتساقطت على الجانب الآخر . . وتدل القلم من السلة كأنه الغابة التي توضع في الجوزة . . ويستنتجون من ذلك أنه صحيح أن سيد درويش كان يتعاطى المخدرات وأن الرجل لم ينكر ذلك عندما استدعوه !

• • •

لعبة مسلية يلعبها الناس في كل بلاد أندونيسيا .
أنا رأيت هذه الظاهرة ودارت مناقشات بهذا الشكل الغريب ودهشتي لم تنته ..
وقد لاحظت السلة دهشتي واستنكارى . . وثار وطلبت بإخراجي

من الغرفة . وقالت إن وجودى يضايقها . .
وقلت : إن حركتها تضايقنى وتجعلنى أشعر بشيء من القرف هو خلاصة
الخوف والدهشة والاحتقار لها ولنفسى إذا صدقت شيئاً من هذه الخرافات .
ولكن كل هذا الكلام قرأته مكتوباً أمامى . .
فهايتوا « الثبت » - وهى كلمة عربية فصيحة ومعناها « السبت » أى السلة
والقلم وأسألوها أنتم !

• • •

اليوم ١٨ أغسطس
أحسست فجأة أنه لم يعد عندى ما أقوله . . خلاص . . القلم ريقه نشف
والدنيا أمامى كلها بيضاء . . لقد تعبت عينائى من القراءة والكتابة . . كل شيء
أبيض كأننى كنت أغمس القلم فى سواد عيني . . فلم يعد سواد .
كنت إذا جلست إلى المكتب أحس أننى بكرش من كثرة المعلومات التى
عندى . أما الآن فإننى أرى المكتب يزحف على بطنى ويفصله عن جسمى فأحس
كأننى تمثال نصفى استقر فوق الورق لا يكتب ولا يقرأ .
ولكن لا بد أن أكتب . . لا بد أن أقول شيئاً . . إن كل ما فى رأسى هو
بقايا أشياء . . فى رأسى طفاية سجائر وكل ما فيها أعقاب . . رأسى براد شاي
شربوه ، لم يبق فيه إلا النفل . . وقلمى هذا هو « بزبوز » البراد . . إنه مسدود .
وبين الحين والحين تنزل قطرة .
لأننى أكتب هذه السطور وأبتسم . .
إنها ابتسامة رجاء ، ابتسامة دعاء ، ابتسامة توسل . . ابتسامة هى بقايا ثقة
فى النفس . . ابتسامة الشحاذ للمارة فى الشارع . .
ولكن ولا فكرة فى رأسى . .
إنها ابتسامة تشبه اللعنان والبريق الذى يسبق التقاط الصور . . ابتسامة
تضئ لأفكارى الطريق إلى الورق . . ابتسامة أطلقها قبل التقاط أفكارى المهاربة .
إن قلمى يلتوى فى يدي . . وهذه الابتسامة تشبه « الجوهرة » التى تخرج
من فم الثعبان لتضئ له الطريق إلى أوكار العصفير . .

لإنها تشبه المشاعل التي كانت تلقىها الطائرات قبل إصابة الهدف ومع ذلك ليست في رأسي فكرة واحدة . . .

لا عصفير ، ولا صور ، ولا أهداف . . . لا شيء . . .

أريد أن أقول : إن اليوم هو عيد ميلادي .

طبعاً مسألة شخصية لا تمهم أحداً . . . وإذا حاولت أن أجعل لها مناسبة فسأختر قصة كفاح . . . قصة اللبن الذي هزته الأيام حتى جعلته زبدة . . . هذه الزبدة هي أنا وحياتي الآن . . .

قصة الحديد الذي دخل النار فأصبح صلباً لامعاً طرياً . . .

هل أقول كنت طالباً فقيراً من أب فقير . . . كافح هذا الأب حتى أكل

تعليمي . . .

قصة ابن لأم مريضة تعبت وشقيت حتى تعلم ابنها وعمل .

لا أقول هذه القصة ولا أحبها وأرفضها فهي مليئة بالادعاءات . . . فأولا :

أتصور أنني كنت فقيراً وأنا اليوم غني . وهذا وهم . . .

ثانياً : كأنني أقول إنني كنت لا شيء ثم أصبحت شيئاً . . . وهذا وهم . . .

وثالثاً : كأنني أريد أن أقول إن المسافة بيني الآن وبين الماضي قد بعدت

في الزمان وبعدت في المكان ، وأنتي لا بد أن أذكرها حتى لا ينسى الناس .

الناس ؟ وهل هذا مما يعنى الناس ؟ إن أحداً لا تعنيه هذه القصة . . .

ثم هناك وهم آخر هو أنني قطعت الطريق وحدي دون مساعدة من أحد .

أو دون حظ ؟

لا شيء قد تغير . . . لا شيء . . . فأنا ما أزال فقير النفس . . . متسول العقل . . .

مهلهل القلب . . . وأنا وأفكاري وعواطفني على باب الله . . . !

أما لماذا أكتب الآن . . . فالسبب هو أنني أصبح مولداً جديداً . . .

مولدى الحديد . . .

فقد تلقيت من « أخبار اليوم » ثلاث برقيات . كل واحدة منها هي شهادة

ميلاد .

قالت البرقية الأولى : موضوعك عن الدلاى لاما ممتاز نشرناه فى الصفحة الأولى من أخبار اليوم .. موضوعك عن مشكلة كبرالا منشور فى الصفحة الأولى من أخبار اليوم . . صورتك مع رئيس وزراء ولاية كبرالا منشورة على ثلاثة أعمدة فى الصفحة الأولى .. أهنتك على نجاحك المتواصل الذى يقدره الجميع هنا . والبرقية الثانية تقول : موضوعك عن عرابى باشا ممتاز أهنتك ولك أحسن التحيات .

والبرقية الثالثة : موضوعك عن عرابى باشا ممتاز سنشره آخر ساعة بصوره ووثائقه أهنتك وأتمنى لك حظاً سعيداً .
لم أطفى شمعاً وإنما حملت هذه البرقيات وصنعت منها شمعة وأشعلتها هناك بعيداً . . بعيداً فى أعماقى . . .

. . .

وانتهزت هذه الفرصة السعيدة ، أو التى يجب أن تكون سعيدة ودعوت عدداً من الأصدقاء إلى أن يتناولوا طعام الغداء على حسابى . .
وليس معقولاً أن يقبلوا الدعوة . . فأنا ضيف عليهم . وقبلوا الدعوة ولكن بشرط أن أكون أنا على حسابهم . وهذا ما توقعته عندما دعوتهم طبعاً !
ولكنها حركة مكشوفة من جانبي كما فهمت . وأنا معذور فالفلوس لا تصل هنا إلا بصعوبة . والفلوس هنا لها أكثر من سعر . فى البنك لها سعر . . وأمام البنك لها سعر . . وفى الشارع بعيداً عن البنك لها سعر . . ولكن الروبية الأندونيسية لا قيمة لها إطلاقاً فى أى بلد آخر . . لأنها تشبه تذاكر الترام لا يمكن الاستفادة منها إلا فى تراموايات جاكرتا !

وذهبنا إلى أحد المطاعم الصينية . وكانت هذه فكرتى وكنا خمسة .. سيدات ورجالا . . وجاء الجرسون الصينى وقدم لنا قائمة الطعام . . والحقيقة أنها قوائم الطعام . .

وبدأت المناقشات الغريبة :

— من فضلك هات نمرة ٩٢ . . خمس مرات . .

هذا الرقم هو أحد مائة صنف مكتوبة على قائمة طعام طويلة جداً وباللغة

الصينية وترجمتها بالاندونيسية .

— يعنى ليه نمرة ٩٢ ؟

— إنهم يضعون لكل طعام نمرة .. ونمرة ٩٢ هذه نوع من العصافير المشوية . وبعد دقائق جاء الجرسون ومعه عشرات الأطباق . الشوربة بالشطة أو الشطة بالشوربة وأكوام من الأعشاب من بينها أشجار الخيزران الخضراء المسلوقة .. وأعشاب أخرى تشبه البرسيم .. وحشرات تشبه الأسماك التي توحمت على الحمبرى .. وأكوام من الأرز المسلوق أو المسحوق أو المعجون .. وبدأت المناقشة مرة أخرى :

— معقول ده عصافير ؟ . . .

— طبعاً أمال يعنى أرانب . . .

— أرانب يا شيخ بلاش قرف والنبي بلاش تجيب سيرة الأرانب أحسن نفسى تغم على . . . إنها تشبه الفئران .

— بلاش سيرة الفئران من فضلك . . . أحسن أنا عندى قصة مقرفة .

— بلاش دلوقت . . . خليها لبعده الهباب ده . . . وده ليه ده ؟!

— ده سرطان البحر . . .

— أعوذ بالله . . .

— من حق ، هيه حرم زميلنا « ... » عندها ليه ؟ . . .

— بلاش السيره . . . ربنا يشفيها وخلص . . . ربنا ما يكتب علينا المرض

فى أندونيسيا . . . ده حتى الأسيرين بالروشته . . . شربة الزيت بالروشته . . . لا المرض هنا ولا الموت هنا . . .

— ما حدش يعرف نكته يا جماعة . . .

— أى والنبي . . . بقى ده معقول عصافير . . . وناشفه كده ليه . . . أمال فين

الأجنحة بتاعتها . . . وفيه الكبدة والقنصة . . . أسأله كده . . .

— جرسون . . . بس مش عارف كبدة يعنى ليه باللغة الأندونيسية . . .

وراح يشير إلى قلبه وهو يقول للجرسون إنه يريد شيئاً كهذا . . . واختفى

الجرسون وعاد ومعه كمية من البصل . . . وضحكنا ؟

— أما لو كانت دى أرانب .. تبق مصيبة ..
— حرام عليك .. أرانب فى البلاد الحارة دى ... أعوذ بالله .. حترجع
ثانى ... أف .. يا خبر ... إيه النار دى .. نار .
— وحشة خالص ...
— بتتكلموا جد ... !

— بنضحك ... المطاعم الصينية نظيفة جداً ... ويمكن الاعتماد عليها دائماً .
وأحسست بالملل كأننا فى الفصل الأول من قصة « عودة الروح » لتوفيق
الحكيم .. فى هذا الفصل تدور المناقشات حول ورك الوجة وطوله وعرضه ومن
الذى أكله ومن الذى اشتراه ومن الذى يطبخه .. إلى أن ظهر لنا صديق سادس
وسحب مقعداً وجلس إلى جوارنا .. وطلب هو الآخر رقم ٩٢ وبدأ يتكلم مباشرة:
— تعرفوا أن أحسن أنواع الضفادع هى التى أكلتها فى باريس ..

— إزاي ؟

— إنها طرية لينة لها طعم للديد .. ولكن هنا وأشار إلى الأطباق التى أماننا ..
جافة لأنهم لا يعرفون كيف يحمرونها فى السمن .. ثم لأنهم يقتلوننا .. طبعاً
لا يذبحونها .. وهى صغيرة .. هات شطة يا جرسون .. إيه ده .. يا نهار ..
واكتشفت بعد ذلك أن هذا الذى أكلناه ، لا هو ضفادع ولا هو أرانب ..
ولكن حشرة أخرى .. تمشى وتنام على الجدران !

• • •

وضحكت كثيراً فى ذلك اليوم على الطريقة الأندونيسية أو على الطريقة
المصرية .. ومن غير سبب ولسبب ..
ولم أكد أصل إلى بيت صديق أحمد والى حتى سألتى سؤالا غريباً ،
وطلب منى أن أجيب عنه بسرعة . قال لى . معاك فلوس قد إيه ؟

قلت : ليس كثيراً .

قال : كم ؟

قلت : مائة جنيه ! لماذا ؟

قال : كم ورقة ؟

قلت : عشر ورقات ا
قال : يا نهار أسود . . أخيراً وجدت لك عملا في أندونيسيا .
قلت : لا أفهم .
قال : في استطاعتك أن تدق الأبواب وتقول لله يا أسيادى لله ا .
. . . لقد خفض الرئيس سوكارنو قيمة الورقة من فئة الألف روبية إلى
مائة روبية والورقة من فئة الـ ٥٠٠ إلى ٥٠ روبية . . .
وكان الغرض من هذا القرار هو القضاء على التهريب الذى يتولاه الصينيون
إلى خارج أندونيسيا .
وأعلن الراديو أن الرئيس سوكارنو سيشرح الموقف للشعب . وجاء في بيانه الذى
استغرق ١٢ دقيقة وأعلن فيه أنه راض تماماً عن هذا القرار وأنه يراه ضرورة
لابد منها . وأن الطبيب يلجأ أحيانا للدواء المر لشفاء المريض . ولكن لابد من
الصبر والتضحية .
وأقفل الناس الراديو وعادوا إلى الكلام عن تخفيض العملة . وغلبت
الابتسامات على الحادث ، آه على الكارثة التى حلت بي في ذلك اليوم السعيد ..
إننى مع الأسف لا أستطيع أن أمد يدي إلى أحد ، فهدتها أمامى ، ثم
رفعتها إلى أعلى وطلبت من الله أن يغنينى عن السؤال ا

● أجراس طول الليل!

اليوم سافرت إلى باندونج .. الطريق إلى هذه المدينة التاريخية جميل . فيه غابات وأشجار ومياه وجبال وبراكين .. وحمامات للسباحة لا أعتقد أنني رأيت لها مثيلا في أى بلد في العالم .. إن مساحة بعض الحمامات تساوى مجموع الحمامات الموجودة في كل نوادي القاهرة .. بل إنها أروع وأجمل ..

أما جاكرتا فعجزة جداً .. والهواء يبدو أنه معتقل .. ومدينة جاكرتا تسمع فيها أجراساً غريبة طول الليل ..

ولكن إذا خرجت من تحت الناموسية واجتزت حديقة بيتك – كل البيوت لها حدائق – فستجد أنهم مجموعة من الباعة المتجولين .. كل بائع له نداء خاص ، أقصد له جرس خاص .

ومع هذه الأجراس ستجد كلمات غير مفهومة : آه .. أوه .. آى .. آى .. لهم ينادون على اللحوم والأرز والشاي والفواكه .. فالمحلات التجارية تركز في بعض المناطق .. ولا تجدها في مئآت الشوارع ولا توجد وسيلة للمواصلات في جاكرتا إلا الريكشا ويسمونها البيتشا ..

وجاكرتا تشبه بيروت . وقد لا تجد الهواء في « ساحة البرج » إلا بصعوبة في حين أن جبال لبنان رائعة .. إنها تشبه جبال المغناطيس فهي تجذب كل ما في جيوبك من مال وأنت سعيد !

وجاكرتا تشبه « بون » عاصمة ألمانيا الغربية .. فهذه المدينة هي قرية صغيرة

منخفضة أيضاً وليست صحية .. بل إن الناس يشكون فيها من الإرهاق والتعب المستمر.. لقد مكثت في بون أسابيع عديدة وكنت أنهض من النوم وأنا مريض فعلاً كأنني كنت أنام تحت السرير . أو كأن السرير كان يتمدد فوقى . . أما بانلونج هذه فهي جميلة .. مدينة أوروبية .. فيها فنادق ممتازة نظيفة وفيها نواد ليلية . وفيها كل شعوب العالم . ولكنها في نفس الوقت مدينة أندونيسية فالفنادق قليلة ومزدحمة .

وقد طرقتنا الفنادق واحداً واحداً .. ولم نجد غرفة واحدة ، وأخيراً عثرنا على زميل قديم في الدراسة . إنه يعمل أميناً لأرشييف السفارة العربية هنا وكان ينزل في غرفة بها سريران وتبنت إدارة الفندق إلى أننا سننام جميعاً في غرفة واحدة .. وهذا ضد اللوائح . ولكننا قررنا أن نبيت في هذه الغرفة وإدارة الفندق قررت أن يبيت اثنان فقط .

وكنا نتناوب البقاء في هذه الغرفة . واحد يبيت في المطعم واثنان في الغرفة فإذا جاء الليل سهرنا حتى ساعة متأخرة جداً . وننتهز فترة نوم الخدم وتسلل إلى الغرفة .. حتى الصباح .

وكل غرفة مزودة بكتاب من ست صفحات يتحدث عن كيفية استخدام التليفون الأتوماتيكي — أى العادى عندنا — ومعظم الفنادق هنا لا توجد بها تليفونات وإذا وجد فهناك خط واحد فقط !
ومع ذلك فبانلونج أحسن وأجمل مدينة في أندونيسيا كلها !

• • •

والمرأة الأندونيسية تعيش حياة المرأة الأوروبية . وهناك فتيات جميلات يمشن بالحملة في الشوارع وبيتسمن لك ابتسامات عريضة جداً . ونحن في القاهرة نقول عن البنات الجميلات إنهن بنات نادى الجزيرة أو شارع سليمان باشا وهنا يقولون : بنات شارع آسيا وأفريقيا الذى عقد فيه مؤتمر بانلونج سنة ١٩٥٥ .. أو بنات : آسيا أفريقيا .. أ . . أ . .

وكنت أظن أن « أ . أ » معناها في اللغة الأندونيسية أنهم جميلات جدا أو درجة أولى . . ففي اللغة الأندونيسية لا يوجد جمع . فلا يوجد . رجال أو

أشجار أو بنات .. وإنما يوجد رجل رجل .. أو شجرة شجرة .. أو بنت بنت .. فتكرار الكلمة الواحدة معناه الجمع .. وهم الآن يضعون فوق كل كلمة رقم ٢ للدلالة على أنها جمع ..

فبنات باندونج تستطيع أن تضع فوق كل واحدة منهن رقم ٢ ، ٣ ، ٤ فهن أجمل ما في شارع : أ : أ ! أ : أ ! أي آسيا وأفريقيا !

والذي يرى غابات وبحيرات وجبال أندونيسيا . وحقول الأرز يشعر فعلا أنه أمام مائدة ضخمة .. مائدة خضراء عليها أطباق جميلة وبها ملاعق من ذهب وشوك من فضة وجرسونات وطهاة كلهم ممتازون .

ولكنك في كل مكان تجد الناس يضحكون .. لأنهم شعب ضاحك ولكنهم شعب قليل المرح .. فهم أكثر منا ضحكاً ولكنهم أقل منا مرحاً . والفرق بين الضحك والمرح كالفرق بين الذي يأكل الكثير من الطعام وبين الذي يتذوقه ويتندع فيه أشكالا وألواناً .. ونحن أكثر ضحكاً من الشعب الإنجليزي ولكننا أقل منهم مرحاً .. فليس عندنا أديب جعل من المرح فلسفة ومن السخرية سلاحاً كما فعل برنارد شو وأوسكار وايلد وويند هام لويس .

فالرجل الأندونيسي ضاحك دائماً .. بل إنه مغرق في الضحك ولكنه لا يدرك النكتة ولا يخرعها .. ولا يطلب المرح ولا يتفنن فيه .. ويظهر أن المستعمرين لم يتركوا لأندونيسيا شيئاً إلا الكنوز المطورة في الأرض . والذي تركوه لأندونيسيا يحتاج إلى صيانة ودفاع . فأندونيسيا لها شواطئ ٣ آلاف جزيرة لا يمكن الدفاع عنها أبداً .. ولذلك كانت ثروات أندونيسيا في غربال أو مصفاة ، فهي تتساقط من تلقاء نفسها ..

والذي يهز الغربال ويضغط على المصفاة هم الصينيون .. إنهم أنشط الناس وهم الأقلية والأندونيسيون هم الأغلبية ..

ولكنهم يضحكون .. دائماً .. حتى إذا لم يكن على المائدة طعام وهم سعداء بالطعام الذي تعلن عنه الأجراس !

* * *

والجو هنا جميل ونظيف .. فباندونج عالية بعيدة عن سطح البحر ومحاطة

بالغابات من كل الجهات . والناس هنا أحسن مزاجاً وأصفي بشرة . وقد تعودوا على رؤية الأجانب ولذلك فهم لا يندهشون لوجودهم ..

ومن الغريب أنك تجد عدداً من الهولنديين الذين كانوا مستعمرين لأندونيسيا — وبعض هؤلاء الهولنديين يحدثك عن خيبة الأمل التي ستصيب أندونيسيا بعد خروجهم منها لأن الأندونيسيين لن يتمكنوا من زراعة الشاي ولا استخراج البترول ولا استخراج الحديد من الأرض .. بينما كانوا أثرياء أيام الاستعمار الهولندي .

واللهجة معروفة لنا نحن أيضاً . لقد قالها الفرنسيون والإنجليز والأتراك عندما خرجوا من مصر . وقالوها عندما أمنا القناة وتوقعوا أن تقف الملاحه وأن تهجم الصحراء على القناة فتسدها وتحول السفن كلها إلى رأس الرجاء الصالح ..

وكل ذلك لأن المستعمرين قد تركوا هذا الفراغ الهائل الذي توهموا أنه سيبلغنا ! وهو كلام لا معنى له . ولا بد أن يقوله الرجل الأبيض الذي خرج من أفريقيا السوداء وآسيا الصفراء !

وقد حدث في أحد المطاعم أن تعرفت على سيدة هولندية هي وزوجها وقد تأكدت من أنه زوجها لأنه لا يتحدث معها كثيراً أو قليلاً . وإنما ينظر إليها كما ينظر إنسان إلى فيلم رآه عشرين مرة ، أو إلى نكتة بايخة سمعها ألف مرة .. وفي كل مرة يلمسها يعتذر إليها . أو يعتذر إلى يده التي أخطأت الطريق إلى فتاة أخرى تبعد عنا بمسافة شخصين يلتهمانها بالنظر وبالكلام وباللمس .. والدفاع عنها بالحملقة إلينا !

قلت للزوجة الحزينة : جميلة أندونيسيا ؟

قالت : جداً .. هل أعجبتك ؟

قلت : جداً ..

قالت : أى شيء أعجبتك فيها ؟

— بساطتها .. ورقها .. وضحكاتها .

— كم يوماً عشت فيها ؟

— ليس العمر بالأيام ولا بالسنين ..

— شاعر أنت ؟

– العواطف هي التي تخلق الصورة التي يعبر بها الإنسان . فاللوحة تختار الإطار الذي يناسبها . . والطعام يختار الطبق الذي يناسبه . فأنت لا تضعين اللحم في كأس .. ولا تضعين النيذ في طبق .

– إذا لم يكن هذا شعراً فما الذي تسميه ؟

– أسميه صدقاً في التعبير أو محاولة لأن أكون صادقاً معك . .

– معي أنا ؟

– هل عندك مانع من أن أكون صادقاً معك ؟ .. وهل الصدق معك من

اختصاص رجل آخر ؟ . هل تجاوزت حدودي ؟ أنا آسف !

– لا آسف أبداً . إنما أنت وصلت إلى نتائج بعيدة عن خيالي وبسرعة .

– أكرر أسفى .

– أوؤكد لك أنك أخطأت فهم ما أقول .. إنما أنا أتحدث عن أندونيسيا .

وعن الصدق عامة وليس عن الصدق معي . .

– ولكنى أتحدث إليك . . ولا أتحدث إلى الشعب الأندونيسى .

قالت : اسمع هل في نيتك أن تفسد هذه الليلة الجميلة ؟

قلت : إنما حاولت أن أكهربها . أن أثير فيها بعض العواصف . . لكى

نواجه هذه العواصف بأن يمسك كل منا بالآخر ضد الريح وبذلك نصبح كأننا

حائط منيع !

قالت : ومن أين تهب الريح ؟

قلت : من هنا .

والتقت عيوننا عند رجل واحد . .

وضحكت وهي تقول : إنه ابني من زوجي الأول .. وكان أندونيسياً !

وكنت أظنه صديقها .. وكنت أظنه قد تجاهلها وانشغل عنها ! .

واستمعت من هذه السيدة إلى حقايات الرجل الأبيض في أندونيسيا – ولم

أشأ أن أحدثها عن حماقته في بلادنا . وكلامها معناه أن هذا الرجل الأبيض

لو التزم العقل والحكمة ، لكان ما يزال على قيد الحياة هنا .. وظل سيداً

لمصير هؤلاء الملونين . .

والسيدة الهولندية الأب ، الأندونيسية الابن . لم تدرس التاريخ . .
ولو درست التاريخ لعرفت أنه يحتم خروج الرجل الأبيض . . سواء كان مهذباً
أوحقيراً .

فلا بد أن ينتهى الاستعمار .. والاستغلال ..

ولا بد أن تعود كل أرض إلى أهلها .. ولا بد أن تعود كل قطعة أرض إلى
الذى يحرثها وتتسابق على سطوحها حبات القمح مع حبات العرق !

وتفضلت هذه السيدة ووجهت للشعب الأندونيسى نصيحة يعرفونها جيداً
وهى أن الهولنديين كانوا أرحم بزمان جدياً من أبناء الصين . فالاستعمار الهولندى
كان واضح اللون، أما الاستعمار الصينى فهو يتستر وراء نفس اللون الأندونيسى ..
فلامح الجسم واللون واحدة . ثم إنهم آسيويون ومعظمهم عنده الجنسية الأندونيسية ..
ولكنهم يودعون أموالهم بعيداً عن هذه البلاد !

واتجه الحديث عن الأسعار والمنتجات التى تبيعها مدينة بانلونج . .

وسمعت نصيحته وذهبت فى الصباح الباكر إلى محلات بيع الحلود .. فلم
أجد جلد التمساح رخيصاً كما قيل لى .. فقد وجدت أن جلد التمساح الذى طوله
متر ثمنه حوالى ثلاثة جنيهات . وقد رأيت أن هذا الثمن بالمقارنة إلى الفلوس القليلة
التي معى ، غال جدياً ، وحاول أحد الباعة أن يعطينى أسرة كاملة من التماسيح
بعشرة جنيهات ولكنى رفضت مدعياً أن التماسيح فى السودان أرخص . والبائع
يناقشنى عن مكان السودان . ولكن لهجتى الحادة القاطعة جعلته يتراجع ويرتطم
بالحد الأدنى للأسعار . ويقف عند العشرة جنيهات ! .

وبحثت عن الأقمشة ، على سبيل الفرجة . .

ولاحظت أن الألوان صارخة ، وعليها لوحات فنية .. ولكن النوق مش
ولا بد . أما التماثيل المصنوعة من الخشب ومن العاج ومن العظام فهى رائعة ورخيصة
جدياً . ووجدت أنه من السخف أن أملاً حقائبي بهذه التماثيل . لا لشيء إلا
لأنها رخيصة !

وحاولت أن أشتري بنظوناً . .

ولم أجد مقاسى فى أى مكان .. ولم يحاول أحد أن يعدنى بتفصيل بنظون

على قدى .. أو يعدنى بالانتظار حتى يموت أحد الأمريكان ثم يبيعنى بنظرونه !
وعدلت عن الشراء نهائياً .. وتولانى فزع غريب عندما سمعت أن الثوار
— هناك ثوار ضد الحكم القائم — يحاولون الزحف على باندونج .. وأنه لن يمضى
وقت طويل حتى نكون أسرى حرب ..

وقد سمعت أن هؤلاء الثوار قد ألقوا القبض على السفير المصرى . ولم يتركوه
إلا عندما تأكدوا من أنه عربى وأنه مسلم . فقد أزعموه على الصلاة وطلبوا إليه
أن يقرأ الفاتحة وقرأ الفاتحة . ثم طلبوا إليه أن يؤذن للصلاة . وأذن للصلاة .
ثم اختلف هؤلاء الثوار فيما بينهم . فبعضهم تشكك فى أن يكون هذا
السفير عربياً . فوجهه أبيض أميل إلى الحمرة . وعيناه خضراوان وشعره أصفر ثم
لأنه يرتدى الملابس الأوروبية ..

وأخيرا اتفق الثوار على أن يطلبوا إليه أن يقرأ سورة معينة من القرآن .
وشاءت الصدفة أن يكون السفير قد حفظ القرآن .. جانبا من القرآن عندما
كان طفلا فقرأ هذه السورة .. واستوقفوه ليتلو آية بالذات عدة مرات .
وتأكدوا أنه عربى وأنه مسلم وأنه ليس جاسوساً أمريكياً أو إنجليزياً يعمل
لحساب الحكومة ضد الثوار .

ومن الصدف النادرة أن هذا السفير كان يقود سيارته بنفسه ..
وتستطيع أن تتخيل الرعب الممزوج بالإعماء الذى شل حركة السفير وهو
يقود سيارته بعيداً عنهم .

وقد أقسم لى كثيرون من العرب ومن المصريين ومن الرسميين فى باندونج أن
هذه الواقعة قد حدثت . ولكنهم نفوا أن يحدث أى زحف على باندونج فهم
لا ينكرون وجود ثوار ، ولكن ينكرون أنهم بهذه القوة !

وربنا ستر ولم يحدث هجوم .. ولذلك عدنا سالمين إلى العاصمة . فريسة
للبعوض من جديد !

● أنا في جزيرة النهود

الشيء المثير الذي كان يجذب السياح إلى جزيرة « بالى » هو منظر النساء عاريات الصدر ..

إن السياح يجيئون إليها من أنحاء العالم لكي يشاهدوا تقاليدنا ومعتقداتها التي تختلف تماماً عن تقاليد ومعتقدات الـ ٢٤٩٩ جزيرة أخرى ..

إن أندونيسيا بلاد إسلامية ولكنها تحترم معتقدات الأقليات فيها .. وكان بالى « أقلية » صغيرة وسط الشعب الإسلامى فى هذه الجزر . ومع ذلك حافظت حكومة أندونيسيا على حرية العقيدة فى الجزيرة الصغيرة الشهيرة .

جزيرة بالى يسمونها جزيرة النهود لأن معظم نساها يعشن عاريات الصدر .

والذين سافروا إلى بالى إذا سألتهم قالوا لك إنهم ذهبوا ليروا الجبال الرائعة والطبيعة الغنية والموسيقى الساحرة .. إلى آخر هذا الكلام ! !

إننا نعيش فى عصر جين راسل وجينا لولو وصوفيا لورين وكلوديا كاردينالى ، وكلهن ذوات صدور عارية شامخة ، وقد وصفت الدعاية السينمائية جين راسل بأنها صاحبة الصدر الذرى — نسبة إلى القبلة الذرية — ولكن عندما رأيناها فى القاهرة وجدنا صدرها ذرياً فعلاً ، ولكن نسبة إلى كيزان الذرة .

والصدور العالية مسألة هامة شغلت الفنانين والأدباء والشعراء .. ويقوم فى هذه الجزيرة عشرة فنانين أوروبيين لا يرسمون إلا الصدور العارية فقط ..

وشاعرنا نزار قباني له ستة دواوين في وصف اليهود . . وشاعرنا على محمود
طه عندما رأى تمثال فينوس عالياً وصفها بأن لها ثديين عاليين « كأنهما يرضعان
القمر » .

والفتاة اليوم لا تريد - إذا تزوجت - أن يكون لها أولاد، حتى لا يفسدوا
صدرها بالرضاعة فيترهل .. وقد عرفت شركات الجمال هذا الخوف عند المرأة
فصنعت لها « السوتيانات » أشكالا وألواناً ، من الحرير ومن الكاوتش . .

* * *

ارتفعت بنا الطائرة فوق السحاب . وعلى الرغم من أنها بمحركين فإن طائرات
« جارودا » الأندونيسية جيدة ، والخدمة فيها ممتازة أيضاً . وبعد ساعتين نزلنا في مطار
سورايبا .. ثم عادت الطائرة إلى الارتفاع فوق سحب كثيفة واهتزت بعنف حتى
أحسنا بأننا سنموت دون أن نرى « بالى » أو الجزيرة التي سقطت من الجنة .
ويقال إنها سقطت من بين قدمي آدم عليه السلام .

و« بالى » تبعد عن القاهرة .. كثيراً جداً ، والفرق الزمني هو ست ساعات
وحين يخرج الناس من دور السينما عند منتصف الليل في القاهرة ، نصحو نحن
من النوم . . ومساحتها نصف مليون فدان، وتقع تحت خط الاستواء بثماني
درجات .. فنحن هنا في نصف الكرة الجنوبي .. وليس عندنا أمطار وإن كنا
قريبين من الشتاء، وعندنا درجة رطوبة عالية، والذي يرى الشمس عند الشروق،
يجدها قطعة من النار الملتهبة، حمراء ذهبية دامية ، بل إن أشعتها نزييف من الدم ..
أو شلال من الدم .. أو طاقة مفتوحة في حائط جهنم .

وعندما هبطت الطائرة إلى أرض المطار في مدينة دنباير التصقت وجوهنا
بالنافذة نريد أن نرى سكان بالى .. طبعاً لم نجد إلا رجال المطار في أيديهم
جرادل الماء وسلام وأعلام حمراء وبيضاء ، وفي ملابس كاملة، ودخلنا الحمرمك وتم
تفتيشنا بدقة ، مع أننا قادمون من جاكرتا ، أى من عاصمة أندونيسيا .

وركبنا السيارة إلى « فندق بالى » الكبير . وفي الطريق إلى الفندق كنا نختلس
النظر إلى المارة .

وبعد ذلك عندما اقتربنا من المدينة رأينا البنات يركبن الدراجات ، بالألوف ..

وجوههن سمراء ، والبشرة ناعمة ، والعيون حلوة ، والشعر طويل ناعم وعليه
عمامة بيضاء ، كأنهن خرجن من الحمام تواء . والسيقان ممتلئة كأنها من الصلب
المرن ..

ورأينا النساء جميعاً في ملابس عادية . وكنت أتطلع إلى وجوه الركاب .
لأنهم جميعاً يخفون حقيقة شعورهم . وكان إلى جوارى رجل أمريكي . قلت له :
— ما رأيك ؟

قال : وأنت ما رأيك ؟

— فقدت النطق .. فين الـ .. .

— يظهر أن المرأة أكلت صدرها .. لقد اختفى !

وكان العرب فيما مضى يقولون « تجوع الحرة ولا تأكل بثديها » .. أى أن
المرأة الحرة تفضل الموت على أن تعرى صدرها أو على أن تبيع نفسها ..
والعرب طبعاً لم يدركوا عصر المرضعات والدادات والمثلثات والراقصات .
اللاتى يعشن من صلورهن وهن فى نفس الوقت يستمتعن بالحرية وأشياء أخرى
كثيرة !

ولم يعرفوا أن هناك جزيرة اسمها بالى تعيش على ثديها . فذهب الناس إليها
بملايين الجنيهات فاشترى بعض النساء البلوزة والسوتيان !

وإذا عرفت البلوزة والسوتيان فلن ييجئ إليها الناس بعد ذلك !

وفى كل الشوارع تجد عشرات المعابد . وهى تشغل مساحات كبيرة من
الأرض ، والناس هنا يفضلون تقديم الهدايا للتأثيل على أن يأكلوها .. ويفضلون
الحياة فى ظل المعابد ..

وفى الليل تسمع أنواعاً غريبة من الطبول .

فالديانة هنا هى الهندوسية ، وهى تختلف عن ديانة الهندوس فى الهند ،
فقد أضاف إليها أهل بالى الكثير من المعتقدات الدينية ..

فالرجل من حقه هنا أن يتزوج أكثر من امرأة ، والرجل من حقه أن يطلق
زوجته .

ولكن الجزيرة ظلت معزولة عن الدنيا لم يمسه أوربي واحد إلا في سنة ١٥٩٧ ، وكان هولندياً ، ومن يومها دخلها الهولنديون بالتدريج ولم يحكموها حكماً مباشراً إلا في سنة ١٨٨٢ ، ومع الهولنديين دخل المسيحيون وبعض الهندوس أيضاً ، أما المسلمون فقد جاؤوا بعد ذلك بمئات السنين . .

والجزيرة لا تعتمد كثيراً على السياحة ، وإنما تعتمد على الزراعة وعلى صيد الأسماك وزيت جوز الهند . . والسياحة في أيدي الصينيين . . وفي كل مرة تجدد معبداً أنلونيسياً ، تجدد إلى جواره فندقاً ومطعماً يملكهما رجل صيني . وكل شيء في هذه الجزيرة له قصة ، والقصة لها رقصة ، والرقصة لها موسيقى ، ولها أوقات . .

فالسنة هنا ١٣ شهراً تبدأ بنياثر وتنتهى بشهر أفير . . وعدد أيامها ٢١٠ أيام ، ولا يمضى يوم واحد دون أن يكون هناك احتفال لأى سبب . . فالكثير من أهل الجزيرة يحافظون على تقاليدهم الموروثة . .

فالأمر عندما تحمل ، يجب أن تحتفل الأسرة بهذه المناسبة السعيدة ، فيجىء الراهب ويقرأ قصص البطولة على الأم .

ويروى لها قصص الأخلاق الكريمة ، ومعه تدق الموسيقى . . وعندما يولد الطفل تحتفل الأسرة بهذا الضيف الحديد وتستقبله استقبالا حاراً ، ويذهب كل أفراد الأسرة إلى الغابات فيجمعون ورقة من كل شجرة بحيث لا يزيد عدد أوراق الشجر على ٧٤٢٥ ورقة !

ثم يضعون هذه الأوراق تحت قدمى الأم ، وعلى الأم أن تخطوا عليها ورقة ورقة ، والراهب وراءها يسدد خطاها ويتمنى أن يعيش ابنها بعدد هذه الأوراق ٧٤٢٥ مرة ؟ ! . . ثم يحرق البخور ويأكلون جميعاً عشرات من أطباق الأرز المسلوقة الموضوع فوق أوراق الموز ، ثم يأكلون رجل سلحفاة مائة . . ويشربون عليها عصير اللوم ، ثم بعض الأسماك الخفيفة .

وبعد ثلاثة أيام يعاد الاحتفال بالطفل الصغير . . ولكن في هذه المرة يجب على الأم أن ترقص مدة ساعة . . ومعظم النساء يرقصن مدة ثلاث ساعات بلا توقف .

وعندما يصبح عمر الطفل ٤٢ يوماً ، تحتفل الأسرة كلها باستحمام الطفل لأول مرة ، تحتفل أيضاً بنجاة الأم بعد الإغماء الذي أصابها . أما الراهب فلا يحضر هذا الاحتفال .

وأخيراً يعود أهل الطفل .

وعند منتصف الليل يجيء الراهب ، ويجلس بينهم دون أن ينطق بكلمة ، ويلتفون حوله ويسألونه ماذا حدث ، ولكنه لا يرد . . ويشير الراهب إلى الفرقة الموسيقية لكي تعزف لحناً خاصاً وتعزف الفرقة وترقص نساء الأسرة العجائز أولاً ، والشابات ثانياً ، ثم البنات الصغيرات ، ويشير الراهب إلى خنزير فيدبحونه ، ثم إلى بطة فيدبحونها ، ثم إلى كتكوت صغير فيدبحونه . . ثم يضحك .
وهنا ترقص الأسرة كلها . .

وعندما يبلغ الطفل عاماً تحتفل به الأسرة وتناديه باسمه الذي لم يكن يعرفه . . وفي هذا الاحتفال يجب أن يرقص الأب ، والطفل لا يلمس الأرض قبل مضي عام ونصف عام . .

وبعد ذلك لا تحتفل الأسرة مطلقاً بأى عيد من أعياد ميلاد أى طفل ، ذكراً كان أو أنثى .

وأول احتفال بعد ذلك عندما يصبح الشاب أو الفتاة في سن البلوغ . والشاب يبلغ في السابعة عشرة ، أما الفتاة في الرابعة عشرة . . وهذا حادث هام جداً عند الهنلوس .

وعندما تترك الأم أن ابنتها قد بلغت ، تحرق البخور وترتل الألحان الدينية ، إلى أن يجيء الراهب ويدق الباب وتفتح له الفتاة ويباركها ويرش عليها الماء .

وأروع الحفلات هي ولا شك حفلة الزفاف . ولا يزال الزواج حادثاً هاماً في حياة كل الناس ، في هذه الجزيرة وفي أى مكان آخر . . والأسرة تأتي بآخر ما عندها من طعام وشراب ومال وملابس وزينات ورهبان .

وقد رأيت حفلة زواج استغرقت ١٨ ساعة . لقد حملت طعامي معي . . اللحم والأرز والسلطة والموز وجوز الهند والباباي - فاكهة تشبه قرع العسل - والقهوة ومقعداً مريحاً وبعض الصحف وبعض الشطة !



إحدى الرقصات المقدسة في أندونيسيا . .
وبصفة خاصة في جزيرة بالي التي تدين
بالديانتين البوذية والهندوكية . .



أم أندونيسية وقد حملت طفلها بين طيات
ثوبها - منظر مألوف جداً



البساطة الشديدة أهم علامات الأزياء
في أندونيسيا عند الرجال والنساء .



المهم في هذه الصورة حب الزهور والظهور
أيضاً . . . الزهور في اليد والرأس . . . إلخ .

كان بيت العريس يبعد عن الفندق حوالى ٢٩ كيلو متراً . والوسيلة الوحيدة إلى هناك ليست إلا عربة يجرها حصان ويسمونها هنا : الدوكار ، فى بعض مناطق مصر يطلقون عليها نفس الاسم !

المهم أننا ذهبنا أولاً إلى بيت العروس . . ولم يكن هناك إلا أهلها وقالوا لنا إن العروسين فى الطريق . ودخلت العروس مزينة وارتدت بلوزة من الحرير . . لا أعرف ما اسم هذا اللون . أعتقد أن اسمه « سيكلامان » وفى الريف عندنا يسمونه « لحم الهوام » . غير أنه لا يمكن أن توجد هانم فى الدنيا لحمها بهذا اللون . وتحت البلوزة الملفوفة حول الصدر ، توجد جيب ملفوفة أيضاً . ولكنها من الحرير المشجر ، الأحمر والأخضر والبني . . وفى أصبعها خاتم لا أعتقد أنه من الذهب . . وفى أذنها قرط أحمر اللون وهى تعمل راقصة . .

وفعلا جسمها لا عيب فيه . . جسم سليم عدل - بكسر العين .

والعريس كان يمشى وراءها . . لأنه يلبس الطاقية كمادة أهل « بالى » . وهى قماش يشبه الشال فى الريف عندنا ، ولكنه من القماش المشجر . ويرتدى قبضاً مكويماً . . وبدلاً من أن يلبس البنطلون ، يضع حول وسطه فوطة كبيرة زاهية اللون ، ملفوفة ومعقودة من الأمام ، وفى قدمه حذاء ، وفى أصبعه مجموعة من الخواتم . . والعريس يعمل مدرساً فى إحدى المدارس . . وهو باسم الوجه . . وصلى العروسان أمام الراهب فى خشوع . . بينما وقفت الحماة تشعل النار فى الحطب . . ويظهر أن هذه هى مهمة الحماة هنا : إشعال النار خارج البيت لا داخله !

ثم ينهض العروسان ويلفان حول هذا الكوم من القش ١٧ لفة . . وفى اللفة الرابعة عشرة تقف أخت العروس وأخت العريس ، وقد أمسكتا بخيط ، تعترضان طريق العروسين . ولكن كلا العروسين ، الواحد بعد الآخر ، يبعد الخيط من طريقه ، مرة بعد مرة . . وفى اللفة السابعة عشرة يتقدم العريس ويقطع الخيط ويأخذ نصفه ويضعه بين شعره . وتأخذ العروس النصف الآخر وتضعه فى شعرها . . ثم يجلسان مرة أخرى أمام الراهب .

ويعمى الراهب فى صلواته وتعاويذه ثم ينزل العروسان أمام البيت . . وهناك

تجرى طقوس أخرى . . فكل منهما يحمل شجرة جوز هند صغيرة . وعلى العريس أن يفرس شجرة العروس في مكان ما ، والعروس تفعل نفس الشيء . والعريس يمسك الشجرة بيده اليمنى ، والعروس تمسكها بيدها اليسرى . ومع العريس تذهب أمه ، ومع العروس يذهب أبوها . . ويعودان بعد ذلك إلى بيت العريس . . وفي الطريق إلى بيت العريس ، تمشي أخت العروس وقد أمسكت بذراع العروس ، وأخو العريس يمشي إلى جواره . . وتتردد العروس في دخول بيت الزوجية فيدفعها العريس إلى الأمام .

وفي بيت العريس توجد أكداس وأكداس من الهدايا . . كلها عبارة عن مقاطف وسلال وقفف وكميات من الأرز المسلوق وأرجل الخنازير والدجاج . . وبين الحين والحين يتقدم أحد الجيران بهدية . . إنها أيضاً أرز مسلوق في « مشنة » لها غطاء من الخوص الملون .

وبعد هذه الطقوس يدخل العريس غرفته وينزع ملابسه ويرتدى ملابس أخرى . . وكذلك تفعل العروس ...

وبعد عشر دقائق يخرج العريس . . وتخرج العروس ...
ويبدأ جلوس المدعوين . .

هل تعرف من الذي يقدم الطعام ، ومن الذي يقدم السجائر ؟
إنها العروس . . لقد انتهت الزفة وأصبحت زوجة عادية . . وعلى حماها أن تستريح ابتداء من هذه اللحظة .

هل تعرف أن التقاليد تقضى بأن الحماة تبدأ في معاكسة العروس أول يوم فقط . وتضربها وأحياناً تبصق عليها . . وتعيرها بأنها من أسرة فقيرة وأنها اختارت رجلاً غنياً . . في حين أن كل سكان الجزيرة من الفقراء !

• • •

أهم الاحتفالات جميعاً في هذه الجزيرة ؛ وفي أماكن كثيرة جداً في العالم هو تشييع الميت . . .

والأهرام عندنا هي أكبر مقابر في التاريخ . .
وهي تدل على حفاوة المصريين القدماء بالموت والبعث بعد الموت . .

وكذلك هؤلاء الهندوس يرون أن الموت هو مجرد انتقال من هذا العالم إلى العالم الآخر . .

والميت الذى يدفن فى الأرض ينتقل على مهل . .

أما الذى يحرقونه فهو ينتقل بسرعة ، وكأنه انتقل إلى السماء فى صاروخ . .
ولذلك لا بد من حرق الميت . . وعملية الحرق لا تتم بعد وفاة الإنسان . . وإنما
يجب أن يستعد أهل الميت ليوم الحرق لأنه يكلفهم الكثير جداً من المال . .
فلا بد من القرابين الغالية من اللحوم والملابس وأدوات الطبخ وغرف النوم . .
وكلها يجب إحراقها أيضاً . أما الذى يكلفهم أكثر ، فهو النعش ، لأنه لا يكون
من الخشب العادى ، بل من الخشب الغالى جداً ، ويجب أن يكون على هيئة
ثور . . وهذا الثور يركبه أصغر أبناء المتوفى . . والميت والثور وأصغر أبناء
المتوفى يحملهم جميعاً أقارب الميت .

أما الجنائز فتتقدمها أجمل فتيات الأسرة ، وقد حملت كل منهن برجاً
عالياً من عدة طبقات . وكلما ارتفع البرج ، كان دليلاً على ثراء الميت . . وفى
أعلى البرج توضع دجاجة حية . . والدجاجة ترفرف بجناحيها . .

وفى مكان ما توضع كل هذه الأشياء ، وبعد صلوات طويلة ، وموسيقى
وغناء وتراتيل ، يقف الراهب ويشير بيديه ، وقد أدار ظهره للميت . . وهنا
ينفض ١٣ رجلاً ويصبون الزيت فوق كل هذه الأشياء ، وتشتعل النيران وبعد
مدة نصف ساعة تفوح رائحة الميت .

وتنتهى الحفلات فى هذا اليوم .

وفى اليوم التالى ذهبت مع الألو فى سيارات وعربات . . واجتمع أهل
الفقيد حول بقايا النيران ، وفى موسيقى عاوية جمعوا هذا الرماد ووضعوه فى إناء
واتجهوا إلى البحر . . وألقوا به فى مكان حدده الراهب . . وعادوا إلى بيوتهم .

* * *

ولا يكاد يمضى يوم من الأيام دون أن يكون هناك رقص أو غناء دينى
ف عندهم ١٩٨ عيداً دينياً . . وبعض الأعياد تقتضى الرقص والغناء حتى الصباح . .
وعدد هذه الأعياد « الصباحى » ٣٢ عيداً . أكبرها عيد يوم ١٣ أغسطس .

وكل رقصة لها قصة دينية . . وهذه القصة يرويها أحد المنشدين في أثناء الغناء والرقص .

ولا شك في أن أبناء وبنات بالي من أروع الراقصات في العالم . .

فالطفل يتمرن على الرقص والغناء وهو في الثالثة من عمره . . وقد رأيت أطفالاً في الخامسة والسادسة من العمر يعزفون بحفة وإتقان تام على آلات معقدة جداً . . ورأيت فتيات صغيرات في التاسعة والعاشره يرقصن ساعات كاملة ، دون أن ترى على وجه واحدة منهن أية علامة من علامات التعب ، أو يظهر عليها العرق . . وهذا يدل على أنها ترقص بأقل مجهود ممكن .

والفتيات الصغيرات لهن رقصات خاصة ، أشهرها رقصة اللاجونج . .

وحفلات الرقص هذه كان يعدها الفندق هنا في مدينة دنباسر ، ولكنهم عدلوا عنها في هذا العام . . والحفلات كلها تقام بعيداً عن المدينة ، وفي قرية « ياونيني » على مسافة عشرة كيلومترات من هذه المدينة ذهبنا لنشهد رقصة اللاجونج . . .

لقد جلس الناس في مكان يشبه الجرن في الريف ، كلهم على الأرض . والفرقة الموسيقية مكونة من عشرين عازفاً على الطبول الطويلة المستديرة والمربعة وعلى الحديد ، ومن نافخين في المزامير أو عظام أصلها أرجل بقر أو خيول . . وفي أقصى اليسار إذا كنت تنظر إلى الفرقة الموسيقية — توجد شبه خيمة . ووراء هذه الخيمة اختفت الراقصات . . وبين الحين والحين ، ترفع راقصة طرف الخيمة من أسفل فتبدو قدمها ويصرخ الناس كأنهم رأوا شيئاً لا يجوز أن يروه . . وتعود الرقصة وترفع الستار إلى أعلى شيئاً فشيئاً وصرخات الناس تتبعها . . وأخيراً تخرج واحدة ثانية وثالثة . . وعشر فتيات في سن الثانية عشرة . . وقد ارتدين ملابس جميلة ويرقصن يميناً وشمالاً . ولهن عيون كالخرز الأسود ، تتحرك معاً يميناً وشمالاً ، كأنهن لإحدى اللعب اليابانية . . ولهن حركة عصبية غريبة . فالواحدة تميل إلى أحد الجانبين حتى تكاد تسقط على الأرض ، ثم ترتفع في سرعة خاطفة . . أما أصابع اليدين فهي تتمشى مع نغمات الموسيقى في دقة تامة . وحركات هذه الرقصة معقدة جداً . ولكن الخطوات مضبوطة تماماً كأربع

راقصات الباليه في أى بلد أوروبى .

وهذه الرقصة كانت لا تقام إلا فى القصور ولكنها أصبحت الآن شعبية ، وهى تروى قصة أحد الملوك الذى كان يتشائم لأتفه الأسباب . فإذا مشى فى الطريق وتعثرت فى حجر ، عاد إلى البيت إيماناً منه بأن هذا الحجر دليل على النحس .. وإذا عطس فهو يرتعد ، ظناً منه أن روحه كادت تخرج منه . . وفى يوم من الأيام وقف غراب فوق رأسه - والغراب دليل على النحس فى هذه البلاد أيضاً - وكاد الملك يموت . . فهجم على الغراب وقتله . ولم تمض أيام حتى مات الملك نفسه ، وفى اللحظة التى تخرج روحه فيها ، يظهر الغراب فوق رأسه ، فالغراب لم يموت ... ومعنى ذلك أن النحس سيلازمه فى رحلته إلى العالم الآخر .

أما كيف تعبر الفتيات الصغيرات عن هذه القصة ، وكيف تصور أصابعهن الصغيرة طيران الغراب ورفرفته فوق رأس الملك ، وكيف انزعجن لرؤية الغراب ... بل كيف انزعجت هذه الموسيقى البدائية ، شئ لا يمكن وصفه ..

والذين رأوا باليه «بحيرة البجع» على مسرح الأوبرا فى القاهرة أو فى باريس أو روما ، ودهشوا ولم تنته دهشتهم سيصابون بذهول إذا رأوا فى جزيرة بالى «رقصة الحوريات الأربع» .

وقصة الحوريات الأربع ناعمة لطيفة لا تخلو من معنى دينى وأخلاقى وفى . . الحوريات أربع فتيات فى سن الثانية عشرة ، ويجب ألا تزيد الواحدة على هذه السن أبداً . . هكذا التقاليد . . وقد ارتدين ملابس فضية ووضعن الورود على الرءوس وحول الآذان . . والرجال أيضاً يضعون الورود خلف آذانهم وفى آذان التماثيل أيضاً . . ومررت علينا الراقصات وأخذ كل منا وردة ووضعها وراء أذنه . . وكلما سقطت الوردة لأى سبب عادت إحدى الفتيات ووضعنا وردة أخرى . . وبعد ذلك يبدأ الرقص . . .

ولست فى حاجة إلى أية لغة لكى تفهم قصة هؤلاء الحوريات . . فقد حدث ذات مرة أن ذهبت أربع حوريات إلى البحر ونزعن ملابسهن المسحورة . . وفى ذلك الوقت مر صياد ، وهو شاب جميل ، ونظر إلى الحوريات وأعجبته واحدة منهن ، فأخفى ملابسها ثم توارى وراء الأشجار وراح ينفخ فى الناي . .

وسمعت الحوريات صوت النأى فأنطلقن إلى الشاطئ . وارتدت كل منهن
ملابسها واختفين عن الأنظار . . إلا الرابعة ، أجملهن جميعاً . فإنها لم تجد
ملابسها . آه لو رأيت هذه الراقصة وهي تبحث عن ملابسها . . آه لو رأيت
الموسيقى التي تشبه المقشات وهي تكنس الأرض بحثاً عن هذه الملابس . . لأنها
لوحة بدائية مثيرة . . وهنا يظهر الصياد ، ورجوه الفتاة وتركمه عند قدميه .

ويوافق على أن يعطيها ملابسها بشرط أن تزوجه ، وتقبل الفتاة ، ولكن
الصياد يرفض أن يتزوجها لأنه لا يجب أن يتزوج فتاة بالإكراه . . وإن كانت
تقاليد الزواج دنا هي أن يخطف الفتى عروسه ويخفيها في بيته ثلاثة أيام ، ثم
يضع أهلها أمام الأمر الواقع . .
ثم يقول لها كلاماً معناه : لأنني لا أريد الزواج منك الآن . . ولكن فيما بعد ،
فقد أحببتك منذ وقت طويل .
وتزفهما الموسيقى .

* * *

وهناك رقصة تشبه رقصة العرب في محافظة البحيرة ...

وأنا لا أزال أذكر هذه الرقصة بوضوح فلها عندي ذكرى لا يمكن أن
أنساها . ففي محافظة البحيرة نجد العرب يرقصون ويغنون : وين . . وين . . يا عرب
ويلتفون على شكل دائرة وترقص بينهم فتاة ثم تشير بعضها إلى واحد ممن يسكون
لها الوحدة بالتصفيق فيتجه إليها ويرقص معها . . ويحسده الواقفون لأنها
اختارته دون غيره . .

وهذه الرقصة يسمونها هنا « رقصة الدلال » . . فالفتاة ترقص وحدها وفي
يدها منديل ، ثم ترمي المنديل على أحد الحاضرين فينهض للرقص أمامها . . والذي
يرفض أن يرقص أمامها - كما فعلت أنا - تعتقد أنه هانها إهانة شديدة . . .

ولم أسمح هذه الإهانة إلا عندما تظاهرت بالعرج بعد نهاية الرقصة !

والفتاة لا تزال تختار الواحد وراء الآخر حتى يصل عددهم إلى ١١ راقصاً ،
وبعد ذلك ترقص وحدها والحزن باد على وجهها وعلى ما أصابها ، لأنها لم تجد
الفتى الذي تريده . . ويخرج لها من بين الحاضرين أحد الراقصين المحترفين

ويرقص معها ساعة كاملة وهي سعيدة به . . . وتختم الموسيقى هذه الرقصة
لا بالتدرج ولكن « قطم » . . مرة واحدة !

وأجمل الرقصات التي رأيتها في جزيرة بالي ، هي رقصة « البارونج » وهو
حيوان يرمز به للخير ويشبه الأسد . وهذا الحيوان قد نزل من مكان لا يعرفه
أحد ليساعد الناس في القضاء على « الرانجا » وهو الشر . . وهو يشبه
الغوريلا . . أما إله الخير فيمثلته اثنان من الرجال يلبسان معاً هيكلاً من القماش
له ذيل ورأس وأنياب ، ويرقص الرجلان معاً برشاقة وقد تعلمنا بعض التهريج
لإرضاء السياح الأجانب ، فقد رأينا الأسد هذا يعاكس الأطفال الصغار ويخرج
عن نطاق الموسيقى . . .

ويبدأ الصراع بين الخير والشر ، فالشر يريد أن يقتل شاباً صغيراً وحيد
أمه . فيتدخل أحد خدام الخير ويعطى هذا الشاب الحياة الأبدية . ولكن الشر
لا يعلم ويحاول قتله ، أو أكله فيفشل . .

ولا يسعك إلا أن تنهر وأنت ترى ضربات السكين والموسيقى معاً . .
ومحاولة وضع الأنياب في جسم الشاب ومعها الناي . . فعلا منظر جميل جداً . .
كل ذلك يجري على التراب ومن حفاة لا يعرفون القراءة أو الكتابة وينتقلون
من هذه القرية إلى المدينة التي تبعد عنهم ٢٠ كيلومتراً .

ومن بين الراقصين رجل عريان في السبعين . . إنه أخف وأرشق من كل
الراقصين . . إنه يقفز إلى أعلى وينزل على السلم الموسيقي في غاية الرشاقة . . وقد
علمت أن هذا الرجل سافر إلى أمريكا وظهر في برودواي ، ولكنه لم يتمكن من
إظهار براعته - لأنه أصيب بسعال شديد - لقد كانت هذه الرحلة لأول مرة
في حياته واضطره الأمريكيون إلى ارتداء ملابس كاملة . . !

ولكن هل ينتهي الصراع بين الشر والخير . طبعاً لم ينته ، فقد رأيت أنصار
إله الخير يحاولون قتل إله الشر . . وينجحون في قتله ويرقصون . . ولكن الشر
يعود إلى الحياة وهم يرقصون . . فيحزنون حزناً شديداً ويضربون أنفسهم
بالسكاكين والسيوف ويتمرغون على الأرض . . وفجأة يظهر الخير ويبدو
الخلج على الشبان . ولكن الخير يحتضنهم ويقول لهم كلاماً على لسان السيدة التي

تروى قصة هذا الصراع : إن الشر لن يموت وأنتم متفقون . . يجب أن تتساووا
كالأسنان في الدفاع عنى . . ولكنكم لم تفعلوا ...

ويزداد حزن الشبان ، ولكن الخير يتركهم ويتجه إلى صراع الشر الذى
فوق أحد السلام ... ويصعد إليه الخير ويختفى الاثنان . . وبين آونة وأخرى
تسقط علينا ملابس إله الخير وملابس إله الشر . . ومعنى ذلك أن الصراع مستمر
أمام عيوننا وفى أماكن أخرى لا نراها .

واللوحة الفنية الكاملة هى رقصة الوداع . . إن هذه الرقصة ليس فيها
موسيقى . . ولأن الفرقة الموسيقية تتكون من هؤلاء الراقصين وهم يجلسون حول
عمود النور فى ظلام . . ويتقدم واحد منهم ويشعل المصابيح والراقصون يصرخون
حوله ويرددون كلمة : « كاتشاك . . كاتشاك . . » مئات المرات . . ويرقصون
معظم الوقت وهم جالسون ثم يترنحون ويرتمى بعضهم على بعض فى صورة فنية
جميلة . وبين هؤلاء تظهر فتيات صافيات البشرة والألوان . . فساتين زاهية ،
وعلى رؤوسهن أكداس من الورد والياسمين على هيئة تاج تبرز منه ريشة ذهبية ،
ويبدأ الرقص . . وهم جالسون ، وهم نصف جالسين . وهم واقفون ، وهم
راكعون ، وهم ساجدون . . كل حركاتهم مضبوطة جداً ، رشيقة ناعمة جداً . .
ويبدأ الراوى يحكى لنا قصة الوداع .

وكل قصة وكل حوار له رقصة رائعة .

وفى عيد استقلال أندونيسيا ، أقيمت حفلات استعراض رائعة فى القصر
الجمهورى . ومن بين هذه الرقصات كانت رقصة الوداع . وقامت بها مائة
فتاة وشفقت الجماهير وصفرت . . ولكن عندما بدأ الرقص أحس الناس بخيبة
أمل هائلة ، فعلى الرغم من أن الفتيات جميلات . فإن الرقص لم يكن جميلاً .
فكل الفتيات كن من العاصمة ، وليس بينهن واحدة من جزيرة بالى . . وعلى الرغم
من وجود مسرح وأزياء أنيقة وموسيقى ، فإن رقص بالى الذى يقوم به الرجال
العراة والحفاة وفى الطين ، كان أروع ...

وكانت هذه هى أحسن تحية لجزيرة بالى .

هذه الأعياد ترفع فيها الأعلام وتدق فيها الطبول لتدعو الناس فى

جزيرة بالى إلى رؤيتها . . وهذا ما يشغل الناس ليلاً وحتى الصباح . .
أما الذى يشغلهم نهائياً فشيء آخر .

فى كل بيت نجد عدداً كبيراً من الديوك . وأمام كل بيت نجد أقفاصاً
دائرية . وفوق كل قفص قالب طوب وتحت القفص يوجد ديك كبير تبدو
عليه الشراسة .

فصارعة الديوك هى الهواية المفضلة هنا .

ولو رأيت الأموال التى يدفعها الناس عند مصارعة الديوك لاحسنت أنهم
من أصحاب الملايين .

والديك ثروة وصاحب الديك يستطيع أن يتفاخر أمام الناس كصاحب خيول
السباق الناجحة . فهذا فلان صاحب الديك ثعلب أو الديك قرد أو الديك رعد ،
والشوارع يعرفها الناس بالديوك الموجودة بها . . وقد ظللنا نصف ساعة نبحث عن
الشارع الذى يوجد به مكتب شركة الطيران ولم نهند إليه . . والذى أدهشنا أن
الناس يسألوننا : بالقرب من أى ديك ؟

وطبعاً لم نعرف . وأخيراً عرفنا أن مكتب الطيران فى شارع « الديك الأبيض
بلا نقطة سوداء » .

وصاحب الديك يظل طول اليوم يسن أصابع الديك ومنقاره . . وكان أصحاب
الديوك فيما مضى يضعون السموم فى أصابع الديوك وفى مناقيرها ولكنهم عدلوا
عن ذلك لأن هذه السموم تنهى المعركة بسرعة وذلك بقتل أحد الديكين أو
الاثنين معاً !

واكتفوا بوضع سكين مربوط إلى ساق كل ديك . . سكين قاتل .

والغريب أن عدد المقامرات أكبر من عدد المقامرين . ومن الممكن أن
تجد الزوجة تكسب من هذا القمار ويخسر الزوج . ويقال : إن المرأة اختارت
القمار لتتعم بالراحة فى بيت أهلها بعيداً عن الزوج ؟

أما جمهور الديوك فيشبه جمهور الكرة عندنا . .

وبعد انتصار الديوك تقام حفلات رقص وغناء فى الشوارع المجاورة وبعض
الناس ينقشون اسم الديك على أذرعهم ، أو على صدورهم ، أو يطلقون اسم

الديك على أولادهم أو على دكاكينهم . . وفي بيت صاحب الديك الذى فشل فى
المصارعة يخيم الحزن والغم .
وكان أبى من هواة مصارعة الديوك أيضاً ! .

* * *

ومن أهم معالم هذه الجزيرة سيدة جميلة هى الآن أرملة طروب واسمها
السيدة « فى بالك » وهى زوجة الفنان البلجيكى لوماير . تسكن فى البيت الذى
تركه الفنان لها بالقرب من شاطئ صافور وفندق سيجارا . . والمسافة بين بيتهما
وبين الفندق حوالى عشرة كيلومترات . .

ذهبت إليها فى الساعة الرابعة بعد الظهر . وهو موعد قيامها من النوم هكذا
قالوا لنا ، ووجدنا باب البيت أو المتحف مفتوحاً ودخلنا فلم يقابلنا أحد . اللوحات
على الحائط لهذه الأرملة الجميلة وكلها من رسم زوجها لوماير . لوحات بالزيت
وأخرى على الخشب وعلى القماش وعلى قشر جوز الهند ، وانتقلنا من غرفة إلى
غرفة . . ووجدنا سيدة قد تمددت على سرير . . وتراجعنا . . ولكن خادمة
عجوزاً طلبت إلينا أن ندخل وخشينا أن نزعج السيدة النائمة ، ثم عرفنا أنها هى
الأرملة . ودخلنا ووقفنا إلى جوار سريرها نتظاهر بأننا لا نتفرج عليها ، ولكن
السيدة ظلت فى سابع نومة ، كأن أحداً لا يتحرك فى الغرفة ، لقد تمددت على
السرير عارية تماماً وأدارت وجهها للحائط ولم تر إلا جسمها النحاسى الطويل
الممتلى ، وإلا بشرتها الحية ، وإلا جانباً من وجهها اللامع . وخرجنا بعد أن
تعمد بعضنا أن يحدث أية ضجة لإيقاظها . ولكنها لم تتقلب !

وعرفنا من الخادمة أنها ستصحو فى الساعة الرابعة والنصف . . وهى تصحو
عادة من تلقاء نفسها . . وسألناها وكيف تعرف الوقت بالضبط ؟
وأبدت الخادمة حيرتها وأشارت إلى السقف ومعناها دى حاجات بتاعة ربنا ؟
وفى اليوم التالى قابلناها على الشاطئ . لقد نزلت تستحم وحدها وحارت
عدسات السائحين بين أيديهم وبين أمواج البحر ثم خرجت سمراء بالى إلى الشاطئ تنفض
الماء عن جسمها وتلقى به فوقنا وكأنها تقول : حصوة فى عين اللى ما يصلى على النبي !
ورددنا هذه العبارة بلغات مختلفة . .

وأما الأمريكيون فقالوا : تساوى مليون دولار !

وأما الفرنسيون فقالوا : إنها غجرية رائعة .
والإيطاليون قالوا : ياماما . . وكيف يموت أى إنسان إذا كانت هذه زوجته ؟
ولغات أخرى لا أعرفها . . باليابانى والصينى والأندونيسى . .
سألتها : وكيف تمضين الوقت ؟
قالت : ألم تأت أمس إلى البيت ؟
قلت : جئت فعلا .
قالت : هكذا أمضى وقتى .
قلت : فى النوم ؟
قالت : وفى الاعتذار عن النوم الطويل للسائحين أمثالكم . .
ولم أجروا على سؤالها كما فعل سائح أمريكى : ألم تفكرى فى الزواج ؟
فأجابت : لا أفكر .
وقال : ولماذا ؟
قالت : ليس هناك من هو أحسن من زوجى !
وسألها أمريكى آخر : وأنت الآن ألا تسمحين لأحد أن يرسمك كما كان
يفعل زوجك ؟
فأجابت : لا أسمح .
وعمرت بعينها غمزة أوربية فقلنا لا بد أن هذه من تعاليم المرحوم !
وانتقلنا معها إلى البيت . وعرضت علينا لوحاتها وكانت تقف إلى جوار
كل لوحة . . وننظر إليها وإلى اللوحات . . وكنا نقول : هى أجمل . . وكنا
نقول : ولكن اللوحات أبهى !
إن بيتها وسور بيتها وملابس الخدم والأبواب والنوافذ وكل شئ فيه عمل
فى كامل . . وصورها العارية تماماً هى من أروع ما رسمت ريشة زوجها الفنان
الكبير .

والذى لم ير هذه الأرملة الجميلة كأنه لم ير شيئاً هاماً جداً فى جزيرة بالى
فهى تمثل حياة فنان كبير جاء من بلجيكا وقع فى غرام هذه الراقصة واختارها
لنفسه ، وعاش لها كل سنواته الأخيرة . . وإذا كانت الفتاة لم تستمتع بالحياة

مع الفنان الكهل فإنها قد ضحت من أجل جزيرة بالى ، فهي تشبه عروس النيل
التي كان الفراغتة يلقون بها فى النيل ليفيض . . وقد فاض نيل السائحين هنا
بملايين الجنبيات كل عام . . فالناس يجيئون من آخر الدنيا ليروا الرقصات
الدينية والمعابد وهذه الحساء . .

هذه هى جزيرة بالى - بالك

بالى . . هو اسم الجزيرة أما « بالك » فهو اسم زوجة الفنان البلجيكى التى
تعيش فى أروع معرض صنعه زوجها فى أروع جزيرة .

* * *

ما رأيك فى رحلة إلى هذه الجزيرة التى يصعب أن تحددها على الخريطة . .
أنا أقول لك على السكة : أركب الطائرة من القاهرة إلى بومباى بالهند
فى ٩ ساعات ، ومن بومباى إلى مدراس فى أربع ساعات ، ومن مدراس إلى
كولومبو عاصمة سيلان فى ثلاث ساعات ، ومن كولومبو إلى سنغافورة فى ست
ساعات ، ومن سنغافورة إلى جاكرتا عاصمة أندونيسيا فى ساعتين ، ومن
جاكرتا إلى سورابايا فى ساعتين ، ومن سورابايا إلى دناباسر عاصمة جزيرة بالى
فى ساعة واحدة . . والمسافة قصيرة كما ترى وهى فرقة كعب لا تزيد أبداً
على عشرة آلاف كيلومتر !

(٢)

الجزيرة تشبه المعبد الكبير . كل ما فيها صلاة ، ولكنها معبد بناه ويصلى
فيه فنان . ولذلك فالصلوات فيها فنون : رقص وغناء وموسيقى .

ليلاً ونهاراً .

وكل أبناء الجزيرة فنانون . . الصغار والكبار .

وفى جزيرة بالى أرتشق الرجال . . وأجمل النساء فى كل أندونيسيا . وألوانهم
سمراء فيها صفرة خفيفة . . ولكن المرأة الأندونيسية رشيقة وقوامها نحيف . . ومن
النادر أن تجد امرأة بدنية . . نادر جداً . .

عشت فى هذه الجزيرة أسبوعاً لا أرى إلا الرقص وإلا الغناء ، كأننى أخطأت

الطريق إلى بالى . . وذهبت إلى أحد معاهد الموسيقى حيث الأطفال والشيخ
يتمنون على الرقص قبل استعراض كبير . .
وأروع ما رأيت هناك هو حفلات الزواج وحفلات حرق الموتى . . وصلوات
وطقوس وهدايا .

وكل الناس سيكون فى الأفراح وفى المآتم . .
لأنهم يشعرون أنهم فقدوا عزيزاً عليهم . .
أذكر أننى ذهبت لرؤية عقد قران . البيت متواضع جداً . . ويشبه بيوت
الفلاحين عندنا . . العروس حلوة صغيرة فى السن . . والعريس أكبر منها بحوالى
عشرين سنة . ولكنه رغم ذلك رشيق ووسيم . . جلس العروسان أمام الراهب وهو
المأذون الهندوسى - والهندوسية هى دين الجزيرة - وراح يقول كلاماً طويلاً لم
أفهمه .

وطالت الصلوات والدعوات .
سحبت مقعدى إلى الوراء وجلست فى أحد الأركان ورحت أتحدث إلى
المرشد الذى جاء معنا . .

وقلت : هذه فتاة جميلة فعلاً .
وأشرت إلى إحدى قريبات العروسين . ونظر المرشد إلى فتاة فى الثامنة عشرة
من عمرها سمراء نحيفة عيناها سوداوان وشعرها أسود ولها ملامح مرسومة بعناية
غريبة وضحك المرشد قائلاً :

عاوز تتجوزاها .

فضحكت . . وعاد هو يسألنى ضاحكاً : عاوز تتجوزاها .

فقلت ضاحكاً : أيوه ...

وطبعاً هذا كلام . . مجرد كلام .

وأبناء أندونيسيا يضحكون على الفاضية وعلى المليانة . . وعندما يفهمون
يضحكون وعندما لا يفهمون يضحكون أيضاً .

وعدنا إلى الراهب إنه لا يزال يقوم ويجلس ويطلق البخور وملتنا مراسم
الزفاف . . فوقفت أمام بيت العروسين أنطلع إلى الرجال وهم يحملون جوز

الهند ووراءهم النساء . وقد وضعت كل منهن وردة وراء أذنيها . .

وبعد ساعة عدت إلى بيت العروسين فوجدت الراهب لا يزال يقول كلاماً ،
والعريس باسم الثغر والعروس سعيدة . . وبين الحين والحين ترفع رأسها ولكنها
تقول شيئاً . والكلام حرام عند عقد القران . .

دخلت أرى آخر مراسم الزواج . . .

وأشاروا إلى لكي أجلس . . وجلست وراء الراهب . .

ثم أتى بمقعد وجلس أمامي . . وراح يقول كلاماً ويلف بالبخور حول
رأسى . . ويقدم لي جوز الهند . . وأمد يدي وأطبق يدي على قطعة من جوز
الهند الجاف كالحجر . ويدور الراهب حولى . .

وجعلت أتلفت وأحسب الوقت الذى سيقطعه الراهب فى اللف حول
عشرين زجلا وسيدة من الأمريكيين والألمان والفرنسيين والإيطاليين جاءوا
لمشاهدة عقد القران . . سيستغرق ساعتين على الأقل . .

ولكن الذى حدث هو أنه بعد أن دار ولف حولى . . تركنى وعاد إلى
مكانه . . وبعد لحظات أتوا بمقعد ووضعوه إلى جوارى وفوجئت بفتاة تجلس
إلى جوارى . . إنها نفس الفتاة التى قلت عنها إنها جميلة . . وراح الراهب يدور
حولى . . وأصبت بذهول . . إنهم أخذوا المسألة « جد » . . مش معقول .

لانى أنظر إلى وجه الفتاة فأجده قبيحاً . وأرى عينيها كعيني البقرة . . وأرى
أنفها كأنه مقبرة وشعرها الأسود القاتم كأنه مجموعة من السلاسل وخيوط النايلون
الأسود كلها ستلف حول عنقى . . حول حياتى . . وأنظر إلى قدميها وقد اتخذتا
لون التراب . . وأرى فستاناً يشبه قماش المراتب . . .

وأتلفت ورأى فأجد كل السائحين الأجانب فى دهشة وبعضهم فى ذهول
وبعضهم يضحك من قلبه ويقرضنى ويقول : مبروك . .

— مبروك إيه !؟

قررت أن أجرى . . أو أهرب . . وفعلاً نهضت من مكاني وانطلقت إلى
خارج البيت . . ولكن أحداً لم يعترضنى . . لم يسكنى . . وبجئت عن حنطور
وانطلقت إلى الفندق . . وبجئت عن أحد من المرشدين أسأله عن حقيقة ماحدث .

.. ولكن المرشدين جميعاً خرجوا مع السائحين في أماكن مختلفة من الجزيرة . . .
ذهبت إلى مكتب السياحة . . . فلم أجد أحداً . جلست في غرفتي قلقاً ،
لا أعرف كيف أفكر ولا كيف أواجه الزواج . . . وماذا أعمل بالفتاة . . . وأنا
لا أعرف ما هي التقاليد بعد ذلك . وهل سأخرج من الجزيرة سالمًا . . . وإذا
خرجت بقوة القانون فأين أذهب بها . . . ثم كيف أتخلص من هذا الموقف الغريب ؟
قابلت مدير الفندق ودار هذا الحوار المتعب جداً بيني وبينه . قلت :

اليوم شاهدت حفلات الزواج . . .

قال : أعجبتك ؟

قلت : جداً ولكن يظهر أنها مليئة بالمفاجآت . . .

— آه طبعاً .

— من الممكن أن يدخل الرجل أعزب ويخرج متزوجاً دون أن يدري ؟

— طبعاً . . .

— طبعاً إزاي ؟!

— عاداتهم غريبة جداً هنا . . .

— افترض أن واحداً دخل أعزب وخرج متزوجاً دون أن يدري .. فإذا يعمل ؟

— ولا حاجة .

— ولا حاجة إزاي ؟! افترض مثلاً يعني . . . واحد زوى مثلاً يعني . . . أهو أنا

سائح أجنبي . . . ذهبت إلى أحد الأفراح وأعجبتني فتاة مثلاً وقلت لها إنها تعجبني .

فهل معنى ذلك أنها تصبح زوجة لي مباشرة ؟ . . . مفيش حاجة أقل من الزواج .

— يحصل كثير قوى . . .

— وبعدين ؟!

— الناس يتزوجون هكذا . . .

— افترض يعني أن هذا حدث لي . . . مثلاً يعني . . . فإذا أعمل بمثل هذه

الزوجة . . . ؟

— إنها خادمتك . . . خذها معك إلى أي مكان . . . إن بنات بالي لا يتكلمن

ولا يعترضن على إرادة الزوج . . . والمرأة في بالي لاتعرف الطلاق ولا الرجل أيضاً . . .

إلا في ظروف نادرة جداً . . .

— مش فاهم . . . افرض مثلاً يعني . . . أن هذا حدث لى . وتركت هذه الزوجة فى بالى فاذا يحدث . . .

— ستبقى زوجة لك إلى الأبد . . . سواء تعيش معها أو تتركها . . .

— يعنى لا تزوج بعد ذلك ؟

— لا . . .

— من الممكن أن تموت هذه الزوجة من الجوع .

— ليس إلى هذه الدرجة . . .

— ولكن يجب أن تترك بيت والدها فوراً بعد الزواج . . .

— وأنت مشغول لهذه الدرجة بالزواج هنا ؟

— أبداً . . . أصلى عاوز أكتب مقالة كده . . .

— مقالة . . . أنا عندى موضوعات غريبة . . . عن أنواع الزواج الغريب هنا . . .

— هنا أعجب أنواع الزواج . . .

— زى إيه كده . . .

— أيوه . . . حكايات طويلة . . . نلتقى فى الليل . . . الخ .

— كلام غير مريح وكلام كله عايم . . .

— وفى الليل حاولت أن أجده لأسأله عن الزواج الغريب . ولا بد أن يكون

زواجى هذا من أغرب القصص . . . وربما كان من أقلها غرابة . . . ومعنى ذلك

أنى يجب أن أنتظر ما هو أغرب . . .

— وفى الليل كان لا بد أن نشاهد إحدى الرقصات الجماعية على مسافة ٧٠

كيلومتراً من الفندق . . . وكانت الرقصة رائعة ولكن كان بينى وبينها ستار أسود .

— هذا الستار يتحرك أمامى يميناً وشمالاً . . . كأنه مرسوم فى داخل عيني . . . لأنه

صورة الزوجة التى لم تكن على بالى . . .

— وبعد انتهاء الحفلة ذهبت إلى غرفتى . . . لم أذهب إلى المطعم . . . أحسست

بضرورة قاسية إلى أن أجلس وحدى . . . وفوجئت بأن شبحاً يجلس أمام غرفتى .

— إنه نفس الفتاة وأمامها لفة من الملابس . عندما رأتنى ابتسمت ونهضت واقفة . . .

وابتسامها حلوة . وأنا حائر لا أعرف كيف أكلمها ، وكل ما أعرفه من اللغة الأنثونيسية لا يزيد عن عشرين كلمة .

وحاولت أن أعمل جملة واحدة معناها : إيه اللي جابك هنا ؟ وإيه الحكاية . ويبدو أنها فهمت كلامي وكان ردها : بو أباه بئ . أوه

وأنظر إلى وجهها فأجده يبسم .. وجهها حلو . ويبدو أنها غسلت وجهها وارتدت فستاناً جديداً .. وسألها عما إذا كانت قد تناولت العشاء .. فلم تجب .. وطلبت لها عشاء ورأيتها وهي تأكل بيدها الكبيرة .
والمصيبة أنني لم أجد أحداً أسأله .

وجلسنا نحن الإثنين على مقعدين متواجهين . أنا أضع يدي على خدي وهي تراجعت في مقعدها وهات يا نوم .. وأنا في دهشة من نومها العميق .. وعندما استغرقت في النوم تركتها ودخلت غرفتي ..

وبين الحين والحين أنظر إليها من وراء الباب فأجدها نائمة ..
وفي الصباح وجدتها قد غسلت وجهها ولا أعرف أين .. وجلست في حيوية ونشاط وبشرتها صافية ناعمة .. وأنا أحمر العينين مصدع الرأس .. ولم تكذب ترائي حتى نهضت تبسم قائلة : سلامات باجي .
ومعناها صباح الخير ..

وأمرت لها بطعام .. ولم أجلس لأرى كيف تأكل وإنما قررت أن أذهب لهذا الراهب أنا وبعض الأصدقاء لأجد لي حلاً .. فالمسافة بيني وبين سفارتنا في جاكرتا طويلة .. لأنها أربع ساعات بالطائرة ..
أما هنا فلا أجد أحداً أسأله عن الزواج والطلاق والنفقة ومقدم الصداق وموخر الصداق ..

وتصادف أنني مررت أمام غرفة أحد الأصدقاء في الفندق وسمعت ضجة وهمساً وضحكاً متواصلاً .. إنه مقيم في هذه الغرفة وحده .. فما الذي حدث .. وفتحت الباب .

وقابلتني عواصف من الضحك .. إن هذا الصديق هو مليونير أمريكي يحب الدعابة ، ومعه فلوس في حجم المقطم ولا يدري ماذا يفعل بها .. إنه

يلهو ويلعب .. تصوروا أنه قد دبر كل هذه التمثيلية من أولها لآخرها مقابل مبلغ من المال ..

وبعد ذلك نظرت إلى البنت فوجدتها حلوة مرة أخرى .. حلوة .. وسألني :
ما رأيك تتجوزها ؟

قلت وقلبي زى الحديد : أبوه مستعد !

(٣)

الآن يحدث أنك تبحث عن صورك وأنت صغير لتعرف كيف كان وجهك وجسمك ، وكيف كان لون شعرك الذى ذهب ولمعان عينيك الذى خفت !
الآن يحدث أنك تسأل والدتك عن طفولتك .. ماذا كنت تعمل وماذا كنت تقول ؟

وجزيرة بالى هى طفولة الإنسان ، ففيها كل شئ يدل على سذاجة تفكيره وبساطة إدراكه لنفسه ولغيره ..

وأنا أحدثك هنا عن طفولتنا جميعاً ..

الجزيرة ليست صغيرة كما كنت أتصور ويبدو أن العقل الإنسانى لم يكن صغيراً كما نتصور أيضاً ..

والناس يقضون نهارهم فى الحقول أو أمام الأنوال اليدوية ، أو حفر الخشب ، أو تلوين القماش ، أو تلوين قشر جوز الهند ، أو التمرين على الرقص والموسيقى ، أو تدريب الديدوك على المصارعة . أما الليل كله للموسيقى والغناء والرقص . لأسباب دينية . ويظهر أن الإنسان يحتاج إلى دين ليتقن أى عمل . فهم يتقنون الرقص والغناء والموسيقى وبراعتهم فى هذه الفنون مذهلة . فالأطفال يبدأون العزف والغناء فى الثالثة .

والفتيات يرتدين تيجاناً من الورد وفساتين من الحرير الملون وحافيات الأقدام وكأنهن أوراق ورد تناثرت .. أو كأنهن بقايا ملائكة أو قطع من السماء .

والمعابد هنا أهم المباني كلها .. وفي كل مكان رقصات القرد وغابات القرد ولوحات القرد .. وكلمة «قرد» في لغة جزيرة بالي لها مشتقات كثيرة ويطلقونها على كثير من الأطعمة والنباتات الغريبة .. مثل كلمة «ماكينه» في اللغة الإيطالية التي يطلقونها على ماكينه الحلاقة على الطائرة !

وأنت هنا في بالي يجب ألا تخاف من الناس أبداً .. فهم مسالمون طيبون . ولكن الجزيرة رائعة .. إنها كفتاة جميلة عيها أنها تخلف المواعيد .. حاجة بسيطة !

ولكنها حلوة ويزداد حرصك عليها فتصلى للسماء أن تشفيها من مرض المواعيد. إنها ليست أجمل الجزر التي رأيتها ولكنها أغربها جميعاً . لقد رأيت جزر كابري وصقلية وكورسيكا وكريت وقبرص وسيلان وسنغافورة .. والآن أعيش في جزيرة جاوة .. ولكن بالي أغرب هذه الجزر جميعاً ..

وكل الدعاية لهذه الجزيرة تقول : إن الناس هنا يعيشون على الفطرة .. ليس سكان الجزيرة وحدهم .. وإنما السياح أيضاً ..

هكذا قلت لنفسى وأنا نصف عريان أمام باب الفندق !

* * *

وفي الطائرة المسافرة إلى جاكرتا كان من نصيبي أن أجلس بجوار سيدة هولندية إحدى بنات المستعمرين لهذه البلاد لمدة ثلاثة قرون . وكان لا بد أن نقول أى كلام فما تزال أمامنا أربع ساعات قبل أن نصل إلى جاكرتا . وعرفت أنها أمضت في جزيرة بالي أكثر من ثلاثة أسابيع .

ولم تعجبها هذه الجزيرة .. وقد كانت تفضل أن يبقى الناس بدائين حفاة عراة كعرض حي يستحق أن يأتي إليه الناس من أقصى بلاد العالم . ولكن كل شئ تغيرت معاملة . فهناك سيارات ودراجات وأحذية وبلوزات وجيبات .

وعرفت أنها جاءت إلى هذه الجزيرة قبل عشرين سنة وتهدت على الذى مضى ولم أسألها عن الذى مضى فلا بد أن الناس كانوا كلهم عراة رجالا ونساء ، ولا بد أن الحياة كانت هناك على الفطرة الكاملة ..

والتفتت فجأة ناحيتي وقالت : أين كنت أمس ؟

قلقت : في الليل ذهبنا لمشاهدة حفلة زفاف أحد الأثرياء .

وبدا على وجهها القرف وقالت : كانت فضيحة .. فضيحة .. فضيحة ..

وسألها : كيف ؟ لم ألاحظ أى شئ ..

قالت : ألم تر ما فعله البيض .. ثلاثة من البيض قاموا يرقصون .. وضحك

الرجال والنساء .. وكانت فضيحة .. فضيحة !

أنا لا أذكر شيئاً من هذا الذى تحدثت عنه السيدة .. بل أنا لا أذكر

كيف انتهى هذا الاحتفال .. والاحتفالات تنهى فجأة وبلا تنبيه وبلا حماسة .

وخشيت أن أسألها كيف انتهى هذا الاحتفال ..

ولاحظت أنها عندما تحدثنى لا ترفع عينيها عن النافذة ترقب محركات

الطائرة ، أما أنا فيجب أن أجعل أذنى قريبة منها لأسمع ماذا تقول ..

وانشغلت عنها تماماً .. ولم أعد أسمع ماذا تقوله لى .. ولا أعرف إن كانت

تحدثنى أو تحدث نفسها ..

وتذكرت أننا ذهبنا فعلاً إلى حفلة الزفاف وأنا كنا نتابع الحفلة باهتمام

شديد . وطال الاحتفال وعزفت الموسيقى .. ونحن لانعرف كيف نعود إلى الفندق .

فالمسافة طويلة والأبواب مغلقة لأن العروسين يتشاءمان من الذين يخرجون

قبل نهاية الحفلة .. ونخشى أن نطلب فنجاناً من القهوة فنحن لا نعرف كيف

يصنعون هذه القهوة ، نحن فى حيرة تامة .

وفجأة فكرنا أن نضع المقاعد فى أقصى المكان ونتمدد عليها وننام حتى

ينتهى الاحتفال .. ولكنه مكان موحش مفزع . والطبول لها صدى مخيف ..

ولو اقتحمنا الباب فنحن لا نعرف النتيجة فكل مدعو يضع وراء ظهره سيفاً ..

والطريق أمام البيت مظلم تماماً وفيه أشباح غريبة تروح وتجيئ ..

والنوم مستحيل أيضاً ..

وفجأة تذكرت .. لقد ظهرت العروس ومعها صينية عليها فناجين صغيرة

وفى حركة آلية نهضنا جميعاً واقفين وجلست العروس وقدمت لنا القهوة وهى

جالسة وشربنا القهوة واقفين ..

ولا أذكر بعد ذلك إلا أنني صحوت في اليوم التالي ثقيل الأذن والعين والجسم.
حاولت أن أسأل إدارة الفندق بصورة غير مباشرة .. ولكن أحداً لا يتكلم ..
لأنهم يتسمون فقط ولا يقولون شيئاً .

حاولت أن أسأل المرشد .. إنه هو الآخر يتسم ..
حاولت أن أسأل الأمريكي والإيطالي اللذين كانا معي .. لقد سافرا إلى
الشمال وسعودان بعد أيام .

أما ماذا حدث .. فعلم ذلك عند السيدة الهولندية .. لقد كنت أحد اللذين
شربوا القهوة المسمومة .. وحدث مغص .. وتمرغت على الأرض دائماً تماماً .
ولا أعرف كيف نقلونا جميعاً إلى الفندق !
وكانت الفضيحة !

إن كل الجنسيات تجدها هنا في جزيرة بالي .. ولكن أكثر السائحين
— أقصد السائحات — من أمريكا وأكثرهن عواجيز وفوق ٦٠ سنة .. والغرف التي
عن يميني وشمالى تسكنها عواجيز أمريكيات يقضين الليل كله في السعال والكلام.
وكان من بين الأمريكيين رجل طويل عملاق ضخم .. ولكن دمه خفيف جداً ..
أصبح صديقي بسرعة غريبة . وكنا نذهب إلى حفلات الرقص والغناء معاً . وبنام
الفندق ونظف ساهرين حتى تنام الضفادع وتصحو العصافير ..

وكان «جيم» هذا لا يكف عن الضحك والأكل والشرب . ولكنه يحفظ
دائماً بروح معنوية شابة .. شاب حتى دائماً ، متنبه دائماً ، على الرغم من أنه
تجاوز الخمسين من عمره .

وكانت تبهرنى بساطته .. فهو إذا لم يجد مقعداً جلس على الأرض ، في التراب ،
في الطين . إنه لا يهتم .. وإذا لم يجد طعاماً نام حتى الصباح بلا طعام .. وليس
لحياته برنامج أبداً وهو سعيد جداً .

في يوم ذهبنا إلى الفندق متأخرين عن موعد الطعام .. أما أنا فثرت ودخلت
المطبخ وقابلت مدير الفندق أطالب بطعامي لأنه لا توجد مطاعم محترمة في الجزيرة ،
وطالبت بالحد الأدنى من الطعام : بعض اللحوم والسلطة أو عصير الطماطم .
ولكن المدير أمر بإحضار طعامي كاملاً ونسيت في ثورتي أن أسأل «جيم» إن
كان يريد أن يأكل ، وعندما عدت إليه وجدته يقرأ في رواية بوليسية كانت في

جيبه . وجاء الطعام وأكل دون أن يسأل أو يعترض .. بل إنه كان يأكل أطعمة
لها رائحة كريهة جداً .. وإذا سأله الجرسون أجابه : ممتازة ..
وبعد أن يتركنا الجرسون يقول لى : إنه لم يذق فى حياته أسوأ من
هذا الطعام !

وفلسفته فى ذلك هى : أنه لا داعى لتحطيم روح أناس أقاموا فندقاً صغيراً
فى جزيرة بدائية .. يجب تشجيعهم على إتقان عملهم وبناء فنادق أحسن
وأروع .. وثانياً : لأنه هو شخصياً ولد فقيراً وعاش كالفقراء .. وثالثاً : أنه جاء
إلى هذه الجزيرة ليستريح . وهو لن يسمح لإنسان أو طعام أن يضايقه . .
كلامه معقول !

وعندما كنا نذهب إلى حفلات الرقص كان «جيم» هذا هو آخر من
يبحث عن مقعد أو مكان قريب من الرقص ، وكان إذا رأى سيدة بدائية
واقفة نهض وأجلسها ، فإذا رفضت حملها ووضعها فوق المقعد .. والناس
يضحكون وهو سعيد ..

وأصبحنا صديقين ودعائى لزيارته فى هونج كونج ..

وفى الطائرة وأنا عائد من بالى إلى جاكرتا كنت ألقب فى المحلات فوجدت
إعلاناً فى صفحتين فى مجلة «لايف» ووقعت عيني على اسم أعتقد أننى سمعت
به من قبل .. ومددت يدي إلى جيبى وأبحث عن البطاقة التى أخذتها من جيم
وعليها اسمه وعنوانه .. قرأت البطاقة وقرأت العنوان والشركة التى يعمل بها ..
إنه يعمل فى شركة باسيفيك لبناء السفن ومركزها هونج كونج ورأس مالها ١٥٠
مليوناً من الجنيهات .. بل إنه مديرها العام وصاحب أكبر الأسهم فيها .

• هذا الرجل يملك هذه الملايين ؟ . وهذه البساطة ؟ !

لقد كنت أناديه باسمه مجرداً من أى تكليف وأنا متردد .. وأخيراً كنت
أناديه باسمه الصغير جيم هاى جيم .. هالو جيم ..

ولم أكن أعرف أننى وأنا أرفع الكلفة بينى وبينه كنت أرفع سبعة من الأصفار
ستكون ثمانية وتسعة إن شاء الله !

بهذه البساطة بل بسبب هذه البساطة أصبح مليونيراً !



● القارة السعيدة !

اضطرت وأنا في أندونيسيا أن أعود إلى الهند مرة أخرى . فقد قامت حرب الحدود بينها وبين الصين . وكان الخلاف على خط إسمه خط ماكوهان . والخط قديم وهو يفصل بين الهند وبين الصين . وهو طبعاً خط على الخريطة . ولا وجود له على الأرض . وقد توغلت القوات الصينية إلى داخل الأراضي الهندية . واعتدت على قوات الحدود وثار الصحف في الهند . وثار الرأي العام . وحركات الصين على الحدود تدل على أنه من المحتمل أن يتسع نطاقها في أية لحظة .

والصور التي التقطت للقوات الصينية تؤكد أن طرد الدلاي لاما ، ليس إلا خطوة في برنامج طويل يهدف إلى تصحيح الحدود بين البلدين . أو بعبارة أخرى هذه الحدود لم يعد لها معنى الآن . فقد كانت هذه الحدود بين دولتين لم يعد لهما وجود الآن . فقد كانت بين الصين في عهد الإمبراطورية . وقد ذهب هذا العهد . وأصبحت الصين جمهورية . وبين الهند أيام كانت مستعمرة بريطانية واليوم استقلت الهند وأصبحت دولة أخرى !

وكلام مثل هذا كثير جداً . ولذلك تقدمت القوات الصينية وأطلقت النار وجرحت وقتلت وأسرت . وهددت إمارات صغيرة على حدود الهند وتعيش في رعاية الهند مثل ولايات : سكيم وبوتان وغيرهما .

وسافرت إلى الهند ماراً بسنغافورة مرة أخرى . وبكلكتا ثم نيودلهي . وعندما

سمع مستشار سفارتنا صوتي في التليفون كاد يفقد النطق من هول المفاجأة وقال وقد خانته ذوقه الدبلوماسي ، والصدقة الحديدية : وأنت ما الذي أتى بك .. هذه مصيبة !

وعرفت أن سفارتنا كانت قد وقعت في أزمة بسبب ما كتبتة عن الهند . ولكن الهنود كانوا أكثر تسامحاً وأكثر هدوءاً .. واعترف لي منهم الكثيرون بأن بلادهم في حاجة إلى إصلاح .. ثم أي بلد في الدنيا .. بهذا العدد ، وحديثة العهد بالاستقلال ، أليست في حاجة إلى إصلاح .. ؟
ثم إن الهند ليست بلداً ولكنها بلاد وأديان ولغات !

وفي هذه الرقة ، وفي رحابة الصدر ، وفي النظرة الثابتة إلى هذه البلاد الواسعة العريضة الغنية العميقة ، تمنيت أن أعود إليها وأن أعيش فيها .. وأن أمشي على قدمي وأن أفصح الطريق للأبقار والقروود وأن أتركها تعيش كما أعيش ..
فليس من حق الإنسان أن يقتل ليعيش هو ..

وفي رطوبة المعابد . وفي عقب رائحتها وفي الأعياد ، وفي حماس الذين يعرفون عن الهند ، وعاشوا فيها مدة أطول . وتجاوبوا معها أكثر . تمنيت أن أعود إليها سريعاً ..

ولم تطل إقامتي في الهند ..

فقد سافرت بعدها مباشرة إلى أستراليا .. فلا فتحت حقائبي ولا بدلت ملابسي ..

وكل ما فعلته هو أنني توقفت في مطار سنغافورة .. وأمام رجل حافي القدمين ، أو يرتدي حذاء يشبه صنادل الآباء الفرنسيين . وقفت أعد له ما في جيوبتي من روبيات هندية .. وأطلب إليه أن يحولها إلى جنيهات أسترالية .. وكان من رأي هذا الرجل أنه من الأفضل أن أحتفظ بهذه الروبيات فسعرها أغلى في أستراليا .. والروبية الهندية هي أحسن أنواع العملات في كل القارة الآسيوية .. ولكن أمام عدم اكترائي الواضح لهذه النصيحة ، قدم لي عدداً من الجنيهات أخفيتها في جيبي .. واتجهت أتسلى بالتطلع إلى الوجوه التي رأيتها من قبل .. كان كل شيء في مكانه لا يتغير .. وكأني لم أذهب إلى أقصى الجنوب .

وأصعد إلى أقصى الشمال . فبائعة السندوتشات كما هي . وابتسامتها تسبقها إلى كل الناس . . وبائعة أوراق اليانصيب في مكانها . . وأقلام الشفاه الريستيان ديور وأقلام الحبر الشيفرز والباركر كلها على الأرض . . متجاورة وملخبطة كما يتجاور على رصيف محطة القاهرة البيض والسميط والطعمية واللبان . . والفتاة التي تمجزغرف الفنادق لا تزال وراء النافذة الزجاجية ولا يزال وجهها إلى الأرض . تماماً كما رأيتها من قبل . . فهي لا تنظر لأحد . . وإذا رفعت وجهها لك ، فن الصعب أن تعرف إن كانت تتحدث إليك وحدك . أو إليك وإلى الواقف جوارك في وقت واحد . . وهي لأنها تحفظ أرقام كل الغرف الحالية لا تنظر إلى الغرفة . . حتى الأطفال الإنجليز الذين جاءوا يمضون أجازاتهم السنوية وعددهم بالآلاف لا يزالون واقفين في الطابور . . لا بد من الطابور . وكل واحد يمسك جواز سفره في يده . . إن بعض هؤلاء الأطفال لا يمشى وإنما يجبو . . وبعضهم حتى غير قادر على أن يجبو . . إنه ممدد في سرير صغير تدفعه المضيفات من طابور إلى طابور . . !

وعندما ركبت الطائرة إلى أقصى الجنوب . كانت معلوماتي عن أستراليا تحدها الدهشة والسعادة والرهبة . .

كل النشرات الرسمية التي أمامي تذكر كل شيء إلا شيئاً واحداً . . إنها تتحدث عن المصانع الحديثة . وعن السكك الحديدية والمباني الحديدية . . وهناك أرقام وإحصائيات عن مستوى المعيشة وكيف أنه مرتفع وكيف أن أستراليا اليوم هي جنة العالم كله . تصوروا قارة كبيرة جداً يسكنها تسعة ملايين . أو يسكن جانباً منها تسعة ملايين فقط . ومع ذلك فهذه القارة التي أقلت الهجرة في وجوه كل الناس ، أو على الأصح في وجوه الملونين فقط . . أي السود والصفير وحتى البيض تشترط أن يكونوا أصحاب مهنة فنية . .

وفي هذه النشرات صفحات كاملة عن تربية الأغنام وصناعة الصوف وتصدير الصوف واستيراده .

وصفحات أخرى عن السكان الأصليين لهذه القارة وكيف أن الحكومة في أستراليا حريصة على بقائهم ولذلك تضعهم في مدارس محاطة بالأسلاك كأنهم حيوانات نادرة !

وأقلب في النشرات وأتفرس في الصور وفي الوجوه . لا شيء إلا الصناعة
وإلا التنس وإلا الأغنام وقطارات السكك الحديدية .. وصور رجال في غاية
ونساء في غاية الصحة .. وحدائق ونواد وملاعب .

وكان إحساسى أن استراليا هي دكان كبير جداً أو مزرعة كبيرة أو ورشة ..
ولكن أين حياة الناس لا أعرف .

ودار الحديث مع جارى فى الطائرة حول استراليا وكل واحد منا يتحدث
عن شيء ..

وهذا المتحدث أسترالى ..

هو : إن بلادنا عظيمة وستكون أعظم من أمريكا فى الخمسين عاماً القادمة .
أنا : ممكن جداً .. ولكن كيف يعيش الناس عندكم !
- أحسن حياة .. إن دخلهم مرتفع . وفى بلادنا كل شيء . وهم يعملون
وناجحون .

- ولكن بعد العمل أين يذهبون .

- إلى بيوتهم .. أو إلى الحدائق والنوادى . فنحن كما تعلم أشهر دولة
فى لعب التنس ..

- أقصد الرجل وزوجته أين يذهبان بعد نهاية العمل ؟

- إلى أى مطعم أو دار للسينما لمشاهدة أى فيلم سينمائى .. أو زيارة الأصدقاء .

- أقصد الفتاة والفتى أين يذهبان لقضاء وقت لذيذ ؟

- الإحصائيات تقول إن ٢٥٪ من الشبان يلعبون التنس .. وملاعب التنس
فى المجتمع الأسترالى الحقيقى .

- أقصد بعد أن يلعبا التنس أين يذهبان ؟

- لا أكاد أفهم .

- معك حق .. أنا أريد أن أقول أين يذهب الشباب من الجنسين بعد

أن يفرغوا من العمل ومن لعب التنس ومن العشاء .. أين يمرحون ؟

- بلادنا كلها مرح .. إن أى بيت تدخله يتحول إلى رقص وغناء

فى البيت أو فى الحديقة .. إنها ليست مشكلة عندنا .. ولكن يبدو لى أنك

لم تفهم كلامى .. ماذا تقصد بالضبط من المرح ..

— أقصد المرح .. الهیصة .

وفهمت أنه لابد من وجود الأب والأم عندما تخرج الفتاة للزفة . لم أصدق أن يكون هذا هو حال الفتاة في استراليا .

ولكن عندما نظرت إلى الرجل الذى أتحدث إليه وجدته عجوزاً .. وجدته .. يرتدى كرافة سوداء ..

ولذلك لا أستبعد أن يكون فى حياته شئ ما .. مثلاً .. إنه أحب واحدة وهذه الواحدة كان قد قابلها فى إحدى الحدائق دون أن يكون والدها معها .. أو تكون لهذا الرجل ابنة قابلت شاباً دون أن تأخذ رأيه .. وكانت النتيجة أنها تزوجت هذا الشاب .. ولابد أن هذا الزواج فشل .

ولابد أن من آمال هذا الرجل . والرجال الذين فى سنه ، أن يتمكنوا من زراعة نوع من الأشجار يقوم بدور الأب والأم ..

فما زال تحت كل شجرة فى الدنيا فتى وفتاة ، لابد أن تنبت نفس هذه الأشجار آباء وأمهات يجرسون الأبناء من الشياطين ..

— الهیصة . لا أظن أن هناك شعباً أكثر هیصة من شعبنا .. إنك تجد رجلاً فى الأربعين أو الخمسين من عمره يرقص مع فتاة فى الثالثة عشرة أو الخامسة عشرة .. وهو سعيد وهى أكثر سعادة منه ..

— أنا أقول لك بشكل آخر .. لإفرض أن شاباً أحب فتاة .. بلاش الحب . يعنى استلطفها كده .. رآها فى الطائرة أو فى المطار أو فى الفندق ، أو فى أحد المطاعم أو فى الشارع .. فأين يذهبان ؟

— ألا تقول إنه رآها فى مطعم وكانت مع والديها ؟

— لم أقل مع والديها .. أين يذهبان بعد ذلك ؟

— عندنا حدائق عامة جميلة جداً ..

— والناس يجلسون فيها كما يريلون ؟

— طبعاً .

— يعنى من الممكن أن يتعانق الشبان فى الحدائق ..

— أوه .. إنك قصدك كده من الأول .. إن المسألة أسهل من كده جداً .

— إزاي ؟

— كل الطرق تؤدي إلى الكنيسة .. ألم تقل إن الشاب رآها ومعها أبوها وأمها ..

— لم أقل لا أبوها ولا أمها ..

— كان لا بد أن تقول ذلك ..

على كل حال مهما قال هذا الرجل ، فأنا في الطريق إلى استراليا وسأرى بنفسى ..

وفي هذه الأثناء مرت علينا المضيئة ببعض المشروبات فاعتذر ومال برأسه إلى الوراء وارتفع صدره الأحمر الكبير وهات يا شخير للمرة الرابعة في خلال ساعة واحدة . فكل الطرق تؤدي إلى النوم .. إلى نومه هو !

وعدلت عن التفكير في أي شيء وجلست أستمع إلى ما يدور في نفسى .. وتمنيت أن أسمع شخيراً في داخلى لكل رغباتى وهموى .. شخيراً متواصلاً كما يفعل أبناء استراليا .. أو على الأصح أحد أبناء استراليا .. فلإني لم أر بقية العشرة ملايين ! « استراليا بها أيضاً ١٣٠ مليون رأس غنم — أى سدس أغانم العالم كله ! »

• • •

بعد ٣٨ ساعة من الطيران من دلهى وصلت إلى سيدنى ، أجمل وأروع مدن استراليا . وأنا أعتقد أنها أجمل ميناء رأيت في حياتى . وقبل أن أحدثك عن استراليا هل تستطيع أن تقول لنفسك في دقيقة أو خمس دقائق كل ما تعرفه عن استراليا ، موضحاً كلامك بالرسم .. أية معلومات لديك عن هذه القارة غير صحيحة .

إن استراليا قارة كبيرة يسكنها حوالى عشرة ملايين نسمة . وقد انتقلت فيها من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب .

والناس هنا كبار في الطول والعرض والنساء أيضاً . ربما كانت المرأة الاسترالية هي أصح امرأة في الدنيا .. لأنها ليست جميلة ولكن ليست فيها عيوب جسمية مطلقاً .. ولم أر رجلاً عجوزاً ، ولم أر مريضاً . ورأيت شحاذاً واحداً كان يغنى ويعلق على صدره لوحة مكتوباً عليها : أشكر الأطباء الذين احتفظوا لى ببعض

ضوء عيني لكى أراك وأشكرك !

طبعاً يوجه الكلام لمن يعطيه حسنة .. ولا أحد هنا !

يكفى أن ترى المحلات التجارية هنا لتعرف الرخاء والسعادة التى يعيش فيها الناس ، إن هذه الأشياء التى لن تجد لها معنى هى ملايين الجنيهات معروضة فى فترينات جميلة : وولورث وكول . ودافيد جونز . وفارمر . وبالمر .. هذه هى أجمل محلات لبيع كل ما يريد الإنسان وحيوان فى وقت واحد ! .

فمحلات فارمر هذه توجد منها عشرات الفروع فى أية مدينة استرالية . والمحل الواحد عبارة عن ستة أدوار تصعد بها بالسلام المتحركة .. وفيها مطاعم وفيها مقاه على الواقف وعلى القاعد .. وفيها أقمشة وأدوات الزينة وكتب .. كل شئ موجود وبأسعار معتدلة جداً .. ولكن أين الذى يملك المال . وأين الذى إذا ملك يعرف كيف يشتري ! .

إن شارع كاسلرى وهو يشبه قصر النيل فى القاهرة . قطعة من الذهب والماس والجواهر - أقصد النساء هنا - وشارع جورج وشارع رو . وشارع هنتر . والعبارات هنا عالية تصل إلى عشرين و ٢٥ طابقاً . وكلها من الزجاج .. كل الواجهاة والجوانب . ويبدو أن هذا فن معمارى جديد .

ومدينة سيدنى لؤلؤة .. لأنها تقع على الجبال وفى الوديان وعلى جزر .. ويقسمها إلى نصفين خليج فانتن طوله ٢٠٠ كيلو متر .. ويصل بين طرفى الخليج كوبرى تكاليفه ١٨ مليون جنيه وطوله أربعة كيلو مترات .. وفى أعلى الكوبرى قلعة ترى منها كل المدينة على ارتفاع ٥٠٠ قدم ، وفيها معرض ومن بين المعروضات فترينة جميلة عن الفراعنة « الذين كانوا أول من اخترع صناعة الصوف فى العالم واحتفظوا به سليماً ألوف السنين » - مكتوب عليه هكذا - وبين جانبي الخليج وبين الجزيرة توجد لنشات صغيرة تنقلك فى سرعة إلى حيث حديقة الحيوانات وحديقة النباتات ، وإلى أجمل بلاجات رأيتها فى حياتى . أجمل من بلاجات دوفيل فى فرنسا ونيس ومونت كارلو وأجمل من الريفييرا الإيطالية والفرنسية معاً ..

هل تحب أن تعيش فى سيدنى ؟

أنا أجيب عن هذا السؤال قائلًا : أتمنى !

عندما سافرت من القاهرة كان ذلك في أواخر يونيو .. يعنى الدنيا حر ..
وعندما وصلت إلى الهند بدأ موسم « المونسون » .. الحرارة والأمطار الشديدة ..
وكانت الهند في أشد درجات الحرارة التي لا يمكن وصفها إلا بأنها نار . وبقيت
في الهند أكثر من عشرين يوماً .. وفي أقصى الجنوب من الهند رأيت وذقت من
الأمطار أضعاف ما رأيته في حياتي كلها .. وعندما ذهبت إلى سيلان قالوا لي
هناك : يا أخى حظك من نار .. تصور أن الدنيا ستمطر غداً ؟

والآن في استراليا بدأ فصل الصيف .. إنه لم يبدأ إلا منذ أيام .. وكلما
سألت أحد الاستراليين عن حالة الجو في بلاده قال : لطيف .. لطيف جداً !
وعندما هبطت بنا الطائرة في مطار داروين في شمال استراليا .. وكانت
الدنيا حارة جداً .. صيف قاتل .. ولكن في الطائرة عرفت أن هذه المنطقة
حارة .. أما الجنوب فهو مرتفع وقريب من الدائرة القطبية الجنوبية فهو لذلك
بارد ..

وقالوا : برد يمكن أن يحتمله الإنسان .

وعند منتصف الليل وصلت الطائرة إلى سيدني .. وكانت الأمطار غزيرة ..
يظهر أن الصيف هنا بارد ممطر .. يعنى في الهند حار ممطر ، وهنا بارد ممطر !
ولاحظت أن كل الناس يرتدون البلاطى الخاصة بالمطر والبذل الصوفية ..
وسألت أحد الطيارين : أمال صيف إيه ؟

فقال : طبعاً صيف . إنت ما عندكش فكرة عن الشتا هنا . ثلج !
وكان منتهى أملى أن أشم هواء طبيعياً . هواء بارداً بلا جهاز تكييف .. أن
أشرب كوب ماء من الخنقية ، ليس فيه ثلج .. أن أنغطي في فراشى .. أن
أشعر بالدفء اللذيذ ..
ولكن يبدو أنه لا أمل ..

وكنت متعباً جداً .. فقد سافرت بنا الطائرة في الساعة السابعة صباحاً من
مدينة دلهي إلى كلكتا .. ومن كلكتا إلى رانجون إلى سنغافورة إلى جاكرتا إلى
داروين إلى سيدني .. لم أتم ليلتين .. حاولت ولم أنجح في إقناع النوم بأن العدالة
الاجتماعية تقضى بأن تعطيني بعض ما يعطيه للرجل النائم إلى جوارى وللسيدة
النائمة ورأى - إنها تشخر بصوت مرتفع وهذه أول مرة أسمع فيها شخير

سيدة - وتلفت ورأى فوجدت زوجها هو الآخر يشخر . وفهمت لماذا تزوجا !
وفي غرفة نوم ضيقة في فندق «متربول» وضعت أمتعتي ، ونزعت ملابسى ..
وارتميت بين البطاطين الصوفية . ولم أشعر بشئ ..
ومضيت أول ليلة في استراليا ، دون أن أعرف أين أنا ؟ ولا في أى مكان ؟
ولا رقم غرفتى ؟ ولا إيجارها ؟ ..
النوم هو ما أريد ، وفي الصباح ليكن ما يكون !

• • •

أستراليا هنا مجتمع إنجليزي على الآخر .. اللغة طبعاً .. والقارة تدخل ضمن
الكمونولث البريطانى ولها حاكم عام . والعلم الأسترالى هو نفس العلم البريطانى ،
ولكن أرضيته زرقاء وعليه نجوم ، هى رمز الولايات التى تتكون منها ،
وليس صحيحاً أن الأستراليين هنا حياتهم هيصة . وأنهم متأخرون . أبداً . المجتمع
الاسترالى متقدم جداً .

عندهم أحدث الآلات وأحسن المصانع .. وهم الذين يصدرون ٩٠٪ من
الصوف العالمى والجلود والألبان .. والأغنام هنا تعيش في نعيم لا يعرفه الكثيرون
من الآدميين في أماكن كثيرة جداً في العالم . متوسط الدخل العام ١٥ جنيهاً
في الأسبوع .

لا توجد بطالة ، وإنما يوجد عاجزون عن العمل تساعدهم الدولة . الأيدي
العاملة قليلة .. هذه القارة للبيض فقط . طبعاً ليس هذا رأى الصين ولا الهند
ولا اليابان . فكل هذه البلاد تطمع في أن تزحف على هذه القارة الحالية وتتسلل
إليها . وقد بدأ الزحف فعلاً !

واستراليا خائفة من هذا الزحف .. ولذلك لا ترحب كثيراً بالملونين ..
السود أو الصفر . والصحف أمس نشرت أن هناك عدداً كبيراً من الملونين
المقيمين في استراليا منذ زمن طويل لم تمنحهم الحكومة الجنسية الأسترالية . وهذا
معناه أن استراليا بدأت تسحب يدها قليلاً .

ويبدو أن استراليا لأنها بعيدة عن العالم ، ولأنها لا تريد أحداً ، لا تهتم
بالسياحة .. فلا توجد صورة واحدة لسيدنى أو للمبورن .. صورة واحدة !

فالسائح لا مكان له هنا . أو لا يوجد سائحون كثيرون . ولكن بعد سنوات قليلة جداً ستكون أستراليا من أكثر دول العالم تقدماً في الصناعة ، وفي الحياة الاجتماعية .
والذين يحبون الحياة في إنجلترا تعجبهم أستراليا جداً .

لأن الحياة هنا إنجليزية تماماً ، ولكن على مستوى أحسن وأجمل وأكثر تحرراً . فأنت لا تستطيع أن تدخل أى مطعم من غير بدلة أو كرافتة .. حتى المطاعم اللوكاندة نفسها لا يمكن أن تدخلها من غير كرافتة .. حتى الصالة لا بد من الكرافتة .. وهنا قواعد خاصة في الجلوس والدخول والخروج والناس لا يرحمونك إذا أخلت بهذه القواعد ..

أذكر أنني في أول يوم نزلت إلى صالة الفندق .. وجدت الناس يرفعون عيونهم عن الصحف وينظرون إلى .. لم أفهم .. وجلست .. وجاء الحرسون وقال لي : كرافتة من فضلك !

وكما جلست وقفت .. والناس يتابعونني بعيونهم كأنني أمشي من غير بنطلون . وأنا أتشجع وأنظر إليهم فأراهم جامدين كأنهم جلسوا على مقعد حلاق عشرين ساعة . حتى جف الصابون على وجوههم ونحول الصابون إلى باقات ناشفة حول أعناقهم .. وتمنيت أن أجمع أمواس الحلاق وأطبخ برعوسهم كلهم ! وتلفت ورأى لأرى لافتة على الباب مكتوب عليها « ممنوع دخول الكلاب » وعرفت أن منع الكلاب سببه أن الكلاب لكي ترتدى كرافتة ، يجب أن تكون لها ملابس . وحلا لهذا الإشكال قررت إدارة الفندق منع دخول الكلاب .. وما يشأها !

• • •

الحياة هنا غالية ، لا شك . لأن الدخل مرتفع . والطبقة الوسطى حالتها المادية والاجتماعية ممتازة .. وكل يوم أرى في الصحف عدداً من المتزوجين الألاحظ أنهم جميعاً في سن متأخرة .. يعني من الثلاثين حتى الأربعين .. وعرفت السبب وهو أن الشاب هنا لا يتزوج إلا إذا تجمع القسط الأول من قطعة أرض أو بيت يريد أن يشتريه أو يبنيه ، وبعد ذلك يتزوج .. ثم إن الحريات العاطفية طبعاً مكفولة جداً جداً (أرجو أن تضيف أكبر عدد ممكن من كلمة : جداً) . بل إنني تصفحت مجلة اسمها « موضوعات الشباب » . وكأني وجدت

كترآ . وقبل أن أفصح المحلة قلت لنفسي : يا ترى ما هي مشاكل الشبان هنا ..
مشاكل إيه .. بلاد غنية .. واسعة .. حرة .. نظيفة .. الشبان كلهم يلعبون .. والنساء
والرجال في النوادي ليلا ونهارآ .. وفي الليل يجلسون إلى التلفزيون يشاهدون
الأفلام .. وهم يأكلون ويشربون .. أعتقد أن الشبان هنا ليست لهم أيه مشاكل ..
ما هي مشاكل الغنى ؟ . ما هي مشاكل الحر ؟ ما هي مشاكل الصحيح الجسم ؟
ما هي مشاكل الناس الذين يعملون كلهم ويكسبون كلهم ، والغد مضمون ،
واليوم مضمون ! لا أعرف ربما كانت لهم مشاكل أخرى ! ما مشاكل الناس
الذين لم يسمعوا عن الخوف .. عن أفزع شئ في الدنيا ؟ !

وفتحت المحلة .. الموضوع الأول عن أحسن راقصة في مجتمع سيدني ..
الموضوع الثاني عن نجوم التنس والأسكواش ..
الموضوع الثالث عن مستقبل الطيران ..
الموضوع الرابع عن هواة طوايع البريد ..
الموضوع الخامس عن أحسن أسطوانات الموسم ..
الموضوع السادس ابعث لنا بصورتك ..
الموضوع السابع مقالات بأقلام الشبان ومع كل واحدة صورة جميلة لشاب
أو شابة حلوة ..

العدد الثاني موضوعات مشابهة .. العدد الثالث موضوعات لا جديد فيها
إطلاقآ .. هذه المحلة منتشرة جداً ، وغالية الثمن قيمتها حوالي ٣٠ قرشاً وأسبوعية!
وعرفت أن الشبان لا يمكن أن يفاكسوا الفتاة في الطريق .. هناك غرامة
وعقوبة .. واعتراض البوليس على ذلك ، هو أن هذا إخلال بالمرور وبقواعد
المشي ! .

ولكن البوليس لا يتدخل بين الشبان في أماكن أخرى كثيرة .

وأنا أنظر إلى النساء في الشوارع بدأت أفكر في موضوع غريب !
لماذا يفضل الرجال المرأة ذات « الأنوثة » . ماذا يقصد الرجال بالأنوثة ؟
طبعاً الرجل له عضلات فهو يريد امرأة بلا عضلات .. الرجل يمشي في الشوارع
كأنه مسهار تدقه الأرض في السماء ، وهو يريد امرأة تتلوى بين الأرض والسماء ..

الرجل قوى ويرضى غروره أن يقال له : أنت قوى ، وأن تكون المرأة هي صاحبة هذه العبارة ..

ويرضى غرور المرأة أن يقال لها إنها ضعيفة . لأنها تحب أن تكون ضعيفة للرجل الذى تحبه . ويرىحها أن تعتمد على قوى ، على الرجل ، وأن تكون فى حماية رجل . ولذلك فالأنوثة لها معنى آخر خفى عند الرجل : إنه يريد المرأة الضعيفة والسلام .. الضعيفة بأى معنى !

والنساء هنا فى غاية القوة والشباب والصحة .. النساء كلهن يلعبن ، أقصد يمارسن الألعاب الرياضية .. كل واحدة لها رياضة واحدة على الأقل .. التنس أو الأسكواش أو الباسكت . وكل واحدة حريصة على رشاقها .. فالمرأة هنا قوية سليمة البنية . ولا شئ يدل على أن العقل السليم فى الجسم السليم ، أكثر من الرجل الأسترالى . والمرأة لا تعجب الرجل الشرقى فهى ناقصة الأنوثة !

مع أن المرأة من الممكن أن تكون فيها أنوثة وهى قوية .. بل إن مظهر الأنوثة فى المرأة هو اهتزاز جسمها فى نعومة . هو مرونتها وليونتها .. هل تعرف ما هو السبب ؟ إنه قطعة من الخشب الجامد جداً فى حداثها : الكعب العالى !

فصدر هذه النعومة هو هذه الصلابة ، ومصدر هذا الاهتزاز هو هذا الكعب الناشف .. وهذه الصحة والشباب يزيدان المرأة احمراراً وحلاوة .. على باب غرفتى من الداخل توجد ورقة صغيرة مكتوب عليها : الغرفة إيجارها ٧١ شلناً . والفتور والغداء والعشاء على حسابك .. الفندق غير مسئول عن ضياع أى شئ من غرفتك .. أعط المفتاح للاستعلامات دائماً ..

القانون يقول : إن كل شئ لا يوضع فى صندوق أو حقيبة مقللة لها مفتاح ، فالفندق غير مسئول .. أى حصان أو رأس غنم أو بقرة يأتى بها الزلاء فالفندق غير مسئول عنها ، مالم يكن هناك عقد مبرم أمام أحد المحامين المعترف بهم رسمياً .. إذا حاولت أن تستخدم أية أدوات الطبخ الملتهبة فيجب إخطار الفندق بذلك حتى يقف إلى جوارك أحد المختصين تفادياً للحرائق .. صدر القانون فى مايو سنة ١٩١٢ .

ومعنى ذلك أن الفلاحين الأستراليين كانوا يأتون بأبقارهم وخيولهم إلى الفندق ..

لقد سمعت أن الفلاح الأسترالى كان يربط الحصان فى النافذة وتبقى النافذة مفتوحة ..
وسمعت أن بعض الأستراليين عندما كانت تلعب الخمر برأسه كان يراهن بإحدى
بقراته ثم يذبحها ويشويها فى نفس الليلة .. ومن أجل ذلك صدر القانون .

ولاحظت أن هناك تنبيهات كثيرة إلى وجوب إقفال الغرف - على عكس
الهند وأندونيسيا وسنغافورة وسيلان .. ولا بد أن يكون لهذه التنبيهات معنى ..
وسألت فعرفت أن حوادث السرقة كثيرة .. وخصوصاً سرقة السيارات ..
ولما قلت : ولكن هل من المعقول أن يخفى إنسان سيارته فى غرفة النوم ؟
ضحك الناس ولم يقولوا شيئاً ..

وعرفت أن السرقة تبدأ من ما كينة حلاقة حتى السيارة الكبيرة .
ولاحظت أن هناك تعليقات أخرى لم يكتبوها .. فمثلاً إذا طلبت الفطور
فى الغرفة فيجب بعد أن أفرغ من الطعام ، أن أضع الصينية أمام الباب ..
هذه أوامر اللوكاندة ، والجرسون يذكرك بها فى أذب أحياناً .

ثم عليك أن ترتب فراشك .. فليست هناك خادمة لترتيب الفراش كل

يوم ..

طبعاً معها حق .. لا هو انت حتنام كل يوم ؟ فى البرد القاتل ده ؟ طبعاً
لازم تنام كل يوم ويوم .. ومن أجل ذلك تظهر الخادمة كل يومين .. وفى
خلال هذين اليومين يجب أن تكنس وتمسح وتغسل ، فكل الناس هنا يغسلون
ملابسهم .. ولا مانع عندى من هذا ، ولكن بشرط أن تكون الغرفة دافئة .

وفى يوم نهيتى الخادمة إلى أننى أمزق الكثير من الورق .. وقد ظننت
أول الأمر أنها تشير إلى مطبوعات الفندق .. فوعدها بشراء ورق آخر على حسابى .
واكتشفت بعد ذلك أنها تعترض على وجود بعض الورق تحت السرير ، رغم
أننى كنت مسحت أمس .. واعتلرت بأننى حديث العهد بالغسل والكنس
والمسح ، ولكن سأراعى ذلك فى المرات القادمة .. فى هذه الغرفة أو فى الغرف
المجاورة إذا كان هناك نزلاء أكثر جهلاً منى !

• • •

أشرفت الشمس أمس ..

هذا خبر هام جداً . . وليس هذا خبراً في القاهرة . . أن تشرق الشمس في الصيف في القاهرة !

ولكن شروق الشمس في أستراليا ، وفي الصيف ؟ . . إنه خبر في كل الصحف وكلمة على كل لسان . . فالناس يحملون بشروق الشمس . وكان أمس الأحد . وأشرقت الشمس فعلاً .

ارتديت ملابسى . وحملت بعض الصحف والكتب . . وذهبت إلى المحطة لأركب الزورق إلى الناحية الأخرى من مدينة سيدنى الجميلة . الناس على المحطة بالمياوهات ، والبنطلونات القصيرة . . وأصلحت بنظولنى لكى أصلحه على حدائى فأخفى الجوارب الصوف الذى اشتريته منذ يومين . وحاولت أن أشد أكمام الجاكتة لكى أخفى القميص الطويل الشتوى .

الأطفال والصغار يأكلون الجيلاتى . . ويرتدون القمصان الخفيفة . . الرجال العواجيز والنساء العواجيز وحدهم هم الذين يرتدون البنطلونات الصوفية المحترمة جداً . . فهناك بلاد الصوف ، بلد الأغنام . . وجلست إلى جوار بعض العواجيز لكى أبدو شاباً وبدأت المناقشات على ظهر المركب وبدأت أحكى لهم مغامراتى ورحلاتى فى آسيا وأوروبا وكأنى ماركو بولو أو ابن بطوطة . . وفى أثناء المناقشة فتحت الجاكتة وفتحت صدرى كأنى لا أعبأ بالبرد . والبلوفر المزدوج قد وضعته تحت الجاكتة كأنى أخشى أن أنساه فى أى مكان . . ولاحظت أن أفكارى سخيفة . . وأن أحداً لا يهتم بى أو بملابسى ، أو إذا كنت أجلس فى ثلاجة أو فى غلاية . . فأنا بردان جداً ، ولا يهمنى إذا كان الناس جميعاً يشكون من شدة الحرارة . . ومددت يدى واشترت جيلاتى ، طعمه لذيذ . . ومددت يدى واشترت عصيراً مثلجاً . . طعمه لذيذ . . وأكلت لحمأ بارداً . . لذيذاً . . وبدأت أعطس وأسعل . . فظيع !

ونزلت من الزورق وصعدنا جبلاً عالياً . . على قمته وعند سفحه توجد حديقة الحيوان . . إنها صغيرة ولكنها منظمة وأنيقة . . وبها مطاعم ومقاه وبها أماكن لبيع الماء الساخن فقط . . لأن الناس يحضرون معهم الشاى والبن ولا يحتاجون إلا للماء فقط . . ورأيت لأول مرة غراباً أبيض . . ورأيت الذى يأكل النمل . .

لقد لاحظت أنه يمشى فى دوائر . . ويظهر أن جسمه يتساقط منه شئٌ حلو . .
لأن النمل يمشى فى هذه الدوائر ويتكاثر حول أكل النمل ، . بصورة غريبة . .
فالنمل يموت فى السكر ويموت به أيضاً .

ورأيت حيوان الكنجارو الذى يعيش على الأرض والذى يعيش على الشجر . .
ورأيت الغوريلا . . . ورأيت قروداً لا تمشى إلا على رجلين كأى إنسان . . ويظهر
أن العالم الكبير داروين لم يكن على خطأ . . ورأيت الطائر الضاحك الذى تجعله
أسر الياهو والكنجارو رمزاً لها . . إنه يضحك فعلاً كأى رجل حشاش . . ضحكة
طويلة . . غليظة مستهزئة !

وطلعت الشمس وأشرقت ونام الناس على الحشيش وتمددوا ورفعوا الملابس
عن السيقان . ونامت الفتيات على الأرض وعلى الظهر وعلى الوجه . . حيث
الشمس ساخنة ، والهواء بارد جداً . . يا ناس . .

ومضيت أدفئ نفسى بالمشى . . وذهبت إلى أقفاص عصافير الجنة . إنها
مجموعة من الطيور تعيش فى نيوزيلندا وجزيرة تنمانيا . . طيور غريبة الألوان
ولكل منها ريشتان اثنتان فقط طويلتان جداً .

وبدأت أحس بأن قدمى قد أعلنتا الانفصال أو العصيان المدنى . . لم تعد
تربطنى بهما أية صلة جسمية أو نفسية . . وجلست وحاولت أن أدفئ قدمى
بالتدليك . بالهرش . . وأخيراً ذهبت إلى مكان بعيد . وجلست على مقعد ونزعت
حذاءئى وجوربى وتمددت فى الشمس . . ولم يكن أحد إلى جوارى . . وأخيراً . .
ومن قمة هذا الجبل ، سمعت وقع أقدام . . وكان عمجوز وامرأة . . وارتديت جوربى
وحذاءئى . . ولكنى فوجئت بأن الرجل قد نزع جوربه وحذاءه وبنظونه وجاكتته .
هذا الرجل العمجوز . . ليستلقى على إحدى الذكك . . وعندما بدأت أنزع ملابسى
كانت الشمس قد تغطت بالسحاب . .

أما النصف الآخر من اليوم فقد أمضيته فى حديقة « الدومين » ويسمونها
حديقة المحانين . . ووقفت بين الخطباء . . كل واحد يخطب فى موضوع يعجبه .
وهى تشبه حديقة هايد بارك فى لندن حيث يشتم الناس الحكومة والكنيسة معاً !
وأمس أحسست بأن هذه الخطب هى نوع من التدليك العقلى . . بل هى

شيء أكثر من هذا . فالناس في الريف يغسلون البلايص « بالليفة » وبالطين وقطعة من الحجر . . ثم يضعون البلايص في ماء النيل . يغسلونها بالطين وينظفونها بالطين أيضاً . . أمس أحسست أننى مثل بلاص فارغ . . وأنهم غسلوه وملأوه ولما جم يشيلوه . . كسروه - مع الاعتذار للأغنية المعروفة .

ودخلت حديقة الدومين لأنضم إلى هؤلاء المحانين . . أول مجموعة كبيرة وقف فيها رجل بصوت غليظ جداً . .

ومجموعة أخرى . . تلتف حول رجل رسم خريطة للشرق الأوسط . . الخريطة كلها مغطاة اللون الأصفر ما عدا إسرائيل . . وفي يده كتاب مقدس يقول : لقد جاء في الكتاب أن الذى يحب الله يحبه ، والذى يلعن الله يلعنه . . واليهود قد لعنوا الله فلعنهم وستخرجهم قوة أخرى من فلسطين . . لماذا ؟

ويناقشه بعض اليهود : من الذى قال هذا ؟

ويردون عليه : هل الله قال لك هذا الكلام شخصياً . . هل سمعته منه . . هذه هي القضية . .

فيقول : إننى أصدق هذا الكتاب . . « ويشير إلى الكتاب المقدس » . . ويقولون : ونحن لا نصدقه . .

ويقول : هل ستعرفون لماذا سيخرج اليهود من فلسطين . . لأن الله وعد بذلك . . هل تعرفون لماذا أعطيت فلسطين لليهود . . لأن أحد اليهود اخترع المادة المتفجرة التى استخدمها الإنجليز ضد الألمان . . هذه المادة اخترعها وايزمان . .

فيقال له : إن زوجتى كانت تعمل مع وايزمان . . وليست هذه المادة وحدها هى التى اخترعها . . إنه اخترع أشياء أخرى كثيرة . . ولكن اليهود عادوا إلى فلسطين لأنها بلادهم . . ولأنهم اشتروها بفلسهم من إنجلترا وأمريكا . . بفلسنا يا حضرة الـ . . اسمك إيه يا . .

ويقول : نعم بفلسكم وبانحطاط أخلاقكم وسفالتكم ولكن الكتاب المقدس يقول إنكم ستخرجون . . وكنتم تحاولون دخول مصر أخيراً فأخرجكم المصريون منها . . وهذا تطبيق لما جاء في الكتاب المقدس . .

ويرد عليه اليهود بكلمات نابية . . ويمضى الرجل في كلامه ، ويمضى اليهود في المناقشة . .

وإلى جواره مجموعة ثالثة من الناس التفت حول رجل آخر . . ويبدو أن هذا الرجل قد أتى له بمساعد يستدرجه في المناقشة ويستفزه . . ويلاحقه بالسؤال والجواب . . ويقول هذا الرجل : هل تعرفون ماذا تكتب الصحف للشباب ؟ . . اسمعوا هذه القصة التي نشرتها الصحف أمس . . اسمعوا : دخل الاثنان متعانقين في غرفة مظلمة . . وامتدت يده إلى المفتاح ليقفل الباب . . فصرخت الفتاة فعانقها . . وعندما عانقها مالت على الحائط . . مالت على إيه ؟ على الحائط . . فأضى نور الغرفة . . وظل يعانقها . . وظل إيه ؟ يعانقها . . آه طبعاً ظل يعانقها حتى أيقظهما بائع الصحف ليعطيها النسخة الجديدة من سفالة ووقاحة الحياة اليومية . . هذا الجيل سيفسد . . هذه القصص أخطر من القنابل والصواريخ . . إنها تقتل في صمت . . إنها تذبح . . نحتاج نحن الشيوخ على مستقبل أولادنا . .

ويناقشه مساعده : وأنت من تكون لكي تناقش هذه القضايا ؟
فيرد عليه : وأنت من تكون لكي تناقشني . . ماذا تكسب . . ماذا تساوى . . إن الممثلة صوفيا لورين تكسب أكثر منك وأحسن منك . .

فيقول له : لماذا ؟

ويرد عليه : لأنك لا تملك ما تملكه . . عندك حاجة زهبا . .
ويأتى ببعض الحركات بيديه . . فيضحك الرجال ، وتضحى النساء وجوههن .
والناس يتجمعون حوله .

ومعظم الخطباء في « الدومين » من رجال الدين الذين يحملون لافتات كتب عليها : المسيح جاء لخلاص الناس . . المسيح هو الكون . . المسيح تعذب من أجلنا . . العلم خلق الخطيئة ، والخطيئة خلقت الحروب . .

وهناك قسيس أتى بمنبر . . وأتى بفرقة موسيقية ، ووراءه عدد من السيدات يرتلن الألحان الكنسية . . وهناك قسيس أتى ببخور . . وحول رجال الدين توجد مطبوعات ومجلات وصلبان معروضة للبيع . . وهناك سيدة تحمل طفلة صغيرة تنادى بها الناس ليلتفوا حولها .

وهناك رجل جاد جداً . . . معه خريطة تفصيلية للانفجارات الذرية . . . وعلى الخريطة توجد عمليات ضرب وطرح تنتهي بأن القنابل السوفيتية والأمريكية إذا أطلقت معاً فسينتهي الكون كله . . .

ويحاول الخطباء أن يستميلوا الناس بخفة الدم . ولكن يظهر أن الجماهير لا تحب كثيراً الرجل الذى يبالح في خفة دمه ، حتى لا يكون عنده أى دم . والجماهير تفضل الرجل الذى يجعلها تحس أنها أعلم منه وأكبر منه . . . وقليلون قادرون على ذلك من العظماء أو الخطباء - عندنا توفيق الحكيم لأنه الوحيد الذى يرضيه أن يقال عنه : إنه بخيل وإنه سرحان جداً ، فيضحك الناس ويشعرون أنهم أكرم وأوعى - ليس هذا رأى وإنما هو رأى طه حسين عندما قدم توفيق الحكيم إلى المجمع اللغوى .

فقد رأيت أحد الخطباء يتحدث العمال عن المرأة فيقول لهم إنها هى التى كسبت الدنيا والآخرة عن طريق عبث الرجل : من الذى كسب الانتخابات فى أمريكا ؟ إنها زوجة أيزنهاور . من الذى اكتسح الجماهير فى واشنطنون ؟ إنها مدام خروشوف ! من الذى يملك الشركات والمؤسسات فى أمريكا ؟ إنهن النساء . . . من الذى أخذ أموالنا وصحتنا ويخوننا مع غيرنا ؟ إنهن زوجاتنا !

ويقول : إن المرأة يجب أن تعمل أكثر وأكثر ، إنها لا تعمل . . . إنها تأكل وتنجب الأطفال كأن الأطفال عمل كبير . . . الكلاب تنجب . . . والحمير تنجب . . . ونصف الحاضرين لهم أمهات غير معروفات !

وضاعت الأرقام والبيانات والنظريات الاقتصادية التى ساقها هذا الخطيب الفصيح وسط هذه النكت والفحشات ، وضاعت وسط الضحك ، كما يضيع الأسلوب العربى المتين ، وسط الكلام العامى السخيف .

هؤلاء أناس لا مكان لهم فى الجمعيات المنظمة ، ولا الصحف . . . إنهم يقفون فى «الشقة الحرام» بين القانون والثورة عليه . إنهم لاجئون عقلياً وعاطفياً . . . إنهم وجدوا مكاناً ينفسون فيه عن مبادئهم وعقائدهم . . . إنهم ليسوا مجانين .

الآن يحدث أن تميل على صديق أو صديقة وتقول له كل ما فى نفسك . وعندما تنتهى من كلامك تقول : والله أنا مش عارف إيه اللى خلانى قلت كل ده .

اللى خللك قلت ده هو حاجتك إلى الراحة . . إلى أن ترمى الحمل الثقيل عن القلب وعن العقل .

إن الطائرة في حالة الهبوط الاضطرارى ، تلقى بكل ما في جناحيها من بنزين ثم تهبط زاحفة على الأرض . . وهؤلاء الناس زاحفون على الأرض وعلى آذان الناس وعقولهم .

إن «الدومين» هو مستشفى في الهواء الطلق للأمراض الدينية والسياسية !

• • •

أمس اقترحت على الأستراليين هنا أن يأتوا ببعض السفن الكبيرة ويملاؤها أفرانها بالبخور ويلفوا بها حول القارة السعيدة أستراليا . . منعاً للحسد !

وفي بلادنا ليست لدينا معلومات كافية عن أستراليا ، وأستراليا لا تعطى أحداً أية معلومات لأنها قارة مكتفية بنفسها وليست في حاجة إلى أحد . . إنها غنية . إنها تقدم للعالم نصف الصوف الذى يلبسه . في العام الماضى قدمت للأسواق مليارين من أرتال الصوف . ومع ذلك فالصوف هنا غال جداً . فاستراليا تبيع كل الصوف لإنجلترا . وإنجلترا ترد لها هذا الصوف أمشة ، واستراليا تبيعه غالباً جداً . والأسعار كلها هنا غالية ، وكل الواردات عليها ضرائب كبيرة . وخصوصاً ما يرد من إنجلترا وأمريكا .

والناس هنا في أستراليا يتحدثون عن مستقبل بلادهم بكثير من الفخر والاعتزاز . . فالذين كانوا في أستراليا قبل الحرب الأخيرة يرددون الأعاجيب . فلم تكن البلاد بهذه الحضارة أو هذه المدنية . لقد زادت فيها العمارات الجديدة ٩٠٠٪ وزادت المطارات حتى أصبح في أستراليا الآن ٦٥٠ مطاراً . والانتقال بين المدن وفي هذه المسافات البعيدة كله بالطائرات . والسكك الحديدية هنا ممتازة ويكفى أن تجلس إلى جوار النافذة في الديزل وترى ملايين الأفدنة الخضراء وفيها ملايين الأغنام والأبقار والخنازير والخيول . . وهى مصدر ثروة البلاد .

إن الشارع الذى أقيم فيه به ١٤ عمارة كل واحدة ١٧ دوراً وكلها جديدة في مقدمتها عمارة شركة الطيران « كائناس » وهى أجمل عمارة في مدينة سيدنى . . وهناك أنفاق تحت الأرض وجسور عالية وأكبرها كوبرى سيدنى . . والسيارات

التي تمر على أى طريق من طرقه الستة تدفع ضريبة صغيرة تتضاعف بعدد الركاب وحجم السيارة . .

واستراليا هذه ليست دولة وإنما قارة كبيرة في حجم الولايات المتحدة . . ومساحتها ٣ ملايين ميل مربع . ونصف هذه المساحة حار . والنصف الآخر معتدل . . ويعتقد علماء الجغرافيا أن هذه القارة قديمة جداً . . وربما كانت أقدم المناطق في العالم التي عاش بها الإنسان . فتاريخ الحياة فيها يرجع إلى ١٠٠ مليون سنة مضت ، ويقال إن كل جزر الهند بآندونيسيا التي تقع شمال أستراليا كانت جزءاً من أستراليا القديمة .

واستراليا قديمة جداً وجديدة جداً ، ولم يذهب إليها الأوربيون إلا في القرن الثامن عشر . أو على التحديد في سنة ١٧٨٨ عندما نزل الرحالة الإنجليزي جيمز كوك يوم ٢٦ مايو واستولى على هذه القارة ورفع عليها العلم البريطاني . وفي ذلك اليوم نزل إلى الشاطئ ألف رجل أبيض . . ومن هؤلاء تكون المجتمع الأسترالي الأبيض وظل تابعاً لبريطانيا من ذلك اليوم .

وقبل هذا الرحالة الإنجليزي وصل إلى أستراليا رحالة آخر هولندي . ولكنه رأى القارة من بعيد ولم يهبط إليها ، وبعده جاء رحالة برتغالي ورأى القارة أيضاً وعاد إلى بلاده ومات هناك .

واستراليا معناها : الأرض الجنوبية . . لأنها في جنوب العالم المعروف . . أى جنوب آسيا . .

. . .

وتزايد عدد سكان أستراليا بقدوم المهاجرين من كل بلاد العالم بعد سنة ١٩٠١ عندما اكتشفوا مناجم الذهب . .

والآن أصبح عدد سكان أستراليا حوالى عشرة ملايين يسكنون هذه المساحة من الأرض . ففي كل ميل مربع يقم ثلاثة أشخاص - بريطانيا كل ميل مربع يسكنه ٧٥٤ شخصاً !

ومن بين هؤلاء الملايين يوجد ٤٥ ألفاً من السكان الأصليين . . هؤلاء السكان الأصليون هم أغرب مجموعة بشرية في العالم كله . . فقد حار

العلماء في أمرهم . . لم يتفق العلماء على أصل هؤلاء الناس . لا أحد يعرف . .
ثم إن هؤلاء الأستراليين الأصليين قد عاشوا في هذه القارة ألوف السنين . فلم
يركوا حضارة ، أو يبنوا بيتاً ، لم يصلحوا أرضاً . لم يستأنسوا حيواناً واحداً ، لم
يكتبوا ورقة . . عاشوا هكذا في حال ارتحال . . إنهم يتركون بيوتهم ويهيمون على
وجوههم . . حتى اليوم . .

ولهم طريقة غريبة في المشي . فهم يمشون في خط مستقيم دائماً في حين
أن الناس المتحضرين يمشون في خطوط ملتوية إذا صادفتهم عقبة التفروا حولها . .
أما هؤلاء فيمشون في خطوط مستقيمة . .

وهؤلاء الأستراليون يعيشون الآن على صيد السمك . وعلى الأعشاب وصيد
الحيوان . . والدولة هنا تحاول أن تحتفظ بهم حتى لا يقرضوا . . فقد نقص عددهم
في المائة سنة الماضية حوالي ٣٥٠ ألف نسمة . . ولذلك فإن الدولة تفتح لهم
المدارس ، وتبنى لهم البيوت ، وتحاول أن تجعل من بينهم مدرسين وقساوسة . .
وكثير من هؤلاء الأستراليين الأصليين قد تفوق في الفنون والغناء والرقص ،
ولكنهم حتى الآن مازالوا يعيشون على حافة الحضارة .

نسبة التعليم هنا ١٠٠٪ . ومعظم الناس لا يشترون الصحف ولكنهم يشتركون
فيها . . فالصحف توزع في البيوت في ساعة مبكرة جداً . وبأسعار أرخص .
هنا تصدر ثلاث صحف يومية . واحدة عدد صفحاتها ٢٦ صفحة . . كل يوم
وتوزيعها نصف مليون نسخة . . والعدد الأسبوعي في ٧٢ صفحة وتوزيعه ثلاثة
أرباع المليون وثمنها خمسة بنسات أي حوالي ١٥ ملياً !

• • •

وجود هؤلاء الأستراليين الأصليين في أستراليا يجعلهم يرتعدون من
الملونين . . من السود والصففر . . ولذلك عمدت أستراليا إلى السياسة البيضاء . وقد
كانت أول الأمر أستراليا للإنجليز . . وبعد ذلك أصبحت : أستراليا للأستراليين .
وبعد الحرب الأخيرة وبعد أن زاد عدد المهاجرين من كل أوربا أصبحت
سياتها : أستراليا للبيض . .

إن الصففر من الصين والسمر من الهند ليس لهم مكان هنا . . ولكن الذي

حدث أن الصفر أحاطوا هذه القارة من كل النواحي . . فهم في الشمال في أندونيسيا ، وفي الشمال الغربي في سيلان والهند والفلبين ، وفي أقصى الشمال في الصين واليابان . . ومنذ أيام منحت أستراليا الجنسية الاسترالية لعدد من الصينيين الأغنياء لأنهم أقاموا مدة طويلة في هذه البلاد . وستعطي أستراليا الجنسية لـ ٥٠٠ طفل أسترالي ولدوا من أمهات يابانيات أثناء الحرب الأخيرة . .

* * *

وقد نشرت صحيفة « الديلي تلجراف » بتاريخ أغسطس سنة ١٩٥٩ مقالا للمؤرخ البريطاني الكبير « أرنولد توينبي » يتحدث فيه عن مستقبل أستراليا في الخمسين عاماً القادمة . . طبعاً مدح البلاد وجاها و ثرواتها وتقدمها السريع جداً . . وهو طبعاً على حق في كل ما قال . . ثم تحدث عن هذه القارة الكبيرة التي يعيش فيها فقط عشرة ملايين كلهم من الأغنياء ، ورأى أن أستراليا إما أن تقسم ثروتها مع غيرها أو ستضيع منها هذه الثروة . . أو بعبارة أخرى يجب على أستراليا أن تفتح أبوابها للملونين . . للصفر . . للصينيين . . واقترح المؤرخ الكبير أن يعجل الاستراليون بالزواج من الآسيويات ! وأستراليا تسع لمائتي مليون نسمة يعيشون في رخاء .

وفي مدينة سيدني الآن محلات ومطاعم صينية . بل هنا جالية صينية قليلة لا تتجاوز بضع مئات ولكنها جالية نشطة جداً . ويتكاثر عددها في صمت ودون أن يشعر بها أحد .

وأكبر الجاليات الأجنبية هنا هي الجالية الإيطالية وتعدادها حوالى ١٤٠ ألفاً . وتليها الجالية اليونانية وعددها ١٢٠ ألفاً ، ثم الجالية اللبنانية وعددها يزيد على ٢٥ ألفاً . وقد رأيت النادى الجديد - أقصد العمارة الجديدة - التي بناها اليونانيون هناك . العمارة اسمها « النادى الهليني » أى اليونانى . . عمارة أنيقة جميلة تكلفت ربع مليون جنيه . والعضوية فيها للجميع . وقد اختارونى عضواً للبرهنة على أنها ليست مقصورة على اليونانيين وإنما هى لكل الناس المقيمين والمسافرين . والجالية الإيطالية فى أستراليا تحتكر بعض الأطعمة وبعض المشروبات . ومعظم الجرسونات هنا من الإيطاليين ، وتوجد هنا مقاه صغيرة كالتى توجد فى إيطاليا . وهنا قد عرفوا كلمة كابو تشينو - أى قهوة بلبن - وكثير من الأستراليين

لا يعرف إن كانت هذه الكلمة إنجليزية أو فرنسية أو إيطالية . . لأن الإيطاليين قد أدخلوها في اللغة منذ وقت طويل .

* * *

وعلى الرغم من أن أستراليا مجتمع إنجليزي صميم فإن الجيل الجديد هنا بدأ يتحرر من القيود الإنجليزية ، بل إن الناس يشتمون الإنجليز ويتهمونهم بالبرود الشديد وبالكسل . قال لى رجل أعمال كبير جداً : إننا نكره هؤلاء الناس . إنهم باردون . . وقدرتون أيضاً . إن الرجل الإنجليزى من النادر جداً أن يستحم . . وأحسست برغبة شديدة فى الهرش ، فأنا الآخر لم أستحم منذ وقت طويل . . البرد يا ناس على الرغم من أن الربيع بدأ رسمياً منذ أسبوعين !!

وقال لى رجل أعمال آخر . . إنه عندما ذهب إلى إنجلترا كاد يخنق من برود الإنجليز ومن شدة تمسكهم بالتقاليد . وأعربت له أنا الآخر عن إحساسى ببرود الأستراليين وشدة تمسكهم بالتقاليد ، وأنه لا بد من أن يرتدى الإنسان البدلة كاملة طوال النهار وطوال الليل . فهذه البدلة يستطيع أن يدخل أى مطعم أو أى مكان يسهر فيه ، ومن غير البدلة والكرافته يصبح طريداً طول الليل وطول النهار . . أما الجيل الجديد هنا فقد بدأ يتحرر . . وبدأ يمشى بالبنطلون الضيق والقميص المربعات والقميص البقرى — أى نسبة للبقرة وأولادها المرسومة عليه ! وبدأ الجيل الجديد يطلق الأسماء الأمريكية على البلاجات . . منها بلاج ميامى . . وفلوريدا . . ولاس فيجاس . .

وفى الصحف الآن معركة بين أنصار التقاليد البريطانية والبدع الأمريكية . وبدأت الصحف تنقل للناس هنا أن الأمريكيين يسخرون من هذه الأسماء المسروقة . . ولكن الجيل الجديد مصر على هذه الأسماء ، مصر على الارتباط بأمريكا أكثر من ارتباطه بإنجلترا . . .

ومع ذلك فالأفلام هنا تبدأ بالسلام الملكي فيقف كل الناس ، وتطل الملكة إليزابث هى وزوجها وأولادها عند بداية ونهاية كل فيلم . وأستراليا ما تزال خاضعة للتاج البريطانى . وما يزال لها حاكم عام بريطانى . ولها نفس العادات

والتقاليد واللغة . . العادات في البيت وفي الشارع والمطعم . .

* * *

ولكن أعتقد أن شيئاً جديداً هنا قد حدث . . ١

فثلاً في البنك وهو مكان ليس فيه مجال للمجاملات ولا للبرقة . . لأنهم أناس يشتغلون في الأرقام والحسابات ومشغولون جداً . . هذا في كل الدنيا ، ولكن هنا في أستراليا يعاملونك بأدب شديد جداً . . تذهب إلى أحد المكاتب لتطلب تحويل أى مبلغ من المال ، تتقدم إليك سكرتيرة وتفتح لك الباب ، وتسحب لك مقعداً وتظل واقفة حتى تجلس كأنك في طائرة ، وكأنها هي مضيفة . . وبعد لحظات تذهب بك إلى الموظف المختص وتقدمه لك . . ويسحب لك هو الآخر مقعداً ، وينتظرك حتى تجلس . . وفي لحظات كلها أدب ورقة ينهى لك ما تريد . . وينهض واقفاً ، ويسبقك إلى الباب يفتحه لك ويودعك ويتمنى لك رحلة سعيدة . مع أن الفلوس التي كسبها البنك لا تتجاوز عشرين قرشاً . . وليس هذا في البنوك فقط . . وإنما في الشركات وفي المحلات التجارية . .

أذكر أنني دخلت محل « وولورث » وهو من أشهر المحلات في أستراليا وفي كل دول الكومنولث . . وكنت أبحث عن الفرع الخاص بالصابون . . وظللت ألف في المحل ، في أدواره السبعة . . وأجلس في المقهى وأحتسى الشاي . ثم أضعده إلى المطعم وأتناول بعض السندوتش وبعد ذلك أنزل إلى المكتبة وإلى أقسام العطور والملابس . . ساعة من الوقت وأنا ألف . . ونسيت أنني جئت لشراء قطعة صابون . . وفوجئت بأن إحدى البائعات تمشي ورأى طول الوقت . وعندما هممت بالخروج سألتني : لماذا لم تشتري شيئاً ؟ . فقلت والله كنت عاوز أشتري قطعة صابون . . لكنى مش لاقى فين .

وعادت بي إلى الدور الثالث واشتريت قطعة الصابون وثنمها لا يزيد على ثلاثة قروش وودعتني حتى الباب وابتسمت ابتسامة تساوى ثلاثة آلاف قرش ! وفي شركة طيران كانتاس . الأسترالية العالمية تذهلك معاملتهم . . أدب ورقة . . من المضيفة إلى الموظف . . كأنهم جميعاً « خدامين أبوياء » . . لا أعتقد أن شيئاً من هذا يجري في المجتمع الإنجليزي . .

ف عندما كنت في لندن ذهبت إلى محل سلفريدج . . وهو من المحلات
الكبيرة ، وحاولت صرف بعض الشيكات السياحية ولاحظ الموظف أن
إمضاءاتي كلها مختلفة بعضها عن بعض فدهش . . وقلت له إنني لم أعود أن
أوقع بحروف لاتينية . . وإنما بحروف عربية . . واقتنع الرجل وقبضت المبلغ
وانصرفت . ثم ناداني بعد ذلك قائلاً : أرجوك أن تشرح هذا لبعض زملائي ،
لأنهم أغبياء ، ولأنهم يتصورون أن بلاد العالم تكتب وتتكلم الإنجليزية . .
ولكنهم في أستراليا مؤدبون ومؤدبون كما مرة . . وابتسامتهم تبدأ في
بلادهم وتنتهي في بلاد الإنجليز !
أما الجيل الجديد . . فقد ترك الأدب والرقعة للوالدين ، وانطلق هو نحو
البساطة الأمريكية . . .

* * *

سألني بعض الناس : فماش بدلتك منين !

قلت : من عندنا .

قالوا : طيب والتفصيلة !

قلت : من عندنا برضه .

قالوا : والبدلة دي بتاعتك !

ونظرت إلى البدلة وقد تكمر مشت ونقص طولها من البرد قلت : كانت بتاعتني !

* * *

والحياة الاجتماعية والسياسية والنيابية الإنجليزية مائة في المائة . . فهنا برلمان من
مجلسين . . مجلس نواب وأعضاؤه ١٢٦ عضواً . ومجلس شيوخ وأعضاؤه
٦٠ عضواً . المجلس الأول لمدة ثلاث سنوات والثاني لمدة ست سنوات ويسقط
نصف أعضائه كل ثلاث سنوات . .

وفي كل ولايات أستراليا الخمس مجلس نيابي واحد . وهذه الولايات الخمس
تظهر على شكل خمس نجوم على العلم الأسترالي . .

الصحافة هنا تصدر ٦٥٠ جريدة يومية . بل إن بعض الأحياء في المدن
تصدر صحفاً يومية . .

وقد دهشت جداً عندما قرأت في الصفحة الأولى أمس أن وزيراً يتهم زميلاً
له بالرشوة !

وبعلمت أن قصة الوزيرين هذه لا بد أن يناقشها الخطباء في حديقة الدومين.
وقررت أن أخصص يوم الأحد القادم لأستمع إلى قصة الوزيرين بصراحة . .

. . .

والمرأة الأسترالية هنا تساوى الرجل تماماً . . في كل شيء . . .

إلا أن هناك قانوناً يجعل مرتبها دائماً يساوى ٧٥٪ من مرتب أى رجل
ولكن القانون يعطيها عندما تتزوج نصف ما يملكه الرجل من أرض ومال وعقار !
والمرأة الأسترالية هي أول امرأة في العالم كان لها حق التصويت والترشيح في
الانتخابات . فقد قرر ذلك قانون صدر سنة ١٨٩٣ .

واللولة تشجع الفتاة الأسترالية على الزواج وتشجع أيضاً على إنجاب أكبر
عدد ممكن من الأطفال ، فكل طفل يولد له ثلاثة جنيهات مساعدة من الدولة . .
للغنى والفقير . وفي كل دور السينما في أستراليا يرى الناس شريطاً مسجلاً لزوجين
أنجبا ١١ طفلاً من الذكور والإناث . . ويظهر على الشاشة مندوب شركة التأمين
على حياة هذه الأسرة ومعه مبالغ كبيرة من المال قدمتها الدولة لهذه الأسرة .

والمرأة الأسترالية تهتم جداً بصحتها وبأناقها . . فلا توجد امرأة لا تشترك في
ناد من الأندية ، ونظرة واحدة إلى فترينات المحال في شوارع بيت وجورج
وكاسلزي وفي ميدان « كروس » تدلك على أن هذه القارة ليست إلا ملعباً كبيراً
لكل أنواع الرياضة . . وأهم الرياضات هنا التنس والكريكيت . . وقد فازت
أستراليا بكأس ديفيز للتنس ١٤ مرة . وكان ترتيب أستراليا الثالث في الدورة
الأولمبية السادسة عشرة في سنة ١٩٥٦ ، جاءت بعد الاتحاد السوفيتي وأمريكا .
وجمهور التنس معظمه من النساء .

والمرأة الأسترالية حريصة على رشاقها لدرجة أنها تموت من الجوع ولا يضاف
لها دهن واحد من الشحم . . وكل يوم تزن نفسها عارية تماماً . . وكل يوم تنهض

من النوم وتمسك خيطاً تقيس به وسطها . . وفي الأجرخانات توجد وصفات كثيرة لإنقاص الوزن وإذابة الشحم . وهناك عدد كبير جداً من المحال اسمها : محال الفيتامينات . . أو محال مائة سنة بلا شحم . . أو محال الوزن الذهبي . . ! وكل نساء أستراليا طويلات القامة . . ومعظم النساء هنا يلبسن البلوفرات الصوفية الملونة في كل فصول السنة . . حتى في الصيف يرتدين بلوفرات من الصوف والحريز . . وآلان تمشي الفتيات بالبنطلونات القصيرة جداً في الشوارع . . وكل المحلات تذيع في الميكروفون بأصوات نسائية عن السلع التي عندها ومعظمها سلع حريمي .

والفتاة هنا تدهش جداً إذا أنت دفعت لها الحساب . . كما تفعل فتيات إنجلترا والسويد والدانمرك . . وهذه بداية عيوب التقليد الأمريكي . . والمرأة هنا مهما كان دينها فإنها تستطيع أن تتطلق من زوجها دون أن ترجع إلى الكنيسة . وإذا انفصلت امرأة عن زوجها ، فإن الزوج الجديد يجب أن يدفع تعويضاً . . والتعويض ليس كبيراً جداً ، والقانون هنا يسمح للشباب أن يتزوج في سن ١٢ وللفتاة أن تتزوج في سن ١٤ . الدولة تريد نسلاً كثيراً ، تريد أن يزداد عدد سكانها من الداخل . . لا عن طريق الهجرة من الخارج . . !

وفي سنة ١٩٦٤ ذهب أحد الوزراء إلى أوروبا لإقناع ثلاثة آلاف فتاة بالهجرة إلى أستراليا . .

ثلاثة آلاف عروسة طبعاً . .

واختار بنات إيطاليا لأنهن جميلات ولأنهن يجدن الطهي . . ولأن في أستراليا جالية إيطالية كبيرة . .

ومن بنات سويسرا لأنهن يجدن إدارة الأعمال . . وأستراليا دولة صناعية ناهضة . . .

مطلوب فتيات لأستراليا . . الرجال يشكون من قلة النساء . . على عكس الدول الأوروبية التي أكلت الحرب معظم رجالها ولم تترك إلا الفئران والنساء ! وعندى حل - وهو مرفوض مقلماً ولكنه معقول وليس جديداً - وهو أن تسمح الدولة بتعدد الزوجات !

طبعاً تعدد الزوجات حرام في الديانة المسيحية . . ولكن البابا - وهو رأس
الديانة الكاثوليكية - قد سمح بتعدد الزوجات في أواسط أفريقيا . .

ولكن سبب ذلك هو أن تعدد الزوجات عادة مقبولة في هذه القبائل الإفريقية .
والإسلام عندما انتشر بين القبائل كان بسبب أنه لا يعارض في تعدد الزوجات . .
بينما كانت المسيحية تعارض . ولذلك رأى البابا أنه ليس من الضروري ، وهذه
الاعتبارات الخاصة ، ألا يصدم الشعور الديني بتحريم الجمع بين زوجتين . .
فتفضل قداسته وفتح الباب على الآخر وسمح للرجال ، شيوخ القبائل خصوصاً ،
بأن يتزوجوا أى عدد من النساء وأحياناً من الراهبات . .

وفي أستراليا ، وهذه الاعتبارات التي تجعل أستراليا للبيض فقط . من الممكن
الجمع بين أكثر من امرأة . . واحدة منهن زوجة على الأقل . . والثانية والثالثة
كالزوجات . . وفي هذه الحالة يجب على الدولة أيضاً أن تنظر بشئ من الارتياح
إلى اللقطاء ، كما تفعل السويد !

فما دامت أستراليا حريصة على زيادة عدد النسل بين البيض بالذات . .
فيجب أن تصفق لكل من يأتي بولد جديد . . وما دامت ستصفق ، معنى ذلك
أنها سترفع يديها الاثنتين عن القيود وعن تنفيذ القوانين التي تسأل : هذا الطفل
من أين ؟ وأين وجدتموه ؟ إلى آخر هذه الأسئلة السخيفة التي تؤدي إلى تحديد
النسل وتؤدي في نفس الوقت إلى سد نفس الرجل ، فلا يقبل ولا يعانق . . وإلى
كسر قلب الفتاة فلا تحب ولا يمتلي* بطنها بالحب !
هذا رأى أعرضه مجاناً لمن يهمله مضاعفة عدد سكان الأستراليين من البيض
فقط .

ومع الأسف لم يتسع وقتي لكي أتقدم بهذا الاقتراح إلى حكومة أستراليا . .
ولا لكي أجهل حتى لا يلبثه منى أى شاب وشابة . . ويشرعان في تنفيذه تحت
أقرب شجرة !

• • •

وأنا أنتهز هذه الفرصة لأحدثك عن يوم في حياة فتاة أسترالية . . !
ليكن اليوم مثلاً هو يوم الأحد . .

لأنها تنهض من النوم في الساعة صباحاً مثلاً . . . وتلعب بعض الألعاب السويدية . . . وبعضهن يستحم في هذا اليوم . . . وتمسك الحيط وتقيس وسطها ، هل زاد ؟ هل نقص . . . ؟ وتقف عارية على الميزان لتعرف . . . وتقف أمام المرأة وترسم حواجبها . . . قول كده ياسيدى في نصف ساعة ، والحواجب لا بد أن تكون غليظة وتسريح شعرها لا يستغرق بضع دقائق لأنه شعر حرير على الحدود يهفهف ويرجع يطير إلى آخر الأغنية المعروفة . . . وبعد ذلك تمسك الصحيفة اليومية ، وتقرأ النشرة الجوية . . . وليكن الجو لطيفاً فترتدى البنطلون القصير . . . وتضع المايوه في الحقيبة ثم تختطف فنجاناً من القهوة بالزبدة وبعض اللحوم الباردة وبعض أقراص الفيتامينات . . . وتنطلق إلى الشارع ، إلى الترام ، إلى الميناء ، وتركب أحد الزوارق إلى حديقة الحيوانات وتمضي اليوم كله هناك . . .

وبعد الظهر تذهب إلى النادي . . . أو إلى الشاطئ وتشرب البيرة في الساعة الخامسة . . . وتذهب إلى السينما ومعها بعض الساندوتشات وتخرج من السينما في الثامنة وتناول العشاء وتنطلق إلى البيت لتلحق آخر برنامج في التليفزيون . . . وتتحدث في مكتبها عن اليوم الرائع الذي أمضته تحت الشمس في الهواء ومع رجل أجنبي جاء إلى هذه البلاد لأول مرة . . .

وتروى لزميلاتها قصصاً كيف أنه يدعى أن في بلاده عمارات عالية ومطارات ودوراً للسينما ، وأنهم يتكلمون اللغات الأوروبية في ظلال الأهرام وأبو الهول ! طبعاً وتنسى وزميلاتها أنهن جميعاً ولدن وعشن وسيمنن في أستراليا دون أن يسافرن إلى أى بلد آخر . . . يوم للذيذ . . . ما رأيك ؟

وعندما تعود هذه الفتاة إلى البيت ستركب الأوتوبيس . . . ولن يتسع وقتها لقراءة المجلات . . . ومعظم هذه المجلات هنا تتحدث عن الجمال والشباب . . .

ويظهر أن المرأة هنا لم « تأمرك » أى تصيح أمريكية فهي لا تحب الصحف المثيرة التي تتحدث عن الجرائم . . . وربما كان السبب هو أن هؤلاء الأستراليين من سلالة المجرمين الذين كان الإنجليز يحكمون عليهم بالسفر إلى هذه البلاد على

سبيل العقوبة . . فالجريمة تجرى في دماهم . . ويظهر أن الجريمة تجري فقط في الدم . . ولكنها ليست الدم نفسه . . فهم أناس طيبون مسالمون . . يكفي أنهم يريدون أن يعيشوا وأن يجعلوا حياتهم طعماً ولوناً . . ويكفي أن واحدة منهن أبدت إعجابها الشديد ببلادي وأعجبت بأخلاق المصريين . . وبعيونهم وشعرهم الأسود الخشن . . وبتقافتهم وسفرهم بين القارات . وسألتها إن كانت قد قابلت أحداً من المصريين !

وكانت هزة رأسها ، وهي تقول : لا ، أكبر دليل على غباوقى . . ولكن عندما وازنت بين غباوقى ، وبين الخيبة العظيمة التي وجهتها لشخصي ، أحسست بالخسارة الفادحة التي أصابت بلادي . عندما أضع أحد أبنائها هذا المحجد العظيم بحسن نية !

ووعدت بلادي ، بيني وبين نفسي ، أن أعرضها عن هذه الخسارة عند أول فتاة أصادفها في أستراليا بعد ذلك !

ولاحظت أيضاً أن الفتيات في أستراليا لا يملن كثيراً إلى استخدام التليفون . فالتليفون هو وسيلة المواصلات عند الفتيات العاجزات عن الكلام بصوت مرتفع ويقلن ما يعجبهن وعلى عينك يا تاجر !

وهي تمشي في الشارع بسرعة كأنها على موعد مع أحد الطيارين على سلم إحدى الطائرات النفاثة التي تأخرت عن موعد قيامها دقيقة ونصف دقيقة !

* * *

والحياة هنا في الليل غريبة . . فالمحلات كلها تقفل أبوابها في الساعة الخامسة مساءً ، كل المحلات طبعاً ما عدا بعض المطاعم تقفل أبوابها في الساعة التاسعة والنصف . وفي بعض الأحيان تقفل المحلات في الحادية عشرة . . بعدد أصابع يدك محلات أخرى تقفل نوافذها في الساعة الثانية عشرة ، أما الأبواب فتبقى مفتوحة حتى الثانية صباحاً وفيها هيصة وخمر ورقص . . ولكن الكباريات هنا قليلة جداً . . ويظهر أن التليفزيون قد علم الناس البقاء في البيت ، فالتليفزيون قد نقل الأفلام والحفلات الراقصة كلها إلى الناس في بيوتهم - جهاز التليفزيون بالتقسيت ٣٧ جنياً ، ونقدأ وحالا بمبلغ ثلاثين جنياً !

والرجال إذا سهروا فهم يذهبون إلى البارزات ويشربون البيرة واقفين . ويقطعون الليل كله بين البار وبين دورة المياه - آسف دورة البيرة - !

ولا يوجد هنا طعام لوكس . . ولا شراب لوكس . . وإن كانت توجد فقط شوربة من ذيل الكانجرو . . هذا هو أحسن شيء يقدمه لك الأسترالي .
والكانجرو تقاومه الحكومة الآن لأنه يأكل الأعشاب التي تأكلها الأغنام . .
والأغنام أهم . .

أما الكانجرو فيمكن الاحتفاظ به في الحدائق للزينة .

* * *

ومدينة سيدني وعدد سكانها حوالي مليونين ، هي المدينة الوحيدة المودرن . .
أما بقية المدن مثل كانبرا وملبورن ونيو كاسل وبريسبن ودارون وبيرث ،
فهى مدن إنجليزية شكلا وموضوعاً وعادات وتقاليد . . والناس هناك ينظرون إليك
بدهشة . . ويكاد الواحد منهم يسألك : أمال حضرتك جاى ليه هنا ؟
فتقول له : والله أتفرج .

فيقول : يعنى حتقابل الناس ؟

وترد عليه : أبوه !

وتفاجأ به وهو يقول : لإزاي تقابل الناس وأنت مش لابس بدلة سودة وكرافتة
سودة يا أخى . . !

ولكن الطريق إلى هذه المدن الإنجليزية جداً أو الإنجليزية بعض الشيء . .
رائع فاتن . . لا تجد له نظيراً فى أى مكان من العالم . . وشكل الوديان والجبال
والأنهار والأبقار والسيارات والمداخن والمصانع . . والهواء النظيف . . وكل شيء
نظيف . . الناس والحيوانات والأعشاب . . كل هذا يغسلك من داخلك . . يجعلك
تملاً صدرك بكل شيء دون خوف . . فالبلاد كلها صحة . . وكلها شباب ، وكلها
ترحب بالأجانب . . فهنا عشرات الألوف من الأجانب ، امتلأت أجسامهم
وجيوبهم بالملايين !

ولكن سيدنى أجملها جسماً . . .

أذكر أن الطائرة عندما أخذت تحوم فوق سيدنى ليلا ، كانت سيدنى

كعشرات الألوف من قطع الماس تناثرت فوق قطيفة سوداء . وظلت الطائرة تلف وتدور أكثر من نصف ساعة ، فقد كان المطار مليئاً بالطائرات وكانت عجلات الطائرة لا تطاوعها في النزول . . وفهمت أن الطائرة ستنزل في مطار آخر . . في هذه اللحظة أحسست أن عقلي سيطير إذا لم أر هذه المدينة في الليل . .

واليوم بعد أن مشيت في كل شوارع مدينة سيدني ، ومررت بكل معالمها ومتاحفها والميناء . . وملاأت عيني منها . . يكاد عقلي يطير إذا لم أسافر منها اليوم أو غداً لأرى بلاداً أخرى . .

مهما كانت أستراليا جنة وأروع بزمان من أى جنة . . فليست الجنة أن ترى شيئاً واحداً مهما كان حلواً ، ولكن أن ترى الكثير وأن تعرف الكثير . فالجنة في التنقل لا في البقاء حيث أنت . فأنا أرفض أن أبقى حيث أنا حتى لو كنت من أغنياء أستراليا ولو كان عندي أعظم ناد للقمار وبه ألف ماكينة للبوكر تبلى أموال الناس طول الليل وطول النهار . . وهي واقفة على حيلها لا تكلفني إلا تنظيف التراب الذي تساقط من أيدي المقامر الخاسرين . .

ليست الجنة في أن أشير إلى التفاحة فتسقط في فمي وأن تشير إليها معدني فتسقط في أمعاني . . وأن تلعب بها معدني فلا أعرف أين تذهب بعد ذلك .

ولكن الجنة هي أن أجرى وراءها وأتصيداها من الوحل وآكلها خضراء تلتسع لساني . . وأشكو منها ومن طعمها وأملأ بالشكوى هذا الورق . . وألوف الصفحات أمال بمعنى أعيش منين . . !

• • •

أستراليا تعرف الشيء الكثير عن لبنان، إن فيها ٢٥ ألف سفير يمثلون لبنان . . ! ومن بينهم أصحاب ملايين بدأوا حياتهم ببيع الأطعمة اللبنانية .

وهناك مثل يقول : تقتل اللبناني يطلع تاني . . وأنا أعتقد أن هذا المثل صحيح . . بل أعتقد أن قتل اللبناني مستحيل . . فهو لا يموت . .

إنك تضعه في أية بيئة مهما كانت عسيرة ، فيعيش ويتفوق . وفي أستراليا عدده كبير من التجار الناجحين ، بل بينهم أصحاب ملايين . . جاءوا إلى هذه

البلاد من ٧٠ عاماً . . وعاشوا في ظروف قاسية وتفوقوا على هذه الظروف بشرف ونزاهة وصبر عجيب . سألت المليونير أو الملايين تشارلز سكاف ، أوسكيف : كيف جمع هذه الثروة . . وكيف أصبحت له هذه المصانع وهذه المحلات التجارية لبيع الأقمشة القطنية والصوفية ؟ وكيف أن اسمه برن في سنغافورة وفي هونج كونج ؟ وسألت أخاه المليونير روبي سكيف ؟ وأخاه المليونير جون سكيف ؟ كيف أصبحوا أصحاب ملايين . . كل واحد منهم له قصة . .

وقابلت أناساً عاديين جداً . . وبعضهم لا يقرأ ولا يكتب وقد جاءوا من قرى مجهولة جداً في جبال لبنان ، وقطعوا هذه المسافات الطويلة جداً من الزمان والمكان ، قرروا وهم في هذه القرى المجهولة أن يعيشوا في أستراليا . .

قابلت فتاة في الطائرة اسمها : « حنه بوظنوس » من قرية « بلوزا » ، وجدت المضيفات حائرات في أمرها . . لأنها تطلب منهن أشياء بلغة غير مفهومة وتجمعت حولي المضيفات يسألنني إن كنت أعرف اللغة اللبنانية - وهي فعلاً لغة مختلفة عن لغتنا ، بل عن لغة أهل المدن في لبنان نفسها - ودار بيني وبين الفتاة اللبنانية كلام تفهمه مني . . . وكلام لم أفهمه منها . . . وعرفت أنها تريد أن تشرب : « لاموناضة » أي ليمونادة أو عصير ليمون . .

لقد جاءت هذه الفتاة إلى أستراليا لتعيش مع أخيها الذي لا يعرف القراءة والكتابة . . وقابلته في المطار فعرفت أنه سيقب وسيتعلم اللغة الإنجليزية هو وأخته . .

قابلت فريد جبور اسطفان . إنه صاحب مطعم الأرز في أعظم شوارع العاصمة في شارع بيت . . ومطعم الأرز في الطابق الثاني من عمارة صغيرة . . وفريد متزوج من لبنانية ولدت في أستراليا ، وهما الآن أستراليان . . وفريد كان يعمل سائق تاكسي ، وكان يعمل صبياً في مطعم . . وهو منذ ١١ سنة في أستراليا . . وقرر أخيراً أن ينتقل إلى القاهرة وأن يسرد جنسيته اللبنانية فقد سمع أن التجارة عندها أحسن . . وهو مستعد أن يعمل في أي مكان وأن يبدأ من جديد . .

قابلت تريزه بو خاطر وهي متزوجة من شاب إيطالي وقد افتتح الاثنان مكتباً للسياحة هنا . . والمكتب يعمل بنجاح هائل ، وهي على الرغم من أنها

لا تعرف الكثيرين من اللبنانيين هنا فلإنها لا تشعر بالغبرة . . فأى مكان كأى مكان . . والحياة عمل . .

وعرفت أن عدد الذين هاجروا من قرى بلوزا وزغرنا وبشرى وكفر منعان المجهولة في جبال لبنان حوالى عشرة آلاف رجل وامرأة . . وعرفت أن اللبنانيين هنا يسمون المهاجرين الجدد باسم الأستراليين الجدد .

وقد حاول أصحاب الملايين اللبنانيين : سكيف ومنصور وكاندل أن يقنعونى أن جمع مليون جنيه أو عشرة ملايين جنيه ليس صعباً . . أبداً ليس مستحيلاً . إن المهم أن تجمع المائة ألف الأولى فقط . .

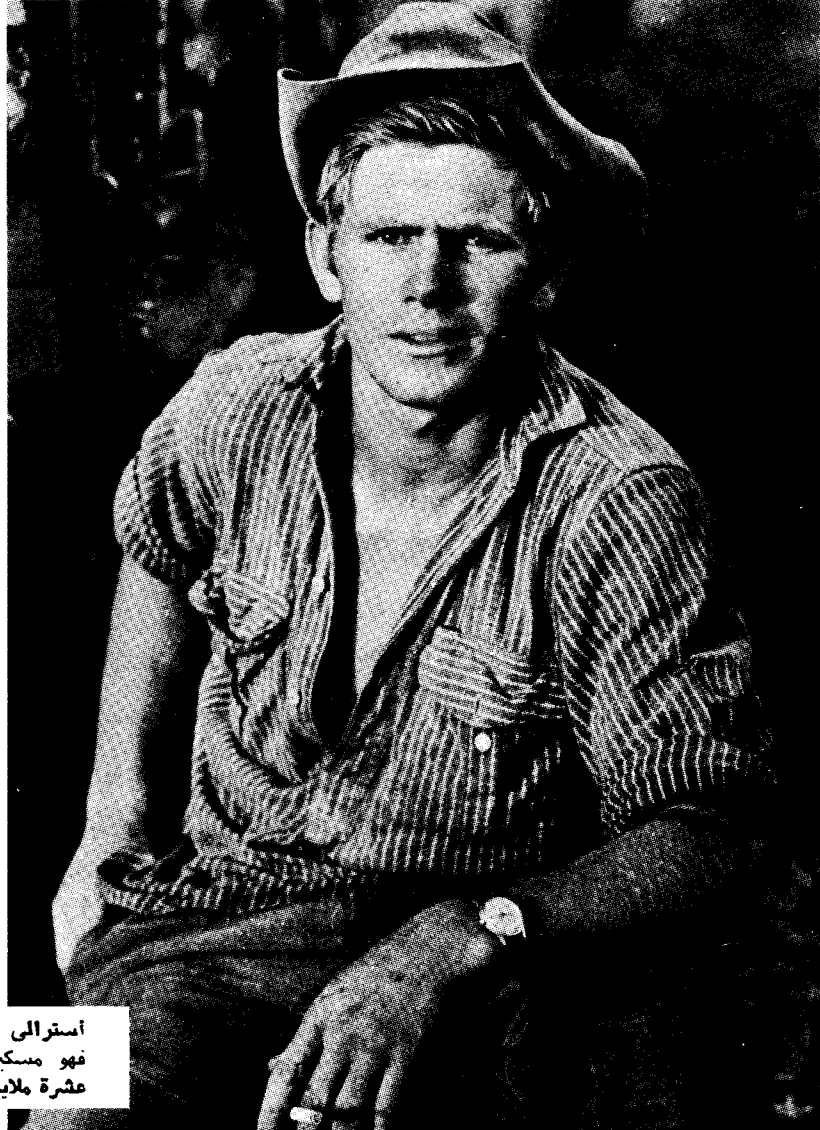
روى المليونير تشالز سكيف كيف أن والده جاء إلى هذه البلاد من ٦٥ عاماً . وكيف أنه بدأ حياته ببيع الأطعمة اللبنانية . . وكيف أنه كان يصنع الطعام في البيت ويمر على الناس في البيوت ، لم يكن له مطعم ولا مطبخ ولا اسم ولا مكان . ولكنه قضى عشرين عاماً يحمل الطعام على كتفه . . عشرين عاماً افتتح محلاً صغيراً لا للطعام ولكن للأقشنة . . ولما مات تفرق أولاده كل واحد في عمل . . ونجحوا جميعاً ولكن كيف نجحوا ؟ يقول أصحاب الملايين اللبنانيون إن النجاح ليس له سر . ولكن الصبر والبساطة في الحياة هما سر النجاح . .

ويقول روبي سكيف ونحن في قصره الجميل على ميناء سيدنى : أعتقد أن سر النجاح هو في التواضع . . فالإنسان يجب أن ينحنى لعمله لا أن يجعل العمل ينحنى له . . وهناك كثيرون تخرجوا في الجامعة ومعهم شهادات تجارية . . معظم هؤلاء لم ينجح . لماذا ؟ لأنهم يترفعون عن العمل بأيديهم بينما ينجح الرجل الذى لم يدخل الجامعة ، لأنه يرى أن العمل أكبر منه وأنه تلميذ في جامعة الحياة وأنه لم يتخرج بعد ، ولن يتخرج أبداً . .

ولاحظت أن أولاد أصحاب الملايين يعملون معهم في المكاتب وفي المحلات التجارية . . جميعاً . فى مكتب تشالز سكيف توجد ابنته « جميلة » سكيف . . لأنها تعمل سكرتيرة عادية جداً . . ترد على التليفون وتكتب الرسائل على الآلة الكاتبة وتحضر فى مواعيد العمل . . وكذلك الأولاد الذكور . . إنهم ولدوا ليعملوا ولينجحوا أيضاً . .

هنا ٢٥ ألف لبناني قرروا أن يعيشوا . . إن معظمهم لا يعرف اللغة العربية . . ومعظمهم لم ير لبنان ولكن أى عمل جليل يؤدونه للبنان أكثر من أن ينجحوا هنا أو فى أى مكان . . وأن يكونوا أحسن صورة لها . إنهم هنا أستراليون ، ولكنهم يفتخرون بأنهم من لبنان . والناس هنا يعرفون عن لبنان الشيء الكثير . . بفضل هؤلاء السفراء الناجحين . .

إننى أحييم وأنخى للصبر والكفاح والنجاح والشرف .
وأنخى ألا يسألنى الناس بعد اليوم : آمال مفيش حد من بلدكم هنا ليه ؟ .



أسترالى نمولجى : صحة وشباب وامل
فهو مسكين فى أغنى قارة . عدد سكانها
عشرة ملايين ويمكن أن تستوعب ٥٠ مليون

● في زمهرير الصيف!

بدأت معركة الشتاء . . . أو معركة البرد . . . فالغرفة التي أحتلها - الحقيقة أحتل جانباً من جانب السرير الذي بها - بدأت أشكو فيها من شدة البرودة ففيها سرير صغير ، الجدران عالية ، وعارية أيضاً . في جانب منها حوض للماء . . . والحنفية طول الليل لها صوت كأن في جوفها ثعباناً كبيراً يريد أن يتلع الصابونة الموضوعة على الكرسي . . . أحاول أن أجد جرساً فلا أجده . أتصل بالاستعلامات في التليفون ويكون الجواب عليك أن تبحث عن الخادمة . . . والخادمة لا أعرف أين هي . . . الفندق كبير جداً . . . والطرق طويلة وملتوية . . . وأنا . . . ماذا أريد من الخادمة . . . أريد أن أشرب أى شئ دافئ . . . بل أى شئ يغلى . . . بلاش شاي . . . عاوز بطانية . . . لا بد أن أبحث عن الخادمة . . . وأخيراً عرفت مكان الخادمة . . . إنها في بيتها . . . لأن اليوم إجازتها . . . وغداً ستحضر في الساعة السادسة والنصف صباحاً . . . ولكن كيف أصل إلى الساعة السادسة والنصف . . . أريد أن أكون في حالة تسمح لي بمقابلتها غداً . . . أريد أن أنام . . . أعمض عيني حتى لا تكونا حمرأوين في الصباح فتخاف مني . . . لا فائدة . . . يجب أن أنام بالطول أو بالعرض . . . لكن طول مين وعرض مين؟! إن الغرفة ليس لها طول وليس لها عرض . . . إنها زنزانة . . . وجربت النوم على مرتبة من الكاوتش وفوق بطانيتان . . . وضعت واحدة تحتي والأخرى فوق . . . وانكشيت . . . الحقيقة هذه الكلمة لا تناسب حالتي أبداً . . . فأنا فعلت أكثر من الانكماش ولكن البرد يلسعني . . . يقرصني في أماكن أخاف منها . . . فهنا في الجانب الأيمن وهنا في الظهر . . . وأنا في حالة لا تسمع

لى أبدأ بتشخيص هذه الأمراض الجديدة . . فتحت النور . . فكرت فى أن أنقل السرير بعيداً عن الحائط . ونقلته ووضعته فى منتصف الغرفة ولكن البرد يترصدنى . . فكرت فى أن أنام بلا غطاء ، فالمراتب ألواح من الثلج مرصوفة . . والبطانية ألواح من الثلج طلع فيهبط شعر . . هل أنام فى الدولاب كأننى عشيق سمع أقدام الزوج فاخْتَبَأَ فى أقرب شئٍ وجده . . هل أفتح حقيبتى وأدخل فيها كالقواقع أو كالسحفاة . .

أصبحت الآن أعتقد أن السحفاة المسكينة مرت بهذه التجربة . . لا بد أنها هى الأخرى نزلت فى فندق كهذا ويشت من البرد . . فخلعت جدران الغرفة وحملت أحجارها على ظهرها وهربت !

ولكن كيف أهرب وإلى أين ؟

وفى اليوم التالى جاءوا لى ببطانية أخرى . .

ولكن البرد يتسلل من بين البطاطين . . وانتقلت إلى غرفة أخرى . . وكانت أسوأ من الأولى . . وانتقلت إلى غرفة ثالثة . . وفى الصباح طلبت الخادمة قبل أن تذهب إلى بيتها . . وقلت لها : أنا الراجل السقمان . . أنا عاوز . .

فقالت : عارفة . . بطانية .

— لا . . . عاوز دفاية .

— إيه دفاية . . يادى الفضيحة . . على فكرة إزاي واحد شاب زيك يخاف

من البرد . . وإزاي .

— عارف حتقولى إيه . . سمعت السؤال ألف مرة . . ياسنى أنا من بلاد

تأكل النار وتشرب النار . . المية عندنا بتغلى . . السمك فى الأنهار مسلوق . .

الطيور متعلقة مشوية على الشجر . . أشجار القمح عندنا بتطرح عيش شمسى . .

أشجار الأرز عندنا بتطرح محشى ورق عنب . . ياسنى أنا من الماو ماو . .

صحيح بلادنا حارة بس أنا هنا حامرت من البرد . . يعنى أعمل إيه ؟ حضرتك

مش رحى جنيئة الحيوانات بتاعتكم ، مش شفت الفيل كاشش ونايم جنب الحيط .

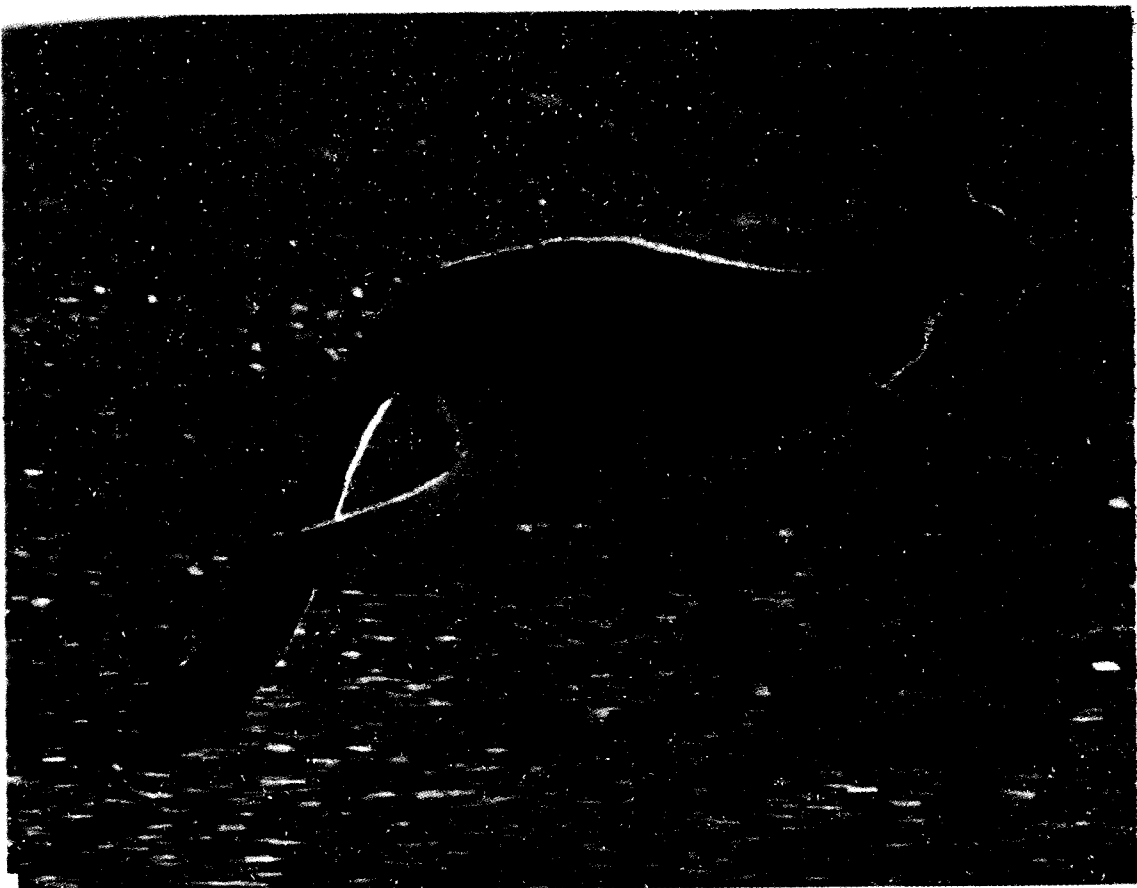
ليه ؟ من البرد . أهو أنا بقى من بلاد تتركب الأفيال مبسوفة ؟ عاوز دفاية . .

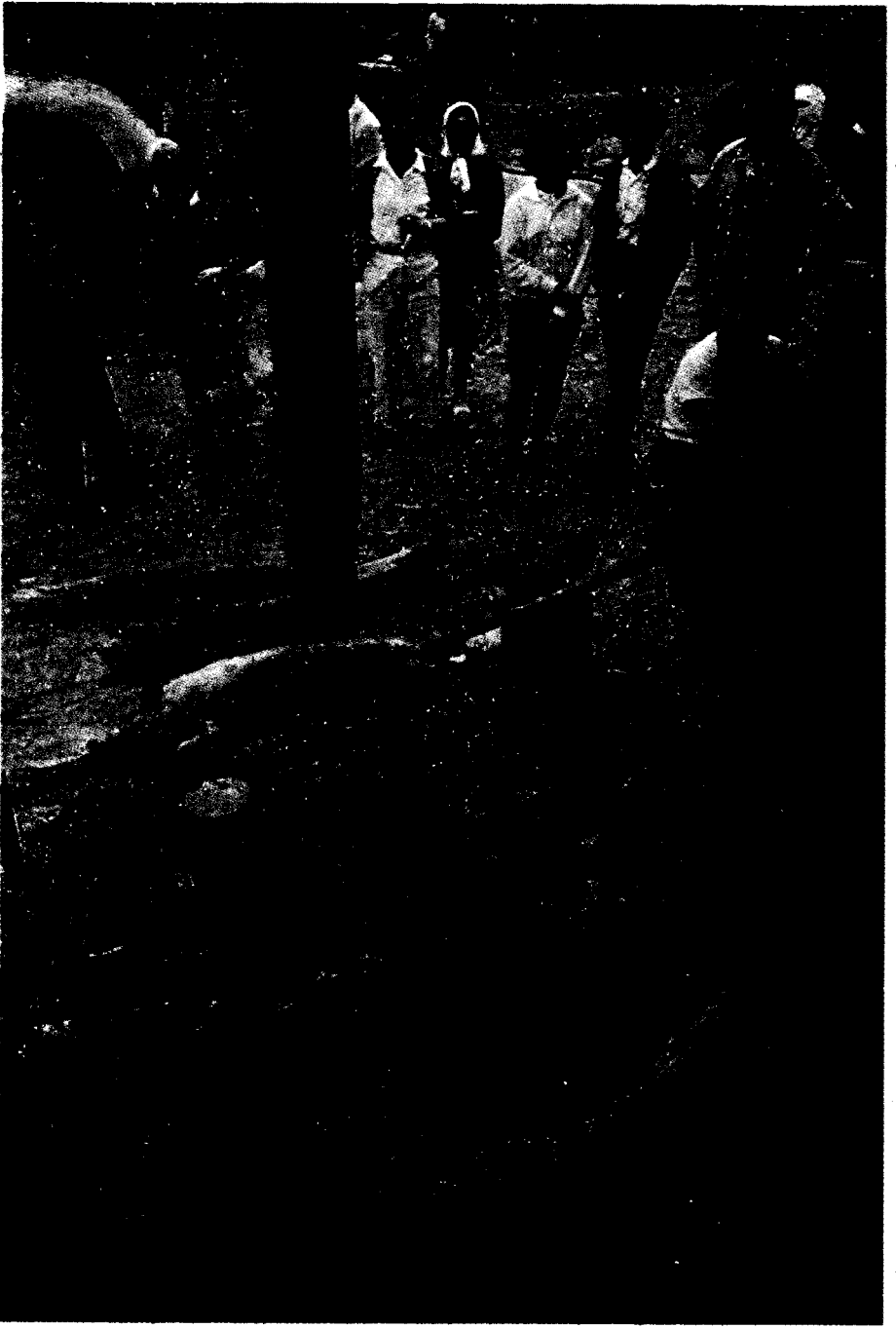
فى عرضك !

أجمل حيوانات أستراليا
.. إنك تجده في كل
الحدائق وعلى كل
الأشجار .. ليس
صاراً ..



الكانجيارو وليس له
وجود إلا في أستراليا
.. سريع القفز يعتمد
على ساقيه وذيله ..
يقفز لفترات واسعة
جداً ..





الحنين إلى الحياة البدائية : الشواء في الهواء
الطلق والرقص بعد ذلك في أحد أعياد الحصاد . .

وأنظر من النافذة فأجد الناس في ملابس خفيفة . . . بدل فقط . . . أو قصان
من بطانات . . . ملابس من ملابس خفيفة . . . ركس النساء ليست تليها كالمعتاد
حرارة الجو . . . فالمرأة تلبس الفساتين السوداء في عز الصيف والبيضاء في قلب
الشتاء . حسب الموسوعة لا حسب الترمومتر !

وأصبحت الآن أتعرض كل يوم لدهشة خادمة . . . أصبحت « فرجة » .
كل خادمة تدخل تجد المدفأة في غرفتي تبدي دهشتها . . . وأخيراً تضايقت جداً . . .
وقلت للخادمة : هل قرأت الصحف اليوم ؟

قالت : طبعاً .

قلت : ما الذى لفت نظرك ؟

قالت : لا شيء .

قلت : هناك شيء لفت نظري أنا . . . لقد صورت الصحف طائر البطريق .
طائر البنجوين في ميناء سيدنى . . .
قالت : أبوه . . . رأيت الصورة .

قلت : هه . . . إيه رأيك . . . يبقى الدنيا حر والابرد ؟ . . . أهو الطائر ده
جاي من القطب الجنوبي . . . إيه . . . لأن هنا برد . . . وده طائر ولد في الثلج
ويعيش ويدفن في الثلج . . . يبقى أنا معذور والا لا ؟
قالت : لا . . .

قلت : ياستى زى بعضه . . . المهم إني أنام وبيس . . . ومن فضلك لما تكتبوا
عن بلادكم أبقوا قولوا لنا « لطيف » في الصيف يعنى إيه . لأن « لطيف » عندكم
معناه « بالطيف » عندنا . . .

وبدأت أشكو من البرد . . .

فقالوا لى : سيب أستراليا كلها أحسن .

فقلت : حاضر أسيب اللوكاندة !

• • •

عندى طريقة كلما نزلت أى بلد جديد . . .
فأنا أحدد الشوارع والبيوت بطريقة خاصة . . .

هناك أناس يحددون الشوارع بالبنوك الكبرى . . فلا أحد يجهل مثلا البنك المركزي في القاهرة . . أو البنك المركزي في أية عاصمة .

ولكن أنا أعتقد أن الناس فعلا يعرفون البنك المركزي ، وهم في الواقع يعرفونه بالسماع ولكنهم لا يعرفون مكانه . . فعظم هؤلاء الناس الذين نسألهم من المشاة . . وهذا الماشي لا يمكن أن يعرف البنك : . إنه رجل فقير أو متوسط الدخل يمشي على رجله ولا يملك سيارة . . وحتى الذين يملكون السيارات ليست لهم أموال في البنوك - مثل مثل - هؤلاء يكرهون البنوك . .

يعنى لا يجب أن تحدد الأماكن والشوارع بالبنوك . .
وفي مدينة سيدنى بالذات لا أنصحك بالاعتماد على البنوك ، لأن هذه المدينة فيها أكثر من سبعين بنكاً . . كل بنك له عمارة أكبر من عمارة إيموبيليا . . وكل هذه البنوك تبدأ بكلمة من الكلمات الثلاث : أستراى .. سيدنى .. كومونث ..
أنا أحدثك عن تجربة : فقد دخت دوحه الكواكب في السماء . . فهناك أموال محولة لحسابي هنا ، ولكنى لا أعرف اسم البنك بالضبط . . لقد كنت أتصور أن البنوك في عدد أغنام جحا ، لا في عدد أغنام أستراليا !
ولذلك فأنا أحدد الأماكن هنا أولاً بمحطة السكة الحديدية . . وأحددها بالبوستة العمومية . . وأنا شخصياً عندى حاسة الاتجاه إلى محطة السكة الحديدية . . ولا أذكر أنني ذهبت إلى بلد في العالم لم أر فيها محطة السكة الحديدية ، أو لم أعش في محطتها . . أنا لا أذكر . .

إن هذه المحطات تسحرني . . بكل ما فيها من ضوءاء ودخان وزحام . . لا أعرف السبب على التحديد . . ولكن منظر الناس وهم يجرون . . منظر الناس وهم ينتظرون . . منظر الاهتمام على وجوههم . . مجرد أن لكل واحد منهم هدفاً . . كل هذا يسحرني . . يثيرني . . شكل القطار . . وهو على الرأس وقد تربع على عجلات من حديد والدخان يخرج من رأسه ، وصوت الماء وهو يغلي كأنه عقل يفكر . . منظر المحطة وكأنها خطة موضوعة . . كأنها خطة ينفذها ألوف الناس كل يوم . .

إن هذا الإحساس بأنك على سفر دائماً . . بأنك ستترك أناساً وتلتقي بأناس . .



شيء لا يخطر لك على بال - إنه
قطن وبكيات وفيرة جداً !!

كما كان الناس يفعلون في أوروبا من مئات
السنين : يعصرون العنب بأقدامهم تمهيداً
لصنع قذح من النبيذ !



بأنك ستفقد أحداً ، أو ستكسب أحداً . . هذا الإحساس يسكنني . . إن أتعبت
شيء في الدنيا أن تكون « هنا » دائماً . . أو تكون « هناك » دائماً . . ألا تفقد
أحداً . . ألا تكسب أحداً . . أن تكون أنت وظروفك وبيتك وكل الناس مثل
توأmy سيام لا تنفصلان أبداً . .

إن منظر التيهو لشيء يعجبني ويثيرني . . إن منظر الراقصات والراقصين
لا يهزني . . ولكن منظر الاستعداد والتهيؤ للرقص هو الذي يعجبني . . إن شكل
الشفاه وهي تقرب والشعور الذي يغمر المتعانقين قبل التقبيل هو الذي له كل
معنى . .

ولكن كل شيء كامل ، كل شيء تام دون حركة ، كل شيء على رصيف
الحطة ولا يغادرها . . كل شيء لا يرتبط بقطار . بسفر ، بانتقال ، كل شيء
لا ينتقل من « هنا » إلى « هناك » ، ولا يكون في حركة دائمة . . كل هذا هو
الموت . . ولذلك فأنا أحب الاهتمام بشيء ، والاستعداد لشيء والتصميم على شيء ،
وأن تحمل متاعك ، وأن تحمل همومك ومشاريعك وتنتقل . . كل هذا تجده في
محطة السكك الحديدية . . أو في المطارات أو البوستة العمومية . .

لقد عشت أياماً طويلة في محطة روما . . وأياماً جميلة في محطة ميونيخ وأياماً
رائعة في محطة ليون في باريس . . ومطار فرانكفورت ومطار زيورخ . . وهنا في
محطة سيدني توجد السكك الحديدية . . ويوجد الترام وتوجد الزوارق البخارية .
وتوجد المطاعم ، والمقاهي ، والصحف والكتب ، وصناديق البريد . . هنا حياة . .
فاجعل طريقك إلى الحياة في سيدني - أو أي بلد كبير - يبدأ من مركز ومحطة
الحياة !

(أشياء غريبة !)

• كل شوارع سيدني وملبورن وكانبرا فيها علامات وعلى العلامات كلام
كثير . . فالمشي هنا من الساعة كذا للساعة كذا . . وممنوع مشي المشاة في هذا
الشارع كله . . وأية دراجة تمشي هنا عليها غرامة ٥٠ جنياً !

• بعض السيارات تتدلى منها قطعة من الحديد تمس الأرض . ويقال إن بعض الذين يركبون السيارات يشكون من آلام في المعدة ، والسبب في ذلك وجود شحنات كهربية في السيارة . ولذلك يجب تفريغ هذه الشحنة عن طريق هذه القطعة من الحديد . . . !

• مواقف السيارات هنا يملكها أفراد . . والموقف عبارة عن قطعة من الأرض .رتفعة حوالى ثلاثة أمتار عن الشارع . . ويجب أن يقف عليها عدد من السيارات ، وبعد ذلك تعلق اللافتات تعتذر عن ضيق المكان ! . .

• توجد في سيدنى دار سينمائية لا تعرض إلا الجريدة الإخبارية والكترون والموضوعات الصناعية والزراعية . . والعرض يبتى ساعة . . والعرض متواصل من الثانية عشرة صباحاً حتى الثانية عشرة مساء . . التذكرة ثمنها شلنان !

• فنجان شاي وقطعة من الخبز وقطعة الزبد ثمنها خمسة شلنات . . العشاء يصل إلى ١٧٠ شلناً ، العشاء طبق لحم مشوى وبعض السلطة الخضراء .

• في حديقة الحيوان هنا غراب أبيض ، وكان العرب يقولون إن الغراب

الأبيض مستحيل الوجود . . مفيش مستحيل يا عرب !!

• المكتبة العامة التي أكتب فيها الآن . . الكتب موضوعة على الجدران . .

وأنت تدخل وتبحث عن الكتاب وترده إلى مكانه . . كأنك في بيتك تماماً وكأنك في بيتك أيضاً لا تخرج والكتاب في يدك . . وهي مفتوحة من العاشرة صباحاً إلى العاشرة مساء . . !

● البحث عنه من جريدته لئلا

غرفتي الحديدية لا تطاق ، ضيقة ، رطبة ، ليس فيها منضدة . وإذا طلبت منضدة فأين أضعها ، وإذا وضعتها فكيف أجلس إليها أو عليها أو أدخل فيها ، وإذا استطعت فإن المدفأة سترسل حرارتها الكسيحة إلى ظهري ، أما صدري ووجهي ويدي فستبقى جميعاً قطعاً من اللحم الخاف .. وأحاول فتح النافذة لأرى الشمس عملاً بنصيحة جحا عندما وضعوه عارياً فوق أحد الأسطح وأشعلوا النار على بيت بعيد عنه .. وقالوا له : الدفء بالعين !

ورأيت الشمس فعلاً ولكن الشمس كانت طالعة فيها جداً ، كأنها فتاة حلوة تتدلل على ابن الخيران . فهو يراها ولكنها تتظاهر بأنها لا تراه . وإذا رآته فإنها لا تشعر به . وإذا شعرت به فإنها تخفي هذا الشعور .

بالاختصار كانت الشمس مرسومة في السماء وليست شمساً حقيقية .

وأمس قررت ألا أذهب للمكتبة . فقد تعودت أن أذهب إليها كل يوم وهناك أضع أوراق الصحف الصباحية وبعض الكتب والبالطو والبوفر والكوفية وزجاجة الحبر وبعض السندوتشات وبعض الحوارب الاحتياطية .. ولكن لاحظت أن الطلبة والطالبات يتركون الكتب والقراءة والكتابة ويتفرجون على طريقي في الكتابة .. فإنني أكتب من اليمين إلى اليسار ، وكنت قبل ذلك لا أتضايق إذا نظر إلى أحد وأنا أكتب تماماً كالمطرب أو كالعازف على القانون أو كالمؤذن ... كلهم لا ينجحون من الجمهور .. ولكن في استراليا شعرت بالضيق .. وشعرت أن نظراتهم تجعل الورق الذي أكتب عليه أحياناً خشناً كالحائط يتعثر فيه الكلام ،

وأحياناً رقيقاً كورق السجاير يتمزق تحت القلم ..
وفي كثير من الأحيان كنت أشعر كأننى بهلوان يأتى بمركات غريبة ،
وكان القلم (زانة) أقفز عليها من أول الصفحة إلى آخرها .. يعنى نظراتهم مش
لطيفة .

وعدلت عن الكتابة فى مطعم المحطة .. فقد لاحظت أننى أجلس مدة طويلة
ثم لا أطلب سوى واحد شأى ، وفى النهاية لا أدفع أى بقشيش . مع أنه
كان فى نيتى أن أدفع لولا أن تعليمات الحكومة صريحة بعدم دفع البقشيش ،
وأنا لا أريد أن أبين لأهل استراليا أن أبناء الجمهورية العربية أقل منهم تمسكاً
بالقانون .

وقد اكتشفت أن هذا القانون لا يتمتع بأية شعبية ابتداء من بوفيه المحطة حتى
بوفيه المطار !

• • •

وذهبت إلى بنت بلدى ..

إلى مرجريت وليدة شبرا . وهى المواطنة الوحيدة فى هذه البلاد . وفى المطعم
الذى تديره جلست فى أحد الأركان وقدامى الشأى والقهوة والسندوتشات .. وبدأ
الناس من جديد يتفرجون ويتساءلون . من هذا الغريب الذى يجلس وتحت قدميه
مدفأة وأمامه عشرات من الأكواب والفناجين ولفائف الطعام وأمامه زهرية ورد ..
وكان الموقف لا يحتمل أبداً . فأنا لا أستطيع أن أرهق مرجريت الطيبة
فأنا لا أعرفها إلا منذ يومين ولا داعى أبداً إلى أن أضيف إليها متاعب أخرى ..
فهى تكافح هنا فى هذه البلاد .. وإيرادها محدود ثم إن ثمن البنزين مرتفع وسيارتها
التي لا تفارقنى تكلفها الكثير .. وهربت . وعندما سألتنى عن سبب الهروب
رويت لها قصصاً كثيرة .

وقررت شيئاً غريباً . ولكن الفكرة أعجبتنى ونفذتها فوراً .
لقد قررت أن أفعل شيئاً فى حديقة الدومين . حيث يوجد الخطباء والساسة
والمجانين ..

وفى الطريق إلى الحديقة مررت على أحد محلات الموبيليا واشترت منضدة

صغيرة ، وطويتها ووضعها تحت إبطى ودفعت فيها جنياً .. وكلما توهمت أن أحداً ينظر إلى كشرت في وجهه كأننى أحد الخطباء .. ولما رأيت أناساً كثيرين ينظرون لى كادت المنضدة تسقط من يدي وكادت ساقاي تقفزان فوقها وينطلق لساني يلعن أبو خاش كل الناس الذى يزعمون أن بلادهم حرة ومع ذلك يحولون بينى وبين حريتى .

وفى الحديقة وضعت المنضدة وفوقها أوراقى وبدأت أكتب ومضت ساعة هادئة لا أشعر فيها بأحد لولا أن كلمات تساقط على أذنى تقول : لا جئى .. . يوغسلافى .. تركى .. مجرى .

ولما سمعت كلمة إسرائيل ، تضايقت جداً وأفلتت منى صرخة ، خرجت من أننى .. لأنها لشدة اضطرابها أخطأت الطريق إلى فى ا

واكتشفت أن عدداً من النساء والرجال تجمعوا فى مقاعد مجاورة وراحوا يتفرجون .. وبعضهم بدا عليه الفزع كأنهم تصوروا أننى أكتب خطبة طويلة وأننى سألقيا كلها عليهم .. ولم أفهم لماذا يدهشون .. ألا يتحدث أن الرسام ينقل أوراقه إلى الحديقة ويرسم هناك ، وعازف الكمان ألا ينقلها إلى الحديقة وتحت شجرة يحرك أصابعه ، والسيدات ألا تنقل كل واحدة منهن مجموعة من البكر والإبر وتقطع ساعات النهار فى عمل بلوفر أو جاكنته .. ولكن هذه المناقشة بينى وبين نفسى لم تقنع الناس بالسكوت عن التعليق .

وأواسى نفسى وأقول : برد برد يا أخى .. سيكون هناك دفء فى ماينلا .. ستكون هناك ليالى ممتعة فى هونج كونج .. ستكون هناك فلوس فى طوكيو . بس اكتب ولا يهملك ا

ولكن الناس يتوقعون منى أن أقف على يدي أو أنزع ملابسى وأصرخ كما كان يوحنا المعمدان يصرخ فى الصحراء وقد ارتدى جلود الحيوانات .. . ولاحظت أن الساندوتشات قد سقطت إلى جوار قدمى .. فددت يدي وأخذتها وبدأت أكلها بصورة أراحت الناس .. لأنهم يتوقعون منى أن أقوم بأعمال شاذة ككل الذين يجيئون إلى هذه الحديقة ا

وأخيراً اعتدلت فى جلستى ونزعت الساندوتش من فى عندما وقف أمامى

عسكري بوليس ضخيم وسألني إن كان معي تصريح . فلم أفهم السؤال . فأعاد السؤال فلم أفهم أيضاً .

وفي قسم البوليس عرفت أن كل إنسان يخطب في هذه الحديقة يجب أن يخاطر البوليس .. وبعد ذلك عليه أن يقول ما يشاء . وهو حر في أن يعلن كل الناس ابتداء من رجال البوليس ، حتى التاج البريطاني !

وقلت له إنه لم يكن في نيتي أن أخطب أبداً . . وإنما أنا أكتب مقالا وجواز سفرى يدل على أنني صحفي .. ورويت لرجال البوليس كل ما جاء في أول هذا المقال .. ثم إنه لو كان في نيتي أن أخطب فلماذا أكتب الخطبة بالعربية لأقوها بالإنجليزية .. فأنا أعرف الإنجليزية وأستطيع أن أتكلم بها ، دون ورقة ودون إعداد أو تحضير ..

ولكنه قال لي : إذا أردت أن تأتي تحضر بمنضدة فيجب أن تستأذن البلدية لأن شغل الطريق يحتاج إلى إذن .

يعني أنا وبائع السجق والكوكاكولا سواء .. يجب أن نحصل على إذن .. وكان ردى أنني لا أعرف القانون ، وكان الرد الطبيعي هو أن جهلى بالقانون لا يعفني من أن يصفعني أحد عساكر البوليس !
والغرامة جنيهان ونصف ..

كدت أدفعها لولا أن رجل البوليس اقتنع بكلامي وأعفاني من هذه الغرامة . وبعد ساعتين بالضبط خرجت من القسم وفي نيتي ألا أذهب إلى المكتبة العامة أو إلى مطعم مرجريت .. بل قررت أن أذهب إلى حجرتي وأن أكتب وأنا جالس على قرافيسى .

وأشهر كاتب في الدنيا هو الكاتب المصري الجالس القرفصاء !
ولكن هذا الكاتب الشهير كان في مصر الدافئة ، ولم يعرف استراليا الباردة .. والحل الوحيد هو أن أذهب إلى مطعم الفندق وبجرام حول وسطى وكرافتة حول عنق ، وبين أناس يشربون وأنا أكتب ، وبين أناس يمرحون وأنا أتلوى بدأت أكتب .. وقبل أن أضع القلم على الورقة سمعت اسمي في الميكروفون، ولما ذهبت أسأل عن السبب وجدت العسكري إياه معه وصل بييع المنضدة ، فالقانون

لايسمح لي بأن أبيع شيئاً اشتريته دون إذن . وتولى البوليس بيع المنضدة لحسابي ..
وبالقروش القليلة التي قبضتها نفذت نصيحة صديق من القاهرة . . واشترت
« خرزة زرقاء » ووضعها حول قلبي . . وأرسلت الباقي إليه لكي يوزعه على القراء
الذين أحسداهم على أنهم قرأوا هذا المقال من أوله إلى آخره ! . .

* * *

وفي النادي الإيرلندي في مدينة سيدني اجتمع ذات ليلة عدد كبير من
الأسر اللبنانية لنا . . ألفان أو ثلاثة آلاف . . لا أعرف . . فأكثر الحاضرين
من الأطفال . سبة المواليد بين اللبنانيين هنا عالية . . رأيت الروثوس الكبيرة العريضة
من الوراء ومز الأمام ، والحواجب الغليظة والعيون السوداء . . وبدأت أسمع كلمات
بعضها عربي ، وأكثرها إنجليزي بلهجة استرالية . وكان من المفروض أن يرتفع الستار
في الساعة الخامسة . . وظللنا ننتظر حتى السادسة ونفذ صبرنا في السابعة ولكن الستار
ارتفع في السابعة والنصف ، فقد كانوا في انتظار القنصل الجديد . . وتوالى الخطباء
وتباروا في مدح قنصل لبنان . . وكل الخطباء يتكلمون العربية الفصحى . ومعظم
اللبنانيين هنا ولدوا في استراليا ولا يعرفون من الكلمات العربية سوى « كبة » ، بكسر
الكاف و« تبولة » ولحمة مشوية بكسر الياء و« زحلة » بكسر كل هذه الكلمات !
وطلبوا من القنصل أن يلقى كلمة . . والقنصل فصيح ، وخطيب متحمس .
وعاد وجلس إلى جوارى وهمس في أذني : إنني الأب الروحي لكل لبناني هنا ...
مناسبة الحفلة هي أن جمعية جديدة تكونت هي « جمعية ليالي لبنان الفنية »
تأسست في استراليا سنة ١٩٥٨ ، وأحيطت هذه العبارة بأشجار الأرز . . .
والجمعية تضم موسيقيين هواة وتضم مطربات لبنانيات وراقصات . وقد رأينا
رقصة شرقية . . هز بطن ونوم على الحائط وسقوط على الأرض وحركات هي
خليط من رقص نجوى فؤاد وكاريوكا ثم رقصة أخرى لم أرها قبل ذلك وهي رقصة
الكوب على الرأس . . وضعت الراقصة الاسترالية لا اللبنانية كوباً من الماء فوق
رأسها . . وراحت وجاءت وتمرغت على الأرض وكان الماء قطعة من الثلج لم
يسقط على رأسها أو على وجهها . .
وغنى أحد المطربين اللبنانيين أغنية « كل ده كان ليه » لمحمد عبدالوهاب .

وصوته جميل وألحانه مضبوطة والأداء سليم جداً ، والمطربات يتبارين في الألحان اللبنانية الصميمة مثل : عبده حبيب غندوره . . . وليفش ما نحاكينا . . . وكيف حالك يا ضيعتنا . . . واللومة اللوما . . . ووصلتينا لنص البير وقطعت الحبل فينا . ولاحظ القنصل أن اللبنانيين قد أصبحوا استراليين على الآخر . . . يعنى ساكتين كأنهم فى دار للأوبرا . فطلب إليهم أن يصفقوا وأن يردوا على المطربات . . . وكأنهم كانوا ينتظرون ذلك . . . وتعالى الهتافات عند كل كلمة « يا ليل » وبعدها . . .

ولا شئ يدل على أن اللبنانيين هنا يكونون مجتمعاً حياً سوى وجود خطباء وفنانين . . . ثم شعراء . . . معظم أبناء لبنان ينظمون الشعر والزجل والأغاني . . . إن معظم الذين نظموا الشعر لا يعرفون كيف يكتبونه . . . إنهم هكذا يشعرون به وينظمونه ويلقونه . . . إنها الشاعرية والأذن الموسيقية : وطبعاً تردت شجرة الأرز مئات المرات فى كل القصائد . . . بل إن شاعراً أعلن أن كل شئ فى لبنان يشتاق إليه من الأرز إلى البطيخ إلى التبولة . . . ولبنان هي أصغر بلد . . . ولكن جبلها أعلى الجبال . . .

وواحد منهم اسمه « رفيع قهوجى » يقول فى شعر لا يعرف كيف يكتبه بالعربية ، وإنما يكتبه بحروف لاتينية :

جبل لبنان مدروك حده
لحد اليوم ما فى فكر حده
صغير وبس فيه له مقام على
وعلى أكبر دول ييشوف قده
بمياهه الصافية بأرزه الشمالى
بمناخه بمنظره وحسنه الجمالى

وأحسن ما قاله الشاعر رفيع قهوجى :

ويقولوا بالقمر وجود عيبه
هدى تقشر الأرز بنخلوده
اتحنى بيوسها وهى عما تصده

ومعنى هذه الأبيات بالعربي : إن الناس يقولون : إن في وجه القمر بعض الخريشة ، هذه الخريشة سبها أن أشجار أرز لبنان حاولت تقبيل القمر فتمعها . . فخربشت وجهه . .

وشعراء آخرون مجدوا لبنان وأهل لبنان . .

إنه مجتمع حي . . مجتمع متماسك يجعلك تشعر أنك لم تترك لبنان أو أنك لم تترك البلاد العربية . .

وهمس القصل في أذني يقول إنه عندما قابل رئيس وزراء استراليا قال له : إن الجالية اللبنانية هي الوحيدة التي ليس بينها واحد دخل السجن . . ليس من بينها واحد سارق أو قاتل أو نصاب . . في حين أن الجاليات الأخرى قد خالفت القانون في كل مواده . .

شطار أيها اللبنانيون . . تجار أيها اللبنانيون . . فيكم حياة وشباب وكفاح وقدرة على الحياة في الصخر . . إن كلمة عربي في هذه البلاد لها معنى واحد : لبناني . . وأشهد أن العرب هنا قد شرفوا قدرنا . .

وأن هذه الحفلة كانت تكريماً لبلادي . . فقد أحييتها وأضاءتها وأسعدتها أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب !



٧٠٠٠ جزيرة!

بلاش لعب عيال . ١

وهذه العبارة لم أقلها لأحد . . وإنما شخطت في نفسي وقلتها بصوت مرتفع وأنا أعرف أن أحداً لن يدري بما أقول . فلعله يظن أنني أقرأ شيئاً بلغتي . فقد نطقت هذه العبارة بما يشبه الرجاء لنفسى ألا أكون عيلاً وأن أرتفع إلى مستوى شهادة ميلادى . وأن اكتسب صلابة الجبال التى رأيتها ، وعمق المحيطات التى عبرتها ، وشجاعة المسافرين الذين ركبوا معى طائرات تصيها السحب بالسعال . .

وقد نطقت بهذه العبارة عندما وقفت في مطار سيدنى وفي يدي حقائب السفر إلى الفلبين وأنا أريد أن أرجع في كلامي وأبحث عن طائرة أخرى . .

وأمامى في المطار أحدث طائرة ابتكرها الإنسان : بوينج ٧٠٧ . . هذه الطائرة قد تعطلت فجأة ، وقبل أن ترتفع عن أرض المطار . قالت الصحف ، التى لاتعرف شيئاً عن هندسة الطائرات النفاثة الجديدة ، إن بعض الماء دخل في البنزين ، أو بعض الماء دخل في المحركات النفاثة . . وهى سميت نفاثة لأنها تسحب الهواء من الأمام وتنفضه إلى الخلف . . فكأنها تشد حبلاً من الهواء بسرعة ألف في الساعة . . وعملية الشد والسحب هذه هى التى تدفعها إلى الأمام . . وتعطيل طائرة من هذا النوع معناه أن الحبل الهوائى قد انقطع . أو أن الأصابع الرهيبه التى لا تراها قد تكسرت . أو أن لغزاً لا يمكن حله قد صادف الطائرة . ولا بد من استدعاء الأمريكان الذين اخترعوها . وجاء الأمريكان .

وقف الناس يتفرجون على الطائرة وعلى الذين اخترعوها وعلى الذين سيضعون

الأصابع العجيبة على الجبل الخفى . . لتشد حيلها وتقوم مشكورة بعبور المحيط الهادى فى طريقها إلى الفليبين .

ولم تفلح المحاولات التى بذلها الأمريكان . .

وصدرت الصحف بعد ظهر نفس اليوم تحمل العناوين المثيرة ومن بين السطور تلمس رائحة الشماتة . وتلمس أيضاً الدعاية الإعلانية التى تؤكد أن العطب بسيط جداً وأنه كان من الممكن أن يرتفع بها الطيار ، لولا حرصه على راحة الركاب . .

يعنى الإصابة خدش وليست كسراً . .

وظللت واقفاً فى المطار أنتظر من رجال الجمارك أن يستدعونى . وسألت لماذا لم يستدعنى أحد . وكان الرد إنهم ليسوا فى حاجة إلى استدعائى . . وأن حقائبي قد نقلت دون تفتيش - يا عينى - إلى الطائرة !

وبكسوف الذى يتظاهر بأنه كان يعرف ذلك ثم نسيه ، أمام الحادث الجلل ، صعدت الدرج ، وأنا أخفى رأسى فى الباطو ، ويدي فى جيوبى ، ونفسى بين المسافرين ولم تكن الطائرة نفاثة . . إنما من ذات المحركات الأربعة ولكنها أحسن وأمتن . وشعر الطيار وملاحو الطائرة بشئ من الاستعلاء . فقد أدى ظهور النفاثات إلى أن تحولت الطائرات ذات المحركات إلى حناطير جوية . ولكن هذه الحناطير الجوية لا تتطعل كهذه السيارات الجوية . . وحتى إذا تعطلت فعندرها أنها حنطور !

وأغلق باب الطائرة . . وارتفعت إلى الطريق الذى مررت به من قبل . . من سيدنى عبر القارة الأسترالية إلى مدينة دارون . . إلى المطعم الإيطالى . وشعرت بالارتياح عندما تكلمت باللغة الإيطالية . وحرصت على أن تكون اللهجة إيطالية على أصلها . وظن هؤلاء الجرسونات مواليد أستراليا أننى من إيطاليا وهى الدولة الأم ، وأحسست بشئ من الارتفاع عن مستواهم . وأحسوا هم أيضاً أنهم إيطاليون من الدرجة الثانية ، وليسوا من الدرجة الأولى مثل . . وهذا الشعور ، شعورهم ، كان يبرر لى أن أجعل عباراتى غير واضحة ، وكلماتى غير مفهومة . . ويطنون هم - وهذا حسن ظن طبعاً - أن هذه لهجة مستخدمة فى الوطن الأم

وأنتهم نساء هنا لم تسعدنهم الظروف التي أسعدتني ، فيفهمون هذه الكلمات
وكنت أهز رأسي كأنني البابا أدعو لهم بسلامة العودة وقربها ، إن شاء الله . .
تشاو . . تشاو . . أريفيدرلا . .

والكلمتان الأوليان معناهما : سلام . . أو تحية . .
والكلمة الأخيرة معناها إلى اللقاء . . وكان من الممكن أن أستخدم الكلمة
المألوفة : أريفيدرتشي . . ولكني حرصت على النطق بكل ما هو غير مألوف .
ومن الجائز جداً أنهم في مطار سيدني بعد ذلك سيستخدمون هذه الكلمة باعتبارها
أحدث ما ورد إليهم من أرض الوطن !

وأشرت بيدي مودعاً ، واتجهت إلى الطائرة التي انطلقت في الظلام تعبر
المحيط الهادى في طريقها إلى مانيلا . . أشهر مدن الفلبين . . أو العاصمة
الدبلوماسية والسياحية . .

والفلبين مثل أندونيسيا تضم ألوف الجزر . . فالفلبين سبعة آلاف جزيرة .
ولكى أكون دقيقاً أقول إنها سبعة آلاف ومائة . . وبها عشرة آلاف نوع من
الزهور وبها سبعون لغة و ٦٥ نوعاً من الخفافيش . . وألف نوع من الطيور . .
وهي لا تعرف الحيوانات التي ترضع صغارها . . فيما عدا القران والخفافيش !
وهذه الجزر أخذت اسمها من الملك فيليب الثاني ، أحد ملوك إسبانيا ،
والإسبان دخلوا هذه البلاد مع البرتغاليين الذين ارتادوا كل هذه المناطق وأقاموا
فيها . ومر الإنجليز مروراً « عابراً » على هذه البلاد . . واستقر الإسبان فيها .
ولذلك فاللغة الإسبانية لا تزال لغة معظم الناس . وإن كانت اللغة الرسمية اسمها
تاجوليج .

والناس والشوارع والمدن لها أسماء إسبانية .
ثم إن الإسبان نقلوا الديانة المسيحية الكاثوليكية إلى هذه الجزر . والفلبين
هي الدولة المسيحية الوحيدة في آسيا . ولكن المسلمين سبقوا الإسبان إلى هذه البلاد .
ونقلوا الإسلام والدم العربي إلى جزر الجنوب وخصوصاً جزيرة منداناو التي نرى
فيها الطفلة الصغيرة تضع الأحمر في شفتيها حتى التاسعة من العمر . . أما بعد
ذلك فهو حرام شرعاً !

أما الهولنديون فقد أقاموا فيها بعض الوقت . .
والأمريكان احتلوها من ٦٦ عاماً . ثم انسحبوا منها إلى اليابان أيام الحرب
العالمية الثانية ثم عادوا ليمنحوها الاستقلال أيام الرئيس كايرون وهو من أعظم
زعماء الفلبين ، ومن أطفهم وأجهم إلى الأوربيين !
والفلبين تدخل ضمن الأسرة المنغولية الواسعة جداً التي تضم الملايو
وأندونيسيا ومعظم جزر المحيط الهادى . .

وهم شعب يحب المرح . . والقليل جداً الذى أراه أسمى فى هذه الطائرة يؤكد
أن مرح أبناء الفلبين أطف بكثير جداً من مرح أبناء أندونيسيا . وقد لاحظت
على الملحق العسكرى الذى كان يسكن إلى جوارى فى مدينة جاكرتا أنه
لا يتوقف عن الرقص كل ليلة . . عنده ألوف الأسطوانات . . وكان يطلب من
أصدقائه أن يراقصوا أخته . وكانت أخته مضبوطة دائماً على إبرة البيك آب . .
فى اللحظة التي تهبط فيها الإبرة على الاسطوانة . . كانت أخت الملحق العسكرى
تتلوى كالأسطوانة وتدور مثلها وتدوخ مثلها أيضاً . . وتعلو وتهبط مثل الإبرة .
ولكى لا أتجاوز الحقيقة أقول إن الدوخة كانت تصيب أى ضيف يدعو
الملحق العسكرى إلى بيته . فقد كان الضيف يحامل صاحب البيت فيرقص عشر
أسطوانات ، ويحامل الأخت فيرقص عشرين أسطوانة . وأمام إضرار الأخت ،
وحرصاً على الشهامة الإسبانية ، يرقص عشر أسطوانات أيضاً . . ويسقط فى أى
مكان . . وتظل الأخت ترقص حول جثته . . كأنها إحدى بنات الغابة وكأنه
غزالة سقطت تحت سهام رجال القبيلة !

وفى الطائرة شئ من هذا . . فالرجل الذى جلس إلى جوارى رغم تعليمات
مضيفات الطائرة يضع فى جيبه راديو ترانزستور . . والراديو موجه إلى الفلبين
أو إلى استراليا . . فلا يذيع إلا الأغاني وإلا الرقصات وهو يترنح بشدة تارة
مع الموسيقى وتارة من الخمر ، وتارة فى المطبات الهوائية التي تنزل فيها الطائرة . .
وكان يعطينى الراديو لكى أضعه على أذنى ، لعل أهتز مثله . . وكنت أهتز
بالفعل . ولكن لا أستطيع أن أعرف السبب الحقيقى لهذا الاهتزاز ، لعلها رعشة
على أثر الحقنة التي أخذتها فى الصباح قبل السفر للوقاية من أمراض نسيت اسمها
الآن . وربما لأن الكرسي ليس مربوطاً ربطاً محكماً . فالطائرة يبدو أنها قديمة .

كان في نيتي أن أودى خدمة جلييلة لشركة كوانتاس الاسترالية ، فأنبه المضيفة إلى هذا الخلل الموجود في المقعد . وهي خدمة خالصة الثمن . . . ففي اللحظة التي سأسمى إليها هذا الخبر سألتني الثمن على شكل ابتسامة عريضة . . . وربما على شكل اصطدام خدها بخدي غير المخلوق . . .

ولكنني عدلت فأنا أخشى أن يكون المقعد ثابتاً في مكانه ، وأن يكون الاهتزاز في داخلي أنا . ثم لاحظت أنني لا أجلس على المقعد الذي يقع على الممر حيث تتحرك المضيفة ذهاباً وإياباً وكأنها تمشي على الأرض . . . وكأنها تغيظ الناس فتمايل على هذا وتتساقط على ذلك . . . كأنها راقصة بين مقاعد أناس مخمورين في إحدى الحانات . . . ومن الغريب أن المخمورين جالسون ثابتون ، وأن التي ليست مخمورة هي التي تمايل وترنج بينهم !
وأضيت الأنوار الحمراء في الطائرة . . .

وكان ذلك إشارة إلى أننا في انتظار عاصفة على المحيط ، مع أن هذا المحيط اسمه المحيط الهادى . . . ربما كان السبب هو أننا نجتاز خط الاستواء . ولم ألاحظ ذلك عندما عبرته قبل ذلك قادماً من أندونيسيا . . . ولاحظته قبل ذلك عندما عدت من أندونيسيا إلى الهند . . .

واهتزت الطائرة بعنف كأنها اصطدمت بهذا الخط الوهمي . . . وكأنه حدث ما يحدث في الريف عندنا . . . فهم لكي يقطعوا الصابون مثلاً - صابونة الغسيل الضخمة - فإنهم يلفون حولها فتلة دوارة ثم يشدون الفتلة . . . فإذا هي تقسم الصابونة إلى قطعتين . . . والفتلة المشدودة هنا تقوم بدور السكين . . . فعملية شد الفتلة تعطى قوة . . .

ولكن لأن الطائرة ليست صابونة ولأن خط الاستواء وهمي ، عدت إلى الهدوء أحاول أن أفرز الحقائق من الأوهام . واندجت مع جاري في سماع الموسيقى . واعتبرت أن هذه الموسيقى نوع من الجو الإقليمي للفيليين . . . فكأنني دخلت الآن الهواء والماء والموسيقى الإقليمية للفيليين . . .

وضحكت مع جاري كثيراً . وكلما سألته عن بلاده . . . أريد أن أعرف منه شيئاً عنها ، أشار إلى أنه لا داعي لأن أستعجل الوقت . . . يكفي أن الطائرة تقطع .

الوقت بهذه السرعة الخيفة . . وسأعرف كل شيء هناك بسهولة وبنفسي وعلى طريقي . . فالرجل مبسوط . ولعله يريد أن ينسى أنه عائد إلى الفلبين . فهو يعيب على الطائرة أنها مستعجلة !

وأضيت الأنوار الحمراء وربطنا الحزام وحببنا المقاعد إلى الورا . وأطفئت السجائر وابتلع كل إنسان ريقه واكتشفت المضيئة أن جاري معه راديو صغير فعاتبته بشدة . ثم طلبت منه أن يعذرها . فهذا الراديو الصغير يحدث ارتباكاً لأجهزة اللاسلكى بالطائرة . .

وخارج الطائرة كان الجو دافئاً ولكنه مليء بالرطوبة . وكنت قد نسيت هذه الرطوبة والحرارة في استراليا . ولكن تذكرت الهند وأندونيسيا وسيلان فوراً .

والذي رأيته في المطار يختلف كثيراً جداً عن الصور التي رسمتها في ذهني وأنا أستمع إلى الموسيقى في الطائرة أو في بيت الملحق العسكرى . . ولم أجد فتاة واحدة في المطار تشبه أخت الملحق العسكرى ، ويظهر أنهم اختاروها تمثل أجمل ما في الفلبين من فتيات . . مع أنها ليست جميلة جداً فهي على خلاف بنات الفلبين أكبر أنفاً وربما تكون الداية أو الطيب المولد قد سحبها من أنفها . . ولما رأى أن الأنف قد طال في يده أكثر مما يجب حاول أن يعيده إلى مكانه الطبيعي فلم يفلح . . فبقى الأنف بعيداً عن الوجه . . ثم هو منفوخ من الأمام تحت ضغط أصابع الطيب أو الداية . . فهو أنف لا هو بالطويل ولا هو بالقصير . . وإنما هو أنف منفوخ .

وأمام سلم الطائرة وقفت فتاة ممتلئة وفي يدها إكليل من الورد . . أو طوق من الورد وعينها على ركاب الطائرة . وفي وجهها ابتسامة مدخرة ، أو ابتسامة في حالة تريبص . وشفها العليا تضغط على شفها السفلى . . كما تضغط الإصبع على زناد سدس . وظهر الرجل الذي تريده . وانطلقت الابتسامة واهتز عقد الورد وسقط كطوق نجاة حول عنق الرجل الذي تنتظره . . وكان أمريكياً . وشكرها وسألها إن كان أحد قد حضر ليأتي له بحقائبه . إنه رجل عملي . وقد مل هذه الأطواق وهذه الابتسامات السخيفة . . وأسخف من هذه الابتسامات أنني وجدت نفسي ضحية لواحد من هذه الأطواق . . مع أنني لا أعرف أحداً ،

ولاجئت هنا قبل ذلك ، ولا من رجال الأعمال الأمريكيان .

وتذكرت ما فعله الرئيس الفليبيني كايرون عندما عاد ذات يوم إلى زوجته وقد لف حول عنقه عقداً من الورد . . وكان العقد ضخماً فأذهلها ، ولما سألته عن المناسبة أجاب : لقد تزوجت اليوم .

ويقال إن الزوجة بكت . .

وهنا أدرك كثيرون أن زوجته تحبه . فخلع العقد ولفه حول عنقها هي . وقال لها : كأننا تزوجنا مرة أخرى .

وفكرت في أن أصعد الطائرة مرة أخرى . وأبتسم لهذه الفتاة عند نزول السلم وأشير إليها أن تضع العقد حول رقبتى وأشكرها وأقول لها : كأننى جئت ببلادكم للمرة الثانية . . وأين الذين سيحملون حقائبي إلى خارج المطار ؟

والسؤال الأخير سؤال حقيقى وله معنى مخيف لا يمكن أن تعرفه أو تحس به إلا إذا سافرت إلى هذه البلاد . . وإلا إذا أحسست بالخطر الذى يزلزل جسمك المرهق عندما يميل عليك أحد الواقفين فى المطار وقد ارتدوا هذه القمصان المخططة ونكشوا شعورهم ومضغوا اللبان الأمريكى وقال لك : لا تركب التاكسى الذى هناك .

وتلقت لتنظر أين هذا التاكسى ، وتجد عربة ككل العربات ، وقد تسأل هذا النصاب ، ولماذا ، فيقول : لأنه قتل اثنين من الأمريكان فى الأسبوع الماضى واستطاع أن يرشو البوليس فأطلقوا سراحه .

وهذه الحادثة ليس من الصعب أن تقع ، فالرشوة ممكنة جداً وعند أعلى المستويات . . والقتل كالمهرش هنا . . والدولة تعترف بذلك وتحذر الناس من الناس ومن رجال البوليس أيضاً !

والطر غزير والرطوبة شديدة ونحن عند منتصف الليل . . والمطار بدأ يصفصف . . والمضيفة الحلوة قد استردت كل صفاتها الأرضية ، فهى تمشى دغرى ولا تبسم . . واستقلت سيارة الشركة واختفت فى الظلام . وبقيت وحدى . وتوكلت على الله وركبت فى أول تاكسى وقلت له : أحسن لوكاندة

— بالإنجليزية طبعاً . فهنا يتكلمون الإنجليزية بلهجة أمريكية ويحسن بك أيضاً أن تتعلم هذه اللهجة وليس من الضروري أن تتعلم الإنجليزية .

فرد بسرعة فهلوية : آه . . لوكاندة فليبيناس !

والطريق مظلم . والأضواء خافتة . والمطر يغطي زجاج نافذة السيارة . والسائق يحاول أن يفتح أى موضوع وأنا أسده بصمتي . أو بهز رأسي . . أو بفتح النافذة حتى أصاب بقليل من الزكام يعاونني على اصطناع «الخنافة» المطلوبة عند الكلام باللهجة الأمريكية هنا ، ولما استكملت خنافتى قلت له : أحسن لوكاندة هنا ؟

فقال : نعم يا سيدى . وستكون مبسوطاً جداً . كل شئ فيها . . الموسيقى والمشروبات . . والبنات الحلوة . . هل أنت من هوليد ؟

— بلدى أبعد من هوليد .

— أيوه أمريكا واسعة جداً . . أريد أن أسافر إلى أمريكا . . هناك أقاربي . . وهم أغنياء . وقد أرسلوا لى خطابات كثيرة .

— وما الذى يمنعك من السفر ؟

— يا سيدى أنت تعرف الرحلة طويلة وتكاليفها خرافية . . وأنا فقير . . أنا وزوجتى وأولادى . . والحياة هنا غالية .

— قالوا لى الحياة هنا غالية جداً . . خصوصاً التاكسيات !

وتردد هو قليلاً ثم عاد بذكاء يقول : الأجر متوسط ولكن كرم السياح هو الذى يجعلنى أحتمل الحياة هنا !

— حلوة يا واد ! . . برافو عليك ! (قلتها بالعربية) .

يكفى أننى وصلت الفندق . ومستعد أن أدفع الأجر مضافاً إليه الكرم ومضافاً إليه بدل تسليتي وتهديتى طوال الطريق الذى يبلغ حوالى عشرة كيلومترات من الطين والظلام . . ومن شئ أقسى من الطين والظلام هو : الخوف !

. . .

وأمام شباك الاستعلامات فى الفندق الأوربي الهندسة والأثاث عرفت لأول مرة أن مخاوفي متواضعة جداً . .

فقد طلبت منى إدارة الفندق أن أترك أموالى وأوراقى ، وفى حالة ركوب أى تاكسى يجب أن أعطى الفندق رقم التاكسى والوقت الذى أتحرك فيه . ومن الأفضل ، حرصاً على سلامتى ، أن أخبر الفندق عن تحركاتى أولاً بأول . لماذا؟ لأن الأمن غير مستتب فى هذه البلاد . . وفى هذه الساعة من الليل . . .
وكانت الساعة الواحدة صباحاً .

وعندما صعدت إلى غرفتى وجدت لافتات طويلة عريضة تؤكد هذا المعنى : الفندق غير مسئول عن اختفاء أى شئ فى غرفتك . .
الفندق يرجوك : أن تضع أسلحتك النارية وأية متفجرات معك فى مكتب الاستعلامات !

ومعنى هذا أن الناس يحملون الأسلحة ويتولون الدفاع عن أنفسهم . فالعمل الذى كان يجب أن تقوم به الدولة ، يتولاه الأفراد !
والسؤال الذى حيرنى فى الفلبين ولم أجده عنه جواباً : من هو حامياها ومن هو حرامياها ؟

وبعد إقامتى فى الفلبين اكتشفت أن الجواب عن السؤال موجود فى نفس السؤال : احذف علامة الاستفهام واحذف كلمتى : من وهو !!
وفى الصباح أكدت لى إدارة الفندق أن حرقاتى يجب أن تكون معروفة بالنهار أيضاً . فمدينة مانايلا هذه لا تعرف الليل أو النهار . ففيها كباريات لليل وكباريات للنهار . بل إن نفس كباريات الليل عندما تجئ باخرة أمريكية مثلاً ، وهذا شئ مهم ويؤدى إلى رواج السلع التى لها علاقة بالمرح ، تقفل أبوابها ونوافذها . . وهات يا موسيقى وهات يا رقص . . وهات يا فلوس . . وهات يا ضرب نار . . وأول من يهرب من المعارك رجال البوليس !

وبدأت أتخلص من اندهاشاقى الأولى . .
وجعلت أعود على هذه البلاد وعلى الحياة هنا . . وأحسست بشئ من الراحة ومن المتعة أيضاً . .

وفى صباح كل يوم أفتح الراديو المختنى فى سريرى وأستمع إلى الموسيقى وأقرأ الصحف التى تشتم رئيس الجمهورية بعبارات حمراء . وتتهم وزير الخارجية

بتعدد الزوجات . ووزير الدفاع بالتزوير في الانتخابات وعشرات الصفحات
في توديع السفير الأمريكى واستقبال السفير الأمريكى الجديد . .

* * *

ثم شعرت فجأة بأن اعتبارى قد رد لى . .

نعم اعتبارى . . يعنى قيمتى . . يعنى سعرى أصبح فى سعر الذهب . . يعنى
أصبحت كل تصرفاتى كالأوراق المالية لها غطاء ذهبى ضخم . لقد كنت فى
أستراليا أشعر كأننى قزم صغير . الناس طوال ولونهم أبيض وأحمر ، وعيونهم
زرقاء وخضراء . وبدلاً من أن أمشى على طراطيف صوابعى وطراطيف أفكارى
لكى أقف مع الناس على رأس المساواة . . كنت أحس أنه لا فائدة من أن أشد
حيلى وأقف إلى جوارهم . . فهم أطول وأبسط . كان هذا شعورى أول الأمر فى
أستراليا . .

وبعد ذلك اكتشفت أن هناك من هم أقصر منى أو يمكن فى طولى - طولى
١٨٠ سم فى الأيام الحارة - . . ولكن عندما جئت إلى الفلبين لاحظت أن الناس
قصار القامة كأبناء أندونيسيا والصين والملايو وكبوديا ولاوس وفيتنام . . إلخ . .
والناس وجوههم صفراء سوداء كالحلبة عندما نخلطها بالعسل الأسود . . أى فى
لون « المفتأة » . . الرجال قصار . . النساء قصيرات وأكثر نحافة . . وشعرت
بأننى طويل وأننى أبيض جداً وأن لون عيني فاتح . . والشعر هنا سائح نائح أى
يروح ويحجى على الوجه كأنه يولول . . وأنا شعرى أسود وأكثر . وهذه كلها
مزايا ومن علامات الجمال . . ولاحظت أن الرجال يقولون لى هذا . . وأن النساء
يقلن هذا . . النساء يقلن هذا علناً . . بل إن النساء المحترمات جداً جداً يقلن
ما هو أكثر من ذلك مثلاً : هناك واحدة حلوة جداً صاحبتى . . وتحب أن تراك . .
وطبعاً أنا لا أسأل . . ولماذا تحب أن تعرفنى . . إنما أفهم من كلامها
أن هذه الصفات - صفاتى - من الملامح التى تعجب الناس هنا . . وقلت
فى نفسى : أيوه كده !

لقد رد اعتبارى كأننى مطالب بالعرش ثم أعيد لى عرشى ، وملكى . ولكن
ماذا أفعل بهذا العرش . ليست هذه مشكلة فى مانىلا . فأنا بهذه المزايا أستطيع

أن أتسلق الأسوار بل إن الأسوار تنوب أمامي .
وبدأت عملية إذابة الأسوار . كما أذاب الألمان أسوار ماجينو في فرنسا . .
هنا الليل جميل والجو رطب . . وبدأت أمشي في شارع ديوى - كثير
من الشوارع هنا لها أسماء أمريكية لأن الأمريكان احتلوا هذه البلاد حوالى خمسين
عاماً - وفي هذا الشارع معظم الفنادق الكبرى والكباريات . . . وفي الشوارع
نداءات غريبة . . إنها الفنادق تنادى في الميكروفون على سيارات التاكسى المارة
بالقرب من الفندق .

واخترقت قطعة واسعة من الأرض مغطاة بالعشب وعدد من الفتيات والفتيان
في حالة اتحاد فيدرالى عاطفى - أى اتفاق في الدفاع عن النفس والسياسة الخارجية .
وكنت ما أزال في الساعات الأولى من الليل . . فأخرجت من جيبى ورقة
رسمية عنوانها « الحالة الصحية في مانيللا » . . الورقة تقول : معظم أبناء الفلبين
مصابون باضطرابات معوية . . ومعظم هذه الاضطرابات على هيئة دوستريا . .
وتقول الورقة : لا توجد في الفلبين بعوضة الملاريا .

وفي الصحف قرأت مقالات تهاجم الحكومة لأنها لم تتخذ الاحتياطات
اللازمة ضد الملاريا . . . وبعض الأطباء يستنكر كلام الصحف ويقول إن حماية
البلاد من الملاريا كحمايتها من العواصف أو من أمواج البحر - يعنى مستحيل !
ولكننى أميل إلى رأى الحكومة لأنه لا يوجد بعوض الملاريا في هذه البلاد .
وأحب أن أوكد للحكومة أنه لا يوجد سوى بعوضة واحدة غرست خرطومها في
عنق مستشارنا فلزم المستشفى أسبوعاً كاملاً !

ومددت يدى إلى جيبى وأخرجت كتاباً صغيراً لمؤلف أمريكى ينصح القراءة
بأنهم إذا ذهبوا إلى الفلبين فيجب ألا يشترأ شيئاً أبداً . فالفلبين هي أغلى بلد
في الدنيا كلها . وشعرت أننى ميال إلى تصديق كلام هذا الأمريكى لأنه أولاً
مضبوط ، وثانياً لا توجد معى فلوس ، ولأن الطريق إلى شراء أى شئ مخوف
بفوارق العملة والبشيش ، ولأن هناك بلاداً أجمل من الفلبين . . وأن الفلبين
ليست إلا إحدى المحطات الاختيارية في مشوارى الطويل .

وتذكرت ما سمعته اليوم وأمس وأول أمس من أنه إذا ذهبت للسهر في

أى مكان فيجب أن تبلغ أحد أصدقائك بذلك أو تبلغ إدارة الفندق أو مركز البوليس .

وظلت أمر طول الليل على الفنادق الكبرى وأتطلع إلى الكباريات والبارات من بعيد لبعيد عملاً بنصيحة جحا وهى : حلق ولا تمسكش . . فأنا أحلق فوقها وحولها دون أن ألمسها . .

وأحسست أننى كالصعيدى الذى أنعم عليه برتبة البكوية فقرر أن يذهب إلى القاهرة ليعلن ذلك للناس . ولما نزل فى محطة مصر قابله أحد الشياطين فبادره بقوله : رايح فين يا بيه . .

وانبسط الصعيدى جداً وقال له : هيه البهويه وصلت لحد هنا ؟
وقرر الصعيدى أن يعود إلى بلاده فلا داعى للإقامة فى القاهرة ما دام الناس يعرفون أنه أصبح من البهوات . .

وأنا اكتفيت برد اعتبارى وارتفاع أسعارى وعدت إلى الفندق أجلس إلى التلفزيون وأستمع إلى الموسيقى . . والناس حولى أشكلم لطيفة مسممة وينظرون بعيون كلها ترحيب كأن كل عين مصلحة سياحية وأننى السائح الوحيد !
وصعدت إلى غرفتى وأنا سعيد بأن « البهوية » بلغت الفليبين !

* * *

ومدينة مانىلا هى أشهر مدن الفليبين ، ومع ذلك ليست العاصمة . فالعاصمة هى « كيزون سىتى » وهى ضاحية بعيدة عن المدينة . ومثلها تماماً مدينة « سيدنى » فى استراليا ، إنها أشهر المدن والعاصمة هى كانبرا . . وأكبر جالية أجنبية فى هذه المدينة هى الجالية الصينية فعددهم حوالى ٥٠ ألفاً . .

والبيوت هنا مزدحمة جداً بالسكان . . وقد نشرت الصحف اليوم أن أبناء الفليبين يجب أن يعدلوا عن عاداتهم . . فالضيف يجب أن يبقى يومين أو ثلاثة لا أن يبقى أسبوعاً ، وكذلك أقارب الزوجة . . واقترح أحد المحررين أن ينقل الفقراء بيوتهم الخشبية إلى شاطئ البحر لكى يقذف بما زاد عن حاجته من الزوار فى البحر . . واقترح أن ينقل صاحب البيت بيته من مكان إلى مكان . . وإيجار المساكن مرتفع جداً ، فلحقنا الثقافى يسكن فى شقة إيجارها ١٢٠ جنيهاً ، والشقة

عبارة عن غرفة واحدة وصالة ومطبخ .
والأطعمة هنا لها طعم غريب . . فلا يوجد لبن طبيعي في هذه البلاد . .
وإنما يوجد اللبن المسحوق . . لبن العلب . . ويوجد هنا نوع من البامية ليس له
طعم ويقال إن له طعماً في بعض البيوت . .
لقد أكلتها في بيت أحد المصريين وقد لاحظت أن خادمتها اقتصادية جداً
في وضع الماء والملح والزيت والبامية . . ولاحظت أن لها أسناناً ذهبية . . فعرفت
أنها اقتصادية جداً جداً لدرجة أنها تخفي كل فلوسها في فمها !
فما بالك بالبامية !

* * *

اليوم قررت أن أمشي على كيني فقد سمعت عشرات المنوعات من أصدقائي
هنا ومن الرسميين . . ومن إدارة الفندق . . كل شيء ممنوع . . المشي ممنوع . .
والأكل ممنوع . . والسهر ممنوع . . الحقيقة لم أقتنع . .
في الصباح المبكر سحبت يدي من فوق الجرس فقد قررت أن أتناول فطوري
خارج الفندق .

ونزلت إلى شارع ديوى على خليج مانिला . . الجو لطيف والسماء ملبدة
بالسحب ، ومن المحتمل أن تتساقط الأمطار فنحن ما نزال في الصيف . .
واخترت مطعماً صغيراً . . وانحنى الجرسون في أدب فقلت في أدب له
أيضاً : شاي وبيض .

وبعض لحظات جاء الرجل بصينية كبيرة عليها شاي وجبنة وبسكويت وخبز
« مأمر » أي « مجمر » - نسبة إلى الجمر - وزبدة وبيض ولبن وكوب ماء مثلج .
وأمسكت البيضة وبرشاقة الكتكوت وهو ينقرها من الداخل لكي يخرج . .
كسرتها أنا لكي أدخل فيها . . أدخل فيها الملعقة . . وأدخلت الملعقة فوجدتها
جافة . لقد كان بها كتكوت صغير . . فقرفت . . ومددت يدي إلى بيضة ثانية
وثالثة . . كتناكيت . . فتراجعت وضممت شفتي في قرف كأنني أحد أسود
كوبرى قصر النيل ، ثم بدأت أتلفت في قرف كأنني أسد سينما مترو . وجاء
الجرسون وسكت ينتظر مني أن أقول شيئاً فأشرت إلى البيض ، والذي أدهشني جداً

أن الجرسون سألني : فيه إيه !

وبعد ذلك عرفت أن البيض هنا لا يأكلونه إلا هكذا . بعد أن توضع البيضة تحت الدجاجة عدة أيام ويشعرون بأنها تماسكت وأن الكتكوت بدأ يكبر يسحبونها من تحت الدجاجة ويقدمونها للزبون .

طبعاً لا توجد في كل مطعم دجاجة نائمة باستمرار . وإنما توجد أجهزة تدفئة لصناعة الكتاكيت . . وعرفت أن هذا هو الطعام القوي هنا .

طبعاً لا داعي لأن تعرف أيها القارئ العزيز فأنت تفعل نفس الشيء .
ألم تأكل أم الحلول ، إنها هي الأخرى تشبه البيض الفليبيني ، ورائحتها العن .

وفي الغداء اخترت أحد المطاعم وطلبت لحمًا مشويًا وبعض السلطة الخضراء وجاءت اللحمية . . شكلها جميل . . إنها على هيئة قباب كبيرة وتخرج منها أعواد من الخشب مزقت أكباد الدجاج ، وإلى جوارها يوجد عدد من الليمون الأخضر الصغير في حجم الزيتون . وجاءت السلطة بيضاء باهتة جداً . إن هذا الأخضر الفاتح هو نوع من الخس ، وهذا نوع من الخيار أو الكوسة أو البطيخ الأقرع لا أعرف . . وتوجد ملاحظة تشبه رشاشة الـ د.د.ت . . وأبعدت طبق السلطة فقد تذكرت ما قرأته أمس عن انتشار التيفود بسبب الخضروات غير المغسولة .

ومددت يدي إلى الليمون وعصرته على الماء . . ولاحظت أن عصير الليمون أصفر . . كأنه ليمون مخلل .

هذه هي أول مرة في حياتي أجد ليموناً ينزل من الشجر مخللاً وبه ثوم وشطة . وعرفت أن كثرة الليمون سببها أنه ينحني معالم اللحم فلا يعرف الزبون كيف كان طعمها . . ولا إن كانت طازجة أو بايته !

وبعد الأكل قدم لي جيلاتني لذيذ . . وهو عبارة عن جيلاتني عادي ولكنهم يضعونه في نصف جوزة هند . . إنها تشبه البوظة عندنا التي يضعونها في نصف قرعة ، ولكنهم لا يأكلون القرعة . والشئ الذي ليس عندنا هو ثمن هذه الوجبة . إنه ١٥٠ قرشاً !

وأحسست كأنني ابن النبي نوح عليه السلام . . وأحسست أن كل أصدقائي ينصحونني بالعودة إلى العقل وإلى الاستماع إلى نصائحهم حتى لا أغرق .. وكأنهم

يقولون لى : يا بنى اركب معنا . وأنا أقول لهم : سأوى إلى جبل يعصمنى من الماء .
ويقولون لى : لا عاصم اليوم . . .

والحقيقة أنه لم يكده يأتى الليل حتى وجدت أننى أنفقت عشرة جنيهات . . .
وأن هذه العشرة جنيهات قد أصبحت كحجر ثقيل تدلى من عنقى وأغرقنى معه
فى بحر من الندم .

وقالوا : اركب معنا .

فقلت : بل أمشى وراءكم !

* * *

يوجد هنا فى مايتلا عدد من أصحاب الملايين العرب من لبنان ومن سوريا
ومن فلسطين ، وكل واحد منهم له قصة : كيف جاء ، وكيف قرر البقاء ،
وكيف أصبح غنياً . ويكفى أن أذكر بعض الأسماء : فهنا المليونير السورى المولد
الأمريكى الجنسية ألبرت عوض . . . فله مصنع أسلاك كهربائية وكابلات وله
زوجة جميلة تتحدث العربية . . . وهنا الإخوة أنطون وفيلكس ويعقوب أسعد . .
لأنهم من لبنان وهم أصحاب ملايين ولهم مصانع نسيج بها أكثر من ٣ آلاف عامل .
والمليونير يعقوب أسعد يملك عقارات لإيجارها الشهرى ٣٠ ألف جنيه .

وهنا المليونير الفريد كيروزه ، من لبنان أيضاً . . وهو يبتكر صناعة
الدراجات . .

حتى قنصل لبنان هنا من رجال الأعمال الناجحين جداً ، وهو يقيم فى
الفلبين منذ ٣٥ عاماً . وله زوجة لبنانية أنجبت له طفلتين .

وقد كتبت عنه مقالا فقلت فيه : إن زوجته « أنجبت » له طفلين فغضب
من كلمة « أنجبت » له فقال : هى اللى أنجبت . . أهال شو باعمل أنا !

وأمثلة أخرى مشرفة للعرب الذين جاءوا إلى هذا الجانب من العالم وعاشوا فى
ظروف قاسية جداً . وتغلبوا عليها . وتحولوا إلى أصحاب أعمال وأموال واحتكروا
الأعمال والأموال فى بلاد غريبة .

وأعتقد أن أحسن قصة نجاح هى قصة السيدة ودیعة هاشم وزوجها
حنا جميل . . جاءت السيدة ودیعة إلى هذه البلاد منذ ٧٥ عاماً . . وقبل أن تبلغ

العشرين تزوجت حنا جميل . وبدأت قصة كفاح رائعة . بدأ الاثنان معاً يبيعا الأقمشة وكل منهما يحمل بضاعته على كتفه ، وكان الاثنان يقسمان مدينة مانيتا . كل واحد منهما يبيع في شوارع محددة . وفي آخر النهار يلتقي الاثنان . . وكانت السيدة وديعة هي التي تمسك الدفاتر ومن رأيها أن التاجر الناجح هو الذى يحفظ جدول الضرب . . . بكل معاني الضرب !

وكانت السيدة وديعة قاسية على نفسها وعلى غيرها ، وفي آخر أيامها كانت تضرب العمال وتضرب الصحفيين ، وكان من رأيها – وأقول من رأيها لأن لها آراء غريبة ستعرفها فيما بعد – أن التاجر لكى ينجح يجب ألا يكون له أبناء في أول حياته . . وإنما يهتم بالأبناء فيما بعد ، ولذلك لم تنجب السيدة وديعة إلا في آخر حياتها وظلت وديعة وحنا جميل يعملان ويجمعان الأموال وينتقلان من حال إلى حال أحسن . . من البيع المتجول إلى حالة الاستقرار في دكان صغير ثم في دكان كبير . . وأخيراً خطرت لوديعة فكرة ، أن تشتري قطعة أرض بعيدة عن مانيتا . . مساحة هذه القطعة من الأرض حوالى مائة فدان . وثمن الفدان في ذلك الوقت حوالى قرش صاغ . وأقامت على جانب صغير من هذه الأرض مصنعاً صغيراً للنسيج تحول فيما بعد إلى المصنع الوحيد في الفلبين لصناعة التلاجات والمكاتب وأجهزة التكيف .

ولاحظت السيدة وديعة أن المصنع بعيد جداً عن المدينة وأن أحداً لا يعرفه . فأهدت قطعة من الأرض إلى قيادة الجيش ، وكان الجيش يبحث عن قطعة أرض قريبة من المدينة . فأقام الجيش معسكراته هناك وشق طريقاً مرصوفاً يمر بالمصنع ويمر بمركز القيادة ، وبدأ الناس يمشون في هذا الطريق ويعرفون المصنع . . ثم اهتدت إلى فكرة أخرى . . أهدت قطعة ثانية من الأرض إلى الكنيسة وأقيمت الكنيسة بالقرب من المصنع ومن مركز القيادة ورأى المصلون المصنع . . ثم أهدت قطعة أرض أخرى إلى وزارة المعارف لتقييم عليها مدرسة . . وأنشئت المدرسة . ثم بدأت السيدة وديعة تقيم البيوت والفيلات ليسكنها الناس . لقد أنشأت أكثر من مائة بيت وزرعت الأشجار على جانب هذا الطريق وطريق آخر واختارت أشجار المانجو . . وكانت تترك الأشجار للناس يأكلون ثمارها فيما بعد . . فلم تكن

الثمار هي الشيء المهم عندها وإنما تردد الناس على الطريق وعلى الكنيسة وعلى المدرسة . . ورؤية المصنع . . والقصر الذي بنته السيدة ودبعة لنفسها يقيم فيه الآن قنصل إسرائيل في الفلبين .

والسيدة ودبعة بعد وفاة زوجها حنا جميل الذي أنجبت منه ولدين أصبحت هي صاحبة المصنع الكبير ، وتزوجت من أحد الدروز المسلمين وهو كامل بك حمادة . . وكان هذا الرجل طويلاً عريضاً لافتاً للنظر . وكان نشيطاً . فقد استطاع استثمار أموال ودبعة التي بلغت عند زواجهما حوالي ٥٠ ألف جنيه من الذهب . . وتعاون الاثنان معاً في بناء المصنع الوحيد الآن والمعروف باسم « صلب اسمائيل » واسمائيل هو النطق الفلبيني لكلمة : جميل . .

وقد سألت مدير المصنع وهو ابن أخت حنا جميل عن قيمة ما ينتجه المصنع سنوياً ، فقال إنه حوالي مليون جنيه ، وإن الربح سنوياً هو حوالي نصف مليون جنيه . . ولا يوجد من اللبنانيين في هذا المصنع سوى المدير وأخيه وسائق سيارته لبناني . . والباقي وعددهم ٥٠٠ عامل كلهم من أبناء الفلبين . وكانت السيدة ودبعة حتى وفاتها في السابعة والسبعين سنة ١٩٥٢ قوية عنيفة وكانت تمسك خزائن البنك وتحمل المفاتيح حول عنقها . . وكانت هي التي تشتري ملابس زوجها الأول والثاني . ولها ضريح كبير هي التي اختارت تصميمه ومكانه وقدرت نفقاته قبل وفاتها . . وأصررت على ألا تزيد نفقات الدفن والجنائز عن مبلغ معين .

وقبل أن تموت وزعت التركة من غير عدل بين ولديها وبين أحفادها . . فأعطت الأحفاد أقل من الولدين .

أما حكمها في ذلك فهي أن الأحفاد لا مستقبل لهم . . أما الأولاد فلهم مستقبل . . وأن الأحفاد سيكونون أقل صلابة من الأولاد ، ولا شيء يشد ظهورهم فوق خيول الحياة ، إلا المال .

ويبدو أن نبوءتها قد صحت . . فأحد الأحفاد الآن تزوج من ألمانية . ويعيش في أمريكا ثلاثة شهور وأربعة وستة من كل عام . . ألم أقل إنها لها آراء غريبة . . ولكنها معقولة أيضاً ؟!

● مغامرة في الليل!

لسبب غير واضح قررت أن أقوم بزيارة لذلك السياسي العجوز . . وأنا لا أعرف كم يساوي عند مواطنيه . ولكن بشعور من الغربة أحسست برغبة في أن آوى إليه ، وبشعور من اليتم قررت أت أتأباه – أى أجعله أباً – إذا صح هذا التعبير . .

ولا أعرف اليوم إن كان حياً أو ميتاً . فقد كان في التسعين عندما رأيته . . وحتى عندما رأيته لم أعرف إن كان حياً أو ميتاً . .

فأولاده يحرسونه كأنه ضريح . . ويتطوعون بالتهليل لعباراته قبل أن ينطقها كأنه طفل مريض . . ويقسمون على صحة ما يقول كأنه رجل مخرف . . ويدفعونه إلى الكلام وإلى أن يقول ويقول . . لأنه قال ذلك كثيراً جداً . . فهم يهونون من حالة الملل والسأم التي لا بد أن تكون قد أصابت سياسياً متقاعداً منذ خمسين عاماً . . يرى الدنيا ولا يشارك فيها . . أو يشارك فيها دون أن يراه أحد !

ولا أعرف ما إذا كان هذا السياسي الفلبيني الذي اسمه أجيئالو يساوي هذه المغامرة التي قمت بها مع ملحقنا الثقافي في الفلبين أم لا . . فقد ركبنا سيارة تاكسي من مانيلا . . وهذه مخالفة خطيرة لقوانين البلاد . وكان من الواجب أن نخطر السلطات عن رقم السيارة واسم السائق وعن المكان الذي سنذهب إليه . وما دامت السلطات لا تعرف فنحن قد اخترنا الموت . ومعروف أين ومنى وكيف سنموت . سيقتلنا هذا السائق في أطراف هذه المدينة . . أو يخنقنا اثنان من زملائه . . أو يلقي علينا غازاً « محذراً » كل هذا سيحدث الليلة على أى حال !

والسلطات في الفلبين يشرفها أن يموت اثنان من الجمهورية العربية المتحدة . .
لتنهزها فرصة وتعرب عن أسفها عن هذا الحادث ، بعد أن فاتها أن تعرب عن
أسفها عن الحادث السابق . . وستنهزها فرصة لتقول للرأى العام بأنها معذورة فهي
لا تستطيع أن تدافع عن كل البلاد بنفس الدقة . ولا تستطيع أن تتخلى عن
الشعب ، وتهتم بالدفاع عن الأجانب . .

وقد لا تجد أى معنى خاص في أن ينظر السائق في المرأة التي أمامه . لعلك
تقول إنه يريد أن يعرف السيارات التي ورائه . . إلا في الفلبين فإنه ينظر إليك
ليعرف مدى خوفك . . حالتك المعنوية . وفي السيارة تليفون لاسلكى . ونحن
نعرف معنى هذا التليفون . فعن طريقه وقع الحادث السابق لسفارتنا في مانيل .
فقد خرج مستشارنا من أحد المستشفيات التي لزمها أياماً ، على أثر لدغة بعوضة
ملاريا . ويومها أعلنت وزارة الصحة في الفلبين أنها البعوضة الوحيدة التي دخلت
البلاد !

وحتى لو لم تكن الوحيدة ، فإن أحداً لا يستطيع أن يطلب من الدولة أن
تضع ناموسيات على آلاف الجزر لآلاف الأميال . . إنها بعوضة والسلام ،
وسقطت على عنق مستشارنا فسقط هو تحتمها بغلى ويرتجف ويهز سريراً قديماً
ويملاً سماءه بهلوسات لا حد لها !

ولم يكدر يركب المستشار سيارة التاكسى ينتقل بها من البيت إلى أحد الأندية . .
وأظن أنه نادى البحرية وهو النادى الوحيد هناك . والمسافة قصيرة ، ولكن بالنسبة
لرجل مريض يحتاج إلى تاكسى . وجاء التاكسى . وركب المريض . وانحرف
التاكسى إلى شارع جانبي ثم إلى شارع آخر . وفي التليفون تحدث السائق . ولا بد
أنه نظر في المرأة إلى الورا . . ورأى أن الراكب متعب ومتهالك في مقعده .
وفي إحدى الحوارى الجانبية تقدمت سيدتان . . أو تقدم سيدتان . . فهما رجلان
قد ارتديا ملابس النساء . وهجما على المستشار ونزعا حافظه نقوده . . ولم يكن
معه كثير . ونزعا الساعة الذهبية . . واختفيا .

ويبدو أن السائق رق لحال المستشار فوعده — وهذا ولا شك فضل منه — بأن

يوصله إلى قرب البيت .. ثم يتركه فلا شأن له بهؤلاء اللصوص . فهو موظف عندهم فقط ونصيبه من كل هذه المسروقات قليل جداً !

ومكافأة للسفارة العربية على صمتها . وعلى أنها قد وضعت فوق الخبر ماجوراً ، أعاد البوليس الأوراق المفقودة والساعة الذهبية والخاتم .. ولكن البوليس لم يستطع أن يرد شيئاً مفقوداً هو : الطمأنينة !

وبشئ من الطمأنينة الكاذبة .. وبشئ من رؤية الهدف دون الطريق إليه ، ركبت السيارة وجعلت ملامح وجهي قاسية .. وأقرب إلى التحدى قليلاً وكلما نظر لي السائق في المرآة .. سقطت عيناه على واجهة رخامية .. وعلى احتقار جامد . وانحرفت بنا السيارة .. ولكن لم نهتز لهذا الانحراف وتحدث في التليفون ولم نعبأ بذلك .. ودخل محطات البنزين .. فنزلنا نتفرج على السيارة .. وبعض عيني تظاهرت بأنني ألتقط رقم السيارة ، وبعض العلامات الموجودة في الرفارف . وانتظرت حتى يفتح لي السائق الباب ، إمعاناً في التعالي عليه . ولو عرف السائق ما يدور في أعماقي لأوقفنا في أى مكان ودون أن ينطق بحرف واحد فإنني سأعطيته كل ما مع ملحقنا الثقافى من أموال !

والطريق كلما ابتعدنا عن مدينة مانبلا متجهين إلى الريف تتغير معاملة .. فقد تجاوزنا الجانب المرصوف .. ومع الأسفلت اختفت المصابيح .. وتعالى التراب مع غروب الشمس .. ولم نعد نرى إلا الأشجار .. الخوف يجعلها على شكل أشخاص .. ثم على شكل أشباح .. ثم تلاشى كل شئ .. فلم نعد نرى إلا التراب هائماً أمام مصابيح السيارة .

وانحرفت السيارة مئات المرات .. ثم توقفت أمام قصر فخم .. وصعدنا الدرج .. ودخلنا الصالون الطويل العريض .. وعلى الجدران لوحات وأسلحة .. وكل شئ يدل على أن هذا البيت قد أعد إعداداً خاصاً قبل هذه الزيارة . فلا تزال رائحة التراب عالقة في الجو .. فكأن التراب كان نائماً وأيقظوه .. ولكنه لم يبرح المكان .. إنه يتردد في أن يصحو .. وما تزال على المناضد آثار المقشات .. خطوط سمراء في خطوط سوداء .. ثم ريش متناثر على المقاعد وعلى الأرض .. ثم جاء الرجل .. ولم يكن هو الزعيم السياسى اجينالدو . إنه ابنه ..

إن الابن قد تجاوز الخمسين ولكن فرحته وخفته لم تجعلني أتصور أنه الأب . .
ولما رأى حفاوتي به اعتذر بأنه ليس الزعيم . . وإنما الزعيم سيجي حلالاً . وقد حرص
الزعيم على أن يكون هذا الاستقبال رسمياً تماماً كما كان يفعل إذا زاره إنسان عظيم .
ليس مهماً هذا التفسير أو هذا التعليل . . فالزعيم رجل عجوز وهو لم يبرح ماضيه
وحرصه على أن يوتدى ملابسه ليس إلا حرصه على أن يعيش في الماضي . . وأبهة
الماضي . . وزيارتنا له ، ليست إلا مناسبة سعيدة . . أو يجب أن تكون سعيدة له .
وجاء الرجل . . لا أعرف إن كان قد مشى على رجله . . أو حملوه حملاً . .
أو دفعوه في مقعد له عجالات . . فقد نهضت من مكاني قبل مجيئه ودخلت
إحدى الحجرات أتفرج على اللوحات ، وألقى نظرة على ماضيه الذي لا أعرف
عنه إلا القليل جداً . . أما الكثير جداً فهو ما سوف أسمعه الآن .
وعندما عدت وجدت الزعيم على مقعده . .

لقد امتلأت بشئ ، لا أدريه بالضبط . . ولكنني أستطيع أن أصفه دون
أن أفسره الآن . . فأول ما أحسست به أن هذا الإنسان طيب . . وأنه صادق .
لأعرف مدى صحة هذه المعاني ولا مدى صدق هذه الأحكام ولكنه مجرد إحساس . .
أو هو إحساس مجرد من أية مصلحة . . أو من أية معلومات تاريخية أيضاً !
وأحسست كأنه مدفع قديم جداً في طاية منارة . .

كأنه عربية حربية ماتت خيولها ، ولم يبق منها إلا بعض الألواح الخشبية
الملونة . . .

كأنه رجل دفنوه حياً ، ولما أحس المشيعون بذلك تركوا النعش وهربوا . .
كأنه جندي يحمل معدات الميدان في معركة قد انتهت من عشرات السنين
وهو لا يدري . .

كأنه أحمد عرابي باشا . لا أعرف بالضبط وجه الشبه بينهما . وربما كان
ذلك بسبب أنني عشت في جزيرة سيلان مشغولاً بالسنوات العشرين التي قضتها
عرابي هناك . ورأيت كل الأماكن التي عاش فيها وتردد عليها . . ورأيت بعض
الناس الذين عرفوه . لأنهم لا يزالون على قيد الحياة . لقد مات عرابي منذ ٥٣ عاماً . .
إنه مثل عرابي ، فيه صدق ، وله هيبة ، ولكن وطنيته كانت أقوى من سلاحه .

أو كأنه لطفى السيد . . وقد زرت لطفى السيد في بيت قد انحرف إلى حارة كأنه سيارة مغروزة في العشب . . أو كأنه باخرة قد ارتطمت بالشاطئ ولم تتحرك . . وكأنه هو قائد السفينة الذي أصر على أن يلزمها حتى ينجو كل من فيها . . ونجا كل من فيها . . ولم تفرق السفينة !

وهذا الرجل أجينالدو قام بثورة على الإسبان الذين حكموا الفلبين مئات السنين وتركوا طابعهم الثقيل على هذه الجزر . ولم يدفعا الناس فيها إلى الأمام ، وإنما كان همهم فقط أن ينقلوا ما فيها إلى بلادهم . . وأن يظل الناس يتفرجون على أناقة الإسبان ويتمنون أن يكونوا عبيداً في مدريد .

وهناك أغنية تقول : عبيد في مدريد ولا أسياد في ماينلا . .

ولم تكن قوات أجينالدو منظمة ، وإن كان هو يؤكد أنها كانت كذلك ، وإن الخونة قد طعنوه من الخلف ، وأنه لولا هؤلاء الخونة لخرج الإسبان منذ زمن طويل . وهرب أجينالدو إلى هونج كونج . . ووافق الإسبان على أن يعطوه مرتباً شهرياً ، بشرط أن يظل هناك مدى الحياة . .

وعندما استولى الأمريكيان على الفلبين أعادوا هذا الرجل بشرط أن يعزل الحياة السياسية . . واعتزلها منذ أوائل هذا القرن ، ويوم جلس أجينالدو في مقدمة الصالون الذي أجلس فيه الآن يعلن أنه أبو الوطنية في الفلبين ، في هذه اللحظة بالذات سقط عرابي باشا من فوق المصطبة في قريته ميتا . .

مسكين عرابي باشا عاش كريماً في المنفى ، ومات ذليلاً في وطنه !

وسألت الزعيم أجينالدو عن حياته . . فقال ، ما معناه . . إنه يقضى وقته كله في التأمل .

لعل التأمل الذي يتحدث عنه هو ما نسميه عادة بالسرحان . . فلا هو تفكير مركز ، ولا هو تفكير .

وسألته : إن كان في نيته أن يكتب مذكرات . .

ولا أعرف بالضبط ما الذي قاله الابن لأبيه لكي يقوله لنا ، ثم يترجمه الابن . . ولكن بعد مناقشة طويلة بينهما قال الابن مترجماً ما قاله أبوه : لدى الكثير الذي أريد أن أقوله . . ولكن أحسن طريقة لكتابة المذكرات هي أن

تكتبها أولاً بأول . . فإذا عدت إلى كتابتها بعد ذلك يجب أن يكون في أوقات متقاربة . .

وقال ، وأشهد أنني رأيت ابتسامته لأول مرة : عندنا مثل يقول إن البثور القديمة لا تنمو !

وقد استغرقني التفكير في هذا الرجل . .

فأنا لا أعرفه ، ولكن في نفس الوقت كنت مشغولاً به . ولا أعرف ماضيه هل هذه النهاية هي التي تشغلني . .

هل لإحساس الإنسان بأنه أصبح موضحة قديمة هو الذي يجنّني . .

هل هو الإحساس بأن الصدق كأي عملة ، في كل يوم لها سعر . .

هل لأن الوطنية هي شرف للجميع هي الأخرى كالعملة كل يوم لها سعر . .

ولا أعرف أي جوانب هذا الرجل الذي انتهى ، هي التي تتحدث إلينا .

إنه « آخر نفس » في سيجارة شربتها الوطنية في الفيليبين . .

إنه تمثال نصفي صنعه السيول البركانية ضد الإسبان . .

إنه كومة من أشرطة مسجلة . . لا يعرف سرعة الجهاز الذي سجلت عليه .

سألته وأنا لا أتوقع جواباً : هل من الممكن أن أرى بعض صفحات

مذكراتك . . هل من الممكن أن يترجم لنا ابن سيادتك صفحة أو صفحتين ؟

وعاد النقاش بينهما وبدا لنا أنهما لم يتفقا على شيء . . وجاء كلام الابن

يوكد أنها مفاجأة ، وأنه يحتاج إلى وقت طويل لينفض التراب عن هذه

المذكرات . .

وسألته : إن كان قد سمع شيئاً عن عرابي باشا . .

وطبعاً لا يعرفه كما أن أحداً لا يعرف عن هذا الرجل الذي نصفه صيني

ونصفه فليبيني . .

وسألته إن كان يعرف بلادنا . فاهتز في مقعده . واحتبست في داخله

المعلومات أو الانفعالات وارتفعت إلى وجهه حمرة خفيفة كالتى تجدها في

واجهة جهاز الراديو قبل أن ينطلق . . ونطق الابن وقال : طبعاً .

أما الذى قاله بعد ذلك فتستطيع أن تخمن ما سيقوله رجل إذا رفع يديه إلى أعلى وأشار بثلاث أصابع . . الأهرامات طبعاً . .

ولو وضع يده على أنفه وضغط قليلاً . لفهمت أنه يتحدث عن أبي الهول . .
ولو زحف على الأرض ، لفهمت أنه يتحدث عن التماسيح التى تسبح فى شوارعنا . . فالرجل من مواليد نصف القرن التاسع عشر !

ولم يضايقنى أنه لا يعرف إلا الأهرامات . . وكان يضايقنى أكثر لو دبت الحياة فى يديه وتحدث عن التماسيح فعلاً ! ولو تحولت أمواج النيل إلى تماسيح فإنها لن تبلغ عدد التماسيح التى تحرس شواطئ الملايو وأندونيسيا والفلبين !

ورأيت لمعاناً خفيفاً فى عيني الرجل . . وأصبحت عيناه نيشانين حديدين أضيفاً إلى النيشان التى علقها على صدره . فقلت له ، وأنا أراه لوحة أصلية وأن ابنه لوحة تقليد : هل كانت لك غراميات فليس بالحديد والنار يعيش الإنسان ؟ فقال وهو مصمم على الضحك : مرة واحدة . .

وكطفل صغير نظر إلى ابنه .

فقلت له : ولم تزوجها طبعاً ؟

فهز رأسه بما معناه نعم . .

وأضاف الابن أن لوالده غراميات أخرى كثيرة . ولكن الحرب والسياسة حرمته من الحب ، عوضته عن ذلك بحب الناس . .

ولم أسأله طبعاً أين هو حب الناس . .

فمن يدري ربما كان نصيبه هو من احترام الناس وحبهم أكثر مما يستحق . فحب الناس هذا ليس أبدياً ، ولا شئ أبدي ، وعند الناس من المشاغل والمهموم والمعارك اليومية ما يشغلهم عن غيرهم وعن أنفسهم . . فكل واحد مشغول بالنجاة فقط . . بالنجاة من الفقر والمرض والنسيان . . وهم لكى يعيشوا يجب أن ينسوا . ولكى يعيشوا يجب أن يدوسوا غيرهم أياً كان هذا الغير . . وهو — هذا الرجل — يعيش فى قصر ، أو يموت فى قصر ، وملايين غيره ينامون على الأرض . . يعيشون على الأرصفة . . ويحملون بأن يموتوا على أرصفة أطف .

وبهذه المعاني خرجت وأنا أرى أنه أخذ ما يستحق . . وأنه في هذه السن ، لا يطمع في أكثر من أن يتمدد في انتظار السائح إياه . . ذلك الذي يجيئ مرة واحدة . . وبعد زيارته لا شيء . . وهذه عبارته هو ، وعبارة كل الناس في هذه السن . .

وفي هذه السيارة شعرت بأنني أحسن حالا . .

وقد استعرت هذا الإحساس من السائق الذي رأى في زيارتنا لهذا الزعيم القديم أهمية خاصة لنا . . والذي لا بد أن يكون قد استنتج من تكرار كلمات :
سينيا . . وفيلم . . وهوليوود . . إنني مخرج أو مؤلف وأنا جئنا لعمل كبير عن حياة هذا الرجل ، وأنه من الممكن أن نستفيد من خبرة هذا السائق في قيادة السيارة في الظلام . . وفي اللف من حارة إلى حارة دون أن يصطدم بسيارة أخرى . . ثم إخلاصه في حراستنا . . لدرجة أن واحداً منا لم يمّت !

وعندما وقفت بنا السيارة أمام الفندق ، والسائق لا يقدر مدى سعادتي ولا سببها ، لمست بيدي خده فابتسم ، وأخرجت قلمي لأعرف اسمه فضحك ، وعنوانه لأرى الدموع في عينيه ثم قلت له شيئاً لم يكن يتوقعه :

هل تعرف أن وجهك يصلح للشاشة !

ثم حدثت نهاية سينمائية . .

لقد تقدم أحد رجال البوليس واعتقل هذا السائق . . فقد ارتكب جريمة قتل في الصباح ، ثم هرب بنا إلى الريف .

مسكين . . إنه لم يكن ينظر في المرأة ليرانا وإنما كان يتطلع إلى رجال البوليس !

● مطالب كلب بلدى!

كان الفيلسوف الألماني نيتشه يقول : عش في خطر !

وكان ينصح الناس بأن يعيشوا عند قمم البراكين التي تهتز وترتجف .. .
استعداداً لسيول ملتهبة وسحب من الدخان .. وبرق يتحول إلى كراييج والعة
نار .. ورعد يتحول إلى تكسير وتحطيم .. ويموت الناس في قبور مشتعلة !

والنتيجة : الموت المؤكد .. .

واللذة : هي أن يشعر الإنسان ولو لحظة واحدة أنه معلق بين الحياة والموت .. .
وأنه يكون قد اختار المكان والطريقة التي يموت بها . ومعنى ذلك أن الإنسان
يكون له رأى في نهاية حياته .. وبذلك لا يظل الإنسان في حالة انتظار دائم
للنهاية .. فإذا عاش على قمة البراكين ، فهو يعلم مقدماً أنه سيموت .. ويعلم
مقدماً كيف سيموت !

وركوب البحر خطر .. والطائرة خطر .. والمشاركة في الحياة العامة خطر ..
وكل شئ في الدنيا خطر .. فكأن الحياة نفسها نوع من الخطورة والمخاطرة .. .

وفي هذه الحالة أجد لعبارة نيتشه معنى !

ولكن الذى أراه في الفيليين هو نوع من الخطورة لا معنى له . وليست فيه
أية لذة ، ولا هي فلسفة !

* * *

ولا بد أن أعود إلى الكلام عن التاكسيات .. فهي الخطر الذى يجرى على عجل !

فأى شارع أمشى فيه تلتف التاكسيات حولي .. وتزاحم .. وكل واحد
يفتح الباب ويقول كلاماً لا أعرفه .. وكل واحد يتقدم بورقة . وعن قرب وجدت
أن الورقة بها أسماء فتيات وأرقام تليفونات .. وأول الأمر كنت أظن أن هذه أرقام
تليفونات .. ولكن عندما اقتربت أكثر عرفت أنها أعمار الفتيات .. !

وأحياناً يكررون كلمة : مستيسا ! ؟ مستيسا ! ؟

وهذه الكلمة معناها « خليط » . أى أن الفتاة التي يعرضها من أصل
إسباني .. أى أنها جميلة . والفتاة الخليط من الإسباني والفليبي تعتبر جميلة .
يكفى أن ملامحها أوروبية وأن لونها ليس أسمر أصفر .. وإنما لونها أقرب إلى
البياض وعيناها ملونتان ..

وفي هذه المنطقة من العالم ينظرون إلى ذوات اللون الفاتح على أنهم من
جنس آخر لأنها من لون ومن سلالة الناس الذين حكموا هذه البلاد . وكان
الحال عندنا في مصر أيام حكم الأتراك .. فالفتاة التركية الشقراء .. هي ست
البنات .. وأعتقد أن الفتاة السمراء في كل الدنيا هي التي تكسب في أية مباراة
للرجال .. فالرجال يفضلونها سمراء ، والنساء يفضلنه أسمر أيضاً !

أذكر أنني دعيت للعشاء في أحد البيوت هنا وتوقعت أن أرى مرحاً أكثر
مما رأيت ولكن الذي رأيته هو شيء في غاية الاحتشام ، وسألت إن كان وجودي
هو الذي حول البيت إلى كنيسة كثيفة .. وقالوا لي : أبداً .. إننا عادة هكذا ..
فسألت : إن كان المقصود بالعادة هكذا هو هذا البيت فقط . أو كل بيوت
مدينة مانبلا .

فقالوا : هذا البيت فقط ..

حاولت أن أعرف إن كان هناك أى سبب خاص لهذا الاحتشام الذي يميل
إلى الحزن مع بعض الابتسامات المكتومة ..

فقد ارتدت معظم السيدات فساتين بيضاء مطرزة من فوق الصدر والياقات
والأكمام ومعظم الرجال ارتدوا القمصان المطرزة أيضاً . وهذا هو اللبس القومي .
وقد وضعت النساء وروداً في شعورهن .. معظم الورود كانت على جانب من
الوجه ويبدو أن المرأة حريصة على أن ترى منها جانباً واحداً من الوجه . كأنها

تريد أن تقول عن نفسها إنها صريحة .. لأن لها وجهاً واحداً فقط !

لم أجد في الأطعمة التي أمامي أى شئ غريب فيما عدا الأرز . فله رائحة غريبة ، وهو مخلوط ببعض البهارات التي تجعل له طعماً حريفاً .. وإلا حرص أصحاب البيت على أن « يعزموا » . والله تأكل هذه .. والله تأكل هذه القطعة من اللحم .. واللحم عادة يكون صغيراً مثل قوالب السكر !

وبعد أن تناولت الغداء أوصلوني إلى الباب الخارجي مع التحيات والسلامات وتركوني وحدي أبحت عن تاكسي . وهم جميعاً يعلمون خطورة ركوب أى تاكسي . ومر تاكسي ووراءه آخر . وثالث .. وبنفتح الباب وكل واحد يدعوني إلى الركوب معه وأنا أرفض .. أو أعتذر أو أتصنع عدم الاهتمام . وأخرج من جيبي المفاتيح أوهم هؤلاء السائقين بأنني من أصحاب السيارات التي لا يملكها إلا الأثرياء جداً هنا ..

وعند ناصية أحد الشوارع توقفت سيارة .. وكان السائق رجلاً أبيض .. ويبدو أنه أمريكي .. وسألني : هل تعرف أين توجد سفارة مصر ؟ فقلت بشئ من السعادة لأنني وجدت من يوصلني إليها مجاناً وفي أمان : أنا مصري ..

واندهش الرجل الأمريكي هو وزميله الذي يركب معه وقال : إذن أنا سعيد الحظ جداً .. سعيد جداً ..

وكنت لا أعرف مكان السفارة إلا إذا كنت بالقرب من الفندق . فطلبت إليه أن يتجه إلى الفندق ، وفي الشارع المجاور إلى الفندق انطلقت السيارة وبعد مئات الأمتار وقفت أمام باب السفارة وصعدنا الدرج .. الدور الأول به دكاكين . الدور الثاني يسكنه قنصل لبنان . الدور الثالث على الشمال توجد شقة السفارة . ودخلت ومعى اثنان من جنود الطيران الأمريكي يريدان مقابلة السفير لأمر خاص . ويؤكدان أنه هام أيضاً .. وتطوعت أن أودي لهما أية خدمة ..

ولكن الأمر هام وخاص ولا بد من مقابلة السفير .. وبعد أن عرفنا أن السفير مشغول جداً . وافقنا على أن يتحدثنا في الأمر الهام إلى الملحق الثقافي .

أما الأمر فهو أن أحدهما لذيه مشكلة وقد تعب في حلها . والمشكلة هي أن لديه «كلبة» من النوع البلدى . وقد اشترى هذه الكلبة من سان فرانسيسكو وقد طارت معه هذه الكلبة إلى اليابان وإلى كوريا .. وقد نقل هو الآن إلى الفلبين لمدة ستة أشهر . .

وهو يريد أن يعرف إن كان من السهل أن يجد كلباً ذكراً من نفس النوع لأنه هو شخصياً قد تعب في البحث عن كلب بلدى . وقد اتصل بتجار الكلاب في سان فرانسيسكو وقد وعده بعضهم . ونشر إعلاناً في إحدى مجلات الكلاب في أمريكا - التي عددها ٣٧٥ مجلة - يطلب هذا النوع من الكلاب ثم فقد الأمل أخيراً .

ويطلب من السفارة أن تعاونه في معرفة بعض الأمور الخاصة بهذا النوع من الكلاب . كم يبلغ وزنها عندما تصل إلى سن معينة .. كم تعيش .. هل تزيد سرعتها عن كذا متر في الثانية .. ويقول إنه قاس سرعة هذه الكلبة فوجدها كذا . ويريد أن يعرف إن كانت هذه أقصى سرعة لها أو أنه يمكن أن تزيد السرعة عن ذلك .. وهل تعلق أكثر أو أن هذه الدرجة من العلو هي الحد الأقصى . .

وفي جيبه نوتة صغيرة مكتوب فيها جهة تاريخ ميلاد الكلبة وثمنها ووزنها وكل ما يظهر عليها من أعراض الصحة والمرض .. ومقاييس سرعتها .. إلخ . إلخ . . وأنت تستطيع الآن أن تتخيل دهشتنا جميعاً ونحن نسمع رجلاً جاداً وفي اهتمام شديد جداً .. ثم هو يتحدث عن إحدى الكلاب البلدية .. واحدة من الكلاب التي يجمعها السماوى - أى الرجل الذى يسم الكلاب - في أوائل الصيف . ثم تجد نفسك عاجزاً عن مساعدته . فلا أحد يعرف أية معلومات عن هذا النوع من الكلاب ولا عن أية أنواع أخرى .

وعندما طلب منا هذا الرجل أسماء بعض الكتب الخاصة بالكلاب .. وإن كان يوجد في السفارة كتاب واحد أو مجلة واحدة . طبعاً لم يجد لا كتاباً ولا مجلة ولا أحد سمع عن كتاب أو مجلة .

٤ وعلى سبيل التخلص منه أعطيناها عنوان قسم الحيوان بكلية زراعة جامعة القاهرة . ولا بد أن القسم قد تلقى خطابات من هذا الطيار الأمريكى وبها صورته

مع الكلبة البلدية . ولم يتلق رداً !

ولا يزال موظفو السفارة يتوارثون هذه النكتة !

وعندما رويت هذه الحادثة لعضو مجلس شيوخ جاء إلى مصر كثيراً ضحك ليروي لي حادثة أغرب . قال إن أحد الأمريكان من جنود البحرية أقام عدة أسابيع في إحدى الجزر النائية . نصب هناك خيمة وحمل معه طعامه وآلات تصوير . وعاد ليعرض على الدولة شراء شيء نادر جداً . فقد تمكن من اصطلياد نوع من الحفافيش النادرة .. لأنها ملونة ويصدر عنها صوت يشبه الجرس .

وطلب الأمريكي ثمناً لهذا الوطواط بضعة ألوف من الجنيهات ..

وأصيب الناس بذهول .. وما قيمة وطواط .. إن في كل بيت في الفلبين واحداً على الأقل .. ولا يلتفت الناس أبداً إلى لونها أو صوتها وكل ما يفكرون فيه هو كيف يتخلصون منها .. خصوصاً وأن هناك بعض الوطواط لا ترى في الليل ، فهي تصطدم بوجوه الناس أو كثيراً ما أسالت دماءهم .

وسافر هذا البحار إلى أمريكا .. وبعد ثلاثة شهور عاد لتنشر الصحف أنه باع هذا الوطواط بالمبلغ الذي أراده ، وأنه فاز بميدالية ذهبية من إحدى الجمعيات العلمية في أمريكا !

وقبل أن أودع الفلبين ، هذه الجزر السابجة في الدفء والرطوبة والتي تعلق وتهبط ويزيد عددها ويتناقص في كل يوم مع المد والجزر . ذهبت إلى مطعم في أقاصي المدينة . والمطعم قد اتخذ مكانه على شاطئ بحيرة بركانية .. والبحيرة كانت فوق بركان خامد .. وكل البراكين هنا خامدة .. والسلام بركانية أيضاً ومصنوعة من سائل كان مشتعل من مئات السنين .. والمناضد مصفوفة .. والجو منعش جداً .. وينذر بقليل من المطر فنحن على خط عرض ١٥ شمالاً .. والهدوء لا نظير له إلا في مناطق الجبال .. هدوء ساحر ناعم كالذي أحسست به في منطقة كاندي في سيلان ومنطقة ميسوري في الهند والذي أحسست به في كانبرا بأستراليا .. وفي جبال الألب في أوروبا .. الجو هنا لا ينقل الصوت . لا أعرف .. إن الهواء

يتمتع الصوت ويقتل الصدى في لحظة مولده .. يجئ الجرسون ويروح ونحن
لانسعه كأنه طيف .. كأنه شبح .. ويقدم لنا الطعام وينسحب شاكرا .. أو
ينسحب مشكورا .

والأيدي تشير إلى الجزر التي أمامنا .. لأنها جزر صغيرة لونها أميل إلى السواد
وهي ملفوفة في غلالة من الضباب الأبيض .. وأحشاء المحيط واضحة .. إن هذه
الجزر لم تكن هنا أمس ، لقد انحسر ماء المحيط نهارا . فظهرت هذه الجزر . وفي
الليل عندما يطلع القمر يسحب معه ماء المحيط .. فيدفن بغلالة داكنة كل هذه
الجزر الصغيرة .. ومع ذلك فهذه الجزر التي تقب وتغطس ، ليست ضمن السبعة
آلاف جزيرة التي اسمها: الفليبين .

* * *

وعلى فكرة .. أهل الفليبين يسمون مدينة مانيلا باسم : جوهرة المحيط !
وهي بالفعل جوهرة ولكن في الوحل ..

أما الجزيرة التي أستعد الآن للسفر إليها فهي بالفعل جوهرة ..
وستعرف حالا أن هناك نوعاً من الوحل .. ولكن هذا الوحل في داخل الجزيرة
وليس حولها .. ولكي أكون صادقاً أقول لك هي الأخرى جوهرة في الوحل.
وجوهرة فيها وحل !
.. فألى جزيرة هونج كونج ..



● لؤلؤة البحار!

كأن الطائرة وهي تحوم فوق هونج كونج نملة تزحف على لوحة جميلة معلقة فوق حائط من الزجاج الأزرق . .

كأن العمارات الطويلة الرفيعة الحمراء والصفراء والبيضاء مصنوعة من العملات الذهبية والفضية والنحاسية قد وضعها بعضها فوق بعض ملايين التجار المهرين ، فلما سمعوا صوت الطائرة هربوا إلى الغابات والجبال . .

كأن الميناء ، هذه القناة التي تفصل بين طرفي هذه المستعمرة البريطانية شق في فستان لفتاة ، والفستان من اللبني المشجر بالأحمر ، والمغطى باللؤلؤ . .

وكأن هذه الزوارق الصغيرة ، وهي تروح وتجيئ رأّت الكثير مما تحت فستان الفتاة الحلوة ، فانكسفت وأخفت رأسها في الماء ، فلم تعد ترى إلا ساقها المتصقتين ، وهما جميلتان . . والبقع الحمراء الصغيرة التي تراها من بعيد ليست إلا أظافر المصبوغة بدماء الناس . . وستكون أنت واحدا منهم !

كأن الناس والسيارات والعربات وهي تجرى بين العمارات الفاتنة ، جيوش نمل تزحف على ملايين من قطع الجاتوه والملبس . .

كأن جزيرة هونج كونج سيدة جميلة وضعت الأبيض والأحمر ، ووضعت عقودا وخواتم وأقراط من اللؤلؤ وجلست على بساط أخضر . . متربعة كأنها شهرزاد تروي قصة ألف ليلة للملك شهريار . .

وليس هناك شهريار سواك . . فهنا ألف شهريار وشهريار . . ولا توجد إلا

شهرزاد واحدة.. في انتظارك دائماً .. انتظار رؤيتك لكي تلقى لها بمحفظتك التي امتلأت بالمال عندست الحسن والجمال، ملكة البحار والمحيطات: هونج كونج .. وكأنها .. وكأنها.. وليست هناك طريقة أخرى للحديث عنها إلا بهذا الشكل .. ولكن ما هي؟ ماجمالمها؟ ماسعرها؟ هي أروع من أى كلام .. ومن أى « كأن » وليست كلمة « كأن » إلا محاولة لوضع منظار أسود على أى تعبير قبل أن يبخلق في جمالمها ..

ليست كلمة « كأن » إلا عكازاً تتوكأ عليه المعانى وهي تقطع المسافة الطويلة بين الخيال وبينها ..
ليست « كأن » إلا نوعاً من الفلتر تضعه في منحك للوقاية من أنفاس هونج كونج ..

ليست « كأن » إلا نوعاً من الباطو الأبيض الذى يقيك من الإشعاعات الذرية وأنت تقرب من هونج كونج .. أى إشعاع أروع وأجمل من أن تكون حراً وأن تكون قادراً على السعادة .. إسعاد نفسك وغيرك .. وبلا خوف .. أروع ما في الدنيا أن تكون بلا خوف !

* * *

وفي مطار هونج كونج حملت حقائبى . وناديت لإحدى سيارات التاكسى وقلت للسائق : فندق أستور من فضلك !

وانطلق السائق . وطال الطريق . الهواء منعش لمدة أربعة كيلو مترات . العمارات جميلة عن قرب أيضاً . الجبل يحتضن العمارات كأنه « دادة » زنجية كبيرة الصدر ، ممتلئة الساقين ، ولها كرش .. ولكن يبدو أنها طيبة .. فهى لم تضربنى بالطوب عندما أقرب من كرشها ..

بدأت أسأل السائق عن الشوارع . وأنا في الحقيقة أريد أن أعرف منه أجرة التاكسى . فالعداد يطلع وينزل بسرعة. والأرقام أمامى بالدولارات. وعندما أشار العداد إلى رقم ٨ وقفت السيارة أمام أحد الفنادق وتقدم اثنان من الشبالين . وحملا الحقائب التى تعودت أن أحملها وحدى فهى لا تزيد عن ١٨ كيلو .. وكانت قبل ذلك ٢٣ كيلو ، وفي نيتى أن أجعلها ١٥ فقط . فلست في حاجة إلى أحذيتى

ورأى بعبارات مفهومة ، وصعدنا الدورين الأول والثاني ، وعلى اليسار وإلى جوار الحمام العمومي انفتح باب . ووجدت على السرير قطعة وأولادها . ومن غير أية مناسبة كشرت وعدت إلى الدور الأرضي وتركت حقائبي ، وانطلق الناس ورأى يسألون عن السبب طبعاً . السبب واضح وهو أن الغرفة رديئة جداً . وقلت لهم :
— إننا في بلادنا نتشائم جداً من القلط ، وهذه القطعة ستدفعني إلى السفر الليلة من هنا الآن . اتركوني . اتركوني . تاكسي للمطار يا أسطى .

أما المطار المزعوم فكان فندقاً آخر قررت أن أنزل فيه بأى ثمن ، وكان الثمن ٣٦ شلناً . . غرفتي أول غرفة في الفندق كله ولها مزاي . . أولاً : ليس فيها جرس ، ولكن الباب أفتحه بصعوبة ، فإذا انفتح الباب أحدث صوتاً يوقظ الخادم الذي يخشى أن يتحطم زجاج الباب والنافذة فينطلق ناحيتي فأقول له :
— واحد شاي من فضلك .

وعندما يحضر الشاي أتجه إلى الباب وأشده ناحيتي فيصرخ الباب والخادم فأقول له :

— آمال فين الجرايد يا أخي ! وبعدين وياك أنت والباب بي .

وثانياً : إن عمليات الغسل والكنس تبدأ في الساعة الثامنة ومن الدور الخامس إلى الدور الأول ، فالشاي والجرايد لن تصلني إلا في العاشرة والنصف بعد أن أكون فرغت من الاستماع إلى نشرات الأخبار وكتابة بعض المذكرات . .

وثالثاً : فإني أطل من نافذتي على فندق « أستور » الذي لم تصله برقيتي بعد ٢٤ ساعة من إرسالها . . وأضع يدي على خدي وأتحسر على مقالاتي التي بعثتها في خطابات لا في تليفونات ، وهل تصل ، وأضرب رأسي في النافذة !

عندما كنت في جزيرة سنغافورة تصورت في ذلك الوقت أن سنغافورة هي أرخص بلد في الدنيا . . والحقيقة أن هناك بلدة أخرى أرخص منها وأجمل منها جداً . ولا تزال مستعمرة بريطانية . تسكنها أغلبية من أبناء الصين . . وهي ميناء حر مثلها تماماً . واسمها هونج كونج . طبعاً حصل عندك تهديد شديد . أنا أعذرك . فقد تهديدت قبل ذلك كثيراً . والآن انتهت لأنني سأتركها بعد أيام وأصبح مثلك بعيداً عنها .

أرجو أن يكون معلوماً أن الراديو الصغير وهو الموضحة في كل الدنيا ، في الهند وأندونيسيا والفلبين وأستراليا ثمنه لا يزيد على خمسة جنيهات بأى حال ، ثم هناك راديو صغير ببطارية وفيه بيك آب للأسطوانات العادية وهذا الراديو الجديد ثمنه ١٢ جنياً ، وهنا راديو على شكل قلم باركر وحجمه لا يزيد عن « قلمين باركر » متجاورين وصوته قوى جدا وثمانه سبعة جنيهات .

ولكن أذكر هنا أسعار الحرير والروائح ، فهي أرخص من سنغافورة وأرخص من أسعار ميناء عدن أيضاً . . .

واكتفى هنا بذكر اللؤلؤ . . . إنهم يشترون اللؤلؤ . . . من اليابان ، وهو في اليابان رخيص . ولكنه هنا في هونج كونج أرخص ، فطاقم اللؤلؤ : حلق وخاتم وعقد ، ومن أى لون لا يزيد على ١٦ جنياً .

وأشياء كثيرة جداً بالنسبة للسيدات لا يمكن أن نجد أرخص منها ، ومع ذلك فلا بد من المساومة ، ومع المساومة تنزل كل الأسعار ، والبديل الرجالي مثلاً يمكن تفصيل البدلة في ٢٤ ساعة . . . والبدلة الصوف من الإنجليزى ثمنها ١٢ جنياً . وقد اشترى هذه البدلة وبهذا السعر وفي هذا الوقت كثير من العرب الذين قابلتهم . . .

وفي استطاعتك أن توصى أى محل هنا أن يرسل لك أية سلعة على أن تدفع ثمنها عند التسليم . . . وأكثر من هذا في استطاعتك أن تشتري أية سلعة وأن تترك للمحل أن يشحنها لك في أى مكان في العالم . . . وستصلك قطعاً لأنهم هنا أمناء جداً . . .

فالأمانة من أهم خصائص المجتمع التجارى . لا تنس أننا زراعيون وأخلاقنا زراعية يعنى فلاحين !

• • •

دخلت أحد المحال بقصد الفرجة . . . وأعجبني ولاعة سجاير يابانية ، هي عبارة عن ساعة صغيرة ومعها قلم حبر جاف ولا يزيد على أصبعين في يد فتاة

صينية ، ولم أكد ألمسها حتى اقترب منى البائع وقال ل : عاجباك . .
فهزرت رأسي فقال : ثمنها جنينان .

فقلت : ياه غالية كده ليه ؟

فقاطعني قائلاً : أخفض لك ثمنها يرضيك جنينه ونصف .

فقلت : غالى برضه .

فقال البائع : أعطيك الولاعة هدية إذا وعدتني بشراء وولاعة أخرى .

فقلت : آسف . غدا ستكون معي فلوس . .

فقال : ما يهمش ، لإدبني عنوانك وأنا أبعثها لك ، ثمنها علشان خاطرک بجنبه .

وخرجت ساكتاً واجماً ومررت على محل آخر فوجدت نفس الولاعة بتسعين

قرشا . . فأنا لو كنت في القاهرة وقرأت هذا الكلام لتضايقت جدا وقلت في

نفسى :

أدى حال الدنيا ، يعطى الخلق لى بلا ودان .، يعنى واحد لا يعرف يشتري
ولا يعرف ياكل ولا يشرب ولا يلبس وليس له مزاج فى أن يشتري أى حاجة من
العجائب اللى يبشوفها دى ، وواجع دماغنا بيها ، ده يسافر ويروح هونج كونج
وأنا هنا بقى مش كنت أسافر بداله ، والله ظلم .

وأنا شاعر بهذا الظلم . . . أكثر منك .

* * *

على باب غرفتي موجودة هذه التعليقات :

هذه الغرفة شخصية . يعنى لا يقيم فيها إلا شخص واحد . . وإذا ظهر أن

هناك أى إنسان فالفندق سيقاضيه الثمن فوراً .

حضرات الضيوف — رجالا ونساء — نرجوهم أن يسجلوا أسماءهم فى دفتر

الزيارات . .

إذا كان فى نيتك أن تترك الفندق فيجب أن يكون ذلك قبل الساعة الثانية

عشرة ظهرا . . أما بعدها بدقة فسيضطر الفندق إلى احتساب اليوم عليك .

الفندق غير مشغول عن ضياع أموالك أو الأشياء الثمينة التى تحتفظ بها

أو إصابة أمتعتك بأى تلف . . وإذا كانت لديك أمتعة هامة ، فاعطها من

فضلك للإدارة . ويجب أن تأخذ وصلاً بالتسلم ، ويجب أن يكون الوصل مكتوباً على الآلة الكاتبة المعترف بها قانوناً .
الدعارة ممنوعة . والقمار ممنوع . والتزيف ممنوع .
اقفل الباب وراءك من فضلك .
من حق اللوكاندة تطبيق هذه القواعد دون إخطارك .
الحساب كل ثلاثة أيام .

* * *

واسم هذه اللوكاندة هو لوكاندة « كارنرفون » وهو الرجل الذى اكتشف مقبرة توت عنخ آمون ولدغته إحدى الحشرات ، ويقال إنه مات بسببها . ويقال إن لعنة الفراعنة التى أصابته ، أصابت أولاده وأحفاده واحداً بعد واحد . .
وأعتقد أن لعنة الفراعنة أن يقيم أى إنسان فى هذا الفندق . .
هذا رأى . . وأرجو أن يكون هذا أيضاً هو رأى الفراعنة .
وقد أذهلتنى منظر الناس وهم يمشون وقد أحنوا رؤوسهم كأنهم خانوية . .
وكأننى أنا المرحوم . .

* * *

وكنت أتخيل أن كل الناس فى هونج كونج يلبسون بدلاً من الشاركسكين الأبيض ، وفى أيديهم ساعات أوميغا ذهبية . وفى جيوبهم راديوهات صغيرة ، وفى أقدامهم أحذية إنجليزية ، ويدخنون السجائر الأمريكية . ولما انفتح باب الطائرة ورأيت أناساً كأننى أعرفهم من قبل . . كأننى رأيتهم فى الهند وأندونيسيا والفلبين ، أناساً قصار القامة صفر اللون وعيونهم بياضها شديد وسوادها أشد . . وبالبيجامات . . كأنهم أعقاب سجاثر . . ووجوههم كالحكة كالتحاس . . وأيديهم تمتد لحمل الحقائب . . وكلمة ياسيدى تتردد مئات المرات ، وأول مرة سمعتها فى هونج كونج كانت هامسة خجولا للدرجة أننى تخيلت أنها صادرة منى . ولكنى تأكدت أكثر من مرة أنها كانت موجهة لى . .

وعرفت بعد ذلك أن هذا هو حال المدينة . . ففيها ذهب ، وفيها أناس فى لون الذهب . . . وفيها أغنياء جداً وفيها فقراء جداً . وفيها ناطحات للسحاب

وفيها ناطحون للأرض .

المطار اسمه كاي تاك .. يبعد عن المدينة أربعة كيلومترات ..

ومعنى هونج كونج : شذى الورد .. أو الهواء المعطر .. أعرف بأى شيء كان الهواء معطرا هنا من مئات السنين !

ولكنه الاسم .. وقديماً قال شكسبير في مسرحيته روميو وجوليت : وماذا

في اسم ! ..

طبعاً ولا حاجة !

* * *

والذى لا يعرفه الكثيرون أن هونج كونج لها عاصمة اسمها فيكتوريا وأن هونج كونج اسم يطلقونه الآن على الجزيرة وعلى مساحة أخرى من الأرض تبلغ عشرة أمثال جزيرة هونج كونج . فهناك في مواجهة هونج كونج توجد شبه جزيرة اسمها « كولون » ومساحتها ٣٦٥ كيلومترا مربعا .. وكولون هذه فيها كل المصانع ومراسى السفن .. ووراءها مساحة من الأرض السهلة يعيش فيها عدد من الصينيين حياتهم الفطرية .. يزرعون الأرض كما زرعها أبناء الصين من ألوف السنين .. ويأكلون الأرز ويبيعونه .. ويصيدون السمك .. وبعضهم يملك جاموسة وبعض الدواجن . ولكنهم مشغولون بالأرز عن العالم الذى يضح بأحدث الآلات .. ولا يسمعون رنين المال فى كولون أو فى هونج كونج ..

وهونج كونج مستعمرة بريطانية منذ سنة ١٨٤١ فقد كانت بريطانيا تتجر مع الولايات الصينية الجنوبية .. ولكن الصينيين طردوا البريطانيين فى معارك متوالية معروفة باسم حرب الأفيون (١٨٤٠ - ١٨٤٢) . فقد كان البريطانيون يحملون صناديق الأفيون من الهند ويبيعونها للصين حتى أدمن الشعب الصينى تعاطى المخدرات القاتلة .. وبلغ عدد صناديق الأفيون التى صدرتها بريطانيا إلى الصين فى سنة ١٨٩٨ حوالى ٤٠ ألف صندوق !

ولكن أحد ملوك الصين قاوم السم وجمع كل ما يملكه التجار وأحرقه وهدد بإعدام كل من يبيعه أو ينقله أو يتعاطاه .. وانسحبت إنجلترا واستولت على هونج كونج .. بما يشبه القوة أو بالقوة .. وأغرب من ذلك فإنها طلبت من الصين بعد

ذلك قطعة أخرى من الأرض لتحمى هذه الجزيرة ، ووافقت الصين ، فاقتمعت بريطانيا من أرض الصين المنطقة المواجهة لجزيرة هونج كونج وهى منطقة كولون. وكولون معناها العفاريات التسعة ، واستأجرت بريطانيا هذه الأرض لمدة ٩٩ عاماً بدأت سنة ١٨٩٨ وبعد ذلك أضافت إليها مساحة أخرى تبلغ ٣٠٠ كيلومتر مربع .

* * *

وهونج كونج ميناء حر .. يعنى البضائع تدخله وتخرج منه بلا ضرائب . الدخول بلا أى ضرائب .. والخروج بضرائب تافهة جداً .. وفى استطاعتك أن تدخل فيه بأية عملة وأن تخرج بأية عملة .. وبأية كمية .. لأنهم فى الجمارك يسألونك إن كانت معك سبائير .. فقط .. وإن كانت هذه السبائير تزيد على ٢٠٠ سبائير . أسئلة شكلية من أوطا لآخرها .. الوحيد الذى فتشوه فى ثلاثة أيام بين ألف مسافر هو شاب عربى نحيف جدا .. ولا أحد يعرف السبب وقيل لنا فى ذلك الوقت .. إنه نحيف شاحب .. وربما اعتقدوا أنه من أبناء الصين الشعبية !

أهل هذه الجزيرة فيهم ٩٩٪ من الصينيين . والباقي ينتسبون إلى ٥٥ دولة أخرى . وعدد سكان الجزيرة الآن حوالى ثلاثة ملايين .. وكل يوم يهرب من الصين الشعبية بعض الناس .. والإنجليز يشددون الحراسة على هذه الجزيرة لأنهم يخشون من تضخم عددها برغم ضيقها وصغرها . ولكن إذا جئت إلى هذه الجزيرة ورأيت أشكال الناس وكثرتهم وتزاحمهم صعب عليك أن تفرق بين المقيم وبين اللاجئ .. بين الصينى الأبيض والصينى الأصفر .. والنتيجة أن الناس يتزايدون بالنسل أو بالهرب ..

ومع ذلك فهونج كونج تعيش على سفوح جبل كبير .. على هامش الجبل .. ولكن هذا الهامش هو أجمل من الجبل وأروع .. لأنه مبنى على أحدث طراز . إن العمارات تشبه الكتابة الصينية .. فالكتابة الصينية يكتبونها من فوق لتحت .. ولا يكتبونها بالعرض مثل بقية بلاد العالم . والعمارات هنا طويلة جداً وعلى الأرض ضيقة .. العمارات ثابتة فى الصخر .. ولها ألوان زاهية .. وأصحاب هذه العمارات لا يرونها ولا يشعرون بلذتها فهم مشغولون بجمع المال فى المحال التجارية التى لا عددها ..

يكنى أن ترى أى محل تجارى .. أى محل فى أى حى . محل على الطراز الصينى أو على الطراز الأوروبى .. وقد شحن هذا المحل بالسلع بصورة مذهلة . وأنا أختار على سنبل المثال « بائع السجاير » . إنه يبيع كل أنواع السجاير الأمريكية .. اللعبة بخمسة قروش .. وإلى جوار السجاير يبيع آلات التصوير وإلى جوارها أجهزة الراديو الصغيرة .. وهناك الأدوية ، وأقشة صوفية ، وفى الناحية الأخرى من المحل توجد مكتبة لبيع الأقلام الجافة والسائلة ، ثم يوجد حقائب لبيع التفاح اليابانى . وعلى الأرض ستة من الأطفال الصغار لأنهم أولاد صاحب المحل .. وصاحب المحل يقف بمجرد ما يمر بجواره أى إنسان .. إنه يشبه الأبواب الأوتوماتيكية التى تفتح بمجرد اقترابك منها .. وأحياناً ينطلق وراءك ويحاول إقناعك بكل الطرق ولا يتعب أبداً ولا ينكسف أبداً .

ومن عدم التعب وقلة الكسوف يتكون التجار الصينيون فى كل مكان فى الشرق الأقصى !

وشئ آخر هو تفوق الصينيين فى التجارة .. إن الرجل الصينى عنده جلد على العمل أكثر من أى إنسان فى الدنيا . فالصينى يقبل أى أجر ويقبل الحياة فى أية ظروف ..

يقبل أن يكون حيواناً على أمل أن يكون إنساناً فى يوم ما ويجعل كل الناس حيوانات ..

إنه على عكس غيره من الناس الذين يحلمون بأن يكونوا ملائكة ويصبحوا بعد ذلك حيوانات .. إن الصينى خطر على أناس كثيرين .. لأنه الآلة الإنسانية التى إذا اشتغلت تعطلت ملايين الأيدي ..

قال لى مليونير أمريكى هنا : إن الرجل الصينى يقبل أى أجر وهذا معناه القضاء على كل البيض عندنا .. لذلك نحن نبعد صغار العمال الصينيين حرصاً على حياة الأوربيين هنا !

وكثير من أصحاب الملايين الصينيين بدأوا من الأرض .. بدأوا باعة متجولين .. وكثيرون من الأغنياء الصينيين يؤكدون لى أنه لا يوجد صينى واحد كان يملك مالا فى يوم من الأيام . كلهم بدأوا بصفر ثم تكاثرت الأصفار أمام الواحد منهم .

وهونج كونج هى خلية من النمل أو النحل . . بل خلية من أناس يروحون ويحيثون طول الليل وطول النهار . . والناس هنا يمشون دائماً . . وإذا رأيت الناس فى الساعة الخامسة والنصف وقد خرجوا من مكاتبهم ومخيلتهم فى أنهم فى طريقهم إلى العمل وأنهم لسبب ما تأخروا عن الساعة المحددة . . إنهم لا يعرفون التسكع . . إنهم يعملون . . وهذه الحال المزدحمة تجد فيها أناساً يشتغلون بالإبرة ، لقد رأيت سيدة تبيع للزبائن . . وكلما ابتعد عنها الزبائن ثانية أو دقيقة أمسكت الإبرة وعادت للعمل . . وكان الشاعر الفرنسى فيكتور هيجو يعزو عظمته إلى شىء واحد هو أنه يكتب كل يوم . . وكان شعاره : سطر واحد كل يوم ! . .

وهذه الصينية - وكل صيني - شعارها غرزة واحدة كل يوم .

إن هناك عدداً كبيراً جداً من النساء الصينيات يقمن بأعمال شاقة كقطع الصخور ودفع الزوارق وبيع الأسماك والفاكهة وكل واحدة تحمل طفلها أو طفلها على ظهرها ولكنها تعمل ليلاً ونهاراً . .

وكل هؤلاء النساء العاملات والخدمات لا يهمن أبداً رأيك فيهن . . فالعمل دين ، والصينيون متعصبون لدينهم . . والدين العاملة والصينيون يحسنون المعاملة . . ومن معاني المعاملة الفلوس ، والصينيون يعبدون الفلوس ويبحثون عنها من أى طريق ، نعم من « أى » طريق ، وعليك أن تتخيل كما تريد كل معاني « أى » هذه . . ومهما فعل الرجل الصينى فهو فى الغالب مهذب . .

مثلاً . . ذهبت إلى مطعم وطلبت بعض اللحم المشوى . . المطعم لا بأس به ، فيه موسيقى وجرسونات بنات لهن فساتين مشقوقة . . هذه الفساتين تشبه المياه التى تفصل بين هونج كونج وكولون . . يعنى محترم هذا المحل . وأحضرت الفتاة اللحم المشوى . . وحاولت أن أمزق اللحم بالسكين أو بالشوكة . . لم أتمكن ، استعصى اللحم وناديت صاحب المطعم . . أو هو الذى تنبه لمشكلتى فابتسم وأتى بسكين حادة جداً يبدو أنه أعدها لهذه المناسبة التى تتكرر كل يوم . . وفعلاً بدأ اللحم ينهار أمام هذه المقصلة . . ولكن المشكلة لم تنحل فأسنانى ليست حادة كالسكين . فاقترحت على صاحب المطعم أن يأخذ السكين وأن يبحث لى عن ذئب متوحش !

المهم أنه حل المشكلة وأتى لى بلحمة مشوية على الآخر . . إنه لا يتوقف .
لأنه يبحث عن أى حل . . ولا يتوقف أمام أى شئ . . ولما لم تعجبني هذه
اللحمة فقد أخذ اللحم وأتى لى بسمك !

* * *

أدخل أى محل وليكن محل بيع الحقايب الجلدية مثلاً . . سيهجم عليك خمسة
أو ستة من موظفي المحل ويعرضون لك كل الأنواع . ولديهم كلام حلويقولونه . .
وهم يستمعون إلى كل ملاحظاتك . . فإذا نجحت وقلت : الشنطة دى مش
بطالة . . بس الإيد بتاعتها كبيرة شوية . . فيرد عليك أحد الباعة فى المحل :
غداً فى هذه الساعة نصنع لك شنطة أخرى بالمواصفات التى تريدها . . ما هى
اقتراحاتك . . أى حجم وأى لون !

وتحاول أنت أن تهرب بصورة أخرى فتقول : هى الإيد مش كبيرة
قوى . . بس اللون بلدى شوية .
— كده . . إيه اللون اللى يعجبك ؟ عندنا خمسون لوناً .

فتقول : أنا عاوز لون أحمر على أخضر على أزرق على أصفر والأرضية فى
لون الباذنجان المحشى .

وتتصور أنت أن هذا يجعل موقفهم مستحيلاً . . والمفاجأة هى أن هذا
اللون مصنوع منه فستان صاحبة المحل وأن المصانع قد صنعت عشرين طقماً من
هذا اللون كلها شنت وأحذية وخواتم . .
يعنى لا بد أن تشتري . .

أذكر أننى ذهبت إلى إحدى المكتبات . . ولم أجد الكتب التى أريدها
وخرجت من المحل فى يدي كيلو قوطة وثلاثة كيلوات من البصل الأخضر !

* * *

ذهبت أمس إلى آخر جزيرة هونج كونج . . فهناك مدينة عاتمة . . اسمها
أبردين . . الناس فيها يعيشون فى عوامات ! . . أقصد فى قوارب عاتمة . . يعيشون
فى هذا الزوارق وعددهم ١٥٠ ألفاً . . زوارق مهدمة قديمة . والشحاذون لهم
زوارق ومن هذه الزوارق تمتد أيديهم . .

وأيديهم الممدودة والمجاديف التي تلمح وجه الماء وملابسهم السوداء وعيونهم
الحزينة ، كلها معاً تصور سيمفونية الفقر ومباريات السباق مع الأسماك في زيادة
عدد النسل . . في هذه المنطقة المؤلمة توجد مطاعم أنيقة جداً جميلة جداً . .
وكل مطعم له زوارق خاصة تنقلك من الشاطئ إلى حيث يوجد المطعم العائم . .
في الزورق تشد يدك - مع أنك لست في حاجة إلى ذلك - فتاة صينية باليوجاما
أو بالفستان المشقوق وتركب الزورق التنظيف الحلو والفتاة تجدف لك حتى تصل
إلى المطعم . . وعند سلم المطعم يشد يدك اليسرى جرسون - آسف - يدك
اليمنى جرسون . . أما يدك اليسرى فتشدها فتاة حلوة لها فستان باسم - أي
مشقوق - وهي تشدك من الناحية اليسرى من ناحية القلب . ويستقبلك ثلاثة
جرسونات . . وتهض لاستقبالك فتاة أخرى لها فستان مشقوق جداً كأنه يقهقه
من فوق هذه الساق ومن فوق تلك الساق . . وأحياناً تبدو فتحة الفستان واسعة
ومتهرلة كأنها شفتا لإسماعيل ياسين وقد ظهر من تحها طاقم أسنان جديد .

وفوق - لأن المطعم العائم من طابقين - يستقبلك أربعة آخرون ويأخذون
بيدك رغم أنك أطول وأعرض منهم ، ويأخذونك إلى حيث الأسماك تسبح في
قلب زوارق أخرى . . وهناك يقف جرسون يعرض عليك الأسماك التي تريدها .
الأسماك حية طبعاً . . ومن المؤكد أن هذه الأسماك لن يطهوها لك وإنما سيقدمون
لك أسماكاً ماتت منذ أيام . . ولكن في الهيبة والاستقبالات يقدمون لك الأطباق
الصينية والملاعق الصينية التي تشبه « لبيسة » الجزمة عندنا . . وبعد ذلك يقدمون
لك شوربة السمك وفيها خضراوات هي عبارة عن الغاب الأخضر وبعض البرسيم .
ثم شرائح من السمك الذي تتوهم أنك رأيته حياً . وأخيراً ينهضون لتحيتك ويتكرر
المنظر السابق كله . . من توديع على الباب لتوديع على السلم لترحيب بآخرين . .
وبعد أن تستقر على المقعد التنظيف في التاكسي - وهو زورق عائم - تكتشف
حقيقة هامة جداً وهي أن الصينيين لصوصي . لقد سرقوا منا حكمة بلدية قديمة ،
سرقوها وترجموها حرفياً وهذا هو عيب الترجمة الحرفية لأي شيء . . أما الحكمة
فهى : لا قبني ولا تغدبني ! . .

وقد استقبلوني أحسن استقبال - أما الغذاء فإن الحكمة لم تنص عليه !

* * *

العمارات في هونج كونج تلتف حول الجبل . . لأنها على الشاطئ أو على
السطح والعمارات الآن تزحف على الجبل ، وتظل صاعدة بأشكال مختلفة . . .
الأرض هنا ضيقة جداً . ولذلك فالعمارات تقف على حيلها ، لأنها لا تتمدد على
الأرض ، فحيث توجد الأراضي الواسعة يبني الناس الفيلات ذات الحدائق ،
كمصر الجديدة ومدينة نصر . وحيث تكون الأرض ضيقة ترتفع المباني إلى أعلى
كنيويورك وهونج كونج وسيدني . . بل إن المحال التجارية هنا تستفيد جداً من
هذا الضيق . فأنت تجد البائع لا يستطيع أن يضع مكتباً ومقعداً ، ويضع في
المكتب الفلوس . . أبداً إن البائع يعلق الفلوس في السقف . . أو يعلق خيطاً يشبه
سلك الترام وينزل من هذا السلك سنجة ، وهذه السنجة فيها محفظة للفلوس . . .
وعندما يريد بعض الفكة يضغط على السنجة فتنتقل الفلوس إلى الداخل ، وفي
الداخل يوجد شخص واقف يفك الفلوس ويعيدها لك . . لا يوجد مكان . كل
شيء ضيق وممتلئ بالناس . .

لقد رأيت صالون حلاقة على الرصيف . والصالون عبارة عن كرسي أنيق
جداً ومرتبة أنيقة جداً ، كل هذا معلق فوق الحائط ، فمن السهل الحصول على
كرسي أنيق لأنه رخيص ، ولكن ليس من السهل الحصول على مكان لهذا
الكرسي لأن الأرض غالية . .

وإذا مشيت في الشارع فستجد الناس كالبضائع ، بعضهم فوق بعض .
أى محل به عشرون طفلاً صغيراً . أى شارع به ألوف الأطفال . أشهر شارع
في هونج كونج هو شارع الملكة ، والباقي شوارع صغيرة ، والعاصمة اسمها
فيكتوريا ولا أحد يعرفها . والمنطقة الأخرى ، أقصد منطقة « كولون » بها
شارع هام هو شارع سالسبري ، وفيه فندق بنتسولا - أى شبه الجزيرة -
وشارع آخر اسمه شارع ناتان ، ويتفرع منه شارع اسمه شارع كارترفون ، وبه
فندق ، وفيه غرفة يسكنها العربي الوحيد هنا : أنا .

* * *

وتصل بين طرفي المستعمرة زوارق بخارية كبيرة وسريعة . . الدرجة الأولى
بعشرين سنتاً - الدولار هنا مائة سنت والدولار هنا يساوي عشرة قروش تقريباً . .

والدرجة الثانية بعشرة سنتات ، وفي الدرجة الثانية لافتات تقول لك « احترس من النشالين » وفي الدرجتين لافتات تقول لك : ممنوع البصق من فضلك . . وهذه الزوارق دقيقة مضبوطة ، وفيها علامات للزول والدخول . وتم هذه العملية دون أن يتكلم إنسان . . نظام دقيق وسريع . . والمسافة بين جانبي المستعمرة حوالى ٧٠٠ متر .

هذه المسافة اسمها ميناء فيكتوريا الجميل الهادئ السمح . . لأن هذا الميناء يقع على القناة وفي حصى الجبال فلا توجد به أمواج بل توجد به زوارق شرعية تروح وتجيء في هدوء . . وعندما تهب العاصفة تطيح بهذه الزوارق الصغيرة . . وقد هلك ألوف الناس وتحطمت زوارقهم عندما كانت العواصف تهب فيما مضى ، أما الآن فالعواصف لم تعد تخيف أحداً ، فالأرصاد الجوية تعلن عن هبوب العاصفة قبل وصولها بساعات . وفيما مضى كان الناس هنا يتنبأون بالعواصف عن طريق الفراشات التي كانت تأوى إلى أماكنها وتبيض كثيراً في الليلة التي تسبق العاصفة . . وكأن هذه الفراشات طائرات أدركت أنها ستهبط اضطرارياً إلى الأرض فراحت ترمى حمولتها قبل أن ترحف على الأرض .

ومع ذلك بقيت هونج كونج بعيدة عن عواصف الطبيعة وعواصف السياسة أيضاً . . وقد فكر تشانج كاي شيك أن يحتل هذا الكنز الذهبي ولكنه عدل ، وفكر الشيوعيون أن يأخذوها ، واحتلها اليابانيون في الحرب الأخيرة بعد أن سقط ميناء برل هاربور ، لإحدى مدن ولاية هاواي الأمريكية . . وبعد الحرب طالب أحد أعضاء مجلس العموم البريطاني بإعطاء هونج كونج للصين الشيوعية . وثار الجزيرة وهرب الأغنياء منها ، ولكن بريطانيا تمسكت بها ، ولا تزال . .

والناس هنا يتكلمون الصينية ولغة كانتون وشانغهاى . والصحف التي تصدر هنا عددها سبع . . خمس منها بالصينية والصحيفتان الأخرتان بالإنجليزية . . . والإذاعات خمس ، إحداها بالإنجليزية والأخرى بالصينية . وليس كل عساكر المرور يضعون شارة حمراء على أكتافهم . فالشارة الحمراء تدل على أنه يعرف الإنجليزية . .

وهونج كونج هي مدينة المرأة . المدينة التي تدخلها أية امرأة فتشترى الخذاء

ومفتاح السيارة الكاديلاك بأسعار رخيصة جداً . . حتى الفراء هنا ، فراء الثعلب
والدب والاستراكان ، كلها بأسعار أرخص من الاتحاد السوفيتي وأمريكا . .
وأقلام الروج بسعر أقلام الرصاص عند سور الأزيكية ، وعلب البودرة بسعر
كيزان الذرة المشوية على كورنيش النيل . حتى فساتين النساء يمكن تفصيلها وعمل
البروفات لها ولبسها في يومين فقط . . وهنا توجد حقائب يد لم أر لها مثيلاً في أى
بلد ، لا في استراليا ولا حتى في سنغافورة . . وهذه الحقائب رخيصة جداً . .
وهنا توجد أنواع حديثة من حقائب اليد ، بها راديو صغير على هيئة توكة وتوجد
ساعة أو مكان ساعة صغيرة ومكان لعبة سباجير صغيرة ومكان للمفاتيح . . وبالْحَقِيقِية
فص لؤلؤ ، هدية من المحل وثمنها عشرون جنيهاً .

الحقيقة أن نصيب السيدات في مبيعات هونج كونج أكثر من نصيب الرجال
فهنا توجد البلوفرات الأورلون والبرلون ، وهى أرخص من استراليا . . لقد رأيت
أجمل بلوفرات في استراليا ، فهى بلد الصوف . . هذه البلوفرات تباع هنا أرخص .
إن أجمل بلوفر أورلون يساوى هنا جنهين ونصف جنيه ، وهذا سعر خيالى .
لأنه في بريطانيا يصل إلى ثمانية وعشرة جنيهات .

ومنتجات إيزابث أردن وريفلون وكوتى ولاف بات هيلنا روبنشتين . .
كلها هنا تباع في المقاطف كالفجل والخيار عندنا . ولكن مين يفهم ، ومين
يقرأ ومين يكتب - إننى أتحدث هنا عن نفسى !
والحرير الطبيعى اليابانى ، المتر منه بخمسين قرشاً . .

وأسماء وأصناف توجع القلب . . هونج كونج هى مدينة النساء ، ويكفى
أن تنظر إلى السيدات لتعرف الأقمشة والبلوزات والجوارب النايلون والأحذية
من جلد التمساح وجلد الثعبان . .

وفى هونج كونج ، برغم ذلك شئ هام جداً يعجب السيدات . . فيه
« فصال » . . فصال من عشرين لعشرة ، وفيه باعة متهاودون جداً . . وهذا
لا يعجب السيدات لأن السيدات يردن البائع الذى « ياخذ ويندى » فى الكلام
يتحایل عليها وفى النهاية « ينزل » لها قرشاً أو قرشين . . والباعة هنا كلامهم
كثير ومحاولاتهم أكثر ، وعيهم أنهم يخفضون الأسعار بالعشرات .

والمرأة الصينية هنا ، وفي كل مكان ، أنيقة وبسيطة وفتانها مشقوق من الجنب أو الجنبين أو في الظهر أو من الأمام . . . وجسمها يتثنى في الفستان وعيناها تنظران من فوق كأنهما تتحققان من نظرتك إليها . . . عيناها صغيرتان تحت شعرها الأسود الناعم . . . وبالاختصار الأجسام هنا جميلة مائة في المائة . . . والوجه ٩٠٪ منها مش ولا بد . . . يعنى يجب أن ترد إلى أصحابها لإصلاحها قبل عرضها في السوق .

والفقيرات يرتدين البيجامات في الشارع . . . والفقيرات جداً يلبسن القباقيب الحشوية الملونة كالقفل عندنا . . . ثم يرتدين البيجامات المصنوعة من الشمع . . . لا غسيل ولا مكوى ولا حاجة . . . وفي الصينيات عدد كبير جداً من السيدات الصلعاوات . . . سيدة صلعاء أو قرعاء ، شئ فظيع ، وإذا أضيف إلى هذا بشاعة وجهها ووحاشة لغتها وفقرها ، وإصرارها على أنها تأخذ منك حسنة . . . صورة مؤلمة . . . موجود هنا ما هو أشبع وأكثر إيلاماً من ذلك .

* * *

ومن معالم هونج كونج حديقة « تايجر بالم » . . . أو « زيت النمر » . . . وتوجد حديقة بهذا الاسم في سنغافورة . . . وأقيمت الحديقتان باسم واحد لسبب واحد ، لأن صاحب الحديقتين هو رجل صيني مليونير . . . أقصد « ملاينير » أى صاحب ملايين وليس صاحب مليون فقط . . . هذا الرجل صيني وتوفى سنة ١٩٥٤ بسكتة قلبية في المستشفى الحكومى في هونولولو ، وأحرقت جثته ودفن هناك . . .

وهذا الرجل الصينى الغنى اسمه « آو . . . بون . . . هاو » وكسب مئآت الملايين من الجنهيات عن طريق وصفة طبية اخترعها وأسمها « تايجر بالم » أو « وصفة النمر » وهذه الوصفة تشفى أمراض البرد والروماتيزم والسعال وضيق التنفس . . .

وسمعت مثل هذه القصة في مانىلا عن رجل يهودى اسمه ليوبولد كاهن . . . فالفليبين بلاد مسيحية كاثوليكية متعصبة جداً ، وفي كل مدينة وقرية كنيسة ؛ وكان ليوبولد يتبرع بشراء أجراس الكنائس الجديدة ويطلب من القسيس أن يشير إلى ذلك في الصلاة . . . فكان يقول : أبها الأصدقاء . هذا الجرس الذى

نادا كم هدية من الطيب القلب والسيرة أحيكم ليوبولد كاهن . . .

وعند خروج المصلين من الكنيسة يجدون محلا يحمل اسم ليوبولد كاهن
بيع المسابح والصلبان التي كتب عليها أنها صنعت في إيطاليا .

وبذلك أصبح مليونيراً تدق له الأجراس . .

وحديقة تايجر بالم أعجوبة فنية ، هنا وفي سنغافورة . لقد تكلفت هذه
الحديقة حوالي ثلاثة ملايين من الجنيهات ، لأنها منحوتة في الصخر ، وتروى
حياة الصين وحضارتها . . وقصص البطولة في تاريخها وفي أديانها وفي أدبها . .
وتروى قصص الخير والشر . والحديقة تشغل مساحة قدرها ثمانية أفدنة .
والفكرة فيها أن الرجل الصيني «آو» رأى أن جميع أمواله من الشعب ويجب أن
يردها إليه فبنى هذه الحدائق للزهوة . . وأقام المستشفيات والمدارس والجمعيات
الخيرية ، وأوصى بأن ٦٦٪ من ثروته تعطى للفقراء كل سنة . وإلى جوار هذه
الحديقة الآن توجد بيوت من الصفيح والصناديق الخشبية ، ويعيش فيها بعض
الفقراء كأنهم ينتظرون أن ينزل السيد من حديقتهم ليعطيهم كما كان يفعل
فيما مضى . . ولكن السيد واقف هنا وسط هذه الحديقة ، فله تمثال صغير
متواضع ، ووراء التمثال توجد مقبرة رمزية ، وإلى جوار المقبرة الرمزية يوجد
برج ، يسمونه بالصيني « باجودا » تحية منه لوالديه .

وبقية الحديقة مليئة بالحيوانات والطيور والأفاعى والحشرات وكلها من
الصخر . . وكلها من الألوان وإذا رأيتهما فإنك لا تدري إن كانت حية أو ميتة . .
الفن هنا مذهل للعقل . .

الناس يزورون هذه الحديقة ويصعدون الجبال طول شهر أكتوبر لأنه عيد
معروف باسم «شيخ ينج» . . فقد حدث منذ آلاف السنين أن رأت سيدة في
نومها أن قريتها ستغرقها السيول . . فأخبرت أهل القرية ، فهجروا القرية إلى
الجبال . . ونجا سكان القرية . . وأصبح هذا تقليداً من ذلك اليوم . . فالناس
يصعدون الجبال تفادياً لشرور العام القادم . . ولذلك فالزحام شديد على هذه
الحديقة لأنها على ربوة عالية ، وقد أنشئت سنة ١٩٣٥ ، وهي أصغر جداً من

حديقة تايجر بالم الموجودة في سنغافورة .

وكل الحديقة قصص تاريخية . . فهنا الراهب البوذي الذي ذهب إلى بلاد التبت وقابله الوحوش في الطريق . . قرود وأفاع وعفاريت ولكنه قاوم وانتصر .

وهناك قصة الملكة الجميلة المسكينة التي لا تعرف كيف تطلع الملك على جاهها . . فطلبت من الحاشية أن يوهوا الملك بأن هناك عدواناً على المدينة . . وخرج الملك . . وتلفت حوله فلم يجد جنوده . . وانطلق إلى داخل القصر فوجد زوجته الجميلة التي نسيها منذ سنوات عارية تماماً تستحم في حوض جميل وتنبه الملك إلى أنه من الممكن أن يكون هناك عدوان على هذا الجبال إذا لم يصنه جلالته . . وقد صانته الصخور !

وقصة لألم نسو . . ملك الصين الذي جمع كل الأفيون الذي صدره البريطانيون إلى الصين وأحرقه جميعاً . . إن السحب ترمي العفاريت وقد داخت ، وتساقت عند قدمي الملك .

وأروع ما أعجبنى في هذه اللوحات جميعاً ، أو هذه التماثيل البارزة ، أو الحياة المتفجرة والتي جمدت من البرد على هذه الصخور ، صور يوم القيامة .
في الديانة البوذية يرون أن الإنسان سيحاكمه الله أمام عشر محاكم :

المحكمة الأولى : يقف أمامها الإنسان بعد وفاته . . فإذا نظرت مجموع خطاياها وأعلنت أنه مذنب . . بدأ العذاب فوراً .

المحكمة الثانية : يقف أمامها الإنسان الذي يعصى والديه . . وعصيان الوالدين هو الجريمة الكبرى ، التي تستحق أكبر عقاب ، فيكونونه بالنار إلى الأبد ، ويضربون رأسه بالحجارة .

والمحكمة الثالثة : يقف أمامها كل إنسان يغش في الدواء . . وكل إنسان يسخر من الفقراء ، ويتملق الأغنياء . . إنهم يفتقون له عينيه . . ومعه الذين ارتكبوا جرائم القتل . . إنهم يوضعون فوق صدور مدببة . والذين قتلوا الحيوانات البرية ، تأكلهم هذه الحيوانات . .

والمحكمة الرابعة : للمرتشين من موظفي الدولة . . وفي المحكمة تضرب رؤوسهم
بالسواكيش إلى الأبد .

والمحكمة الخامسة : للخونة . . .

والمحكمة السادسة : للذين مشوا وراء الخونة . . والعقوبة هي تمزيق أجسامهم
وأيديهم . .

والمحكمة السابعة : لمحاكمة الرهبان الذين اعتدوا على النساء . . تأمر المحكمة
بتمزيق أحشائهم . . وللجزار الذي يبيع اللحم المغشوش يضعون هذا اللحم في فمه ،
ثم يمزقون معدته . . إلى الأبد .

والمحكمة الثامنة : للذين لا يقدسون أوطانهم . . تمشى العربات فوق رؤوسهم .
والمحكمة التاسعة : للكذابين . . والمحكمة تأمر أولاً بقطع ألسنتهم . . ثم
بقطع أنوفهم .

والمحكمة العاشرة : يعلن القاضي أن الميت غير مذنب مثلاً فيضع فوق
كفّه جلد إنسان آخر ومعناه : اذهب وعش من جديد في هونج كونج مثلاً .

* * *

هونج كونج بلدة غنية وفيها فلوس وجميلة والناس يحبونها ويهربون لها . . لا بد
أن يكون هناك سر . والسر هو أنه فيها هيصة فيها سهرات ليلية ، ليس لها عدد . .
وأنا سأختار أحد المحلات . . اسمه محل ليوشن . . محل مشهور جداً . . هو عبارة
عن بار ومطعم ومقهى . . الجرسونات بنات جميلات . . جاهن صيني . .
والصفات الصينية تقدر ترجع لها في أول هذا الكلام ، يعني إذا أردت الدقة .
في دقيقة واحدة يقترب ضاحب المطعم ويهمس في أذنك أحياناً ، وأحياناً
يقرصك . . وقد سألت عن حكاية القرص هذه فوجدت أنه خصني بها وحدي
زيادة في الحفاوة . . وبعد لحظات يجيء آخر ويهمس في أذنك . . وبعد لحظات
تجلس الفتاة التي أعجبتك إلى جوارك . . وهات يا شرب على حسابك . .

وجاءت فتاة وجلست إلى جوارى ودار الحوار بيني وبينها :

— وهوه بقى حضرتك منين كده . .

— من فرموزا . . أنا . . صينية وطنية . .



▲ أبناء الفلبين يحملون كل شيء على رؤسهم
هرباً من اضطهاد الكاثوليك للمسلمين !

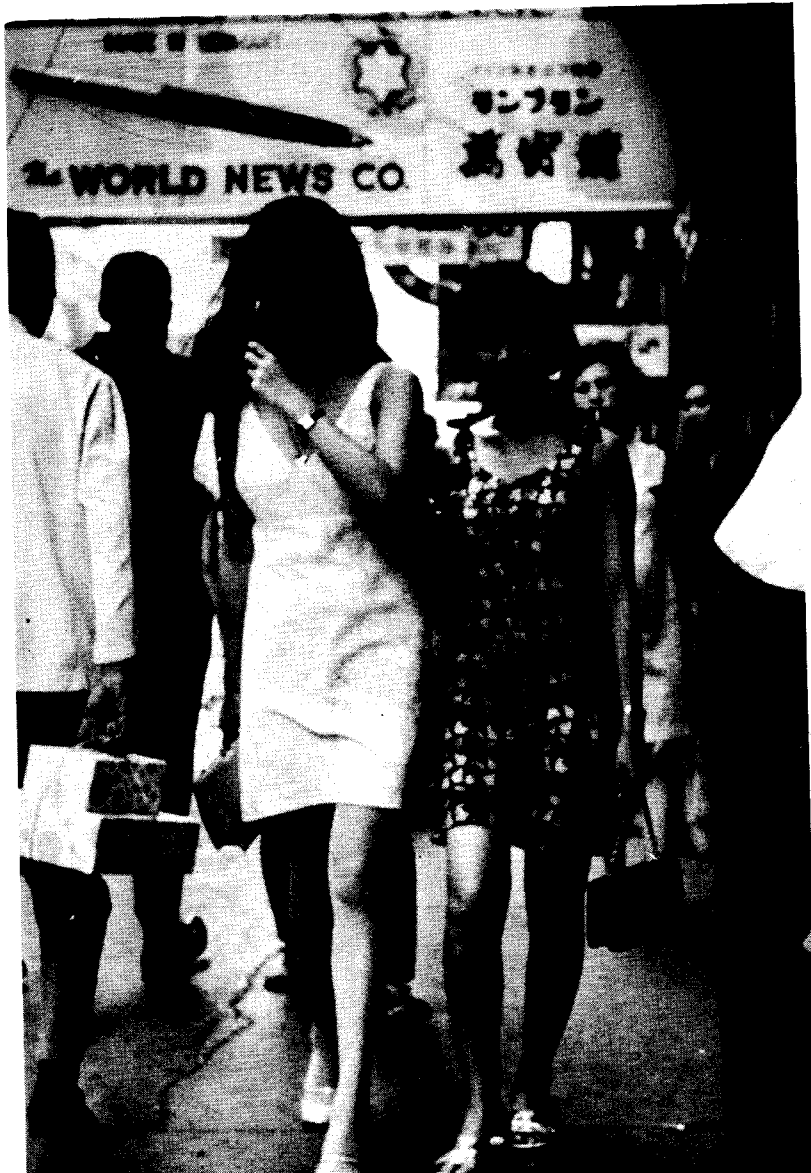
▼ هذه بيوت عائمة يسكنها أبناء الفلبين (٧٠٠٠ جزيرة)



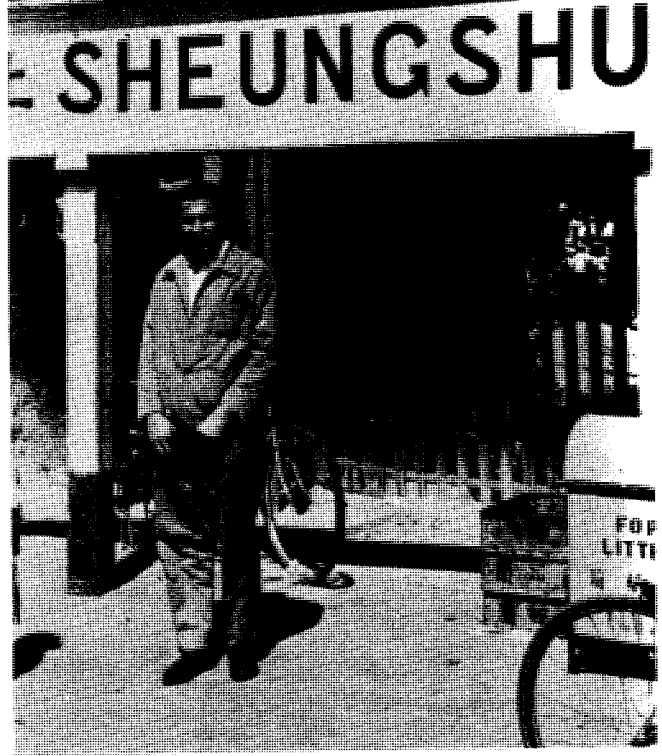


مصارعة الديوك . . يطلقون الديوك
بعضها على بعض حتى الموت !

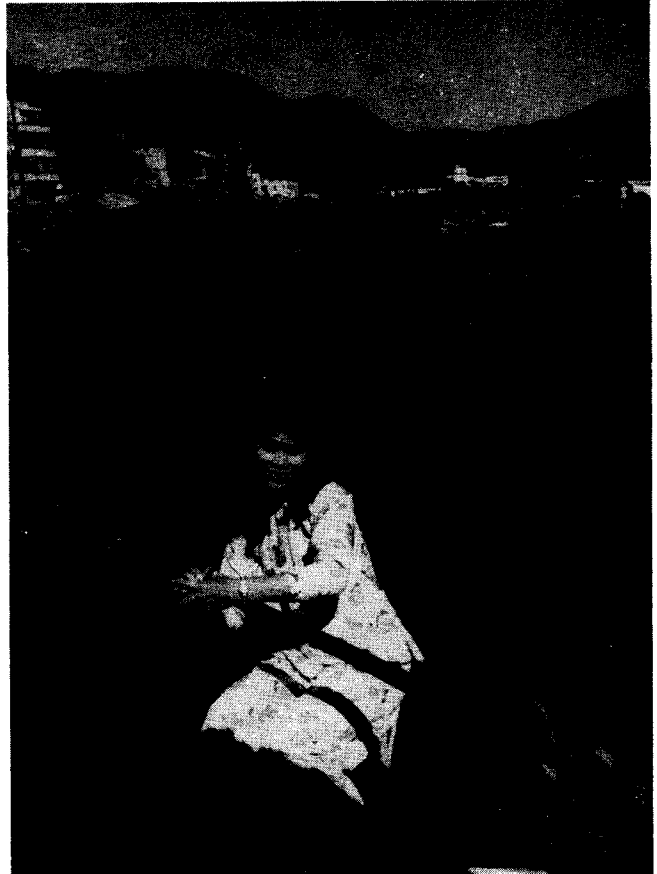
فتيات هونج كونج . . . رشيقات جميلات .
ليس واضحا في الصورة نعومة البشرة !



أنا في انتظار وسيلة
مواصلات إلى الجانب
الأخضر من الجزيرة -
الوسيلة الوحيدة هي
البيسكلت !



▶ هذه الفتاة تدفع الزورق
إلى أحد المطاعم
العائمة في الجزيرة



◀ فتاة أخرى تنقل السياح
بين الحى العائم في
الجزيرة . هذا الحى
اسمه : أبردين . .







طلعت الشمس . . والفسيل في كل البلكنات . . الفسيل
متعدد الألوان - أحبا إليهم اللون الأبيض !



جانب من بيوت الجزيرة البالفة
الأغلبية الساحقة من الصينيين . .





وهذه مقابر سكان جزيرة هونج كونج - الأغلبية الساحقة
من الفنين . .

— كده . . طيب وهى الوطنية تقول لك إنك تشرى الويسكى مع واحد
بيشرب شاي . . والوطنية دى بقى مش معناها أن الواحد يجب بلده . ويجب اللي
يجب بلده . .

— مش فاهمة . . .

— تعالى هنا . . ومين قال لك بقى تعدى هنا . . أنا راجل وباحب أقعد
لوحدى كده . . سرحان . . عامل سرحان . . أنا حر . . أنت مش بلدكم
دى حرة . . الواحد يعمل فيها زى ما هو عاوز . . أنا كمان حر . . أقعد
ساکت . . أکلم نفسى . . آه . . وحریتک دى تعدى على حریتى لى زای !
— عدوان إيه . . إنت مش قابل للراجل لى عاجباك . . وقال لك مين ؟
قلت له دى .

— أنا قلت كده . . دى يعنى إيه . . أنا فاكر إنه بيسألنى عن الترابيزة . .
قلت أبوه دى . . وهيه ترابيزة بالصينى يعنى واحدة ست . . هو أنتم ترابيزات لسه.
أمال بيقولوا الستات بيشتغلوا زى الرجالة إيه . . طيب والراجل بالصينى معناه إيه
بقى . . لازم معناه كرسى . . أهو كل ترابيزة ولها كرسى . . وأنا كرسى مش
عاوز ولا ترابيزة . . أنا كرسى حر . . كرسى يقعد قدام الباب . . يقعد فى
الشباك . . يتشقلب . . أهو حر . .

— أسمع أنت خايف من إيه . . الويسكى ببلاش . .

— ببلاش . . الله آدى الوطنية واللا بلاش . . طيب وبلاش ليه بقى .

— واحد دفع لك ثمنه !

— والواحد ده ببقى مين . . ودفعه ليه . . وهو يعرفى . . لازم يعرفى كويس .

— هناك . .

— هناك فىن . .

— بص له . . هناك قاعد أهوه . .

— يمكن يكون غلطان . . يمكن فاكرنى واحد تانى . . فلو بصيت له

حيككتشف الغلط . . وعلى إيه . . كده أحسن .

— بس ، بص شوفه هو كمان عاوز يشوفك . .

— يشوفنى ليه بقى .. وايش عرفك أنت ؟

— بص ما تخافش ..

— مش خايف .. مش عارف حاجة .. الله .. هوه أنا اللى شربت

الويسكى وإلا إيه .. آمال دايخ ليه ..

— دايخ من الخوف إنك تدفع ..

— أدبنى بصيت مش شايف حاجة .

— مش شايف نفسك فى المرأة .. طبعاً .. زى ما طلبتنى وأنت سرحان ،

أدفع وأنت سرحان .. وأبقى فوق لنفسك فى البيت على أقل من مهلك .. ادفع !

وقبل أن تبرح البار أو المطعم ، ينطلق وراءك رجل ثالث أو رابع ويقول لك

كلاماً باللغة الصينية لا تفهمه .. والغرض من ذلك أن تقف لحظة .. هنا ولا

تفهم كيف تظهر فتاة صينية حلوة ! من أين جاءت ولماذا ولمن .. طبعاً جاءت

لحضرتك .. البنت حلوة .. اجلس .. وتجلس وتدفع والهمس فى أذنك ..

وغداً سيخترعون أشرطة صغيرة توضع فى الآذان وتسجل لك الكلام الذى يدور

فى نفسك أثناء هذه الجلسات لتسمعه فى البيت وأنت تدافع عن نفسك أمام

ضميرك وأمام صاحب الفندق وصاحب المطعم ..

لكن البلد مع ذلك ولذلك جميل جداً والنقط الكثيرة هذه

ليست إلا قبيلات لها ولك لأنك قرأت هذا الموضوع ، ولكل من يجب ويحلم

أن ييئى إلى هذه البلاد ..

• • •

ولا أدرى لماذا كان الصينيون الذين أتعامل معهم فى الفندق مختلفين عن

الصينيين .. هل لكثرة عشرتهم للأجانب ؟ هل لأن العمل فى الفنادق لا يحتاج

إلى براعة .. هل لأنهم قرفانون منا نحن القادمين من بلاد بعيدة ؟

مثلاً .. الساعى أو الجرسون الذى أتعامل معه .. لاشك أنه صينى ١٠٠٪

وشعره ووجهه وعيناه المعوجتان .. ولهجتة التى تشبه صوت الحنفية عندما ينكسر

وابور المياه

كل ما أريد ليس أكثر من كوب شاي فى الصباح . ولا لبن ولا سكر

ولا عيش . . فقط كوب شاي في الساعة السابعة ومعها الصحف التي صدرت
في نفس اليوم . . مسألة واضحة جداً . .

في أول يوم ضحك لي ، ضحكت له ، هز رأسه هزرت له ، غمز لي بعين
غمزت له باثنين . . حاجة عال جداً وطلبت منه أول فنجاي شاي . . فاخنتي
وعاد ومعها بعض القوط النظيفة . . وانتظرت الشاي . . ولم يحضر . . فضربت
الجرس فدخل وضحك وقلت له : أين الشاي ؟

وأقبل الباب وخرج . . وعاد ومعها كوب من الماء . .

فقلت له : ت . . ش . . ا . . ي . . نشاي . .

وهي الكلمة الصينية الوحيدة التي أعرفها . . وخرج ضاحكاً وعلى وجهه شوية
دم . . يمكن كسوف . . يمكن خجل . . يمكن أحس أن لغته قد أهينت على
لساني . . ولكن بعد لحظات عاد ومعها كوب من الشاي . . وخرج ووجدت
الشاي لونه أخضر وقلت في نفسي يمكن الشاي الصيني أخضر . . على كل حال
لا مانع من أن أذوق طعم الشاي . . الشاي الصيني . طبعاً الشاي بلا سكر ولا لبن
وبلا شاي أيضاً . .

وقد تعودت في هذه المنطقة من العالم الصبر وهدوء الأعصاب . . فالتناس
هنا لا يثورون أبداً . . في الهند تعلمت أن الدنيا من الممكن أن تعيش من
غيري . . وأن الناس يعيشون حياتهم ويمشون على نظام خاص وأن هذا النظام
سواء أعجبنى أو لم يعجبني فلن يغير هذا شيئاً . . فلما أن أسكت أو أخرج
من البلاد . . وفي أندونيسيا يضحك الناس دائماً ولا يعملون إلا القليل . . وفي
الصين يضحك الناس كثيراً ويعملون كثيراً . . وفي اليابان مؤدبون ضاحكون
وقدرتهم على العمل خارقة . . يعني من الممكن أن يكون الإنسان مؤدباً وباسماً
وناجحاً في عمله

فأبالك بالذي جاء يفرج . . على الأقل يجب أن يكون باسم أو ضاحكا
أو حتى مؤدباً .

وتأديت في الحديث مع الخادم وخرجت إليه وفي يدي ورقة وقلم ورسمت له
فنجان الشاي . . وأمسكت قلماً أحمر وقلت له الشاي يكون لونه هكذا . هكذا

والمصيبة أن هذا الجرسون يعرف الإنجليزية . . ولكن أنا عاجز عن فهم ما يقوله لأنه كلام صيني على إنجليزية . . وهو عاجز عن فهم ما أقول ، مع أن لغتي سليمة والله العظيم . . ولما رأى الفنجان الذى رسمته عرف أنه فنجان شاي . . أما اللون الذى وضعته فى الفنجان فلم يفهم ما هى الحكمة من هذا اللون . . وأمسك هو بالقلم ورسم بعض الرسومات على الفنجان جميلة فعلا . . ولكنى أريد أن أفهمه أننى لست معجباً بالصناعات الصينية ولا بنقش الفناجين . . ولكن نفسى أعجب بصناعة الشاي هنا . .

وأمسكت الورقة وقلت له : أريد أن أشرب فنجان شاي بهذا اللون . . ثم وضعت الورقة عند فى . . ويظهر أن الجرسون فهم أننى أريد أن أطلعته على بعض الألعاب السحرية . . وراح يضحك . . الحقيقة تضايقت جداً .

وكأننى قد جئت من القاهرة منذ أيام ، فثرت فى وجهه وشمته بالعربية واستمر الجرسون فى ضحكته . . وذهبت إلى عامل التليفون وقلت له من فضلك تقول للجرسون : إننى عاوز أشرب واحد شاي لونه أحمر . . مش ثقيل قوى . . لكن له لون فقط . . وإننى حاولت أن أجعله يفهم ذلك منذ ساعة . . وفشلت . . ودار بينهما كلام بالصينى طويل حتى ظننت أن الجرسون يشكو من سوء معاملتى له . . وأننى شخطت فيه . .

وقال لى عامل التليفون : الجرسون فاهم كل شئ . . وهو حاول أكثر من مرة أن يقول لك إنه فاهم ، ولكنك لم تعطه فرصة . .

وقلت له : أمال يا أخى ساينى آكل فى بعضى ليه كده ا

ودار الكلام بالصينى . . وعاد يقول لى : إن الأدب يمنعه من مقاطعتك .

— كده . طيب أنا عاوز فنجان شاي دلوقت بالشروط الللى أنا طلبتها .

وعاد الكلام الصينى يروح ويجى بينهما ، وفى السكة يضربنى فى أذنى وفى رأسى . .

وتعددت على السرير فى غرفتى ورحت أقلب فى الصحف . . وانفتح الباب وجاء فنجان من الشاي . . اللون الأحمر . . مفيش كلام . . ولكن الشاي ثقيل جداً . . فقلت على سبيل التشجيع : الشاي عظيم . . بس ثقيل شوية . .

وضحك الجرسون واختفى . . وبعد لحظات عاد وكنت في الحمام . . وأخذ الشاي القديم وأتى بشاي جديد . . زى الزفت . . ويبدو أنه فهم أنني أريد الشاي أن يكون أثقل من ذلك .

وأمسكت الشاي وألقيته في الحوض . .

ونزلت لأشرب الشاي في أى مكان آخر . . دخلت أحد المطاعم . . وطلبت من الجرسون أن يترجم إلى اللغة الصينية معنى هذه العبارات : شاي لونه أحمر ، ولكنه ليس ثقيلًا . . شاي كمان . . ومستعجل على الغسيل . . ومستعجل على المكوى . . وأشكرك . .

وفي كل يوم أضع أصبعي على الكلمة التي أريدها . . ويخرج الجرسون سعيداً ويأتي الشاي الأحمر الجميل . .

وحتى لا يصبح هذا العمل آلياً . . طلبت من الجرسون أن يعلمني كيف أنطق هذه الكلمات . . وبدأت أنطقها وأقول : نشاياسا . . ومعناها شاي . . وأمدها أبشاه . . ومعناها الغسيل . .

يومان بسلام مضياً . . بلا حوادث . . لغتي الصينية في تحسن ولغته الإنجليزية لا يستخدمها معي . مطالبني محددة جداً جداً . . وأنا أرضى بأى طعام وأى شراب وأى سرير وأى فندق . . ولكن الشيء الوحيد الذي أريده بإصرار هو أن أكون بجوار أحد أكشاك بيع الجرائد وإحدى المكتبات . . والباقي أستطيع أن أحصل عليه . .

وأصبحت في غير حاجة إلى الورقة . . وكنت أضربه بالكلمة الصينية . . وحالا يجيء الشاي . . وتجئ الصحف اليومية . . والغسيل والمكوى . . وأصبحت المدينة حلوة من جديد ، وأصبحت غرفتي ظريفة . . وكل يوم أضع السرير في ناحية والمكتب في ناحية أخرى . . مرة لكي أكون بعيداً عن جهاز التكييف . . ومرة لكي أكون قريباً من الراديو . . ومرة لكي أكون قريباً من النافذة بعيداً عن الحمام . . أثقل ده . . هات ده . . أشكرك على ده . . مالكش حق في ده . . عال .

ودعوت بعض الأصدقاء ، وطلبت من الجرسون أن يحضر الشاي وبعض الحلوى . وكلمة الحلوى عرفتها من جرسون آخر . . وطلبت إليه أن يضع زهرية

فيها شوية ورد مش حاجة كبيرة الورد هنا . . منظر يعني . . ونعزت له بعيني ،
ووضعت في جيبه دولارين .

وبعد ساعة عدت فوجدت الغرفة جميلة . . الملابس معلقة على الشاعاات
والكتب مصفوفة ، والجرائد مصفوفة . . وحقائبي مغطاة بالمفارش . . ودخلت
الحمام . . كأنه مرآة . . وبعض الفليت . . وبعض الزهور قد وضعت في
زهريّة حلوة . . ومنضدة كبيرة عليها الشاي والفناجين والأطباق والملاعق . .
الحمد لله . كل شيء جميل . .

وجلسنا نتمتع إلى الموسيقى نملأ صدورنا بالورود ونملأ معدتنا بالشاي اللذيذ
والبسكوت الأسترالي الذي لا يشيع منه أي إنسان . . وكلام وسلام وحكايات
من الشرق والغرب ومضت ساعة واثنان وثلاث . . ومددت يدي على الجرس وجاء
الجرسون وأطل برأسه في أدب زائد وقال لي : حالا . .

وقلت لا بد أنه مشغول . . أو أنه مؤدب جداً لدرجة أنه لا يريد أن يزعجني
بدخوله وخروجه . . أو يفسد حديث الضيوف . .

ودققت الجرس أطلب إليه المزيد من الشاي وأطل برأسه وعاد يقول : فاضل
واحد . .

واحد إيه . . يمكن واحد دقيقة . . أو أنه يغسل الأطباق ولم يبق إلا طبق
واحد . . أو يكوي القمصان وليس أمامه إلا قميص واحد . . واحد واحد ياسيدي . .
يعني من واحد . . وأخيراً حضر معه لفة صغيرة . . لفة في ورق شفاف ونظرت . .
ولم أفهم وسألته : ما هذا . . ما هذا . . ؟ فلم يرد . . ومددت يدي لأرى عجباً . .
كل مناديل التي أعطيتها له في الصباح قد تغير لونها . . لونها بني أسود . . أو بني
أصفر . . وفيها بقع زرقاء وحمراء . . ولم أفهم طبعاً . . وسألته ما هذا ؟
لم أفهم منه . .

ونزلت لعامل التليفون أسأله . . وعرفت المصيبة . . لقد وضع كل مناديلي
في براد الشاي وغلاها . . لماذا ؟ لأنني كتبت كلمة شاي « مطبوط » بصورة
خاطئة فكانت النتيجة هي صبغ المناديل . . ولماذا يصبغون المناديل ؟ لأننا في
أعياد الصمود إلى الجبل . . وفي هذه الأعياد يتبرك الناس بطعم الشاي ولون الشاي . .

ومزقت الورقة وبدأت أسأل عن معاني الكلب والحمار والثور وقررت أن أوجه هذه الكلمات إلى الجرسون كل يوم . . وأخيراً عدلت عن هذه الورقة . . فربما كان لها معنى آخر عنده . .

ومع ذلك فغرفتي أروع غرفة في الدنيا، لأنها تطل على أجمل فندق وتقع في أجمل مدينة في العالم . . مدينة أو جزيرة هونج كونج . . ومن أجل هونج كونج وجمالها وبهرها ليلاً ونهاراً ، أصبر على هذا الجرسون ولو فتح بابي في الصباح ودخله دون إذن ومن ورائه عمال البلدية ، وموظفو جمعية الرفق بالجرسونات !

* * *

وأمس قررت أن أقوم بعملية ترميم كاملة . . للآلة التي بعثتها القاهرة لتسجيل الحوادث في هذه المنطقة من العالم . . تركت ساعتى عند الساعاتى وبنطلونى عند الرفا . وحذائى عند الجزمى ، وحقيبتى التي تكسرت تركتها هي والحزام عند الجزمى أيضاً . . وملابسى أيضاً تركتها عند المكوجى .

وموعدى معها جميعاً غداً . . وجلست اليوم وأنتظر وفي الساعة الثامنة صباحاً بدأ العمال يدقون باب غرفتى . . وأبجلق في كل شئ . . أنه جديد . دقيق كأنه خارج من المصنع الآن . . وبأسعار معقولة جداً . الخلاصة لا يوجد شئ مستحيل عند الرجل الصينى . والذين جاؤوا من اليابان يقولون إن الرجل اليابانى يرى أن الرجل الصينى بليد وغبى وبطلئ جداً !

وجامنى الجرسون وقلت له : كل حاجة عندكم بهله السرعة ! فضحك ، وهنا يضحكون دائماً ، إذا فهموا وإذا لم يفهموا وفي الغالب يفهمون شيئاً آخر غير الذى تقصده ولكنهم يفهمون دائماً .

وقلت : عاوز عروسة لواحد صاحبى .

قال : حالا دلوقت .

قلت : الشمعنى العروسة دلوقت والجزمة غداً ؟

قال : دلوقت عروسة وغداً عروسة أخرى . .

— ولكنها لا تعرفه .

— غداً تعرفه يعجبها أو لا يعجبها . .

— هذا يحدث في هذه البلاد ؟

— الزواج محاولة تفاهم . . بين رجل وامرأة . .

— هل معنى هذا أنه لا يحدث طلاق أبداً ؟

— يحدث .

— لا بد أنه كثير جداً ما دام الزواج يتم بهذه السرعة ؟

— بالعكس . . بعد الزواج يكون الزوج مشغولاً جداً والزوجة كذلك . .

ولا يتسع لديهما الوقت للتفكير في الطلاق . . فهناك شيء أهم من الاتفاق وعدم الاتفاق وهو لامة العيش . .

طيب : لي كل حال صاحبي عاوز عروسة . .

— أجب له . .

وبدأ يتكلم عن العروسة كما لو كانت زوجاً من الأحذية . . وبدأ يبين

لنا مزايا القصيرة والطويلة ، والسمرء والبيضاء ، بنت الأكاير أو بنت الناس العاديين . .

وعرفنا منه بعد ذلك أن هذه العروسة لو كان فيها عيب كالحقائب أو الأحذية

يمكن ردها اليوم إلى والدها ويتم إصلاحها غداً !

* * *

أقيم أول أمس معرض فني في هونج كونج ودعت له الصحف ومحطات

الإذاعة والتلفزيون ووزعت له النشرات في دور السينما . . والمعرض مقام في

أحد أجنحة الميناء . . وفوق هذا الجناح توجد أعلام . . وفي مدخله فتيات

جالسات يعن دليل المعرض . .

والمعرض رغم هذه الضجة كلها صغير جداً لا يزيد على ثلاث غرف . .

ولكن الأشياء المعروضة ممتعة فعلاً ، فهناك صور فوتوغرافية لمناظر في هونج كونج

جميلة جداً . . هناك صورة للميناء في الليل بعد أن مر فيه أحد الزوارق . . .

وشكل الماء في الليل كبذلة رقص سوداء شفافة ومرصعة بالترتر . . وهناك صورة

أخرى لفتاة عارية ١٠٠٪ — وهناك تباع الصورة العارية الملونة عند دكاكين

السجائر . . والبائعات كلهن بنات — وقد انعكس عليها ظل فتاة عارية أخرى . .

لإنهما فتانان ، واحدة لونها أبيض والأخرى لونها أسود . . وانعكست عليها كاميرا المصور واتخذت الكاميرا وضعاً مثيراً . . وصور أخرى لبنات الليل وهن في هونج كونج عددهن كبير جداً . . أكثر من أى بلد في العالم .

والذى أعجبني وأدهشني في هذا المعرض هو القسم الخاص بالعمارة . ففن المعمار هنا يحتم على كل العمارات الجديدة أن تتخذ وضعاً رأسياً وأن ترتفع وأن تستعين بالفضاء الواسع بعد أن ضاقت الأرض بها .

وفي كل مكان توجد ناطحات سحاب . وفي كل شارع وفي كل حارة ، عمارة عالية جداً تقام . وفي المعرض تقدمت لإحدى الشركات الهندسية بنموذج من الخشب لمستعمرة سكنية مكونة من ٩ آلاف شقة . . يتراوح إيجارها بين ستة جنينيات وعشرين جنينياً . . وهذه المستعمرة بها مدرسة وبها دار للسينما . .

ويبدو أن الحكومة هنا قد اشترطت على كل من يبني مستعمرة أن يبني فيها مدرسة . . فالطلبة كثيرون جداً والأماكن ضيقة . . وفن العمارة هنا فيه خطوط جديدة . . ولكن كل الخطوط مستقيمة . . وكل الواجهات من الزجاج . . وفي بعض البيوت توجد واجهة مستقلة من البيت . هذه الواجهة تشبه ستاراً هائلاً من النوافذ البيضاء تحجب أشعة الشمس وتكيف الهواء .

وهنا نموذج لمطعم . . سقفه على هيئة دوائر تصعد إليه . . بسيارتك . . ومن الممكن أن تنزل فوقه بطائرة هليكوبتر فلا يتأثر . . والعمارات هنا مكتوب عليها منشورات تشبه منشورات قاعدة إطلاق سفن الفضاء عندما تحدث عن دورات محطة الفضاء . . فالمنشورات هنا تقول لك ابتدأنا البناء يوم ١٢ يونيو وينتهي العمل يوم ٢٧ فبراير الساعة ١٢ ، ويكون المبلغ الذى أنفقناه حتى هذه الساعة هو ثلاثة أرباع مليون جنين استرليني ، وآخر موعد لتقديم طلبات الإيجارات هو يوم ١١ نوفمبر ظهراً . إذا أردت أية معلومات أخرى اتصل بالآنسة . . من الساعة الخامسة والنصف إلى السادسة من أى يوم ما عدا يومى السبت والأحد فانها خارج المدينة !

وهنا معارض أخرى للفنون والآداب .

ولكن يظهر أن الرجل الصينى مشغول عن الأدب والفن ولذلك تأخرت

هذه الأعمال النظرية .. والصيني رجل عمل متفوق في عمله... وهو يفكر بيديه ويتفلسف بمعدته .. ولذلك فالأدب هزيل جداً والموسيقى تدل على براعة الصينيين في شيء واحد .. هو أنهم استطاعوا أن يجسوا عشرات القطط والفئران في آلاتهم الموسيقية .. فالبيانو صراع دائم بين دجاجة وراءها عشرات من الكناكيت الصغيرة ضد عرسه كاسرة . أما القيثارة فهي تشبه أفعى قد تكونت على صدر أحد الحواة ينتظر عصفوراً أطلقه أحد المتفرجين .. أما بقية الأصوات الموسيقية فهي تشبه ضرب الحلال بالملاعق ثم ضرب المستمعين بالجزم !

والصيني مهم جداً ببناء أحسن مسرح ، وبناء أحسن مطبعة وأحسن صالة للموسيقى .. أما امتلاء هذه الأبنية بالناس فلا يهيمه كثيراً . لذلك أنصحك عندما تذهب إلى هونج كونج أن تعرف أولاً أن الفنون والآداب تشبه شربة الزيت .. وأنه يحسن بك أن ترجها . أن تهز رأسك قائلاً لنفسك لا - قبل أن تتناولها .. لأنها تستعمل من الظاهر فقط !

ثم هذه العجائب ! ؟

• الصينيون « يحسبون » لا عن طريق جداول ضرب ولا آلات حاسبة .. ولكن يحسبون عن طريق عداد صغير مكون من مجموعة من البلي الذي يلعب به الأطفال .. وعملياتهم الحسابية غريبة غير مفهومة .. ونتم بسرعة مذهلة .

• إذا سمعت أحد الصينيين وهو يأكل أدركت أن هناك سيلا من الأمطار يتساقط فوق السطوح .. لأن الصيني يأكل بالعصا .. فهو يمسك عصوين في يده ويضرب بهما الطبق ويلتقط بهما حتى الإبرة .. حاولت ذلك ففشلت في إمساك هاتين العصوين .. لقد كنت في حاجة إلى كمامة لأمسك العصا التي سأمسك بها قطعة لحم في حجم ما كينة الخلاقة !

• كل صيني يعمل أكثر من عمل .. فهنا في الفندق الذي أقيم فيه أربعة من الجرسونات - أقصد الجرسونين أو الجراسنة الرجال - وكل واحد منهم له عمل آخر يعمل طول الليل .. فهذا يصنع جلود الساعات وذلك يصنع المفاتيح والأقفال ، والثالث يرفى الجوارب .. كل ذلك طول الليل ! .

* لا يوجد محل يبيع صنفاً واحداً . . فالفكهاني يبيع إلى جانب الفواكه اليابانية والصينية الساعات والراديوهات الصغيرة والطور النادرة والحراير والحمور . .
* اكتشفت أن الفنادق كلها لها أسعار واحدة . . يعني الفندق الذي أسكنه أسعاره كفنادق الدرجة الأولى . . والمشكلة هي دائماً كيف تجد مكاناً في فندق الدرجة الأولى !

* سيجن رجل لأنه نقل في زورق مائة فتاة وحملهن إلى إحدى السفن الكبيرة الراسية بعيداً عن الميناء . أما لماذا صدر ضده الحكم ، فلا أنه لم يدفع لإيجار الزورق . . فقط !

* سجن امرأة لمدة سنة لأنها باعت ابنتها الصغيرة وعمرها ١٢ سنة لرجل لكي يعرضها في الليل على السائحين ويكسب من ورائها . . وسجن هو الآخر سنة !
البيع لا اعتراض عليه عندهم ولكن استغلال الفتاة هو الذي يعتبر عملاً حقيراً !
* المدينة تشكو من الإسراف في استخدام المياه ولذلك . . ستكون المياه الساخنة في الحنفيات من السادسة صباحاً حتى الثانية عشرة . . وبعد ذلك تكون المياه باردة حتى السادسة مساءً . . وعلى كل سكان هونج كونج أن ينفذوا التعليمات وإلا بلغات الحكومة إلى إجراءات أشد . . ربما قطعت المياه نهائياً واكتفت بمشروبات الكوكا والبيسي وهي كثيرة جداً هنا .

* المحلات الليلية الكبيرة هنا لها نظام غريب . . إذا أعجبتك فتاة وكلهن جميلات فأنت ترقص معها . . وبعد الرقصة الحلوة تدفع للمحل مبلغ جنينين .
وإذا طلبت أن تجلس إلى جوارك فادفع جنينين آخرين . . وفي آخر الليل إذا لم تستطع أن تقف على حيلك أو تعرف أين تسكن . . فالمحل يوصلك إلى حيث تنام وفي الصباح يبعث أحد الجرسونات للاطمئنان على صحتك وعلى أنك ستذهب إلى نفس المحل مرة أخرى .

* لا يضعون الكريم في الحلويات أو في الجيلاتى . . والسبب هو أن الناس يخافون من السمنة .

* أصحاب البارات هنا يقفون في وسط الشارع وينادون الزبائن ويعرضون عليهم كل شيء . . كل شيء وبتفاصيل كاملة . . كل ذلك في الشارع وقبل أن تدخل البار . . وهنا لا يشترون ليس الكرافتة كما هو الحال في أستراليا !

● لك تبدو أجنيا!

زحام شديد في كل مكان .. لا أحد يلتفت ناحيتي .. لا أحد يسأل عنى ..
العيون تتجه بانحراف ثم تتركز فوق ناموسة في طريقها إلى أذني .. أما وجهي وأما
ملابسي وأما الكاميرا التي تعلقت منذ أربعة شهور في كتفي دون أن أفتحها
بقصد التهوية فلا أحد ينظر إليها، ولا أحد ينظر إلى الأوراق الكثيرة التي أحملها
كأنني محصل النور في حي بولاق .. وملابسي غريبة .. لونها بني : البنطلون
والجاكيت والحذاء والجوارب .. ينقصها القليل وتبدو حمراء .. كلابس المحكوم
عليه بالإعدام مع وقف التنفيذ .

وقررت أن أبدو أجنياً .. أن أبدو كأنني لا أعرف شيئاً عن تقاليد البلاد.
أو أنني أعرفها وأتجاهلها .. على سبيل الاستخفاف وعدم الاهتمام ..

بدأت أكثر وجهي .. وأجعله كقفص من حديد يجبس وراءه ابتسامة
عريضة .. ومن وراء هذا القفص الحديدي تطل عيناى ترحبان بأى تشجيع ..
ولا تشجيع .. الناس يضحكون لكل شيء وأنا لا أضحك ولا أهتم بهذه الوجوه
الباسمة .. الوجوه « مش ولا بد » ولكن الأجسام « ولا بد » ..

وبدأت أسأل عسكري المرور عن أسماء الشوارع ، مع أن الشوارع هنا
محدودة جداً . ومع أن هذا العسكري لا يعرف اللغة الإنجليزية فالذين يعرفون
اللغة الإنجليزية هنا لم علامت في ملابسهم .. وكنت أصرخ في وجهه وهو
يصرخ أيضاً .. والناس يروننا فيضحكون ولكن لا يتوقفون فورا هم مسائل
جادة أهم من نزوات سائح أجنبي مثل ..

وبدأت أتعرض للفتيات وأبتسم من غير مناسبة ومن غير معرفة . . والبنات يبتسمن . . ثم أتلفت ورأى وأدور كأننى مراهق صغير فى مهب الفتيات الحسان . . وفى كل مرة أدور حول نفسى كما تدور أبواب الفنادق أصطدم بأحد المشاة وأبتسم ويبتسم هو أيضا . . والنتيجة صفر لواحد . . صفر لى وواحد لكل الناس ، فقد أدركوا أنهم أحسن أخلاقا من كثير من الأجانب . .

وعندما أدخل المطعم لا أنظر فى قائمة الطعام وأطلب منه قطعة من اللحم المشوى جدا . . وكثيرا من السلطة الخضراء ، وكوبا من الصودا ، وأبحث عن شئ غير موجود فى قائمة الطعام . . الحلويات أشكال وألوان والفواكه كلها موجودة وأنا أعرف ذلك جيدا . .

ونظرت إلى نظرات الجرسون . . ليس فيها أية دهشة ، ليس فيها أى استغراب لشأنى . . وينظر إلى كأننى أعرفه منذ زمن طويل . . وأخيرا انجعمت فى مقعدى وقلت له وأنا أضع الأوراق إلى جوارى والكاميرا إلى جوار الأوراق ، وأضع الجاكنة فوق الأشياء جميعا . عاوز عود قصب !
واختنى الجرسون . وأنا أعرف هذه العادة فى الجرسونات إنهم لا يقولون أبداً :
مش فاهم .

إنهم يذهبون بسرعة ويأتون بمن هو أكثر معرفة ، بجرسون أكبر . . وهذا الجرسون الأكبر هو الذى يتفاهم معى بلغة إنجليزية سليمة . . وبدأت أقلب فى وجوه الحاضرين . .

واندهشت كيف أن سيدة شقراء حلوة تتناول الشوربة بصوت مرتفع ثم كيف تأكل مع الشوربة هذه الكمية الهائلة من البصل الأخضر . . وفى المنضدة المجاورة توجد سيدة أخرى تأكل بالجملة . . فهى تضع اللحم والبطاطس والبيض والمربى والمسطرده والفاصوليا كلها معا وتأكلها . . وبعد ذلك تقوم بتقليد الجمل فى الأكل . . وأضحك بنى وبين نفسى . .

وألتفت ورأى لأجد الجرسون قد أتى بصينية عليها مجموعة من عيدان القصب . . وتستطيع أن تتخيل منظرى والناس كلهم يتركون اللحم والبصل ويتفرجون على هذا الأجنى وكيف يحطم هذه الأعواد الحديدية .

على فكرة معظم الناس هنا لم طقم أسنان . . وفي أستراليا كنت أجد إلى
جوار سريري كوبا من الماء . . وفي يوم سألت الخادمة عن سبب وضع هذا
الكوب . . فقالت لي : لكي تضع فيها طقم أسنانك . .

وتشامت وقلت لها : فال الله ولا فالك يا شيخة . .
وخشيت أن أقول لها إن أسناني طبيعية فتمد يدها إلى أسناني وتشدها بقوة
لتؤكد من ذلك بنفسها !

وأخرجت ورقة وقلما من جيبى وجعلت أكتب على الورقة أوصاف قصب
السكر . .

وأضغط بأصابعى عليه وأكتب . .
ثم أضع الأعواد إلى جوار أنفى وأشمها وأكتب . .
والناس فى دهشة أكبر وأكبر .

وفى إشارة جافة طلبت من الجرسون أن يأخذ القصب . .
وكان الجرسون فى حاجة إلى تفسير ، فقلت له : أنا خبير فى صناعة
السكر . . وقد جئت للدراسة مفصلة عن عيدان القصب وزعازيع القصب فى
كل مكان . . فى السوق وفى المطاعم وفى الكباريات أيضا ! . .
وضحك الجرسون . .

وفى اليوم التالى حلقت رأسى على الطريقة الصينية . . واشترت الصحف
الصينية . . وجعلت أرفع حواجبى إلى أعلى وتحولت ابتسامات الناس إلى ضحك . .
فقد تأكدوا أننى فعلا أجنبي وأننى أبالغ فى تقليد الصينيين وخصوصا فى الكلام . .
فقد أصبحت لغتى الإنجليزية كالصينية المكسر !

ولذلك تعودت شيئا جديدا لأحبه لقد بدأت أضغ السيجارة فى فمى . . كأن
السيجارة عكاز يستند عليه الكلام عندما يتمشى بينى وبين الناس !

• • •

وركبت القطار من محطة كولون . . إلى مدينة شونج شوى - أو سونج سوى
بلهجة أهل كاتنون . . وهى الولاية الجنوبية للصين الشعبية . . القطار

هنا ثلاث درجات—فى ألمانيا ألغوا الدرجة الثالثة وفى روسيا ألغوا الدرجة الأولى والثانية وفى أندونيسيا ألغوا القطار نهائيا واكتفوا بأن يركب الناس الريكشا .. وفى أستراليا ألغوا القطار ليركبوا الطائرات .. وأتمنى أن أعود إلى القاهرة فلا أجد سلم الترامواى عندنا !

وهذه المدينة الصغرى تقع على حدود الصين الشعبية .. وانطلق القطار لمدة ساعة فى الأرض الجديدة التى أستأجرتها بريطانيا من الصين الشعبية لمدة ٩٩ سنة ابتداء عن سنة ١٨٩٨ ..

وعلى جانب القطار توجد حقول الأرز والبيوت الصغيرة للفلاحين الصينيين .. حياتهم بدائية .. والحقول مقسمة إلى قطع صغيرة جدا .. والفلاح الذى يملك قيراطا من الأرض .. يزرع رבעه أرزا، وربعه فحما، وربعه بصلا ، والربع الباقى يجعله على هيئة حوض من الماء .. تسقط فيه الأمطار أو يحوش فيه الماء وينقله بالجردل أو بالرشاشة إلى الحقل .. وبعض الفلاحين يربى الأسماك فى هذا الحوض .. والمرأة الصينية هنا تنتقل من مكان فى الحقل إلى مكان آخر وهى جالسة على كرسي يشبه كرسي الحمام عندنا .. والأرض على هيئة مصاطب .. وبين المصاطب قنوات .. والفلاح يعمل كل شئ بيده .. ولا يستخدم أية آلات حديثة ..

ولما نزلت إلى مدينة سونج سوي لم أجد أية وسيلة للمواصلات فركبت الدراجة وراء أحد المرشدين .. وانطلقت بنا الدراجة إلى مسافة عشرة كيلو مترات .. إلى حدود الصين .. وصعدت الجبل .. ومن بعيد رأيت الصين الشعبية .. وعلى الجبل توجد علامات بيضاء .. كنت أظنها الحدود بين مستعمرة هونج كونج والصين .. ولكن عرفت أن هذه الأحجار البيضاء هى علامات بين عالمنا هذا والعالم الآخر .. فتحتها جثث الموتى أو ما تبقى من رماد جثثهم بعد الحريق ..

والناس يجلسون على المقاهى ويلعبون الطاولة طول النهار .. وأحجار الطاولة فى حجم بطاريات الراديوهات الصغيرة ..

والسوق الصينية عجيبة .. فكلها أسماك جافة .. وهناك طبق مفضل عندهم هو أنداء الخنزيرة .. هذا الطبق يشبه عندنا الكبدة والكلاوى ..

والشمس ملتهبة جدا هنا . . فالخط المستقيم الذى يمر تحت قدمى الآن
يمر بالقاهرة ومدريدوسان فرانسيسكو . فنحن فى درجات حرارة متشابهة . .
والشمس كانت قاسية جدا ولم نجد مكانا نجلس فيه . . فحطة السكة الحديد
هنا صغيرة جدا وليس أمامنا إلا دخول أحد الدكاكين . . ففيها مقاعد وفيها
أكثر من سرير . . وهى طبعاً لصاحب الدكان وأولاده الكثيرين جدا . .
وشربنا لبنا موضوعاً فى زجاجات . إنه خلاصة اللبن ، يشبه الأرز أبو لبن . .
وسألت صاحب الدكان محاولاً أن أبدو غريباً جداً وقلت له : بلادكم
عجيبة ! كيف تحولون اللبن إلى أرز ، والأرز إلى لبن ؟ !

وهز الرجل رأسه يميناً ويمينا مؤكداً لى أنه ليس شيوعياً ، لأنه لو كان
شيوعياً لهنها يسارا ويسارا ولم يقل شيئاً . . فعرفت أن «تلين» الأرز و «تأريز»
اللبن سر لا يعرفه أحد . . أو لا يجب أن يعرفه أحد مثلى شرب زجاجة بملايم
ثم لم تعجبه ، وعندما بصق على الأرض ، لم يكن ذلك بسبب ذبابة دخلت فى
حلقة ، ولكن لأن مرارة الأرز بدأت تنسلل من جديد إلى فه !

* * *

وهناك أنواع أخرى من المرارة . .

فى الليل ذهبت إلى ملهى « الشمانيا » . . جو جميل . . موسيقى صاحبة
وسحب من الدخان . . تتحرك فيها فتيات كثيرات كأنهن قراميط وبلطى فى حوض
من الزجاج . . كل الناس يضحكون ويرقصون . . وقد تنوهم أن أحدا لا يراك . .
فتجلس فى أحد الأركان وتتوارى وراء أحد الأعمدة وتتشاغل بشئ . . فتضع
يدك على خدك وتفكر معى فى الفصل القادم من هذا الكتاب وماذا تكتب وكم
يوماً تبقى قبل أن تنزل الأمطار والجليد . . كيف تختار الطائرة التى تعانقها العواصف
فى الطريق . . وتتذكر بعض الخطابات الحلوة . . والكلام الحلو الذى كنت تمضغه
كاللبن الأمريكانى أو تشمه كالنوشادر . . وفى هذه اللحظة تشعر بهزة عنيفة تحت
المنضدة . . إنها ساق فتاة صينية جميلة تضغط على رجلك وتميدها لك وتقول :

متى عدت !

فأقول : منذ أيام . .

— وأين صاحبك الآن وكيف حاله . . . ألا يزال يفكر في الزواج ؟
فأقول لها : بخير . لقد تزوج وعنده ولدان الآن . . .

— متى يحضر هنا ؟

— أعتقد في نهاية الأسبوع . . إنه في شوق شديد إليك . . .

— وستبقى هنا وحدك إلى متى ؟

— لا أعرف . . .

— إلى الساعة الثانية ، هذه المرة اسمع كلامي . . ماذا كتبت أمس ؟

— أمس . . قصدك في العام الماضي . . .

— أنا مشغولة الآن . . وسيكون عندنا وقت أجمل فيما بعد . . أنت لا تشرب

— لا أشرب . . .

— لأي سبب ؟ ديني ؟

— صهي . . .

— أنت دائماً مهتم بالمسائل الصحية . . أحسن . . ولكن صديقتك لن تعود .

لقد طردها من هنا . . لقصة مشابهة . . طردها . . هل تسمعي !

— أسمعك طبعاً هل يبدو أنني سرحان ؟ . أنا شكلي يبدو أنه سرحان . . ولكني

في الواقع لست سرحان . هل نظرت إلى عدسة آلة التصوير ؟ إنها بلا أجفان

وبلا رموش ولا تتحرك ولكنها تلتقط كل شيء . . وأنا أيضاً كذلك . .

— ماذا قلت ؟ . أنت لا تزال تعمل نفس العمل . . إنه لا يعجبني . . وهل

تبقى طويلاً هذه المرة ؟

— يمكن . . .

واستأذنت الفتاة وانتقلت إلى المنضدة ورأى . . وكان هناك شاب

يبدو أنه أمريكي . . وجلست إلى جواره وهي تضحك . . ثم نظرت ورأى فقالت لي :

لا مواخذة . . أنت جئت هنا تتفرج فقط . . أما أنا فلي شأن آخر . . لي عمل آخر .

واكتشفت بعد وضع يدي الأخرى على خدي الآخر . . وكان خدي الأول

لا يتحمل أكثر من صفحة واحدة . . وكأنني أحمي خدي الآخر . . اكتشفت

أنها كانت تتحدث إلى الرجل الذي يجلس إلى جوار الحائط بعيداً عني وأنها

تشير إلى حوادث جرت بينهما أمس . . وأنها لا تقصدني بالمرّة ! .

وأفتت من سرحاني الطويل .. ووضعت يدي في جيبي وتلمست المحفظة . .
ولا أدري لماذا فعلت ذلك عندما أحسست أن صوتي منحاش . . تماما كما يتلمس
الإنسان أسلاك الراديو الممتدة من البطارية إلى الميكروفون عندما يلاحظ أن
صوت الراديو بدأ ينخفض . . وتنبهت إلى أن الجالس ورأى هو صديقي وهو الآخر
من القاهرة . . واعتدلت وبدأت أتحدث إليه بالعربية واندهدشت الفتاة وخجلت
مني وأحست أنني انتقمتم منها . . وأن انتقامي كان رهيبا عندما نهضنا نحن الاثنين
وتركنا لها المنضدة والمهلي . . ملهى الشمبانيا . . مع أنه لم تكن هناك سوى زجاجة . .
انفجرت في وجهي وطارت الفلة إلى عيني . . أما فقاعات الشمبانيا فظلت
في نفسي أذكرها وأضحك . . وعندما خرجت أنا وصديقي من المحل أحسست
أن الشمبانيا طعمها كالشوربة أم خل وثوم . . والحقيقة أن الفتاة جميلة . .
ولم يعجبني منها إلا تمثيلها . . وأحسست أنني خشبة مسرح وأنها صعدت فوق
الخشبة وظلت تدبب برجليها . . والخشبة ولا هي هنا . . خشبة طبعاً !

واقننت أنني أنصرف كإنسان غريب ، لا عن تمثيل ، ولكن عن حقيقة
وعن إحساس . . فأنا فعلا غريب في هذه الجزيرة وفي كل مكان . .

آه لو أعرف كيف لا أكون غريبا . . كيف أكون قريبا لأحد . .

قريبا من أحد . . كيف أكون ابن بلد . . ابن أي بلد . . ابن أي أحد من
الناس . . إنني بالفعل غريب ، ولا نهاية لغربتي ، ولا حدود لغربتي . .

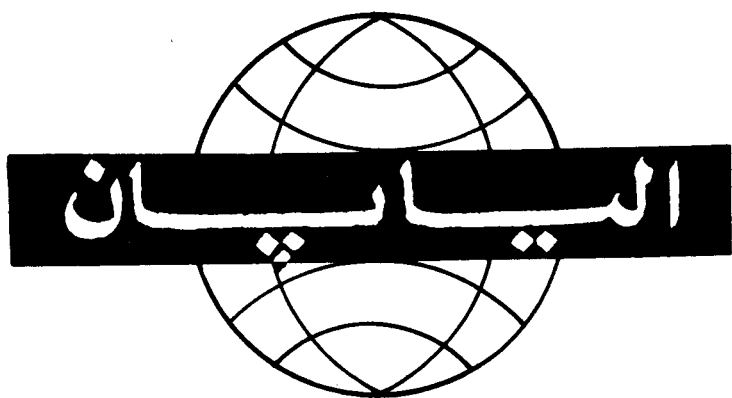
إن هونج كونج مليئة بالغرباء . . بكل الناس الذين مثلي . . إننا مرتبطون
معا بشيء واحد هو أننا غير مرتبطين !

انتهت إقامتي في هونج كونج . . .

وهذا تعبير دقيق . . لإقامتي هنا هي التي انتهت . . أما إقامة هونج كونج
في نفسي وعلى لساني وفي عقلي ، فلا يمكن أن تنتهي . . فالذي رأيت والذى أحسست
به . . والذي دفع صدري إلى أعلى ، وهبط به إلى أسفل ، كل ذلك لا يمكن أن
يزول . .

انتهت ولا أعرف ما هو الذي انتهى . .

إن هونج كونج لم تعد قريبة من بدى .. وهذا هو معنى النهاية ..
آخر مرة أستخدم فيها كلمة « كان » هي الآن فقط .. كأن هونج كونج
نجفة كريستال معلقة في السقف ، والسقف هو القانون .
فهى معلقة بين القوانين ، ولكنها تهتز يمينا وشمالا . فالشعب الصينى هنا قادر
على أن يتعلق فى أى شئ ثم يهتز ويتمايل عليه !
ومرة أخرى وأخيرة أستخدم فيها كلمة « كان » ..
كأن كل محاولة من جانب البيض ليختلطوا فيها بالناس الصفرى هى مثل
محاولة خلط الزيت بالماء .
ومن الغريب أن أهل هونج كونج قد أقنعوا البيض ، بأنهم ليسوا كالزيت
بالماء وإنما كالعسل بالسمن ..
وقد صدقهم البيض .. ولكن الرجل الصينى هو أرق كذاب فى الدنيا !



● الأقسام العالقة!

بعد سبع ساعات بالطائرة من هونج كونج وصلت إلى مطار طوكيو
الطائرة ذات محركات ولهذا كانت المسافة طويلة .. والذين سافروا بعدى
بالطائرة النفاثة لم يستغرقوا أكثر من الوقت الذى تستغرقه وأنت تتناول طعاما من
اللحم والسلطة وتنام نصف ساعة أثناء الأكل ثم تهض مزعجا وتعاود الأكل
مرة أخرى .. ثم تروى نكتة بايخة لجارك وتعتذر عنها نصف ساعة .. وعندما يقبل
اعتذارك تكون الطائرة قد وصلت إلى أرض طوكيو !

وكانت الساعة الثامنة ليلا .. والسماء كلها ضباب كثيف وأمطار ورياح
باردة .. باردة جدا .. لقد صادف وصولي إلى طوكيو وصول « دينا » .. دينا
هذه اسم العاصفة التى تجتاح اليابان .. ولسبب خبيث جدا يطلق علماء الأرصاد
أسماء النساء على العواصف ..

وقبل هذه العاصفة .. أو صاحبة « العصف » دينا .. كانت هناك عاصفة
اسمها شارلوت ..

وعندما نزلت من الطائرة ، أعطوني مظلة سوداء لوقائتي من المطر .. وليتهم
أعطوني بالطو للوقاية من البرد .. وليتهم استقبلوني بلون آخر غير هذا اللون
الحزين ..

كل شئ كئيب .. الجو .. «المطار» - لا بد أنه نسبة إلى المطر وليس
إلى الطيران - وكدت أقول لنفسى لولا خوفا من أن أفتح فى فى هذا الجو البارد
هيه دى طوكيو ؟ !

وعندما دخلت المطار وجدت أن المطار فعلا يدل على أننى على أبواب مدينة رائعة كبيرة ضخمة .. المطار هائل .. به أنوار وألوان وأنوار ، وحركة وأنوار وناس وأنوار .. لا تتوقف .. لا الأنوار ولا الألوان .. لأننى لم أبالغ فى تكرار كلمة الأنوار .. ولكن اليابانيين هم الذين يفعلون ذلك .. وهناك أناس أشكالهم غريبة مختلفة عما تصورت . فقد كنت أتخيل اليابانيين أقزاما لونهم أصفر ، أو أصفر على أبيض ، أو أصفر على بنى ، وتصورت أنهم يلبسون ملابس أخرى .. يلبسون الكيمونو وهو الزى الوطنى .. الحقيقة لم أجد شيئا من هذا .. فاليابانيون طوال بيض اللون .. بل لأنهم شقر .. وحدود السيدات كالتفاح .. وحدود بارزة حمراء .. وعيونهم كبيرة .. والفرق بين اليابانى والصينى هو أن اليابانى أكثر بياضا وطولا ، وعيناه كبيرتان جدا والحنف الأسفل مستقيم والحنف الأعلى نصف دائرى منفوخ .. ومعظم الناس يرتدون النظارات الطبية ومعظمهم له أسنان ذهبية .. والوجه اليابانى جميل ..

ويظهر أن بنات الصين وبنات اليابان قد اقتسمن الجمال هنا فى آس كلها .. فالمرأة الصينية يتمنى الإنسان أن يراها عارية تماما بشرط أن تضع ورر توت على وجهها .. والمرأة اليابانية أيضا بشرط أن تحفى ساقها تحت الأرض .. وإن كانت عين المرأة اليابانية نصف دائرية فإن ساقها دائريتان وساقها معوجتان جدا .. وتندهش كيف أن المرأة اليابانية تستطيع أن تمشى .. ولكن المرأة اليابانية تمشى وهى تقفز وتكاد تقع إلى الأمام .. أو تمشى ورجلاها تكادان تلتف الواحدة على الأخرى ثم تسقط على الأرض .. فعندها جاذبية .. جاذبية أرضية .. !

وفى المطار يسألوننا إن كانت معنا سجاير .. لأن اليابان كلها سجاير خاصة . بلى الحقيقة أن اليابان عندها كل شئ .. لقد صنعت كل شئ ابتداء من المسمار الذى يوضع فى الحذاء إلى الخيط الرفيع الذى يوضع فيه مفاتيح القاطرة الكبيرة .. فاليابان هى المثل الأعلى للدولة التى تعتمد على نفسها . التى تصنع كل شئ بأيدى أبنائها ، وتبيعه فى كل مكان فى العالم ، ولها سمعة هائلة .. والطريق من المطار إلى الفندق مظلم جدا ، والشوارع خالية من الناس .. السيارة التاكسى التى تنقلنا كاديلاك وبها مدفأة ، ولكن البيوت كلها قديمة

وكلها من طابق واحد ، وربما كان السبب هو وقوع الزلازل والبراكين .. ففي اليابان ١٩٨٠ بر كانا نصفها ما زال نشطا .. والقانون هنا يمنع بناء العمارات الكبيرة إلا بشروط قاسية ، حرصا على سلامة الناس . وانهشت جدا عندما عرفت أن أهل طوكيو قد ناموا ، وكانت الساعة لم تتجاوز التاسعة والنصف ؛ والسبب هو أن «دينا» كانت قاسية هذه الليلة ولكن في اليوم التالي سيكون الجو صافيا .

* * *

وطوكيو أكبر مدينة في الدنيا ، فعدد سكانها هي وضواحيها ١٥ مليونا وفنادقها الكثيرة مزدحمة بالناس .. فهناك نشاط تجارى وسياسى ونشاط دولى . والحصول على غرفة في أى فندق يعتبر عملا من أعمال البطولة .

الحقيقة لم تبهرنى طوكيو ، وأحسست بكثير جدا من خيبة الأمل وحسدت اليابانيين على براعتهم في الدعاية لبلادهم ، بلاد الشمس المشرقة .. ويظهر أن الشمس تشرق هنا فوق السحاب فقط !

* * *

لم أجد أى شئ يابانى بالمعنى الحقيقى ، فيما عدا شيئا واحدا .. وهو أننى عندما دخلت الفندق وجدت ثلاثة فتيات قد ارتدين الكيمونو وأنحنين انحناءة تامة - فى حالة ركوع تقريبا- وفهمت أن هذه الانحناءة لشخصى . على إيه ؟ لكن هذه هى التقاليد . كل إنسان ينحن لإنسان مرة أو أربع مرات فى لحظة واحدة ، وفى المطار لاحظت أن الناس رجلا ونساء يلتفون حول بعض المسافرين وينحون جاعة - كالصلاة تماما - وهذه الفتاة قدمت لى الشبشب ونزعت حدائى وتركته أمام الباب .. والشبشب يجب أن أتقل به من مكان إلى مكان فى داخل الفندق وأخنى حدائى لتنظيفه فى الحال ووضعها فى مكان أمين حتى الصباح . وفى غرفتى وجدت الكيمونو نفسه على شكل «روب» صغير ألبسه فوق البيجاما .. وعرفت بعد ذلك أن الروب يجب لبسه بلا بيجامة .. وهذا ما لا أستطيعه ، فالدنيا برد .. زمهرير ..

نسيت أن أقول إنهم سألونى فى الفندق : هل تريد حجرة يابانية أو أوروبية

فقلت : أوروبية .

فقد لاحظت أن اليابانيين لا يرتحفون مثلى . وخشيت أن تكون الغرفة اليابانية فوق السطوح وأن يكون النوم بلا غطاء أو بغطاء على أن تبقى النوافذ مفتوحة .

وفي اليوم التالى عرفت أن الغرفة اليابانية أصعب بزمان .. فالنوم مثلا فوق مرتبة على الأرض ، والطعام على منضدة صغيرة جدا . وإذا أكلت يجب أن تجلس على ركبتك . وإذا جلست يجب أن تجلس على قرافيصك . والتقاليد تقضى بأن تشرب الشاي الأخضر فى كل وقت . والشاي الأخضر من غير سكر .. وهو مجانا !

وتمنيت أن أرى شيئا يابانيا لم أكن أعرفه .. وليس من المعقول أن أصل إلى اليابان فى الليل ، وأظل جاهلا حتى الصباح ، أنزل من الطائرة لأصعد فوق سرير وأبقى كذلك حتى الصباح .. فطلبت عشاء يابانيا وسألونى عن نوع الأطعمة ولما كنت لا أعرف فقد طلبت من مدير الفندق – البواب هنا – أن يختار لى طعاما على ذوقه هو .

وانتظرت المفاجأة . ودخلت فتاة بالكيونو وانحنت جدا جدا .. ووضعت المنضدة وانحنت جدا جدا ، وخرجت ودخلت فتاة أخرى وانحنت فى دخولها وخروجها ، ووضعت فنجانا من الشاي الأخضر . ودخلت فتاة ثالثة صغيرة ووجهها حلو وانحنت بالقوى وقدمت لى فوطة ملفوفة بالماء لأغسل يدى ، وفوطة أخرى ساخنة لأغسل يدى .

وبعد ذلك دخل المدير وانحنى ووضع أكوابا – عرفت فيما بعد أنها أطباق – وفى الأكواب ألوان سائلة خضراء وحمراء وصفراء .. وحمراء وصفراء وخضراء وعرفت فيما بعد أن هذه شوربة الخيزران الأخضر ، وهذه قواقع بحرية ، وهذه أذبال تعابين مائية ، وهذا جمبرى محمر بقشره وبرأسه وشواربه كاملة ، وهذا أرز مسلوق معجون وليس به ملح ، وهذه سلطة خضراء من الفستق والكرنب – وقد عرفت فيما بعد أنه خفس – وقطعة من الجبن المدخن ، ثم هذا طبق من السمك النيء .

ولسبب غير مفهوم قررت أن أكل هذه الأشياء جميعا . . وقد نسيت هذه الأكلة وتعمدت أن أنساها ولا يذكرني بها الآن إلا بعض زجاجات الفيتامين « يو » وبعض الأنتروفيو فورم . . لقد ظلت بطنى تمغص أسبوعا كاملا . . كأن بعضها ينفخ النار على بعض . . ولزمت الفراش وكلما سمع أحد اليابانيين ذلك يندهش . . كيف أجروا على أكل هذه الأشياء كلها مرة واحدة . .

وعرفت أن المشكلة هنا في اليابان هي مشكلة اللغة : فدير الفندق لم يفهم كلامي . . فأنا طلبت بعض الأطعمة اليابانية لا كل الأطعمة اليابانية . . لم أطلب اللبن والسّمك والتمر الهندي والضفادع والثعابين .

والخلاصة أن استقبال طوكيو لشخصي كان سيئا جدا . . وكل يوم أرى طوكيو أجمل وأروع ، كأنها هي الأخرى حريصة على محو هذا الأثر .
وقد نجحت - هي وأنا - في ذلك .

وليك على سبيل التسلية هذه الألفاظ :

١ - في الشارع ستجد فتيات قد وضعن كامات على الأنف وعددهن كثير جدا . . وستجد في كثير من محلات الحلاقة رجالا قد وضعوا نفس الكامات !

٢ - تجد شبابا في ملابس رعاة البقر وقد وضعوا التيجان المذهبة على الرأس ، وأمسك كل واحد منهم عصا عليها بعض الزخرفة والأرقام . . . !

٣ - في الليل ستجد فتيات جميلات يمشين ببطء شديد جدا ولا تلتفت الواحدة منهن يمينا أو شمالا ولكن في فمها صفارة لها صوت حزين جدا . !

٤ - أصوات سيدات يضربن الأرض أثناء السير . .

٤ - بالونات طائرة في سماء طوكيو . وبالونات يمسكها أطفال فوق الأسطح .

٦ - كل فتاة تحمل على ظهرها شبه منحة صغيرة . . !

٧ - طواير من الشبان . . عشرات الألوف بملابس عساكر البوليس ،

السوداء . . الجاككات ضيقة ولها زراير نحاسية ولها باقات تلتف حول العنق . كلمهم صغار ومعهم فتيات جميلات . . ومن بين الفتيات واحدة تجرى بسرعة وتتوارى بين الشبان . . مع أن السبب تافه جدا . . !
« أقرأ حل الألغاز في نهاية هذا الفصل » . .

* *

لاحظت أن الياباني لا يستطيع أن يفكر في شيئين في وقت واحد . فإذا دخلت على ياباني في مكتبه وكان يتحدث في التليفون فإنه لا يمكن أن يراك أو يسمعك أو يلتفت إليك . . وإذا حاولت أن تنبهه ، كان من الصعب عليه أن ينتبه إليك . . وإذا تنبه إليك فبصعوبة جدا وفي هذه الحالة ينسى التليفون . . لأنه يقوم بشئ واحد فقط في وقت واحد .

وإذا كنت قادما من هونج كونج فسرى الرجل الياباني بطيئا جدا جدا !
وإذا كنت قادما من الهند فسراه سريعا جدا ، ذكيا جدا . .
وإذا كنت قادما من الفلبين فسراه حزينا بليدا . .
وإذا كنت قادما من أندونيسيا ، فسراه أشقر اللون عملاقا .

والحقيقة أن الرجل الياباني يتقن عمله جدا ولا شئ يتم هنا بسرعة . . ولكن من المؤكد أن كل شئ يتم . . ويكنى الرجل الياباني فخرا أن كل شئ في بلده قد صنعه . . البيت والمطعم والفندق والشارع والمحطة والمطار . . السيارة والبدلة والحذاء وعقد اللؤلؤ وسلاسل البوابات . . والياباني له ذوق جميل ، إنه أستاذ في فن العرض والدعاية . . والإعلانات في طوكيو فن رائع . . ومدينة طوكيو في الليل يجب أن تراها أكثر من مرة . . ترى الناس ، وهذا معرض حي . وترى الفترينات وهذا معرض فنان . . ثم الإعلانات الملونة ، إنها مذهشة . . ولا يجب أن تستغرق في النظر والتأمل وإلا أطاحت بك إحدى السيارات . . فسائقو السيارات هنا كلهم كانوا طيارين في الحرب الأخيرة وكانوا من القداميين . . !

والسيارة صنعوها والقاطرة والراديو الصغير . كل هذا صنعه . . وفي عشر سنوات . .

والسيارة معناها عشرات الصناعات : صناعة الحديد والزجاج والطلاء

والمصاييح والقماش والجلد.. ثم النقل والدعاية والبيع ، والشراء والتصليح والتسويق .
ويمكن أن يقال : لا جديد تحت شمس اليابان . . فكل شيء هنا قد
اقتبسه اليابانيون من بلاد أخرى . . كل شيء أخذوه عن الدول الأخرى وحسنوه
وجملوه وصدروه إلى الخارج وباعوه أصغر وأرخص وأكثر من البلاد التي
اقتبسوه منها .

والرجل الياباني ليس مخترعا ولكنه مقلد عبقرى . . إنه مقتبس . . إنه يترجم
ويتصرف . . إنه بلغة الصحف « مراجع » . . يعيد كتابة الموضوعات ويضع
لها العناوين ثم يعرضها في الإطار المثير . . إننا لا نذكر من الذى اخترع الراديو
الصغير . . إنهم ليسوا اليابانيين . . ولكن اليابان أصبحت هى الدولة الوحيدة فى
العالم التى تفخر بهذا الجهاز وتبيعه فى كل مكان وبأسعار رخيصة . . والاسطوانات
وأجهزة التسجيل وأجهزة التليفزيون . . كل ذلك صناعة يابانية .

واليابان هى المثل الأعلى للدولة التى تقف على قدميها وتضع هاتين القدمين
فوق أكتاف الآخرين . والمثل يقول : إن القزم من الممكن أن يرى أكثر
من العملاق إذا وقف على كتفيه .

وقدوقفت اليابان على أكتاف الدنيا . . والمهم أنها وقفت وأنها تفوقت . . كل ذلك
فى ٤٠ سنة ، وبأيدى مائة مليون من أناس مهذبين ، ونشيطين ، ومتقشفين
أيضا .

ونحن فى القاهرة نبكى ونلطم حدود الأمانة والصدق . . والفضيلة والشرف
عندما يقتبس فنان لحنا موسيقيا أو يقتبس فكرة مسرحية . . ونقول : أمسكوا
الحرامى !

إن مائة مليون من المواطنين هنا يسخرون من هذه « الحذقة » وهذه « الحنبلة »
وهذه القرامل التى تؤخرنا وتربطنا بحبال من الخوف والتردد . فاليابان لم تترك
شيئا جميلا أو جديدا فى الدنيا لم تنقله ولم تعمل مثله . بل إن اليابانيين قد تفوقوا
على أساتذتهم . .

وهم يعترفون بذلك ويضحكون ، ولكنهم لا ينجلون . .

قال لى فنان يابانى أمس : إن جمهوريتنا العربية ستعرض هنا مجموعة من

التماثيل الفرعونية الثمينة ، وحلرني من المغامرة الخطيرة. ثم قال وهو يضحك إننا نستطيع أن نقلدها ، فيصعب عليكم أن تفرقوا بين الأصل والتقليد . . وقال أيضا . . إن حكومة كوريا تطالبنا بإعادة التماثيل التي أخذناها منها وسردها .

وقلت : الأصل أم التقليد ! ! .

فقال : الأصل . . والتقليد سيظهر فيما بعد .

ويقال : إن الألمان عندما أقاموا معرضهم الأخير في ألمانيا منعوا اليابانيين من دخوله حتى لا يقلدوا المعروضات ثم يملأوا بها أسواق ألمانيا قبل أن ينتهي المعرض !

وفي طوكيو شارع اسمه جزا . . إنه لؤلؤة . . شارع جميل طويل عريض . . كل شيء فيه جديد رغم أن الحرب قد هدمته كله .

إنه يشبه شارع بيت في سيدني . . وشارع الشانزليزيه في باريس ، وشارع كورسو في روما ، وشارع رنج في فينا ، وشارع كورفير ستندم في برلين ، وشوارع سليمان باشا وقصر النيل وعماد الدين في القاهرة .

وفي استطاعتك أن تدخل أي محل وتقلب في البضائع كما تريد والناس يتسمون لك سواء اشترت أو لم تشتري . . ولكن اللغة هنا مأساة . . ففي اليابان ٢٢٠ جامعة من بينها ٢٧ جامعة في طوكيو . . ونسبة التعليم ١٠٠٪ ، ولكن اللغة الإنجليزية من النادر أن تجد لها على لسان الياباني وإذا وجدت أعلى لسانه فلن يسمح لها بدخول أذنه . . وإذا دخلت فليس معنى ذلك أنه فهم شيئا . .

ولو دخلت محل فكهاني نحس أنه لا يبيع فاكهة إنما يبيع قطعاً من الماس أو اللؤلؤ . . نظيف جدا وإذا اشترت فسيلف لك التفاح الكثير جدا والعنب الكثير جدا في ورق ملون جميل . . واللفة نفسها أنيقة . وكانت اللغة بيننا بالإشارة : عاوز من ده . . بلاش دي . . هات دي . .

وبعد أيام من بقائي في طوكيو تعودت أن أتأمل . . أن أرى ولا أتكلم . . وتذكرت القصة اليابانية التي تقول : إن ملكا طلب من أحد الرهبان أن

يربى له ديكا ليشارك به في مصارعة الديوك ، وبعد عشرة أيام سأله : كيف حال الديك ؟

فأجاب الراهب : إنه لم يعد يصبح !

وبعد عشرة أيام أخرى سأله الملك : كيف حال الديك ؟

فقال الراهب : إنه الآن يزعج من صياح الديوك الأخرى !

وبعد عشرة أيام سأله الملك : والآن ؟

فقال الراهب : إنه الآن قد تخلى عن غروره !

وبعد عشرة أيام سأله الملك : ماذا حدث له الآن ؟ !

فقال الراهب : إنه الآن يلزم الصمت ، يقف متحجرا وعيناه جامدتان

ولا يشعر بأحد ولا يريد أن يأكل أو يشرب .. إن أى ديك آخر سيفزع إذا

نظر إليه ! .

وأنا لم أكل العشرة الأولى . ولكن أى إنسان آخر يرانى سيفزع منى ،

فلأنى أمشى كالديك مختالا متأملا غارقا فى التفكير !

وهذا هو الحل ! !

١ - كل هذه الفتيات مصابات بالزكام وقد وضعت الكمامات حتى لا تنتقل

العدوى إلى الآخرين .. أما الرجال فبسبب بسيط جدا هو أنهم يخلقون ولا يصح

أن يشم الزيون رائحة أنفاس الأسطى .

فى الهند من الممكن أن تجد هذه الكمامات ولكن لسبب آخر وهو خوف

بعض الهنود أن يقتلوا الميكروبات أثناء الفقس !

٢ - هؤلاء الشبان يعلنون عن المحلات التجارية .. والزخرفة هى حروف

ياباتية والأرقام هى أسعار أشياء لم أعرف ما هى .

٣ - هؤلاء السيدات يقمن بأعمال التدليك . وهذه هى الطريقة الوحيدة التى

يعطن بها عن أنفسهن .. معظم هؤلاء النساء ضريرات .

٤ - قباقيب السيدات .. أو الأحذية اليابانية وكلها مثل البيوت مصنوعة من الخشب .

٥ - هذه البالونات هي إعلانات أيضا عن المحلات التجارية .. أما الأطفال فيحركون البالونات أو يحرسونها حتى لا تنفجر أو حتى لا تهبط إلى الأرض فيلتقطها أحد السياح على سبيل الذكرى أو الاستخسار .

٦ - هذا جزء من الكيمونو وهو الزي القومى فى اليابان .. وهذه الخدعة لكى تركز بها على الحائط عندما تجلس على ركبتيها عند الأكل أو عند الجلوس العادى

٧ - هؤلاء جميعا تلامذة مدارس .. فطلبة المدارس لهم زي موحد .. وهو الأسود .. أما هذه الفتاة فهى تعمل فى الفندق الذى أنزل به وقد ضبطتها مرة تحاول قراءة كتاب فوق سريرى .. وابتسمت أنا .. ولكنها شعرت أنها ارتكبت جريمة ..

وكلما حاولت إقناعها بأن هذا الشئ تافه جدا .. وأحاول أن أعتذر لها عن الكتاب الذى أفسد ابتسامتها الحلوة التى كنت أراها كل صباح ! فلإنها تهرب منى .. وتختفى فى الزحام .. ولكنى أحاول اللحاق بها ولم أفقد الأمل ! ..

● نزلت أمطار الخريف!

قبل أن أسافر إلى اليابان قرأت كل النشرات الجوية .. وكل مجلات الدعاية اليابانية الأنيقة .. كلها تقول الجو صحو .. السماء صافية .. أمطار خفيفة على الساحل .. الشمس مشرقة .. فهنا بلاد الشمس المشرقة .. وهذه أخبار سارة جدا. وارتديت ملابس الصيفيـة - وكل ملابس الصيفيـة - ودهشت عندما رأيت بعض المسافرين من هونج كونج إلى اليابان يحملون الباطوات الشتوية وبعضهم يحمل المظلات، ورأيت كل الفتيات قد ارتدين البلوفرات . فأمد يدي إلى النشرات اليابانية وأقرأ من جديد .. وأسأل المضيفة اليابانية عن الجو في اليابان فتقول : إنه رائع .. إن هذا هو الموسم السياحي .. وإنني وصلت في الوقت المناسب ..

وفعلا عندما وصلت إلى طوكيو كان الوقت المناسب لسقوط الأمطار وامتلأت الشوارع بالأوحال .. وكان المطر ينزل ، كأنه فتافيت الثلج . وأحسست أنني خدعت للمرة الثانية . المرة الأولى عندما سافرت إلى استراليا في سبتمبر .. قرأت نشرات الدعاية وكانت هي الأخرى تعلن أن الربيع في استراليا على الأبواب ، وأن الحرارة قد ملأت كل مكان وأن السائح ليس عليه إلا أن يرمى ملابسه في المطار ، وإلا أن يرمى نفسه على رمال الشواطئ في مدينة سيدني .. وعندما وصلت إلى استراليا أحسست أن الطيار قد هبط في القطب الجنوبي . وتوقعت أن أرى عربات الإسكيمو . وأن تكون المضيفات من الدبية ذات القراء الأبيض القضي .. ولكن كانت المفاجأة أكبر مما تصورت .. لقد وجدت الناس في استراليا وقد ارتدوا ملابس الصيف ..

وعندما هبطت مطار طوكيو أحسست كأننى هبطت مطار سيدنى .. وبدأت أتلمس الجانب الأيسر من صدرى ومن بطنى .. كلها توجعنى .. وخز .. وضرب ، كأن هناك من يضربنى مرة بالمنجل ومرة بالمطرقة .. وبعد ذلك أحسست بالألم يشيع فى كل جسمى .. وكلما سألت أحد اليابانيين عن الجوال العجيب قال لى ما معناه : احمد ربنا .. لو جئت هنا فى الصيف لمت من شدة الحر ..

وسألت إن كانت طوكيو التى تقع فوق خط ٣٥ أكثر حرارة .. من جاكرتا التى تقع على خط ٦ وعلى مستوى البحر .. فأجابوا جميعاً أن اليابان أكثر حرارة . ولكننى لم أصدق فدرجة الحرارة فى مدينة جاكرتا فى الثامنة والنصف صباحاً تساوى درجة الحرارة فى القاهرة فى الواحدة من بعد الظهر فى شهر يوليو .. ودرجة الرطوبة فى جاكرتا ١٠٠٪ . ولكن اليابانيين هنا يعتقدون أنهم فى أحسن فصول السنة .. ويحاولون إقناعى ويحاولون أن يفرغوا جيوبى من الأسبرين ومن الفيتامينات : سين وجيم .. وباء .. ويحاولون أن ينزعوا الفئلات الطويلة والبلوفرات الثقيلة .

وعندما ذهبت إلى سفارتنا وجدت السفير فى ملابس الصيفية .. وكل موظفى السفارة حتى الساعى .. كلهم فى الملابس الصيفية .. ولم يعد هنا شك فى أن الجو فى طوكيو حار كما تقول النشرات .. ولكن العيب فى جسمى الذى لم يعد قادراً على مقاومة البرد ..

مسكين قلبى هذا .. إنه كان قبل ذلك يشبه المضخة الكبيرة التى تدفع الدم لا إلى جسمى فقط ، ولكن إلى جسم أى إنسان آخر يجلس على مسافة شبر منى .. أما اليوم فهو يشبه «جلدة القطارة» .. لا يدفع الدم إلا قطرة قطرة .. إلا دمعة دمعة .. فجسمى فى حرارة دمعة العين !

* * *

لا أعرف بأى شيء كانت تشتهر اليابان فيما مضى .. كتب الجغرافيا التى درسناها كانت تقول : إنها بلاد الشمس المشرقة . ولأهلها عيون منحرفة ، ويلبسون الكيمونو ، ولم ملك اسمه الميكادو ابن السماء ، وهم يعبدون الشمس وعندهم

براكين وزلازل ، وبيوتهم مصنوعة من الخشب ، ويزرعون الأرز ، ويعيشون على السمك . إلخ .

كل هذا الكلام صحيح ، ولكن اليابان أكثر من ذلك وأحسن وأعظم . . .
فبلادهم اليوم تشتهر بأشياء أخرى .. والذي لم ير اليابان وإنما سمع عنها يعرف أن اليابان هي بلاد الراديو الصغير واللؤلؤ . . .

وإذا كان هناك في بلاد أخرى مثل مانيتا أو سنغافورة أو هونج كونج من يقرب منك ويهمس في أذنك : مش عاوز بنت حلوة .

فإن هذا يحدث في اليابان أيضاً ولكنهم يسألونك : مش عاوز سونى . . .
سونى جميل . . .

وسونى هذا هو اسم أكبر شركة لصناعة الراديوها الصغيرة .. وأحسن راديو ثمنه الآن عشرة آلاف ين .. أى حوالى عشرة جنيهات . . .

والراديوها الصغيرة هنا تباع في كل مكان .. في محال الأقمشة ومحال الحلوى ومحال السجائر . . .

والشئ الآخر الذى يلفت السائحين هنا في اليابان هو اللؤلؤ . فالإيابان تستخرج اللؤلؤ من البحر وتعمل على تربية اللؤلؤ أيضاً .. فعندها لؤلؤ طبيعى .
ولؤلؤ صناعى . . .

والعقد من اللؤلؤ الذى يلتف حول العنق مرة ومعها الحلق والخاتم . . ثمها جميعاً ١٨ جنيهاً .. والعقد من اللؤلؤ ذى الحبات الكبيرة يلتف حول العنق مرتين ويتدلى إلى ما يقرب من الصدر ثمنه أربعون جنيهاً .. طبعاً فى القاهرة يساوى ثلاثة أمثال هذا السعر .. أو أكثر !

ومن النادر أن نجد يابانية قد ارتدت عقداً من اللؤلؤ .. إنها تكتفى بخاتم . .
والسبب هو أن اللؤلؤ غالى الثمن بالنسبة لليابانيات فمستوى المعيشة هنا مرتفع . .
ولكنه أرخص من الفلبينيين .

وأشهر محل لبيع اللؤلؤ هو محل ميكوموتو الذى اخترع تربية اللؤلؤ . .
والمحل يعرض بكل تواضع فى شارع جنزا ما يساوى عشرة ملايين جنيه من اللؤلؤ فى فترينات بسيطة جدا وغير ملفتة للنظر أيضاً .

وبعد ذلك ففى اليابان كل شئ آخر .. كل شئ صنعوه لنا .. وصغروه
وأضافوا إليه الكثير من ذوقهم .. واليابانيون برعوا فى «لف» السلع .. فقد
تشتري قطعة من القماش أو لعبة بجنيه مثلاً أو أقل من جنيه فتجد البائع اليابانى
قد لفها لفاً أنيقاً حتى ليصعب عليك أن تترك الورق والعلبة التى وضعت فيها
قطعة القماش .

وإذا اشتريت من الرجل اليابانى بضاعة بألف جنيه . أو بعشرة قروش فإنه
ينحنى لك فى أدب كأنك جئت تشتري المحل كله ..

وقد حدث أن أعجبنى أحد المحلات فدخلت فى الزحام أتفرج على المحل ،
ووقف إلى جوارى صاحب المحل فى أدب وانحنى انحناءة كبيرة فهزرت له
رأسى .. وقلت له إننى معجب بنظام المحل وأنا جئت أتفرج فقط .. فانحنى
الرجل شاكراً وتركنى .. وبعد لحظة جاءت فتاة ووقفت إلى جوارى بعد انحناءة
كبيرة فقلت لها نفس الكلام .. فقالت إنها تعرف ذلك ومن أجل هذا جاءت
تساعدنى على رؤية المحل كله .. والحقيقة أنى انكسفت فاشتريت بكرة خيط ..
أى حاجة !

والانحناءة تلاحقنى من اليمين والشمال .. وذهبت لأدفع ثمن البكرة فانحنى
الرجل ورفض أن يقبل ثمنها ، وقال إن هذه هدية من المحل ..

ولم أفهم السبب . وحاولت أن أردّها ولكنه رفض فى انحناء .. فأخذتها ..
ماذا أعمل .. لأنهم مؤدبون أكثر من اللازم ..

● بنات الجيشا

هناك طريقتان لكي تعرف اليابان :

الأولى أن تقرأ كل نشرات الدعاية التي توزعها السفارات .

والثانية أن تذهب إلى اليابان نفسها ، لتعرف أن نشرات الدعاية متواضعة جداً . فاليابان أروع وأعجب مما تتصور ، ففيها التلفزيون الملون . وفيها أحدث عدسات التصوير ، وفيها القباقيب ، وفيها يأكلون السمك نيئاً ، ويشربون الشاي مرأً إلا في يوم ٨ أبريل من كل عام وهو عيد ميلاد الإله بوذا . وفيها أناس يعلقون المقشات على الأبواب ، فالمقشات تكنس الشرور والأمراض . وفيها سيدات ينثرن الملح بعد زيارة أى ضيف . وفي اليابان شركة طيران يابانية وفيها مضيفات يرتدين الكيمونو . وفي اليابان كل الأمهات يحملن الأطفال على الظهر حتى الثانية من عمرهم ، فتلتوى ساقا الطفل و « تتعوج » عيناه ، ويصبح صدر الفتاة الصغيرة « مطبقاً » ليس فيه أثداء . . . وفي اليابان أجمل فنادق الشرق الأقصى ، كله ، وفيها تنام على الحصر اليابانية الناعمة . وفي اليابان الدقة في العمل ، وفيها البطء الشديد جداً في الفهم . . . ورغم الاحتلال الأمريكي الذي استغرق أكثر من عشرين عاماً ، فإن اليابانيين لا يعرفون من اللغة الإنجليزية إلا كلمة « توالت » . . . وهي الكلمة الوحيدة التي تجدها بوضوح في كل فندق وفي كل محطة سكة حديد . . . وقد تعلمت كلمة يابانية أخرى اسمها « بضمو » ومعناها « توالت » . وعرفت فيما بعد أنها كلمة فلاحى جداً وهي تشبه الكلمات الريفية التالية : « المستراح » أو « الكرسي » أو « المحل » أو « الكنيف » أو « بيت الراحة » . . . وكلها معناها التواليت طبعاً ، ولذلك عدلت عن هذه الكلمة ورحت أستخدم الكلمة الأوربية .

واكتشف بعد ذلك أن اليابانيين لا يفهمونها أيضاً ، ولكي يفهموها يجب أن أنطقها بشكل خاص ، وبالطريقة التي ينطقونها بها ، وإلا . . النتيجة معروفة .

* * *

وفي اليابان يعبد الناس الشمس والجبال ، وقد رأيت فيلماً يحكى قصة الشعب الياباني وكيف أنه أنزل من السماء ، وأن الشمس هي التي خلقت أبناء اليابان . . وأنهم أبناء الشمس الطالعة . . وأن «اليابان» وهي باللغة اليابانية معناها «نيبون» أو «نيبون» ومعناها : الشمس المشرقة . . فاليابان هي بلاد الشمس المشرقة . والناس هنا يقدسون الجبال والبحار . . وجبل فوجي يشبه جبل الأوليمب الذي كان يسكنه آلهة الإغريق ويتحكمون في مصير العالم كله هناك . فقمة الأوليمب وقمة « فوجي » هما مقر الآلهة . . ويندهش الناس هنا كيف أن الأجانب يتحدثون عن الجبال دون أن يتحدثوا في كلامهم أو يجعلوا عباراتهم تنحني في أفواههم قبل أن تخرج .

وهناك حادثة مشهورة منذ مائة سنة عندما حاول أهل هذه المنطقة أن يقتلوا السفير البريطاني لأنه صعد إلى قمة جبل فوجي دون أن ينزع حذاءه ، ودون أن ينحني قامته الطويلة عند كل خطوة يخطوها .

وابن بطوطة يحكى أنه هو الآخر عندما ذهب إلى جبل آدم في جزيرة سيلان لاحظ أن الناس هناك قد غضبوا منه لأنه لم يظهر الإحترام الكافي لقمة آدم . . وهي المكان الذي وطئته قدم أبينا آدم عندما نزل من الجنة !

وهؤلاء اليابانيون كانوا يعبدون الإمبراطور . . وكان لقب الإمبراطور هو ابن السماء . . والديانة اليابانية واسمها «الشتوية» تقوم على تقديس الشمس وتقديس ابن الشمس وتقديس رغباته وتقديس كل حاكم وكل أب وكل جد وكل ما هو قديم . . ولذلك كان الإمبراطور إلهاً ، فكانت رغبات الإمبراطور فرضاً مقدساً . . وقد اعتمدت الحكومات اليابانية على هذا الدين وسخرت الشعب الياباني في خدمة أغراض الإمبراطور ، ونظمت الجيوش واعتمدت على كل الشعوب المجاورة لها .

ولو رأيت أهل اليابان ورأيت رقتهم وأدبهم ودقتهم ، وإخلاصهم في العمل

وتفوقهم في كل شيء ، لاندهشت . . كيف كانوا وخوشاً في الحرب الماضية والتي قبلها . . لقد سمعت قصص الوحشية اليابانية في أندونيسيا وفي الفلبين وفي سنغافورة وفي هونج كونج وفي الصين وفي الملايو وفي فيتنام وسمعت ، وأنا في استراليا ، فزع الناس من العدوان الياباني ، وسمعت عن الوحشية اليابانية في جزر هاواي . . سمعت ذلك من اليابانيين المقيمين هناك .

ولكن دين اليابان يأمرهم بطاعة الإمبراطور الذي هو ابن الشمس . . وقد أمرهم الإمبراطور أن يحاربوا . فحاربوا . وأن يقتلوا وأن يذبحوا وقد فعلوا كل هذا . . لأن طاعة الإمبراطور من طاعة الله . . واليابانيون فدائيون جداً . وبعد الإحتلال الأمريكي تغير كل شيء ، لم يعد الإمبراطور إلهاً . . لقد رأيت الإمبراطور يفتتح دورة رياضية فضجت السينما بالضحك من الإمبراطور وهو يتهته (على فكرة : التقاليد في بريطانيا تقضى بأن الملكة أو الملك لا يلتقي خطاب العرش لأن ملوك بريطانيا كانوا من أصل ألماني وكانوا لا يعرفون الإنجليزية وكانوا يخشون أن يشعر الشعب البريطاني بأنهم أجانب . .) .

وقد نشرت الصحف أن الإمبراطور في إحدى الحفلات سقطت من يده زجاجة شمبانيا لأنه يرتجف ولأنه مريض . . وقد سمعت المرشدة السياحية تسخر من الإمبراطور وتقول : إنه لم يعد إلهاً . . وسمعتها تقول علناً : إن الشعب الياباني يدين بشيئين لأمريكا : تحرير العقيدة وتحرير المرأة ، فلم تعد هناك ديانة رسمية للدولة ولم تعد المرأة خادمة للرجل .

ومع ذلك فإن اليابانيين يكتبون كل يوم ، في كل الكتب والصحف والخطابات التاريخ الإمبراطوري . . فالعالم كله الآن يمشى على التاريخ الميلادي أو الهجري . . أما في اليابان فهم يقولون : نحن في السنة الرابعة والثلاثين . . أي السنة الرابعة والثلاثين لحكم هذا الإمبراطور ، وعندما يموت هذا الإمبراطور ويخلفه ابنه يصبح الياباني هكذا : نحن في السنة الأولى للإمبراطور رقم ١٢٥ ، ولم يغير اليابانيون هذا التاريخ بعد !

كان الإمبراطور محرمًا على كل الناس لا يلمسه أحد ، ولا يسلم عليه أحد . . والناس لا يرونه ، لأنهم يخشونه دائماً . . وقطار الإمبراطور عندما يمر على المحطات ، فإن كل البيوت يجب أن تقفل النوافذ ويجب ألا يكون في العاصمة

بيت أعلى من القصر الإمبراطورى . والإمبراطور يرتدى ملابسه مرة واحدة ثم
ينزعها ويهدبها إلى أشد المخلصين له !

ستجد اليابان أعجب جداً مما تقول كتب الدعاية ، وستجد أن الشعب
اليابانى متقدم جداً ومتواضع جداً ومتأخر جداً ، ومغرور جداً . .
واليابان أربع جزر صغيرة هى : هوكيدو وهونشو وتوجد بها العاصمة
وكيوشو وشوكوكو . .

وليس فى اليابان جاهل واحد . . والتعليم إجبارى حتى آخر المرحلة الثانوية .
وكنت أتصور أن لسويد هى أرقى بلاد العالم ، ولكن الأرقام تقول إن بها ١٪
لا يقرأون ولا يكتبون . تصور ! . واليابان فى مقدمة شعوب آسيا وفى مقدمة
شعوب العالم كلها . وكثيرون جداً جداً من خريجي وخريجات الجامعات يكتسبون
الأرض ويمسحون البلاط .

قابلت شاباً يعمل فى مطعم متواضع جداً فى طوكيو ، وقد انحنى على خدائى
ينظفه وتركت له الخذاء ، وانحنى على شيشب يقدمه لى . . ثم أسرع وأتى بمخدة
ووضعها ورأى ، وجلس على ركبته وفى يده ورقة يكتب ما أريد من الطعام ،
والشاب مهذب ورقيق ويعرف بعض الإنجليزية وعرفت فيما بعد أنه خريج كلية
الحقوق وأن مرتبه خمسة جنيهات . وأن مثله عشرات الألوف .

وهنا فى اليابان لا يرون من الضرورى أن الطبيب يعمل طبيباً ، ولا دارس
القانون محامياً ولا المهندس مهندساً . . وإنما هو يدرس ما يعجبه أو ما يستريح
له ، وبعد ذلك يبحث عن أى عمل .

ويكفى أن يرى السائح الأجنبى مدينة طوكيو ويرى شوارعها الواسعة ومحلاتها
الأنيقة المتوهجة ، ويكفى أن يرى النظافة والنظام ، وأن يتطلع إلى الناس
كلهم فى ملابس ملونة وصحة جيدة ، ووجوههم لا تكف عن الضحك . .
والضحك هنا علامة من علامات الأدب والإحترام . وكلما أمعن الواحد منهم
فى الضحك وهو يتحدث إليك ، كان معنى ذلك شدة اهتمامه بك ، حتى
إذا لم يفهم ما تقوله أنت (فى أندونيسيا والفلبين والملايو كذلك) ، وكل الناس
هنا يضحكون لك . . فى طوكيو وفى الريف . . بل هم فى الريف يضحكون
أكثر وأكثر .

لقد كنت في مدينة «توبا» في جنوب اليابان وهي مدينة صغيرة ، ونزلت في أحد الفنادق ، لا أحد فيه يعرف لغة أخرى . . وكلما تحدثت مع خادمة – كل الفنادق تديرها الفتيات الصغيرات جداً – أغرقت في الضحك كلما حاولت أن أفهمها بالإشارة ما أريد ضحكت ، وراحت تأتي بزميلاتها . . . وفوجئت بأن كل الخادومات قد وقفن طابوراً يضحكن على الحاوي – الذي هو أنا – وأنا أمسك الكوب الفارغ وأحاول أن أشرب وأصرخ من شدة البرد . . . وبالاختصار أريد أن أقول لها : عاوز أشرب شاى . .

وإذا سافرت إلى نجازاكي أو هيروشيما – وهما المدينتان اللتان ضربتا بالقنابل الذرية – فلن تصدق عينيك . . فكل شيء جديد . . العمارات والمحال والشوارع ، حتى الناس قد ولدوا وتربوا وكبروا وتعلموا في أماكن أخرى وعادوا إلى الحياة من جديد. هذه اليابان كلها هدمت ، أحرقت . . ضربت في الحرب الماضية . . ولكن اليوم كل شيء جديد . . كل شيء صنعه اليابانيون بأيديهم وبأموالهم وبذكائهم وذوقهم ، وهم أصحاب ذوق جميل . .

وشيء واضح تجده في اليابان ، وهو أنهم تمسكوا بالقديم ولكن هذا القديم أدخلوا عليه تعديلات مذهلة ، فهم يلبسون الكيمونو وهو الفستان أو الروب دى شامبر ولكن الألوان الجديدة والأقمشة الجديدة والأحزمة العجيبة والألوان والتفصيلات . . كلها تجددت . . لقد رأيت تسعين عارضة للأزياء في مدينة كيوتو . . كلهن يعرضن أحدث تفصيلات الكيمونو . . لم أروع من هذا العرض في حياتي . . فالكيمونو زى تقليدى . . وخصوصاً الفتيات اللاتي عرضن هذا الزى مع تصفيفة الشعر والمشية بالقبقاب وحركة الأقدام مع الموسيقى واختيار الألوان . . واللون الجميل والأحزمة العريضة والضيقة . . وكيمونو الصباح وبعد الظهر والمساء ، وكيمونو الأفراح والأحزان ، وكيمونو الشابات والزوجات وكيمونو الوداع ، وكيمونو الدلال والدلع . .

واليابانيون يشربون الشاى الأخضر بلا سكر . . وصناعة الفناجين والأطباق والصواني . . وأثاث البيت الياباني البسيط الأنيق الجميل . . كل غرفة لها لون ولها ستائر ومخدات لامعة . . وكل ذلك فن جميل . .

والقبائيب والشباب من أجمل الفنون . صناعتها وأحجامها وأشكالها
وألوانها وأسعارها ومادتها . .

فهم يحرصون على القديم ، ولكن الذوق الجميل لا يجعل القديم جامداً ميتاً .
فالتقاليد موجودة والأساليب الحديثة موجودة . . واليابانيون متفوقون في
هذا كله ، ولم يتركوا شيئاً لم يصنعه بأيديهم . . كل ما تراه عينك من صنعهم . .
عندهم معارض علمية جادة جداً ، وعندهم محلات كثيرة جداً أنيقة جداً رائعة
جداً للعب البلي . . وعلى هذه المحال إقبال لا يمكن أن تتصوره . . وعندهم معابد
كثيرة جداً ، وعندهم كباريات أكثر من أى بلد في العالم . . لقد رأيت في
مدينة كيوتو وهي المدينة المقدسة في اليابان عدداً من الكباريات أكثر من
الموجودة في باريس أو في هامبورج أو مانيتلا . . وكل هذه هي مظاهر الحيوية
في الشعب الياباني .

وكنت أتصور أن أجد عربة الريكشا وهي عربة يجرها رجل ويركبها الناس
هنا لينتقلوا من مكان إلى آخر . . وكنت أتصور الريكشا وقد جلس السائح
وأمسك بيده مظلة كبيرة ، ووضع رجلا على رجل وأمامه رجل عارى الصدر
يجره هنا وهناك ليتفرج على اليابان . . وقد وجدت الريكشا فعلاً ولكن في كل
البلاد الآسيوية ما عدا اليابان . . إنها موجودة في أندونيسيا ، بل هي وسيلة
المواصلات الوحيدة في جاكرتا عاصمة أندونيسيا . . وهي موجودة أيضاً في كل
مدن الهند ، وكل مدن الفلبين ، وفي سنغافورة ، وفي هونج كونج ، وفي
الملايو ، وفي تايلاند ، وفي سيلان ، وفي فيتنام ، وفي الصين . . ولكنها في اليابان
اختفت ، فهنا كل وسائل المواصلات حديثة وقد صنعها اليابانيون - فهنا في
طوكيو مثلاً سكك حديد حكومية وسكك حديد أهلية . . وعشرات الألوف
من شركات السيارات والدراجات والموتوسيكلات والزوارق في كل أنحاء اليابان .
ولا توجد ريكشا واحدة - آسف توجد ثلاث ريكشات في متحف طوكيو !

وكنت أتصور أن أجد اليابانيين يلبسون الكيمونو . . الرجال والنساء . . لم
أجد رجلاً واحداً يلبس الكيمونو إلا في غرفة النوم ، أو في الانتقال من غرفة النوم
إلى دورة المياه . فالكيمونو قد تحول إلى روب دى شامبر . أما المرأة اليابانية فهناك
كثيرات يرتدين الكيمونو وأصبح منظرهن غريباً جداً في شوارع المدن الكبرى .

فبين كل عشر فتيات يرتدين الفستان والبنطلون توجد اثنتان ترتديان الكيمونو . .
وبين كل عشر فتيات حلقن شعرهن على الطريقة الأوربية . . توجد واحدة
شعرها طويل ومسترسل على ظهرها ، واحدة شعرها طويل معقود وراء رأسها . . .
والسبب هو أن الفتاة اليابانية قد دخلت الحياة بصورة مشرفة للمرأة . .
فالفندق الذى أنزل فيه واسمه «دايتشى» ومعناه «الدرجة الأولى» أو «الفندق البريمو»
لا يوجد به رجل واحد . . فالإدارة بنات ، والشبالات بنات . وعلى فكرة يوجد
شبال واحد فى جميع محطات سكك حديد طوكيو - وفى الأسانسير والمطبخ
والغسيل والمكوى بنات . . فى كل الفندق بنات ولا تزيد أعمارهن على ٢٠ سنة .
وكذلك دور السينما والسكك الحديدية والترام والزوارق والمعارض والمطاعم والمقاهى
والكنس ومسح البلاط . الفتاة اليابانية تعمل فى كل شئ .. والكيمونو لا يساعدها
على الحركة ، فألقت الكيمونو وارتدت البنطلون والقميص أو الفستان ، ومعظمن
يرتدين الجوب والبلوزة . . والملحلات الكبرى مثل عمر أفندى أو شيكوريل كلها
بنات . . ولا تجد رجلا إلا نادراً جداً . . حتى البارات والكباريات كلها بنات .
ومحلات الشاى كلها بنات . .

الحقيقة أن المرأة الآسيوية أحسن من المرأة الأفريقية ، والمرأة اليابانية أحسن
امراً فى آسيا .

وكنت أعتقد أن أجد الجيشا فى الشوارع ، وفى الحدائق يركبن عربات
الريكشا . . وكل واحدة قد عقدت شعرها الأسود الطويل الناعم حول رأسها
ومن هذا الشعر تخرج الورود والآلى . وفستانها الكيمونو الطويل قد ضغط عليها
وعصرها وكاد يخرج أحشاءها لولا أنها غطت هذه الأحشاء بحزام عريض
لونه أحمر . . وكنت أتصور قبقابها الصغير الذى يصلح لطفل صغير ، وابتسامتها
المرسومة على شفثيها الرقيقتين ، وعينيها المنحرفتين تنظران ناحيتي وكانهما
تنظران إلى كل شئ عن يميني وعن شمالي أما أنا فكأنتى غير موجود . .
لم أجد فى طوكيو جيشا واحدة فى أى شارع ولا أى مطعم ولا أى بيت . .
اختفت الجيشا من حياة اليابان كلها . .

فعندما صدر قانون إلغاء البغاء فى اليابان فى أبريل سنة ١٩٥٨ تضمن هذا
القانون إلغاء نظام الجيشا . وانددهشت عندما علمت أن القانون يجمع بين الجيشا

وبين البغايا . . ولكن الدولة لم تلغ البغاء - ولن تستطيع - ولكنها اعترفت بنظام البغاء ، وبقى البغاء كما هو . . ومنذ أيام صدر بحث علمي يهتم الحكومة بأنها هي المسئولة عن انتشار الأمراض الخبيثة ، فلا البغاء اختفى ولا نظام الجيشا اختفى أيضاً .

ونظام الجيشا قديم جداً في اليابان ، إنه يرجع إلى حوالي ألف سنة . فتاة الجيشا فنانة أولاً ، تعرف الرقص التقليدي والغناء ، وتحسن الكلام ، وقادرة على تسلية الضيوف . وهي تتعلم هذا الفن وهي طفلة صغيرة . وكلمة «جيشا» مأخوذة من كلمتين : جى ومعناها فن ، وشا ومعناها صاحبة أى صاحبة فن أى فنانة . ومنذ مئات السنين كانت فتيات الجيشا يعشن في قصور الملوك والأمراء والأغنياء . وعندما يقيم الأمير أو الرجل الغني حفلة غداء أو عشاء فإنه يدعو فتيات الجيشا . . فتيات جميلات قادرات على إدارة الحديث ، وتقديم الطعام وإشاعة المرح والجمال في الجلسة . . فقط ، نعم فقط . . فكل مواهب الجيشا هي في أن تقوم بدور المضيئة الممتازة .

وبعد ذلك انتقلت الجيشا إلى العمل خارج بيوت النبلاء والأمراء ، ففي اليابان بيوت الشاي - « المشهى » على وزن المقهى وهذا التعبير من عندي ولم أستاذن فيه المجمع اللغوي - حيث توجد الحياة الاجتماعية اليابانية . . ويلتقي الناس ويتحدثون . فالمشهى يشبه المقهى المحترم أو يشبه النادي العائلي . . وصاحب المشهى لكى يجذب زبائنه إلى التردد على هذا المشهى يدعو الجيشات لتقديم الشاي . . وبعد أن يقدم الشاي والغناء والموسيقى ويتحدثن في السياسة والأدب والفن ، يعدن إلى بيوتهن ؛ وعلى الزبون أن يدفع لصاحب المشهى مبلغاً نظير وجود هؤلاء الجيشا . وإذا أراد من الجيشا أن تبقى وقتاً أطول كان عليه أن يدفع أكثر وأكثر . وقد دفعت مبلغ ثلاثين جنياً لكى أجلس مع ثلاث جيشات . . أقوم أنا وصدیق آخر بدور الزبائن تمهيداً لتصويرها . . وبدأت الحفلة - طبعاً حفلة - بأن ذهبنا إلى أحد المشاهي في حى أساكا في مدينة طوكيو ، والمشهى عادى جداً من الخارج . . مدخله من الخشب وعلى الباب بعض الأشجار وصف طويل من الشباشب ، وقد تعودنا على هذه المناظر . وزرعنا أحذيتنا وكادت أقدامنا ترتطم ببعض الرعوس التي انحنت إلى مستوى الأحذية . . إنهن خادמות بيت الشاي

قد سجدت نحية لنا . . وبعد السجود بدأ الركوع وبعد الركوع بدأ الانحناء بالرأس . . وأخذت الخادومات أحذيتنا والبلاطى والمجلات . . وصعدنا سلماً من الخشب النظيف اللامع جداً . وفى الدور الأول فرشت الحصيرة اليابانية الدقيقة . وأما أبواب البيوت اليابانية فهي لا تفتح إلى الداخل أو الخارج وإنما تنزلق على مجرى وتلتصق بالحائط . . والبيت اليابانى بسيط جداً . . كله من الخشب والورق . . والتوافذ خشب . . ويغطيها الورق الأبيض المقلّم أو المشجر . . وعلى الرغم من أن البيوت كلها من الخشب فعلم الكبريت متناثرة فى كل بيت وكل غرفة وكل مطعم وكل فندق وفى السيارات التاكسى وكلها مجاناً . . لأنها جميعاً إعلانات . .

وفى جانب من الغرفة توجد منضدة واطئة وأمامها شلت . . وجلسنا متربعين . وبعد لحظات حضرت بنات الجيشا . . ويجب ألا نقف أو نتعب أنفسنا . . وقد سجدت كل واحدة منهن على الأرض ووضعت يديها أمامها . . وجلست كل واحدة منهن إلى جوار واحد منا . . وبدأت حفلة الغداء ، كل واحدة قدمت لنا الشاى الأخضر . . والشاى فى فنجان ، ومع كل فنجان ليس له أذن الانحناء تكسر الظهر . . — إنحناء منها طبعاً . ويجب أن تشرب الشاى لأنها مسألة ذوق ، ثم إن الجيشا شكلها لطيف ، يعنى حلاوتها انتقلت إلى الشاى . . اشرب . . اشرب . . وقد شربت براداً .

وفى هذه الأثناء تتناثر على المنضدة أمامنا فناجين وطاقيق وقصارى — قصارى أطفال صغار — وأنصاف أكواب وثلاثة أرباع أطباق ، وفيها جميعاً سوائل غريبة اللون . . وقبل أن تمد يدك يجب أن تمسك الفوطة الساخنة التى أحضرتها الجيشا لكى تمسح يدك وأنت جالس — كما يحدث فى الطائرة عادة — وبعد ذلك عليك أن تأكل بالعصا . . لا ملاعق ولا شوك ولا سكاكين . . وإنما عودان من الخشب يجب أن تمسكهما بيدك اليمنى كأنهما مقص سقط مساره ، وعليك أن تتناول بهما الأرز واللحم والسّمك . . طبعاً المحاولات فاشلة ، فأكلنا بالشوك والسكاكين . . وبنات الجيشا يضحكن عند كل حركة وكل لقمة وكل مضغعة ولم أجد واحدة منهن عند كل مغص شعرت به بعد ذلك !

وأنا أترجم لك هذه الأدوات الغريبة : كلها أطباق وسلاطين ، أما السوائل فهي شوربة أم الخلول وشوربة الجمبرى وشوربة أبو جلامبو . . وأما اللون الأحمر في كل هذه الشوربات فهو بصل محروق بالسكر . . وأما هذا الأبيض الواضح جداً فهو أرز مسلووق ومن غير ملح . . وأما هذا الأصفر الذى يشبه البصارة إذا وضعت فيها بعض الكركم ، فهو عصير الجمبرى مع بعض السك النقي . . نسيت أن أقول إن كل هذا الأكل كان بارداً جداً .

والتقاليد تقضى بأن الجيشا لا تأكل ولا تشرب إلا بعد أن تكون أنت قد ملأت بطنك . وأما إذا لم تملأ بطنك – مثلنا جميعاً – فهي تغضب وتأخذ على خاطرها . . ولو عرفت كيف أنها تغضب لامتنعت عن الأكل نهائياً . . إنها تجلس إلى جوارك وتمايل عليك وتطبطب على خدك وعلى كتفك إلى أن تتقاسم الأكل بينك وبينها . . ملعقة بملعقة . . نصف الملعقة لها ، ونصفها الآخر لك . هذه هي التقاليد . . وليست هذه معاملة خاصة لشخصى .

وبعد الأكل قامت ورقصت وغنت . أما الرقصة فلها قصة . . وقى قصة فى وفاة فى حالة حب شديد . . وخرجنا فى الليل يصيدان الفراشات الصغيرة فى ضوء القمر . وكل واحد منهما يحاول أن يمسك الفراشة بيده دون أن يقتلها . . وفى كل مرة يمسك الشاب فراشة يلاحظ أن عشرين فراشة أخرى قد ظهرت تحت ضوء القمر . . ويكتشف أن السبب هو أن أنفاس حبيته تتحول إلى فراش تحت ضوء القمر . . وعلى ذلك فن الأفضل له أن يمسك أنفاس حبيته . . . ويمسك أنفاسها بضمه – هذا الجانب من الرقصة لم أراه وإنما قرأت عنه فقط !

وكانت تجلس معنا على نفس المائدة صاحبة المشهى وابنتها . . أما فتيات الجيشا الثلاث فأسمائهن : فوميكو وشودايايا وأرميتا . . ١٩ سنة و ٢٠ سنة و ٢٩ سنة . والأولى تظهر فى التليفزيون . . وكان فى نيتى أن أداعبها وأهدبها فرشة أسنان لولا أننى وجدت أنها نكتة سخيفة وقاسية جداً ، وربما كان صفار أسنانها لأسباب فنية ، فقد لاحظت اختفاء اللون الأصفر من فستانها وشعرها.. فربما كان السبب هو إكمال مجموعة الألوان !

والتجار عندما يعقدون الصفقات المالية يذهبون إلى بيوت الشاى . وكانت

الجيشات فيما مضى يلعبن دوراً سياسياً ، كدور العشيقات في أوروبا .
وحتى الوفود الرسمية عندما تحضر إلى طوكيو تدعوها الحكومة اليابانية رسمياً
لزيرة أحد المشاهي والجلوس إلى الجيشات . . وهذا تقليد معترف به ومحترم هنا .
وكان الزمان المحدد لهذه الحفلة ساعتين . وبعد ساعتين وأربعين دقيقة اعتذرت
الجيشات وخرجن في سجد وركوع وانحناء . . وبعد ذلك جاء الحساب .
أولا حضور الجيشا وتشريفها مجلسنا هذا يساوى خمسة جنبيات ، ثم ثمن
الطعام وتقديم الطعام والضرية وإيجار الغرفة والتأخير الذي حدث بعد الزمن المحدد .
وقد قالت لى لإحدى الجيشات : نفسى أشوف القاهرة .

قلت : أهلا وسهلا . . .

قالت : على حسابك . . .

قلت : هناك ما هو أصعب .

قالت : ماذا ؟

قلت : المسافة بيننا وبين القاهرة الآن حوالى ٤٨ ساعة بالطائرة و٤٨ يوماً
بالبخرة . . . وإذا كانت الساعة التى أشرف فيها بالجلوس إليك ثمنها عشرة
جنبيات . . . فأنا لا أستطيع . . . ولكن سأطلب من القراء أن يساهموا فى دعوتك
إلى القاهرة ولو ساعة . . حاضر من عيني دى وعيني دى .

وعدد الجيشات فى طوكيو قليل جداً . . والحياة الحديثة والكباريهات الأنيقة
المغرية قضت على هذا النوع من الحياة القديمة . . ولكن الأغنياء السياح هم
الذين يحرصون على رؤية الجيشات .

ومركز الجيشات فى اليابان كلها هو مدينة كيوتو . . وهى تبعد عن طوكيو
حوالى ٣٠٠ كيلو وكانت العاصمة القديمة لليابان مئات السنين . . أما طوكيو
- ومعناها العاصمة الشرقية - فهى لم تصبح عاصمة إلا أخيراً . ومدينة كيوتو لم
تتحطم أثناء الحرب ، ففيها أكثر من ثلاثة آلاف معبد بوذى ومعبد شنتوى .
ومدينة كيوتو مدينة سياحية أيضاً . وفى كيوتو محطة كبيرة جداً . . وبهذه المحطة
عشرات المحلات التجارية للصناعات اليابانية ، وهذه المحلات تشغل الطابق العلوى
لكل المحطة ، وفى هذه المحلات توجد الصناعات الخشبية التى برع فيها أهل اليابان

وتوجد المنتجات الرخيصة جداً . وقد لاحظت أن هناك عدداً من الراديوهات الصغيرة - وهي الموجودة الآن - وأن هذه الراديوهات لم نرها في طوكيو ، وعرفت أن هناك شركات كثيرة في اليابان لصناعة الراديو . . وهي تشبه شركات بيع المياه الغازية في القاهرة . . وأشهر وأكبر محل في كيوتو وهو مكون من أربعة أدوار صغيرة جداً ، هذا المحل للعب البلي .

وفي مدينة كيوتو صناديق الليل - آسف إنها « علب كبريت » الليل - لأن البارات هنا صغيرة جداً كالواحد لا يزيد على حجم سيارة أتوبيس إذا وقفت على بوزها . . الدور الأول بار زالدور الثاني غرفة للنوم . وفي غرفة النوم هذه تسمع صوت فتاة تقرأ بصوت عال . . إنها تذاكر وتحاول أن تعزل نفسها عن أصوات الذين يشربون الخمر في الدور الأرضي . .

ملحوظة : اليابانيون لا يتحدثون ولا يضحكون بصوت عال أبداً . . حتى لو كانوا سكرانين طينة . . . أدب !

وهذه « العلب » الصغيرة عددها عشرات الألوف هنا . . .

وفي مدينة كيوتو يوجد حي «جبون» أو حي «شيون» . . وهو أغرب أحياء اليابان كلها . . كل هذا الحي تسكنه بنات الجيشا . . عدد الجيشات هنا ٥٠٠ فتاة من بينهن على الأقل ٢٠٠ فتاة حلوة في سن العشرين . وأستطيع أن أقول إننى رأيت منهن حوالى ٩٠ جيشا جميلة . . لقد ترددت على أكثر من ١٥ بيتاً من بيوت الشاي ، بقصد الفرجة ، وكتابة هذا الكلام .

كانت الساعة التاسعة صباحاً . . ومعى صديق وثلاث آلات تصوير . ألوان ومن غير ألوان . . هو يسعل من البرد وأنا أعطس . . والشمس تطلع وتختفي . تطلع فيختفي الزكام ، وتختفي فيطلع الزكام من عيني . . البيوت كلها مقفلة . . البيوت خشبية . . والنوافذ مجموعة من الأعواد الخشبية ومن ورائها تتحدث النساء . . لم نر رجلا ولا طفلا ولا امرأة . . كل البيوت مقفلة . . والدنيا برد . . ذهبنا إلى أحد المطاعم وشربنا الشاي والناس يتشاءون ، وفي الساعة الحادية عشرة بدأت البيوت الخشبية تفتح أبوابها . . كأنها هي الأخرى نائمة ، وكأن أجفانها ثقيلة . . على الأبواب توجد علامات غريبة . . علامات مطبوعة . . زرقاء وحمراء وبيضاء

ومكتوبة باليابانية . . وكلها خارج البيت . . حتى إذا جاء موظف النور لا يوقظ أهل البيت الذين لا يصحون إلا في الثانية عشرة . . لأنهم طول الليل يشربون ويرقصون ويغنون . . كل الناس هنا هكذا .

وبدأت الخادومات يجمعن الزبالة وبدأت محلات الفاكهة تضع الأقفاص أمام الأبواب . ويوجد في كويتو جزيجي واحد لأنه لا يوجد أحد يرتدى الأحذية فالنساء يرتدين القباقيب . . وعلى رأس كل شارع يوجد « قبقجى » وأمامه طواير من القباقيب .

وبيوت الشاى أو المشاهى هنا ليس لها عدد . . فكل بيت هو في نفس الوقت مشهى . . وهذه تجارة مربحة فقد لاحظت أن أصحاب هذه البيوت لهم سيارات كبيرة وعندهم أجهزة تليفزيون ويضعون في أصابعهم الخواتم الذهبية وفيها حبات من اللؤلؤ . . وبعضهم يدخن السجاير الأمريكية الغالية .

وفي الساعة الواحدة بدأت فتيات الجيشا يخرجن من البيوت . . فتيات الجيشا هنا يرتدين الكيمونو والقباقيب . . ورأسها كبير ، والشعر على رأسها في حجم البطيخة ورأسها أثقل من جسمها ، والكيمونو ضيق وخطواتها ضيقة ، وحتى لا يتكسر الكيمونو فإنها لا تجعل قدميها تفتحان إلى الخارج وإنما تجعلهما تتجهان إلى الداخل . . فهى تمشى تففز أو تنط وتكاد ساقاها تلتف الواحدة على الأخرى . . والبودرة أو الجير الذى وضعته على وجهها وخصوصاً قفاها ، ثقيل جداً كأنها نامت طول الليل في شوال دقيق ، وأما رأسها فوضعته في حلة كحل . . والجيشا إذا نامت فهى تضع رأسها على مخدة مستديرة تشبه جذع النخلة والمخدة محشوة بالأرز ، غير المسلوق . . والمخدة تستقر تحت رقبها . والسبب هو أنها تخاف على تسريحة شعرها أن تفسد . . فالتسريحة غالية .

وأول شيء عمله فتاة الجيشا . . هو شعرها . . تسرحه وتضع عليه بعض الزيوت التى تجعل الشعر مشدوداً واحدة واحدة . . ثم تضع البودرة أو هذا الجير على وجهها . . وبعد ذلك يجيء شيء هام هو اختيار الكيمونو المناسب . . إن أية فتاة ترتدى فستاناً وتدور وتلف به أمام المرأة وتطلع فوق الكرسي وأحياناً فوق السرير لكى ترى حذاءها الجديد في المرأة . . ولكن الجيشا مشكلتها أصعب ، فهى لا تختار الكيمونو وإنما تختاره لها سيدة كبيرة ، كانت فيما مضى فتاة جيشا . .

ولكنها الآن قد قصت شعرها واكتفت بخدمة الجيشات . . وقد تستغرق عملية الاختيار ساعة أو أكثر . . وقد تشترك فيها بنات الجيران . . والجيشا ترتدى الكيمونو وتحته قميص حرير وردي أو لونه بلغة الفلاحين كلون لحم الهوامم وكل بنات الجيشا يخرن هذا اللون. . . وتحت القميص واحد أخسر أبيض وشفاف جداً . . إلى هنا وبس !

وأول عمل تقوم به الجيشا بعد ذلك هو أن تذهب إلى المشاهي التي كانت معزومة فيها في اليوم السابق وتفتح الباب وتنحنى وتشكر صاحبة المشهى على عزومة الأمس . . وهي في الطريق تتعرض لعيون الناس . . وهي تجربة صعبة . . ولسان الناس طويل وقد سمعت بعض الناس يقولون :

دى مش شايقة . . يعنى كان لازم تنقل في الشرب . . دى نخينة ورجلها كبيرة !

وبين الحين والحين تتلفت حولها وتنحنى راكعة . . مع أنه لا يوجد أحد في شارع أو في باب أو في شبك . . ولكن يوجد معبد صغير أمام بعض البيوت وهذا المعبد لا يزيد على صندوق الكوكا كولا . . ومعظم البيوت في اليابان بها معابد خاصة للصلاة . . ويوجد أحياناً معبد لدينين مختلفين ، كل ذلك في بيت واحد . . وكل أفراد الأسرة يصلون في المعبد معاً .

وعدد السيارات التي تنتظر الجيشات كثيرات . . فالجيشات مدعوات على الغداء أو على الشاي أو على العشاء .

وقد خرجت مع اثنتين من الجيشات وذهبت إلى إحدى الحدائق العامة . ولم يدر ببالي أنه اليوم كان عطلة رسمية وكل الناس خرجوا لهذه الحديقة . . وكل واحد معه كاميرا . . فالكاميرات رخيصة في اليابان . . وكل الناس ينحنون لى ويستأذنون في تصوير بنات الجيشا . . كل ذلك في مدينة كيوتو وهي مركز النشاط الجيشى في كل اليابان . . ومعنى ذلك أن الناس لا يرون الجيشات عادة . . لأن الجيشات يعملن في الليل ، وفي المشاهي ، ولا يخرجن إلى الشارع إلا نادراً وإلا في ظروف خاصة .

وقد لاحظت أن هناك عدداً من بنات الجيشا يجلسن صامتات . . لا يتكلمن مع الضيوف . . وظننت أن السبب ربما كان اللغة . . فنحن لا نتكلم مع الجيشا

إلا عن طريق مترجم . . ولكنى رأيت الزبائن كلهم من اليابانيين . . أما السبب فهو أن كل شيء له ثمن . . فالجيشا إذا جلست فقط دون كلام فلهذا ثمن ، وإذا تكلمت فله ثمن ، وإذا أكلت فله ثمن ، وإذا رقصت ، وإذا غنت . وإذا خرجت مع الزبون ، وإذا تفسحت على الآخر . . فالثمن غال جداً .

وفي كيوتو مدرسة لتعليم الجيشا . . ويبدأ التعليم في الثالثة من العمر وأحياناً من الخامسة . وتعليم فتاة لكي تكون جيشا في اليابان يشبه تعليم فتاة لتكون ممثلة في أمريكا . . لا عيب فيه ، بل إنه نوع من التأهيل المهني . . والفتاة الصغيرة تتعلم الرقص والغناء وتقديم الطعام والانحناء للضيوف . . وكل الأطفال في اليابان حتى في السن التي لا يعرفون فيها المشي ينحنون تحية وشكراً .

أذكر أنني أعطيت طفلاً تحمله أمه على ظهرها بعضاً من حبات أبو فروة وشكرتني الأم . . ودار بيننا وبين طفلها كلام لا أفهمه . . ثم صارت تصرخ والطفل لا يستجيب وأخيراً أنزلت الطفل من فوق ظهرها ووضعت على الأرض . . وكانت المفاجأة . . أن الأم تسند الطفل حتى لا يقع وهو ينحني انحناءة كاملة ليشكرني !

والانحناءة فن مؤلم . . لقد انكسرت ظهورنا هنا من رد التحيات رغم أننا نصهين كثيراً جداً .

ولا تزال مدينة كيوتو هذه تحتفظ بتقاليدها القديمة . . فالفوانيس في الشوارع كرات حمراء من الورق الرقيق . . والبيوت تشبه الدكاكين . . وأبوابها عريضة ولا يقفلونها . والمعابد كثيرة . . وكل من يدخل المعبد تصفق يديه لكي ينبه إلى أنه قد حضر . . ثم يمسك في يده مقشة ويهزها . . وهذه المقشة تكنس متاعبه وهمومه .

والفنادق كلها نوم على الأرض . . والحمام الياباني مؤلم جداً . . فهو عبارة عن حوض كبير تمتلئ بالماء الساخن . . ويجب ألا تنزل في الحوض . . وإنما تمسك علبة خشبية . . وتضع فيها بعض الماء الساخن ثم تضع عليه بعض الماء البارد وتصب على رأسك . . وكلما فرغت العلبة أعدت هذه العملية من جديد . . أما القوطة فهي صغيرة في مساحة هذه الصفحة . . ويجب ألا تنزل في الحوض ،

لأنه ليس لك وحدك وإنما لكل نزلاء الفندق . . . وإذا أصابك برد لأي سبب ،
والأسباب هنا كثيرة : كالنوم على الحصيرة والحفاف القصير ، والمخدة الصغيرة
الجافة والمحشوة أرزاً يابساً ، والأكل البارد ، والزكام المزمّن عند كل الجيشتات . .
فالعلاج بسيط جداً هو أن تنام وتغطي رأسك بالحفاف وتضع المخدة فوق الحفاف
وتكتم أنفاسك . . . واليابانيون يؤكّدون أن البرد يخنق حتماً بعد ثلاث ليال .

وفتاة الجيشا في كيوتو لا تكسب كثيراً ، إن دخلها في الشهر الواحد لا يزيد
على عشرة جنينيات . . أما الذي يفوز بالنصيب الأكبر فهو صاحب المشهى . .
ثم إن فلوس الجيشا كلها ضائعة على فساتينها وعلى شعرها وعلى المساحيق البيضاء
والحمراء وعلى القباقيب . . .

وبعض بنات الجيشا يتزوجن من بلطجية ، وطبعاً تستمر حياتهن الفنية . .
وهي ليست فنية جداً كما كنت أتصور !

ولكن لا شك في أن البنات حلوات ورقيقات وفي غاية الأدب . . ومن السهل
أن تأخذ الواحدة منهن عليك فلا تمضي ساحة حتى تكون كأنها تعرفك من عشرات
السنين . .

وعندما خرجت من المشهى مدت كل جيشا يدها ووضعت أصبعها الأصغر
حول أصبعي الأصغر وقالت :
اتفقنا . . .

ولم أفهم . فهذا يشبه الحصام عند الأطفال . . ولكن عرفت أن هذا معناه
الاتفاق في اليابان وأن الذي يخجل بالوعد فستنكسر أصبعه ولو بعد حين . .
وفي اليوم التالي ذهبت لتوديع الجيشا ، لا لأنني أخاف على أصبعي ولكن
لأنني سلمت على بنات الجيشا بكلتا يدي وأنا أخاف أن أفقد يدي بعد سفري
من كيوتو !

فأنا لن أستطيع الوفاء بكل ما وعدت به بنات اليابان وبنات البلاد الأخرى !

● بلد الرجال أيضا!

أنت لم تر أجمل ما في آسيا إذا لم تذهب إلى اليابان . . أنت لا تقدر معنى الذوق الجميل في اللبس والنوم ، في البيت وفي الشارع ، إذا لم تذهب إلى اليابان . . أنت لا يمكن أن تتصور كيف أن شعباً « محتلاً » يستطيع أن يصنع المعجزات ويتحول من تجار أسماك إلى تجار قطارات وسفن وراديوهات ، إذا لم تذهب إلى اليابان . .

أنا لم أعرف أن طفولتي كانت تعيسة ، وأنها كانت كطفولة الدجاج في الحارة أو الكلاب الضالة إلا عندما ذهبت إلى اليابان ، فقد رأيت أسعد طفولة . . رأيت أطفالاً في ملابس رجال ، ورأيت رجالاً في سعادة الأطفال .

* * *

اليابان بلد الرجال . الرجل فيها محترم جداً . . والمرأة مكانها في الدرجة الثانية في المدن ، والثالثة في الريف والرابعة في الجبال . .

ولكن المرأة اليابانية هي أطيب امرأة في العالم كله . تقنع بالقليل ، الكلمة تكفي ، الانحناءة تكفي ، جانب من المتعة ، جانب من الفراش ، جانب من اهتمامك ، كل هذا يرضيها . ولذلك فالرجل الياباني لا يتعب كثيراً في حياته الزوجية . فزوجته تنتظره دائماً ، راكعة على ركبتيها حتى يعود من العمل . لا تأكل إلا إذا جاء ، وإذا جاء أكلت بعده . إنها تطعم زوجها ثم الأولاد الذكور . . وبعد ذلك الإناث . . وتأكل هي ما تبقى من أفراد الأسرة كلها .

وإذا دخل الزوج الحمام سبقته إلى الحمام لتعد له الماء والفيقاب والكيزان ، وبعد ذلك تنحى في أدب وكسوف وكان زوجها رجل غريب وكأنها خادمة عنده ويدخل الزوج وتقف هي وراء الباب تنتظر أوامر الزوج ، ولو « سهاها » الزوج ومات فإنها لن تدخل الحمام إلا إذا ناداها من الداخل !

ويحدث في كثير من الأحيان أن الزوج عندما يموت لا تدخل الزوجة غرفته إلا إذا طلب إليها أحد أقاربه أن تدخل . .

وربما كان سبب ارتفاع نسبة الوفيات بين الرجال ، هو أن عزرائيل عندما يتقدم ليقبض روح الزوجين ، تتأخر الزوجة ، فيموت زوجها في الأول !

ومهمة المرأة اليابانية ثقيلة . . إنها تقوم بكل شيء في البيت ، وخارج البيت . . فهى الزوجة وهى الأم وهى المريية التى تشتري وتبيع وتنتظر الزوج وكأنها لم تتعب ولم تنزعج ولم تدخل . ويحجى الزوج اليابانى مكشر الوجه لتستقبله ابتسامة عريضة على وجه الزوجة ، وليس من المفروض أن الزوج يرد على هذه الابتسامة بابتسامة أخرى أكبر أو أعرض . وإنما عندما يراها يزداد تكشيره . . كأنه يقول لها : إنت نايمة طول النهار وأنا دايع . . اضحكى يا اختى اضحكى . . ضحكك لك السنبله والضربة المستعجلة - شتيمة ريفية تذكرتها في اليابان !

والزوج اليابانى يشبه كل زوج في الدنيا ، فهو يتصور أن زوجته لا تتعب ولا تبذل أى مجهود . . وأن كل مهمتها في الدنيا ، أن تستحم وتضع الأحمر والأبيض والعطور ، وتنتظر بسلامته عندما يعود . . هذه كل مهمة الزوجة في نظر أى رجل . . يعنى مهمة الزوجة هى « الترفيه » عن الزوج كأنها لإحدى بنات الجيشا !!

ولكن الرجل اليابانى أكثر أدباً وأكثر رقة . . وأكثر حبا للبيت والأولاد وأكثر وفاء للزوجة . .

والبيت اليابانى والزى اليابانى يدلان على المرأة اليابانية . .

فالبيت بسيط وأنيق . . وكل شيء فيه مصنوع وموضوع بذوق . . والألوان مريحة للعين . . والخطوط كلها رأسية أو أفقية متقاطعة . . يكتفى أن تنظر للقبايب وترتيبها والمخدات ونظامها ، لتعرف أن كل شيء هنا يتم بتفكير وذوق .

والمائدة اليابانية غريبة وعجيبة . . . يمكن طعم الأكل يقرف ويدوخ . . .
ولكن تقديم الأكل ونظامه يريحان . . . طبعاً أنا لا أنصحك أن تأكل كما
فعلت أنا ، ومرضت وتعذبت . ولكن أنظر كيف يقدمون لك أطباق صراصير
البحر . . . إن الإسم يجعلك تهرب . . . ولكن طعمها لا بأس به . فهى مسلوقة
باردة . . . ولكن نفسك « تنعدل » إذا شربت معها شايأ أخضر بلا سكر . . .

المهم تقديم الطعام . . . أطباق صغيرة الواحد وراء الآخر ، ومع كل طبق
المنحاة من سيدة البيت وابتسامة عريضة جداً تجعلك تأكل أصابعك – والسبب
الحقيقي الذى يجعلك تأكل أصابعك ، هو أنها أحسن من الصراصير . . . واللى
تعرفه أحسن من اللى ما تعرفوش ! .

وفى الأعياد ينقلب البيت اليابانى إلى مولد . . . إلى مهرجان . . . الألوان
والعرائس والتماثيل والملابس ذات الألوان الحمراء والزرقاء والوردية الكبيرة والنقشة
العريضة . . . وفى كل المواسم والأعياد تجدد « السمك » الملون فى كل مكان . . .
لا بد أن توجد أوراق على هيئة سمك . . . فقد كان اليابانيون من ألوف السنين
يهدى الواحد منهم إلى جاره الأسماك التى اصطادها من البحر . . . الأسماك النيئة
الجافة . . . وتغيرت الدنيا ولم يعد صيد السمك هو التجارة الوحيدة فى اليابان . . .
فهناك ألوف المصنوعات والهدايا . . . وانسحب السمك من الأعياد وأصبح رسماً
على الورق الذى يلفون فيه الهدايا . . .

والعيد الذى تكون فيه المرأة اليابانية مشغولة جداً هو يوم رأس السنة فهو
أهم الأعياد فى اليابان . فى يوم رأس السنة لا تعمل المرأة أى عمل ولا يجب
أن تشغل نفسها بأى شىء . . . ولكن هناك شيئاً هاماً جداً يجب أن تعمله . . .
يجب أن تضع تحت رأس كل فرد من أفراد الأسرة ورقة . . . والورقة مكتوب
فيها أمنية ، وهذه الأمنية مكتوبة على شكل أغنية . والأغنية تقول :

ادخل يا خير . اطلع يا شر . وداعاً يا سنة فاتت . أهلاً يا سنة جاية .
يا لهى لا تنقص عددنا . ضاعفه . واجعلنا نزيد ونزيد . ولك الشكر .

وهناك طقوس خاصة لوضع هذه الورقة تحت الرأس .
وفى الصباح تنهض الأم فى ساعة مبكرة جداً لتنزع هذه الورقة من تحت

المخدرات . . وتظل جالسة حتى ينهض جميع أفراد الأسرة . . ولا بد أن يكون كل واحد منهم قد رأى حلماً في نومه . . هذا الحلم هام جداً . . لأنه عبارة عن ملخص لما سيحدث له بعد ذلك في العام الجديد . . ومهمة الأم أن تفسر هذه الأحلام ، وأن يكون تفسيرها للأحلام جميلاً تملأ نفوس أبنائها بالأمل في حياة أحسن . .

وبعد ذلك تنام الأم بعد أن اطمأنت على مستقبل جميع الأفراد .

وقبل أن تنام الأم كل ليلة يجب أن تصلى لله ... وهي تعبد الله في معبدين . وكل ياباني له دينين لا دين واحد .. وفي كل بيت ياباني يوجد تموزجان صغيران لهُذين الدينين . . ولذلك فاليابانيون لا يذهبون إلى المعابد كثيراً لأن المعابد عندهم في البيوت . . والأم هي أكثر الناس وقوفاً أمام المعبد . . .

والمرأة اليابانية هي أم قبل أن تكون زوجة أو صديقة .. وأول شيء تريد أن تحققه للزوج هو أن تتجب له عدد آمن الأطفال. ومعظم الخلافات بين الشبان والشابات قبل الزواج سببها أنهما مختلفان على عدد الأولاد .. مع أنهما لم يتزوجا وقد يؤدي الخلاف إلى الانفصال .

ومقياس الجمال في اليابان هو : أن تكون المرأة نحيفة ضيقة الصدر والأرداف ، صغيرة اليدين والقدمين ، ولها وجه بيضاوى وأن يكون شعرها أسود، وأن يكون صوتها منخفضاً، وإذا مشت أحنّت رأسها ، وإذا نظرت إليك لم تحمق فيك . . الجليل الجديد في اليابان عندما يجلس معك لا ينظر إليك ، لأنه قد نظر إليك قبل أن تجلس إليه ولأنك لا تملأ عينه !

وعلى أثر الاحتلال الأمريكي ظهرت فتيات ذوات شعر أصفر وعيون خضراء ولا يرتدين التباقيب ولا يتعوجن في الكيمونو ، ويفضالن النظر إلى نجوم السماء على النظر إلى الأرض .. واليابانيون ينظرون إلى هذا الجليل الأمريكي نظرة استخفاف ، وعدم احترام . . أنا أعتقد أن هذا « قصر ديل » لأن اليابانيات الأمريكيات الأصل ملامحهن حلوة جداً . . جداً .

وأنا أعتقد أن العيب الوحيد في المرأة اليابانية هو أنها مؤدبة .. مؤدبة أكثر من اللازم . . ولقد عانيت من ذلك كثيراً !

أذكر أننا كنا في إحدى الحفلات ورحنا نروى النكت في أول الأمر ،
كانت النكت مهذبة وبعد ذلك نصف مهذبة ، وأخيراً . . أنت عارف .
وحدث أن همست يابانية في أذن أخرى وبعد لحظات ضحكت كل اليابانيات
بصورة جعلتنا نعتقد أنها نكتة قبيحة جداً . . وطلبت من إحدى اليابانيات
أن تترجم لنا هذه النكتة ولو بصورة مهذبة . . وبعد إلحاح شديد ترجمت
النكتة ، واندعشت لهذه النكتة التي جعلت كل اليابانيات ينجلن منها . . أما
النكتة فهي أن رجلاً كان يجلس على حافة بحيرة ونظر إلى الماء فوجد صورة كلب
وضحك قائلاً : لا بد أن هذا الكلب قد عاش في بيتنا طويلاً !

هل فهمت النكتة . . النكتة هنا هي أن هذا الكلب قد عاش في البيت
مدة طويلة فتوحدت أمه على هذا الكلب ، لذلك جاء شياً له . .
توضيح آخر : الأم هنا هي أم الرجل وليست أم الكلب !
وبعد ذلك كان من المستحيل أن نروى لهن النكت إياها . . وقد لاحظت
أن في كباريات اليابان كثيراً من الأجسام العارية . . والحركات الخليعة أكثر
خلاعة من أمريكا . والراقصات العاريات تماماً . . واللاتي يجلسن على أرجل
الزبائن وتمتد أيديهن ويفتحن البنطلون فترات طويلة بين صراخ الزبائن وتلاعب
الأضواء . . . ولكن هؤلاء الراقصات لا يستطعن أن يقلن كلمة واحدة غير
مهذبة . . ولا كلمة .

وإذا كنت لا تصدقني فاذهب إلى اليابان . . والمسافة بيننا وبينها لا تزيد
على ٤٨ ساعة بالطائرة . .

فهل اليابانية هي الزوجة المثالية في نظري ؟

لا . . . لا . . .

إن الزوجة المثالية في نظري هي : الصينية ذات الأدب الياباني والتي من
أصل أمريكي . وتعيش ثلاثة أشهر في هونج كونج وثلاثة أشهر في أستراليا
وثلاثة أشهر في جزر هاواي ، وشهراً في أمريكا ، وشهراً في إيطاليا ، وأسبوعاً
في أسبانيا ، وأسبوعاً في فرنسا ، وأسبوعاً في القاهرة ، وأسبوعاً لا أعرف أين . .
فلن أكون معها . . سأخذ منها أجازة أشم فيها نفسي ! . .

وأنت لم تطلب مني أن أختار الزوجة المثالية ، ولكن تخيلت أن هذا ما تريد
أن تعرفه !

● الفتوات الفاتنات!

همس في أذني وغمز بعينه ووافقت فوراً . وعاد يهمس في أذني فوافقت على التكاليف أيضاً ، ولكنه عندما ضغط على أصبعي ترددت فقد رأيت في عينيه بريقاً غريباً .

وانطلقنا نحن الاثنين إلى شارع مزدحم بالدكاكين وبالناس والبخور والموسيقى البدائية .

ووقفنا أمام بيت له سلم خشبي . وبأصابع صفراء صغيرة دق الباب ، وأطلت سيدة قصيرة القامة جداً، وسمينة جداً، وانحنت وانحنينا ، وقال كلاماً لم أفهمه ، ونظرت لي هذه السيدة القصيرة وضحكت ، ثم نظرت لي وضحكت وكادت تسقط على الأرض .

وخلعت الحذاء ولبست قبقاباً .. هو في الحقيقة شبشب جاف كأنه مصنوع من السمك البكلاه ، ووضعت قدمي فيه ، ولم يدخل من قدمي إلا الأصابع ، وأما بقية قدمي فهي تمسح الأرض المفروشة بالحصر الناعمة .. وبعد ذلك صعداً أحد السلم .. وبعد أن نزع كل منا شبشبه أيضاً .. ووضعت قدمي في شبشب آخر ، مزفلط كأنه مصنوع من جلد سمك قراميط ما تزال حية، فكلما وضعت قدمي فيه هرب مني .. وكدت أسأل السيدة القصيرة عن سنارة لكي أصطاد بها الشبشب، ولكنني وجدت جمهوراً من الفتيات يضحكن من حركاتي هذه ، ولاحظت أن بعض الفتيات يطلب مني أن أعيد هذه اللعبة وازدادت ليجتي كمان وكمان ، ونزعت الشبشب ومشيت بالشراب ، وتعال الضحكات ، ولا أعرف

ماذا قالت الفتيات ولكن أعتقد أن بعض هذه العبارات كان معناها : أنى رجل غير متحضر : كيف أمشى على الحصيرة بالشراب ، كيف لا أعرف أصول التزحلق على الشياشب ؟ !

ويظهر أن حالى صعبت على بعض الفتيات فاقتربت واحدة منى وأمسكت ذراعى . وحاولت أن أمنعها ، ولكنها أصرت .. والحقيقة أنها لم تصر : ولكنى لم أعرف كيف ألفتص من ذراعها ، فقد قبضت على ذراعى كأنها كماشة .. ونظرت إليها فوجدتها هزيلة ناعمة ورقيقة جداً ، وتأكدت أن اليد التى تمسكنى هى يدها فعلاً .

وجلست على الأرض مقرصاً ، وبدأت أزرر بنظولونى ، وامتدت يد إحدى الفتيات لتعاوننى تزرير بنظولونى .. وكلما حاولت أن أوقف الفتاة عن هذا العمل الذى لا يليق وجدت نفسى عاجزاً أمام يدها القوية .

وبجوار إحدى المناضد جلست وقدمت إحدى الفتيات بعض البسكوت الناشف جداً .. وضغطت على البسكوت بأصابعى .. ناشف جداً .. بأسنانى .. ناشف جداً . ومددت يدي إلى كوب الشاي المر .. فكل مكان فى اليابان تجد فيه الشاي المر الأخضر ، وكوب وراء كوب : وانسجبت المنضدة إلى جانب من الحجره .

وفجأة ظهرت أربع فتيات ممثلات الجسم وقصيرات أكثر من العادة : ومدت واحدة يدها ولم أكد ألمسها حتى صرخت .. إنها يد من حديد . ولم أكد أحب يدي حتى وجدت نفسى فى حركة خاطفة قد سقطت على الأرض وقبل أن ألمس الأرض التقطنى إحدى الفتيات الأربع ، ولم أكد أنهض حتى وجدتنى فى الهواء .. فوق كتف إحدى الفتيات ، وحاولت أن أخلص نفسى منها .. ونجحت فى النهاية .. ولكن وجدت نفسى قطعة من القماش .. كحصيرة يمسكها أربع فتيات .. كل واحدة قد أمسكت بيد أو برجل وأنا لا أفهم ما هذه اللعبة السخيفة جداً ، ورحت أعلو وأهبط وأنطوح يمينا وشمالا ، وأتلفت حولى لكى أجد هذا الصديق اليابانى الخبيث ولكنى لم أجده ، حتى اسمه

نسيته .. والبنات هنا لا يفهمن اللغة الإنجليزية ولا أية لغة أخرى غير اليابانية ،
وصرخت وكشرت ولعنت آباء البنات ، وحاولت أن أعض واحدة منهن ، ولكن
بين أسناني وبين ذراع أية واحدة مسافات طويلة ، ولم أعرف كيف أصرخ ،
حاولت أن أصرخ بالتقسيط مرة .. أقول يا إيدى .. ومرة يا رجلى .. ومرة
ياناس في عرضكم .

ولاحظت أن حركات التطويح من هنا هنا قد زادت جداً .. وخفت من
أن تتركني الفتيات أسقط على الأرض مرة واحدة ، أو أن أرتطم بالسقف
أو .. حتى بأحد الجدران ، ولاحظت أن فتاة خامسة قد اقتربت مني .. وتوقعت
أن تقفز فوقى وتقف على صدرى وتأتي بحركات دبدبة مثلاً .. معنى ذلك أنني
سأمتوت هنا على الطريقة اليابانية .

دخت .. وأنقذتني هذه الدوخة من الشعور بالغيظ والخوف والفضيحة
ولم أشعر بأى شيء .. وأحسست بشيء من دوار البحر والبر والجو ، وأخرجت
لساني وأنعمضت عيني وتظاهرت بالموت ، وألقيت برأسي على جانب من جسمي
والحركة مستمرة ، ولكن أحسست أن بطني كالقربة المنفوخة وخشيت أن
تنقطع القربة وتبقى كارثة مدوية !

ودخت للمرة الثانية .. كأنني في منطقة انعدام الوزن .

وأفتت من هذه الدوخة الطويلة على البنات الأربع وقد اجتمعن حولي
لينزعن ملابسى .. وملابسى كانت في ذلك الوقت تحتاج إلى كثيرين لينزعوها ..
فهى ثقيلة وكثيرة . ولم أفهم ما الذى يجرى حولي ، فأنا داخج فعلا ، وأثناء
هذه الدوخة لمحت وجه الصديق اليابانى .. وكدت أقول له شيئاً ، ولكنى لم
أستطع .. فلسانى هو الآخر ما يزال دائماً .. كالمكوك يتحرك بين أسناني
ولكن لا يخرج منه شيء ..

وبعد لحظات نقلونى إلى غرفة مليئة بالبخار .. إنه الحمام اليابانى ،
وخرجت الأربع فتيات ، وبقيت واحدة .. لأنها السيدة العجوز التى تقف على
الباب .. حاولت أن أجلس على قرافيسى .. حاولت أن أقف .. حاولت أن
أستند إلى الحائط .. حاولت أن أعترض .. حاولت أن أقول أى شيء ، ولكنى

لا أجد إلا الضحكات وإلا الإنحناءات . . فأنا لا أريد أن أستحم ولا أريد أن يعود هذا الهزار الثقيل . . ولم آت إلى هذا المكان بقصد الدوخة . .

ولكن لا فائدة، تقدمت منى هذه السيدة ، ووضعت الكيزان الحشوية إلى جوارى وطلبت منى أن أملاً أحد الكيزان بالماء الساخن والكوز الآخر بالماء البارد ثم أصب الإثنين في كوز ثالث ؛ وبعد ذلك أصب الكوز الثالث فوق جسمي . . وهكذا إلى ما لا نهاية . . وكانت هي تردد ورأى . . واحد . . إثنين . . ثلاثة . . واحد . . ولو عرفت هذه السيدة أن عدد الكيزان قد تضاعفت أمام عيني وأنها يجب أن تعد من واحد إلى تسعة وتسعين ، لتركتني . . فأنا عريان « ملط » أمامها !

وحاولت أن أقول لها إنني أعرف الآن عدد الكيزان وأنه لا داعي لأن تبقى معي وتبخل بهذا الشكل . . وأشارت إلى الباب وقلت لها بالعربي : اخرجي يا شيخخة ، الله يخرج بيتك ! . .

وانحنت في أدب وضحكت ، ومعنى ذلك أنها ستبقى مهما فعلت ، ومهما قلت ، وعدت أقول لها : عطشان . . وأشارت بيدي إلى أنني عطشان . . وانحنت وخرجت . .

وقررت أن أقفل باب الحمام بالمفتاح . . ولكن الباب من غير مفتاح ، ومن غير ترباس . وقررت أن أرتدى ملابسى . . ولم أجد الكيمونو ، وهو الروب دى شامبر اليابانى . وأسندت ظهري إلى الباب ، وبدأت أجفف نفسي . وفجأة وجدت نفسي على أرض الحمام أتفادى أن يرتطم رأسى بالكيزان ، وأن أغرق في الحمام ، لقد دفعت هذه السيدة الباب بقوة عجيبة . . وأسرعت ترفع رأسى من الماء ، فلا يصح أن يلمس الإنسان حوض الحمام بيده أو يجسسه لأن ماء الحوض لكل سكان البيت ويجب ألا يلوئه أحد . .

واعتدلت في أرض الحمام ، مستسلماً ، ومددت يدي إلى كوب الشاي المر وشربت المر كوباً وراء كوب . ونزعت السيدة الكيمونو الذى وضعته حول جسمي وأصررت على أن أستحم . . على أن نصب هي الماء فوق رأسى وفوق صدرى . وحاولت أن تدلكنى . . كما تقضى التقاليد فى اليابان فصرخت واستجعت قواى

والقيت بهذه السيدة في حوض الحمام وخرجت كطرزان أبحث عن القردة شيتا . ولم أجد أحداً في البيت . فصرخت وكان الغابة كلها أخليت وكان الوحوش هربت .. أو كأن هذه الغابة تحولت إلى لوحة على الحائط . بحثت عن الفتيات الأربع فلم أجد واحدة منهن .. بحثت عن الصديق فلم أجده ، وإنما وجدت ورقة يعتذر فيها عن انتظاري لأنه على موعد مع سياح آخرين في بيت يبعد عنى نصف ساعة ، وأنه سيلتقي بي في الفندق بعد الظهر ، وإنما يجب أن أدفع مبلغ ستة جنينيات تكاليف تدليك ورياضة .

ارتديت ملابسى . . وحاولت أن أجلس على الأرض أو على مقعد . . وجدتنى عاجزاً تماماً . فجسمى كله يوجعنى ، فلست رياضياً ، وإذا كنت رياضياً فهذا النوع من الرياضة لا يتحملة إنسان في الدنيا . وأشرت إلى السيدة السمينة القصيرة ذات الابتسامة الحبيبة أن تلحقنى بقرصين من الإسبرين . . انحنت معتذرة . . طلبت منها أى شىء لإزالة الصداع وآلام الظهر والصدر والساقين واليدين والعضلات . . فانحنت وعادت بمجموعة من الأسماك الجافة ثم بعض البسكوت الجاف جداً . وانحنت في أدب . وحاولت أن أخبر منها ، أن أرفعها في الهواء كما كنت أفعل مع اليابانيات قبل هذا اليوم المشثوم . . . لم أستطع . . حاولت أن أحنى لها ظهري في أدب . . ولكنى لم أستطع فظهري يوجعنى جداً . . .

كل هذا الذى حدث لى لم أطلبه ولم أعرفه ، فأنا اتفقت مع صديقى هذا على زيارة أحد النوادى الرياضية النسائية . . لكى أرى المصارعة اليابانية بين النساء فقد سمعت أنها غريبة ، وأنها رهيبية أيضاً . وأن هناك عدداً كبيراً من اليابانيات الجميلات يلعبن هذه الرياضة . . وقد رأيت في بعض الصور لفاتنات يابانيات وهن يقمن برياضة المصارعة اليابانية العنيفة . . ولم أطلب أبداً أن أذهب إلى بيت البهدة والهوان .

وفي الفندق عرفت أن هذا الصديق قد أخطأ في فهم ما أريد . . فلدبه عدد كبير من السائحين . . ولهم مطالب مختلفة . . وقد تلخبط بين مطالبى

ومطالبهم ، فبعث بعضهم إلى مشاهدة المصارعة اليابانية وبعث بى إلى هذه البهدة . . .

وشيء آخر هو أنى عندما دفعت الحساب عرفت فيما بعد أنى دفعت ثمن أطعمة لم أكلها ، وثمان زجاجات من الشراب لم أرها .. وهدايا يابانية لم آخذها . وفى يوم كنت أجلس فى فندق دايتشى مع أحد موظفى مصلحة السياحة اليابانية ورويت له ما حدث . . فسألنى عن اسم الصديق اليابانى الذى ذهبت معه . واستأذن منى بضع دقائق وعاد يروى لى قصة أخرى . .

وروى لى أنى طلبت إهداء بعض اللوحات الزيتية . . وأنى طلبت إليهن أن يتغدين ويتعشين على حسابى ، وأنى طلبت إليهن الحضور فى الفندق لنقضى ليلة راقصة . . وأنى تنازلت لهن عن البالطو والبلوفر . . وأنى طلبت لهن شراء ملابس داخلية جديدة !

مع أنى لا أذكر شيئاً من هذا كله . ولا يمكن أن أذكره فأنا لا أعرف اللغة اليابانية ولا أعرف كيف أتفاهم معهن . . وكل الذى حدث هو أنى عندما جلست فى هذا البيت الرهيب أبدت إعجابى باللوحات . وكان ذلك بالإشارة ! وعندما قدموا لى الطعام اعتذرت عن تناوله وأشرت للفتيات أن يأكلن هذا الطعام . . ولما سألتنى هذه السيدة السمينة عن المكان الذى سأذهب إليه قلت لها الفندق .

وعندما حاولت اليابانيات أن يساعدننى على نزع ملابسى الداخلية رفضت . . فزعت عن ملابسهن الداخلية أمامى . . وقد أعجبتنى الملابس وطريقة الخلع . . فقط !

ولم أتصور أبداً هذه التفسيرات المختلفة لتصرفاتى العادية جداً . . ولكن الشئ الذى لم أفهمه حتى الآن ولم أطلبه لا بالإشارة ولا بالعبارة هو هذه العلامات الزرقاء على ذراعى وعلى رجلي وعلى صدرى . . ثم خطاب الشكر الرقيق الذى وجدته فى جيبي بامضاء الفتيات الأربع :

شكراً على هذا الوقت الجميل الذى أمضيته معاً !

● سأعوت من سدة الرب!

الفندق الذى أنزل به يابانى ٨٠٪ ولكن الحياة فيه مستحيلة ١٠٠٪ . . .
الفندق اسمه : فوناجين . . اسمه غير موجود فى دفتر التليفون . . غير موجود فى
أوراق الدعاية . كل إنسان يسمع اسم الفندق يطالبني بأن أعيد نطقه مرة أخرى
ويسألني عن العنوان . . وهنا المشكلة . . فلا يوجد سائق تاكسى واحد استطاع أن
يهتدى إلى العنوان . . رغم أن البطاقة التى تحمل اسم الفندق عليها خريطة . .

وهنا مشكلة أكبر وهى أن كل شوارع طوكيو ليست لها أسماء . . ولم تظهر
الأسماء لهذه الشوارع إلا بعد الاحتلال الأمريكى . . فهناك شوارع رقم واحد
واثنين . . وألف وباء . . والناس لا يعرفون هذه الأسماء الأمريكية وإنما يتذكرون
الأسماء اليابانية القديمة . . والمصيبة أنهم لا يعرفون الإنجليزية ويبدو أنهم لا يريدون
ذلك . . لأسباب وطنية أو لأنهم مشغولون بالعمل عن الدراسة . . وأصبح من
الصعب أن أسهر فى طوكيو ليلاً ، لأن العودة إلى الفندقة مستحيلة . . والبحث
عن الفندق فى الليل وفى الحواري المظلمة من أصعب أعمال الجاسوسية . .

والحياة فى داخل الفندق صعبة جداً . . فالمشى طول النهار بالشبشب . .
والشبشب صغير لا يدخل إلا فى بعض قدمي . . الشبشب لا يصلح إلا للأقدام
اليابانية الصغيرة . . وغرفة النوم لها شبشب ، ودورة المياه لها شبشب ولها
قباب . . والحمام له شبشب . . والحمام نفسه كارثة كبرى . . فالاستحمام
اليابانى شاق جداً وهناك شئ مؤلم آخر . . هو أنهم لا يعرفون البشكير . إن
عندهم فوطاً صغيرة جداً جداً . . ولكل واحد منا فوطة يجفف بها جسمه . .

مع أنها لا تصلح لتجفيف اليد الواحدة !

ودورة المياه مؤلمة جداً . . فهي ضيقة جداً وكلها من البلاط الذى يشع
برداً وجليداً . . وفى هذا المكان الضيق جداً يجب أن تنزع بعض ملابسك
ثم ترتدى الكيمونو فلا يصح أن تخرج من الكيمونو . . ويجب أن تترك الشبشب
فى الخارج . . والفندق كله ليس فيه إلا دورة مياه واحدة وحمام واحد .

وتناول الإفطار تجربة كاملة فى الصبر والسلوان . . فلا يوجد فى الغرفة
جرس . . وإنما يجب أن تخرج وتحاول أن تتفاهم مع الفتاة على أن الشاى الذى
تريده هو شاى أحمر وليس شاياً يابانياً . . وقد يساعدك لون المشمع الموجود
فى الأرض على التفاهم مع الفتاة . . فهو عبارة عن مربعات خضراء وحمراء . .
فى كل مرة أقول لها : شاى من اللون الأحمر لا من اللون الأخضر .

وفى أول يوم أشرت إلى المربعات الحمراء من المشمع المفروش فى الأرض .
فإذا كانت النتيجة !

أحضرت لى مفرشاً من المشمع .

وفى اليوم الثانى أحضرت شاياً أخضر .

وفى اليوم الثالث لم يبق إلا الشاى الأحمر فأنت به جافاً . . وعملت الشاى
لنفسى .

وبعد ذلك عرفت أن الشاى الأخضر اسمه باليابانى : أوتشا . . والشاى
الأحمر اسمه : كوتشا . . بقى أن أطلب منها براداً من الشاى الأحمر ومعه الكثير
من السكر وبعض البسكوت . . وكل ما يحظر على بالك الآن لن يصل إلى
ما حدث . . لقد أتت لى بصاحب الفندق لأنه ضخم كالبراد ، ولأن له أولاداً
كثيرين ، ولأنه رجل زى السكر !

وإذا طلبت الشاى وانتظرت السكر برد الشاى ولم يحضر السكر . . وإذا
طلبت السكر قبل الشاى جاء الحبز الأسود ولم يحضر الشاى . . والمصيبة أن
الناس مؤدبون جداً جداً . . وأنهم حريصون على خدمة الضيوف ولا حدود
لحرصهم ولا حدود لأدهم إلى أقصى درجة . . وعليك أن تتخيل ما تشاء وكل
خيالاتك صحيحة . . . وأكثر !

وإذا أقفلت الباب فالدنيا حر . . وإذا فتحت الباب فالدنيا كلها سمك
ورنجة وروائح أخرى لم أكتشفها بعد . وإذا أسندت ظهري إلى الحائط ، انزلق
السريز من تحتي ؛ وإذا أسندت ظهري إلى المنضدة ، سقط الراديو على الأرض ..
وإذا أشرت بيدي جاءت الفتيات كل واحدة تسابق الأخرى في الانحناء . .
وإذا أشرت برجلي انطلق مدير الفندق يضع الحذاء تحت قدمي ويمسك الشبشب
ثم يمسك عصا طويلة يضعها في قدمي . . إنها اللبيسة !

وإذا كثرت تركوني وحدي وإذا ضحكت التفوا حولي .
ولكنني تعلمت منهم درساً لا أنساه . . فقد جعلت أنحنى مثلهم وأجمع
ملابسي وأنحنى مثلهم ، وأرتدى حذائي وأنحنى مثلهم ، وأحمل حقيبتي هارباً إلى
فندق بلا قبقيب ولا أحواض ولا أدب .. !
وأمام الفندق وجدت كل الفتيات ومدير الفندق وسائق التاكسي والطاهيات .
وقد وقفوا جميعاً يودعونني بانحناءات عميقة . . وانحنيت على الآخر . .
وفي اليوم الثاني أرسلت بنظفوني إلى الرفا !

* * *

واليابان دولة تحتلها أمريكا منذ عام ١٩٤٥ بعد أن ضربتها بالقنابل
الذرية في نجازاكي وهيروشيما .

وقد نشرت الصحف هنا أخيراً أن الجنرال دييجول أعلن في مذكراته أن
أمريكا ضربت اليابان بالقنابل على الرغم من أن اليابان كانت قد أعلنت رغبتها
في التسليم . ولكن أمريكا كانت حريصة على تحطيم القوة الحربية لليابان ،
وعندما دخلت اليابان قطعت كل بذور النزعات العسكرية منها . . فالدستور
لا ينص على دين رسمي للدولة . وكان دينها الرسمي هو « الشنتوية » وهذا الدين
أساسه تقديس الإمبراطور والوطن والأجداد ، وقد استغلت الحكومات هذا الدين
لدفع الشعب إلى القتال . . ونص الدستور الجديد على حرية الأديان وعلى أن
يصبح دين شنتو هذا ديناً عادياً كالبودية تماماً . .

ونص الدين الجديد أيضاً على إلغاء الحروب . . على إلغاء حق اليابان
في الدفاع عن نفسها بأي صورة ، فالذي يتولى الدفاع عنها هو الجيش والأسطول

والطيران الأمريكى . . أما اليابان فيجد أن توّمن بأن الحرب ليست أسلوباً في الدفاع عن نفسها أو لإقناع الغير بوجهة نظرها . ونزعت أمريكا من اليابان جزيرة فرموزا وكوريا وعشرات الجزر الأخرى وأرغمت اليابان على أن تتعهد بألا تطالب بها في أى وقت . ومساحة هذه الأراضى حوالى ١٥٠ ألف كيلومتر مربع . وأدخلت أمريكا الإصلاحات الزراعية وألغت بعض الاحتكارات ونزعت أملاك الإمبراطور . . ونزعت هيئته وقداسته أيضاً . . وجعلت نصف حديقة القصر الإمبراطورى للشعب .

وعندما أصبح دين شنتو ديناً عادياً ، أصبح الإمبراطور إنساناً عادياً . لقد سحبت أمريكا عرش القداسة من تحت الإمبراطور وأجلسته على كرسي عادى جداً . .

ولكن ماذا حدث لليابانيين ؟ هل تغيروا ؟ هل تبدلوا ؟ . .

أبدا . . فاليابان فيها كل المتناقضات . بل إنك تجد الرجل اليابانى الواحد مليئاً بالمتناقضات . . تجده مسيحياً وفي نفس الوقت بوذاً . . ونجده يذهب إلى الكنيسة وفي نفس الوقت يحرص على تعاليم بوذا ، أو يحرص على أن يحج إلى تمثال بوذا في مدينة نارا حيث يوجد تمثال لبوذا طوله ١٩ متراً ووزنه ٨٠٠ طن .

وإذا تزوج اليابانى المسيحى مثلاً ، فإنه يأتى براهب بوذى ليعقد زواجه . . لأنه يعتقد أن الاستعانة برهبان وقساوسة من أديان أخرى لا تجعل زواجه ناجحاً . . وحتى اليابانى المتعلم جداً بعد أن يتردد على طيبب ممتاز فإنه في الطريق إلى البيت يمر بأحد المعابد يسأل الراهب أن يعطيه بعض الأعشاب وأن يمر بيده على أماكن الألم . .

الرجل اليابانى متدين . . وفي بلاده مئات الألوف من المعابد . . ويكاد يكون وثنياً ، ولكن بيوت اللهو في طوكيو وحدها أكثر من الموجودة في حى سان جرمان أوسان ميشيل أو المونمارتر في باريس . . بل أكثر من أماكن اللهو في ويربان في هامبورج بألمانيا . . وبنات الليل في طوكيو مثلاً ، مهذبات جداً ويتمسكن بكثير من المبادئ الأخلاقية . . فالغانية لا تكذب ولا تخلف الوعد

ولا تسرق . . ولا ترى هي في هذا كله أى تناقض ، ولكنها أراحت نفسها بأنها تبيع وتشتري ، بأنها تاجرة . . ومن أخلاق التاجر ألا يكذب . . فالأخلاق عند التاجر هي دعاية له ولبضاعته . .

والرجل الياباني يأخذ من كل شيء أحسن ما فيه .

ففي اليابان تجرد كل أوروبا وأمريكا معاً ، فاليابان هي الجسر الذى ينقل أوروبا إلى آسيا . . واليابان هي « الترانسفورمر » - المحول الكهربائى - . . اليابان هي التى تنقل الغرب وتجعله في صورة شرقية مهذبة جميلة .

ومع ذلك تجرد اليابان في عزلة تامة . . أو هي مشغولة بنفسها ، ولا تكاد تشعر بوجود الغير . فثلاً تجرد اللافات كلها بالياباني . . والمطبوعات بالياباني . والأجنبي ليس له أى حساب . .

ذهبت منذ أيام لأشتري بالطو مطر . . ولم أكن أتصور أنني عملاق إلى هذه الدرجة . . فأنا طويل ووزنى عادى جداً . . ولكنني لم أجد بالطو واحداً . البلاطى كلها أقصر وأضيق منى . والناس يفظرون إلى كأننى هبطت من كوكب آخر . أكثر المحلات لم أجد فيها بالطو . ولم أجد فيها محلاً واحداً يقول لى إنه في استطاعته أن يفصل لى أحد البلاطى .

وفى اللوكاندة تجرد السرير صغيراً والحوض صغيراً ، والشبشب صغيراً ، وفى نفس الوقت تجرد مطاعم أوروبية ومحلات الشاى أو المشاهى - كلها على الطراز الأوربى . . ثم إعلانات فى الصحف عن المطاعم الغربية والسهرات الغربية . . (الكافيتريا : أى محل القهوة والشاى أقترح ترجمتها بكلمة القهوشية . . مساهمة منى فى مجهودات المجمع اللغوى !) .

ولكن كل شيء فى اليابان موجود . . الغربى والشرقى ، الحزب المحافظ والحزب الشيوعى ، والإمبراطور المقدس والإمبراطور الذى ليس له أى سلطان ، وولى العهد الذى يتزوج فتاة من الشعب .

وفى نفس الوقت تجرد الناس هنا يقدسون الجبال .

والتعاليم البوذية صريحة فى أن الإنسان من الممكن أن يتعلم من أى شيء ومن كل شيء . وأن يشعر بالشعب وهو جائع . وأن يمسك يده عن الطعام وهو غنى . . المهم أن يعمل وأن يتقدم .

وهناك قصة تقول إن رجلا سأل بوذا كيف أتعلم الدين . . فقال له :
كما يتعلم اللص الصغير فن السرقة ..

وروى بوذا هذه القصة : خرج لص هو وابنه لسرقة أحد البيوت . .
ودخل اللص الكبير وسرق الأموال والحلى . . وطلب من ابنه الصغير أن يتوارى
في أحد الصناديق . وبعد ذلك أحدث الأب بعض الأصوات وأضاء المصابيح
فصاح أهل البيت . وهرب الأب وترك ابنه . . وانطلق أهل البيت يفتشون
الصندوق الذى أخفوا فيه أموالهم وعندما أدرك الابن ذلك راح يموء كالقطعة . .
فعرف الناس أنها القطعة وأنه لم يكن هناك لص . . وعادوا إلى الفراش . . وخرج
الابن من الصندوق . . ورآه الناس فانطلقوا وراءه فى الظلام . . وفى الطريق
المظلم مر الابن ببئر . . وأمسك فى يده حجرا وألقاه فى البئر . . وكان للحجر
صوت هائل . . فأدرك المطاردون أن اللص سقط فى البئر فعادوا إلى البيت . .
وهم يحمدون الله الذى أنزل العقاب بهذا اللص . . ولما عاد الابن إلى البيت راح
يعاتب أباه . . ولكن أباه قال له : هكذا تتعلم السرقة . . يجب أن تتصرف . .
أن تستفيد من ذكائك . .

وقد تعلم اليابانيون من كل الشعوب . . وقاموا بدور الأب ودور الابن
وذور أصحاب البيوت . . تعلموا من التجارة والدين ومن الحرب ومن السلام
ومن الحضارة الغربية ومن الوثنية الصينية . . ومن اللصوص . . وتعلموا منى درساً
لا يمكن أن ينسوه . . فقد لاحظوا أننى زهقت من أدبهم لدرجة أننى بدأت
أرفض الأكل والشرب والنوم على طريقتهم . . وكانت النتيجة أنهم أخذوا يقللون
أدبهم فاكتفوا بالركوع بدلا من السجود عندما يرونى . . واكتفوا بالقبلات
بدلا من الأحضان عند تحيى ، ولم أجد عند وداعى إلا تسع فتيات مع أن عدد
الفتيات فى الفندق كان خمس عشرة فتاة . . تصوروا قلة أدبهم وصلت إلى أية
درجة ؟ !

ولكنهم تعلموا وتقدموا .

وهنا فى طوكيو برج مرتفع يشبه برج إيفل فى باريس ولكنه أعلى وأجمل . .
وقد استخدمت اليابان فى بناء هذا البرج حوالى ٤٠٠ طن من الصلب ، أى

نصف الكمية التي استخدمت في بناء برج باريس .. وهذا البرج تملكه هيئة الإذاعة والتليفزيون اليابانية .. وفيه معارض ومتاحف وملاذ وحديقة للحيوان .. وهو أعلى برج في العالم كله .. أعلى من برج باريس ومن برج شتوتجارت في ألمانيا .. وهو أجمل وأحدث وأدق .

إنه يدل بالضبط على العقلية اليابانية .. التي تأخذ كل شيء ولكنها ترجمه إلى أحسن وأروع . وهذه هي عبقرية اليابان في النقل والترجمة والدعاية .

بالاختصار اليابان مثل أعلى لكل دولة تريد أن تعتمد على نفسها وتقف إلى جوار الأول الكبرى .. واليابان هي الدولة الصناعية النموذجية في كل آسيا ...

ويبدو أن الرجل الياباني بطيء إذا كان وحده، ولكن إذا كانت هناك مجموعة من اليابانيين فهم قوة مندفعة .. والياباني كالألماني مطيع لمن يحكمه . فالولاء للحاكم لا حدود له .. والحاكم يقول: اعمل عمارة هنا .. اهدم عمارة .. اقتل ... اذبح .. اركع ... ابك .. أنهض !

إن الرجل الياباني بندقية ممتلئة دائماً .. وربنا يستر .

ولكن البندقية لها الآن شكل آخر ..

أذكر أنني رأيت في برج طوكيو جهازاً صغيراً أعجبني .. هذا الجهاز يشبه صندوق الكوكاكولا .. وبه زجاجة شائل .. وزجاجة أريبيج .. وهناك عشرات الصناديق كل واحد منها به روائح مختلفة .. وعلى الزائر أن يضع في ثقب الزجاجة التي تعجبه قطعة نحاسية من فئة عشرة ين « قرش صاغ » .. ثم يضغط على الثقب .. في هذه اللحظة تخرج الرائحة التي يريد على هيئة رذاذ يستمر ثلاث ثوان .. والرائحة قوية فعلاً ..

وأنا أعتقد أن اليابان الآن هكذا .. تضع فيها الفلوس وتضغط عليها فيخرج العطر .. والكلام الحلو والمنظر الجميل !

ويعجبك كلامه ، ولكن في نفس الوقت تحس أنه ضحك عليك وتضحك أنت إعجاباً به لأنه ضحك عليك ، ولأنك لا تريد أن تبدو أمامه مغفلاً !

● عندهم كل شيء

لا تزال طوكيو أجمل مدينة رأيها ليلا في اليابان حتى الآن . . فالشوارع تصبح خيوطاً من اللؤلؤ . . والإعلانات هنا باهرة . . لها أشكال وألوان عجيبة جدا . ولا يوجد إعلنان متشابهان . . وعلى أسطح البيوت أباريق الشاي تمتلئ بالنور الأحمر وتفرغ ما فيها في فناجين تكاد تسقط فوق رعوس الناس . . وأكواب البيرة الكبيرة جدا هي الأخرى تمتلئ ولها رغوة بيضاء . وهذه الكرة الأرضية تلف حول نفسها وحولها قمر وشمس . . كل ذلك إعلانات فوق الأسطح . . وأعجبنى إعلان في أحد المحلات . . الإعلان لا يمكنك أن تراه بسهولة . . ولكن المحل وضع في الفترينة راديوهاث صغيرة وثلاجات وأدوات الطبخ . . ولكن عندما تنتقل من الفترينة إلى مدخل المحل تشعر بهواء ملتهب فوق رأسك . . فتنتظر إلى أعلى فتجد مدفأة . . فالمحل يبيع المدافئ أيضا . . رأيت هذا أيضاً في برلين ولم يكن إعلاناً عن الدفائيات ولكن إعلاناً عن الإسبرين الذي هو علاج ضد أضرار المدفأة ! !

والمحلات تبدأ عملها من الساعة التاسعة صباحاً حتى الخامسة مساء . . وبعضها يبقى حتى التاسعة والعاشره ومنتصف الليل ، وكل أماكن اللهو تقفل أبوابها عند منتصف الليل .

والمحلات هذه لا تقفل أبوابها في يوم واحد . . وإنما لكل محل يوم . . ولذلك تبقى الشوارع حية ليلا ونهاراً . .

وفي الساعة الخامسة حيث ينتهى العمل فى معظم المحلات التجارية نجد مئات الألو ف من الفتيات . . فعظم من يعمل فى المحلات فتيات .. ولا بد أن الفتيات يعملن فى المصانع أو الورش . والمرأة هنا تعمل أى شئ بما فى ذلك مسح الأحذية على الأرضفة . . والفندق الذى أنزل به لا يوجد فيه رجال مطلقاً الرجال يعملون فقط فى مكتب البريد والاستعلامات . . أما بقية الأعمال فتقوم بها فتيات صغيرات جميلات جدا .. الفندق به ٦٢٤ غرفة . .

أنا رأيت فى غرفتى هذه فى خلال أسبوع واحد أكثر من ١٥ فتاة صغيرة يدخلن بالشان وبالغسيل والمكوى والصحف .. عددهن كبير جدا .. ويعرفن من اللغة الإنجليزية بضع كلمات أهمها عندما تقدم لك الفاتورة : امض هنا من فضلك .

وشوارع طوكيو لا تبهرك فى النهار .. فهى شوارع من الممكن أن تجد لها مثيلا فى أى بلد .. ولكن لن تجد مدينة فى ضخامة طوكيو فى أى مكان . . وتدهش عندما تجد الشوارع ممتلئة ولكن بصورة عادية . . وقلة الزحام سببها أن المدينة كبيرة وأن الناس يعملون ليلا ونهارا .

وفى طوكيو عيب واحد هو التاكسى . . فالتاكسيات فيها قليلة جدا وليس للتاكسى موقف ولا تستطيع أن تناديه . . ومصيبة أخرى أن جميع سائقى التاكسى كانوا من الفدائيين فى الحرب الأخيرة وكانوا يركبون الطوربيد وينطلقون به من الطائرة ويدخلون به مداخن السفن البريطانية والأمريكية ... وكانوا يجلسون إلى جوار الألغام وينسفونها ويموتون بها ومعها !

لأنهم من هذا الطراز من الناس . . من السفاحين الانتحاريين .

وهؤلاء الفدائيون لم ينسوا أن الحرب قد خمدت وأن السيارات ليس الغرض منها أن تنفجر فى السائق والزبون معاً .. ولكن هذه عيوب اليابانيين .. لأنهم يعيشون على التقاليد ولا ينسون الماضى بسهولة . . فالويل لنا من إخلاصهم ومن ذاكرتهم التى لا تضعف .

والرجل اليابانى يسألك هذا السؤال الذى يعرف جوابه مقدما وينحنى لك شاكرا ، وكأنه سمعك تقول له : إن بلادكم عظيمة .

ويسألك : ولكن ما هو شعورك عندما رأيت اليابان فى أول دقيقة ؟

فتقول : شعرت بخيبة أمل .

فيحزن الرجل—وكل يابانى—حزناً شديدا جدا ويصاب بخيبة أمل فيك أنت ، ويرثى لحالك ولضعف نظرك وثقل سمعك وعجزك عن إدراك الجمال والنشاط في اليابان من أول دقيقة . .

فتعود تقول له : لكن الآن . .

وقبل أن تكملها ينحنى لك اليابانى يشكرك على أنك غيرت رأيك وأنت أنت الآخر معجب جدا باليابان وبأنك تعتبرها وطنك الثانى .

ولكن ما رأى أنا فى اليابان ؟

أنا أنحنى لهذه البلاد على الطريقة اليابانية وزيادة شوية .

* * *

على باب غرفتى مطبوعة هذه التعليمات :

١ - لا تضع مواد ملتهبة أو قابلة للانفجار فى غرفتك .

٢ - لا تدخن فى السرير .

٣ - لا تستخدم أية مكواة أو مدفأة كهربائية فى غرفتك .

٤ - أقفل الباب وراءك دائماً .

٥ - فى حالة الطوارئ استخدم سلم الحريق .

٦ - لا تحاول أن تستخدم أية وسيلة للهرب أو النزول من النافذة. إلا بعد

أن تصدرلك الأوامر من إدارة الفندق .

وتعليمات أخرى ... فعلى السرير مطبوع هذه العبارة : لا تدخن فى السرير ..

وعلى الباب مكتوب : أقفل الباب وراءك .

وفى دورة المياه - ويسمونها «بيت الراحة» ، وفى هونج كونج يسمونها

«بيت الارتياح» - ورقة مطبوعة ملفوفة حول الأكواب وحول أماكن الراحة :

لقد عقمناه لك . .

والتعليمات كلها تدل على الخوف من الحريق . . فالخرايق هنا كثيرة

جدا .. فالبيوت مصنوعة من الخشب كلها . . لكثرة الزلازل والبراكين التى

تحدث فى اليابان وتودى إلى هدم البيوت وإحراق المزارع والأشجار والمباني . .

والتعليمات في الفنادق تدل على مخاوف الناس في أي بلد .
ففي الفلبين يطلبون من الزبائن ألا يلعبوا القمار في الغرف .
وفي هونج كونج تعليمات تحذر الزبائن من أن يجعلوا غرفهم للدعارة . .
واليابانيون مؤدبون . . ويكفي أن تقرأ على المنضدة في الغرفة هذه العبارة
المكتوبة بالأحمر وبخط كبير جدا لتعرف ماذا يقصدون : نحن يسرنا أن
تستخدم صالة الفندق للحفاوة بكل من يزورك .
يعني ممنوع الحفاوة بزوارك وزائراتك في الغرفة . .
ولكنني لاحظت - مع اسف - أن الحفاوة تم في الصالة وفي الغرف أيضاً!
والناس بيتسمون وفي أدب عميق ينحنون .
وأمس تعلمت الانحناء في الصالة واليوم أجد الابتسام في الغرفة !

* * *

قرأت قصة لأديب روسيا تولستوى . . والقصة معناها عميق . . بل لها
عشرات المعاني العميقة . . وأنا اخترت أحد المعاني فقط . . القصة تقول :
إنه كان في إحدى مناطق المراعي في روسيا جماعة يقسمون الأراضي الواسعة
بينهم بطريقة غريبة بعض الشيء . . فكل إنسان يركب حصانه وينطلق
مع شروق الشمس . . وكل الأراضي التي يمر بها تصبح ملكاً له بشرط أن يصل
إلى النقطة التي بدأ منها . . قبل غروب الشمس . .
والذي كان يحدث هو أن كل واحد منهم كان ينطلق بحصانه بأقصى
سرعة لكي يقطع أكبر مساحة من الأرض ، ولكن عندما يحاول العودة إلى النقطة
التي بدأ منها يكون حصانه قد تعب . . أو يكون مات منه في الطريق . .
وبعض هؤلاء الناس قتلوا خيولهم . وبعضهم بعد أن مات حصانه حاول أن
يعود على قدميه فمات هو الآخر . . دون أن يصل إلى النقطة التي بدأ منها !
فليس المهم أن تنطلق بسرعة في البداية ولكن المهم أن تحسب حساب
طريق العودة . .

المهم أن تعود خفيفاً سليماً وقبل غروب الشمس .
اليوم أحسست أن حصاني قد مات مني أو على وشك أن يموت . . فقد

جمعت الكثير من الأشياء في حقائبي ولا أعرف كيف أنقلها أو أتركها . . .
وكل إنسان أسمع أنه في طريقه إلى القاهرة أعطيه بعض ما معي . . . واليوم
يوجد في القاهرة سبعة من الأصدقاء لديهم كتب اشتريتها من الهند وأندونيسيا
والفلبين وأستراليا واليابان . . . ولديهم تماثيل أتيت بها من جزيرة بالي ، وقواقع
مكتوب عليها أسماء أصدقائي أتيت بها من رأس كومورين في أقصى جنوب الهند ،
واشتريتها من سنغافورة . . . ومن أستراليا اخترت مجموعة نادرة من كتب الأدب
والفلسفة ، وعلم النفس . . . ومن الفلبين كتباً وملابس وآلة تصوير تعبت
من حملها .

وأمس شعرت أن المشكلة تجددت مرة أخرى ، وحقائبي مليئة الآن
بملابس الصيف وملابس الشتاء ؛ فقد رأيت في أربعة أشهر جميع فصول السنة .
رأيت الصيف في الهند وأندونيسيا . والشتاء والربيع في أستراليا . واليوم أعاني
فصل الخريف في اليابان . . . وملابسي الصيفية أخشى أن أتركها في الفندق
فهي قديمة . . . وهي متواضعة جداً بالنسبة للملابس الخاديات هنا ، وبالنسبة
للصناعة اليابانية . . . وأخشى أن أتركها فيشحنها اليابانيون إلى القاهرة . . . لشدة
أدبهم وأمانتهم . . . ولا أعرف إن كنت أستطيع أن أرميها من الطائرة . . . ولكن
مع الأسف نوافذ الطائرات لا يمكن فتحها إلا في حالات السقوط !

وحاولت أن أعطيها لإحدى الجمعيات الخيرية ووجدت جمعية للمكفوفين
ودخلت على سبيل الاستطلاع ، ولكني لم أبق سوى لحظات وخرجت فقد وجدت
ملابسهم نظيفة أنيقة ومكوية ومنشية .

فكرت في أن أتمشي مع أحسن التقاليد اليابانية . . . وهي أن أشتري ملابس
جديدة أضعتها فوق الملابس القديمة . . . تماماً كما يفعلون بالأشجار التي يغطونها
بالقش ، فتحجب الحشرات وتسكن في القش خوفاً من البرد ، فإذا طلع الربيع نزعوا
القش وأحرقوه بما فيه من حشرات . . .

وقد لاحظت أن القماش الياباني يصيبني بالهرش . . . فعندى حساسية ضد
الحرير والقطن الياباني - ولا أعرف إن كانت هذه حساسية أو حشرات
ترانزستور - أي صغيرة جداً جداً - ولذلك سأحتفظ بكل هذه الملابس

التي تلتقط الحشرات وأحرقها بعد ذلك !
والمعقول جدا أنه لا داعى للملابس اليابانية ذات الحشرات الدقيقة والاكتفاء
بملابسى القديمة ..

والمثل عندنا يقول : من فات قديمه تاه ..
وأنا ، حتى إذا أردت أن أترك القديم ، فإننى لا أريد أن أتوه .. أن
أضيع .. فما تزال المرحلة طويلة أمامى !

وفكرت فى قصة تولستوى : فإما أن أملأ حقايبى بالأشياء التى تباع رخيصة
هنا . وفى هذه الحالة لا يمكن أن أعود إلى القاهرة عن طريق طوكيو ولا عن
طريق نيويورك .. وإما أن أعود وفى هذه الحالة يجب أن أستغنى عن القديم
الذى عندى والحديد الذى أحلم به ..

وفى قصة تولستوى عاد كثيرون إلى النقطة التى بدأوا منها أحيانا بعد الغروب
وأحيانا قبل الغروب .. وكانت معهم خيولهم .. وكانوا بلا خيول أو جاءت
الخيول بلا أصحابها ..

وآخرون عادت بهم خيولهم موتى ، الحصان حى .. وصاحبه ميت ..
وبعد تفكير قررت أن أتصرف بشكل آخر .. سأصل بعد الغروب ومعى
حصانى لا هو تعبان ، ولا أنا كسبت أرضاً ولا هو .

ولكن التنقل فى بلاد واسعة أعظم وأروع ..
والذى أحمله فى رأسى وفى قلبى أجمل من كل ما تحمله أية حقيبة .. فلن
أحمل معى أى جديد ولا أى قديم .. يكفى أنى أحمل رأسى ..

لقد انطلقت - كما تقول القصة - عند شروق الشمس وسأعود بعد غروبها
لا فى نفس اليوم ولكن بعد ذلك بأيام وشهور .

● لا صغيرة .. ولا شعبرا أقزام!

كل يوم تتغير فكرتي عن هذه البلاد .. كنت أتصور أن اليابان بلاد صغيرة يسكنها شعب ضئيل الحجم ، يأكل في أطباق صغيرة وملاعق صغيرة ويقعد على الأرض ويمشي في زحام شديد كأنه موج البحر .. وكأني العملاق جليفر في بلاد الأقزام .. ولكنني وجدت اليابان ليست صغيرة . فعدد سكانها ١٠٠ مليون وليسوا جميعا من الأقزام ففيهم أناس طوال القامة بيض الوجوه جدا ، وليس كل شيء صغيرا عندهم ، ففي طوكيو أعلى برج في العالم ، أعلى من برج إيفل بباريس .. وإذا كانت عندهم راديوهات صغيرة ويحاولون الآن عمل جهاز للتليفزيون يمكن وضعه في الجيب ، فإن لديهم محطات ضخمة وجسورا هائلة وأكبر سفن في العالم ومصانع مساحتها شاسعة .

وكنت أتصور أن الصين بمئات الملايين من سكانها هي مصدر القوة بين كل سكان آسيا . أو أنها هي وحدها التي ستكتب تاريخ العالم في القرن العشرين والقرن الواحد والعشرين .. وقد رأيت نشاط الصينيين في كل الدول الآسيوية ، إنه منظم وقوى .

ولكن اليابان هي الأخرى قوة جبارة ، إنها محتملة الآن .. ولكنها تشبه الأسد المقيد ، إنه مقيد ولكنه نحيف أيضاً ..

وإذا كانت اليابان قد تغيرت وأصبحت دولة صناعية قوية فإن آسيا التي أسيلت دماؤها بأسلحة اليابانيين قد تغيرت هي الأخرى . وآسيا كلها واليابان

في حالة نحو منتصف الطريق . . فاليابان تمد يدها لكل الدول . . واليابان تحاول أن تجعل نفسها ضرورة لا بد منها بالنسبة لكل جيرانها ، وكلهم أعداؤها . . وكانت اليابان والصين هما الدولتين الوحيدتين المستقلتين قبل الحرب في آسيا . . وأصبحت اليابان هي الدولة الوحيدة الكبرى المحتلة بعد الحرب . وهناك عوامل غيرت معالم آسيا كلها ، وغيرت نظرتها إلى اليابان أيضاً كدولة عسكرية استعمارية . .

وهذه العوامل الثلاثة هي : الحركات الوطنية ، والشيعية ، والحياد . فالحركات الوطنية حررت الهند والباكستان وبورما وسيلان وأندونيسيا والفلبين وكوريا وكومبوديا ولاوس وفيتنام .

ولم تبق هناك أقطار مستعمرة حتى الآن سوى هونج كونج البريطانية . والشيعية هي الأخرى كان لها أثرها في آسيا . . فانتصار الاتحاد السوفيتي في الحرب الأخيرة على ألمانيا قد أدى إلى استقلال الصين وكوريا الشمالية ومنغوليا الخارجية وفيتنام الشمالية . .

ثم ظهور الدول المحايدة بين المعسكرين . . وهذه الدول تدعو للسلام وعدم الانحياز . هذه الدعوة أقامت دول كولومبو : الهند وسيلان وبورما وأندونيسيا . وقد لعبت كتلة الحياد دوراً هاماً في باندونج سنة ١٩٥٥ .

ثم ظهور اتفاق سياتو (أي دول جنوب شرق آسيا) ، ويتألف من تايلاند والفلبين وباكستان وأمريكا وبريطانيا وفرنسا وأستراليا ونيوزيلندا . وقام حلف بغداد المزعوم الذي كان يضم بريطانيا وتركيا وباكستان والعراق وإيران .

ثم ظهرت أحلاف أخرى ضد اليابان نفسها وضد مطالب اليابان في المستقبل تضم أمريكا وأستراليا ونيوزيلندا .

ومشكلة اليابان الآن : أنها رغم احتلال الأمريكيين لها تريد أن تصادق الدول التي تغيرت ملامحها ، واستقلت كلها . . إن اليابان أصبحت دولة جديدة وعفا التاريخ عما سلف . . وكل يوم يقوم الخبراء من اليابان برحلات باسمة لكسب الود . . أو رحلات من طراز (صافية لبن) بين كل الدول الآسيوية والصين خصوصاً والدول الأوروبية التي كانت تعد أعظم الأسواق لتصريف البضائع اليابانية . .

واليابان لها مشاريع صناعية كبرى في آسيا . . هذه المشاريع هي ضمن التعويضات التي تدفعها اليابان للدول التي اعتدت عليها واحتلتها أثناء الحرب الأخيرة . ولذلك اشتغلت الأيدي اليابانية . . هل تتصور أن عدد العاطلين في اليابان هو مائة ألف ، وأن عدد الأيدي العاملة هو ٤٧ مليوناً . . وأمريكا تستورد من اليابان كميات هائلة من المنتجات . . والناس يقولون هنا : هذا فضل عظيم ولكن إلى متى ؟ فإذا تخلت عنا أمريكا تكون مصيبة لنا ؟ ولابد من أن تتخلى أمريكا عن اليابان واليابانيون يعلمون هذا بوضوح . . وهم لذلك يبعثون بالخبراء والدبلوماسيين ليوسوارثوس الدول المجاورة ، فإذا تم الصلح انطلقت اللعب اليابانية والسيارات والراديوهات والأقشة وامتلات الأسواق بكل شيء مكتوب عليه : مصنوع في اليابان .

فاليابان ليست صغيرة وإنما هي عملاق يخطو إلى الوراء . فتظن أنه يتراجع ولكنه في الحقيقة يتحفز ليقفز إلى الأمام . . .

* * *

في المطاعم اليابانية يضعون أمامك ورقة صغيرة مكتوباً عليها : « نشكرك على حضورك ونرجو إن كان هناك أى تقصير أن تدلنا عليه لكي نتلافاه في المرة القادمة » . عبارة جميلة مؤدبة مهذبة . ولكني لاحظت أن اليابانيين لا يقصدونها تماماً . فقد حاولت أن أدخل بعض التعديلات على الأطعمة وكانت النتيجة : واحد لصالح المطعم وصفر لصالحى أنا . .

أما الموسيقى التي أسمعها من بعيد فليست تحية لهذا الفشل ، ولكنها صوت ضفادع من نوع غريب يحتفظون بها للدلالة على أن الربيع على الأبواب ! وقد عرفت بعد ذلك أن المشكلة هي مشكلة اللغة ؛ فاللغة الإنجليزية نادرة الوجود هنا ، ندرة السلع الأجنبية . .

فن النادر أن تجد سلعة أجنبية في اليابان . . حتى اللغة الإنجليزية صنعوها وطوروها وأصبح لها معنى ونطق غريب جدا عن اللغة الإنجليزية . وإذا استمعت إليها عن قرب فإنه يصعب عليك أن تفرق بينها وبين اللغة الصينية . .

في الفندق الذي أنزل به أطلب كل يوم فنجان شاي أو براد شاي ...

من غير لبن ومن غير ليمون ومن غير عيش .. كل يوم ..

وفي يوم جاءني ضيوف فقلت للفتاة الحلوة: براد شاى وفنجانان من الشاى .
وكانت النتيجة أنها أتت ببراد مليء بالشاى وفنجانين بهما شاى أيضاً .

ولو ملأت الفتاة هذه الفناجين عدساً فلننى أمام أديها ورقها وحرصها الشديد
على أن تلبى كل طلب سأجد نفسى عاجزا عن رفض أى شئ ..

وتعودت أن أكتب كل ما أريد .. ولكن هذه الطلبات كان من الصعب
تنفيذها .. وأخيرا جعلت كل طلباتي مكتوبة باللغة اليابانية ، ولاحظت أن هذه
الطلبات المحدودة ينفذها كل مطعم على هواه .. فأصحاب المطاعم كلهم كالمجتهدين
من رجال الدين .. فينبهم الحنبلى جدا .. وبينهم الشافعى المتسامح ، وبينهم
من يرفض تلبية هذه الورقة لأنها لم ترد في كتاب من قبل !

* * *

وفي يوم ذهبت إلى مطعم « سوييرو » وهو من المطاعم الشهيرة في طوكيو ..
الدور الأخير عبارة عن مطعم على الطريقة اليابانية .. يعنى يجب أن تنزع حذاءك
وترتدى الشبشب .. ثم تجلس على الأرض وفوق شلثة والشلثة فوق حصيرة ناعمة ..
وأمامك منضدة .. ووراءك فتاة الجيشا ترقص وتغنى .. وغناؤها يشبه نقيق الضفادع
المعروفة عندنا .. وتدعش أنت كيف تحتفظ في هذا الجسم الأبيض الناعم بمثل
هذه الحيوانات الكريهة ، وتتعب كيف دخلت هذا العنق الناعم الملفوف .. ؟
وعلى المنضدة يوجد وابور بوتاجاز .. وبعد لحظة يحضر الشاى اليابانى
الأخضر .. وإلى جانب الشاى يوجد طبق طويل به فوطة بيضاء ملفوفة وساخنة
لكى تمسح بها يديك إن كانتا قد اتسختا من حذائك أو شعرك وأنت تهرش
متعجبا للأسباب التى ذكرتها من قبل ..

ومع الفوطة تجئ جرسونة أو خادمة ، وقد ارتدت الكيمونو . وليس من
الضرورى أن تتحدث معك ، فلا فائدة من الكلام .. فهذا المطعم يقدم طعاما
يابانياً .. طبقاً يابانياً واحداً .. هذا الطبق اسمه السوكياكى . وهو أشهر طبق في اليابان
والناس يأكلونه في البيوت ، عند الحفاوة بإنسان عزيز عليهم لأنه غالى الثمن .. وبعد

لحظات تحضر الفتاة ومعها طبق يشبه الطشت الصغير وعليه شرائح من اللحم .. كمية كبيرة جدا .. وطبق آخر من البصل الأخضر ، وإبريق كبير ، ستعرف فيما بعد أن به صلصة سوداء وستعرف فيما بعد أنها مخلوطة بالعسل الأسود .. وطبق آخر به زبدة .. وبعد ذلك تحضر لك عودين من الخشب لتأكل بهما .. وتشعل الواور وتضع عليه طاسة من النحاس الأسود وتضع الزبدة والبصل الأخضر والفجل والجرجير والبقدونس والصلصة السوداء واللحمة الحمراء التي تتحول إلى بيضاء لأسباب لا أعرفها ..

وتضع أمامك سلطانية في حجم فنجان الشاي .. وفي هذه السلطانية يوجد البيض المضروب .. وعندما يسقط اللحم الساخن على البيض البارد فإن البيض يجمد ويسخن أما اللحم فيبرد . وعليك أن تأكل هذا كله .. وإذا حاولت إدخال أية تعديلات على هذا الطعام الياباني الوطني وجدت صعوبة لا حدود لها .. فإذا طلبت استبعاد السكر ، أتوا لك بصلصة من غير سكر ولكن فيها شيء آخر غريب الطعم .. وإذا طلبت استبعاد البصل أتوا لك بأعواد الخيزران ووضعوها في الزبدة .. وإذا طلبت استبعاد الزبدة أتوا لك بالسمنك التي ..

وأمام الأدب والذوق والرقعة والانحناء والركوع والسجود إلخ . تنسى تلك الورقة التي تروجك أن تصارح المطعم بأى عيب . وسينتهى بك الأمر إلى أن العيب فيك أنت .. أما اليابان وأهلها وطعامها فعلى خير ما يرام ..

وعندما يسألني الناس عن رأيي في اليابان أقول صادقا : عظيمة يا مجتكم !
وعندما يسألونني عن رأيي في الطعام الياباني ، فإنني أقول كاذبا : لذيذ ..
يا مجتنتنا !

• • •

في طوكيو مسرح اسمه كوكوساي ، ومعناه : العالمي .. وهذا المسرح يقع في حي أساكا .. وكل شوارع طوكيو ليس لها أسماء ولكن الأحياء لها أسماء .. أما الشوارع فيعرفونها هكذا : الشارع الرئيسي في حي كندا .. ولذلك فأنا لا أعرف اسم الشارع الذي يقع فيه هذا المسرح .. وأنا أعتقد أن هذا المسرح هو أعظم مسرح رأيت في حياتي .. لأنه أروع من الفولي برجير في باريس وأجمل

من كل مسارح ودور أوبرا إيطاليا ، وإن أى مدير مسرح يجئ ليتفرج على الإدارة المسرحية هنا وإدارة الضوء ونزول وطلوع وطيران الستار هنا وظهور السينما والتلفزيون على هذا المسرح فسيشعر أنه لا يعمل مديرا للمسرح وإنما هو يعمل فى تصليح بوابير الجاز !

وعلى جانبي المسرح توجد ١٢ نافذة يخرج منها الضوء يلاحق الراقصات .. وفى المسرح ٢٠٠ راقصة من أجمل بنات اليابان .. يختارهن المسرح بالمسابقة ، وبعد تعليم خاص لفنون الرقص التقليدى والحديث .

وعلى المسرح مناظر مذهلة تتغير وتتلون وتتقدم وتتأخر فى ثوان .. وهذا المسرح لأنه «عالمى» يعرض كل فنون الدول الشرقية والغربية .. اليابان واليونان وإيران وأمريكا .. وقد ظهر على المسرح إعلان رائع لشركة الطيران الهولندية الملكية : فظهرت مضيفات وراءهن طائرة كاملة ، وفى السقف طائرة أخرى تحلق فوق رعوسنا ، ثم ظهر شريط سينمائى .. وفى أقل من ثانية اختفى هذا كله .. وظهر منظر آخر فى بلاد اليونان .

وأروع مشهد هو الزلازل والبراكين .. وفى اليابان الدخان والحرائق والانبيارات وكلها تظهر فى دقة مخيفة .. لقد تصورت أن الدخان سيخفق أنفاسنا جميعا .. ولكننى لم أشم هذا الدخان الذى انطلق من المسرح إلى كل مكان .. وفى لحظة اختفى .. ولم أجد أحد أسأله عى تفسير هذه الظاهرة الغريبة ..

أما المشهد الأخير ، وهو التاسع والعشرون ، بعد ساعتين ، وفيه يتحول الستار والمسرح إلى مئات المصابيح الكهربائية الملونة ، التى تدور حول نفسها كالنجوم ؛ من بين هذه المصابيح الدقيقة الصغيرة تخرج الراقصات واحدة بعد واحدة ، حتى يمتلئ بهن المسرح .. لم أر أجمل ولا أروع من هذا ..

الحقيقة أن اليابان تفوقت فى كل فروع العلوم والفنون ، وتفوقت فى صناعة كل ما فى البيت والمطعم والشارع والقطارات والسيارات .. كل شئ .. ولا أدرى لماذا لم يحاولوا تعديل قائمة الأطعمة اليابانية !

إن هذا الموقف العنيد يؤكد أنهم أصغر من العادات والتقاليد .. إنهم لا يزالون أقزاما !

● ليس غبيا.. ولكن

كل يوم تسأل نفسك فى اليابان : هل هذا الشعب اليابانى بليد الفهم ؟
هل هو غبى ؟

وتنظر إلى ما حققه اليابانيون بعد الحرب ، وتنظر إلى الصناعات الضخمة والأذواق الجميلة ، وتذكر تفوقهم فى كل فروع العلم والأدب والفن والصحافة . إن صحيفة اسمها « أساهى » توزع ستة ملايين نسخة يوميا !

وتقول فى نفسك : لا يمكن أن يكون الناس هنا أغبياء ، ولكن لابد أنهم يفهمون بطريقة خاصة جدا ، وأحيانا تعتذر لهم فتقول إن المشكلة فى اليابان هى مشكلة اللغة الإنجليزية التى لا يعرفونها .

ولكن المصيبة أن المواقف المحرجة المحيرة لا تقع إلا من الذين يعرفون اللغة الإنجليزية !

فتلا طلبت من استعلامات الفندق أن تحزم بعض كتبى وتبعث بها إلى القاهرة بطريق البحر ، وفهمت أن الكتب تحتاج إلى لف بالورق والدوبارة ثم كتابة العنوان عليها ، ولم أعلق أى اهتمام على لف الكتب أو ربطها .. وسافرت بعد ذلك إلى هيروشىما وجنوب اليابان وبقيت أسبوعا ، وفى يوم فكرت أن أطمئن على هذه الكتب وسألت عنها ، وفوجئت بأن الكتب ملفوفة وموضوعة على الأرض ، ولم يدهش موظف الاستعلامات وكأن شيئا لم يحدث .. وسألته كيف ترك هذه الكتب كل هذه المدة دون أن تبعث بها إلى البوستة ؟

وعرفت أنه كان يجب أن أرفع ثمانية قروش أولا « ثمنا » للف بالورق والدوبارة
... ودفعت ..

أما لإرسال الكتب للبوستة فأنا وحدي الذي يجب أن أتولى هذه العملية ؟
هل تعرف أين توجد البوستة ؟ إنها في نفس الفندق وعلى مسافة قدرها ثلاث
خطوات !

ذهب دبلوماسي عربي - لاداعي لذكر اسمه - إلى محل لتفصيل الملابس
وقدم للترزي قطعة من القماش لتفصيلها بالطو . واشترط أن يكون الباطون طراز
خاص ، ووقف الترزي يتحدث إلى زميل له طويلا جدا .. وسأله الدبلوماسي
إن كان هناك أى عيب في القماش .. فكان الرد : ولكن الجو ليس باردا
في اليابان ولذلك لا داعي لتفصيل الباطون وبر الجمل .
وقال الدبلوماسي : ولكنى لا أتحمّل البرد هنا .

وعاد الترزي يتحدث إلى زميله طويلا جدا ، وعاد الدبلوماسي يسأل إن كان
هناك عيب آخر في القماش الذي يقبلانه بين أيديهما ..

وفهم أن الترزي يناقش زميله إن كان قد سمع آخر أنباء الأرصاد الجوية
فقد علم هو أن الأرصاد الجوية تنبأت بأن الجو في اليابان لن يكون باردا لمدة
خمس سنوات . وعلى ذلك فلا داعي للبباطو إطلاقا !

ولما ضاق الدبلوماسي قال : يا سيدى سأرتدى هذا الباطو في موسكو في
سبيريا .. أنا حر !

واندمج الترزي وزميله في مناقشة حامية طويلة جدا . ولم يطق الدبلوماسي
صبرا فسألها من جديد : ألا يمكن تفصيل هذا الباطو ؟
فأجابا : طبعا ممكن .

وقال الدبلوماسي : إذن لماذا كل هذه المناقشة .. إننى هنا منذ ساعة بالضبط
ولم أفهم شيئا .

وكان الرد القاطع : ولكن هذه التفصيلة التي تريدها قديمة ، وقد عدل عنها
اليابانيون منذ خمس سنوات .

وصرخ الدبلوماسي : ولكن تعجبنى يا أخى .

وعاد الترزيان إلى الكلام ، وخرج الدبلوماسي وترك القماش ، وهو لا يدرى

الآن إن كان سيجد القماش قد فصلوه بالطو أو جعلوا منه دسنة مناديل !
وتسألني أنت عن معنى هذه التصرفات التي تتكرر كل يوم ؟ ..
لا أعتقد أن هذا غباء ولكن الياباني يفهم بطريقة خاصة ، ويجب أن يكون
كل شيء محمدا تماما .

وقد سألت عن الكلام الطويل الذي يدور بين اليابانيين عادة .

فمثلا إذا سألت أحدا في الطريق العام عن اسم أى شارع ، ولم يفهم كلامك
أو يفهم بعض كلامك فإنه يتجه إلى أى ياباني آخر ويدور بينهما كلام طويل
جدا . ولا تعرف أنت ما الحكاية .. وأخيرا تتركهما وتمشى أو تركب سيارة
وتنظر من النافذة فتجد أن الاثنين يتكلمان .

أخذت معى صديقا يابانيا وذهبنا إلى مكتبة أسأل فيها عن كتاب عن « إلغاء
البغاء » في اليابان . وفي تقديري أن السؤال عن هذا الكتاب لا يستغرق أكثر من
عشر ثوان أو أقل .. والذي أدهشنى أن هذا الصديق ظل يتحدث مع صاحب
المكتبة أكثر من عشر دقائق ، وقد ظننت أنه يناقشه في موضوع أحد الكتب أو
يفاضل بين الكتب الموجودة في المكتبة وأيها أنسب ، ولما سألته إن كان الكتاب
موجودا فقال لى إنه لا يوجد هنا الآن .

وعرفت منه أن الحوار كان موضوعه السؤال عن الكتاب ، ورجوته أن
يترجم لى حرفيا كل ما دار بينهما .

وأنا أنقل هذه الترجمة الحرفية :

قال صديقى : أليس عندك كتاب صدر أخيرا يكون وافيا بالعرض إن أمكن
لأن هذا الصديق : جاء من القاهرة ومهتم بشئون اليابان . وقد يسافر بعد أيام وهو
لذلك على عجل .. وأنا أحب أن ألبى كل طلباته لأنه قد ينفعنا في الدعاية
لبلدنا وفي توطيد العلاقات الثقافية بين اليابان والعالم العربى . . وقد طلبت منه صحيفة
«أساهى» مقالا عن اليابان لنشره كاملا مهما كان نقده لليابان وهى تعلم مقدما
أن لسانه طويل .. ولهذا فأنا أرى مساعدته إن أمكن الحصول على كتاب
عن موضوع البغاء وخصوصا إلغاء البغاء لوتشرفتم . . وأعتقد إذا لم تخفى ذاكرتى

أن وزارة العدل هنا أو وزارة التربية قد أصدرت كتابا أعتقد أنه لا يزيد عن مائة صفحة أو مائتين وإن كان أحد أصدقائي يؤكد لى أن كتابا آخر صدر في أمريكا عن هذا الموضوع .. فإذا تفضلتم وساعدتموني إن أمكن في الحصول على هذا الكتاب في أقرب وقت وإذا وجدتموه أرجوكم إن تكرمتم أن تبعثوا به إلى الفندق وسأعطيكم عنوانه الآن .. إلخ .

وبعد كل ثلاث كلمات يرد عليه صاحب المكتبة قائلا : آه سودسكا ..
ومعناه آه كده آه كده .

والنتيجة أن صاحب المكتبة لم يسمع عن هذه الكتب جميعا ويأسف جدا وينحني كأنني اشترت منه كل المكتبة !
أسس علقت على باب غرفتي ورقة مطبوعة مكتوب عليها : الهدوء من فضلك لا تزعجني ..

ومعنى هذه الورقة ألا تدخل خادمة وتنظف الغرفة أو تدخل لتجمع فناجين القهوة أو الشاي أو تحضر الغسيل .. ومضت ساعة في هدوء وبعد ساعة أخرى دق جرس التليفون وسألني الخادمة متى تدخل الغرفة لتنظفها ، فقلت لها بعد ساعتين .. وشكرتني ولا بد أنها انحنت أمام التليفون على الناحية الأخرى من الخط ..

ولكن حدث بعد ذلك أن تجمعت المقشاة الكهربائية .. وراحت تزن وتثن أمام باب الغرفة بصورة مزعجة .

لقد فهمت الفتاة أنني حريص على الهدوء داخل الغرفة فقط ، أما الضوضاء التي تدور خارج الغرفة وتخرم أذني وتطفش الأفكار من رأسي هذا شيء آخر لم أطلبه في الورقة المعلقة على باب الغرفة .

وأفهم من هذا أن الرجل أو الفتاة اليابانية ينفذ بالحرف الواحد ما تطلبه دون أى تصرف ودون أى تقدير لأى احتمال آخر .

يعنى غيبى ؟ لا .. وإنما يفهم وينفذ بصورة خاصة .. مختلفة عن المؤلف عندنا !

• • •

انطلق بنا القطار من هيروشيما إلى طوكيو .. كان من المفروض أن يقف بنا القطار في مدينة كيوتو ساعتين .. هكذا قيل لنا ، وكان في نيتنا أن نزل في مدينة كيوتو ، وتناول طعام العشاء .. فقد عرفنا بعض المطاعم بها .. وأصبحت لنا صداقات مع الفتيات هنا .. وقد عثرنا بمحض الصدفة على واحدة تعرف أكثر من عشرين كلمة إنجليزية ، وكنا سعداء بها . وفوجئنا في الساعة التاسعة مساء أن القطار الذي ركبناه هو لاكسبريس . وأنه اتجه إلى الجنوب ثم إلى الشمال وتفادى المرور بمدينة كيوتو وسيقف على بعض المحطات الأخرى التي لا نعرفها .. وبدأ الباعة . أقصد البائعات يرحن ويجنن في القطار ومعهن أطعمة لا نعرف أسماءها فكلها في علب مغلقة . وكان التفاهم صعبا .. ومددت يدي إلى علبة ودفعت ثمنها . وشكرتني الفتاة عشرين مرة .. كأنني اشتريت شيئا لا يشتره أحد وكأنني خلصتها من ورطة .. أو كأنني اشتريت منها كل البيض المشمش الذي رفضه اليابانيون - في الفيليين طعامهم المفضل في الصباح هو البيض المشمش جدا أنا أكلته ووجدته يتعب المعدة والكبد والأمعاء الغليظة ولا تذهب رائحته إلا بغسيل الفم سبع مرات لإحداهن بالتراب - وفتحت الصندوق ووجدت أربع أصابع بنية الألوان .. وأزلت الطبقة البنية ووجدت في داخلها مادة بيضاء .. وعرفت عن طريق الكسارى الذى يعرف أسماء الخضروات والفواكه .. أن هذا هو أرز .

وسألني عن معنى هذه الأكلة في بلدنا فقلت له : اسمها سد الحنك .. وفي أدب ياباني ولكن مفتعل جدا وضعت الصندوق تحت الكرسي .. ومرت فتاة تبيع اللبن في زجاجات مغلقة . وأشرت إلى زجاجة واشتريتها وفتحتها وكانت باردة جدا . وفي اليابان ككل أوروبيا يشربون اللبن باردا .. ومعظم الأطعمة باردة . وذقت طعم اللبن وفي ذل وضعت الزجاجة تحت الكرسي ..

ومرت فتاة ثالثة ومعها سميط - في اللغة العربية الفصحى اسمه سميد - السميط ملفوف في ورق شفاف .. وكل شيء في اليابان ملفوف لفا أنيقا ، والسميط ناشف جدا .. ورائحته سمك . وعرفت بعد أيام أن هذا السميط مصنوع من الأسماك والجمبرى المجفف .. وفي غلب وقرف وضعت السميط تحت الكرسي وأحسست أنه فعلا سميد وليس سميطا كالذى نعرفه ..

وكان يجلس ورأى رجل يابانى وزوجته أو عروسه . . وكانت أمامها كمية من الطعام هائلة .. كلها من علب وقراطيس وزجاجات . . ويأكلان بشهية مذهلة .. وبين الحين والحين أنظر ورأى فأجد لحوما وأسماكاً ومكرونة وأشياء تشبه البصل والبيض أو الفجل وأشياء أخرى تشبه العيون المقلوعة .. وفى الصباح وقف القطار عند محطة . وفى المحطة رأيت فتاة تباع البيض فى قراطيس من النايلون . . ولاحظت أن البيض ليس معه ملح أو فلفل فاشترت قرطاساً من السودانى المملح . وبدأت كسر أول بيضة .. وكانت لذيدة باردة جامدة ومررتها على السودانى المملح المقشر .. وثانى بيضة لا يمكن أن تكون يابانية .. لأنها مستوردة من الفلبين .. فقد وجدتها جافة وفيها تمثال صغير لكتكوت .. والبيضة الثالثة كذلك .. ووضعت البيض تحت الكرسى .. ووضعته بعناية تامة فى القرطاس النايلون ..

ولمحت على رصيف محطة أخرى رجلاً يبيع أباريق الشاي الساخنة والدخان يتصاعد منها .. ونظرت إلى الركاب حولى .. كلهم يشربون الشاي الساخن وقد تعودت على الشاي اليابانى الأخضر .. وقد اشترت براداً .. وجلست وأنا سعيد بهذا الشئ الدافئ وصبيت فى فنجان صغير .. ولم يكن الشاي أخضر اللون ولا أحمر اللون .. لقد كان ماء ساخناً بلا لون .. ولكن له طعم النييد وله رائحة الكونياك .. إنه المشروب اليابانى الوطنى ، إنه « الساكى » .. وضعت البراد تحت الكرسى ..

وأرجعت مقعدى إلى الوراء واستسلمت للأطعمة التى فى .. ورحت أقلب لسانى يمينا وشمالاً وأغسل شفتى بريقى وأمسحهما بيدي .. وحاولت أن أتشغل عن الطعام وأن أسد أذنى عن حركة التكسير والطحن الذى يدور فى المقعد الذى ورأى ..

ولكن المعدة الحالية لها أذن ولها ألف أنف أيضاً فأنا معذور !

وبعد نصف ساعة وصل القطار إلى محطة طوكيو .. ومن نافذة القطار وجدت كل الفنادق مغلقة والمطاعم مظلمة .. لقد وصل القطار فى السادسة صباحاً والمحلات تفتتح أبوابها هنا فى التاسعة .

وجمعت حقائبي ولففت الباطو حولي وشدتدت الحزام حول معدتي لعلى
أسكتها وهي تسب وتلعن وتصرخ .. ولم أكد أنزل على الرصيف حتى وجدت
البائعة التي اشترت منها البيض والشاي والسميط قد وقفت على الباب تحييني
وتقول كلاما لا أفهمه .. وفجأة وجدتها قد جمعت كل الأشياء التي وضعتها
تحت الكرسي وقدمتها لي من جديد .. لقد ظنت أنني نسيتها .. وأمام وجهها الباسم
وأدبها الذي لا حدود له .. حملت كل هذه الأطعمة ونزلت بها من الرصيف
إلى الشارع ولا أدري أين أضعها .. فالشوارع كلها نظيفة .. وأشرت إلى تاكسي
وأخرجت من حقيبي إحدى الصحف ولففتها في الصحيفة .. وألقيت بها جميعا
من السيارة . وعندما دفعت للسائق الأجر أشرت إليه أن ينطلق بسرعة قبل
أن ينتبه إلى أنني قد نسيت هذه الأطعمة فيعيدها لي من جديد ..

وعندما توقف التاكسي لكي ينهني إلى الأشياء التي ألقيتها من النافذة قلت له
في سرى : بصراحة أهي دى اسمها غباوة !

● واهنا معانا قرد!

كان القمر نزل من السماء وتكسر قطعاً قطعاً فوق مدينة طوكيو .. كل شيء منير وملون ومتحرك .

الحوارى الصغيرة أجمل من الشوارع الكبيرة وأكثر عفاريت وملائكة من الميادين . والمطاعم الكبيرة نظيفة جداً .. والمطاعم الصغيرة فيها حياة ، ناس يضحكون بلا حساب ، ويأكلون بلا حساب ..

ولا أعتقد أنه يوجد في أية عاصمة في الدنيا هيصة وطرب وحظ كما يوجد في مدينة طوكيو .. إن أى شارع جانبي به عدد من البارات والكباريات أكثر من الموجود في القاهرة والاسكندرية ودمشق معا ..

وأنا أعترف بعد ثلاثة أسابيع من الحياة في طوكيو أنى لم أعرف اسم أى شارع .. وفيما عدا شارع جنزا الذى به عدد لا يحصى من الشوارع الجانبية .. فهى كثيرة جداً . وفى هذه الشوارع الجانبية توجد بيوت كثيرة صغيرة ..

كل بيت له باب مضيء وعلى الباب كرة من الورق الملون المضيء .. وعلى الباب فتاة يابانية تبسم لك دائماً .. وفى الغالب كل هذه البيوت الصغيرة يسمونها مطعماً أو مقهى أو مشهى . والأسعار ليست رخيصة كما تقسم الإعلانات على ذلك . وتؤكد أنه مائة ين أى عشرة قروش .. ولكن هذه القروش تزايدت فى الداخل وتصبح جنينيات .. هذه الجنينيات يجب دفعها بعد ساعة من جلوسك .. كل ساعة يجب أن تدفع .. فقد يحدث أن يسهو عليك فلا تدفع أو تنسحب وتخرج .

وهناك فى الشوارع الكبرى شبان لهم ملابس نظيفة ووجوه ضاحكة وفى أيديهم

سجائر أمريكية تدل على أنهم أولاد ناس ، وأنهم في غنى عنك .. هؤلاء الشبان يقتربون منك ويهمسون : ما رأيك في سهرة حلوة .. فتاة تتكلم الإنجليزية بطلاقة .. إنها لا تريد أى فلوس .. إنها تحت الجلوس مع الناس .

ثم يضع يده في جيبه ويخرج لك علبة سجائر ذهبية أنيقة .. ومن الجيب الآخر ولاعة رونسون غالية الثمن .. ومن البنطلون محفظة جلد تسمحح بها صورة للفتاة منذ عشر سنوات وأحيانا عشرين سنة .. ولو نظرت إلى الفتاة لوجدت فيها شها كبيرا منه .. كل هذا جائر في طوكيو .

وقد يكون من مبادئك المشئ مع الكذاب إلى باب الدار .. وستعلم حقيقة غريبة أن الناس لا يكذبون .. التاجر لا يكذب .. وستجد أن هذا الشاب قد وصل فعلا إلى باب الدار ولكن الدار مش ولايد .. وستجد أنه قد نقلك إلى أحد المقاهى أو المشاهى ..

وفي هذه الصناديق الصغيرة .. وفي الظلام تبدو كل الفتيات جميلات ، وكل الرجال أيضا .. فإذا قالت لك إحدى الفتيات : هاى .. أهلا بك يا جيمى .. أو ياميمى ..

فيجب أن ترد التحية لأنها تراك مثل عمر الشريف لا تدقق معها .. أو على الأقل لا تدقق معها الآن ..

فكل الناس في غاية الجمال والكمال في هذه الصناديق الليلية التى يبلغ عددها عشرة آلاف صندوق في طوكيو ..

حاولت أن أطبق المشئ وراء الكذاب .. وذهبت إلى أحد الصناديق حيث توجد أجمل فتاة يابانية !

الحقيقة كان أكبر من صندوق .. إنه كان «صحارة» من صحاير الليل .. وقلت في نفسى : يا وادروح .. حتخسر إيه .

وذهبت وأملى ضعيف جدا في أن أقابل أجمل فتاة في اليابان ، وقد قرأت في الصحف أنها وصلت من لندن منذ أسبوعين ، وأنا رأيت صورتها وعلمت عنها الكثير .. شكلها مش ولايد ولكن دمها خفيف .. وقد سمعت لها تسجيلا في الراديو وأعجبني منها كلامها بالإنجليزى .. رقيق مضحك .. وقلت :

روح مهما فعل اليابانيون فلن يكونوا في شقاوة أولاد أو بنات باريس ..
وقبل أن أصل إلى هذا الصندوق الكبير اقترب مني الشاب الوسيم وقال لي :
انتظر في الصالون بعض الوقت وبعد ذلك ستضاء الأنوار .. ومرة واحدة تنطفيء
وستجد العرض الخاص الذي تقدمه ملكة جمال اليابان .

وفي نفسي قلت : والله كذاب يا ابن الإيه ..

وهمس في أذني مرة أخرى وطلب مني أجرة التاكسي وأعطيته بعض القروش ..
وبعد مناقشة وافق وودعني .. وصعدت السلم .. الموسيقى تستقبلني .. موسيقى عالية ..
أحسست كأن الموسيقى تزفني .. تريد أن توقعني على السلم .. والأصوات والضحكات
عالية .. إنها أصوات أناس سكارى .. وهناك ضحكات ناعمة يابانية .. الوجوه
حلوة كلها من الورد والتفاح . أما الروح على الشفايف فهو يشبه أختام السلخانة
على اللحم العجالي .. والنظرات ليس فيها ترحيب كما كنت أتصور .. ودخلت
غرفة .. الناس فيها واقفون يشربون « الساكي » وهي الخمر اليابانية التي
لا تشرب إلا ساخنة !

وبدأت البيرة التي يشربونها تخرج على هيئة الرغاوى من أفواههم ، وبعضهم
أخذ يتلوى كالأسماك اليابانية عندما استقرت في معدتي أول يوم ولم أكد أراها
حتى أحسست بمغص شديد .. قد تقول إن هذا الكلام أو مجرد خيال .. معك
حق .. فهذا رأيي أيضا ولكن معدتي لها رأي آخر وقد حاولت أن أجعلها تعدل
عن رأيها هذا ومعى ثلاثة من الأطباء .. ولكنها عنيذة .. فاستسلمت لها عندما
رأت هؤلاء السكارى يتلعبطون من شدة الخمر .

وهجمت فتاة يابانية على ملابسى وقد ظننت أنها سكرانة وأنها تكاد تسقط
على الأرض .. فحاولت إسنادها وإجلاسها على أحد المقاعد .. وجلست ونظرت
ناحيتي وقالت : هات لك كرسي يا روحى - قالت كلمة أخرى مش لطيفة !
وأنت بكرسى ولكنى لم أجدها .. لقد اختفت ..

وضحكت لهذه النكتة .. وضحكت عندما عرفت أنها أخذت علبة سجائر
كانت في جيبى ولم يكن بها إلا سيجارة واحدة من صنف يابانى ردى جدا .
ولحت بين الموجودين رجلا كنت قابلته في مدينة سيدنى باستراليا ولم يكذب
يرافى حتى عانقتى بعنف . مع أننا لم نكن أصدقاء .. ولكن البيرة قادرة على

صناعة هذه الأحضان وأكثر وقال : أين أنت وماذا فعلت ، وماذا تفعل هنا وماذا تريد أن تفعل هنا ؟ .. إنك تطاردنى .. فى كل مكان أهرب منك ومع ذلك أجدك .. من ذا الذى أرسلك هذه المرة لآبد أنها زوجتى الملعونة .. أنا أعرفها .. وأعرف ألعابها وأعرف ما الذى يعجبها فىك .. فلست أنت أول واحد فى حياتها !

والحقيقة أننى لا أعرف زوجته .. وكل ما هناك أننا تقابلنا فى إحدى الحفلات .. ولاحظت أن هناك اهتماما شديدا من زوجته بشخصى بعد هذه المقابلة .. فقط اهتمام يحتمه أدب الضيافة فى استراليا أو فى أى بلد متحضر ! وعرفت فيما بعد أن هذا الرجل يبحى كل ليلة وينفق عشرات الجنيهات .. وفى هذه الهيصمة لم أبحث عن ملكة جمال اليابان ولم أسأل أحدا من الحاضرين ، وأدركت أننى شربت مقلبا ، كنت أتوقعه .. ولكننى لم أخسر شيئا .. فى أى بلد جديد لا أخسر أى شئ .. فكل شئ جديد أعرفه فهذا مكسب .. فأنا ازددت معرفة بهذا النوع من الناس !

وعرفت ماذا يجرى فى صناديق الليل فى طوكيو .. وعرفت ماذا يمكن أن يحدث لرجل مخمور فى هذه الصناديق وكيف تضيع أموال الناس ومحافظهم . هكذا كنت أقول لنفسى وأنا جالس على مقعد وثير فى أحد الأركان وأمامى زهرية بها ورد . لا أعرف إن كنت أوسى نفسى .. ولا أعرف إن كانت يدي انمى قد امتدت إلى يدي اليسرى وصافحتها بعنف .. ولا أعرف إن كان هذا الصوت الذى أسمعه يقول : شد حيلك .. لا أعرف إن كان هذا الصوت قد صدر عنى . وفجأة قفزت إلى جوارى فتاة يابانية .. مش قوى .. مش ولا بد خالص وسألتنى : كيف حالك ؟ ..

فقلت لها : وكيف وجدت حالى !

وكانت تتحدث الإنجليزية ويبدو أنها كانت تقلد الإنجليز فى لون بشرتهم أيضا .. فخدودها حمراء وعيناها حمراوان أيضا .. وجعلت تغنى باليابانية وبصوت مرتفع وطلبت منها أن تترجم لى هذه الأغنية . ولم يعجبني كلام هذه الأغاني ولم يعجبني اللحن أيضا .. وفجأة جلس الصديق - صديق بالقوة - الذى قابلته فى استراليا .. وانضم إلينا .. وبدأ هو الآخر يغنى ويلعن زوجته

وكل زوجة وكل زوج يتصور أن الحياة مستحيلة بلا زوجة .. وانضمت إليه هذه السيدة تلعن الرجال الأزواج وغير الأزواج والذين ينجبون الأطفال والذين لا ينجبون الأطفال مثل زوجها . وقالت كلاما معناه : يا حسرة بعد ١٥ سنة ولا حنة عيل .. رجاله إيه دول !

وكانت الساعة الثانية عشرة مساء . وهذا موعد إقفال البارات والكباريات في طوكيو .. شئ غريب .. ولكن طوكيو مدينة عجيبة الأطوار . غريبة النساء والرجال !

وفجأة جلس إلى جوارى عدد من الجنود البريطانيين . أما الجنود الأمريكيون فهم مفضلون على غيرهم من الناس لأسباب لم أكن أعرفها بوضوح .. فالجندي البريطاني مرتبه ضئيل جدا ولذلك إذا دخل أحد البارات فهو لا يشرب أكثر من زجاجة بييرة فإذا به مخمور وإذا به يهجم على البنات والرجال وهات يا ضرب .. أما الجندي الأمريكي فرتبه كبير .. ومعه سبائر ومعه دولارات .. فهنا خيار وفقوس .. وقد تكوم الفقوس حولي وكلهم من الجنود البريطانيين .. ولاحظت أن واحدا من الجنود يخاطب هذه السيدة التي جلست معنا بقوله يا صاحبة الجلالة إذن هذه هي ملكة جبال اليابان .. ممكن ! ولكن في أية سنة ؟ .. وسألها فعرفت أن هذا لقب أطلقه عليها الجنود الأمريكيون وأنها هي وحدها التي تتكلم الإنجليزية بطلاقة وأنه كان من الممكن أن يكون لها شأن في هذا الصندوق لولا أنها لا تفتيق من الخمر .

ولذلك فهي تعمل جرسونة للتواليت في هذا الصندوق .. جرسونة ؟ وفين يا بنت الـ .. ؟ !

ونهضت وفي أذني أغنية أم كلثوم التي تقول : واحنا معانا بدر .. طالع في ليلة قدر .. وأنظر إليها وأقول : واحنا معانا قرد طالع في ليلة برد ، احنا نقول حوشوه وهو يقول هاتوه .. واحنا معانا حمار . طالع من الدوار .

وأمام باب الصندوق وجدت شابا أخر يهمس في أذني ولم أعرف ماذا يقول ولكن صرخت فيه : اسكت يا نصاب !

وعندما عدت إلى القندق تذكرت أنه كان يسألني عن الساعة كام !

● زوجهي من البيان

لم أشهد في حياتي كلها عملية « كتب الكتاب » إلا مرة واحدة ، وكان ذلك في السيدة زينب .. وكان العريس أحد أصدقائي في السلك الدبلوماسي . ولا أعرف إذا كان هذا يحدث في كل خطبة أو زواج ولكن الذي رأيته فعلا ، غريب . غرفة بها مقاعد .. نفس المقاعد التي تستخدم في المآتم .

والناس صامتون لا أحد يتكلم تماما كالمآتم .. وبين الحين والحين يهمس واحد من الحاضرين في أذن الآخر ويقول له : ربنا يتم بخير .

يتم ليه ؟ مش عارف . ولكن يتم والسلام .

وفي جانب من هذه الغرفة يجلس ثلاثة من المشايخ أحدهم ضعيف النظر جدا وهو الذي تتجه إليه الأنظار . وهو الوحيد الذي لا يتوقف فه عن الهمس كأنه وضع بطارية جافة في صدره ، وربط أحد أسلاكها بشفتيه . فشفتاه ترتجفان دائما .. ويقول الذين سمعوه عن قرب .. إنه يشبه الققطط « يزن » ولا يقول شيئا .. أنا لا أعرف .

وبعد لحظات ، ويقال ساعات ، يخرج هذا الرجل من جيبه رزمة ورق ملفوفة ، ورق أبيض . ويخرج من جيبه زجاجة حبر ، ومن الجيب الآخر ريشة فيها سن صفراء غير صالحة للكتابة . ولذلك يجب إحراقها بعود كبريت حتى تصلح للكتابة . ويجب أن يحضروا له كوبا من الماء لكي « يطش » فيه هذه السن وبعد ذلك تصلح للكتابة .. والله أعلم .. وقد حدث هذا كله .

وتأكيدا لعملية إطفاء السن الساخنة ، وضعها الشيخ في فمه ، وبعد ذلك أشار إلى زميل له . ودنا الزميل وقال له : قل بسم الله الرحمن الرحيم . واكتب وبدأ الرجل يكتب صيغة وثيقة الزواج .. طويلة طويلة .. وبدأ يكتب من هذه الوثيقة عدة نسخ .. مع أن في الإمكان طبعها وبسهولة .. وعلى ذلك لكون عملية الكتابة أيسر من كتابة شيك .. ولكن هؤلاء المشايخ يريدون أن يتعبوا ويعرقوا وأن يقدم لهم أهل العروس مندبلين أو ثلاثة من الحرير يمسحوا بها العرق كل هذا يتم والناس صامتون كأنهم في مأتم .

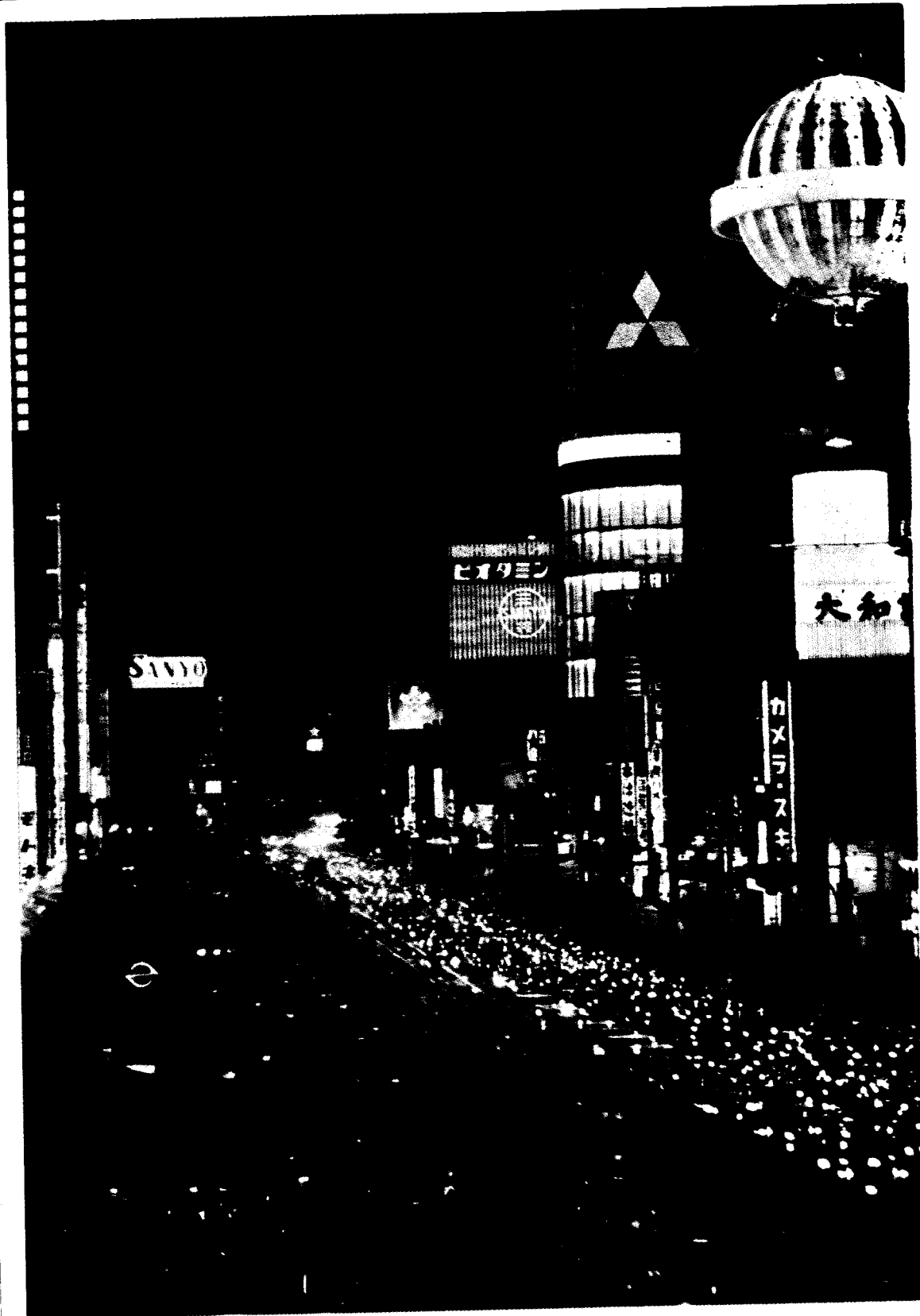
وهناك مثل يقول : إن يوم كتب الكتاب هو اليوم الذي يكذب فيه العروسان فالعروس تبكى والعريس يضحك !

وهذا يحدث في كل كتب كتاب !

وكنت أتصور أن هذا يحدث في بلادنا فقط .. ولم أتخيل أبدا أنه يحدث في اليابان .. إلى أن كنت في إحدى قرى هيروشيما .. أما العروس أو بعبارة أصدق الفتاة التي أعجبتني - فهي مختلفة عن بنات اليابان ، إنها طويلة بيضاء اللون أو شقراء وشعرها أسود ثقيل ووجهها مستدير مليء بالدم .. أو فيه بقع من الدم عرفت فيما بعد أن هذه هي خدودها .. ولها شفتان غليظتان .. ولها أسنان بيضاء كالثلج .. ومن الغريب أن لها صدرا .. ولذلك يؤكد الناس أنها من أصل أجنبي ، وهذا يضايقها من الناحية الوطنية ويسعدها من الناحية الأخرى .. وأنت تفهم ولا داعي للتفسير .

وفي يوم كنت أتمشى بالقرب من إحدى الحدائق العامة رأيتها وابتسمت لها ولم يكن في نيتي أي شيء .. مجرد ابتسام .. ياجت ياما جتش .. وابتسمت هي .. وأنا أعلم أن اليابانية تبتسم دائما وبلا سبب ولا مبرر ولا معنى .. وسألتها إن كانت تعرف الإنجليزية .. وقلت هذه العبارة باللغة اليابانية التي أعرف بعض كلماتها فأجابت أنها تعرف .

وبالاختصار جلسنا معا في أحد المطاعم وتغدينا وشربنا الشاي وتعشينا ، وبعد العشاء تمسينا وبعد ذلك عاد كل منا إلى بيته ، وفي اليوم التالي تناولنا الإفطار والغداء



أشهر شوارع طوكيو : اسمه جنزا . في هذا الشارع كل شيء
من الذهب من الذهب به له لفة إلى البيت الذهب به أن فتاة جيتار



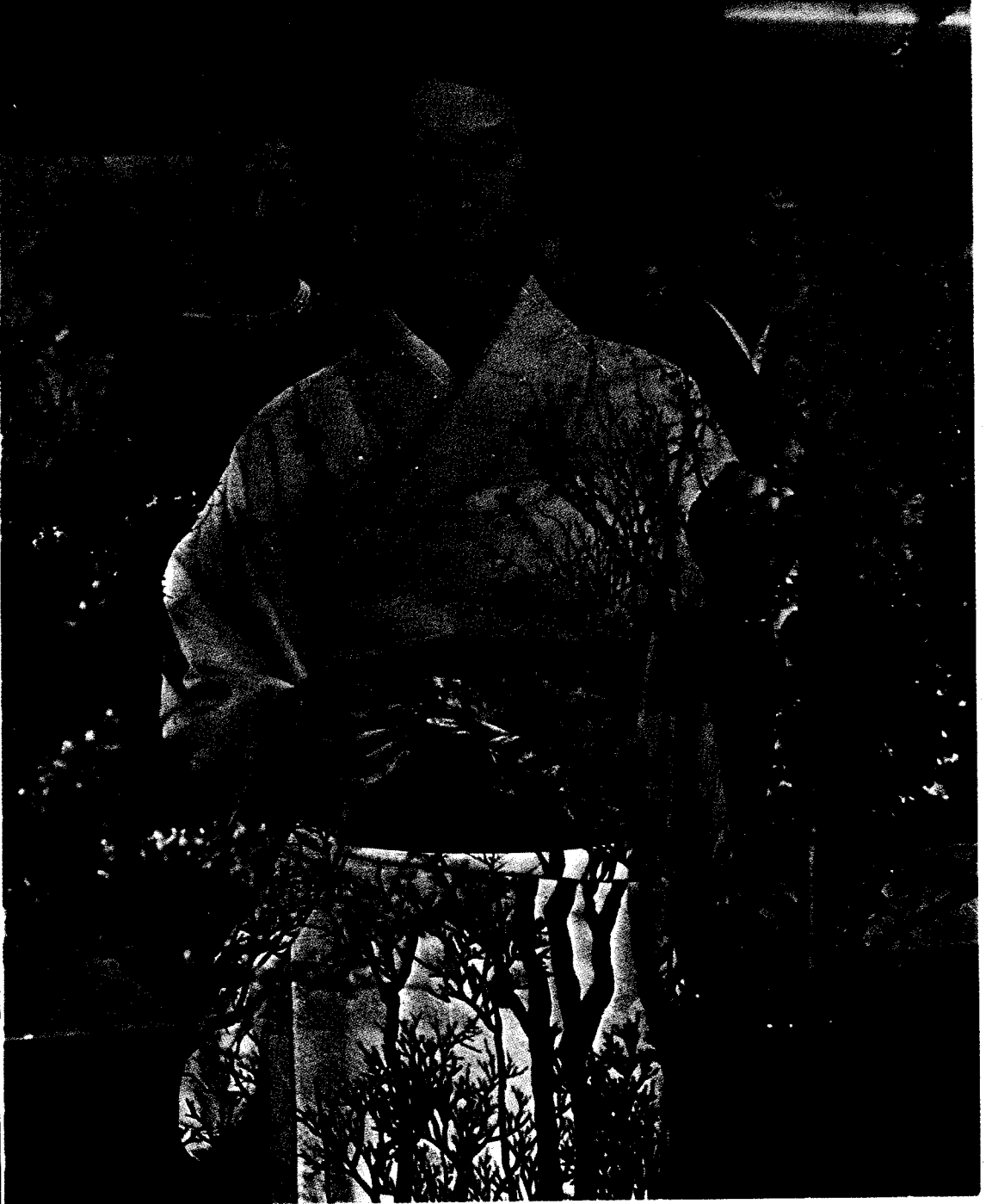


أنا إلى اليمين ولا تسألني ما الذي أتناوله
إن رائحة الطعام لا تظهر في الصورة !

حفيذة . . لقد وضعت في فم الصغيرة بزازة حتى لا تفتح
فها وتسألها من هذا الأجنبي الذي يصورها - أنا طبعاً !

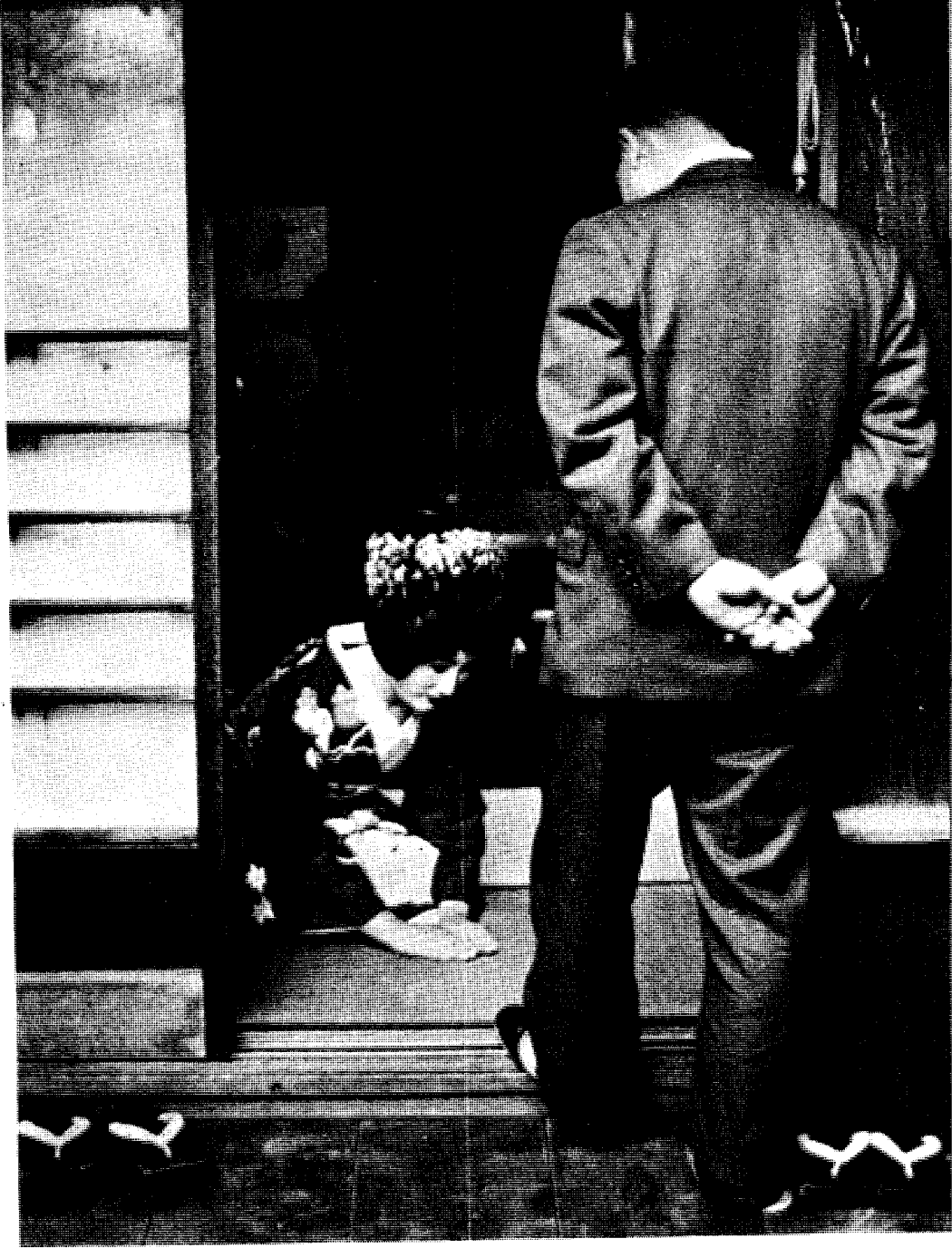


الغرض من هذه الصورة ليس الطعام طبعاً ولكن
أن ترى أكثر من فتاة في أوضاع مختلفة



إحدى فتيات الجيشا . ثمن هذا الزى غال جداً ولا تقدر عليه

إلا المملكات .



عندما تدخل أى بيت من بيوت الجيша تساعدك على خلع الحذاء
وتضع الشبشب فى قدميك - وغالباً يكون قدمك أكبر !



أخذى الرقصات المقدسة في أندونيسيا ..
وبصفة خاصة في جزيرة بالي التي تدعى
بالديانتين البونيه والهندوكية ..



هذه الفتاة صيادة لؤلؤ يابانية .
إنها تفتح اللؤلؤ في السلة وتدل به
في المحيط



صيادة اللؤلؤ اسمها « الأمة » بفتح
الهمزة ولها مواصفات خاصة . .

موسيقى الألوان : اليابان . .





في شوارع طوكيو نجد الزي الياباني :
الكيمنو . . . والزي الأوروبي الحديث .

عملية صعبة جداً تصفيف شعر بنات الجيشا . .
وصيغ وجهها بكيفية لا ضرورة لها من البودرة !





أنا في الطريق من طوكيو إلى العاصمة القديمة كيوتو . . لست
حزيناً ولكنى مرهق جداً فالرحلة طويلة ولا تزال طويلة !



كل هؤلاء يتناولون الغذاء على حسابي من
أجل أن أنشر هذه الصورة فقط

سوف تكون جيشا عندما تكبر .
إنها الآن في حالة حضانة !

زيارة . . الصورة فقط لتعرف ما الذي تفعله
الجيشا إذا زارت واحدة أخرى !

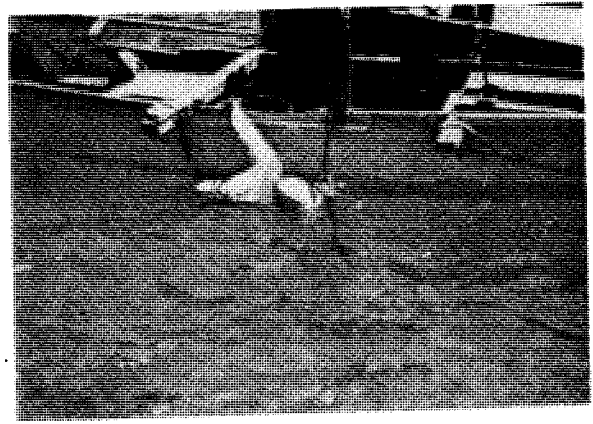
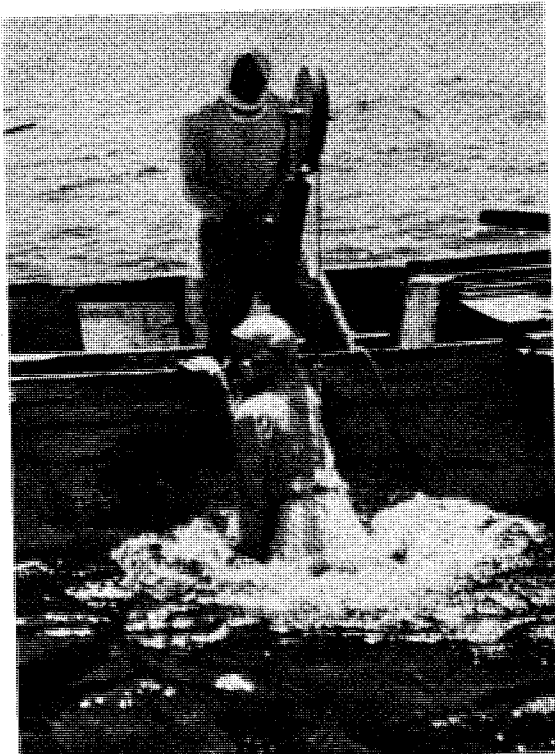


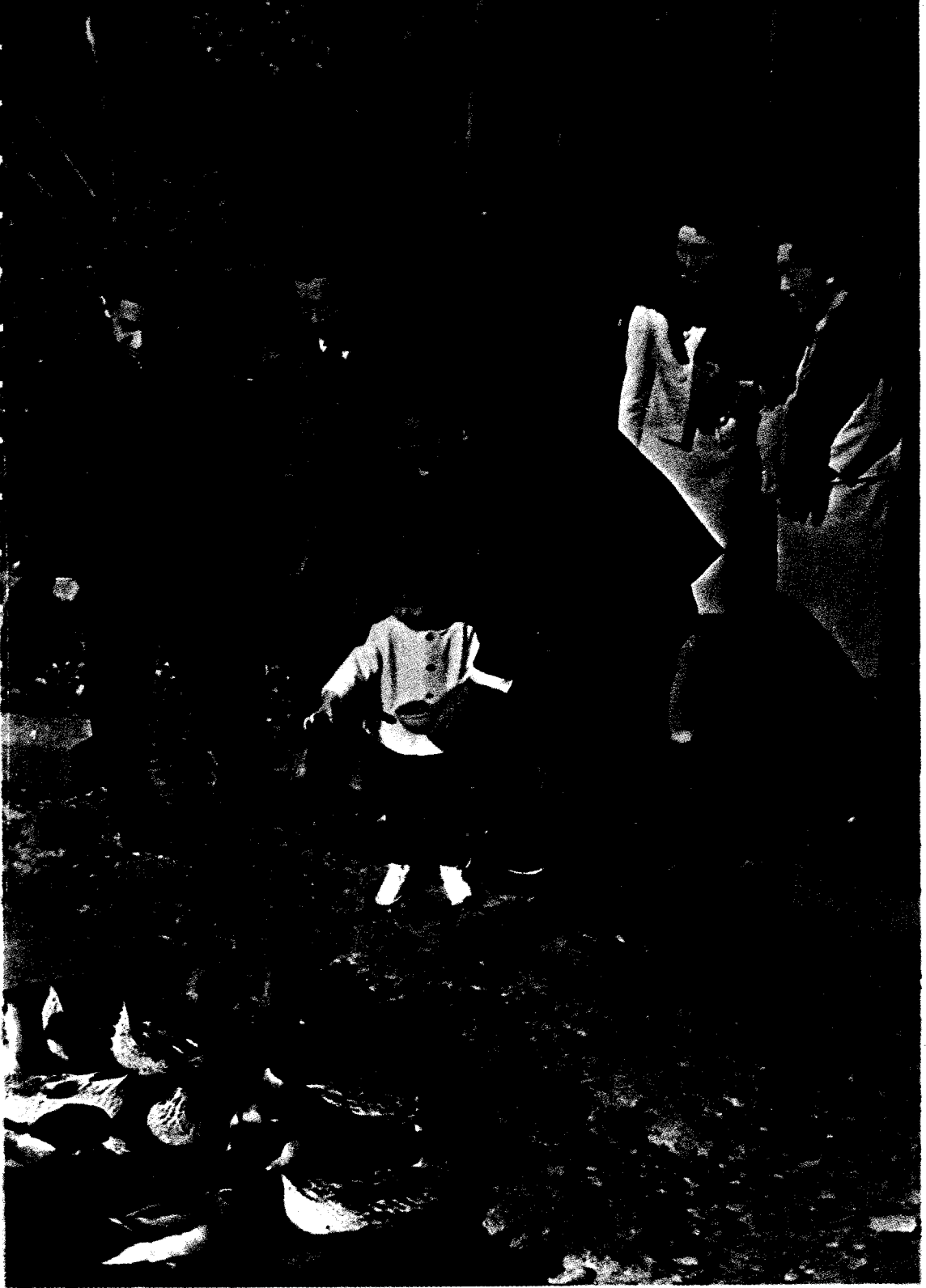


في أماكن العبادة . . . عبادة لبعض مظاهر الطبيعة . . .
مثل الجبال والبراكين . . . ليست عبادة وإنما هو نوع من
التقديس لهذه المظاهر المحلية لقدرة الله . . .

صيادة اللؤلؤ . . . الماء بارد . . . ويجب
أن يساعدها أحد على الطفو . . .

فن وبراعة وصبر ووراثه : هذا
ما تحتاجه الفواصة صيادة اللؤلؤ





إمبراطور اليابان وأسرتة - كان له سلطان
عظيم جداً . أما الآن فلا !

والعشاء وبعثت بتحياتي إلى أمها وإخوتها وخادمتها وقطتها الصغيرة .. فقد أصبحت أنا أحد أفراد أسرتها .. أجلس على نفس المائدة مع القطط والحيوانات الأخرى . وفي اليوم الذي يليه تقاربنا أكثر وجملت أحكي لها عن حياتي .. وأعتقد أن قصصى عن حياتي كلها لا أساس لها من الصحة .. مجرد اختراع .. مجرد كلام .. فأنا أكره الكلام عن حياتي وأجد أن هذا الكلام سخي ولا يهم أحداً سوى .. وحكيته لها الذى يعجبها من الكلام والذى يشدها إلى جانبي وإلى ناحيتي وإلى حياتي ويجررها ورأى .

ولم أتصور أن كل الذى دبرته بيني وبين نفسى حدث من أوله إلى آخره .. فانزعجت كأننى وضعت أصبعى على زرار أسانسير وانطلق إلى أعلى واكتشفت أننى وصلت إلى الدور التسعين بدلا من الدور التاسع فأصابنى خوف شديد ! وتطورت الحوادث بسرعة صاروخية .. دعتنى الآنسة «أسوشا» إلى بيتها .. وهناك على الباب نزعت الحذاء ولبست الشبشب .. آسف .. هناك نزعت السيدة أم أسوشا الحذاء من قدمى ووضعتم الشبشب وانحنت على الآخر ..

وكذلك أبوها وأخوها وأختها وطفل صغير وحتى أسوشا .. انحناءات تشبه الركوع الشديد .. على إيه ؟ لا أعرف .. ولكن هذا ما حدث .

وبدأت عملية الزحف نحو غرفة الشاى ، وهناك نزعت الشبشب ولبست شبشبا آخر ، وحتى لا أتجنى على الحقيقة نزعتم صديقتى أسوشا هذا الشبشب من قدمى .. ولبست شبشبا آخر .

وبدأت حفلة الشاى المر الطعم .. كوب وراء كوب . وإلى جانب الشاى يوجد بعض الحلوى التى طعمها فظيع جداً وبعض الأسماك الخفيفة وبعض الأعشاب التى بها ملح ..

واقتربت منى أختها الصغيرة وبدأت تشد الشعر من أصابع يدي وتضع يدها على يدي وتضحك طبعاً .. يدي أكبر من يديها الاثنتين معا .. فيد الفتاة اليابانية صغيرة جداً .. وبدأت تضع قدمها إلى جوار قدمى وتقيس قدمها .. والأسرة كلها تضحك .

وبعد لحظات حضر رجل له لحية طويلة جداً ولكن عدد شعرات هذه

الحية لا يزيد على عشرين شعرة . وهو رجل أصلع أو على الأصح أقرع
وهو لا يعرف كلمة واحدة إنجليزية . وكان كلامي معه عن طريق أسوشا .

سألت : من هو ؟

فقلت : إنه المأذون .

ولم أفهم هذه الكلمات فسألها مرة أخرى : فقلت إنه القس الذي يعقد
الزواج .

وسألها : وأين أوراقه وأين الموسيقى ؟

فقلت : بعد لحظات .

ثم عدت فسألها : وأين العروس . . ؟

فضحكت جداً وانحنى كل الحاضرين وانحنت أسوشا والمأذون وانحنت أيضاً ،
ولم أفهم لماذا كل هذا الانحناء . .
ولم يقل أحد شيئاً . .

وبعد لحظات دخل عدد من الأطفال في ملابس بيضاء وحمراء وزرقاء
وعليها رسوم جميلة ، ووراء الأطفال عدد من الفتيات ومعهم جميعاً أدوات
نحاسية تشبه الخلل والطشوت وبعضها يشبه الطاسات الموجودة عند الحلاقين .
ومعهم أيضاً أعواد حديدية . . وبعد هؤلاء جميعاً جاء شيخ له لحية سوداء
وشعرها مدلى على هيئة صغيرة أو على هيئة علامات استفهام . .

ودقت الموسيقى أو صرخت أو لطمت لا أعرف . . إنه نوع من الضوضاء
التي يضحك لها الحاضرون إلا أنا . . وفي هذه الضوضاء بدأ الشيخ الوقور
يقول كلاماً طبعاً غير مفهوم ، وأخذ الحاضرون ينحنون إلى الأمام عند كل
عبارة أو عند كلمة : أ . . فهذه هي نهاية كل كلمة ربما كانت نقطة أو نقطتين
بعد كل كلمة أو !

وكان لا بد أن أسأل أسوشا عن كل هذا الذي يجري حولي وقلت لها : موسيقى
جميلة جداً .

فانحنت وهي سعيدة بهذا التقدير . . ولما رأتها أمها وإخوتها وأبوها والشيخ
والحاضرون انحنوا أيضاً . . ولكني أحسست بعد ذلك بشيء من الإحراج الشديد .

فليس من المعقول أن تكون كل هذه الموسيقى من أجل تشريق لهذا البيت . فلم يحدث أى تشريف وإنما هى رغبة فى الاستطلاع وفى معرفة شئ عن البيت اليابانى والأسرة اليابانية لا أكثر ولا أقل .. وإذا كانت هناك موسيقى وهبصة فربما كان السبب هو أن أسوشا زودتها شوية .

وعندما قدموا لى أوراقا اعتذرت لأننى لا أعرف القراءة فقالت أسوشا : ليس من الضروري أن تقرأ وإنما يجب أن توقع ولا تخف إذا حدثت أصوات غريبة عند التوقيع .

فقلت : توقيع على ماذا ؟

قالت : على هذه الوثيقة .

قلت : وثيقة ليه ؟

قالت : ليه ؟ وثيقة زواجنا .

قلت : زواجنا .. أنا .. يعنى نحن الاثنين .. زواجنا تقولين ؟

وبسرعة أخبرتها أن التقاليد فى بلادنا تقتضى بأن يحضر الزواج أحد المواطنين . وإلا أصبح هذا العقد باطلا . ونهضت ونهض الحاضرون وانحنوا وكذلك الأطفال امتدت أيديهم إلى الشيشب .. ولكنى تركت الشيشب الأول والشيشب الثانى وانطلقت أخفى قدمى فى حذائى .. ومن بيت أسوشا لى الفندق أبحث عن طريقة للسفر إلى طوكيو .

ولم أفهم لماذا تصرفت أسوشا هكذا .. حاولت ولكنى تعبت .. هل وعدتها بالزواج ؟ أبدا .. لم أعد أحدا فى حياتى كلها ؟ هل قلت لها أنا أحبك ؟ ولا حتى هذه ؟ ولا أستطيع أن أهتمها بالضعف فى اللغة الإنجليزية فهى تتكلمها بطلاقة .. حاولت وحاولت .

وأخيرا تذكرت أننى عندما كنت معها فى إحدى دور السينما ورأيت زفافا فقلت : إن العروس جميلة .. فسألتنى إن كنت أحب أن أتزوجها . فقلت : بلا تردد نعم !

وسألتنى إن كانت العروس تعجبني فقلت : يعجبني فيها كذا الأيضر وكذا الأسود وكيت الممتلى وكيت الناعم .. هذا كل ما قلته .

ولكن لم أتصور أبدا أن هذا معناه أن أسوشا تشبه العروس في كل هذا
يجب أن أتزوجها فوراً . فهي إلى حد كبير تشبه العروس في كل هذه الصفات ..
إلى حد ما .. وقد قلت لها ذلك من باب المجاملة ..
وهذه هي النتيجة ..

بالاختصار : مصيبة سودة إذا أنت كذبت في اليابان .
وكانت هذه هي المرة الثانية التي أحضر فيها كتب كتاب ، وأكون أنا
العريس دون أن أدري .

* * *

وعلى باب محطة السكك الحديدية وقفت أسوشا وأختها الصغرى ومع كل منهما
باقة من الورد ، وقرطاس به سميطة مصنوع من السمك المجفف وعلى خد أسوشا
دمعتان كاللؤلؤ .. وفيها يقول لى كلاماً ..
وخجلت منها ولا أزال ..
أين أنت الآن يا أسوشا لأقول لك ما أحس به الآن !

● كيف يزرعون اللؤلؤ؟

في إحدى الليالي جلست كليوباترة تشكو مرارة الحياة في فيها . . كل شيء لا طعم له . . كل شيء كأنه ليمونة ناشفة ، أو كأنه قطعة من اللحم المسلوق . . ولم تكن كليوباترة وحدها ، كان إلى جوارها حبيبها أنطونيو . . وعندما تشكو المرأة من الدنيا للرجل الذي تحبه ، فعنى ذلك أنها تريد منه الكثير ! فهو دنياها وهو حياتها . . ويظهر أن أنطونيو لم يكن عنده ما يقدمه لكليوباترة فهي تريد الكثير ، تريد منه أكثر مما يستطيع . . وكل ما استطاع أن يقدمه لها هو كوب من النبيذ الأحمر . . وأمسكت الكوب ورأت فيه وجهها . ولحقت على سطح الكوب شيئاً لامعاً حول عنقها . . إنه عقد من اللؤلؤ . .

وكان حبات اللؤلؤ هذه دموع كليوباترة . . ودموع كليوباترة مثل كلامها لا تنزل الأرض . . وهذه الدموع لم تنزل الأرض وإنما تجمدت حول عنق ملكة النيل . . ومدت يدها إلى العقد . حبة حبة . وكأنها أشارت بذلك إلى أنها تريد أن تقطع خيط حياتها ، وأنزلت ست حبات من هذا العقد في كوب النبيذ وشربت النبيذ واللؤلؤ معا !

وتوقع أنطونيو أن تموت كليوباترة بعد ذلك ، ولكنها لم تمت ، فاللؤلؤ لا يقتل ، إنه يشق من آلام المعدة والأمعاء !

وكانت هناك خرافات كثيرة أيضاً حول معجزات اللؤلؤ . فأهل الصين وسيلان كانوا يعتقدون أن اللؤلؤ يملأ الإنسان حيوية ورجولة . وكانت العروس تأتي لزوجها بحبات من اللؤلؤ وتضعها تحت سادته في الأيام الأولى للزواج .

ولم يثبت علميا صحة هذه الخرافة !

ويقال ان اللؤلؤ هو حبات من العرق تساقطت من أجسام الملائكة وهى فى طريقها بين السماء والأرض . ويقال أيضا إن « جزر آدم » وهى تقع بين الهند وسيلان فيها أجمل أنواع اللؤلؤ - ويقال إن هذه اللآلىء الموجودة فى قاع البحر هى بعض دموع آدم عندما نزل من الجنة إلى الأرض . . .
ولكن اللؤلؤ نفسه له قصة أخرى .

فاللؤلؤ ينمو فى داخل بعض القواقع . واللؤلؤة الواحدة التى فى حجم حبة الحمص مثلا تنمو فى ثلاث سنوات . وهذه « القواقع » - ويسمونها أمهات اللؤلؤ تنمو وتكبر فى مياه اليابان ومياه خليج البنغال فى الهند وحول جزيرة سيلان وفى الخليج العربى بالقرب من الكويت وإيران ومياه استراليا . . وهذا اللؤلؤ طبيعى ، بمعنى أن القوقعة هى وحدها التى تحمل هذه اللؤلؤة بين جنبيها وتظل طاوية الجنبين سنتين وثلاثا وأربعا إلى أن تمتد إليها أيدى الصيادين ، وإذا لم تمتد إليها يد ، فإن القوقعة تلتقى باللؤلؤة إلى قاع البحر . . .

ربما كانت أعظم لؤلؤة طبيعية فى العالم هى الموجودة فى كرسى العرش بإيران . . فهى لؤلؤة صفراء اللون وليست كروية الشكل وإنما هى تشبه الكثرى وثمنها سبعة ملايين «ين» - أى سبعة آلاف جنيه - .

وتوجد لؤلؤة أخرى ثمنها مليونان من الجنيهات فى متحف موسكو .

وصيد اللؤلؤ فى هذه المناطق لا يزال بادئا . . فالصيادون يركبون الزوارق ويتدلى واحد منهم إلى الماء ويبقى نصف دقيقة أو ثلاثة أرباع دقيقة ويسحبونه إلى أعلى ومعه بعض القواقع وينقلون القواقع إلى الشاطئ ويفتحونها واحدة واحدة إلى أن يعثروا على اللآلىء . . .

وعندما كنت فى الكويت رأيت أكواما من القواقع ورأيت الناس هناك يلعبون لعبة « الجوز والفرد » . فأنت تشتري من القواقع ما تشاء ، ثم أنت وبخحك بعد ذلك . . .

وقد اختفت هذه العادة الآن بعد أن زحفت المبانى على ميادين بيع اللؤلؤ . . .
واللؤلؤ الطبيعى هذا لا يمكن التحكم فيه . . . فأنت لا تعرف إن كنت ستجد

بين كل ألف قوقعة لؤلؤة واحدة أو لا تجد . . ولا تعرف ما شكلها ولا حجمها
وكل ما عليك هو أن تنتظر فقط . .

ولم يفكر أحد في طريقة للتحكم في هذا اللؤلؤ .
ولكن رجلا واحدا في إحدى قرى اليابان هو الذى فكر ، وهو الذى صمم ،
وهو الذى نجح ، وقبله لم يعرف أحد ولم يحاول . .

ولم يكن هذا الرجل أصلا صيادا ولا من المشتغلين بتجارة اللؤلؤ . . ولكنه
يعمل في دكان والده في قرية اسمها « توبا » وهى تبعد ١٣ ساعة عن مدينة
طوكيو . هذا الطفل اسمه ميكو موتو . والده يبيع الأرز المسلوق وامه تعمل مع
والده . وله عدة إخوة . وميكو موتو أكبر إخوته . وهو هزيل البنية . ولكن
التقاليد في اليابان تقضى بأن الأخ الأكبر يجب أن يحمل إخوته الصغار على ظهره .
ويحدث كثيرا أن تجد الأخ الأصغر أضخم وأقوى بنية من الأخ الأكبر .
وهذا ما حدث بالنسبة لميكو موتو . فقد كان أخوه الأصغر بدينا . ومع ذلك كان
أخوه الأكبر الهزيل يحمله ذهابا وإيابا وكان عليه أيضا أن يدفع أمامه عربة لبيع
الأرز المسلوق والأسماك النيئة في القرية وأن ينادى عليها .

ولا شئ يدل أبدا على عبقرية الأخ الأكبر . فهو قروى عادى جدا
موثمن يتردد على المعبد صباح كل يوم . ولا أحد يدري ما الذى كان يطلبه من
ربه . . ربما كان يطلب الصحة وربما كان يطلب المال ، وربما كان يطلب
من الله أن يشفى والده المريض . بشرط أن يكف عن إنجاب الأطفال !
ولكنه متدين ويقف في خشوع أمام تمثال بوذا ويقول الكثير . .

واليابانيون صيادون ممتازون ، بل أحسن صيادين في العالم . وهم يركبون
الزوارق الصغيرة إلى مناطق نائية في المحيطات . ولذلك فاليابان في مشاكل مع
كل الدول المجاورة بسبب أبنائها الصيادين الذين يقتحمون مياه استراليا والقطب
الجنوبى وسواحل أمريكا وسواحل روسيا والقبليين وأندونيسيا .

وقد اشتغل ميكو موتو بصيد السمك . . واشتغل أيضا بالغوص وصيد
اللؤلؤ . وكانت هناك فكرة في رأسه . لم يطلع أحدا عليها ، ولكنه حائر . .
فهو قروى وهو فقير . ولم يتعلم بما فيه الكفاية . ويبدو أن الأسئلة التى تدور
في رأسه أكبر منه . . ولا يعرف كيف يجيب عنها .

ففي يوم ذهب إلى أحد أصدقائه من المشتغلين بعلم «الأحياء المائية» وسأله :
ولماذا يوجد اللؤلؤ في القواقع . لماذا يوجد اللؤلؤ في بعض القواقع ، وبعضها
لا يوجد به . . ؟

وأجابته صديقة المشتغل بالأحياء المائية بأن سبب وجود اللؤلؤ هو أن بعض
الطفيليات الموجودة في البحر تتسلل إلى داخل القوقعة وتجرح لحمها الناعم
الضعيف . أما القوقعة فإنها تدافع عن نفسها بأن تعزل هذا الجسم الغريب أو هذا
الشيء المتطفل . وعملية العزل هذه عبارة عن إفراز مادة جيرية شفافة تحاصر هذا
الشيء الغريب لدى تسلل إليها . هذه المادة الجيرية الفوسفورية هي اللؤلؤ التي
يتم تكوينها في عدة سنوات . .

وآمن ميكو موتو بأنه يفكر تفكيراً سليماً . وأنه لا بد أن يدخل جسماً غريباً
في كل قوقعة يجدها وأن يحتفظ بهذه القوقعة وينتظر حتى تنمو . . سنة واثنين
وثلاثاً . . فإذا كانت القواقع تفرز المادة اللؤلؤية في صبر . فإنه لن يكون
أقل صبراً من القواقع .

وفي هومو وقلقه تزوج فتاة من أسرة غنية . ودفعها إلى العمل معه في بيع
الأرز المسلوق ، ولكنه كان مشغولاً في نفس الوقت بزراعة اللؤلؤ . . والاسم
الجديد لهذا النوع من اللؤلؤ . . هو «اللؤلؤ المزروع» . . لأن ميكو موتو كان يزرع
الأجسام الغريبة في أجسام القواقع . . وهذه عملية تشبه عملية التلقيح الصناعي
عند الإناث من الإنسان والحيوان . ففي التلقيح الصناعي يتم إدخال الحيوانات
المنوية إلى الرحم بصورة صناعية عن طريق الأنابيب . . وتلقيح اللؤلؤ أو زراعة
اللؤلؤ في هذه القواقع لا يختلف عن التلقيح الإنساني أو الحيواني في شيء !

وجمع ميكو موتو عدداً من القواقع وفتحها برفق وأدخل فيها الأجسام الغريبة
وانتظر عاماً وعامين . . وبعد ذلك فتحها . فلم يجد شيئاً . لقد ماتت جميعاً . .
وحاول من جديد واستخدم حوالي عشرة آلاف قوقعة . وهبت العواصف وأطاحت
بهذه القواقع وخسر ميكو موتو الشيء الكثير . . ولكنه لم ييأس . . وفي نفس العام
زحف على مياه قرية توبا التيار الأحمر . . وهو عبارة عن مواد طفيلية كثيفة
جداً . . هذه المواد تطفو على سطح الماء وتقتل القواقع لأنها تحجب عنها الأكسجين .
وهلكت كل قواقع ميكو موتو . . ولكنه لم ييأس . وشعر ميكو موتو بعد

ذلك بأنه يطلب المستحيل . وأن أمواله لاتسعهفه . وأحس بفشله في استخراج اللؤلؤ قد أدى إلى إبعاد الناس عنه . حتى زبائن الأرز المسلوق قد هربوا . واندھش ميكو موتو . ولكن الناس أحسوا أنه فاشل وأنه مجنون ولا بد أن جنونه هذا سيظهر في صناعة الأرز المسلوق أيضا ! ! .

ولكن ما علاقة اللؤلؤ بالأرز ؟ أليس من الممكن أن يفشل الإنسان في شيء وينجح في شيء آخر ؟ أليس من الممكن أن يفشل الإنسان كزوج وينجح كهندس ؟ أليس من الممكن أن يكون طبيبا ناجحا وزوجا فاشلا ؟ ولكن الناس هكذا يفكرون ..

ولذلك رأينا ميكو موتو يترك بيع الأرز لزوجته ويعمل هو في استخراج اللؤلؤ ..

ولم يفهم ميكو موتو لماذا تموت القواقع .

وتعلم من التجارب التي استغرقت ١٥ عاماً مؤلمة أن انخفاض درجة حرارة الماء إلى أقل من ٧ درجات مئوية يقتل القواقع ، ولذلك يجب نقل القواقع من الماء البارد إلى الماء الدافئ . . وتعلم أيضاً أن وضع عدد كبير من القواقع في قفص واحد وتعليق القفص في الماء يقتل القواقع . . فهذه الكثرة تؤدي إلى جوع القواقع وذبولها . . وتعلم أيضاً أن الطفيليات عندما تغطي فتحات القواقع فإنها تختنقها . . ولذلك حاول ميكو موتو في المرات التالية أن يتلافى كل هذه الأخطاء . ومع ذلك كانت القواقع تموت . . وكان بيته يزداد خراباً ، وتجارة الأرز تزداد بوراً . ولكن زوجته لا تشكو . إنها مؤمنة بأن زوجها سيصل حتماً . وكان هذا يشجعه . وكان يقول : يكفى أن يؤمن بى إنسان واحد - والنواة تسند الزير كما يقول المثل عندنا !

وفكر ميكو موتو أن يمسك قوقعة بها لؤلؤة طبيعية ويدرسها ويعرف بالضبط مكان اللؤلؤ . وأمسك قوقعة ثانية وثالثة ورابعة ومائة . وعرف تماماً أين يجب أن يضع الجسم الغريب في داخل القوقعة . واكتشف أنه كان يضع الجسم الغريب أو هذه البذرة في مكان غير مناسب . وعرف ميكو موتو أن الجسم الغريب يجب أن يؤذى القوقعة وأن يؤلمها . وهذا الألم هو الذى يثير الحيوان ويحدث في جسمه

التهاباً ، وهذا الالتهاب يؤدي إلى إفراز هذا السائل الشفاف الذى يعزل الجسم
الدخيل عن بقية جسم القوقعة . . .

وقام بعملية زراعة الأجسام الغريبة فى خمسة آلاف قوقعة أخرى . . . ولكن
ميكو موتو كان بين اليأس والأمل . ويشس فعلاً . وأعلن لزوجته أنه يائس .
وأعلن للناس أنهم جميعاً على حق وأنه غلطان وأن آماله جنونية . . . وأنه سيعود إلى
الأرز ، فقد ولد بائعاً للأرز ، وسيعيش ويموت وهو ينادى على الأرز المسلوق . . .
ولكنها كانت لحظة يأس . وكانت امرأته تعلم أن ميكو موتو هذا ليس
من السهل أن ييأس . وأنه إذا كان أعلن ذلك للناس فلكى يسد أفواههم ،
لكى يرضى غرورهم . ولكنه مؤمن بأنه سينجح . وبعد سنتين ، ذهبت زوجته
سراً إلى الشاطئ إلى حيث تدلت أقفاص القواقع من الأعمدة الخشبية ومدت يداً
مرتجفة وأمسكت قوقعة وفتحها وصرخت . لقد وجدت لؤلؤة . . . أول لؤلؤة
مزروعة فى اليابان !

أول لؤلؤة؟! . ونادت زوجها ورقص الاثنان على الشاطئ . . . وكان ذلك
فى يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٥٩ . وأصبح يوم ٢٨ من كل شهر إجازة فى كل
شركات ومصانع ميكو موتو . . .

وفجأة نجهم وجه ميكو موتو وقال لزوجته : ولكنها ليست كروية . . . إن
اللؤلؤة نصف كروية !

وحاولت زوجته أن تقنعه بأنه نجح وأنه فى يوم من الأيام سيعرف كيف
ينتج لؤلؤة كروية . . . ولكن ميكو موتو لا ينشد إلا الكمال . . . وفتح قوقعة ثانية
وثالثة ورابعة . . . ومائة . . . لقد نجح . . . وظهر فى العالم أول لؤلؤ من صنع الإنسان .
أو على الأصح : تدخل الإنسان فى صناعته . . . إنه لؤلؤ طبيعى ، ولكن الإنسان
هو الذى ساعد الطبيعة على إنتاجه فى الوقت الذى يريد . . .

وكانت هذه هى بداية اللؤلؤ المزروع . . . أو بداية زراعة اللؤلؤ . . . وكان
ميكو موتو هو أول إنسان اخترع اللؤلؤ المزروع . . .

وعندما ذهب ميكو موتو إلى أمريكا للدعاية لهذا اللؤلؤ وقابل المخترع
الأمريكى أديسون الذى اخترع المصباح الكهربى وأضاء ظلام الدنيا . قال له

المخترع الأمريكي : « إنك حققت معجزة علمية » .

ورد عليه ميكو موتو : « أنت أضأت العالم وأنا أضأت أعناق النساء . وإذا كنت في دنيا الاختراع قرأ كاملا ، فأنا أحد النجوم التي ليس لها عدد ! » .
وعندما سمع أديسون هذه العبارة بكى .

وقال له ميكو موتو وهو ينظر إلى دموع المخترع الكبير : « لقد رأيت أعظم لؤلؤتين على خد إنسان » .

وليس هناك أنجح من النجاح نفسه . . فالنجاح هو أعظم لذة وأعظم غاية وأعظم قوة . . وأقبل الناس على ميكو موتو . . وأصبح كل ما يقوله حكماً وأمثالا . . حتى الأرز الذي تتبعه زوجته يشقى العليل ، وأصبح الناس يتفاءلون بروية ميكو موتو . . لقد نجح . . والنجاح رائحته حلوة وطعمه حلو . .

ولكن ميكو موتو مشغول بشئ آخر . .

كيف يجعل هذه القواقع تنتج لؤلؤاً كروى الشكل . . إنه لاحظ أن اللؤلؤ الموجود في القواقع أحياناً يشبه الكمثرى في الشكل وأحياناً نصف كروى وأحياناً صغير وأحياناً كبير .

وعرف ميكو موتو بعد ذلك أن السبب هو وضع البذرة . . أو وضع الجسم الغريب في جسم القوقعة . . وبدأ هو نفسه يفتح القوقعة ويضع الجسم الغريب في المكان المناسب بين المعدة والكبد . . تماماً كما هو موجود في القواقع : أمهات اللؤلؤ . .

* * *

وبدأ الإنتاج على نطاق واسع جداً في قرية توبا . . واستأجر ميكو موتو جزيرة صغيرة أمام قرية توبا . . وهذه الجزيرة هي في حجم ميدان التحرير في القاهرة . . وبدأ يجمع القواقع في أقفاص من الخشب ويعلق الأقفاص في حبال مشدودة إلى أعمدة خشبية طافية على وجه الماء . . وجعل طول الحبل متراً وأحياناً مترين . . وعرف أن هذا هو الارتفاع المناسب لنمو اللؤلؤ . . وبين الحين والحين ينظف القواقع والأشياء الغريبة التي تعلق بها . . وعرف أن هناك عدواً قاتلاً لهذه

القواقع ، هو شعبان البحر . . فهذا الشعبان يمتص القوقعة . . ثم هناك الأخطبوط
الذى يقتلها ويحطمها . .

وتفنن ميكو موتو في الدفاع عن هذه القواقع . . عن عشرين مليون قوقعة
تنتجها مصانعه كل سنة !

* * *

وعندما ذهبت إلى جزيرة اللؤلؤ وهي جزيرة ميكو موتو عند مدينة توبا
رأيت عمليات صيد اللؤلؤ وزراعته وتربيته حتى يصبح عقداً حول عنق المرأة .

والعملية تبدأ بأن تنزل الغواصات إلى البحر - ولا أقول غواصين - لأن اللاتي
يصدن القواقع من النساء فقط . . أما الرجال فعاجزون عن صيد القواقع . .
والسبب في ذلك أن المرأة عندها وسادة دهنية تحت الجلد هي التي تجعلها تتحمل
البرد أكثر من الرجل . . ولذلك فالغواصة - واسمها بالياباني « أمة » وبالاندونيسي
والفلبيني كذلك ، وفي اللغة العربية نقول « أمة » بفتح الألف معناها خادمة -
هي التي تنزل إلى البحر وتجمع القواقع . والغواصات يبدأن الغوص من سن ٢٠ حتى
سن ٤٥ . . وهي . تبدأ بأن تنزل إلى مسافة خمسة أمتار ثم عشرة أمتار ، ولمدة
عشرين ثانية . . حتى تصبح قادرة على الغوص لمدة دقيقة كاملة . . والغواصة
تبدأ هذه المهنة بأن تحصل على الإعدادية . . لأن التعليم إجباري في اليابان حتى
الإعدادية . . ولا يوجد في اليابان كلها واحد لم يحصل على هذه الشهادة . .

والغواصة ترتدى جلباباً أبيض وتلف حول رأسها منديلاً أبيض . . وهي ترتدى
الفستان الأبيض ، لأن اللون الأبيض يخيف سمك القرش وهو عدو الغواصات
والقواقع أيضاً . . وتحمل معها صندوقاً من الخشب يشبه نصف البرميل وتربطه
بجبل . . وعندما تغوص في البحر يكون ذلك بالقرب من أحد الزوارق . . وفي
الزورق يوجد زوجها الذي يساعدها على الصعود بعد انتهاء مدة الغوص . . وأحياناً
تكون في الزورق نار مشتعلة لكي تستدفئ بها عندما تخرج من الماء . . وأقول
يوجد زوجها في الزورق . . لأنه ثبت بالتجربة أن الغواصة عندما تكون متزوجة
تكون أقدر على الغوص وأطول بقاء تحت الماء . . وقد ثبت بالتجربة أيضاً أن

الفتاة إذا لم تكن متزوجة ، فإنها في الغالب تتعب بسرعة وتكون مشتتة الذهن . .
ولذلك رأينا ميكوموتو يشترط زواج الغواصة قبل أن تعمل عنده . . بل إن الغواصة
نفسها تفضل دائماً أن يكون الذى يعاونها هو زوجها . . وقد قالت لى إحدى
الغواصات إنها لا تأتمن رجلاً آخر غير زوجها . . فقلبه عليها دائماً !

وفي أثناء الغوص تكون هناك نيران على الشاطئ . . وعندما تخرج الغواصات
من البحر يذهبن إلى الشاطئ وينزعن ملابسهن . . ويجلسن عاريات تماماً حول
النار ثم يرتدين ملابس أخرى جافة . ويحدث هذا التغيير كل نصف ساعة .
والغواصة لا تعمل في اليوم كله أكثر من ساعتين . . وأجرها اليومى حوالى ثلاثين
قرشاً . وثمن حبة اللؤلؤ هنا - أى في جزيرة اللؤلؤ - عشرة قروش !

وبعد أن تنقل الغواصة صندوق القواقع إلى الشاطئ ، تبدأ عمليات أخرى ! .
تبدأ عملية تنظيف القوقعة من المواد الغريبة التى علقت بها من البحر . . وبعد
ذلك تبدأ عملية « الزرع » أو عملية التلقيح . . فتوضع القواقع على منضدة تجلس
إليها فتاة وتستخدم الأدوات الحديثة البسيطة في فتح القوقعة ووضع البذرة . .
وكان ميكوموتو يستخدم الأجسام الغريبة مثل ذرات الرمل أو الحجارة أو قطعاً
من الزجاج ثم وكان يضع هذه الأجسام الغريبة في أحشاء القوقعة . .

ولكن ثبت أن أحسن الأجسام الغريبة التى يجب وضعها في داخل القوقعة
هى قطعة من محار القواقع التى تعيش . في نهر المسيسيبي بأمريكا . والمحار هو
الغطاء الجيرى الذى تعيش فيه القوقعة . وهو يشبه أم الحلول . . فالقوقعة لا تزيد
كثيراً على أم الحلول . . وعندما تبلغ السنة الخامسة أو السابعة من عمرها فإنها تكون
في حجم كف طفل صغير . . وهذا المحار يكسرونه هنا عن طريق آلة خاصة
حتى يصبح عبارة عن كرات صغيرة جداً كل واحدة في حجم حبة الحمص . .

وقد اكتشف ميكوموتو أيضاً أنه يستطيع أن يضع بذرتين في قوقعة واحدة
وأن يضع ثلاث بذرات أيضاً . في استطاعة القوقعة الواحدة أن تنتج ثلاث حبات
من اللؤلؤ المزروع . . ولكن لم يحدث أن انتجت القوقعة أربع حبات من اللؤلؤ .
وتمكن ميكوموتو أيضاً من أن يتحكم في حجم اللؤلؤ وفي شكله . . فاللؤلؤ
الصغير يجب أن تكون بذوره صغيرة . واللؤلؤ الكبير يجب أن تكون بذوره كبيرة

أيضاً . . وكما بقيت هذه البذور مدة أطول ، زادت حجماً . . وأحياناً يتركون البذرة لمدة عشر سنوات ، حتى تصبح اللؤلؤة الواحدة في حجم الفول السوداني ، وتمنأها يصبح حوالى ٢٥ جنيهاً .

وبعد عملية وضع البذرة تنقل القواقع إلى سلال أو أقفاص ، وتعلق هذه الأقفاص بالألوف من جبال مربوطة في ألواح خشبية ساجحة على وجه الماء ومثبتة طبعاً في الأرض أو في قاع البحر ، وتبقى كذلك سنوات . . وعندما يبرد الماء فإن هذه الأقفاص يسحبونها عن طريق زوارق إلى الجنوب حيث الدفء . . وعندما تزداد درجة الحرارة في الجنوب فإنهم يسحبونها إلى الشمال حيث درجة حرارة الماء ألطف . . فدرجة الحرارة المناسبة لحيوان القواقع هي بين ٢٤ مئوية و ٢٥ مئوية . . وإذا زادت أو أنخفضت درجة الحرارة عن ذلك فإن حيوان القواقع يتعب ويبدو عليه الكسل في إنتاج اللؤلؤ . . ومن الغريب أن القواقع المريضة هي التي تنتج أجمل اللؤلؤ وأغلاها ثمناً . . فاللؤلؤ الأسود هو أندر أنواع اللؤلؤ وأغلاها ثمناً ، وهذا اللؤلؤ النادر هو الذى تنتجه القواقع المريضة . . كأن الطبيعة تريد أن تعوض هذه القوقعة عن مرضها . .

ولكن ما الذى يمرض القواقع ؟ . . لا أحد يعرف حتى الآن .

وهناك مسألة لم يتم حلها بعد : كيف تختلف ألوان القواقع . . ؟ . . لماذا ينتج بعضها لؤلؤاً أبيض اللون أو أصفر أو أزرق أو أسود ؟ لا أحد يعرف حتى الآن .

حتى اللون أمكن التحكم فيه أخيراً . . وذلك عن طريق وضع بذور ملونة . . فتجئ اللؤلؤة ملونة أيضاً . .

وهناك مقاييس لمعرفة اللؤلؤ الجيد من اللؤلؤ الرديئ ، ثم اللؤلؤ الطبيعى من اللؤلؤ الزراعى ، ولا أقول اللؤلؤ الصناعى — لأن هذا اللؤلؤ المزروع قد تم بصورة طبيعية ، يعنى لم يصنعه الإنسان خارج حيوان القواقع — هذه المقاييس هي حسب اللعان ، أو البريق ثم حسب الشكل والوزن واللون . وأحسن اللآلى هي الشديدة اللعان ، ثم الدائرية أو الكروية والثقيلة الوزن .

أما الملونة فأغلاها الأسود والأبيض والوردى فالبنفسجى ثم الأزرق . . أما الفرق بين اللؤلؤة الطبيعية واللؤلؤة الزراعية أو المزروعة فلا يمكن أن يعرفه

الإنسان بالعين المجردة ، لا بد أن يكون خبيراً . . ولكن مع ذلك يمكن التفرقة عن طريق أشعة إكس ، فتحت أشعة إكس ترى اللؤلؤة شفاقة ١٠٠٪ أما اللؤلؤة المزروعة فتحت أشعة إكس نرى البذرة الأولى . . وهي عبارة عن كرة صغيرة مأخوذة من محار قواقع تعيش في المياه العذبة . .

ولذلك عند شراء اللؤلؤ يجب أن تمسك الحبة وتلقى بها على سطح زجاجي أو خشبي وتنظر إليها وهي تندرج أمامك ، فإذا كانت مشيتها عوجة أو عرجاء كان هذا عيباً ، وإذا نظرت فيها ووجدت صورتك بوضوح كان هذا دليلاً على جودتها . .

قد تقول الآن : واحنا مالنا ومال اللولي ؟!

أنا معك . ولكن لماذا تقرأ عن القمر الصناعي والقمر الطبيعي . . وعن الرحلات للقمر . يا أخي كلها معلومات عامة . . وأنت لم تدفع تكاليف رحلتى إلى هذه البلاد ولم تركب القطار ولم تأكل الصراصير والضفادع مثلى ، ولم تم على الأرض ولم تعطس ولم تسعل . . فاقراً أحسن . . اقرأ للآخر . . يمكن تلافى حاجة تنفك !

• • •

وقد قرأت لميكوموتو - توفى سنة ١٩٥٤ عن ٩٦ عاماً - أنه ينصح السيدات أن يغسلن عقود اللؤلؤ بقماشة مبللة بالسبرتو . . وينصح السيدات بأن يرتدين اللؤلؤ الذى عندهن . . لأن اللؤلؤ يخف بريقه إذا لم يستعمله أحد . كأن اللؤلؤ يعرف أن حياته فى أن يظهر فى الأصابع وحول الأعناق وعلى الصدور .

وقد لاحظ أمناء متحف اللوفر أن بعض اللؤلؤ الموجود هناك ، قد بدأ يريقه يتناقص . . فانزعجوا . . وقرر العلماء أن اللؤلؤ إذا وضع فى مكان بارد مظلم فإن بريقه يقل . . ولذلك تجدد اللؤلؤ إذا وضع على الجسم الإنسانى الدافئ وتعرض للضوء فإنه يحتفظ بريقه أيضاً .

وقد لاحظت وصيفة إحدى ملكات النمسا أن حبات اللؤلؤ الموجودة فى عقد الإمبراطورة ماريا تريزة قد أخذ بريقه ينطفى . . فخافت وتشاءمت . . ولكنها وصلت إلى حل هو أن هذا اللؤلؤ قد اشتاق إلى موطنه الطبيعى ، فهو قد عاش

طويلاً بعيداً عن أهله . . . ولذلك قررت الإمبراطورة أن تعيد اللؤلؤ إلى مكانه من البحر . . . وبعثت بأحد رجال الحاشية ليلقى باللؤلؤ في البحر . . . وإمبراطورة النمسا هذه لم تعرف أن اللؤلؤة مكونة من الكلسيوم والفسفات . . . وأن الكلسيوم يذوب في الأحماض الموجودة في العرق ، وبعض الأجسام لها عرق حامض ، وهذا العرق يذيب اللؤلؤ أولاً بأول فينطفئ بريقه . . . ولو كانت كليوباترا قد تركت اللؤلؤ في كوب النيذ مدة أسبوعين لتحول من تلقاء نفسه إلى مسحوق يسهل عليها أن تشربه كما كان يفعل أبناء الصين . فإبناء الصين كانوا يتعالجون باللؤلؤ . . . تماماً كما نعمل الآن عندما نستخدم أملاح الفواكه وفيتامين « ي » لعلاج الحموضة الموجودة في المعدة وفي الأمعاء الغليظة . . .

وكان على ميكو موتو أن يخوض معارك لا حدود لها لكي يثبت قواعد اللؤلؤ المزروع . فقد ظهرت في الأسواق ملايين من حبات اللؤلؤ الصناعي — أي اللؤلؤ المزيف — ولذلك نزل ميكو موتو إلى السوق واشترى كل اللؤلؤ الزائف وأقام فرناً ضخماً وأحرقه فيه . وبذلك حفظ سمعة اللؤلؤ المزروع من البوار . وكان كلما لاحظ أن اللؤلؤ كان يفقد بريقه لكثرة عرضه في الأسواق ، سحبه من جديد وأنزل بدلا منه لؤلؤاً جديداً . . .

وفي المعرض الدولي الذي أقيم في أمريكا سنة ١٩٣٩ ، أذهل ميكو موتو العالم كله . . . فقد اشترك بتمثال لناقوس الحرية ، استخدم في هذا الناقوس ١٣ ألف لؤلؤة و ٣٦٦ جوهرة . أما الكسر التقليدي في ناقوس الحرية — يوجد نموذج لهذا الناقوس عند مدخل دار أخبار اليوم — فقد استخدم فيه اللؤلؤ الأسود النادر . وقد رأى الناس لؤلؤ اليابان المزروع . . . وراح الناس يتحدثون عنه . . . وتحدثت الصحف الأمريكية عن « ملك اللؤلؤ » . . . وأصبح هذا اللقب ملتصقاً به منذ ذلك الوقت . . .

وأصبح اللؤلؤ المزروع خطراً على اللؤلؤ الطبيعي في كل أنحاء العالم . ورفعت قضايا ضد ميكو موتو في لندن وباريس وروما . . . وأصدرت المحاكم أحكاماً لصالحه . . . وطلبوا إليه أن يكتب على لؤلؤه عبارة « لؤلؤ طبيعي » ولكنه رفض إلا أن يكتب عبارة « لؤلؤ مزروع » . . .

وقام ميكوموتو برحلة حول العالم ومر بالقاهرة في سنة ١٩٢٧ . وقام برحلة إلى كل بلاد آسيا ، والبلاد التي تستخرج اللؤلؤ الطبيعي . واقتنع ميكوموتو بأنه محتاج إلى كثير من الدعاية ، وأنه لا يمكن أبداً أن تكون السلعة جيدة . وإنما يجب أن يعلم بها كل الناس ، وأن يعمل صاحب السلعة على إقناع الناس . . فهناك نصابون كثيرون . . وهناك مزيفون أكثر من النصابين ، ولذلك بدأ ميكوموتو يدعو الملوك والأمراء لزيارته . . وكان يقابلهم دائماً بردائه القديم وقبعته المنفوخة . . والذين زاروه في بيته دهشوا كيف ينام « ملك اللؤلؤ » على الأرض . . وكيف أنه لم يغير طعامه ، ولم يغير عاداته ، وكيف أنه ينزل إلى البحر ويستحم في الماء البارد ويجفف جسمه في ثوب قديم . .

وعندما أصبح « ملك اللؤلؤ » غنيا وأصبحت ثروته تعد بالملايين بدأت الجمعيات الخيرية تطلب منه المعونة . . وكان يرد عليهم قائلاً : « أريد أن أعرف اسم الجمعية التي عاونتني في محنتي . . لقد ماتت التي كانت تساعدني . . » . . لقد ماتت زوجته وهو في الثامنة والثلاثين من عمره وعاش بعد ذلك ٥٨ عاماً ورفض أن يتزوج .

وعندما طلب إليه أحد رجال الدين أن يبني معبداً بعد أن ساعدته السماء وأعطته بائنين والشمال . . كان ميكوموتو يحني رأسه . . ويقول : حاضر . . وفي اليوم التالي أمر بإنشاء معبد للملايين القواقع التي تضحي بنفسها لكي يعيش مئات الألوف من أبناء اليابان — عدد العمال في شركات ميكوموتو حوالي ١٨٠ ألف عامل — . وفي « جزيرة اللؤلؤ » التي يملكها ميكوموتو يوجد تمثال له ، ويوجد متحف صغير أخذت أخشابه من البيت الذي كان يعيش فيه ميكوموتو أيام كان فقيراً . . أما الجزيرة الأخرى التي كان يملكها ، وتقع إلى الجنوب من جزيرة اللؤلؤ ، ففيها معبد وضريح لزوجته وله ، ويوجد تمثال كبير لقوقعة .

وعندما نشبت الحرب الأخيرة ، وضربت اليابان بالقنابل الذرية . . لم يترك ميكوموتو جزيرة اللؤلؤ . . قرر أن يبقى إلى جوار القواقع . واتهمه الناس بالجن والحوف وأرسل له أحد ضباط الجيش سيفاً وقال له « اقتل نفسك به ! » .

وكان رد ميكوموتو : « إننى تاجر . . إننى أعمل على إطعام مئات الألوف من اليابانيين . . إن تجارتى تنتعش فى ظل السلام . . فأنا أخدم بلدى وأنت تخدم بلدك أيضاً ! »

وعندما علم ميكوموتو أن الحرب قد انتهت وأن القوات الأمريكية احتلت اليابان ، رفع العلم الأمريكى على جزيرة اللؤلؤ . ولما سأله الناس عن هذا التصرف الغريب قال : أريد أن تكون تجارة اللؤلؤ هى أول تجارة تنتعش بعد الحرب . يجب أن يعمل واحد من أبناء اليابان على إنهاضها . . فأنا العجوز أول رجل يعمل للسلام ! وبعد الاحتلال زاره كل قواد الحرب الأمريكين ودهشوا لذكاء الرجل ومرونته وصلابته . . وكتبت عنه الصحف والمجلات وصوره التلفزيون وانطلقت أبواق الدعاية فى كل مكان تتحدث عن اللؤلؤ المزروع وملك اللؤلؤ ميكوموتو . .

والوارث الوحيد لكل ثروة ملك اللؤلؤ هو شاب لا يهتم أبداً باللؤلؤ أو بتجارته وإنما يهتم باللؤلؤ الحقيقى . . وهو يفرق بين ثلاثة أنواع من اللؤلؤ : اللؤلؤ الحقيقى واللؤلؤ الطبيعى واللؤلؤ المزروع . أما اللؤلؤ الحقيقى فهو الفكر . هو الأدب والفن ، ولذلك فهو مشغول جداً بدراسة الأدب ، وخصوصاً الأديب الإنجليزى جون رسكن ، وقد جمع كل مخطوطاته وكل كتبه وكل ما كتب عنه حتى أصبحت مكتبته تتألف من ثلاثة آلاف كتاب عن هذا الأديب بالذات . ولكن لما ذا هذا الأديب ؟ لا أحد يعرف . . أما تجارة اللؤلؤ وبيعه والدعاية له فمشغول بها آخرون . . هؤلاء الآخرون هم أزواج بنات ميكوموتو ملك اللؤلؤ وكلهم مديرون لفروع هذه الشركة الضخمة التى تزرع كل سنة حوالى عشرين مليون قوقعة !

وإذا نظرت إلى خريطة اليابان . . وإلى جزيرة هونشو بالذات التى تقع عليها العاصمة طوكيو ، فإنك لن تهتدى بسهولة إلى مدينة توبا التى شهدت طفولة ومملكة ميكوموتو . .

أما الآن فقد امتدت لها الخطوط الحديدية والكهربية ، وفيها فنادق من الطراز اليابانى الأنيق ، وفيها منتجات مذهشة لكل ما يخرج من البحر . فالصدف والمحار والقواقع والأسماك والجمبرى كل ذلك تحول إلى تماثيل فنية وإلى لوحات بارزة رائعة وكلها تباع بأسعار رخيصة . وهناك يباع اللؤلؤ كما تباع القوطة والخيار ،

هناك نساء يعن القواقع ويفتحنها أمامك ويخرجن لك اللؤلؤ . . القوقعة الواحدة بها حبتان من اللؤلؤ وبعشرين قرشاً . . وفي هذه القرية الصغيرة معرض للأحياء المائية وبها مطاعم كثيرة ، وبها زوارق بخارية تنقلك من توبا إلى جزيرة اللؤلؤ التي تبعد عنها خمسين متراً ، وهذه الزوارق تلف بك حول الجزر الأخرى وتريك صيد السمك وصيد اللؤلؤ . . وأكثر زوارق هذه المنطقة من طلبة المدارس الابتدائية والثانوية من البنين والبنات . والتعليم كله هنا مشترك .. اليابانيون هم الذين أدخلوا التعليم المشترك في أندونيسيا والفيليبين أيام احتلالهم لهذه البلاد في الحرب الأخيرة .
والخفاوة بالطلبة والطالبات لا نهاية لها .

وقد قال لي مدير جزيرة اللؤلؤ وهو شاب لطيف اسمه « كانو » ويتكلم الإنجليزية : « إننا نهتم بالتلميذات والتلاميذ لأسباب تجارية . . فالتلميذة ستصبح زبونة عندنا بعد عشر سنوات ، أما التلميذ فسيصبح زبوناً عندنا بعد عشرين سنة .. فنحن الراجحون دائماً » ! .

ومظاهر هذا الاهتمام أنهم يعرضون لهم بصورة واضحة جداً عملية الغوص واصطياد اللؤلؤ وزراعته وصيانته وتربيته وفرز حبات اللؤلؤ حسب الحجم والشكل واللون وعلمية ثقب حبات اللؤلؤ ووضعها في عقود . . .

وأجمل حقيقة هنا : هي أن الفتاة التي تقوم بكل هذه العمليات بما في ذلك قيادة الزوارق والبواخر والمطاعم والمعارض والأحياء المائية . . كل ذلك يتم في غاية الأدب والمرح . . وكل شيء هنا يدل على أنه من الممكن أن يكون الإنسان في غاية الكفاية وفي غاية الأدب وفي غاية المرح أيضاً . .

* * *

وعلى محطة سكة حديد « توبا » وقفت خادمتان واحدة بالكيمونو والأخرى بالفستان تحملان حقائبى وتنتظران القطار حتى يتجه إلى طوكيو ، وحاولت أن أشكرهما وأن أعيدهما إلى الفندق . . مستحيل ! لا بد من توصيلى وانتظارى حتى أسافر . . وقبل أن نخرج من الفندق اصطفت جميع خادمات وزوجة وبنات صاحب الفندق وانحنين انحناءات تكسر الظهر لتوديعى . . وعلى المحطة انحنيت الفتاتان لتوديعى .. وتحرك القطار وكدت أقفل النافذة ونظرت لآخر مرة فوجدت

الفتاتين وقد انحنتا أيضاً رغم أن القطار قد ترك المحطة منذ لحظات .
واعتدلت في جلستي استعداداً للنوم فالطريق إلى طوكيو طويل . . وأغمضت
عيني ، ولكن بريق ملايين حبات اللؤلؤ ما يزال في عيني . ويظهر أن اللؤلؤ
جماله في أنك تراه فقط في يد فتاة أو في عنقها . . وقد لاحظت أن جميع
بنات جزيرة اللؤلؤ لا يستخدمن هذا اللؤلؤ ولا يضعنه في عنق أو في أصبع . ولا
حتى الموظفين . . فاللؤلؤ ليس زينة عندهم . . وإنما يرتبط عندهم بالعمل والتعب . .
لأنهم يشبهون القواقع تماماً . . فاللؤلؤ هو دموع القواقع ، وهو دموع الغواصات
والمرشحات العاملات هنا . .

وخفت أضواء اللؤلؤ في عيني وفي خيالي وتذكرت الجملة الحكيمة التي كان
يردها ملك اللؤلؤ . . كان يقول : « لا تفرح بالنصر الكبير . النصر الصغير
أحسن . فالنصر الكبير يشبه قطرات الندى الكبيرة . إنها تلمع فوق أوراق
الشجر ، ولكنها لا تبقى كثيراً لأنها كبيرة وثقيلة ، ولذلك تسقط على الأرض . .
الانتصارات الصغيرة فهي تشبه قطرات الندى الصغيرة فهي تلمع وتبقى طويلاً
لأنها خفيفة ! » .

* * *

ولذلك يجب أن أفرح لأنني رأيت ملايين الآلى ولم أملاً حيوي منها . .
وتذكرت حكمة بلدية تترجم هذه الحكمة اليابانية التي كان يردها ملك اللؤلؤ . .
هذه الحكمة تقول : إن هذا قصر ديل .
والإنسان يجب أن يفرح بأن ديله قصير ، لأن الديل الطويل يجر جر على
الأرض ويتسخ .

— يعني أفرح بروية اللؤلؤ ؟ !

— طبعاً .. كفاية !

لقد فرحت . . وليس معقولاً أن أفهم أكثر من ملك اللؤلؤ !



● آلوها.. آلوها؟!

سايو نارا .. ومعناها باليابانية وداعاً .. وداعاً يا بلاد الذوق والأدب والانحناء
الذى ليس له أول ولا آخر .. وداعاً يا بلاداً لا تعرف الإنجليزية وتقول نعم دائماً
إذا فهمت وإذا لم تفهم .. وداعاً يا بلاداً لا تطلب البقشيش .. وداعاً يا بلاد
اللؤلؤ والجيشا والراديو الصغير .. وداعاً يا بلاداً تمشى نصف بناتها على القباقيب
ويسكن نصف أهلها في بيوت من خشب .. وداعاً يا بلاد الشمس المشرقة فوق
السحاب والمشرقة دائماً في وجوه الرجال والنساء ..

اليوم هو آخر يوم أسمع فيه أحداً يسألنى : إيه رأيك في اليابان ؟ ثم يتوقع
أن يكون الجواب دائماً أنها رائعة !

سايو نارا .. سايو نارا ..

لن أرفع سماعة التليقون وأطلب الشاى كل يوم وأقول : كوتشا .. من غير
ليمون .. ومن غير لبن

— لزاى ..

— أيوه من غير لبن ومن غير ليمون .

ولن أقول للفتاة الصغيرة — وكل بنات الفنادق دون العشرين بزمان —
وأنا أشكرها على أن الشاى جاء بعد دقائق وفى أدب ورقة وابتسام وانحناء لن
أقول أبداً بعد ذلك : أريجاتو جوازى ماشنا .. أى أشكرك جدا .. ولن أسمع من
أية فتاة صغيرة وهى ترد بانحناءة طويلة عميقة : دوه تاسى ماشنا .. أى
أشكرك أنت ..

وداعاً يا بلداً تأكل السمك النيئ ، وتضع السكر في الصلصة ، وتسلق البصل والفجل والخيزران ، وتأكل على حصيرة ناعمة ، وتستمع إلى الضفادع البشرية وهي تغنى في ملابس الجيشا .. وداعاً يا بلاد الشمس التي أشرفت في نفسى ولن تغرب أبداً .

سايو نارا .. سايو نارا !

وأتمنى أن تصبح بلادنا جميلة كبلادكم .. غنية كبلادكم .. وأن يكون كل ما في شارع سليمان باشا مصنوعاً في بلادنا: السيارات والملابس وزينة الستات وملابس الرجال وكل ما في فترينات المحلات على جانبي الشارع .. سايو نارا .. وأن يصبح توزيع « الصحف العربية » كتوزيع صحيفة « أساهى » اليومية ، لأنها توزع ستة ملايين نسخة يومياً .. وهي أكبر صحيفة يومية في الدنيا .. ولم أذرف دمعاً على فراق اليابان الجميلة، ولكن السماء هي التي اكفهر وجهها ، ونزلت منها دموع .. رأيتها على زجاج السيارة الكاديلاك التابعة لشركة « بان أمريكان » وهي تنقلنا إلى مطار طوكيو الدولي .. الشوارع على الجانبين تتلأأ .. الأنوار كالمسائل الملهبة .. الأنوار عروق نابضة بالنور والحرارة في جسم طوكيو .. لا يوجد إعلان واحد مكرر في كل هذه المدينة العظيمة .

ومطار طوكيو الدولي عمل في كامل : المبنى والمدخل ، والميكروفونات .. والاتصال بين موظفي شركات الطيران مودرن جداً .. والحقائب تتحرك على حصيرة كهربائية .. والمحلات والمطاعم رائعة .. وأعتقد أن مطار طوكيو هو أحسن مطار رأيته حتى الآن .. أحسن من مطار تمبلهوف ببرلين .. أحسن من مطار فرانكفورت .. وأحسن من مطار أورلى بباريس ..

* * *

المسافة بين طوكيو وبين جزر هاواي هي ١٣ ساعة ونصف ساعة .. من الطيران المتواصل .

بدأت رحلتى في الساعة العاشرة والنصف مساء .

تحسست ملابسى .. إنها كثيفة .. البالطو من الجلد اشتريته من الهند ، والجاكته صوفية اشتريتها من استراليا ، والبلوفر اشتريته من هونج كونج ،

والقميص من سنغافورة ، والملابس الداخلية كلها من طوكيو . . . وعندما ذهبت لشراؤها دهشت البائعة ، ولكن أدبها منعها من أن تقول : إن أحداً لا يشتري هذه الملابس الشتوية إلا العجائز !

وواحدة أخرى قالت في أدب : إن هذه الملابس قد اشتريتها أمس لوالدى ! لوالدها . . . لجدها . . . ؟ لا يهم فالبرد والمطر هنا جعلاني أنكش كأني عجوز وكأني أرنب !

وفى الطائرة جلست بجوار النافذة وشدت الحزام ، وأخرجت كتاباً صغيراً عن جزر هاواي ، ولم أكد أقلب فى الكتاب حتى جاءت مضيئة الطائرة . . . إنها أمريكية وشكلها مكشّر كأنها تمثل دور الزوجة المطلقة فى فيلم صامت . . . ومدت يدها بطبق فيه بعض اللبان . . . ولو أنصفت لقدمت لنا بعض الليمون ، وأخذت هى نصف هذا الليمون لعله يغسل القرف من شفيتها وعينها !

وجاءت المضيئة اليابانية . حلوة صغيرة كالعروس ولا تكف عن الضحك . . . لا توجد هناك نكتة ، ولكن وجودنا يكفي . . . !

والمضيئة الأمريكية كأنها تقول لنا : أنا مش خدامة أبوكم ! ونحن نقول أيضاً ولكنها لا تسمع ما نقوله نحن : واحنا مانرضاش إنك تكونى خدامة أبوانا . . . !

والليل طويل . . . والكرسى صغير ضيق على ملابسى الكثيرة . . . والأمريكيات العجائز لا يتوقفن عن الكلام . وحكايات وقصص طويلة عن الذى رأينه فى الدنيا شرقاً وغرباً . . . ويتحدثن عن مشاكل البيت والطعام والأولاد . . . ويكفى أن تنظر لأية سيدة أمريكية أو أى رجل أمريكى حتى يحبيك ويسلم عليك ويصبح صديقك فى لحظة ويعطيك عنوانه ويطلب إليك أن تزوره .

كل شئ عند الأمريكان يتم فى بساطة وبسهولة وبلا كلفة ، وربما كان هذا هو السبب الذى جعل الناس فى أوروبا وآسيا مفتونين بالحياة الأمريكية . . . فهى بسيطة « هلهلى » وفيها حياة ومرح كثير جداً — فيما عدا هذه المضيئة ! وكان الليل طويلاً جداً . . . ولم تشرق الشمس إلا فى ساعة متأخرة كأنها هى الأخرى قد راحت عليها نومة . . . والطائرة بدأت تمز كأنها تتساقط

من التعب . . ومن النافذة كان ماء المحيط الهادى أزرق قائماً . . كشكل المياه حول جزيرة كبرى . . أو حول جزيرة سيلان . . أو مرسى مطروح . . أزرق داكن وتحت الماء توجد صخور بنية اللون هذه الصخور هي بقايا جزر غمرها المحيط . لأنها مئات الجزر ويسمونها «الهاديات» نسبة إلى المحيط الهادى فكل هذه المنطقة بركانية . . وكل هذه الجزر الموجودة هنا هي جبال بركانية . وقد أغرقت المياه الوديان التي حولها ولم تبق إلا القمم .

وقبل جزر هاواى نهنا الطيار إلى أننا بعد لحظات سنكون فوق الأجزاء الشمالية لجزر هاواى . . وكادت أرواحنا تطير تسبق الطائرة إلى سماء هذه الجزر وأخيراً ظهرت كتل بنية اللون ، وفيها بعض البقع الخضراء . . وأحياناً تظهر خطوط لامعة أيضاً . . وكأننا نرى وجه القمر . . ويبدو أن هذه الجزر كلها صغيرة ولكن شكل الجزر يبدو كشكل طفل مولود الآن . . كتلة من اللحم الأحمر ليس له ملامح الأب أو الأم ، ليست له ملامح الصورة الرائعة التي في خيالنا عن جزر هاواى وسحر هاواى ولياليها وأغانيتها . . وبصراحة ليست لها ملامح بنات هاواى . . !

ولم أتعجل الحكم على هذه الجزر . . وانتظرت حتى تنزل الطائرة إلى الأرض . . وبعد لحظات أعلن الطيار أننا نرى تحتنا ميناء بيرل هاربور التاريخية . . وهي تاريخية لأن اليابانيين أغرقوا فيها الأسطول الأمريكى ، وبدأت معارك الحرب الثانية في الشرق الأقصى . . وبعدها قفز اليابانيون إلى الفلبين والهند الصينية وأندونيسيا وهددوا أستراليا . . وإلى جوار بيرل هاربور - ومعناها ميناء اللؤلؤ - أعلن أنه توجد مدينة هونولولو عاصمة جزر هاواى . . وجزر هاواى هي الولاية الخمسون في الولايات المتحدة . . فقد انضمت إليها منذ سنوات قليلة وهي أحسن قرينة لأمريكا في الشرق الأقصى كله .

ونزلت الطائرة إلى مطار هونولولو الدولى . . المطار كبير ومخطط ونظيف جدا وبه عدد كبير من الطائرات النفاثة الحربية والمدنية . . وهي تنزل وتصعد كل لحظة بصورة مذهلة . . !

ولم نكد نخرج من الطائرة حتى أحسست بحرارة الجو . . الدنيا حر هنا . .

كشهر مايو في القاهرة .. وأخذت أنزع ملابسى .. البالطو والجاكته والبلوفر ..
ولم أتمكن من تشمير القميص فتحته ملابس لها أكمام طويلة .. وفي السيارة
أكملت نزع ملابسى .. !

الوجه كلها أمريكية .. القمصان ذات الورد والأبقار والجواميس والأسماك ..
القمصان من كل الألوان وكل المقاسات .. القمصان الواسعة جداً والبنطلونات
الضيقة واللبان والسجائر والسيارات .. ودخلنا الجمرى في طواير لثرى أحد ضباط
الهجرة قد رسم على ذراعه عروساً .. لا بد أنها تشبه فتاة كان يحبها .. أو ربما
ولد وهذا الرسم على ذراعه فهو رسم طبيعى لونه أزرق فى لون العروق أو فى لون
عينيه .. أو يمكن وحة .. !

ولم يستغرق الكشف على شهادتنا الطبية ضد الجدرى والكوليرا وجوازات
السفر سوى دقائق معدودة ، وأمام باب المطار وجدنا الشياطين من أبناء هاواى
ولكنهم أمريكيون أكثر من الأمريكان .. « الخناقة » فى الكلام ، الاستخفاف
فى الحركة وكثير من القزحة . تقدم واحد منهم وسألنى إن كنت أريد سيارة
تاكسى أو سيارة كبيرة لنقل حقائبى .. فوافقت على تاكسى ، وطلبت إليه
أن يحضر حقائبى .. فقال مامعناه إنه « ريس » هنا .. ولكنه مع ذلك سينقل
حقائبى .. « ومع ذلك » هذه كلفتنى نصف جنيه بقشيش .. وجاء التاكسى
كادىلاك ضخمة .. أما السيارة الكبيرة التى كان يريدنى أن أركبها فهى كادىلاك
أيضاً ، وهاستة أبواب ...

* * *

ورأيت فتيات سمراوات يرتدين ملابس هاواى ..

وملابس هاواى تشبه جلايب الفلاحات عندنا واسعة ولها سفرة عالية ،
وحول أعناق الفتيات عقود من الورد .. وقد ظننت أن أحد هذه العقود سيلتف
حول عنقى .. وقد أمعنت فى الظن فتخيلت أن هذه هى التقاليد .. وهكذا قالت
لنا كتب الدعاية .. ولكن الفتاة سألت عن السيد جارسون وحرمة .. وتقدمت
منى وقالت : مستر جارسون ؟ .. فقلت : أيوه .

وتقدمت الفتاة ووضعت لإكليل الورد حول عنقي ، ثم طبعت قبلة على
خدى . . . !

وأنا أضحك ، وهي سعيدة لأنها لم تنتظر طويلا لكي تجدني . . .
ثم سألتني عن السيدة حرمي فأشرت إلى الراكب الذي يمشي ورأى . . . ولم
تسمعي وأنا أقول لها : إنها تخلفت في طوكيو وأرسلت أخاها !
وغضبت وسحبت العقد من رقبتى وراحت تبحث عن مستر جارسون
وحرمه .

وفي السيارة سألت السائق عن الحياة في جزر هاواي وعن بنات هاواي
ولاحظت أن السائق دهش جداً لهذه الأسئلة .

وسألته عن سكان هاواي الأصليين وأين نجدهم ! .

وعرفت أن الطائرة التي سافرت من طوكيو يوم الخميس في الساعة الثالثة
مساء وصلت إلى هونولولو حوالي الساعة الثالثة من مساء يوم الخميس نفسه ،
فبدلاً من أن تصل يوم الجمعة وصلت يوم الخميس . . . فجزر هاواي متقدمة
في الزمن خمس ساعات عن اليابان - يحسن أن تسأل أحد علماء الجغرافيا
أو الفلك فنحن هنا نقع على خط طول ١٥٨ غرب جرينتش ، والقاهرة على
خط طول ٣٠ شرق جرينتش ، والفرق بين البلدين الآن هو ١٢ ساعة !

يعني لقد تقدمنا في الزمن خمس ساعات . . . ولكن عرفت أننا تأخرنا
في الوصول إلى هذه الجزر حوالي خمسين سنة ! فأهل هاواي - الذين كنت
أتوقع أن أراهم عراة حفاة ، ينسجون ملابسهم من أوراق الموز ، ويركبون
الزوارق المصنوعة من جذوع الأشجار ، ويضعون الورود الكبيرة في الشعر . . .
وبنات هاواي التي قال عنهن جيمس كوك الذي اكتشف هذه الجزر لا يعرفن
إلا فناً واحداً هو الاستسلام للرجل . . .

هؤلاء الرجال والنساء لا وجود لهم الآن . . . لقد اختفوا منذ خمسين سنة
على الأقل ! .

أما الآن فكل الناس يلبسون البديل والأحذية ومعظمهم يضيق بالأحذية

الضيقة فيضع في قدميه سيارات فاخرة من أحدث طراز . . فانا لم أر أحداً
يمشي في الطريق . والموضة هنا هي قيادة السيارات وأنت عريان إلا من مايوه
صغير . . أما السيدات فيقدن السيارات بالمايوه . . والمايوه مسخوط جداً ،
فهو مختصر جداً ، وربما كان السبب هو الاقتصاد في استخدام الأقمشة الثقيلة !
وعند الفندق انحرفت السيارة ودخلت في بوابة مكتوب عليها كلمة : آلوها . .
ومعناها : أهلاً . . وكلمة آلوها مكتوبة على كل السيارات . . وانطلقت السيارة إلى
جراج تحت ، وبالجراج سيارات لم نرها قبل ذلك . . فكلها موديل العام القادم . .
كل السيارات جديدة ، والسيارة الأمريكية قد ملأت الجراج والشوارع هنا .
ونزل سائق ووضع الحقائق على الأرض وسألته : كم ؟ . . فقال : خمسة
دولارات . . .

يعني جنينين لكي ينقلني من المطار إلى المدينة . . والمسافة لا تزيد على
خمسة كيلومترات . . أعطيته الدولارات الخمسة وأنا مذهول من وقوفه أمامي . .
إنه ينتظر البقشيش . . ولا أعرف ماذا أعطيه . . فأعطيته نصف جنيه !
الفندق أنيق جداً . .

وانتهت إلى الغرفة . . إنها واسعة طولها عشرة أمتار وعرضها سبعة أمتار
وأرضها مفروشة بمحصيرة جميلة مصنوعة من ليف النخيل . . وبالغرفة مقاعد
ومكاتب ولها شرفة تطل على البحر . . تطل على خليج ويكيكي - لا تخلط بين
هذه الكلمة وبين كلمة وكويكي التي معناها بلغة هاواي : بسرعة ! . .
أما إيجار الغرفة فهو تسعة جنيهات في اليوم . . لا فطور ولا غداء ولا عشاء . .
مصيبة سودة !

وفي المطعم عرفت أنه لا توجد هنا فنادق درجة أولى ودرجة ثانية . . وإنما
الفنادق هنا هكذا : درجة أولى ، ودرجة أولى ممتازة ، ودرجة أولى نخاصة . .
ثم الفيلات !

وفي المطعم جلست متحسراً خائفاً لا أدري ماذا أصنع . . أنا ميت من
الجوع . . فالأكل في الطائرة يوجع البطن . . إنه خليط من السكر والملح ،

وكل الأكل بارد . . الصلصة عليها سكر ، الليمون منقوع في العسل ، الزيتون مزروع في المري . . اللبن مثلج . . الشاي بارد !

وجاءت الجرسونة اليابانية - هنا ٤٠٪ من السكان الأصليين يابانيون - فطلبت منها قطعة من اللحم المشوى وبعض الشوربة الساخنة والسلطة الخضراء . . وبلاش شاي وبلاش قهوة وبلاش فاكهة . والناس حولي يأكلون كميات كبيرة من الطعام والسلطات والفواكه . . فلا بد أنهم سيدفعون مبالغ خرافية . . وبعد الأكل طلبت من الجرسونة : الحساب من فضلك ؟ فكتبت ورقة وطلبت مني أن أدفع هناك . . وأشارت إلى حيث تقف فتاة أمريكية عملاقة . . ونظرت في الورقة وكاد يغمى على . . تصورا أن هذا الطبق التافة كلفني ثلاثة جنيهات . . قطعة من اللحم وإلى جوارها بعض البرسيم والأعشاب بثلاثة جنيهات ! . .

كاد عقلي يطير مني . . وبدأت أفكر في الهرب من هذا الفندق وحاولت أن أسأل عن بيوت يابانية أو صينية . . وأعاود النوم على الأرض كما كنت أنام في اليابان . . . مأساة !

ألا يوجد في هذه البلاد فقراء ؟ ألا يوجد أناس متوسطو الحال ؟ أليس بين الأمريكيان واحد ليس مليونيراً ؟ وتذكرت الناس الجالسين إلى جوارى والمبالغ التي سيدفعونها . . لقد طلبوا نصف خروف أو نصف بقرة وعشرات من زجاجات البيرة والتبذد وأكواماً من الفواكه وبراميل من القهوة . . مع أن أشكاهم لا تدل على أنهم من الأغنياء . . ويبدو أن الأمريكيان لا يهتمون بمظهرهم كثيراً فأنت لا تعرف الفرق بين الغنى والفقير أو بين الكبير والصغير .

ومن شرفة غرفتي . نعم غرفتي . فليس أمامي إلا أن أملأ صدري بالهواء النقي جداً ، وأملأ عيني بالوجوه الحلوة التي تتناول العشاء في ضوء المشاعل ، وإلا أن أشاهد بنات هاواي يرقصن حافيات على رمال الشاطئ ، وعلى نقر الطبول وعويل الجيتار . . من شرفة غرفتي جلست أشرب الدنيا وآكلها مجاناً وأمصص شفتي وأنا أنطلع إلى بنات هاواي !

وبنت هاواي ترقص هنا بمايوه قطعتين ، ووراء أذنها وردة كبيرة وحول

رقتها عقد من الورد . . والأمريكان جالسون على الرمل يصفقون . وفي جانب آخر من البلاج أرى أشباح شبان في عناق طويل ، وأرى الأشباح تتقارب وتتعانق ويصبح الشبحان شبحاً واحداً ويختفي الشبح على الرمل ثم يختفي الظل ، يصبح حفرة في الرمل . . يدوسها الناس . . وتكرر عملية الأجسام التي تتحول إلى أشباح ثم إلى حفر في الرمل وإلى صمت . . ثم إلى حسرات - أقصد نفسى !

وفي اليوم التالي اكتشفت أماكن أرخص . . ولكنها لا يمكن أن تكون كاليابان الغالية أو الفلبين الغالية جداً . . إنها طبعاً أغلى بزمان .

وحمام ساخن ، ونومة حتى الصباح ، وبعض الموسيقى وبعض الصحف وكوب من اللبن الدافئ . والمشاعل على الشاطئ والوجوه السعيدة . . كل هذا أعاد لى روحى . . وفي ساعة مبكرة فتحت النافذة على شمس جديدة تنسحب على ماء مثل الشمع الأزرق الذى ينسحب إلى الشاطئ كأنه يريد أن يسمع ما يقوله المستحمون . . .

هذه جزر هاواى . . أجمل جزر رأيتها حتى الآن . . أجمل من كبرى . . وأجمل من صقلية ومن قبرص ومن سيلان ومن سنغافورة ومن بالى ومن هونج كونج . . جزر هاواى تضم أكثر من ١٢ جزيرة صغيرة ولكن أشهرها جزيرة ماواى ، وجزيرة أوهاو وفيها هونولولو عاصمة ولاية هاواى كلها ، وجزيرة ماواى ، وجزيرة كاواى ، وجزيرة نيهيا ، وجزيرة مولوكاوى ، وجزيرة لانائى . . وهم هنا ينطقونها بالهمزة فيسمونها : هاواى أو هافائى . . ويضعون هذه الهمزة على الحروف اللاتينية كما نضعها فى العربية . . ومن الغريب أنهم يسمونها «همزة» أيضاً . . ولا يعرفون من أين جاءتهم هذه الكلمة . . وقد لاحظت وجود كلمات عربية فى لغتهم مثل : كاهن وحكيم وحب وحبلى وواهنة وقوى . .

وكلمة «آلواها» هنا تجدها فى كل مكان ومعناها : أهلاً أو وداعاً . أو معناها : نزلت أهلاً أو تركت أهلاً .

وهناك شركات طيران اسمها شركات طيران أهلاً وشركات ملاحه أهلاً . . وجزر هاواى عدد سكانها نصف مليون . . وسكان جزر هاواى معظمهم

من الجنس الأصفر الذى ينتمى إليه سكان اليابان والصين والفلبين ، والباقي ينتمى إلى الجنس الأبيض أو القوقازى .

وعندما اكتشفت هذه الجزر سنة ١٧٧٨ كان عدد الهوائيين حوالى ٥٠ ألفاً . . وبعد اكتشاف هذه الجزر مات معظم هذا العدد بسبب أمراض الحضارة الحديثة - لا حياء فى العلم : أمراض الحضارة هى الزهرى والسلان ! - ولم يبق الآن من هؤلاء الهوائيين سوى عشرة آلاف . . وهذه الآلاف لا يمكن أن تجدها إلا فى الجزر البعيدة المقفلة .

أما أبناء هواى فهم الآن أمريكيون . . وأحياناً يبالغون فى « أمركتهم » لدرجة أنهم يسخرون من الأمريكيين . . أما الأمريكان فيسكتون أو يضحكون . . فليس فى أمريكا كلها أمريكى واحد إلا الهنود الحمر ، أما الباقون فقد جاء معظمهم من أوروبا . . فكلهم أجنبى مثل أهل هاواى ، ولم أسمع واحداً يقول إنه أمريكى إلا « المحدثون » أى الأمريكان الجدد ، أما الأمريكان القدامى فهم يقولون إنهم من إنجلترا وفرنسا أو إيرلندا ! .

وجزر هاواى هذه قد عرفت الأمريكان منذ وقت طويل ، منذ حوالى ١٨٠ سنة عندما بدأ رجال التبشير ينزلون إلى هذه البلاد واحداً بعد واحد وكانوا يدعون إلى المسيحية . . ويفتحون الطريق أمام الدول الكبرى لكى تستعمر هذه الجزر . ليس هذا إلا رأى الكاتب الأمريكى جيمس متشر فى كتابه الأخير عن «هاواى» وبه ألفا صفحة ، وربح فيه ثلاثة ملايين دولار ! .

وبعد رجال الدين جاء رجال الأعمال واحداً بعد واحد . . ورجال الأعمال هم الذين أتوا بالعمال اليابانيين والصينيين . . وقد ظلت هاواى مجموعة من «العزب» أو «الاقطاعات» لأصحاب الأعمال الأمريكان . . ولا تزال هناك حتى الآن جزر كاملة تملكها عائلات ولا يدخلها أحد . . فجزيرة « نيهاو » تملكها عائلة واحدة ولا يمكن دخولها إلا بإذن خاص . . وعدد سكان هذه الجزيرة حوالى ٢٠٠ نسمة . . وغرض هذه العائلة أن تبقى الحياة فى هذه الجزيرة كما كانت من مئات السنين . . فعلى الرغم من أن بهذه الجزيرة أحد الآلات لزراعة القصب واستخلاص السكر . . وزراعة الأناناس ووضعه فى العلب ، فإن الحياة فيها بدائية .

وهناك جزيرة أخرى تملكها إحدى الشركات هي جزيرة لانائى
وجزر هاواى تزرع القصب والأناناس وتبيع منه سنوياً ما يعادل ٣٠٠ مليون
دولار . . وهناك زراعات وصناعات أخرى أدت إلى رصف الشوارع . . وكثرة
الخطوط الجوية والملاحية والمطارات والموانئ . . والمحطات التجارية هنا مليئة
بالبضائع الأمريكية . وكل الناس هنا يعملون وكلهم يرتدون الملابس النظيفة
ولا تجد فى الشوارع إلا عدداً قليلاً جداً من المشاة . . والأتوبيسات هنا فخمة
وثنم التذكرة بين محطة وأخرى ٢٠ سنتاً أى ما يساوى ثمانية قروش !

وهذه مطاعم يابانية وصينية وكورية . . وصناعات يابانية أيضاً . . والمنافسة
بين أمريكا واليابان على أشدها . ويبدو أن الصناعات اليابانية أدق وأصغر
وأرخص وأكثر .

والفندق الذى أنزل به تتعقد به لجان كل يوم . . لجان كثيرة . . هذه
لجنة تحسين العاصمة . . وهذه لجنة عمل أنفاق تحت الأرض . . ولجنة بناء
برلمان . . ولجنة تحسين المطار الدولى وتخفيف ضغط الطائرات النفاثة التى
تزعج العاصمة ، فالطائرات النفاثة الحربية والمدنية تنزل وتطلع بمعدل طائرة
كل خمس دقائق ليلاً ونهاراً !

والديانة هنا هى المسيحية وإن كان بعض الصينيين واليابانيين لا يزالون
يتمسكون بالديانة البوذية . . ولكن عددهم قليل جداً .

. . .

وعندما جاء جيمس كوك الرحالة الإنجليزى الذى اكتشف هذه الجزر ،
واكتشف أستراليا أيضاً ، ظنه الهاواثيون أحد الآلهة . . فهو طويل أبيض اللون
أصفر الشعر أزرق العينين . . وظنوا أن سفينته هى جزيرة عائمة . . وظنوا أن
ساريات السفينة أشجاراً فى هذه الجزيرة . وعندما نزل كوك فى جزيرة هاواى
أقبل عليه الناس ساجدين راكعين . . وأدرك كوك أنه إله فأمعن فى إظهار
المعجزات فأمسك سيجارة وأشعلها وراح يطلق الدخان من فمه والناس فى
ذهوك . . ثم أخفى يديه فى جيب الجاكتة فظن الناس أنه يستطيع أن يضع يديه
فى أحشائه ويخرجها دون أن يموت . . ثم إن معه عصا ينطلق منها دخان ولهب

ولها دوى مروع . . وخروا ساجدين لهذه العصا السحرية . . وكانت تلك العصا
نوعاً من البنادق القديمة !

وكانت الديانة هنا تحدث الناس عن اليوم الذى ستبعث فيه الآلهة بمن يزور
الجزيرة ويخلصها من لعنات الآلهة «بيلة» آلهة النيران والبراكين والتي تزور جزر
المحيط الهادى الواحدة بعد الأخرى ، ثم تستقر آخر الأمر فى جزيرة هاواى
حيث تنطلق النيران من براكينها . . وعندما هبط كوك أيقن الناس أن هذا
هو الإله المنتظر !

ويظهر أن كوك كان مستبداً وكان قاسياً . فأحس الناس أنه لا يختلف
كثيراً عن الآلهة القساة . ويظهر أن الناس - حتى البدائيين - لا يتحملون
القسوة ولو من الآلهة . . وفى مرة تشاجروا معه وجرحوه . . وسالت الدماء
من « كوك » وكانوا يعتقدون أن كوك لا يمكن أن يصيبه أحد أو يقتله أحد . .
ومنذ تلك اللحظة وهم ينظرون إلى كوك على أنه غريب ، وأنه يريد أن يستولى على
أراضيهم . . وقد حدث أن سرق بعض بحارة كوك زورقاً من ملك هاواى ،
وهنا هجم أحد الهوائيين على كوك وقتله . . ودفن كوك فى جزيرة هاواى .

وقد أطلق كوك على جزر هاواى اسم جزر ساندوتش تيمناً بالإيرل
ساندويتش أميرال البحرية البريطانية فى ذلك الوقت . . والإيرل ساندويتش
هو أول من وضع اللحم والأرز فى رغيف . . فأطلق على هذا النوع من الطعام
اسم ساندويتش . . . وغيرت الجزر اسمها ، وأصبحت هاواى . . ونسى الناس
من هو ساندويتش وإن كانوا يأكلونه كل يوم .

وقد حاولت كل الدول الكبرى أن تستولى على هذه الجزر الجميلة ذات
الموقع العسكرى الخطير . . حاولت بريطانيا ثلاث مرات ، وفرنسا مرتين ،
والاتحاد السوفيتى مرة . . وليس للاتحاد السوفيتى هنا إلا قلعة اسمها قلعة روسيا
وحاولت أن أرى هذه القلعة فلم أجد إلا الاسم .

وكانت جزر هاواى مجموعة من الممالك المستقلة . . ثم توحدت تحت ملك
واحد هو الملك كاميهاميا الأول . . وتوالى بعده الملوك والملكات . . ولكن
رجال الأعمال الأمريكين استطاعوا أن يمهّدوا الطريق إلى رأس المال والنفوذ

الأمريكي حتى تحولت هذه الجزر إلى أرض تابعة لأمريكا في أواخر القرن الماضي . . ثم استقلت واعترفت باستقلالها وصار لها حاكم أمريكي . . وبعد ذلك في نوفمبر سنة ١٩٥٨ أعلن قبولها عضواً في الولايات المتحدة ، فكانت الولاية الخمسين . . وعلى أثر انضمام هذه الولاية لأمريكا أعلنت بعض الأحزاب في الفلبين رغبتها في الانضمام لأمريكا باعتباره الحل الوحيد لإنقاذ جزر الفلبين من التمزق والانحلال والفساد . . ولكن أمريكا هي الأخرى لها وجهات نظر في الفلبين . .

والحياة هنا في جزيرة « أوهاو » وعاصمتها هونولولو . . هادئة جداً ليس بها حوادث . . والنظرة للصحف المحلية تجعلك تشعر أنك في عزلة تامة عن العالم كله . . لا حوادث ولا قتل ولا جرائم ولا ضرائب . . كل شيء هادئ ناعم . . وأعلى الأصوات هو صوت أمواج البحر . .

ونحن ننام والنوافذ مفتوحة وبلا غطاء ، والأضواء في غرفتي وفي كل الغرف مغطاة خافتة كأصوات الناس . . وكل شيء عليه فلتر . . كل شيء نظيف كل شيء نقي . . الرمل أصفر في لون حبات الرمان ولون شفاه الفتيات هنا . . وأشجار جوز الهند أوراقها مدلاة كضفائر الفتيات الصغار . . والهواء يضرب الوجوه في خفة كأنه فستان هاوائي واسع والقبعات من سعف النخيل . . وكل فندق له حمام سباحة رغم أن كل الفنادق تطل على المحيط . . وأمام الفنادق توجد زوارق هاواي المزدوجة .

وتوجد عشرات الألعاب المسلية . . فهناك مثلاً جمعية غريبة ولكن الإقبال عليها هائل . . وهي جمعية « جمع حمار القواقع » ، ولها مواعيد ولها رحلات وسيارات وطائرات . . .

وهناك جمعية أخرى لصيد الحشرات الغريبة . . وكل شيء هنا يقابله الناس باهتمام ، رغم أنه يبدو بسيطاً .

والناس جاءوا إلى هذه الجزر وفي نيتهم شيء واحد : أن يستريحوا على الآخر . وفي الغرفة المجاورة لي عريس وعروس ، وفي الغرفة التي في آخر الممر عريس وعروس . . وكل يوم يتغير الورد ، ليتمشى مع لون الفستان . . كل يوم وفي الصباح يتمدد الناس في البلكونات أو على الشاطئ . . ويسبحون ويغوصون

تحت الماء . . وفي الليل تضاء المشاعل وفي ضوء المشاعل يجلس الناس في هدوء تام . ويأكلون ثم ينزلون إلى الشاطئ ، وهنا تنتظرهم فرق الموسيقى الهوائية . . والرقصة التقليدية هنا هي رقصة « الهولا » وهي رقصة سهلة قريبة من البوليرو . . أو « الفوكس تروت » السريعة . . وفتاة واحدة ترقص وتتلوى في مكانها وقد ارتدت فستاناً من قطعتين وعمرت وسطها كما تفعل السيدات المحتشمتات جداً في الهند ، ثم عرت ساقها وصدرها وبدأت ترقص ويصاحبها ثلاثة من الموسيقين واحد منهم يغني بلغة هاواي الغربية . . فكل حروف هذه اللغة عددها ١٢ فقط هي : ه.ك.ل.م.ن.ب.ف ، والخمسة الحروف الباقية هي عبارة عن الضمة والكسرة والفتحة والسكون والشدة . .

ولابد من وجود المشاعل أثناء هذه الرقصة ، فهذه الرقصة لها قصة تاريخية . فقد حدث أن شعرت الآلهة «بيلة» آلهة النيران والبراكين بكثير من الملل والقرف ، ويقال إن هذه الآلهة تشعر بالملل عندما لا تجد ما تعمله ، ويقال إنها تشعر بهذا الملل عندما تشعل النيران في براكين كل هذه الجزر . ولم تجد «بيلة» شيئاً تتسلى به . . لم تجد «بيلة» ما تعمله . كان شعورها مثل شعور الإمبراطور كاليجولا الطاغية الروماني الذي لم يكن يجزئه في الدنيا كلها غير شيء واحد هو أن الآلهة لم تحلف للإنسان سوى عنق واحد . وكان يتمنى أن يكون للإنسان أكثر من عنق لكي يجد عدداً كافياً من الرعوس التي تروى ظمأه إلى الدماء . . ولم تجد هذه الآلهة سوى أختها الصغرى فطلبت إليها أن تسليها فرقصت لها أختها رقصة الهولا . . ويقال إن الأخت الكبرى قتلت أختها الصغرى بعد ذلك . . فالرقصة لم تعجبها ولم تدخل السرور على نفسها . . فأعادت الأخت الرقصة مرة ومرة ولكن الأخت الكبرى لم تنشرح ، فقتلت أختها . ورقصة «الهولا» هي في الواقع صلاة على روح الأخت الطيبة التي أرادت أن تسلي أختها الشريرة التي تنفس النار والدخان من كل بركان .

* * *

وأحياناً يذهب الناس هنا إلى المطاعم عند السوق الدولية . . وهذه السوق الدولية يحاول أصحاب المطاعم أن يقدموا فيها الطعام والسلع من كل بلد في العالم . . فقد عثرت على محل لبيع السجائر . . عنده سجائر من القاهرة ويقول إنه يحصل على

هذه السجائر من شريك له في أمريكا .. وهذا الشريك له شريك آخر في تركيا ..
وفي قلب السوق الدولية يوجد شبه مسرح وعلى هذا المسرح تتوالى الفرق
الغنائية الموسيقية ، وتعرض فنون الرقص والغناء الغريب في كل الجزر الجنوبية
أو في جزر الهادييات أو جزر المحيط الهادى .. وهذه الحفلات تقام مجاناً ..
وفي نفسى أقول : أدى الدعاية وإلا بلاش .

ولابد أن الذى يقوم بهذه الدعاية هو إحدى شركات السياحة أو أحد
المطاعم أو أحد المسارح .. ولكن لا تمضى لحظات على الرقصة الأولى
والثانية حتى نعرف من الذى يقدم هذه الحفلات .. لأنها إحدى شركات الطيران
التي تدعوا الناس لزيارة الجزر الأخرى .. حيث الحياة أجمل وأروع ..
وكل شئ هنا تستغله الشركات للدعاية لشئ ما .

فند أيام انفجر بركان في جزيرة هاواي ، وكان البركان خامداً منذ خمس
سنوات .. هذا البركان أدى إلى انفجار محطة الإذاعة - وأقصد محطات
الإذاعة - هذه المحطات قد صخرت كل شئ للدعاية لزيارة البركان بأساليب
عجيبة .. فثلاً يقرأ المذيع نشرة الأخبار في أقل من دقيقة .. ونشرة الأخبار
هنا كل نصف ساعة ، ولا تكاد تنتهى النشرة حتى ينطلق مذيع آخر قائلاً :
البركان انفجر .. إن أروع منظر تراه في حياتك هو من نافذة شركة خطوط
أهلاً .. ثم أغنية بعد ذلك .. ومذيع ثالث يقول .. لا شئ يبى العين من شر
البركان إلا منظار زجاجى ماركة كذا .. وأغنية .. وصوت مذيع رابع ينطلق
كالمذيع قائلاً : بعد عودتك من البركان الذى درجة حرارته ١٨٠٠ مئوية حسب
آخر تقارير العلماء في المرصد ، بعد هذه العودة يجب أن تأخذ حماماً دافئاً ،
وعلماء النفس يقولون إن النوم هو الشئ الوحيد الذى يريحك ، وإذا لم تتمكن
من النوم فعليك بأقراص كذا .. وأغنية .. ومذيع خامس أو سادس يقول :
الساعة الآن التاسعة بتوقيت البركان والساعة ماركة كذا .. لقد انقضى على
انفجار البركان أكثر من ٢٠٠ ساعة وثلاث دقائق .. وأغنية .. ثم مذيع
يقول : ماذا تصنع لو انفجر البركان تحت نافذتك لا تحاول أن تفكر .. أنا
أقول لك الحل ! .. ضع أذنك على منحة ماركة كذا .. لمدة ٢٤ ساعة كل
يوم ..

هذه هي جزيرة أواهو التي عاصمتها هونولولو . . .
الحياة فيها هادئة جداً . . . ناعمة جداً . . . المطاعم كلها موسيقى وغناء ورقص
كل يوم . . . فكل يوم عيد هنا . . . كل يوم ربيع . . . وكل الناس هنا معهم
فلوس وأغنياء . . . ولا يشكون من الأسعار مثلي ، ولا يضعون أيديهم على
معدتهم أو قلوبهم قبل وبعد الأكل ثلاث مرات يومياً .

وعندما زار الأديب الأمريكي مارك توين هذه الجزر منذ مائة سنة قال :
هذه الجزر هي أجمل سفن ألفت مراسيها في هذا المحيط .

ولم يكن مارك توين قد رأى الجزر الأخرى ليقول إنها أجمل جزر
ألفت عندها السنن مراسيها ، وألفت عندها الطائرات سلالها في هذا المحيط
وفي أي محيط آخر .

● موسيقى وغناء بلا توقف

هذه الجزيرة التي أعيش فيها الآن ليست لها مواعيد للرقص أو الغناء . .
فالرقص والغناء يبدأان من الساعة التاسعة صباحاً أو قبل ذلك لا أعرف ويظلان
طول النهار وطول الليل . . وبعد نهاية الرقص تظل الإذاعة تغنى حتى اليوم التالي . .
ولا أحد يعرف إن كان الذى تسمعه فى الشارع أو البلكونة هو صوت الناس فى
الميكروفون أو من غير ميكروفون . والإذاعة هنا تعمل ٢٤ ساعة . وعيها أنها
تكرر أغانيها فى اليوم ثلاث وأربع مرات . وهذا هو أحد عيوب الاستماع إلى
إذاعة واحدة فقط . . أو الاستماع إليها !

فى الدور الذى أقيم فيه توجد حفلة لجمعية اسمها جمعية « المتفائلين »
وأصدقاء الطفل . . وفى الدور الذى يعلو هذا الدور توجد حفلة أخرى لبعض
شركات الطيران . . وفى الدور الذى فوقه توجد حفلة مدرسة « وكيكى » الثانوية . .
وفى حديقة السطح توجد حفلة غداء لجمعية أصدقاء الكتاب المقدس . . هذا فى
الغداء . . أو بين الفطور والغداء . . وفى العشاء ينتهى برنامج الحفلات وتبدأ
حفلات الشكر . . فالذين دعوا لهذه الحفلات يشكرون الذين وجهوا لهم الدعوة .

ثم حفلات الأزياء . . والورود . . ويسمون الورود هنا اللؤلؤ . . ربما لأنها
ليست نادرة . . فاللؤلؤ مثل أم الخلول عندنا لا عدد له !

ثم موسيقى هاوائية ورقص هاوائى وتصفيق وصلوات هادئة . . وحتى بعض
الأحيان يشكرون الله فى نفس واحد . . طبعاً يجب أن يشكروه على ما أعطاهم

من هواء وأرض وفواكه ومصانع . . وأمريكا !

وفي ساعة متأخرة قليلا من الليل يبدأ الغناء على الشاطئ الرملي . . يبدأ عادة بأن يتحرك أحد الموسيقيين من أبناء هاواي وفي يده جيتار ، ويمر بأصابعه على الجيتار تحت نوافذ الفندق ، وكأنه روميو تحت شباك جوليت ، ويظل كذلك يلعب بأصابعه ويلعب بلسانه . . لأن الأغاني كلها هنا تلاعب باللسان والأسنان . . وبين الحين والحين يقول : هو . . هو . . هو . . وهي نوع من الزغطة الغنائية . . وكان « فلة » قد وقفت في حلقة وكان لسانه مربوط بها . ويحاول هو أن يقتعلها مستعينا بضغط الهواء إلى الخارج . . ولكن لافائدة فيظل طول الليل يحاول بتشجيع الناس له . . إلى أن تطأ عليه من النافذة أية فتاة في مايوه - وكل الفتيات هنا بالمايوه - وتبتسم وتطلب منه أن يعيد الأغنية . . والتقاليد تقضى في مثل هذه الحالة أن يعيد من الأغنية ولو جملة واحدة . . ويمضي إلى مكان آخر فهو يتفاعل بالفتيات الحسان اللاتي يقابلنه في أول الليل . . والتقاليد تقضى بأن تنزل الفتيات من الشرفات ويمشين وراء هذا الموسيقار المتجول .

وهي طريقة لطيفة للإعلان عن مكان حفلة ستقام هذه الليلة . . وفي مكان على الشاطئ يتجمع الموسيقيون والراقصات ويتناقشون بصورة غنائية أو مجرد مناقشة باللغة الإنجليزية أو باللغة الهاوائية ، وبعد ذلك يمشون في الشوارع إلى أماكن كثيرة جداً في نفس مدينة هونولولو . وفي هذه المدينة تجدد ما هو أغرب . فالغناء في كل مطعم . . في كل بار . . في كل حانة . . وهذا يحدث كل يوم وكل ليلة . . فليس في هذه الجزيرة أية مواسم للسياحة أو للغناء أو للرقص . . كل سنة من فصل واحد . . وكل يوم من حفلة واحدة غنائية أو راقصة .

وهذا يضايقنا نحن الأجانب بعض الشيء . . ففي الصباح عندما نجلس إلى المائدة ونضع على كل مائدة شيئاً نحجزها به . . كجريدة أو جاكته أو مفتاح الفرقة . . ثم نذهب ونملأ أطباقنا ببعض الفواكه وعصير الطماطم وكلها مثلجة ونجلس ونرفع رؤوسنا إلى أعلى لنبتلع هذه الثلجات من ناحية ، ومن ناحية أخرى نحاول أن نلقت نظر الجرسونة إلينا . . ولكنها مشغولة جداً . . فهنا حفلة

على اليمين وحفلة ثانية على الشمال . . والحفلات التي فوق قد استعارت بعض الجرسونات وبعض الثلج . . ونحن لا نريد - يعني أنا وغيرى - إلا بعض الشاي الساخن أو حتى القهوة . . أى شئ ساخن . . وفي كل المرات لا تنظر إلينا الجرسونة أو تتجاوزنا كأننا لم نحضر أو كأننا قمنا من وقت طويل . وأخيراً تلتفت إلينا الجرسونة وتكتب الحساب وتركه وتركننا . . وفي الورقة مكتوب أننا شربنا الشاي .

وأحاول أن أقنعها بفنجان واحد . . ولا داعى للدهرق الذى تملؤه بالشاي الساخن . . وأخيراً تطلب منى أن أذهب إلى غرفتى وأطلب الشاي بالتليفون . . وفعلاً أذهب إلى غرفتى وأنزع ملابسى وأمسك الصحيفة الصباحية وأتمدد فى الفراش عرباناً كأى شاب رياضى أو كأى أمريكى مولود فى هاواى وأتمدد يدي إلى التليفون وأقول : أريد بعض الشاي من فضلك .

وأسمع من الناحية الأخرى من الخط « زومان » لا أفهمه . . فأحاول أن أستوضح عاملة التليفون إن كانت قد قالت شيئاً له معنى وفاتنى أن أفهمه . ولكنها تصر على أن الذى قالته له معنى ، وأنها ستحاول أن تجد لى فنجان الشاي . . وأقرأ الصحيفة مرة واثنين ، وأقلب فى بعض الكتب والنشرات وأدون بعض الملاحظات ، وقبل أن أرتدى ملابسى يرن جرس التليفون وأسمع أن هناك محاولات جادة لكى أحصل على فنجان الشاي ، وقبل أن أعلن لها عن عدولى عن الشاي تقفل عاملة التليفون السماعه . . وقبل أن تقفلها يبضع لحظات أستمع إلى بعض الموسيقى فى راديو مجاور لها أو فى حفلة مجاورة أو فى غرفة مجاورة . . كل شئ هنا موسيقى ورقص . . فى كل مكان . .

وأنزىل وأبقى فى الخارج ساعات أشرب فيها الشاي . . وأتناول غذائى . . وعندما أعود أجد الشاي فى غرفتى . . وألمسه بيدي فأجده قد برد وإلى جواره ورقة يجب أن أوقعها . . وأنظر فى الورقة فأجد أن فنجان الشاي ثمنه خمسون قرشاً . ويدق جرس التلفون و « أزوم » أنا . . ويكون المتحدث جرسون البوفيه ويسألنى إن كنت قد وقعت على الورقة الموجودة مع فنجان الشاي . . وأسكت لأستمع إليه وهو يعنى فأقول : الله . .

ويسألنى : ما هذا ؟ فأقول : مبسوط . . . ويستوضحنى بصوته الشجى ويقول :
تقصد . . . آلوها . . . آلوها . . . ومعناها مرحباً ومعناها وداعاً . . .
أقصد أهلاً يا بلاد الموسيقى والرقص . . . ووداعاً يا فلوسى !

• • •

كل شئ هنا فى سباق ، فى منافسة . . .
المجتمع الأمريكى مجتمع صناعى تجارى قائم على المنافسة فى البيع والشراء
عن طريق الدعاية . . . شركات ليس لها أول ولا آخر . . . كلها تحاول أن تكسب
الزبائن . . . أن تأخذ كل ما فى جيبك من مال دون أن تجعلك تشعر أنك صاحب
فضل عليها . . . وأنت كريم جداً للدرجة أنك فضلتها على غيرها .

والإعلانات الملونة والإعلانات فى الصحف وفى الإذاعة وفى الشوارع والسينما
والسيارات ، كل ذلك لكى تلفت الشركات نظر الزبون . . . تلفت نظره تم تلفتته
هو وأسرته وأصدقائه . . . إلى أن تستولى عليه .

ولكن أمريكا باعتبارها أكبر دولة صناعية تجارية فى العالم فالمنافسة فيها
أقوى وأقى . . . وهذه المنافسة هى التى تؤدى إلى تحسين السلعة وترخيصها .

والمجتمع التجارى هو مجتمع على كثير من الأخلاق . . . فالصدق والأمانة
والوفاء بالوعد وعدم الغش ، كل هذه الصفات المجتمع التجارى . فالتاجر لا يكذب
لا لأنه مؤمن بمزايا الأخلاق أو مؤمن بدين معين . . . ولكن لأن الصدق هو أحسن
إعلان له عند الزبون . . . والغش هو أسوأ دعاية ضده . . .

فهو لا يكذب ولا يخلف الوعد لأن هذه جميعاً دعاية طيبة له .

والصحف هنا - أى فى أمريكا - صفحاتها بالآلاف . . . فالصحيفة المحلية
المتواضعة جداً عدد صفحاتها ثمانون صفحة . . . وثمنها قليل جداً . . . ولماذا ؟
لأن الصحيفة مليئة بالإعلانات . . . ومن أجل هذه الإعلانات الكثيرة جداً صغرت
المقالات وصغرت الأخبار وأصبح الكلام المكتوب هو مجرد ملء للفرغ الذى
تركه الإعلانات . . .

والإذاعة كذلك . وهى قادرة على تحطيم أعصاب أى إنسان ميكانيكى . . .

أنت لا تستطيع أن تستمع إليها أكثر من نصف ساعة أو ساعة إن كنت من الصابرين .

تصور نفسك تأكل مثلاً وفي كل لقمة تجد ورقة وهذه الورقة مكتوب عليها إعلان . . تقرأ الإعلان ثم تبصق على الأرض . . هذا إذا كان الإعلان عن صناعة الورق . . ولكن هناك إعلانات أخرى عن صناعة الأحذية والظوب وفرش الأسنان والسخان الكهربي والمسامير .

وأنا سأحاول هنا أن أترجم لك جانباً من الإذاعة الأمريكية التي لم تتوقف منذ سنوات . . لم تتوقف لا ليلاً ولا نهاراً إلا لكي يبيع المذيع ورقة ثم يعلن أنه ابتلع قرصاً من الأسبرين الذي تباع الأقراص العشرة منه بعشرة قروش في محلات كنتكوت شارع حسب الله رقم ١٢٤٧ ! . .

فأنا أستمع إلى الإذاعة طول الليل . . أو على الأقل حتى الساعة الثالثة صباحاً . . وتبدأ الإذاعة بأغنية ولتكن الأغنية لأم كلثوم فيقول المذيع : أغنية ياللي كان يشجيك أنيني . . وهذا الأنين سببه وجع في الظهر وأحسن علاج هو مرهم « الإكسبريس » العجيب ، إنه يشفي وجع الظهر في أقل من خمس دقائق حسب توقيت ساعات شيكوريل المدهشة . ياللي كان يشجيك أنيني لأم كلثوم أيوه أم كلثوم . . كلثوم . . وكلسيوم . . أملاح الكلسيوم تباع الآن بعد أن اختفت من السوق حوالي أربعين ساعة منذ احترقت مدينة المنيا التي تستطيع أن تراها من خلال نافذة الطائرات الجديدة التابعة لشركة « الطيران العربية » . . أغنية ياللي كان يشجيك أنيني . . وتبدأ الأغنية : ياللي كان يشجيك أنيني . . كل ما أشكى لك أسايا إلخ . . الأغنية التي كان يجب أن تستغرق خمس دقائق . . والآن أغنية عبد الحليم حافظ ، أول مرة تحب يا قلبي . . عبد الحليم حافظ . . أحسن حافظ لك على السهر دون إرهاق هي حبوب « القط الأسود » إنها على هيئة أقراص . . كل علبه بنص جنيه . . لا يضر بالأعصاب . . وليس فيه مخدر يجعل هذه الحبوب عادة عندك . . أول مرة تحب يا قلبي وأول يوم أمهنا . . سيحدث هذا لك قطعاً إذا ذهبت إلى مطعم « شجرة الدر » أحسن الأطعمة وأروع الأتغام في شارع سليمان باشا رقم ٢٣٢٣ وبعدها ٣،٢ وبعدها ٣ . . كان مرة ٢٣٢٣

ثم يعطس المذيع وتسمع صوت مذيع آخر صارخ يقول : ألم أقل لك لا تفتح
النافذة .. استخدم ف . ت . ! إنها أحسن أنواع الستائر ، رخيصة متينة ،
وبعد ذلك استخدم أقراص « شفيم » للسعال والعطس .. أغنية « أول مرة تحب
يا قلبي » مسجلة على اسطوانات أخبار فون نمن الاسطوانة ٧٠ فرشاً .. وأحسن
جهاز لكي تستمع إلى صوتها نقياً هو جهاز صوت الغراب للأصوات الناعمة. إلخ
ثم تبدأ أغنية عبد الحليم حافظ وإليك الآن أغنية الحرف الأول من اسمه طلبها اليوم
مائة مستمع ومستمعة .. مائة .. لا تنس هذا الرقم .. لأنه رقم محلات حسب الله
لبيع الملابس الداخلية .. وردت كمية كبيرة من الحراير لمحلات حسب الله ..
الحرف الأول من اسمه هو اسم الأغنية .. استمعوا إليها .. وتمضى الأغنية تقول :
الحرف الأول من اسمه ومن اسمي .. وبعد الأغنية يطلب المذيع فتاة صغيرة بالتليفون
ويسألها .. ماذا تأكلين ياماما .. فتقول الطفلة الصغيرة وكأنها نسيت الدرس الذى
رده المذيع على أذنها ألف مرة .. وتقول : أنا مش باكل حاجة .. ويقول المذيع
مستدركاً : أمال فين علبه الشيكولاته اللي معاك واللى أنت بتحبيها ..

وتقول الطفلة : أنا ما حبش الشيكولاتة .

ويتلخم المذيع أو يمثل دور المملخوم ويقول : ياه .. قد كده أنت بتحبي
اللبن المحفف .. أحسن الألبان المحففة هى ألبان أبقار فتحى أبو جاموس ..
لا تملطوا بين فتحى أبو جاموس المؤلف الإذاعى .. وفتحى أبو جاموس
صاحب مزارع قصب السكر .. على كل حال سكر فى سكر .. وكله حلو ..
وعلى ذكر السكر والحلاوة يباع الآن فى الاجزاخانات .. سكارين .. وهو
خاص بالمصايين بالسكر .. اطلبوه فهو رخيص .. وإليك أغنية : زعج الوابور
ع السفر عيطت رايح فين .. طبعاً رايحين نشوف كفر الدوار .. لماذا .. اسمع
السبب :

إن كنت يوم رايح كفر الدوار

على الشمال زور أبو حمص

تلاقى محل عليه فينار

فيه البضايع راحه ترقص

طول الليل . . طول النهار وأكثر من عشرة مذيعين ينفخون في قرية محرومة
هى أذنى وأذن عشرات من الناس .

ومن المؤكد أن محطة الإذاعة هى سبب استهلاك الإسبرين وقطرة العين
ومراهم الظهر ، واستخدام المراتب الكاوتش .. لأنها ورشة نجارة وجزارة
صاروخية أخطأت الطريق إلى جيب المستمع فأقامت فى أذنه !

• • •

ملحوظة : هذا الرجل كان فى إمساكية شهر رمضان فى بلدة أبو حمص
ولأعرف لماذا تذكرته هنا فى هاواى . . مع أنى تركت أبو حمص من ٣٠ عاماً
فقد كنت تلميذاً فى مدرستها الابتدائية ثم تلميذاً فى مدرسة دمنهور الثانوية .. ولم
أتذكر هذا الرجل طول عمري !

هذه الملحوظة ربما تناولتها بالتفكير بعد ذلك . فأنا أفاجأ كل يوم بانفجار
لغيم عائم فى بحر ذكرياتي !

● مبادئ جمعية المتفائلين

كل يوم في الصباح أمر على غرفة مفتوحة وبها ستة جالسون وأمامهم أوراق وعلى بابهم خادم وأمامهم رجل يخطب بأعلى صوته وهم ساكتون . وعند الظهيرة يظل الاجتماع منعقدأ ، وفي المساء الاجتماع مستمر . والكلام يشمل أموراً كثيرة جداً . . أسمع بعضها وأنا في الطريق إلى السلام . . وحاولت أن أعرف اسم هذه الجمعية . فلم أجد لافتة لا على الباب ولا على السلام ، كما هي العادة .. وذهبت إلى استعلامات الفندق فضحكت الموظفة الشقراء وقالت لي : أنت متفائل ! فقلت : تقصدين إن كنت عضواً في هذه الجمعية . فقالت : نعم . . وأجبت : إنني متفائل دون جمعية !

ولم يكن هؤلاء الناس سوى جماعة جلسوا يتحدثون بصوت مرتفع وبصورة جادة . الناس يبحثون في موضوع حماية أنواع نادرة جداً من الضفادع والحشرات التي تعيش على أشجار جوز الهند . .

وفي يوم عدت إلى غرفتي فوجدت هذا الاجتماع قد زاد أفراده حتى بلغوا أكثر من عشرين رجلا وعشرين سيدة . . وعلى صدورهم ورود ، وأمامهم أكواب من العصير ومن الماء . ورأيت لافتة لم أتمكن من قراءتها بوضوح ولم تكن هناك خطب ولا كلمات وإنما بعض الموسيقى . .

وفي الصباح الباكر وجدت المناضد كما هي ، لم يتقدم أحد ليرفعها من هذا المكان . ثم وجدت اسم الجمعية فعلا . وعرفت أن موظفة الاستعلامات كانت في الواقع عضواً في هذه الجمعية . . فالجمعية اسمها « جمعية نادى المتفائلين

وأصدقاء الطفل بمدينة هونولولو . اسم غريب جداً . جمعية المتفائلين . وأصدقاء
الطفل ، لا بد أنهم أصدقاء أى طفل يولد فى هذا العالم الذى نعيش فيه . .

وعلى الحائط وجدت الوصايا العشر للمتفائلين . مطبوعة على ورقة كبيرة . ومطبوعة
على منشورات صغيرة . . ومطبوعة على علب الكبريت . ولا بد أنهم يتباحثون
فى توزيعها على أوسع نطاق كطبعها على أوراق العملة ، أو وضعها فى ظهور
الكتب المقدسة . ولكن اجتماعات المتفائلين هذه تطول جداً جداً . وربما كان
هذا هو الدليل الوحيد على أنهم متفائلين !

وقد لاحظت أنهم وهم يبحثون نصائحهم العشر هذه ، جادون جداً ،
وعلى وجوههم كآبة وربما حزن يجعلك تقطع بأنهم متشائمون . . ولكن طبيعة
التفكير هكذا . . فالتفكير مسألة جادة !

وأعتقد أنهم لم يفكروا أبداً فى نشر تعاليمهم هذه فى بلادنا . . ولكنى
أنتطوع فأقلها . وربما كان انتصاراً لفكرتهم ، وليس مهماً أن يكون انتصاراً أو
إنكساراً ولكنها أعجبتنى .

أولاً : يجب أن تكون قوياً ، وأن تشعر بأنك قوى ، أقوى من أية فكرة
تزرع ثقتك فى نفسك .

ثانياً : يجب أن تجعل كلامك دائماً عن الصحة والسعادة والنجاح وعن
نجاحك ، وعن نجاح كل إنسان أيضاً .

ثالثاً : يجب أن تجعل كل صديق لك يشعر أن فيه شيئاً ممتازاً ، شيئاً
يسره هو .

رابعاً : يجب أن تنظر إلى الجانب المشرق من الحياة ، وأن تعمل على تحقيق
كل آمالك ، وأنت على يقين من أنها ستتحقق بشكل ما .

خامساً : لا تفكر إلا فيما هو أبسط وأسهل ، ولا تتوقع إلا ما هو أحسن .

سادساً : يجب أن تكون جاداً متحمساً بالنسبة لنجاح الآخرين ، بنفس
الدرجة التى تتحمس بها لنجاحك أنت .

سابعاً : حاول أن تنسى دائماً أخطاء الماضى ، وأن تتجه إلى المستقبل دائماً

ثامناً : يجب أن تكون بشوش الوجه وأن تبتسم لكل إنسان تراه . .
تاسعاً : يجب أن تقضى أطول وقت ممكن في تحسين نفسك وبذلك لا يتسع
وقتك لتقد غيرك من الناس .

عاشراً : لا تأسف على مافات . وكن أقوى من غضبك . وكن أقوى من
أسفك وأقوى من الاستسلام للتعب فسيكون لديك وقت دائماً لشيء جديد .

وقد علمت أن هذا الاجتماع هو الثامن والثلاثون في مدينة هونولولو ، ولما
سألت عن نتائج هذه الجمعية . علمت أنه لا نتائج ولكن هناك شعور عام بين
الأعضاء وأصدقاء الأعضاء بأن الحياة تستأهل أن نعيشها وأن الصعوبات يمكن
أن نتخطاها وأن الحياة أقوى من الموت وأن الإنسان يجب أن يشعر أنه حي ،
رغم أن الموت يمضى في اختصار أسنانه وضوء عينيه ويرخى عضلاته ويفرغ
جيوبه ويباعد بينه وبين الناس . . حتى هذا يجب أن نراه إجراء عادياً . . يجب أن ننظر
إلى الحياة على أنها مثل مساكن ظريف لطيف كان يسكن عندنا وبدأ يعزل ولكنه
لم يأخذ من عزاله إلا القليل . . أما الكثير فقد أخذناه نحن . . لقد دفع الكثير
وهو الآن يسكن بإيجار اسمى . . . !

والله كلام معقول !

* * *

حتى في جزر هاواي بعض الضوضاء .

فيها صوت الأطباق والملاعق والسكاكين . . فيها صوت النوافذ وهي تفتح
وتغلق ، فيها أصوات الأطفال وهم يلعبون . . فيها صوت الموسيقى التي تتكرر كل
يوم حتى مللناها . فيها ضوضاء طبعاً . هذه الضوضاء بالنسبة لمدينة كالقاهرة تعتبر
لا شيء فيمكن ألا يكون هنا زمارة واحدة أو كلاكس واحد . وليس فيها واحدة
تقول من أعلى السطوح : يا واد يا عبده . . يا متبيل على عينك تعال شيل أختك
وهات لي بطيخة !؟

فما بالك بواشنطن أو موسكو أو باريس أو روما أو لندن أو حتى طوكيو . . كل
العواصم مجنونة ، فيها ضوضاء وفيها ترام وتليفون وفيها سيارات وفيها زعيق . . كل هذا
يحطم أعصاب الناس ويزلزل راحتهم . . ومن سوء حظ سكان المدن الصغيرة والقرى

أن الذين يحكمونهم يسكنون العواصم . . . ولذلك فأعصابهم مضطربة وأحكامهم مهزوزة ، وهم أولاً وأخيراً بشر من لحم ودم مربوط بخيوط معقدة اسمها الأعصاب وهذه الأعصاب هي الخيوط التي تضم القلب والمعدة والكبد والكلى والعقل وتزهها معاً في وقت واحد . . . فالذى يصيب العقل يربك القلب ويربك الكبد ويملاً المعدة بالأحماض . . . والأحماض تحطم الأعصاب والأعصاب تترك العقل والقلب وهكذا . . .

ولذلك يجب على الشعوب أن تطالب زعماءها بأن يستريحوا . . . بأن يذهبوا إلى الريف إلى شواطئ البحار . . . بأن يبعدوا عن الناس بعض الوقت . . . وليس هذا البعد عن الناس هرباً من المسئولية . . . ولا هرباً من الناس وليس رفاهية ، وإنما هي ضرورة عقلية ، ضرورة معوية ، ضرورة كبدية قلبية مصارينية . ضرورة . . . إننا نطلب من الركاب ألا يتحدثوا إلى سائق الأتوبيس . . . وبعض البلاد كأنجلترا تزيل المقاعد المجاورة لسائق التاكسي حتى لا يجلس أحد إلى جواره ، ويحدثه ويشغله عن النظر إلى الطريق ، حتى لا يدوس أحداً أو حتى لا يعطل المرور . . . سائق التاكسي وسائق الأتوبيس وهذا النوع من القيادة هو أبسط أنواع القيادة . . . فما بالك بالذين يقودون الشعوب . . . يقودون ملايين التاكسيات الحية في سكك دبلوماسية وسياسية واقتصادية وعسكرية . . .

هذا السائق الجمهايرى يجب أن يستريح بعض الوقت . . . يجب أن نزرع الكرسي المجاور له ويجب أن نخلى له السيارات من الركاب . . . يجب أن يكون له مكان يستريح فيه بعض الوقت . . . كلما أحس بإرهاق يجب أن نطلب إليه أن يستريح ، أن يهدأ حتى تثبت يده وحتى تصبح الرؤية واضحة أمامه وتصبح الأصوات صافية في أذنه . . . وكلما سمعت أن رئيس الولايات المتحدة قد ترك عاصمة بلاده ليلعب الجولف اندهشت لحظة . . . وبعد ذلك أرى أنه على حق فأعباؤه ثقيلة ويجب بين الحين والحين أن يريح كتفه بالطريقة التي تريجه . . .

وكلما سمعت أن رئيس وزراء روسيا ذهب إلى أقصى جنوب الاتحاد السوفيتي ليستجم أرى أن هذا من حظ شعب الاتحاد السوفيتي والشعوب الأخرى .

وكلما سمعت أن ماوتسى تونج كان يذهب إلى بيته الريفي وينظم الشعر

ويستمع إلى بعض الموسيقى والأغاني أحسست بشئ من الارتياح . .
وكلما سمعت أن رئيس وزراء الهند كان يذهب إلى شمال بلاده ويعطى لنفسه
إجازة أسبوعين أحسست أن راحة نهرو هي واجب قومي ، هي ضرورة يجب أن
يلجأ إليها وأن يطالبه الشعب بها .

وعندما ذهب ويلسون رئيس وزراء بريطانيا إلى الريف ورفض أن يتصل
به أى أحد ، لا الصحفيون ولا أعضاء الحزب احترموا شعوره واحترموا حقه
في الراحة . لأن راحته ليست راحة شخصية ولكنها راحة قومية ، راحة وطنية ،
راحة دولية . .

فالزعيم أى زعيم ليس شخصاً فقط ولكنه : شعب ورأى وموقف وعامل من
عوامل التاريخ أيضاً . .

والناس أيضا في حاجة إلى هذه الراحة . . فإذا استراح الزعماء استراح الناس !
ولو تحولت مقاعد الأمم المتحدة إلى مقاعد طويلة بدلا من أن يجلس فيها
الأعضاء « على حيلهم » ثم راحوا يتمددون ويسترخون وتصبح أصواتهم كأصوات
شهرزادة « في ألف ليلة وليلة » وهي تقول : مولاي - فإن هؤلاء الناس لا يمكن
أن تصدر عنهم أحكام عنيفة أو أحكام شريرة . . لأنه يكفي أن يتشاءب واحد منهم
ليكبس النوم على الباقيين . .

والرجل النائم لا يقتل ولا يذبح ولا يتآمر . . إنه يريد أن ينام وأن يحلم . .
والناس في هذا الزمان ليسوا في حاجة إلا لشيء واحد هو : الكثير من النوم . .
الكثير من الراحة . .

يجب أن يضيفوا شبرا في كل مقعد وأن يجعلوا ظهر الكرسي متراصيا إلى الوراء
قليلا . . بشرط أن نبدأ بالسائق . . بالقائد . . بالرجل الذي يملك مصير الملايين .
يجب أن يسترخ السائق . . فراحته تريح السيارة والركاب والسيارات الأخرى التي تنطلق
في شوارع الحياة . . والتاريخ !

● يا آلهة البراكين!

عندما ذهبت للفرجة على بركان جزيرة هاواي استرحت في بيت اسمه « بيت البركان » وصاحب البيت رجل يوناني عمره الآن أكثر من مائة سنة وهذا الرجل تنبأ بأن هذا البركان لن يسكت أبداً . . لأسباب علمية ولكن لأنه رأى في نومه صورة بيلة . . وبيلة هذه هي آلهة البراكين والنيران . . وبيلة هذه قالت له في المنام : سأكون هنا دائماً .

هذا الرجل اليوناني يؤمن بهذه الآلهة إيماناً تاماً ، وقد أعلن في الراديو أنه يراها في نومه كثيراً وأحياناً في يقظته وأنه يحتفظ بتمثال لها دائماً في غرفة نومه . .

أهو التمثال الذي انطبعت صورته في عينيه ؟ .. أهو البركان الذي هو مصدر حياة هذا الرجل ، فكل الناس الذين يقطعون مسافة ٢٠٠ كيلو من هونولولو إلى هذه الجزيرة يأكلون ويشربون وينامون في فنادقها الكثيرة . . أهو الوهم . . ؟ أهي الشيخخة . . ؟ أهي المنفعة . . ؟ أهي الحماسة لهذه الجزيرة أو لهذا البركان ؟ ..

وفي بيت البركان تباع قصة قصيرة لأديب أميريكامارك توين . . والقصة موضوعها : أن مارك توين عندما زار البركان سنة ١٨٦٦ أقام في بيت هذا الرجل اليوناني ورأى في نومه هذه الآلهة بيلة ومشى وراءها من واد إلى واد ومن جبل إلى جبل ومن مغارة إلى مغارة . .

ويقول مارك توين أنه انزعج جداً فصحا من نومه . . ثم نام بعد ذلك . . .

فرأى فى نومه نفس الحلم دون أن يتغير منظر واحد . . وانزعج ولم يفكر طويلاً
ثم عاوده النوم ورأى نفس الحلم .

ويقول أديب أمريكا إنه أحسن بأنه يجب أن يفكر فى هذا الأمر وأن يتساءل
من أين جاءت له هذه الأفكار ؟ ولماذا جاءت أفكاره بشكل واحد ؟ ومن الذى
أدخل هذه الأفكار فى رأسه وكأنه حريص على تثبيتها فيه ؟ !

يقول مارك توين إنه لاشك أن الآلهة بيعة هى التى وضعت هذه الأفكار
كلها ، وأن الإنسان عندما ينام فإنه يكون خاضعاً لقوى غريبة لا يعرفها أبداً . .
وأن الإنسان ليس له سلطان كبير على أحلامه . . فالأحلام عالم آخر ولهذا العالم
عقول وأرواح أخرى . . وفى الصباح نزل مارك توين إلى الوادى فإذا به يرى
نفس الطرقات ونفس الأحجار ونفس المغارات . . ولم يجد الآلهة « بيعة » . .
ولكنه عندما عاد إلى غرفته لاحظ أن تماثيل الآلهة « بيعة » كان قريباً من فراشه
طول الليل . .

وأشار مارك توين بأصبعه إلى التمثال وكأنه يقول : إذن هذا هو السبب !

* * *

وفى قصة لأديب إنجلترا كونان دويل يقول : إن رجلاً كان يحلم حلماً
واحداً مدة طويلة . . وذهب إلى أحد الأطباء ثم إلى أحد رجال الدين . وكلهم
لم يجدوا تفسيراً له . ولكن الرجل لاحظ تطوراً فى أحلامه فقد أصبحت هذه
الأحلام على هيئة سلسلة مرتبة الواحد بعد الآخر . . . وكل هذه الأحلام تروى
قصة أسرة كانت غنية فى هذه المنطقة واختفت معالمها ولم يعد أحد يعرف
عنها شيئاً .

وكان هذا الرجل صاحب مكتبة يبيع فيها إلى جانب الكتب بعض اللوحات
والمخطوطات القديمة . . وقد سمع بهذا الرجل أحد أساتذة الجامعة وسمع عن معرفته
للتاريخ وذهب إليه الأستاذ وطلب إليه أن يعاونه فى بعض التفاصيل وضحك
صاحب المكتبة وقال للأستاذ :

— هذه الأسئلة تحتاج إلى أن أنام لها !

ولم يفهم الأستاذ الجامعى . . وفى اليوم التالى جاء إليه . . وجلس صاحب

المكتبة يروى له بعض الوقائع التي أذهلت الأستاذ الجامعي . . فقد كان يظن أنه عندما وصل إلى الحقائق التاريخية كان هو أول من وصل إليها . .
وأنهم صاحب المكتبة بأنه يخفى بعض المخطوطات النادرة التي يجب نشرها على الناس جميعا .

ولكن كونان دويل يحتم القصة بأن صاحب المكتبة لا يعرف شيئا إلا من أحلامه ، وأنه يحتفظ بكوب نادر يشرب فيه عميد هذه الأسرة التي اندثرت كلها . . وهذا الكوب موجود في غرفته دائما . .

إذن هو الكوب الذي يعكس تاريخه على الأحلام . .
وكما أن كل شيء في الدنيا له إشعاع من نوع خاص . . إشعاع حرارى أو عطري أو نفساني . . فهذا الكوب له إشعاع تاريخي .

وأدباء آخرون مثل الكاتب الأمريكي هرمان ملفيل والكاتب الإنجليزي روبرت لويس استفنسون لهم قصص من هذا النوع عن السحر في هذه البلاد . .

* * *

وكثيرا من الأشياء التي نحتفظ بها أو نراها كثيرا أو نهم بها أو نخاف عليها أو نخفيها يتردد في أحلامنا بشكل ما .

وفي اليابان يبيعون بطاقات مطبوعة قبيل رأس السنة . هذه البطاقات مطبوع عليها أبيات من الشعر . . وهذه الأبيات تتحدث عن السعادة وعن الحظ . .
فهذه البطاقة تشبه النشافة التي تمتص الأحداث السيئة في السنة القادمة . .
وهذه الأبيات مكتوبة بصورة يمكن قراءتها من الطرفين أي من اليمين ومن الشمال . .
مثل كلمة : توت . . أو خوخ . . أو مثل هذه العبارة كلها : قلع مركب بيكر معلق . . أو كبيت الشعر المعروف الذي يمكن قراءته من الطرفين .
مودته تدوم لكل هول : وهل كل مودته تدوم .

فهذا البيت يمكن أن تقرأه من الناحيتين دون أى تغيير . . ويروى اليابانيون أن هذه الأبيات هي المصفاة التي تحجز متاعنا وتسمح بالحوادث السعيدة أن تتوزع على السنة القادمة .

وعند اليابانيين اعتقاد آخر هو أن النائم إذا وضع تحت رأسه صورة لحيوان

غريب اسمه « باكو » فإن باكو هذا هو القط وأحلامنا هي الفئران . وباكو يتصيدهما الواحد بعد الآخر . . فإذا نهضنا من النوم لا نتذكر أننا حلمنا بشيء مع أننا قد حلمنا بأشياء مزعجة جداً . . هذه الأحلام كلها قد استقرت في جوف باكو !

وتمنيت أن أصدق هذا ولذلك وضعت تحت رأسى صورة تحمها عبارة كل سنة جديدة وأنا طيب . . !

وأتم طيبون . . وأنصحكم بأن تضعوا هذه العبارة تحت المخدة فيما أن تتحول إلى أحلام سعيدة وإما أن تأكل أحلامكم السعيدة . . وكل واحد وبخته ! . أما أنا فقد قضت على أحلامي لأنها حرمتنى من النوم نهائياً . . . !

* * *

الاستعداد هنا لرأس السنة أو عيد الميلاد على أشده . . على الآخر في كل مكان . . في طوكيو . . رأيت مصلحة البريد تنبه الناس إلى أن يعجلوا بإرسال بطاقات المعايدة قبل موعدها ، لأن هذا يخفف الضغط على مصلحة البريد ، ولكن المعايدات اليابانية جميلة . . أشكال وألوان وأحجام تبدأ من مجرد البطاقة إلى البطاقة البارزة ، إلى التماثيل الصغيرة المصنوعة من الورق ، ويمكن وصولها على أثر إرسالها مباشرة . . وهناك خطابات لها روائح فبمجرد أن تفتح الخطاب يتطاير العطر إلى أنفك . . وليست لديهم هنا أية ألعاب مؤذية كالبسكوت أبو شطة والشيكولاته أم ظلط ولا الروائح المسيلة للدموع . . التى نعتاد أن نلعب بها في الأعياد !

وهنا أيضاً في هونولولو أرى الاستعداد لرأس السنة في كل مكان . . والأمريكان يجعلون من هذه المناسبة المتجددة صوراً من النكت والمرح وأحياناً يطبعون بعض الصور العارية الضاحكة أيضاً . . .

وأغرب ما وجدت هنا مجموعة من الشهادات المطبوعة . . وهذه الشهادات تشبه الشهادات الجامعية ملونة ومزوقة ومكتوب بخط أنيق جداً . . ولكن هذه الشهادات تتحدث عن أشياء أخرى غريبة . . عن الجنون والعقل والاقتصاد والزيارات المفاجئة .

وأنا أنقل هنا بعضها على سبيل الفكاهة . . أو فكرة يمكن استغلالها في مثل هذه المناسبات :

« جواز سفر إلى القمر . . فرصة نادرة ولا يمكن أن تحدث لمن هو الطف منك . . . »

« لما كان حضرتك هو الرجل الوحيد الذى اختاره أعز أصدقائه ، ولم يجدوا من هو أفضل منه لكى يبعثوا به إلى القمر فإننا نحب أن ننبه سكان الفضاء والكواكب الأخرى إلى أن المذكور عاليه ، ليس لإعينة علمية فقط . . وأنه لم يسافر إلا لغرض علمى . . وأنه لا يمثل سكان الأرض فى شئ . . وأنه من النوع الذى يمكن الاستغناء عنه . وعلى سكان الفضاء ألا يقرضوه أى مبلغ من المال وألا يصدقوا أية قصة يرويها وألا يسمحوا له بأن يجلس إلى أية فتاة مهما كانت . »

« ملحوظة : هذا الجواز للذهاب فقط ! »

وهذه الشهادة عليها صورة مزعجة للمسافر وحول هذا الجواز برواز مكتوب عليه عشرات المرات كلمة : « يبب . . يبب . . إلى غير عودة ! »
وهذه « وثيقة زواج » تقول :

« وثيقة زواج . . لما كان من الحرافات المنتشرة أنه من الأرخص للإنسان أن يعيش متزوجاً على أن يعيش عازباً فإن المذكور . . والمذكورة . . من حقهما الآن أن يرتكبا الزواج بالشروط التالية : فالزوج - وهو ما يعرف عادة باسم مصاص الدماء - يوافق على أن يعطى الزوجة - وهى ما تعرف باسم ست البيت - كل ما لديه من أموال وشيكات كسبها فى البوكر أو فى سباق الخيل . . وأن تفرغ جيوبه من كل أرقام التليفونات ، وأن تهئ السكن اللازم لكل لإخوانها المتعطلين بما فى ذلك النوم والإقامة ومصاريف الهلس والعلاج والأقارب أيضاً . وأن تقول له : نعم يا روحى (عندما يتشاجر ان) وأن تضع قدميها الباردتين على ظهره العارى فى الليل . . خصوصاً فى ليالى الشتاء . . وفى مقابل ذلك يجب أن تهئ للزوج مصروف البيرة ووجبة واحدة ساخنة ولومرة كل سنة . . وكل ماتراه هى يتناسب مع وضعها فى البيت كزوجة . . »

هذه الوثيقة محاطة . . بسلسلة طويلة جداً طرفها الأول دبلة الزواج ، والطرف الآخر كرة من الحديد .
وهذه شهادة ميلاد :

« ليكن معلوماً أن « فلاناً » عندما لاحظ أن هذه الفتاة تحيط فستاناً صغيراً ولاحظ أنها عندما تعود إلى البيت تكون محملة بهذا يا صغيرة ولفائف وأحذية وقبعات . كلها صغيرة . . وأن وجهها يصفر في كل مرة ترى فيها أكواب القهوة أو أطباق البيض في الصباح . . وأنها تنهض في الساعة الثانية صباحاً وتطلب أنواعاً غريبة جداً من الأطعمة ، ثم لأنها أخبرت المذكور أعلاه أن الدكتور في طريقه إلى البيت وأن هذه نصيحة أمها . . وأن الدكتور سيقدم له فاتورة طويلة عريضة عن الأدوية والخدمات التي ستؤدي لها في المستشفى ، لهذا قد حررت له هذه الشهادة بناء على طلبه ، ليكون معلوماً أنه أب وأنه يتوقع مولوداً من وقت لآخر وأن من حقه الآن أن ينظر إلى المستقبل بعين قريرة ، فبعد اليوم يجب أن يدخن علبة سجاائر كل شهر ، وأن يكف عن تناول قذح البيرة التي كان يتناولها مرة كل أسبوع وأن يبحث عن خادمة ومربية ، وأن يفتح أذنيه لنصائح الآخرين الذين فوجئوا بعد من الأولاد . من الغريب أن بينهم وبين آبائهم شبيهاً كبيراً .»

* * *

وشهادة الميلاد هذه محاطة ببرواز عليه أطفال كثيرون كلهم بيزازة ولهم أرقام ، وكلهم يبكون وزجاجة اللبن في أيديهم .

* * *

وهذه رخصة لمن يجلسون في المقعد الخلفي من السيارة هذا نصها : « بما أن فلاناً قضى مدة طويلة في ركوب سيارات التاكسي والشعبطة على بعض سيارات النقل والقطارات دون أن تسجل ضده أية حوادث ، فهو لذلك يعتبر نفسه مستشاراً وإخصائياً لكل من يريد أن يقود طائرة ، وهو يجلس في المقعد الخلفي . ولذلك نشهد بأن المذكور أعلاه مفوض تماماً أن ينصح كل سائق سيارة تاكسي أو سيارة أخرى يركب فيها في الشوارع الداخلية للمدينة أو الطرق الزراعية تنطلق بسرعة أو في غاية الهدوء . . وأن ينبه السائق قبل وقوع حوادث التصادم . . وأن ينبهه إلى إشارات المرور ، وأن يلعب بالنيابة عنه كل السائقين الآخرين في

السيارات المجاورة . وأن يشترك باليد أو بالرجل أو باللسان في أية معركة يقتضيها الموقف ، على أن يختار الكلمة النابية وأماكن الإصابة للمذكور أعلاه . ومن حقه أيضاً أن يتولى التعبير عن السائق في حالات الموت أو القلق أو الفزع أو الانعماء . . والمذكور أعلاه من حقه أن يرتدى القبعة التي يرتديها وبالجم الذي يريده فليس مهماً أن يرى السائق من النافذة الخلفية . . فهذا المستشار سيغنيه عن ذلك . . ويجب على السائق أن يعتمد عليه اعتماداً تاماً » .

وحول هذه الرخصة برواز به عبارة : انتبه فهناك سيارات اصطدمنا بها من الخلف . . وعبارة أخرى : انتبه . . فهنا رائحة شياطين في السيارة المجاورة وربما انتقلت إلينا . حاسب هل تريد أن تقتلني أنا وزوجتي ؟ . . قف هنا أريد أن أرى شيئاً في الفترينة » .

وشهادات لتطليق الزوجة بعد زواجها بساعة ، وأخرى للتخلص من حماك عن بعد .

وشهادة أخيرة للضحك على الناس بترجمة هذا الكلام إلى اللغة العربية !

• • •

واشتريت مجموعة من بطاقات الأعياد . .

وأرسلتها إلى عدد كبير من الأصدقاء ، والحقيقة أنه لم يكن الدافع هو أن أعيدهم عليهم . . بقدر أن أبين لهم أين أنا من العالم . . أريد أن أخبرهم أني في جزر هاواي . .

في هذه الجنة المنعزلة تماماً عن الدنيا . . لأنها تبعد عن أقرب ميناء في أمريكا ٢٥٠٠ ميل . . وتبعد عن أقرب جزيرة مثل ساموا حوالي ٢٥٠٠ ميل . .

حتى الذين لم تكن لي بهم أية صلة أرسلت لهم بطاقات ، ولا أعرف هل وصلتهم أم احتفظ بها ساعي البريد . . ولو كنت ساعياً للبريد لاحتفظت بها . فالبطاقات عبارة على لوحات جميلة ، ثم إن العبارات التي كتبتها لأصدقائي لم تكن جميلة ، وإنما هي أقرب إلى الشتيمة . ولا أفهم لماذا تطفو على نفس الإنسان هذه العبارات النابية وهو سعيد ؟ .

لماذا لا أبعث لهم بهذه العبارات : أنا في الجنة والعاقبة عندكم . . بدلا

من أن أقول : أنا هنا في الجنة وانتم واقفون على الأرصفة في القاهرة والإسكندرية والمنصورة وطنطا ..

فبدلاً من أن يقولوا : والله فيه الخير . . ربنا يرجعه بالسلامة . . فلإنهم يقولون : إنه يغيظنا إياك تقع بيه الطيارة !

والله يعلم أنني ضيعت مبلغاً من المال في هذه البطاقات التي تبدأ عادة بكلمة كل ستة وأنت طيب وتنهى عادة بما معناه الله يخرب بيتك . . !

حدث أمس شيء غريب . .

تعرفت على اثنين من الأمريكان . وليس أسهل من أن تعرف أى أمريكى أو يعرفك هو . فهو بيتسم لك ويدخل معك في موضوع يدهشك . . فهو يحدثك عن نفسه وعن الفلوس التي في جيبه وعن الكلام الذى دار بينه وبين زوجته . . وماذا قال لها وقالت له . . وقبل أن تستوضحه عن اسمه يكون قد انتقل إلى أبنائه . وقبل أن نتأكد أنه رجل عاقل وليس مجنوناً يكون قد دخل في السياسة ولعن آباء روسيا والصين وأبدى خوفه من اليابان . . وإذا كان مثقفاً جداً فإنه يتحدث عن عمر الخيام دون أن يعرف أنه إيرانى وليس مصرياً . وإذا كان من علماء الجيولوجيا فسيسألك إذا كان الهرم الأكبر مصنوعاً من الطوب الأحمر أو من الجير وإن كانت له نوافذ قبلية أو بحرية . وتأكد أن أى كلام ستقول له بلهجة جادة سيصدقه ، ولكى تكون جاداً يحسن بك أن تكشر وأن تنظر إلى الأرض مرة - غير مهم أن تفتح عينيك - وإلى السماء مرة .. وإذا تصادف مرور ذبابة فافتح لها عينيك ، لعلها تلمسها فتحمر ، وهنا يجب أن تنتهزها فرصة وتبكى على الأموال التي أضعفها في البحث بنفسك عن كل شيء . . أوكد لك أن هذا الأمريكى سيجمع لك الناس ويدعو إلى مذهبك الجديد في الفلسفة !

وشئ من هذا قد حدث لهذين الأمريكين . .

فهما يسكنان في بيت . . والبيت تملكه سيدة عجوز ، وهى عجوز جداً جداً .. - هذا رأيهما - فعندها حوالى سبعين سنة .. هذان الأمريكيان في الخامسة والعشرين من العمر ! وهذه السيدة تعرف تاريخ جزر هاواى وتاريخ الجزر المرجانية الصغيرة المجاورة لها . .

وصم هذان الشابان على أن أذهب لرؤية هذه الوثيقة التاريخية الحية . هل أقول لهما إن أى أثر تاريخى عمره سبعون سنة ، لا يلفت نظرنا نحن الذين بنينا الأهرام من ألوف السنين . . الحقيقة لم أكسفهما وقلت : يا واد . . دول أغنياء حرب وليس لهم تاريخ . . وليس لهم أصل . . لإنهم أبناء المهاجرين من كل الشعوب الأوربية وغيرها . . .

وذهبت إلى بيت السيدة العجوز . .

السيدة عمياء . . وسعيدة بأن الأمريكان قد أوجدوا لها هذا العمل . . بأن يسألوها فى سذاجة ، وترد عليهم فى سذاجة أيضاً . .

وكلما سألاها سؤالا بأتخأ ، نظرا ناحيتى . . لكى أتبه جداً إلى الجواب . . ويحى الجواب لا معنى له . .

وحاولت أن أجعل لهذه السيدة أى معنى . .

فسألتها : هل رأيت آلهة البراكين ؟

وهنا أتزعجت جداً . وصرخت : لاتسألنى هكذا . . من أنت . . أخرج . . خربت بيتى . . لقد مات زوجى . . ومات ابنى . . وفقدت نظرى . . أخرج . . اللعنة عليك وعلى الذين أتوا بك . . أخرجوا يا أولاد . . (وهنا ذكرت أسماء بعض الحيوانات الحلية) .

وكانت مفاجأة لهذين الأمريكيين أيضاً . .

فقد تقدمت ثلاث خادمات ، كن واقفات عن قرب . . ودفعتنا جميعاً إلى الشارع دون اعتذار . . وانغلق الباب ورحن يلقين بالكولونيا على وجه العجوز ولم تنطق بكلمة واحدة . .

وقررنا فى الطريق أن نسأل أحد العلماء الأمريكان الموجودين فى المدينة . . والعلماء الأمريكان كثيرون فى كل مكان . إنك تجدهم بين الجرسونات والمضيفات فلا أحد يعرف بالضبط من هو العالم . . ومن ليس عالماً . ليس من الضرورى أن يكون قد وضع منظاراً على عينيه . . ولأعرف كيف اهتدى هذان الشابان إلى وجود أحد العلماء من أبناء الجزيرة . .

ووجدناه صاحب أحد محلات بيع الأسطوانات ، وسألناه ، وروى لنا قصة هذه

السيدة . وعرفنا أنها من الذين يؤمنون بتحضير الأرواح والانصال بالشياطين . .
وأنها ضحية لهذا السحر الأسود . . وأنها ليست مؤمنة بأى دين . ثم لفت نظرنا
إلى لوحات وتماثيل موجودة في بيتها . . وكلها لآلهة البراكين والزلازل وآلهة
البحر . .

وأنها كانت سبباً في القضاء على عائلات كاملة . . وأنها كانت من أجمل
نساء هاواي لولا هذه الخرافات التي آمنت بها . .

ودعانا إلى بيته لئرى بعض اللوحات التي رسمها فنانون عالميون لهذه القصص
الخرافة . .

واعتردت . . .

وعدت إلى غرفتي . وكانت الساعة متأخرة جداً . .

ومع كوب اللبن ابتلعت قرصين من الحبوب المنومة . . ونظرت إلى نفسي
في المرآة وقلت : كل كريسماس وأنت طيب . .

ووضعت تحت مخدتي ورقة مكتوباً عليها هذه العبارة - تمثياً مع التقاليد
اليابانية - كل سنة وانت في هاواي !

وفي الصباح أحسست أنني مكسر . . وعرفت أن العفاريت وآلهة البراكين
قد اخترقت الستار النومي الذي نصبته حول أحلامي . . وأن هذه العفاريت قد
تسللت إلى أحلامي ونسجتها على طريقها . . كأن النوم خيوط من حرير ، وجاءت
هذه العفاريت وبطريقة شيطانية حولت هذه الخيوط إلى تيجان من الشوك الناعم . .
ظللت أتقلب عليها طول الليل . . وكلما صحوت تقدمت هذه السيدة العجوز
تحشرنى في البيجاما من جديد . .

وعرفت العفاريت طريقها إلى فراشي !

وهذا هو جزاء من يمشي وراء العيال الأمريكان !

● درس من هنا

قبل أن أعادر القارة الآسيوية أرجوك أن تعطيني فرصة لكي أنفلسف شوية !

• • •

هنا أعظم مساحة من الغابات التي رأيتها في حياتي . رأيت الغابات في ألمانيا وسويسرا والنمسا وفرنسا وإيطاليا واليونان والسويد . . ولكن غابات آسيا أغنى وأوسع . ففي كل مكان أجلس فيه أرى أمامي غابة . . بل إنني رأيت حيوانات الغابة تتطلق بالألوف كأن الدنيا لم تتغير حولها . . رأيت النور والفيلة في منطقة كاتاكي في جنوب الهند . .

• • •

وعرفت أن الشجرة الواحدة لا تكون غابة ، والبيضة الواحدة لا تكون عجة ، والريشة الواحدة لا تكون عصفوراً والأصبع الواحدة لا تكون يداً . .

وعرفت أن مجموعة من الأشجار إذا انتظمت تكون حديقة ، وإذا لم تنتظم فإنها تكون غابة . . فالغابة هي جماهير من الأشجار ، ومظاهرات من الطيور ، وحشود من الثمار . .

وجماهير الأشجار لها قوة خفية ، ولا يمكن أن يغلبها إلا العقل . . إلا النظام والتفكير . .

فهما كانت جماهير الأشجار والحيوانات قوية ، فإن تفكير العقلاء أقوى . .

ورأيت أشجاراً كثيرة ملتوية السيقان . . وعرفت السبب . . فالأشجار كلها تتسابق نحو الشمس . . فرأيت أشجار المانجو تخفى الشمس عن أشجار جوز الهند . . ولكن هذه الأشجار تلتوى وتتلقى وتتفادى أشجار المانجو وبعد ذلك تصل إلى الشمس . . تصل إلى النور والحياة . .

وكنت إذا رأيت شجرة ملتوية عرفت أنها عندما كانت صغيرة حرمتها شجرة كبيرة من الحياة فانحرفت والتوت . .

فلا تزال الحياة أقوى من الاعتدال والاستقامة ولا تزال الحياة غاية . . وكل شيء من أجلها وسيلة . .

والجوع إلى الشمس ، إلى النور ، مثل الجوع إلى الطعام كافر بكل دين ا

• • •

ورأيت الثمار في هذه المناطق الحارة تنمو بسرعة وبكثرة . . فالحرارة شديدة والأمطار غزيرة دائماً . . وإذا لم يكن هناك مطر فهناك رطوبة كثيفة في الجو . . فلهواء بخار ساخن دائماً . . وهذا البخار الساخن هو الذي ينفخ في الجلود فتقفز من الأرض ، ومن الأرض إلى الجو ، وتتلى منها ثمار صغيرة لا تلبث أن تكبر وتنضج بسرعة عجيبة . .

فهذه البلاد غنية بالفواكه . .

ولكن هذه السرعة في النمو ، حرمت هذه الثمار من الطعم الحلو وحرمتها من الغذاء . . إن الثمار هنا كالطفل الذي تفضمه أمه بعد أيام من ولادته ، فالطفل يكبر في السن ولكنه ضعيف تنقصه الفيتامينات الضرورية للحياة .

وعرفت أن النمو الشيطاني ، وأن الذي يكبر بسرعة ويعلو بسرعة إنما يكون على حساب حيويته ، على حساب عناصر الحياة فيه . .

فالطبيعة تقدم الكم ولا تقدم الكيف ، فهو « كم » كبير و « كيف » ضعيف ولذلك جاء الرجل الأبيض وهو قليل العدد ولكن فيه عناصر الحياة والبقاء ، وظل الرجل الأصفر الكثير العدد تنقصه عناصر المقاومة فترة طويلة ا

ورأيت في الهند دفاعا حاراً عن الأفاعى لأنها تأكل الفئران التي تأكل محصول الأرز والقمح ..

رأيت الناس يختارون أيهما هو الأقل ضرراً .

اختاروا الثعبان لأنه أهون من انتشار الفئران وضياع المحصول .
ورأيت أن الأصل في كل شيء هو مدى ضرورته للإنسان فإذا كان الشيء ضرورياً ، جاء الدين ووضع عليه تاج القداسة !

• • •

ورأيت أندونيسيا المكونة من ثلاثة آلاف جزيرة .. بها مختلف اللغات واللهجات وبها دين واحد هو الإسلام .. ولكن المسافة بين الجزر تقطعها الطائرة في ساعات .. وبعضها غنى جداً في الثروات ، قليل جداً في العدد .. ولكن هذه الجزر اتحدت ضد العدو الواحد وهو هولندا .. رغم الخلافات في الجنس وفي اللغة وفي المكان ، ورغم المساحات المائية بين الجزر ..

ولكن عندما يتهددهم خطر واحد .. يتحد الناس لأنهم حريصون على أنفسهم وعلى مصالحهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية .. على مصالحهم الحيوية ..

وايقنت أن اتحاد العرب ليس مستحيلاً بل ليس صعباً .. فاللغة تجمعنا والأهداف تجمعنا .. والأرض متصلة بعضها ببعض .. والعدو واحد .. فنحن نخاف من رؤوس الأموال اليهودية .. نخاف أن نحولنا لإسرائيل إلى مستهلكين لإنتاجها فقط .. نخاف أن نصبح دكاكين نبيع منتجات مصانع إسرائيل .. نخاف أن نتحول إلى هنود حمر في بلادنا !

ولذلك سنتحد اليوم أو غداً ، هذا الجيل أو الجيل القادم .. وحثماً !

• • •

لقد استعمر الرجل الأبيض هذه البلاد مئات السنين .. استعمرها أيام كانت الحياة مستحيلة . فلا بيوت ولا علاج ولا وسائل للراحة .. ولكن الرجل الأبيض .. أصلح الأرض ، وسوى الطريق ، وواجه الشمس ، وقاوم الحرارة والمرض والجمل .. وعاش وحرص على البقاء مئات السنين .

كان الرجل الأبيض قادراً على التكيف مع البيئة قادراً على أن يمشي إلى

جوار البيثة وينحنى لها ليتحكم فيها بعد ذلك . . فيشق الجبل ويبني السقف
ويقيم المستشفى والمدرسة . .

فنحن - نساء ورجالا - نجد صعوبة في الحياة في أى بلد آخر غير البلد
الذى ولدنا فيه ويجب أن نموت فيه . .

وهذه حقيقة مؤلمة يجب أن نواجهها بصورة جادة جدا .
فنحن نرى أن الحياة خارج القاهرة صعبة ونرى أن الحياة خارج بلادنا مستحيلة
أيضا .

إننى لا أستطيع أن أنسى خجلى وأنا أسعى لنقل أحد رجال البوليس من
الجزيرة إلى القاهرة . . لقد اضطررت تحت إلحاح شديد أن أقابل أحد المسؤولين . .
واندهش المسئول لهذا الطلب الغريب جدا . . إننا نظر إلى الموظف المنقول إلى
الصعيد على أنه مغضوب عليه !

طبعاً هذا الموظف معذور ، فليس في الصعيد وسائل الراحة أو الترفيه التى
يجدها في القاهرة أو الإسكندرية . ولذلك يجب أن نعمل على توفير هذه الوسائل
في المدن الأخرى . . وأن نقلل من الإنفاق على القاهرة والإسكندرية ونزير
المدن الأخرى لأن هناك قضية أخرى أهم ، وهى تخفيف الضغط على القاهرة
وتعويد الناس على الحياة بعيداً عن العاصمة تمهيداً لتعويدهم على الحياة خارج
بلادنا . .

ويجب أن نقلل بقدر الإمكان من المركزية الإدارية والصناعية والسياحية . .
ومن المؤكد أن بعد كهربية السد العالى ونشر المراكز الصناعية في أماكن مختلفة
من بلادنا ستنقل المدرسة والمسرح والسوق والصحيفة إلى جوار المصنع . .
وفي كلمة أخرى اكتشفت أننا «مدلون» . . فليس في حياتنا بساطة وجلد .
وأنا تشبه النباتات التى تنمو في بيوت الزجاج . . أو كالقمح الذى ينمو في
أوراق النشاف . . فنحن نعيش في ظروف واحدة لا تتغير وإلا فلا . . في
العاصمة وإلا فلا .

والنتيجة . . طبعاً . . فلا .

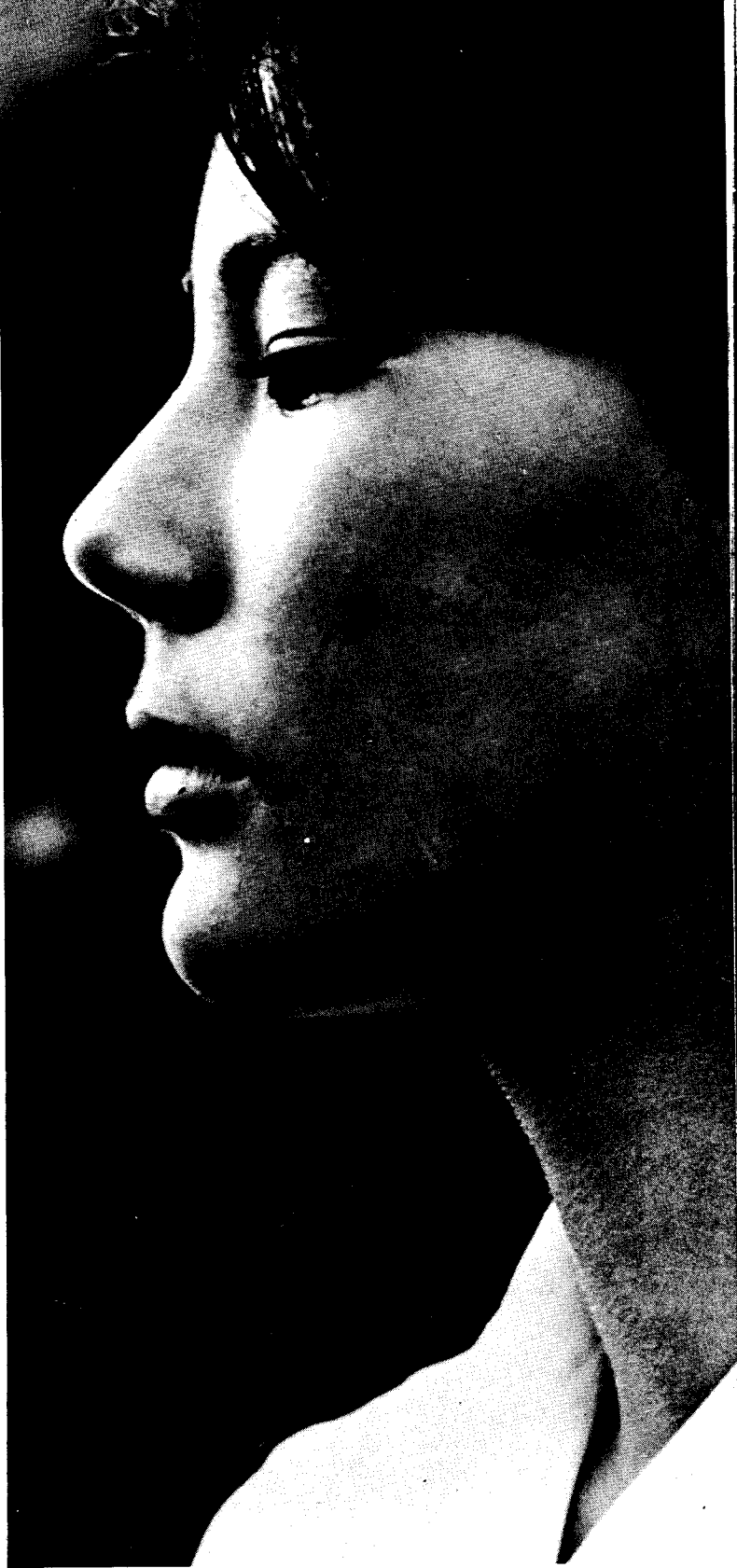
كالمسك تماماً في الماء وإلا فلا . . فلا نحن هاجرنا إلى أمريكا أو إلى آسيا



راقصة من هاواي في حي اسمه : السوق الدولية . .



هذا المشهد أيضاً في المحيط
المهادي في جزر هاواي



هذا الوجه من جزر
هاواي : خليط من

رقصة الهولا . . وأنا
لا أظهر في هذه الصورة
فقد كنت أرقص بعيداً
عن عدسة الكاميرا . .





كل هؤلاء أمريكيان قادمون من طوكيو في طريقهم إلى
أمريكا متوقفين في هونولولو من أجل الرقص والراحة
بعد ذلك . . وكل هذه الجلابيب الريفية إحدى الموضات
في جزر هاواي .

أو إلى أستراليا . . وإنما فقط عشنا في بلادنا . . !
وإن كانت الهجرة أصبحت في حلم الكثيرين . . وأسعدت الكثيرين بحياة
أفضل . .

* * *

وعرفت أن العرب الحضارة هم أول من اكتشف أندونيسيا . . وأول من
نزل فيها . . وأول من نقل إليها الإسلام . . ولكن كانوا أول من ترك هذه البلاد . .
فلا يمضى يوم واحد لا تنقل فيه السفن مئات من الحضارة عائدين إلى بلادهم . .
ومعهم جوزات سفر عربية أو بريطانية .

وعرفوا أن الصينيين هم آخر أقلية جاءت إلى هذه البلاد وسيكونون آخر
من يترك هذه البلاد . .

والحضارة مغامرون أفراداً . .

والصينيون مغامرون جماعات . .

والحضارة فيهم طبيعة السياح الهواة وليست فيهم طبيعة التجار المحترفين .
وعرفت أنه ليس من المهم أن تكون أول من يعمل شيئاً وإنما المهم هو أن
تبقى وأن تستمر وأن تصبر .

والمثابرة تغلب الذكاء ، والصبر يغلب الحظ . . والعبرة دائماً بالنتيجة !

• • •

وعرفت أن الناس في هذه المنطقة من العالم لا يتعجلون أى شئ . . إن كل
شئ هنا يمشى على مهل . لأنهم لا يخافون من شئ . . فالطعام معلق في الأشجار
والماء تحفظه السماء في خزانات من السحاب . . والحرارة ترميها الشمس بغير
حساب . . وإذا مات واحد منهم فهناك ملايين ، وإذا عاش واحد فلن تضيق
به الأرض . .

وغداً تطلع الشمس ، وينزل المطر ، وتنمو الثمار . . وكل فصول السنة
حارة وكل فصول السنة ممطرة . . ولا يوجد أى تغير ولا توجد أية مفاجأة . .
ملابس العام الماضى تصلح لهذا العام في كل الشهور وكل الايام . . لا تغير . .
لا فصول . . لا مفاجآت . . فلا داعى الاستعجال . .

وأنت في هذه البلاد تشعر كأنك تفكر بعقلية الثواني ، أما هم فيفكرون بعقلية عقرب الدقائق أو الساعات . . أو حتى بحركة الشمس . . إن الصبر استعاروه من الجبال ، والابتسام استعاروه من الضوء والزهور . .

فالحياة ممكنة بمنطق آخر غير منطق بلادنا، وفي ظروف أخرى أغرب وأقرب من ظروف بلادنا . . ولا يمكن أن يسود الدنيا كلها فكر واحد وعقل واحد وزى واحد . . فالناس مختلفون كأشكالهم وألوانهم وطريقة تناولهم للطعام والشراب وتناولهم للفكر والفن والحياة . .

وأنا لا أزعم أنني تعلمت منهم كل شيء . . لقد تعلمت الابتسام ولكني لم أعلم الصبر . . ولذلك أسارع فأنتهي هذه الملحوظة لأنني زهقت !

* * *

إن مستقبل العالم كله هنا في آسيا . .
هنا أكثر من نصف سكان العالم ولم يعد الرجل الأبيض خطراً على أحد . .
لقد كان مستعمراً ثم خرج . . كان مصاصاً للدماء ثم طردوه . . ولكنه لا يزال أقوى لأنه أكثر تطوراً ولأنه لا يزال هو الذي ينتج ، ولا تزال هذه البلاد هي التي تستهلك . . إنه هو الذي يعد الطعام وهو الذي ينصب المائدة وهو الذي يبعث بالسفرجية . . وهذه البلاد ما تزال هي الزبائن . .
وإلى أن يتحول أهالي هذه البلاد إلى منتجين فسبق الرجل الأبيض هو السيد وهو الأقوى . .

فالرجل الأبيض يتخبط في هذه المنطقة . . والحركات القومية هنا عنيفة وكلها مجموعة من الشلايت للرجل الأبيض .
وإذا كان الرجل الأصفر خطراً على العالم . . فهناك رجل أكثر صفرة ، هذا الرجل الأكثر صفرة هو الرجل الصيني .

الصين الشيوعية عددها ٨٠٠ مليون « ثمانى مئات من الملايين » يعملون كالمثل في داخل الصين ، وفي خارج الصين أيضا . . إن التجارة والصناعة والمواصلات والبنوك كلها في أيدي الصينيين في كل هذه المنطقة ، بل إن الدول الغربية عندما تبعث بالبضائع إلى هذه البلاد فعن طريق التاجر الصيني . . أمريكا تبيع الطعام والشراب والملابس والآلات عن طريق الرجل الصيني .

وهو صاحب رأس المال والمصانع والشركات والبنوك ووسائل المواصلات والصحف في معظم هذه المنطقة . . لأنه يملك البيوت والأرض . . وعدد الصينيين لا يزيد على خمسة ملايين .

إن الرجل الصيني هو الذي يملك أرض وشواطئ وفنادق وبنوك سنغافورة . الرجل الصيني هو الذي يتحكم في جزر الفلبين وجزر هاواي وفي كمبوديا ولاوس والهند الصينية وبورما .

إن الصين أقلية مالكة . . أقلية تتجمع في أيديها كل وسائل الثروة والإنتاج والاستهلاك والتوزيع .

والصيني يريد أن يدخل الجيش كأى مواطن أندونيسى .

ولكن ما زال الصيني هو الذى يبيع الأرز ويبيع الزيت والسكر ، والحكومة تتولى توزيع الأرز ، ولكن الذى يشتري الأرز هو الصيني والذى ينقل الأرز هو الصيني ، والذى يستطيع أن يوقف البيع والشراء هو الصيني . وكل الصيارفة في كل البنوك صينيون .

ويكفى أن ترى معرض الصناعات في جاكرتا لتجد أن ٩٥٪ من المعروضات من الأقمشة والمنسوجات والصناعات الجلدية والزجاجية وبيع السيارات والمشروبات كلها صينية !

والحزب الشيوعي يؤيد الصينيين الرأسماليين . .

والأحزاب الإسلامية تؤيد بقاء الصينيين . .

فالصينيون وراء كل حزب وكل صحيفة وكل جمعية . .

ولم يفلح هذا الرجل الأصفر جداً في أن يدخل الهند . .

فالهنود عندهم من المموم والزحام ما يجعل الحياة صعبة على أى صيني . .

ولم يفلح هذا الرجل في أن يدخل اليابان فالموقف أصعب جداً . .

هناك عدد من الصينيين مسلمون . . ولم أسماء أندونيسية إسلامية مثل

عبد الرحمن وأمين وحسنى . . وتكون أسماءهم هكذا : عبد الرحمن إونج تسن . .

وحسن لى فو . . إلخ . .

وعلى الرغم من أن حكومة أندونيسيا استطاعت أن تجمع بين ثلاثة آلاف

جزيرة مختلفة اللغات إلا أنها لم تتمكن بعد من إدماج الصينيين في الحياة .
استمعت إلى عدد كبير جداً من الأغاني في هذا الجانب من العالم . . إنها
تختلف جدا عن أغانينا . . ونحن لسنا أكثر شعوب العالم حباً للغناء أو الرقص
أو الموسيقى . . إن الغناء والموسيقى والرقص هنا هي شيء هام جداً في أندونيسيا
مثلاً . . بل إن الثقافة من أهم معانيها الموسيقى والرقص والغناء . .

ولم أصدق ما قاله لى الصديق عبد الحميد جودة السحار أنه عندما وصل
مع وفد ثقافى إلى أندونيسيا سألوه فى المطار وأين الرقصات ؟ . . وقد ظننت
أنها دعابة ولكنها حقيقة مائة فى المائة لأن آسيا كلها بها رقصات شعبية لا تحصى . .
مئات . . ألوف . . أو عشرات الألوف بعدد الجزر . . وكم رقصة لها قصة
ولها موقف ولها موسيقى .

وكل وفد ثقافى أندونيسى يضم أكثر من نصفه من الرقصات والموسيقى .
والأغاني هنا ليست حزينة أو باكية لاطمة مثل أغانينا . . والكلام عن
البكاء والطم في أغانينا قديم جداً . .

ولكن الإحساس بالفرق بين الأغاني هنا والأغاني هناك هو الذى يجعلنى أفكر
فى هذه المشكلة أو هذه الأزمة من جديد .

وقد يقال إننا أكثر شعوب العالم حباً للغناء .
ولا أعتقد أن هذا صحيح . فهناك من يفوقنا بمراحل وهناك من يتأثرون
بالأغنية أكثر منا .

ولكن يمكن أن يقال إننا أكثر شعوب العالم تأثراً بالغناء ومن أكثر شعوب
العالم ميلاً إلى كل ما هو خفيف فى الثقافة ، إلى كل ما لا يحتاج إلى مجهود
أو تعب أو عرق فى الفهم أو فى العمل أو حتى فى التذوق .
ولا أعرف كيف أتناول هذه الأزمة .

هل هى أزمة المستمع الذى يطلب نوعاً معيناً من الكلام . . أو هى أزمة
مؤلف الأغنية الذى لا يستطيع أن يخرج عن « عادة » تأليف الأغاني بهذه
المعاني المحزنة . . أو هى رغبة الملحن فى نوع معين من الكلام . .

وأنا لا أقول إن الملحن يجرى وراء اللحن الغربى بل أطلب الملحن العربى
بأن يلحق بالملحن الغربى وأن يرتبط به . . أن يرتبط بالعلم والحضارة .

ولا يمكن أن يكون الملحن العربي سارقاً لألحان الملحن الغربي إذا كانت أغانيها تقوم على أوزان التانجو والرومبا والفالس . . لأن التانجو والرومبا بالنسبة للموسيقى كالنسخ والرقعة والثلاث بالنسبة للخط . . أو كالأقة والرطل والدرهم والكيلو بالنسبة للموازين . .

والمرء أن أضع هذه الأوزان أو هذه القوالب وأن أملأها بما أريد . . وليس في هذا سرقة وإنما هي محاولة «تعليم» - أي جعلها علمية - للمعاني الموسيقية . . وأنا أطالب بهذا ولا أخاف منه . . وليست هذه هي السرقة . . إن النقل لا بد منه في المرحلة التي لا يستطيع فيها ملحن واحد في بلدنا أن يكتب نوتة موسيقية !

ليس الملحن مشكلة . . والحزن والأسى والبكاء ليست مشكلة طبعاً . وإنما هي عادة . . عادة استحكمت . والحضارة أو المدنية هي مجموعة من العادات . . فلبس البدلة عادة ، والأكل بالشوكة والسكين عادة ، والوقوف للمرأة عادة . . وكل هذه أشياء ليست ضرورية . . فالبدلة ليست ضرورة حيوية لأن هناك أناساً يلبسون الجلباب وأناساً عراة وكلهم قادرون على الحياة . . ومن الممكن أن يأكل الإنسان بيده . . وبالنسبة للأسنان والمعدة والكبد ليس مهماً أن يبيئ الأكل باليد أو بالملقعة . . إلخ .

وهذا النوع من الغناء أو التلحين أو التأليف هو مجرد عادة ويمكن تعديلها بعادة جديدة .

وأنا لا أطلب بدراسة الحالة النفسية لمؤلفي الأغاني . . من هم وأى نوع من الناس هم وفي أى ظروف يؤلفون أغانيهم ولا أقول إنهم مرضى . . ولا أطلب بعلاج الملحنين عندنا ولا أقول إنهم يؤلفون الألحان في ظروف غير عادية . .

ولا أطلب بعلاج النقاد الذين يدمنون الكلام عن الموسيقى والأغاني . . ولا أقول أن الناقد مريض ومرضه هو الملحن الذي مرضه هو المؤلف الذي مرضه هو المستمع !

ولكنني أبنه فقط إلى أن معاني الأغاني عندنا لم تتغير عن عشرات السنين . . فلا توجد أغنية واحدة تقول لي يجب أن تحب وأن تتمسك بحييتك ، وإنما

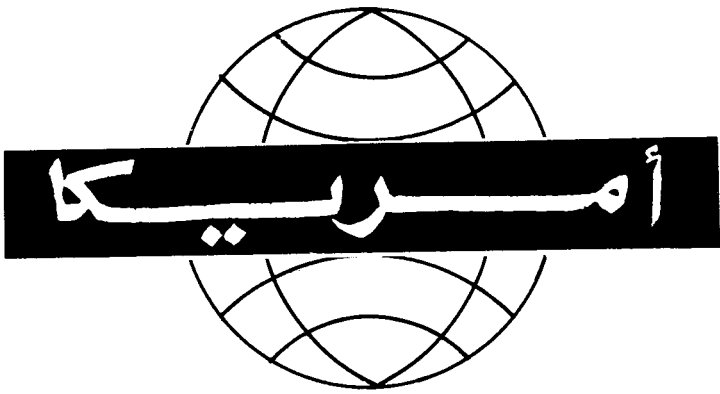
كل الأغاني تشجني على أن أعجل بهجر الحبيبة والبكاء عليها . . كل الأغاني
تطالبني باستدراج الحبيبة إلى هجرى أو الفرار منى لكى أجلس إلى جوار الراديو
أبكى وأدفع الملايين للسادة المطربين وأصحاب شركات الأسطوانات وأشرطة
التسجيل . .

ولو ارتبطت الأغنية عندنا بالرقص لخف هذا الحزن فليس من الممكن
أن أكون حزيناً ذائباً فى دموعى وفى نفس الوقت أرقص وأحرك رجلى ويدي
ووسطى .

بصراحة كده . . نحن جامدون !

بل لبتنا جامدون بل ذائبون وفى حاجة إلى أن نحمد ولو قليلا لنقف ونرقص . .
فإن الرقص يذهب بالدموع والحزن . . أو البحث عن تخريب الحب والصدقة
من أجل أغنية . .

وإذا كان كلامى غريباً .. فتعال فى مكافى وانظر إلى بلادنا سترانا مهاييين
جداً . . وترى أننا ينقصنا « العلم » فى الغناء والموسيقى والتأليف والنقد ! .



● الاستقبال العظيم

وحلاوة الأناناس على لساني ، ولسعة السمراوات في مكان لا أعرف بالضبط من جسمي ونفسي ، وصورة بريجيت باردو عارية تماما في أحد الأفلام التي رأيتها هنا ، والمحطة التي تتابع الأقمار الصناعية حول الأرض ، وملايين الدولارات التي رأيتها وقليل من الرمل في قفازي من أثر النوم الطويل على شاطئ وكبيكي تشبها بأصحاب الجزيرة ، والوهج الخفيف الذي رأته في بركان هاواي . . بهذا كله في عيني وفي أذني وفي عقلي ، ركبت الأتوبيس مارا بالطريق الحلو الناعم كأنه ظهر سيارة كاديلاك ، إلى مطار هونولولو في طريق عبر المحيط الهادى إلى أمريكا .

لم تطاوعني نفسي أن أشعر لحظة أنني سأغادر هذه البلاد السعيدة : الأرض في لون المانجو ، والبحرفي لون البنفسج ، والموج ناعم الشفاه ، والأشجار متراخية كأنها ما تزال نائمة .. وكل شيء يغريني أن أبقى ، أن أتمهل ، وأنه لا داعي لأن أهرب من الجزيرة بسرعة ٩٠٠ كيلومتر في الساعة في طائرة نفاثة . .

وفي المطار نظرت إلى الساعة ولا أعرف كم كانت ولا يعينني كم تكون . وفي هذه الأثناء تقدم شاب مصور ومعه فتاة جميلة . لا أعرف لماذا ترافقه هذه الفتاة . وبعد لحظة عرفت لماذا ترافقه . طلب مني أن أقف لكي يلتقط لي « آخر » صورة وضايقتني كلمة « آخر » صورة ، ووقفت وجاءت الفتاة

تنهني بأصابعها إلى أنني يجب أن أبتسم . وابتسمت .. وحاولت أن تجعل لهذه الابتسامة لونا . قالت إن ابتسامتي صفراء ، وهي تشير إلى فستانها الأصفر .. ونزعت من شعرها وردة حمراء وطلبت مني أن أجعل شفتي في لون ورق الورد .. وابتسمت للوردة ولها وللمضيئة التي وقفت على السلم تستعجلني .. وتصرخ : لا تجعل ساعة الوداع أليمة هكذا .. ستعود قريباً !

قالت « ستعود قريباً » ببساطة . كأنني طيار أو مضيئة طيران وأنه لن يمضي وقت طويل حتى أعود إلى الجزيرة . على كل حال أمنية لطيفة أسعدتني .. وطلب مني المصور أن أرفع ثمن الصورة وهو سيبحث لي بها في أى مكان في العالم ودفعت بلا تفكير . وبعد أيام وصلتنى الصورة التي التقطها .

وفي الطائرة قاومت جاذبية الأرض التي نغادرها .. قاومت النظر إليها ، وإلقاء آخر تحية عليها واتجهت إلى الذين حولي .. كلهم من الأمريكان طبعاً ومألوف جداً أن يدخل أى واحد منهم في مناقشة معك من غير مناسبة ، ويتأثر لمشاكلك ويروى لك مشاكل مماثلة . والفرق دائماً بيني وبين أى أمريكي أنه وجد حلاً لمشاكله .. أو أنه وجد مشاكله محلولة ، وأن مشاكلى لا حل لها ، أو أنني يجب ألا أجدها حلاً ، فهى مشاكل معقدة إلى الأبد !

وفي إحدى المناقشات - كل هذا في الطائرة وأنا لا أعرف جارى ولم أره إلا منذ دقائق وعلى ارتفاع ٣٠ ألف قدم فوق المحيط الهادى - رويت له أنني في حالة فزع دائماً من الحياة . فسألنى إن كنت آخذ حبوباً منومة ... والسؤال بخفيف ، إنه يتصور أنني أشكو من قلة النوم .. فقلت له : لا .

ولم تكن كلمة «لا» تعبر عن شعورى بسخافة السؤال وتفاهة السائل وإنما جاءت «لا» مثل «فلة» طارت من زجاجة لتستقر في فمه لتسده حتى لا يسألنى بعد ذلك .

وعاد إلى الكلام يقول : أعتقد أن النوم هو العلاج الوحيد لكل متاعب الناس . فالناس يبالغون في متاعبهم . ولو عرفوا النوم ، لنامت هذه المشاكل أيضاً .. وضحك ليقول : لا تظن أن هذه فلسفة منك .. إن هذا أرق فقط ..

وأنت تحاول أن تبرر أرقك ، فتجعل له معنى خاصاً ..

وأعجبني كلامه واعتدلت . وكأنني أحاول أن أصحب السخافة التي لففت بها كلمة «لا» فقلت له : جربت النوم .. ولكن .. ما هو حل مشكلة الفزع من الحياة ؟

وعاد يقول : إذاً اذهب إلى طبيب نفسي ليحل متاعبك . فأنت لا تستطيع أن تعرفها لوحدهك . أنت ترى وجهك بمرآة .. ولكن لكي ترى قفاك .. أنت محتاج إلى مرآة أخرى ..

وأحسست أن هذا قلم على قفاي فعلاً .. فالرجل ينظر لي على أنني رجل مجنون أو على أبواب الجنون . وحاولت أن أقدم نفسي فأقول له إنني رجل يشتغل بالأدب وأناي كنت مدرساً في الجامعة .. وأناي متخصص في الفلسفة وعلم النفس . وكأنني قلت له إنني أسكن في الشقة المجاورة له دون أن يعرف ، فأبدي دهشته وأخرج من جيبي كارتا وأمسك قلمه وغير رقم تليفونه وقدم لي الكارت لكي أرى أنه استاذ لعلم النفس في إحدى جامعات أمريكا وأن له عشرين كتاباً ، وأنه بهذا التواضع .. وأنه يرى أن مشكلتي أنفه من أن تكون مشكلة ، وأنه خير لي أن أنام ..

وأخرج من جيبي علبة بها حبوب حمراء .. وفي الحال جاءت المضيئة بكوب من الماء . واختفت الحبة الحمراء والماء ، وغطس الرجل في مقعده . وسألني المضيئة إن كنت أريد شيئاً من ذلك فهزرت رأسي .. وجاء الكوب والحبة الحمراء وابتلعتهما .. ونمت ساعة .

وصحوت من النوم لأجد جارياً يقرأ في صحيفة ..

وابتسمت خجلاً ، كأنني نمت أثناء المناقشة . فقال لي : كيف حال المشاكل بعد أن نمت .. إن حبة حمراء صغيرة تضيف إلى عمرك ساعات هادئة !

وعرفت أن هذه حبة منومة ..

والتصقت هذه الحبوب بعد ذلك في يدي وفي جيوبى .. وكانت آخر شيء أراه كل ليلة في أمريكا وأوروبا .. وأضافت هذه الحبوب ساعات إلى راحتي ،

وحذفت من متاعبي مشكلات كثيرة . . . وبقيت مشكلة واحدة هي : كيف
أخلص من هذه الحبوب الحمراء ؟

* * *

وعندما هبطت الطائرة في مطار لوس أنجلوس كنت أتصور دائماً أن يقع
شيء غريب . . . أن تنزل بقرة من الطائرة وعلى ظهرها أحد رعاة البقر ويمسك
مسدسه ويطلب منا أن نسلم أنفسنا جميعاً . . . أو تقترب منا طائرة أخرى وتضربنا
بالتقابل . . . أو يدخل الطائرة أحد قطاع الطرق الجوية ويختار من بيننا واحداً . . .
ثم يهرب إلى حيث يفعل به أى شيء . . . يقتله مثلاً !

ولم أجد بين الأمريكيان المسافرين معي واحداً يلبس البنطلون بالمقلوب
أو يدخن سيجارين في وقت واحد . . . ولم أجد فتاة حلوة . . . كلهن من العواجيز . . .
ووقفت الطائرة ونزلنا بنظام وترتيب وهدوء شديد . . . وفي المطار كل شيء
يدل على أن هناك نظاماً دقيقاً . وعلى أن هناك طائرات كثيرة . . . وعلى أن هناك
ملايين من الناس في غاية النشاط . . . على أنني نزلت كقطرة في محيط . . . وعلى أنني
ضائع مائه في المائة . . . وأنتى إذا طلبت إلى أى أنسان شيئاً فيجب أن أعتذر
له فوراً لأبني عطلته عن القيام بشيء أهم من هذا الطلب السخيف !

والمضيفات هنا أشكال وألوان ، وأحجام ومقاسات . . . حتى الابتسامات
مختلفة . . . كأن كل شركة قد حددت مساحة الابتسامة . . . فشركة المتحدة :
ابتسامة بالعين فقط . . . وشركة بان أمريكان : ابتسامة على الجانب الأيسر . . . وشركة
الخطوط العالمية على الجانب الأيمن . . . وشركة المتحدة في الوسط . . . ولما لاحظت
المضييفة التي وقفت أمامها أسألها عن الأتوبيس الذى سينقلنى إلى الفندق تبتمس ،
من كل شفيتها ومن جميع الزوايا أدركت أنها مضييفة عالمية ولذلك كان ردها عالمياً
أيضا فقد قالت وهى ضاحكة : الأتوبيس الذى يتنقل قد غادر المطار منذ
دقيقة واحدة !

أى منذ اللحظة التى وقفت أمامها لأسألها وأترجم ابتسامتها لأعرف إن كانت
هذه المضييفة خاصة بالشركة التى نقلتنى من هاواى إلى أمريكا أو بأية شركة أخرى !

وبذلك أضعت فرصة ركوب الأتوبيس والسبب هو ضعفى فى الترجمة !
وجاء أتوبيس آخر . . .

وكأنى قروى جاء من أقاصى الصعيد إلى القاهرة لأول مرة ، سألت السائق
بأسلوب واضح جداً إن كان هذا الأتوبيس سيذهب إلى هوليدود .. فهز
رأسه .. وكانت رأسه مائلة عند الاهتزاز كأنها هزة « خنفاء » مثل صوته عند
الكلام .. وعدت أسأله بقلب يثير الشفقة إن كان الأتوبيس سيقف أمام فندق
روزفلت الذى سأنزل فيه والذى حجزته من هونولولو تلغرافيا ، فهز رأسه ومد
يده لكى أفسح الطريق للركاب لكى يحتلوا أماكنهم فى السيارة ، وتحتل أسلئهم
مكانها فى أذنيه ..

وكأنى لم أسافر فى حياتى ، مع أننى سافرت أكثر من عشرين مرة .
إلى أوروبا .. ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ..
وأنى الآن أدور حول الأرض .. فكل شئ يدل على أننى ضائع خائف ..
كأنى أتحرك فى بطن حوت .. وأننى أنتقل بسرعة خمسين كيلو فى الساعة بين
أنياب الحوت لكى أستقر فى أحشائه .

لقد تذكرت ما كتبه الفيلسوف الوجودى ألبير كامى عن بطن حوت مخيف
اسمه : الناس .. فالإنسان يعيش من أجل الناس ، ويعيش بالناس ، ويموت بالناس
أيضا .. فهو يعيش فى بطن الحوت ، ويحرص على أن ينجو من الحوت .. فالقناتان
ضحية لا تريد أن تموت .. ولكن لا بد أن يعيش كالضحية ..

وأنا ضحية .. أما القاتل ، أما الموت فهو هذه الشوارع الطويلة جداً ..
الواسعة جداً .. التى تنطلق عليها صواريخ أرضية .. لا أحد يتوقف ..
لا أحد يمشى على قدميه .. لا أحد ينظر إليك .. ولا تستطيع أنت أن تنظر إليه ..
فلست أعجوبة .. ولست جديداً فى ملاحك .. فهنا مثلك ٢٠٠ مليون نسمة ..
فلا السفر من اليابان يثير أحداً .. ولا من هاواى .. ولا من أمريكا إلى أوروبا ..
كل شئ عمله الأمريكان .. فهم الذين اخترعوا السيارة والطيارة .. وهم الذين
اخترعوا الملايين والمليونير .. وهم الذين اخترعوا السينما .. ومهما كانت ملامح
وجهك فثلها على الشاشة كثيرون ..

لاشئ يبهرهم ولاشئ يرد لك عقلك !

وبفرملة تكاد تقتلني من مقعدى أنا وحقائبي وقف السائق أمام فندق روزفلت . . ونزلت . . وبحركة فيها كثير من الإحراج حاولت أن أجد فكة في جيبي . . ولم يكن لهذه الحركة أى معنى . . فلا السائق يقبل البقشيش . . ولا يوجد كمسارى . . وإنما هى حركة تعويضية يقوم بها الإنسان عند الخجل أو الحرج حتى يهرب من نظرات الناس !

واكتشفت أن نظرات الناس تحتاج منى لكى أواجهها إلى مجهود أكبر من مجرد وضع اليد في جيبي أو حتى في جيوبهم . .

وشعرت بشئ من الارتياح عندما نظرت إلى البيوت فوجدتها متوسطة الارتفاع . . خمسة أدوار . . سبعة أدوار . . فلاتوجد ناطحات سحاب هنا . . أحسست كأننى لم أبرح أوروبا التى أعرفها ، أو مصر التى ولدت فيها . . وقلت فى نفسى : عندنا صور كهذه . . وشوارع كهذه . . فأنا لست غريباً إذن !

وجاء بواب الفندق فقلت له بشئ من الثقة التى عادت إلى نفسى : فىن غرفى من فضلك !

ولم أنتظر حتى يسألنى : وأين غرفتك ؟

وإنما سبقته إلى مكتب الاستعلامات . . وجدت غرفة محجوزة باسمى . . ووجدت ابتسامة محجوزة أيضاً . فهذا الرجل الذى يعمل فى استعلامات الفندق كان فى مصر أيام الحرب الأولى ، ويعرف القاهرة ، وكأنه أراد أن يسحب منى الثقة ، سألنى عن أماكن حقيرة فى القاهرة القديمة ، فأنكرت وجودها ، لعلى بهذا الإنكار أسترد الأرض التى احتلها هو وطردي منها ، ولكنه أكد لى أنه يعرف هذه الأماكن . . وظللنا تتنازع هذه الثقة . . ثقته هو بمعلوماته وثقتى أنا بنفسى ومعلوماتى أيضا . .

وانتهى لقائنا نهاية سيئة . .

وقضى هذا اللقاء على كل صورة حلوة ، وكل حلم لذيد ، وكل راحة نفسية ، وكل أمل فى الاحتفاظ بالذكريات الجميلة لجزر هاواى . .

وأحسست بالشوق إلى البلاد الشرقية التي رأيتها قبل ذلك . . وتمنيت لو
أننى كنت في الهند أو أندونيسيا أو اليابان لكي أتمدد على المقعد متباهيا بأننى
أبيض اللون طويل القامة عسلى العينين ، أبيض الأسنان لأقول للجرسون عندما
يدخل : واحد شأى من فضلك !

وقبل أن ينحنى هذا الجرسون أكون قد أعمضت عيني زهداً في هذه
الاحترامات والتحيات !

ولكن أين هذا مما حدث لى بعد خمس دقائق من دخولى هذا الفندق . .
دق الباب فقلت : أدخل . .

ودخل عملاق ضخم طويل . . وقد ارتدى بدلة سمراء والياقة منشاة والنظرة
منشاة . . والابتسامة مسرحية والانحناء رسمية وقال : حضرتك ضربت
الجرس . .

قلت له : إننى لا أعرف أين الجرس .

وتقدم وأشار بيده إلى الأجراس . .

وسألنى إن كنت بهذه المناسبة أريد شيئاً . فقلت : واحد شأى من فضلك

واقترح هو أن يكون الشأى كاملاً ، لأننا كنا بعد الظهر . . فلا هو موعد
غداء ولاعشاء وإنما هو بين بين . . واقترح بعض العصير ، فلم أمانع . واقترح
بعض السندوتشات ، ولكى أبدو لست جائعاً جداً فقلت لا مانع . واقترح
بعض الفاكهة ، ونسيت أننى أكلت جبلاً من الفواكه في قارة آسيا ، فقلت
لا مانع . . ولا أعرف إن كان قد ذكر كلمة « فطائر » . . ولكن كلمة « فطيرة »
رنت في أذنى على أنها « فاتورة » فقلت لا مانع . . وربما كان السبب فى أننى
سمعت كلمة « فاتورة » هذه ، هو أننى كنت أحلم بإيطاليا . . وفاتورة كلمة
إيطالية وليست إنجليزية طبعاً . .

ومهما وصفت لك كيف جاء هذا الشأى الكامل ، فإنك لا تستطيع أن
تتصور ما حدث . . لا يمكن . . لا أنت ولا غيرك . . ولا حتى أنا . .

ولكن سأحاول أن أصف لك الجو الذى دخل فيه الشأى إلى غرفتى . .

انهزت هذه الفرصة وأخذت دشاً من الماء الساخن . . فنحن هنا فى

ديسمبر . . . وغيرت ملابسى . . . لكى أرتفع معنوياً ومظهرياً إلى مستوى الجرسون الضخم والطعام الأضخم . . .

وجلست . . . وقبل أن ألمس المقعد دق الباب وانفتح قبل أن أقول . أدخل . . . وجاء جرسون آخر يحمل ورداً . . . فظننت أن هذه هى تقاليد الفندق مع النزلاء الجدد . . . وسألنى الجرسون إن كنت أحب هذه الورود فأبدت إعجابى بلونها وتنسيقها .

وأغلق الباب وخرج . . . ودق الباب ودخلت منضدة كبيرة . . . ودق الباب ودخل جرسون معه مفرش أنيق . . . ودق الباب ودخل جرسون يدفع أمامه ترابيزه لها أربع عجلات وعليها علم الولايات المتحدة . . . ومكان شاغر لعلم آخر لا أعرف إن كان هذا الجرسون سيسألنى عن علم بلادى . . . ولم يفعل . ولم أسأله فقد كنت فى حالة « لهُ خفى » . . . واللهو الخفى معناه : أن بطنى تلعب سراً . . . فهى تلهو بصورة خفية . . . ولم أهند إلى هذا المعنى إلا الآن فقط . . .

وانفتح الباب وجاء الجرسون الأول ليشرف بنفسه على العملية . . . وهى بالفعل عملية . . . براد شاي ضخم . . . وبراد اللبن . . . وفطيرة بالفراولة والتفاح . . . وسندوتش جبنة ولحمة وكبدة . . . وكوب عصير الأناناس . . . وكوب عصير طماطم . . . وشعرت بذهول شديد . . . وتحاملت على هذا الدهول فحولته إلى حركة . . . فتظاهرت بأننى أصلى لله . . . وأنى أشكره لأنه أعطانى كل هذه النعمة . . . ونظرت إلى السقف . . . وأمام هذا المنظر الدينى الفريد . . . انسحب الجرسونات . . . وعندما أقفلوا الباب نهضت لكى أرى الفاتورة .

وأمسكت الفاتورة بيدي ووقعت على المقعد . لقد كان الثمن المطلوب هو سبعة جنيهات !

ولاحظت كثرة التحيات والسلامات الموجودة فى الفاتورة . . . وعرفت أنها تشبه التحيات المألوفة فى رسائل الحكم بالإعدام عند الإنجليز . . . ففى إنجلترا عندما يصدر الحكم بالإعدام على أى مجرم تكون صيغة الحكم هكذا : « تقرر إعدامكم . مع فائق الاحترام » .

أى احترام بعد الإعدام ١٩

● نفايا هوليوڊ!

هوليوڊ هى أشهر مڊينة فى العالم . . ففها مصانع الجسال والمآل والمجد ، فها اسٲڊيوهاٲ السئنا . . بعض هذه الاسٲوئوهاٲ مساحٲه ٣٠٠ فدان . . كل شاب ىعلم بأن ٲٲعٲر ففه رءل أءء المءرءن . . وكل فئاة ٲعلم بأن ىٲٲءن علفها أءء المٲٲءن العواءز ورفعهها على فءفه المٲٲعٲٲن من الرصفف إلى ءوار مارلئن مونرو . . والمشى فى شوارع هوليوڊ مٲٲة . . فالبناء ىقلدن ءواءب السئنا ، وءلك السبان ، ومعظم البناء الصءفرهاٲ هنا قد صبغن شعورهن وءعلٲها مٲل برىءب بارءو فى ففلم « المراء شفاءن » ، وأضفن إلى ذلك الءءل . . وبعضهن ىقلدن صوففا لورئن فى نعءشة الشعر على الرأس وإضافة بعض سنٲمٲراٲ إلى ءعب الءءاء . . وقد نءءٲ صناعا الءاوشوك والنابلون فى أمرفكا فى رفء صلءور الفٲفاء إلى مسٲوى ءئنا لولو برىءبءا ، ولكن لم ألاحظ أن هناء فٲفاء ىقلدن مارلئن مونرو . . إلا فى بعض الأماكن الءاصة ءءاً ءءاً . . أما السبان فهم ىقلدون ءئن مارٲن فى ففلم « الأشبال » فئنءشون الشعر وىءومونه على الءبٲة ، وقد نءءوا فى الٲٲلء ءءاً لأن ءئن مارٲن له مٲاعم ءئرة هنا وعلى كل مٲعم ءوءء له صورا بالألوان . فإءا مر أءء السبان بءوارها فإنه ىءرء المراء من ءئفه وىءارن بفن الأصل و بفن الصورا . . وشبان آءرون ىصلبون ءلور رءبٲهم مٲل شارلٲون هسٲون فى ففلم « الوصافا العشر » وفى ففلم « بن هور » . .

وءئراً ما شعرا أن بعض هؤلاء السبان والشاباء ءأنهم ءمموعة من الصورا

حطمت براويزها وانطلقت على الأرصفة . . أو كأنهم صور متتابعة في فيلم بطيء . . وأحياناً تجدد على هذا الفيلم بقعة سوداء تروح وتجيء وتعترض الوجوه والسيقان وتفسد جمال الاستعراض . . أنا هذه البقعة فاعذروني !

. . .

واستديو وهات هوليوود بعيدة جداً عن المدينة ، هناك في الصحراء أو حول الجبال . . ولها أبواب عالية جداً وأسوار وسلاسل وحراس والدخول فيها صعب ، وعلى الأبواب تجد لافتات تقول لك : ممنوع الكلام . . ممنوع التدخين . . قف عندك . . أمش على اليمين . . أعطني الكاميرا من فضلك !

وهذا ينطبق أيضاً على الطلبة الذين يدرسون التصوير والإخراج هنا !

ووجوه المشغلين بالسينما لا تصلح فعلاً للشاشة . . وجوههم كشره صفراء مكرمشة وملابسهم قذرة ، وكلهم عصبيون وفيهم جفاف كأنهم جزارون أو سماسرة ومهربون . . ولا يعملون وراء أبواب مقللة ولا في الظلام ولا تحت حراسة شديدة . وتدهش كيف أن هؤلاء الناس هم الذين يصنعون الجمال والفتنة . . ولكن الأرض السوداء هي التي تخرج لك التفاح والعنب .

رأيت ممثلة كبيرة تقول هذه العبارة ١٨ مرة : ولكن يا أخي أنا لا أعرفك ولم ألتفت إليك إلا بمجرد الصدفة فقط . . فأنت شكلك غير ملفت !

هذه العبارة قالتها الممثلة ١٨ مرة وفي كل مرة تنسى كلمة أو حركة ، وفي كل مرة يطلب منها المخرج أن تعيدها ، أخيراً صرخ المخرج وهنا امتدت يد مترجفة فضغطت عليه كأنها تقول له : كويس كده . . كتر خير الدنيا .

وسكت المخرج فقد كانت هذه اليد هي يد المنتج صاحب المال وصاحب هذه الممثلة الكبيرة . .

تعريف المنتج : غنى له أصابع شمعية وشعور كثانية وعيون خرزية وأسنان ذهبية وأطراف صناعية . . وعلى حق دائماً !

واستديوهات هوليوود فيها استعدادات هائلة . وأي استوديو هنا أكبر من استودير مصر واستوديو الأهرام مئات المرات .

استعدادات ميكانيكية ضخمة ، وأموا من غير حساب . .

ومئات الألوف من دور السينما تعرض أى فيلم . . وفى داخل الاستوديوهات تجذب الناس منفوخين على الفاضى وعلى المليون . . كل موظف يحرك فانوساً أو يسند برميلا يتصور أنه المخرج فيتصنع التفكير والاهتمام بصورة مسرحية ملفتة جداً . .

أذكر أننى قابلت فى استوديوهات مترو جلدوين ماير رجلاً عملاقاً فى يده جوانتيات من الجلد ويرتدى سويتير من الجلد وعلى أنفه منظار غليظ وعلى جبهته خمسة خطوط متقاطعة كأنه نام طول الليل فوق جلد غربال قديم ، سألته :
استوديو رقم ٢٧ من فضلك ؟

فطلب منى أن أعيد له هذا السؤال عدة مرات . . ثم أشار لى أن أتبعه إلى هنا . . وركبنا أحد الأتوبيسات الموجودة فى داخل الاستوديو . . ولم أنطق ولم ينطق ونزلنا وسرنا فى شارع طويل ووقفت أمام الأستوديو وفتح لى الباب ودخلت وبقى هو فى الخارج وبعد أن مكثت حوالى ساعتين خرجت لأجد هذا الرجل جالساً على مقعد ومعه مكنسة . . حضرته كناس !

أما الممثلون فى الغالب ليست لهم شخصية لأن الممثل يعتمد اعتماداً كاملاً على المخرج وعلى المؤلف وعلى الحلاق . . فإذا أردت أن تلتقط له صورة مثلاً فهو يقول : كيف ؟ هل أضحك ؟ هل أبكى ؟ هل تريدنى أن أنظر نظرة فيها جنس أو فيها طمع أو فيها إشفاق . . قل لى وأنا أقف كما تريد . .

وتستطيع أن تحركه كما تريد . . لأن حياته كلها هى فى الطاعة التامة للمخرج . . فكل ما تسمعه فى الشاشة وما تراه . . كل ذلك صنعه المؤلف وكاتب السيناريو والمخرج والمنتج ، ولا يبقى بعد ذلك إلا جسم الممثل أو الممثلة . . حتى هذا يمكن تغييره وتبديله كما يريدون هنا . . وظهور ممثل أو ممثلة فى الشارع هنا لا يلتفت إليه أحد . . وقد ينظر إليه أو إليها الناس ثم يقولون : ياه . . بس كدة .

ولكن ظهور سعاد حسنى أو نادية لطفى فى شارع سليمان باشا يربك المرور وقد تقع حوادث . . فمثلاتنا لمن بحت !

وفى شوارع هوليوود الطويلة جداً التى يصل بعضها إلى ٥٠ كيلومتراً . . كلها تدل على أن هذه مدينة لصناعة السينما فعلاً . فكثير من دور السينما لها

أنوار كشافة وأنوار متحركة ليلا ونهاراً . . وعلى مداخل السينما توجد إمضاءات منقوشة على الأرض وهى أسماء النجوم الذين افتحوا هذه الدور ، وبعض البنوك نقشت أسماء النجوم الذين افتتحوها . .

وأشهرها جميعاً : المسرح الصينى ، فعلى مدخله انطبعت أقدام ويدي كل النجوم . .

والكباريات تكتب أسماء النجوم على الجدران من الخارج . وبعض المطاعم تضع مئات الصور للنجوم أيضاً . ومعظم الممثلين لهم شركات ومحلات تجارية ومطاعم وسيارات تاكسى . . فالممثل هنا تاجر أولاً وأخيراً . . له مدير أعمال ومدير دعاية وضابط علاقات عامة ومستشار قانونى ومالى . . وكل شئ يعمل به بحساب – بفلوس يعنى !

والممثل ليست له أية حرية فى أن يقول أو يظهر . . وكثيرات من الممثلات يرفضن الكلام فى أى موضوع أو الاشتراك فى أية حفلة إلا بعد استشارة مدير الأعمال .

. . .

وهوليوود هذه مدينة كبيرة كأية مدينة أخرى فى أمريكا . .

وإلى جوارها لوس أنجلوس الكبيرة جداً بعماراتها وشوارعها العالية . . وجسورها المركبة بعضها فوق بعض . . وتوجد إلى جوار هوليوود بيفرلى هيلز وهى ضاحية تابعة لهوليوود ولكنها أكبر منها فى المساحة . . وهى المنطقة الأرستقراطية فى كل ولاية كاليفورنيا . . فكل أصحاب الأموال والأعمال يسكنون فيها . . وفى هوليوود أحسن وأكبر مطاعم وصناديق الليل ، والأسعار كلها غالية ، وغالية جداً . . الفطور يصل إلى جنيه ونصف جنيه ، والغداء إلى ثلاثة جنيهات ، والعشاء إلى خمسة جنيهات للشخص الواحد . . طبعاً أنا حذفنا أجره التاكسى . . وتوجد مطاعم شرقية يملكها لبنانيون ويملكها سوريون . . ويوجد بعض المصريين ، طلبة وعلماء يدرسون . . ويوجد فنانون فى النوادى الليلية . . وكلها أسماء غير معروفة تماماً فى القاهرة ولكنهم ناجحون هنا وعليهم إقبال كثير .

وعدد العرب الموجودين في هوليوود ولوس انجليس حوالى سبعين ألفاً . وأشهر الجرسونات والبنات يرتدين الملابس الهندية التى تعرى الحصر كله . . أما صاحب المحل فيرتدى العمامة الهندية . . وهو يتمسك بالعروبة بمعنى خاص غير مألوف عندنا . . ففي هذا العام احتفل في هذا الكباريه بعيد ميلاد دولة إسرائيل !

ومحل آخر اسمه الطربوش يملكه لبنانى أيضاً . ويتردد عليه الكثير من العرب ويتحولون بسرعة من متفرجين إلى راقصين ومطربين وتتحول السهرة إلى جلسة عائلية . .

• • •

وهنا توجد أنواع غريبة من النوادى الليلية تشبه النوادى الوجودية في باريس ، فى أن كل الذين يترددون عليها من الشبان والشابات . . وهذه النوادى بها أضواء خافته ، والجرسونات بنات بالبلوزة الضيقة جداً والبنطلونات التى ترتديها الفتيات ويهرشن طول الليل من شدة ضيئها والتصاقها بشعر السيقان . . وفى هذه النوادى يعيش طول الليل الجليل البديد الذى يسمونه فى أمريكا الجليل الصارخ أو الجليل الصاحب . . وهم فى الواقع وجوديون ولكن بلا فلسفة ولا ثقافة ولا مشكلة ولا أزمة . . فالجيل الجديد فى أمريكا جيل لا يقرأ . فالتليفزيون قد أرغم الناس على أن يجلسوا إليه طول الليل يسمعون ويتأثرون ويترفون فلا يفتحون كتاباً واحداً . . ومعظم هؤلاء الساخطين شبان دون العشرين . . يشربون الشاى أو السجائر ساعات متوالية ويستمعون إلى موسيقى زنجية عاوية داوية . . وبعد ذلك يخرجون . .

وأشهر هذه النوادى الساخطة مقهى بندورا . . وهو عبارة عن غرفة واحدة جاست فى أحد أركانها فرقة موسيقية زنجية تدق بعنف . . وبعد ذلك يتشاءب أحد العازجين ويقول : الحب . . الحب . . أبيع الحب . .

ويضحك الناس دون أن تكرر هناك نكتة . .

وفى شارع كوزموس يوجد ناد آخر . . عبارة عن جراج للسيارات أخفى الظلام معاملة . . وفى هذا الجراج وضعت الدكك والمناضد وأطفئت الأنوار

إلا من بعض الشموع . . . وبعد ذلك يتقدم أحد الممثلين وفي يده كتاب ويجلس على مقعد ثم يقرأ كلاماً فارغاً والناس يضحكون . . . وهذه عينة من الكلام المكتوب الذى يقوله : عندما سقطت فى البحر أبتلعنتى قطة ، وهذه القطة كانت تتوحم على جاموسة ، وكان بينى وبين التمساح علاقة ما ، خصوصاً وأن شعر رأسى يشبه أجنحة الطاووس وبعد ذلك قلت للبقرة : إن حياتك ليس لها نهاية أذهبي إلى إحدى شركات التأمين فهذه الشركة وحدها هى القادرة على أن تصف لك الطريق . الأفلام الجديدة مأخوذة من الكتاب المقدس . العودة إلى موطنك الأصيل فى السماء الرابعة على اليسار !

قطعاً « أبو لمة » عندنا أحسن . . . ومعروف أنه يفشر وفشره يرعك على الضحك على أبو لمة أو على نفسك لأنك جلست تستمع إلى كلامه الفارغ .
وبعد ذلك ينهض هذا الممثل ويعرفنا بالجيل الساخط ويتساءل : ما هو الجيل الصارخ ؟

ويظل السؤال بلا جواب حتى تنهى السهرة فى هذا الجراج . . .
ومحلات الصارخين هذه أسعارها مرتفعة . . . بعضها يتقاضى جنياً رسماً للدخول . ثم يرغمون الزبائن على أن يشربوا شيئاً ما أيضاً .
ويبدو أن الحياة مملة فى أمريكا ولذلك فالأمريكان يحرصون على التغيير ويكرهون الشيء الواحد المتكرر فى حياتهم وفى حياة غيرهم من الناس . . . فمثلاً أنا أتردد على أحد المطاعم وأطلب كل يوم فنجاناً من الشاي وبعض الخبز الجاف وأنا راض بهذا . . . ولكن الجرسونة تتضايق جداً من أننى لا أطلب إلا شيئاً واحداً .

هذه الجرسونة إذا تزوجت فإنها ستكره الطلاق . . . وتغير الأزواج !

ومحلات العامة تحرص على أن تكون لها شخصية خاصة . . . لا بد أن تكون مختلفة ، لا بد أن يكون فيها شيء جديد ، شيء مختلف عن المحلات الأخرى فى الأثاث أو الطعام أو فى الملابس التى ترتديها الجرسونات البنات . . . فتجد محلات على طراز القرن الثامن عشر أو التاسع عشر فى الطعام والملابس والزينة

والموسيقى . . فتدخل هذا المحل وكأنك قد عدت إلى الوراء مائة سنة أو مئتا
السنين . . وأكثر الأطعمة هنا انتشاراً هي الأطعمة الإيطالية خصوصاً البيتسا
والمكرونه الإسباجتى . .

ومن الغريب أن معظم النوادى الليلية هنا تشترط أن يرتدى الزبون الكرافته . .
في حين أن المطاعم لا تشترط الكرافته . . يعنى الأماكن التى يذهب إليها الإنسان
ليشعر بشئ من الحرية ، أو التى يريد أن يهبص فيها تحتنق رقبته بكرافته . .
أما الأماكن التى يضطر فيها الإنسان إلى الجلوس هادئاً قليل الحركة فلا مانع
من أن يذهب بالقميص والبنطلون الطويل أو القصير . . أو المايوه إذا أراد . .

* * *

والشوارع هنا في هيويلوود مشرقة ليلاً ونهاراً . . نهاراً لأن الجو هنا معتدل . .
لا سحب ولا أمطار ولا برودة حتى في الشتاء . . وفي الليل منيرة متوهجة فالبلاد
منذ أوائل شهر ديسمبر تستعد لعيد الميلاد . . فأشجار الميلاد على الجانبين . .
وصورة بابا نويل — وهنا يسمونه سانتا كلوز — في كل مكان ، في كل محل ، وأمام
كل سينما . . والمحلات كلها مملوءة بالزبائن . . فعيد الميلاد هو عيد الهدايا . . لا بد
من الهدايا . . وكثير من البيوت تخربها هذه الهدايا مثل كعك العيد وخروف العيد
عندنا كثيراً ما يؤدي إلى خراب الجيوب بالإفلاس وخراب البيوت بالطلاق . . !

وفي الشوارع تماثيل للمسيح والعذراء . . وتماثيل للمسيح وهو راكب حماره . .
وتماثيل لنجمة بيت لحم وهي تلمح في السماء إعلاناً لميلاد المسيح . . وصورة للكهف
الذى أحتفى فيه المسيح في مصر ، وهذا الغار معروض بصورة فنية جميلة . .
الإبل والنخيل والأحجار والآبار وفيها الحواريون . .

وهناك صورة رائعة للعشاء الأخير . . وصورة بارزة لخطبة الجبل أو لموعظة
الجبل . . وصور كبيرة لمريم المجدلية وهي تبكى عند قبر المسيح . . ثم تماثيل
كبيرة للمسيح مصلوباً وحوله إثنان من اللصوص اليهود .
والشركات كلها تعلن في فتريناتها عن قصة المسيح .

فهنا شركة السكك الحديدية – والحكومة هنا لا تملك السكك الحديدية
أو التليفونات وإنما هي كلها شركات أهلية – وضعت في فتريناتها صوراً رائعة
لحياة المسيح منذ ولد حتى صلب وهو في الثالثة والثلاثين من عمره .

وفي مدينة لوس انجليس يوجد مقهى اسمه كلفتون . إنه رائع والجو داخله
يوحى بأنك في إحدى جزر هاواي . . فأشجار جوز الهند تناثرت في المقهى . .
والمياه نزلت من السقف . . والشمس لها حرارة دافئة . . والجرسونات قد وضعت
عقود الورد حول أعناقهن . . في هذا المقهى الجميل جداً توجد مغارة . . هذه المغارة
تنزل إليها بسلم صخري . . والمغارة مكونة من خمس غرف . . وفي هذه الغرف
جلست الراهبات بالملابس التي كان يرتديها اليهود في أيام المسيح ، وفي هذه
المغارة يروين قصة المسيح وعذابه . . وهناك تماثيل ولوحات . . أشهرها تماثيل
المسيح عندما ألقى القبض عليه وهرب من حوله الحواريون . . وهناك أشرطة مسجلة
وموسيقى تصويرية لآيات من الكتاب المقدس .

كل هذا في مقهى ومن صنع فرد لا هيئة حكومية أو هيئة دينية . . ومثل
هذه الأماكن الأثرية كثيرة جداً في أمريكا . . فإذا كان الأمريكيان يصعب
عليهم أن يسافروا إلى القدس وبيت لحم في الأردن أو الناصرة في إسرائيل فإن
المحلات التجارية هنا تنقل إليهم هذه الأماكن التاريخية . .

هذا الجو الديني قد أضاف إلى هوليوود ولوس انجليس ويفرلي هيلز وعياً
جديداً وقوراً . . أو أعطاهما بعض الصدق . . !

وكل الأفلام المعروضة هنا في هوليوود مأخوذة من الكتاب المقدس . . فهنا :
الوصايا العشر . . وبن هور . . والصيد الكبير . . وشمشون ودليلة . . وسلمان وملكة
سبأ . . وابن الإنسان . . وملك الملوك . . ويوسف وإخوته . . وأعظم قصة رويت للناس .

وفي التليفزيون يظهر بابا نويل يعلن عن الصابون وأمواس الحلالة والبطاطس
والسيارات موديل العام القادم وعن أحسن وسيلة لشراء السيارة من غير قسط أول . .

نشاط وحياء وبيع وشراء وحظ وهيصة . . بلاد غنية صناعية ناجحة . . وكل
ما تريده تجده .

إن أحسن السيارات التي تراها في شوارع هوليوود رخيصة جداً . . . السيارة الكاديلاك المستعملة وفي حالة جيدة جداً يصل ثمنها إلى سبعين جنيها ومائة جنيه . وأسهل للسائح الأجنبي هنا أن يشتري سيارة من أن يركب التاكسيات أو الأتوبيسات . . . وعندما يسافر من هذه البلاد يبيعها بسعر أرخص قليلاً .

والسيارة الصغيرة بدأت تملأ الطرقات . . . ولكن الأمريكي يفضل السيارة الكبيرة . . . السيارة المريحة . . . التي تتسع لكل أفراد أسرته في رحلة نهاية الأسبوع التي يقطع فيها مئات الأميال لكي يجلس في هدوء أو في مرح لمدة ساعتين أو ثلاث ، وقد حمل معه كل أدوات الطهي . . . ومعظمها في علب من الورق . . . ومعه أيضاً عدد لا يحصى من الحبوب ، هذه للكبد وهذه للأعصاب وهذه للنوم وتلك للبشرة وغيرها للصدر والأنف والشعر ويملأ يديه بمحفنة من الأقراص قبل الأكل وبعده ووراءه الراديو يعلن عن ظهور أقراص جديدة لم يسمع بها أحد . . . هي سر السعادة في العالم . . . ويطلب إليك أن تنزل وتشتريها الآن . . . إنها أعظم هدية لك - انزل الآن هكذا يقول الراديو !

وفي الليل يعود الأمريكي إلى البيت ويرى التلفزيون . . . التلفزيون كله أفلام ومغامرات وقصص . . . هذه الأفلام كلها أعددتها واشترتها شركات تجارية . . . فثلاً تجد فيلماً لرعاة الأبقار تقدمه شركة كاوتش جودير ، ثم تجد فيلماً قديماً لروبرت تايلور تقدمه شركة « سليب ايز » للحبوب المنومة . . . وتوجد هناك ست محطات تلفزيونية . . . وتستطيع أن تنتقل بينها كما تريد !

والصحف تصدر في نهاية الأسبوع في ٢٠٠ صفحة وأحياناً ٢٥٠ صفحة للصحيفة الواحدة . . . وكل صحيفة عبارة عن عدد كبير من المحلات . . . مجلات للأطفال وللشبان ولست البيت وللمهندس وللطبيب والسينما والتلفزيون ومجلة سياسية وأدبية . . . ويبيع العدد عادة بحوالي ثمانية قروش . . . والصحيفة الواحدة تكفي لجميع أفراد الأسرة . . .

وفي أمريكا يتادون أي إنسان باسمه . . . ابتداء من رئيس الجمهورية حتى الجرسون الذي يقدم لي الشاي هنا . . . على فكرة هذا الجرسون عنده سيارة وأبنة وبناته الأربع وزوجته عندهن جميعاً سيارات . . . وكل العائلة تعمل جرسونات

وعاملات تليفون . . لا تدهش فنحن في أمريكا .

ولا شيء يتعب السائح في أمريكا إلا الأسعار وإلا المسافات البعيدة جداً . .
فالأسعار أغلى من أى مكان في الدنيا وأنا أقول الدنيا عمداً لأننى رأيت كل القارات :
أوروبا وآسيا وأستراليا وأمريكا . . ثم إننى من أفريقيا . . والمسافات هنا مخيفة ،
فإما أن يركب الإنسان التاكسى وهذا غال جداً أو الأتوبيس وهذا يضيع له
وقته أو الطائرة وهي سريعة وغالية أيضاً . .

والأثر الذى تركه هوليوود في النفس : أنها مدينة كبيرة والناس فيها جامدون
أو وجوههم لا ترحب بك . . وهذا صحيح في أول الأمر . . ولكن يكفى أن تعرف
أمريكياً واحداً أو فتاة أمريكية . . وبعد ذلك ستشكو من كثرة الأصدقاء الطيبين
الذين يدعونك إلى الحفلات والغداء والعشاء . . وإلى حفلات الرقص وإلى النوادى
والجمعيات . . وكل شيء يتم في بساطة وسهولة ومن غير أى تكلف . .

* * *

ولكن المجتمع الأمريكى رغم هذه الأنوار والهيصة مجتمع صناعى تجارى . .
كل شيء فيه بالورقة والقلم والساعة وكل شيء قابل للبيع في أمريكا ، كل شيء
وأى شيء . . وربما كانت هذه هي أسباب كراهية الأمريكان لليهود مثلاً . . واليهود
هم المتحكمون في الصحافة والإذاعة والتلفزيون والسينما ويحكمون أمريكا من مدينة
نيويورك حيث البورصة العالمية ، ومن مدينة هوليوود حيث السينما .

واليهود تجار مبادئ وأخلاق وأعراض ورقيق أبيض . وفي هوليوود جريمة
كبيرة ، جريمة بيع رقيق أبيض يقوم بها يهودى اسمه ميكى كوهين .
وهناك في هوليوود جمعيات لا يدخلها اليهود . هكذا نص القانون ، والسبب
هو أن اليهود يحولون كل شيء إلى بيع وشراء . .

إن المسرحية التى كتبها الأديب اليهودى آرثر ميللر باسم « بعد السقوط »
وتحدث فيها عن انتحار زوجته مارلين مونرو قد اتهم فيها تجار الرقيق الأبيض . .
ولم يشأ أن يذكر أن هذه تجارة يهودية ؟

وهنا جمعيات غريبة جداً في هوليوود . . فهنا جمعية الإخوة وجمعية الأخوات
ولا يدخلها إلا الأرستقراطيون جداً . . فجمعية الإخوة تشترط شروطاً عسيرة في
أى عضو ، فالجمعية تنعقد وتطلب من العضو أن يفعل شيئاً غريباً ، وإذا فعله قبلوه

عضواً واحتفلوا به احتفالاً ضخماً . . . وفي الأسبوع الماضي مات عضو جديد . . . والسبب هو أن الجمعية قررت أن يأكل العضو رطلين من الكبد النيئة واضطر العضو الجديد أن يأكل الرطلين وهو قرفان جداً . . . ومات وعرضت القضية أمام المحكمة وحكمت المحكمة ببراءة مجلس إدارة الجمعية . . . واعتبرت العضو مستولاً . . . وجمعية الأخوات لها شروط قاسية ، ومن أهم نشاط الجمعية أن يبيت الأعضاء كل أسبوع مرتين أو ثلاثاً في بيت واحد وقد علمت أن هذه الجمعية لها نشاط شاذ !

ومعنى ذلك أن هوليوود فيها الأرستقراطيون جداً وفيها المتحررون من هذه القيود . . . فيها الذين يسكنون في أعالي الجبال ، وفيها الذين يجلسون في النوادي على الأرض ويأكلون في أحواض تشبه الزرابي !

ويوجد ناد اسمه « بيت الغاز » إذا رأيته فزعت من شكله من الخارج أو من الداخل فلا توجد به مقاعد ولا مناخذ . . . وإنما توجد به أحجار وأحواض فارغة ، ويضاء بمصابيح من الغاز ، وعلى الجدران صور للعفاريات والأفاعي . . . هذا النادي يجلس فيه الطلبة والفنانون والأدباء ولهم مبادئ ولهم فلسفة . . .

هوليوود صورة لأمريكا كلها . . . وهي حية . . . فيها مرح وعمل وشركات تجارية متماسكة وجمعيات علنية وسرية في غاية الانحلال . . . وهذا هو مقياس المجتمع الصحيح . . . فالمجتمع الذي لا يعرف المرض غير موجود أو هو مجتمع غير طبيعي . المجتمع الذي لا يعرف إلا المرض والانحلال ليس مجتمعاً وإنما هو مستشفى أو ملجأ فهو يشبه « بيت الموتى » الصيني الذي يعيش فيه العواجيز ينتظرون قدوم الموت وأقاربهم يبكون أمام الباب .

وإذا كانت هناك جرائم فهناك احترام للقانون أيضاً . . . يكفي أن ترى نظام المرور ، وكيف أن ألوف السيارات يجب أن تقف لأن أحد المشاة يعبر الطريق بين الخطوط البيضاء ، وكيف أن السيارات تقف عند إشارات المرور وتتجه إلى اليمين وإلى الشمال في الخطوط المرسومة . . . أنا لا أذكر أنني رأيت سيارة اصطدمت بأخرى في أى شارع وفي أى وقت . . . رغم أن عدد السيارات هنا أكثر من ثلاثة ملايين سيارة . . . طبعاً في داخل المدن ، أما في خارج المدن فلا عدد للحوادث .

● في مدينة السيد والرباب :

اعتذر عن استخدام كلمة « الهباب » . . ولكنني في الحقيقة لم أجد أية كلمة أخرى تدل على « الهباب » . . وأذكر أنني في المدرسة الابتدائية كنت أستعمل هذه الكلمة لأنني لا أعتقد أن كل القراء تعلموا في نفس مدرستي وعلى يدي نفس المدرس . والهباب كلمة تنشرها الصحف هنا يومياً وباهتمام شديد . . وفي النشرة الإخبارية التليفزيون يرسمون خريطة لدرجة كثافة الهباب اليوم وغداً . . وأول كلمة نسمعها في الصباح هنا بعد كلمة صباح الخير هي كلمة الهباب وأنه اليوم قليل لحسن الحظ أو كثير لسوء الحظ .

وإذا مشيت في شارع هوليوود ووجدت إنساناً يغمز بعينه الأثنتين فلا تسيء الظن به . . وإذا وجدت فتاة تقف في جانب من الشارع وتمسح عينيها الحمازين وإذا وجدت رجلاً يمسك أنفاً كبيراً ثم يدخل به - أقصد هو وأنفه - إلى الأجزاء فليس معنى هذا إلا شيئاً واحداً . . « إنه السموج » أي الهباب !

والسموج كلمة أمريكية هي اختصار لكلمتين هما : « سموك » أي الدخان و « فوج » أي الضباب . .

فهذه المدينة الا يشوه معالمها ، ويدمع عيون بناتها الحلوة ، ويسد أنوف رجالها إلا هذا الضباب . وليس له حتى الآن أى علاج .

ففي مدينة هوليوود حوالي ثلاثة ملايين موتور سيارة وموتوسيكل . . وكلها لا تتوقف ليلاً ولا نهراً . . ويوجد هنا عشرات المصانع وعشرات من مستودعات البترول . . وهي جميعاً تخرج كميات هائلة من الغاز المحترق . هذا الغاز المحترق يملأ الجو بسحب كأنها مسحوق الشطة أو الكحل أو « ششم الديك » الذي اكتوينا به جميعاً ونحن صغار – هذا الكلام فقط لأبناء المنصورة ! وتبقى هذه السحب عالقة في سماء المدينة إلا إذا هبت بعض النسمات من المحيط الهادى ، وهذا نادر جداً . .

والأغنياء هنا يسكنون التلال العالية . . فوق مستوى الهباب . .

وخارج هذه المدينة توجد ستوديوهات السينما كلها ؛ مترو جولدين ماير وفوكس ووارنر وبارامونت واستوديوهات ديزنى . . وسبب وجود هذه الاستوديوهات طبعاً ليس وجود الهباب هنا . . وإنما وجود الجبال والغابات والوديان والمحيط والسماء الصافية الدافئة طول السنة .

ولا أعرف إن كان انتشار السل هنا سببه هذا الهباب أو هباب السجائر التي يدخنها الأطفال والعواجيز . . أو سبب انتشاره هو حرص أمريكا على أن يكون لديها كل شيء : الصحة والمرض والمال والجمال – نسبة المتعلمين هنا ٨٠٪ وفي اليابان ١٠٠٪ – والحرص على القانون في النصب والاحتيال ، والمشي بين العلامات البيضاء في الشوارع ، وتجارة الرقيق الأبيض ، وقراءة الكتب الطويلة والعريضة ، والجلوس إلى التلفزيون ساعات طويلة بلا قراءة ولا كتابة . .

وقد سألت عن الطرق التي تفكر فيها هيئات هوليوود للتخلص من الهباب . . وقد علمت أن هناك طريقة واحدة حتى الآن : وهي أن أصحاب السيارات يجب أن يمشوا بسرعة أكثر . . أقولها مرة أخرى . . أصحاب السيارات هنا يجب أن يدوسوا على البنزين بأقصى ما يستطيعون . . والسبب هو أن السيارات عندما تسرع يخرج منها الدخان « ناضجاً » ولكن عندما تمشى على مهلها ، فإن الهباب يخرج شيئاً . . يخرج أسود ثقيلًا . .

ولكن هذه الطريقة مع الأسف لا يمكن أن تنجح ، لأن هوليوود ما تزال

ملیئة بالسكان . . والسيارات كثيرة جداً فلا بد أن تمشى على مهل في داخل المدينة ما يزال عدد المهاجرين لها من كل الولايات الأخرى يتزايد يوم بعد يوم . . ومعنى ذلك مئات الألوف من السيارات الأخرى المتسكعة !

والعلاج الوحيد هو أن ولاية كاليفورنيا عليها أن تختار بين السيارات وبين الناس . . ويبدو أن الولاية اختارت السيارات . . أما الناس فهم الذين اختاروا هوليوود ويفضلون الحياة فيها . . رغم الدموع السوداء !

* * *

أصبحت الآن أعرف كل الجرسونات الذين يعملون في فندق روزفلت . وليس هذا بالشيء القليل . . وإذا نزلت في هذا الفندق . . فالجرسونات طراز غريب جداً من الناس : واحد منهم من أصل سورى واسمه « حنالطوف » وعنده ١٤ ولداً ، والآخر من البرازيل ، والثالث من الفلبين ، والرابع من إيطاليا ، والخامس من إسرائيل ، والسادس من كندا . . وكلهم طوال عراض . .

وفي أول اليوم دق الباب وفتحته . وكان أمامى رجل أنيق ومددت يدي أسلم عليه . فقد ظننت أنه مدير العلاقات العامة بإحدى شركات السينما . . أو أنه ضابط اتصال لإحدى شركات الطيران . . وفوجئت بعد ذلك بأنه يسألنى : مفيش عندك غسيل !

وفي اليوم التالى دخل الغرفة أحد الجرسونات واتجه مباشرة إلى جهاز التلفزيون ولعب في بعض مفاتيحه وابتسم ولم أفهم فسألته . . فعرفت أن التلفزيون كان مفتوحاً رغم أن الصور لا تبدو على واجهته . وبعد ذلك ألتى محاضرة في تطور التلفزيون ، وعرفت منه بعد ذلك أنه اشتغل في إحدى شركات التلفزيون وكان له برنامج وأخرج من جيبه بعض الصور التى نشرت له في الصحف والمجلات . . وبعض النقاد وصفه بأنه موهوب . ولم أسأل الموهوب عن الأسباب التى ألفت به في هذا الفندق . . والسبب طبعاً هو أن هذه الصور كلها إعلانات من جيبه هو ، وأنه ليس موهوباً ولا حاجة !

وأول أمس دخل جرسون طويل جداً وقال بالعربية : السلام عليكم يا أفندم . . كيف حالك اليوم . . إن شاء الله مليح ؟ !

وعرفت أنه عاش في البلاد العربية ست سنوات في الحرب العالمية الأولى وأنه يعرف رجلاً في مصر اسمه : الشيخ عبد الباسط المتولى نور . . وأن الشيخ عبد الباسط هذا كان يعيش بالقرب من حديقة الأزبكية . . وطلب مني أن أبلغه السلام . . وألح في الطلب . وهو يستبعد أن يكون الشيخ عبد الباسط قد مات لأنه من أسرة كل أفرادها يعيشون حتى المائة وزيادة . وكان الشيخ عبد الباسط في الحرب العالمية الأولى قد تجاوز العشرين قليلاً . . وليس بعيداً أن يكون حياً . . فإليه السلام والتحية من جاك أرهت جرسون رقم ٣٧ في فندق روزفلت بمدينة هوليوود !

وأمس دخل الغرفة جرسون أسمر اللون وأنيق في ملبسه وفي كلامه وفي حركاته . . يحمل صينية الشاي وكأنه يحمل ميدالية ذهبية يريد أن يعلقها على صدرى في احتفال كبير بمناسبة أنى ضربت الرقم القياسى في تناول الشاي من غير سكر منذ ستة شهور . وقد لاحظ الجرسون أنى أعطس فقال : أنت مزكوم . .

فقلت : نعم . .

— أخلع حذاءك وجوربك حالا . . خلى أشوف عندك إيه . !

قالها بلهجة جادة ووطنته يقوم بدور تمثيلى . . فنحن هنا في مدينة التمثيل والسينما . . ونزعت الحذاء والشراب ومددت ساقى على المقعد الذى سببه . . وراح يضغط على أصابعى . وقال بعد تفكير : إنك من السهل جداً أن تصاب بزكام أليس كذلك !

— تماماً !

— وربما تبقى مزكوماً شهوراً ؟

— تماماً . . ولو عطست أنت الآن فأصاب برشح بعد ثانية واحدة ! .

— هل تعرف السبب ؟

— أعتقد عندى حساسية شديدة . . أو حساسية أكثر من اللازم . وهذا يتعنى كثيراً جداً . . يكفى أن أقول لك إننى كنت مزكوماً في الهند الحارة وفي أندونيسيا الاستوائية وفي الفلبين الحارة وفي اليابان المعتدلة . . مزكوم دائماً وإذا تغيرت درجة الحرارة حولى تغيرت درجة الحرارة في داخلى . .

— هل اصبعك هذا يوجعك !
— أبوه يوجعني . . وهذا الأصبع أيضاً .
— السبب هو أنك لا تأكل الفواكه والسبب هو أنك . . « وهمس في أذني
بكلام طويل أضحكني » .
وانتهت النكتة عند هذا الحد . .

ولكن الجرسون أخرج بطاقة من جيبه وقدمها لي مع بعض صور جميلة عارية !
وقرأت فيها : الدكتور إيزادوره الكافوري طبيب أمراض نفسية وعقلية ويعالج
بلا عقاقير . . شارع . . شقة . . تليفون . . وعرفت فيما بعد أنه ينصحنى بأن
أتردد عليه في اليوم التالي لأشاهد العيادة بنفسى أو ليعرضنى على طبيب آخر . .
على طبيب زميل له في نفس العيادة — وعرفت فيما بعد أن هذا الزميل يعمل جزاراً
في حى بيفرلى هيلز ، وهو حى الطبقة الأرستقراطية ونجوم السينما هنا . .
وقرأ « الجرسون الدكتور » على وجهى سطوراً ملخبطة للدهشة والسخرية فقال :
أنت لا تصدقنى . . اقرأ ما كتبته الصحف عنى ! ..

وأخرج من جيبه مجموعة من الأوراق وكلها إعلانات عنه . . إعلانات
بفلوسه هو . . ثم كلمة عابرة عنه ، كلمة شكر من مريض يقول فيها : إننى
أدين للدكتور إيزادوره بسعادتى الزوجية .

وسألت الدكتور عن معنى هذه السعادة الزوجية . . فعرفت أنه أصلح
بين هذا الرجل وزوجته وتم الاتفاق على الطلاق . . وكل منهما يعيش في بيت
مستقل مستريح البال !

وقد قابلت أول أمس في صناديق الليل عدداً من الأطباء والمهندسين وكلهم
يحملون ألقاباً علمية . . وعرفت فيما بعد أن أميركا متسامحة جداً مع أبنائها . .
فليس هناك قانون يحمى الدكاترة الحقيقيين من حملة الشهادات العلمية من أمثال
الدكتور إيزادوره . . الذى يهوى خلمة الناس ، في الفنادق .

وقد سألت الدكتور إيزادوره : ولماذا لا تهتم بالعيادة وتترك الخدمة هنا ؟
فاعتدل في وقفته ووضع يديه حول وسطه وقال : اسمع يا ولدى . . الحياة
علمتنى أن الذى لا يعمل لا يأكل ، وأن الذى لا يجرى وراء اللقمة تجرى منه

اللقمة . . فأنا هنا أدعو لنفسى وأتصيد زبائنى . . فهذه أحسن وأرخص طريقة
للدعاية للعبادة التى أديرها . .

ثم اعتدل أكثر مقلداً تمثال سعد زغلول وقال : وأهم من هذا كله أننى
أدرس الناس !

ورويت هذه المناقشة لأحد مديرى الفندق . . فضحك وقال لى إنه على
استعداد لأن يعرفنى برجل آخر يعمل فى المطبخ ويتوهم أنه أول من اخترع
صاروخاً للقمر . .

وسألته : إن كان هذا الفندق تابعاً لمستشفى الأمراض العقلية ؟ فأجاب :
بأنه تابع لأحد الملاحى . . المهم أن يضحك الزبون ويتذكر شيئاً يرويه
لأصدقائه عندما يعود إلى بلده . . وإذا كان عندك فى القاهرة جرسونات أعجب
فابعث بهم إلينا !

. . .

ما يزال فى رأسى شئٌ أريد أن أقوله عن « الجيل الجديد » فى أمريكا . .
الناس الذين سيتصرفون فى مستقبل العالم كله .

أريد أن أكلمك عن هؤلاء الساخطين هنا . .

لأن كل شئٌ هنا واسع وطويل وعريض ومنير وواضح ، فالموضحة هى أن
الإنسان يهرب إلى الأماكن الضيقة المظلمة المزدحمة القنطرة !

ولأن كل شئٌ فى الدنيا يخضع لنظام أو هيئة أو لمؤسسة أو لتقابة ، ولأن
الفرد لا وجود له إلا باعتباره عضواً فى هيئة ، فإن الشبان هنا يهربون من النظام
ومن القيود والتقاليد ، إلى أماكن لا نظام فيها ولا ترتيب ولا أرقام ولا درجة
ولا طوابير . .

ولأن كل عمل يقوم به الشباب ، فى هذا المجتمع يقتضى منه الانتباه والوعى
وإلا ضاع وراحت عليه كل فرص الحياة ، ولأن الحياة تحتاج هنا إلى كفاح
شديد ، وليست سهلة ولا هيئة كما نتصور ، ولأن كل شئٌ هنا فى أمريكا
بالفلوس . .

كل شئٌ . . وفى استطاعتك أن تتخيل أى شئٌ ، أى مبدأ أى دين

أى فلسفة أى عمل تجارى أى عمل أخلاقى . . كل شئ فى أمريكا تجارة فى تجارة . . فالجيل الجديد من الشبان يذهب إلى أماكن سرية ويظل جالساً فى استسلام لا يفكر ولا يقول شيئاً ، وإنما يركن عقله كأنه سيارة قطعت طريقاً طويلاً وموتورها يكاد يحترق . . يركن السيارة ويترك أبوابها ونوافذها وأغطيها كلها مكشوفة ويجلس فى استسلام وسلبية تامة . . كأنه رحالة ضل الطريق فى الصحراء وفى انتظار من ينقذه . .

ولأن الصحف والإذاعة والتلفزيون والسينما تضغط على عقل الأمريكى الشاب . . لأنها كلها مؤسسات تجارية تريد الربح ، ولأن هذه المؤسسات تخدم أناساً لهم مصالح فى الحروب وفى تجارة السلاح ، ولأن بعض هؤلاء الناس يغامرون بسلامة أمريكا من أجل مصالحهم الخاصة ، ولأن هؤلاء الساسة قد ورتوا أمريكا والشعب الأمريكى فى مواقف ضد مصالحه ، فهؤلاء الشبان يهربون من الكلام فى السياسة والاستماع إلى الساسة وإلى الإعلانات وإلى القصص والأفلام التى تقدمها شركات البطاطس وشركات البيض وأمواص الحلاقة . . يهرب من هذا ويجلس فى صمت دون تفكير ودون قراءة ودون كتابة . .

ويستسلم إلى الجلوس فى الظل ، إلى الجلوس على الرف .

لقد رأيت عدداً من الشبان كالورد بلا شوك . . كالورد فى اللون والنضارة والذكاء . . كل هؤلاء جالسون يستمعون إلى موسيقى عاوية نادبة من أصابع الزوج . .

وهؤلاء الشبان يشربون الشاي أو القهوة ويدخنون ولا يقولون شيئاً . .

وحاولت أن أسأل واحداً منهم إن كانوا يترددون هنا كل يوم . . وهز رأسه يقول نعم . . وسألته إن كانوا يفضلون الجلوس هكذا فى صمت . . وعلمت منه ومن غيره أن هذا هو المكان الوحيد الذى لا يقول فيه إنسان أى شئ . . فالكلام فى أمريكا كثير ومكتوب بالنور وبالحر وبالحديد وبالخشب ، ومكتوب بهذه الأجسام الشابة المستسلمة . .

وكل يوم أقرأ فى الصحف عن ارتفاع نسبة الجرائم بين الشبان . . فى المدن

الأمريكية الكبرى . . جرائم السطو والاعتداء . . وكل يوم نسمع علماء النفس وعلماء التربية يصرخون بأعلى أصواتهم أن الجيل الجديد في خطر وأنه لا بد من تغيير أساليب التدريس !؟

تدريس إيه !؟ وإنما هي الحياة المنزلية المعلومه . . الحياة الاجتماعية المفككة . المجتمع الصناعي التجارى الساحق الذى أصبح يعبد « الهيئة » ويعبد « المنظمة » ويعبد « النقابة » ويعبد الوقوف بين العلامات البيضاء على الأرض وعلى السقف وفى البيت وفى المكتب وفى المصنع وفى المعبد . .

والناس فى أمريكا يعبدون النظام لا للفائدة التى يحققها النظام ولكن مجرد طاعة النظام . . طاعة الهيئة . . والمؤسسة . . ولأن حياة الفرد فى المجتمع الصناعي لا معنى لها وحدها وإنما معناها بالجملة مع الآخرين . . وثورة الشبان هي ثورة على قيود هذه الهيئات . . وتكون النتيجة دائماً أن يموت الفرد والفردية وتبقى الهيئة .

والجرم الشاب الذى يقتل . . إنه فى الواقع أخطأ الطريق إلى جريمته . . فإنه بدلا من أن يقتل كل المجتمع قتل الحروف الأولى منه . . قتل أحد أفراده . . والإحساس بالضياع هو أوضح شعور عند الشبان فى أمريكا . . ضائعون تأهون لا يرتبطون بأى شئ . . إنهم يريدون أن يعيشوا فى سلام مع أنفسهم ومع غيرهم . . ولكن أعصاب الناس فى أمريكا منهارة . . فالتليفزيون والسينما تحطمها نهائياً لتظهر أدوية وعقاقير وجوب وسوائل وفيتامينات تصلح هذا الجسم المتعب والعقل المجهد . .

ويظل الشاب الأمريكى حائراً بين السينما والمصنع والأجزاخانة حتى يموت وهو يعمل . . وفى النهاية تقبض زوجته بوليصة التأمين على حياته وتنفقها على أولادها أو على زوجها الجديد . .

إننى أعذر الشبان ولا أرى غرابة فى الاتجاهات الصارخة فى الأدب الأمريكى الشاب بزعامة المرحوم جاك كيرواك وهو الذى أطلق على هذا الجيل الجديد اسم الجيل الصارخ أو « الجيل الصاخب » . . وهو جيل عنده شعور بالفشل وخيبة

الأمل والضياع . . وهو جيل أعجز من أن يقوم بأى إصلاح . . إنه جيل قد أسند ظهره للحائط الذى يملكه التجار والسياسة فى أمريكا . . إنه جيل ساخط اليوم وحاقد غداً . . وصوته أضعف من أن يسمعه أحد . . ولذلك فكل أفراد هذا الجيل يتجمعون فى الظلام ويضغط بعضهم على بعض ويحطم بعضهم البعض دون أن تتناثر شظاياهم إلى عيون الآخرين من الراضين اليوم والساخطين غداً !

إن هؤلاء « الهيبيز » ليسوا إلا شباناً احتجوا على المجتمع الأمريكى . . وانسحبوا من إلى حياة بدائية . . وانسحبوا مرة أخرى بعدم المشاركة فيه . . وانسحبوا مرة ثالثة بتدخين الحشيش . .

إنهم « اعتذروا » عن أن يكونوا مواطنين . . ورفضوا أن يكونوا سفاحين فى فيتنام . . وارتدوا إلى ماضى الإنسانية كلها . . أيام كان الإنسان فى حاله . . وحاله هو السلام مع نفسه ومع غيره من الشبان !

● هارب من الأحذية!

اقترحت على أحد أعضاء نقابة العمال هنا عملاً جديداً . . عملاً ليس معروفاً في أمريكا ولا في أى بلد في العالم . . وهذا العمل من اختراعى ومن ملاحظاتي ومن تجاربي . . وسألته إن كان من حقى أن أجهل هذا الاختراع فقال جاداً جداً :
يمكن ومن حقا .

أما هذا العمل فهو أن يقوم أحد الناس أو أكثر من واحد بازتداء الأحذية الأمريكية الجديدة ويمشى بها في كل شوارع المدينة والقرى ويركب الأوتوبيسات بقصد « توسيعها » . . فقد لاحظت أن كل الأحذية الأمريكية هنا ضيقة جداً . وليس سبب ذلك أن قدى كبيرة بل هناك أمريكيان كثيرون أقدامهم أطول من قدم آدم عليه السلام - قدم آدم مرسومة فوق جبل في جزيرة سيلان وهى في طول زوارق الصيد - . . ولكن الأحذية الأمريكية نجدها ضيقة دائماً . . من الخلف أو من البوز أو من الجوانب . . قد تكون طويلة جداً ولكن لا بد أن تكون ضيقة في مكان ما ، ومعنى ذلك أنها مسألة لا علاج لها . . إذن فالحسل الوحيد أن يجئ بعض الانتحاريين ويرتلون هذه الأحذية يوماً أو يومين حتى تتسع ثم تعرض للبيع - الإنجليز يفعلون نفس الحكاية في ملابسهم . . ففى إنجلترا لا نجد أحداً ابتداء من رئيس الوزراء حتى الكناس يرتدى ملابس جديدة . . والسبب هو أنه يبدو أن الإنجليز يفضلون ملابسهم ثم يبعثون بها إلى المستعمرات ليلبسها آخرون بقصد التجربة والتوسيع ثم يردونها إلى إنجلترا !

وعرفت فيما بعد أن الأمريكيان ليس لديهم أحد متخصص في توسيع الأحذية ولكنهم يقومون بهذا العمل من تلقاء أنفسهم اقتصاداً للأرجل العاملة . . فالأمريكي يشتري الحذاء الضيق . . لا بد أن يكون ضيقاً ويرتدى بعد ذلك حذاءه القديم بعد أن تسلخت قدماه من الحذاء الجديد . . وبعد أن يتم شفاء قدميه يرتدى الحذاء الجديد الذي يكون قد ضاق مرة أخرى . . فيعود يوسعه مرة ثانية وتتسلخ قدماه من جديد . . وهكذا . . وربما كان هذا هو السبب في وجود كثير من الأمريكيان يعرجون في أيام السبت والأحد من كل أسبوع ! . .

وقد ذهبت إلى أحد محال الأحذية . . المحل عبارة عن مطعم ومعه مقهى ثم جناح لبيع الأدوية . . وجناح آخر لبيع السجائر وبطاقات عيد الميلاد . . وجناح آخر خاص للعب والعرائس . . وفي جانب كبير منه يوجد جناح يبيع الأحذية . . جناح الأحذية نظيف وأنيق . . الصناديق كثيرة . . والأحذية معروضة كأنها مجموعة من الكتب . . وكل حذاء تحته ورقة ورسم وكلام كثير وأرقام ورسوم بيانية ومطرقة كهربائية تضرب حذاء كهربائياً .

وتقدم مني البائع وسألني إن كان في استطاعته أن يخدمني ! . . فقلت له :

— أنا أبحث عن حذاء لا يوجع قدمي .

فضحك . . ولكنني لم أضحك . . وطلب مني أن أنزع الحذاء . . وراح يقلب في حذائي . . وعرف أنه من اليابان ونزع جوربي وراح يقلبه أيضاً . ثم أتى بفرخ نشاف ووضع قدمي فوقه وضغط على أصابع قدمي ثم وضع بعض المسحوق الأسود على آثار قدمي على النشاف . . ورأيت أصابعي سوداء على الورق . وأمسك مسطرة وقلماً وراح يقيس الطول والعرض . . ثم عاد فقام التجويف الموجود في باطن القدم ثم قاس دوران الكعب . . وبعد ذلك أتى بفرخ من النشاف اللين جداً . . إنه يشبه اللباد . . وطلب مني أن أقف فوق اللباد وبعد لحظات كانت قدمي مطبوعة غائرة في اللباد . . وقاس قدمي الآخر . . وجلس أمامي وكأنه عالم في طبقات الأرض أو أحد علماء الفلك . . وضع منظاره على أنفه وقال لي : هل تعلم أنه لا توجد قدمان متساويتان . . لا توجد قدمان في أي إنسان متساويتان

لا في الطول ولا في العرض ، حتى ضغط الإنسان على القدمين ليس واحداً . . وقد مضى ذلك الوقت الذي يرتدى فيه الإنسان أحذية جاهزة . . إننا لا نرتدى منظوراً طبيياً جاهزاً فكل عين لها مقياس ولها قدرة على الإبصار . . وإذا كان هناك علم للكف فن المؤكد أن التقدم لها علم وعلم يعتمد على أسس صحيحة .

وبعد ذلك أعطاني درساً آخر عن أنواع الجلد . . ودرساً آخر عن جزمة العمر كله . . ثم بعد ذلك عن أحسن أنواع الجوارب ، ثم أحسن أنواع البودرة التي توضع بين الأصابع ، ثم عن حمام القدم ، ثم عن أحسن الأوضاع للقدم عند النوم .

وبعد ذلك مد يده إلى فاتورة وبدأ يكتب . . ولحقت في السطر الأول ٢٠ دولاراً ثم ١٠ دولارات ثم الضريبة .

وبعد ذلك ١٠٪ للمحل .

مصيبة سوداء !

لأنني لم أر في حياتي أجزخانة للأحذية . . فهذه أول أجزخانة رأيته في حياتي .. وهذه أول روشته يكتبها جزججي لا طيب .

هذا الطيب مجنون . . إنه لو وضع فرخاً من النشاف تحت جيبي فلان جيبي لن يترك أي أثر !

وقلت لصديق كان معي : يجب أن نتظاهر بأى شيء . . نتخلص من هذه الكارثة بسرعة . . فن الممكن أن تستريح قدمي بعد هذا الخداء ، ولكن سيطير عقلي حتماً . وتظاهرننا بأن زميلاً ثالثاً يقف أمام الباب . ولا بد من استدعائه . . وعندما وصلنا إلى الباب الخارجي قال لنا : مع السلامة !

لقد قالها بالعربية !

وقررت عندما أعود إلى مصر أن أقترح اسماً جديداً للأجزخانة الخاصة بالأحذية هذا الاسم هو : الأحذاخانة !

• • •

لا أعرف من الذى يستمع إلى الراديو أو التلفزيون فى أمريكا . . لقد سألت الكثيرين هنا فقالوا : الأطفال والشبان يستمعون إلى الراديو ويجلسون إلى التلفزيون !

ومعنى ذلك أن نصف الشعب الأمريكى يستمع إلى الراديو ويرى التلفزيون ولكن المشكلة هى : كيف يستمعون إلى الراديو وكيف يتحملون التلفزيون ؟
إننى أجلس إلى التلفزيون ساعات ودهشتى وانزعاجى لا ينتهيان . . إن الأمريكى لا يدفع ضريبة للراديو ، تماماً مثلنا فى مصر . . ولكنه فى الواقع يدفع ما هو أكثر من ذلك علاجاً لأعصابه وعلاجاً لأطفاله .
فالراديو فى أمريكا والتلفزيون مأساة . .

كل شئ بصوت عال وكل شئ هنا صارخ . . فألوان الفساتين وقمصان الرجال ، والحلو والمر معاً كالصلصلة . . وكل شئ هنا إعلانات . . كل شئ . . حتى بدأت أشك فى الأحايث الدينية التى تذاع فى الراديو .

والذى أدهشنى أن أى برنامج يجب قطعه بعد بدايته بلحظات ليذاع إعلان عن دواء لقتل الصرصار أو شيكولاته جديدة . . حتى الأفلام العادية لا يكاد الفيلم يبدأ حتى يظهر أحد الممثلين فى هذا الفيلم وفى يده شئ يعلن عنه . . لقد رأيت ديورا كير فى أحد الأفلام العاطفية المؤلمة جداً . . واقطع الفيلم عند موقف مثير وظهرت ثلاججة جديدة وأمامها ديورا كير وتبتسم للمتفرجين وتهتف بحياة الثلاججة الجديدة وبعد ذلك رأيت الدموع فى عينيها . . !

وسمعت ورأيت أمس إحدى المحاكمات المسلسلة . . المحاكمة طريفة ممتعة فعلاً . . موضوعها سرقة سلم من فوق أحد البيوت . . دارت المحاكمة والمرافعة . . ورفعت الجلسة ليشرّب القاضى زجاجة من الكوكاكولا . . هكذا قال المذيع وابتسم القاضى لذلك . .

وفى أحد البرامج ظهرت الممثلة المحرية زازا جابور . . فى بساطتها وأسلوبها الذى يشبه أسلوب الأطفال هاجمت الإعلانات فى الإذاعة الأمريكية . . ولكن المذيع نظر إليها نظرة رأها الجمهور كله وقال لها : هذا الإعلان هو الذى اشترينا به هذه الملابس وهذه السجائر الفاخرة وهذه الأحذية الجيدة وانظرى إلى هؤلاء

العروضات الجميلات إن ملابسهن من محل كذا وكذا . . إلخ .

إن أحداً هنا لا يستطيع أن يعترض على هذه البرامج فليس له أى حق . . فهو لا يدفع لها ملياً واحداً . . وعلى الرغم من أن الإذاعات المختلفة تتنافس على المستمع بالأخبار والأفلام والفكاهات والمسابقات والأموال . . فإن الإذاعة الأمريكية مزعجة .

وهي كالتضاء والقدر تصيب الناس في بيوتهم وفي سياراتهم وفي أى مكان . . ولا يستطيع أحد أن يهرب منها .

والراديو موجود في كل مكان . . تجده في المطعم وفي البار وتجده على الصوت كالمقاهى البلدية . . ولا نجد أحداً يستمع إليه ولكن أحداً لا يريد أن يسله . . والبارات بها سينا . . بها أفلام وبعض هذه الأفلام عن مصارعة الثيران وعن رعاة البقر . . كل هذه البارات حيث الضوء خافت والمقاعد ضيقة ومرحجة لاثنين . .

ويبدو أن الأمريكي لم يعد يحب العزلة . . إنه يحب الهيصة . . يجب أن يكون مع الناس . . أن يكون معهم في المطعم وفي الشارع وفي النادي . . ويكون أن يجلس إلى الراديو دون أن يسمعه .

وكل شئ عند الأمريكي هو هيصة . . المشى متعة ، وركوب السيارة متعة ، والجلوس في البيت متعة ، والأكل مع الأصدقاء متعة . . وكل شئ يعمل بهجراً وبحماسة وبلذة . . يحدث كثيراً أن تسأل أحد الأمريكان عن كيف أمضى نهاية الأسبوع . . فترى السعادة على وجهه وتتوقع أن يكون قد سوى الهوايل في هذا اليوم . . ولكنه يقول لك : ذهبت لزيارة والدتي . . إنها تبعد عن هنا حوالي مائتي كيلو . . !

وإذا قال لك رجل أمريكي إنه أمس هيص فلا تذهب بعيداً فقد يكون من هواة سماع الاعلانات في الراديو !

• • •

أذكر أنني رأيت في مدينة هونولولو شوارع كاملة مضاءة على الجانبين وبها ألوف السيارات وفي أعلى السيارات توجد عبارة : سيارات مستعملة .

ولما اقتربت منها وجدت أن السيارات كلها موديل العام الماضي ، والقليل جداً موديل العام الأسبق !

ولم أحاول أن أجد تفسيراً لذلك إلا أن أمريكا هي التي اخترعت السيارة وفيها شركات كثيرة لصناعة السيارات وبيعها بالأقساط . . . وشراء السيارات القديمة وتقسيم السيارات الجديدة . . . وأن شراء سيارة هنا كمشاء حذاء لا يكلف الكثير . . .

ولكني رأيت في لوس انجليس ، وفي هوليوود ، وسان فرانسيسكو ، وكثير من المدن الأمريكية الأخرى ما هو أعجب من هذا كله . . . وجدت شوارع وميادين كلها تباع السيارات المستعملة . . . وتعلن عن هذه السيارات في الإذاعة والتلفزيون . . . ورأيت هذه المعارض قائمة ليلاً ونهاراً والسياسة يتنافسون في إرضاء الزبون . . . فالسمسار على استعداد لأن يغير لون السيارة ولون مقاعدها ويبعث بها إلى أى مكان في العالم وبالتقسيم أيضاً . . . ويعطيك عناوين بعض العملاء لشراء قطع الغيار . . . ويبدى استعداده لتبديلها مرة أخرى إذا ظهر الموديل الجديد. ولاحظت أن السيارات المستعملة هذه جديدة جداً ونظيفة جداً وكأنها لم تتحرك من مكانها . . . وسألت بعض الأمريكيان عن الحكمة في تغيير سياراتهم بهذه السهولة ؟

فهناك رأى يقول : إن الأمريكي بطبعه يحب التغيير . . . فالأمريكان مدينون لهذا التغيير بكل حياتهم . . . فقد كانوا في أوروبا وجاءوا إلى هنا . . . وغيروا وجه الأرض وحولوا الغابات إلى مزارع ، والمزارع إلى مصانع ، والمصانع إلى حدائق وحمامات سباحة وسابقات للجمال .

وآخرون قالوا : إن الرجل الأمريكي تاجر وهو يحب الظهور . . . فهذا الظهور يؤثر على الزبون . . . على المستهلك . . . فيقنعه بأنه غنى وأنه ناجح وأن بضاعته هي أحسن بضاعة وأنها هي التي عادت عليه بهذا الثراء وهذه السيارة الفخمة . . . ! وقليلون من رأيهم أن المصانع الأمريكية هي التي شجعت المستهلك على تغيير سيارته وإلا أقفلت هذه المصانع أبوابها إذا اعتمدت فقط على المستهلك الأجنبي . . . وعلى تمسك المستهلك الأمريكي بسيارته القديمة . . . والرجل الأمريكي

لا يجب القديم ولا ينظر إلى الماضي نظرة إنجليزية فرنسية خيالية حاملة . . فلا يوجد أمريكي يقول لك إن هذه السيارة عزيزة عليه . . فقد قابل فيها فلانه لأول مرة . . وذهب بها لأول صفقة كبيرة . . !

ولكنه يقول لك دائماً : اللى معروفش أحسن من اللى أعرفه . . الجديد أحسن من القديم ، والمستقبل أحسن من الماضي . .

وهناك من يرى أن الطرق فى أمريكا طويلة جداً وأنها تغرى صاحب السيارة بأن ينطلق بسرعة مخيفة . . ومن النادر أن تجد سيارة فى هذه الطرق الطويلة تمشى بسرعة أقل من ١٢٠ كيلو . . ولذلك فهذه السيارات تتحطم موتوراتها بسرعة . . أما جسم السيارة فيبقى سليماً . . والسيارة هى الموتور . . وتغيير الموتور يساوى الفرق بين سيارة جديدة وسيارة قديمة . .

وجحا كان يقول : اللى عنده حنة يحنى ديل حماره . . !
والأمريكان عندهم أكثر من الحنة وليس غريباً أن يغيروا ديل الحمار والحمار أيضاً . . !

① عندما تكون زوجهك أمريكية

إذا كانت المرأة الشرقية تمشي وراء زوجها ووجهها إلى الأرض . .
وإذا كانت المرأة الأوروبية تمشي إلى جوار زوجها وتنظر إلى رجل ثان
وتفكر في رجل ثالث هرباً من رجل رابع وأملا في رجل خامس . . .
فإن المرأة الأمريكية تمشي أمام زوجها وأحياناً تخرج أصبعها من جيبها
الأيسر فتقول لزوجها إنها ستنتجه إلى الشمال ، أو تعوج جزمها اليمنى لتقول لزوجها
إنها ستنتجه إلى اليمين . وأحياناً تتلصق من يدها سلسلة يتعلق بها كلب نظيف
من كثرة قبلات الزوج المطيع ، وأحياناً يتعلق الزوج من هذه السلسلة في يوم
الراحة الأسبوعية للكلب . !

. . . والكلاب في أمريكا مستريحة جداً جداً . . .

لقد زرت عدداً كبيراً من بيوت الأمريكيان . وكتبت ملاحظاتي . . ولكن
البيوت التي أدهشتني فعلاً هي بيوت الشرقيين الذين تزوجوا من نساء أمريكيات .
زرت أكثر من تسعة بيوت لأصدقاء من القاهرة وزوجاتهم أمريكيات ، لم
أذهب على سبيل الشماتة بهم . . فلا شماتة في الموت أو في الزواج ، وإنما ذهبت
لأرى كيف يلتقي الشرق القديم جداً بالغرب الحديث جداً . . أو المحدث جداً . .
وسأضرب لك عدة أمثلة رأيتها وسمعتها وكنت أحد المشتركين فيها . .

مثلاً : لا يصح للزوج أن يدعو إلى البيت أى عدد من الناس . فمن رأى
الزوجة أنه يجب أن يدعو أربعة أو خمسة مثلاً ، لأنها لا تستطيع أن تطبخ لهذا

العدد ، وليس لديها عدد من الأطباق أو الملاعق يكفي لهذا العدد . ولا يصح للزوج أن يسمح لضيوفه أن يحضروا إلا في الوقت المحدد وبالضبط ، وقد رأيت زوجة تترك البيت في هدوء تام لأن الضيوف تأخروا عن الموعد نصف ساعة .
وبعد الفراغ من الطعام يجب على الزوج أن يقوم بعملية - أقصد عمليات - الغسل والكفوف وتجفيف الأطباق والملاعق ووضعها في المكان المناسب .
ولا بد أن يكون التعليق على الأكل ممتازاً .

يجب أن يقول الضيوف إن الطعام رائع مهما كان طعمه أو كانت رائحته أو كانت الزوجة غشيمة .

وقد لاحظت أن الأزواج يطلبون من الضيوف أن يقولوا عبارات معينة لأن هذه العبارات بالذات تسعد الزوجة !

وإذا حدث أن دعا الزوج إلى البيت سكرتيرته في العمل أو زميلة له . . فأهلاً وسهلاً . ويجب ألا يندهش الزوج الشرقي إذا عاد إلى البيت ووجد رجلاً غريباً يتمشى في البيت وفي فمه سيجار ضخمة وأمامه كأس من الويسكي وبعض القول السوداني . . وفي هذه الحالة يجب أن يقدم الزوج نفسه هكذا : أنا فلان

ويقول الرجل الغريب : أهلاً وسهلاً وأنا فلان . كيف حالك ؟

وفي هذه الحالة تصرخ الزوجة من الداخل : هذا رئيسي في العمل . . يا حبيبي تحب تشرب إيه ؟ . .

طبعاً الزوج الشرقي يجب أن يشرب كوباً من الماء أو يجب أن يضع قطعة من القطن المبلل بالنوشادر في أنفه قبل أن يغشى عليه . !

نسيت أن أقول إن الزوج عندما أحضر سكرتيرته إلى البيت . . كانت مفاجأة للزوجة فهو لم يخبرها قبل ذلك بأيام أنه سيدعو سكرتيرته إلى البيت . لعله نسى ، لعله مشغول . ولكن هذا لا يكفي لإقناع الزوجة . فالزوج يجب ألا ينسى ويجب ألا يكون مشغولاً لأن الأجهزة الأوتوماتيكية في أمريكا تفكر وتكتب ولا تنسى فكيف ينسى الإنسان مخترع هذه الأجهزة ؟ !

وقد حدث أكثر من مرة أن خرج الزوج الشرقي من البيت احتجاجاً على تصرف زوجته . . ولم نجد الزوجة حلاً لهذا الإحراج الشديد أمام رئيسها إلا أنها

اعتذرت لهذا الرئيس عن حماقة الزوج وعن غيرته العمياء ، ثم تركت البيت هي والرئيس وذهبت إلى أى مطعم أو ناد ليلى وسهرت هناك تحاول الاعتذار للرئيس بكل الوسائل . وعندما عادت الزوجة إلى البيت وجدت الزوج سكران على الآخر فنظرت إليه من فوق إلى تحت ثم قالت له : برضه كده ترمى السجائر على الأرض .. مين اللي حيكنسها .. الخدامة إجازتها بكره . !

ثم ذهبت إلى غرفتها لتنام ومدت يدها إلى الراديو لتستمع إلى الموسيقى وفي يدها كتاب ظهر حديثا عنوانه « كيف تجددين رجلا أحسن في ٢٤ ساعة ؟ » .

وقصص كثيرة غريبة .. ولكن المرأة الأمريكية تتصرف كأنها تتأثر لبنات أوروبا وأفريقيا وآسيا وأستراليا . إنها تشخط في الرجل فيتحول إلى شيء صغير . والفزورة القديمة التي تقول : إيه اللي أد الفيل وينصر في مندبل ؟ والجواب التقليدى هو : الناموسية . ولكن الجواب الجديد هو : الرجل الأمريكى !

والتانون يعطى المرأة الأمريكية نصف ما يملكه الرجل عند الزواج .. فوثيقة الزواج هي وثيقة تمليك لكل ما في البيت من أثاث وثلاجات وراديوهات ، حتى السكنية التي في يدك عندما تحاول ذبح زوجتك الأمريكية فنصف هذه السكنية من حقها ..

وأغرب حادث رأيته وسمعته وناقشته هو أن هناك زوجة أمريكية ستلد بعد أيام وزوجها صديق من القاهرة . . هذه الزوجة ستلد على الطريقة الجديدة - أى من غير تحدير ، من غير بنج - ولا بد أن تتردد مرتين في الأسبوع على الطبيب ليعرف حالتها النفسية وليشرح لها ماذا سيحدث قبل وبعد وأثناء الولادة . . وليس في هذا كله أية مشكلة . فالزوجة مقتنعة بأن هذه العملية مريحة وسهلة جداً . . وقد تمت ألوف الولادات بهذه الطريقة دون أية حوادث .

والمشكلة الآن هي : من الذى سيجلس إلى جوار الزوجة أثناء الولادة ؟ من الذى يسلى الزوجة حتى لا تشعر بكل ما يحدث لها وفيها وحولها ؟ من الذى يشجعها ؟ إن عملية الولادة تستغرق ثلاث ساعات طويلة مملة الأصوات والوجوه والروائح فمن الذى سيقوم لها بتغيير هذا الجو ؟

والجواب هو : الزوج وحده هو الذى يجب أن يقوم بهذه المهمة . والمناقشة دارت هكذا أمامى :

الزوجة (وضعت ساقاً على ساق ونظرت لنا جميعاً باحتقار شديد وعيناها تهمنا على الأقل بالأنانية) .. فتفكر أننى يجب أن أكون وحدى؟ وأين أنت؟ إن هذا الطفل قد خلقناه معاً . . هل تتصور أن مهمة الزوج هى مجرد عملية الإنجاب . . وأى مجهود فى هذه العملية؟ وأى بطولة؟ .. عمل الرجل فى الزواج ليس فيه بطولة . .

الزوج (فى يأس وتطلع إلى وجوهنا لكى نساعدنه لأنها قضيتنا جميعاً) : ولكن لأعرف هذه الأشياء .. لأننى لم أحضر ولادة فى حياتى .. الموقف محرج جداً ..

الزوجة : وأنا لم ألد قبل ذلك . . وموقفى مؤلم . . ومحرج لى أيضاً . . إذا حضر جميع الأزواج وتخلفت أنت ! ثم هناك شئ آخر . . هو أنه يجب أن تقابل الطبيب . . إنه يريد أن يجلس معك . . يريد أن يتأكد من أعصابك . . هل هى قوية تتحمل مثل هذه العملية أو لا تتحملها . . وهل أنت فى حاجة إلى فيتامينات مقوية . .

الزوج : مش فاهم . . ماذا أعمل . . ماذا أقول لك . . أقول لك بعض النكت . . ليس لدى نكت تكفى لثلاث ساعات ولا أضمن إن كانت نكت القاهرة تضحك بنات أمريكا .

الزوجة : هناك كتاب صدر أخيراً عن النكت . . تستطيع أن تقرأ هذا الكتاب مقدماً أو حتى تقرأ لى الكتاب أثناء الولادة . . أو إذا لم يعجبك هذا كله فعندى اقتراح . .

الزوج (فى خوف وفزع) : أنا فى عرضك بلاش اقتراحاتك الرهيبة ، أى شئ إلا اقتراحاتك . .

الزوجة : انتظر شوية . . عندى فكرة . . وهى أننى أستأجر رجلاً يقرأ لى فى هذا الكتاب أثناء الولادة . . وهذا الرجل سأسأله أثناء الولادة أن يعطينى معلومات أولاً بأول عن الأعضاء التى ظهرت من المولود وإن كان ولداً أو بنتاً . . إلخ

وأن يكون له منظار غليظ كمنظاري ليري كل شيء بوضوح كأنه في بلاد الشرق حيث السماء الصافية دائماً . .

الزوج يقول : كان يوماً أسود يوم تزوجت حضرتك ! .

طبعاً الزوجة لم تفهم هذه العبارة التي قالها بالعربية . . ولكن الموقف كما هو . . ولا بد أن يذهب الزوج . فهل تذهب أنت أيها القارئ إذا كانت هذه زوجتك الشرقية .

فيأيها القارئ الشرق أنت في نعمة . . لأنك تذهب إلى السينما أو إلى الكباريه عندما تكون السيدة حرمك في حالة وضع !

. . .

أما الأزواج العرب الماربون من زوجاتهم الأمريكيات فلم ناد خاص . لم يكن خاصاً بهم . . ولكنهم جعلوه خاصاً !

الدخول للأعضاء فقط . وكل عضو معه مفتاح الباب الخارجي . . ومجرد أن يضع المفتاح في الباب ويدخل معناه أنه عضو . . ولو سقط هذا المفتاح من أي عضو وعثر عليه إنسان آخر فهو عضو . . عقاباً للأعضاء الذين لا يحرصون على هذه المفاتيح !

دخلت في واشنطن أحد هذه النوادي .

الباب وراءه باب وباب . . الأضواء خافتة والأرض مغطاة بالأسبطة القطيفة والسلم إلى أعلى كذلك . . والفتاة التي تأخذ منك الباطو ترتدى المايوه . . والمايوه قطعتان . . قطعة ارتفاعها أربعة أقدام عند الجانبين ، ولكنها من الأمام والخلف عبارة عن قيراطين بارزين ، طبيعي أو صناعي . . والصدر في الغالب منفوخ والنفخة لهيئة . .

وبابتسامة حلوة مغرية تمد الفتاة ذراعها الأبيض العريان الناعم أيضاً وتأخذ الباطو . .

ولا تفهم لماذا هي تتعمد أن تدخل ذراعها في كم الباطو . . تماماً كما فعلت ريتا هيوآرث في فيلم جيلدا وهي تنزع الجوانتي ، أو كما تفعل إحدى راقصات الكباريه عندما تختارك لتنزع من يديها هي الجوانتي الضيق جداً كجلد الثعبان . .

وبنفس الرشاقة والإثارة تضع يدها في أحد جيوب البالطو .. وتتلقت إليك ..
ثم حزام البالطو بين أصابعها .. وعيناها .. وعيناها أعوذ بالله .. !

وتصعد إلى السلم وتفاجأ بأن كل الجرسونات بالمأيوه .. وكل مايوه لون ..
وهناك مباراة بين الجرسونات على أعصابك .. وكل واحدة تحاول أن تستخدم
أقل مساحة ممكنة من القماش وأكبر عدد ممكن من الألوان .. وتفتح فيها ضاحكة
إلى أقصى ما تستطيع .. وعندما تجلس على المقعد غير المريح ، لا لأنه من
قطيفة غليظة وإنما لأنك غير متعود على ذلك .. وأمامك كل الجرسونات يرحن
ويجئن بالجنب وبالظهر وبالوجه وبالذراع وبالطن وبالصدر .. وتحس أنك
في حمام سباحة أو في حديقة أسماك غريبة .. وأن بينك وبين هذه الأسماك ألواحاً
من الزجاج الشفاف الرقيق جداً .. وإذا ابتلعت ريقك وأحسست أنه ينحاش
في زورك ، وارتفع ضغط الدم عندك ، وزادت دقات قلبك وجعلتك تقوم وتقع
وتحس بضيق شديد في ملابسك .. فلا تخف فهذا لا يدل على مرض الكبد أو
الأمعاء الغليظة أو ضغط الدم ، وإنما هي حالات ضرورية بالنسبة لكل زبون ..
وهي تحيات مستمرة للوق النادي في اختيار الجرسونات من طراز قاذفات اللهب
والعرق والأرق !

وإذا مالت عليك الجرسونة العارية ولفحك عطرها الخفيف وسألتك ماذا
تأكل وهي تعرف ماذا تريد بالضبط ، وأنت لست أول واحد طبعاً فقل : بعض
الحم المشوى !

ولا تقل هذا بنعمة خاصة فهي تعلم مقدماً أنك لاتعنى ماتقول وإنما تعنى
أنك تريد بعض اللحم الذى يشوى ويلسع ويحرق ويوجع .

وهناك على جانب من النادي توجد منضدة وعلى هذه المنضدة كل أنواع
الساندويتشات وهي أحياناً مجاناً .. وتستطيع أن تأكل منها ما تريد .. والذوق
يقضى أن تدفع مبلغاً رمزياً هو ما يساوى قرشين .. إنها مسألة ذوق ، وليست
مسألة إجبارية ، وهذه هي معالم النادي .. وهي صريحة ومكتوبة ورامك وأمامك .

وفى أول لحظة ستمعجك هذه الفكرة .. ولكن حاول أن تجربها ..
ثم تنفدها بعد ذلك !

أمام الساندوتشات أجمل جرسونة، وقد غطت جسمها كله بشبكة سوداء ..
وعلى هذه الشبكة السوداء توجد بعض بقع سوداء من القماش في أماكن مختلفة
وطبعاً أنت تعرف أين ؟ .. ستقف أمامها وتنظر إلى وجهها وتقول : ساندويتش
جينة ..

وتمد ذراعيها الناعمتين الممتلئتين وتعطيك الساندوتش وتنظر إلى عنقها وإلى
صدرها وإلى وسطها وإلى .. وإلى .. وتطلب بعض الخوم وبعض الطماطم
وبعض التفاح أولاً يعجبك التفاح فتعطيك الموز .. وبعد ذلك يطلب منك النادي
أن تدفع قرشين .. طبعاً مش معقول .. فتدفع خمسين قرشاً أو جنياً .. ولا تحاول
أن تعطيه بطاقة عليها اسمك ورقم تليفونك فالنادي يشكو من ضيق المكان ،
وهناك غرفة مخصصة للبطاقات التي تعطى للجرسونات الفاتنات !

يعنى بالاختصار يحسن أن تدفع الحساب وتقوم ..

وهناك تحت .. تنتظر فتاة أجمل ستقدم لك البالطو .. وغرفة البالطوات
كبيرة .. وعندما تراك فلإنها تشعل الأضواء التي يستخدمونها عادة في غرف العمليات ..
والفتاة تتعمد أن تضع البالطو في آخر الغرفة .. عليك أن تراها في الذهاب
والإياب .. وعلى باب هذه الغرفة مكتوب : لا تدفع أى بقشيش !

وأنت لا تستطيع أن تطيع أوامر النادي فلا تعطيه قرشاً واحداً، فإذا استطعت
فأنت ثانی إنسان فعل ذلك . أما الأول فهو أنا ، إنني لم أعطيها قرشاً واحداً ،
ولنما أعطيتها آلاف القروش !

هذا النادي يناسب جداً كل رجل عربي هارب من طغيان الزوجة الأمريكية ..
وطريقة الهرب هي هذا المفتاح ..

* * *

الفندق الذي نزلت به في واشنطن اسمه فندق « فيرفاكس » .. لم أخطر هذا
الفندق ولم أنزل به من قبل .. ولكن اختارته زوجة أحد الأصدقاء .. لماذا
لا أعرف .. ربما كان السبب هو أنه قريب من السفارة أو كان أرخص ،
أو لسبب آخر لم أعرفه إلا فيما بعد !

وكانت غرفتي في الفندق كبيرة ومزودة بسرير مريحة وفيها تدفئة .. ورائحة

جهاز التدفئة تشبه رائحة الأفران الريفية التي يضعون فيها روث البهائم الجاف ، مع خليط التبن ، وربما كانت هناك بعض الأعشاب التي يستعملونها في الريف لقتل الناموس ..

ويبدو أن أمريكا قد أضافت إليها مواد أخرى تستخدم في قتل الأجانب .. فقد نهضت من فراشي أكثر من مرة دفاعاً عن نفسي .. لاحظت أن هناك أصابع غليظة تلتف حول عنق تريد أن تقتلني .. واكتشفت بعد ذلك أنها أصابعي ، ولاني أحاول أن أساعد الهواء على الدخول والخروج .. ثم اكتشفت أن التدفئة الخائفة هي السبب !

وفي الصباح المبكر يفتح باب الغرفة وتدخل سيدة ضخمة جداً وسوداء جداً وفي صوت صفدعى تقول : إنت لسه نائم ..

والحقيقة أنني أكون فعلاً « لسه نائم » .. لسه أحاول أن أنام .. فهي بالضبط ضبطني في لحظة انتصارى على الأرق . وتهز رأسها أسفاً على مصيرها الأسود الذي جعلها تعمل منذ ساعات بينما آخرون ينامون حتى التاسعة صباحاً .

وفي يوم قررت أن أنام بعد أن تقوم هي بتنظيف الغرفة وإعدادها .. وبذلك أضمن ألا تدخل في أى وقت وتزعجني وتخيفني بهذا الشكل المولم .. وانتح الباب وكل مرة يفتح الباب على خادمة زنجية- فالزواج هم نصف سكان واشنطن عاصمة أمريكا .. وقلت للخادم : أمامك الغرفة رتبها كما تريد ..

ولم أقدر خطورة هذه العبارة . والذي حدث هي أنها نظفت الحمام ، ثم راحت تنزع أغطية السرير والمفارش وتمسح الزجاج والأكواب .. ونهتني إلى أن اليوم هو يوم الغسيل وإذا كانت عندي ملابس فيجب أن أقدمها حالا وإلا فسأبقى بلا ملابس نظيفة كل أيام عيد الميلاد ورأس السنة .. والعمل إيه ؟

ودخلت إلى الحمام وبدأت أنزع ملابسى .. وفجأة انفتح باب الحمام ودخلت الخادمة ونظرت لى فوجدتني عارياً « ملط » وانكسفت جداً ، ولكنها لم تنجبل كأننى ماسورة مياه أو لوح خشب .. وفوجئت بأنها أمسكت ليفة وصابونة ومدت يدها إلى صدرى وراحت تمسح بعض الخبر .

وسألني : وما الذي أتى بالحبر هنا ؟
فقلت لها : إنها أفكارى !
ولم تضحك . . وابتلعت أنا ضحكتى !
قلت : انتظري حتى أرتدى ملابسى وبعد ذلك أكلمك عن الحبر .
وعادت تسأل : هل تضع القلم فى عبك ؟
قلت : أحيانا أتركه فوق صدرى هو وورقة أو كتاب وأنام .
قالت : أنت تعمل بوهيجى فى بلدكم ؟
وقلت لها إننى تعلمت من الهند بعض الألعاب السحرية . . وفى استطاعتى
أن أحول القلم إلى ثعبان يقرصك . .
وصرخت وهربت . . فهى من قبيلة تقديس الثعابين !
ومنذ ذلك اليوم بدأت أنام وباب غرفتى مفتوح ، وفى أذنى قطن والحاف
فوق رأسى . . وأنجاهل أصوات المقشات والبخاخات والزنجيات وأقسمت ألا
أنام بعد ذلك فى أية لوكاندة يديرها وينظفها ويخيف الناس فيها ، هذا العدد
الكبير من المهجانة !
أو أستمع إلى نصيحة زوجة أمريكية تريد أن تنتقم من كل أصدقاء وأبناء
وطن زوجها !

● حياتهم أغرب من السينما

قبل أن أرى أمريكا كنت أتصور وأنا جالس في السينما أن كل هذا الذى أراه ليس إلا تمثيلاً فى تمثيل . . السيارات الكبيرة الكثيرة السريعة ، واللبان الذى يمضغه نصف الممثلين ومعظم المتفرجين ، والتليفونات التى تدبر قرصها عشر مرات وتطلب أسوان وأنت فى القاهرة أو تطلب الخرطوم وأنت فى روما فتجئ بعد لحظة أو لحظتين . . وكنت أتصور أن الأمريكان عندما يرتدون القمصان المبقعة بالأحمر والأزرق والبنطلونات التى تشبه جوارب السيدات لأنها ملتصقة جداً ، كل ذلك كنت أتصوره « شغل سينما » .

ولكن الحقيقة أن الأفلام أقل بزمان جداً من الواقع . . بل إننى أؤكد أن الأفلام لا تصور الواقع الأمريكى تصويراً دقيقاً . . والمخرج الأمريكى يحاول دائماً أن يقلل من هذه المناظر لأن المتفرج الأمريكى يعرفها جيداً ويمارسها كل يوم . . تماماً كما يفعل المخرج فى القاهرة عندما يحذف من الفيلم صور الصلاة والتردد على المسجد ، لأن هذه الأعمال يؤديها معظم الناس كل يوم . . وليس فيها جديد . فإذا رأى هذه الأفلام العربية أحد أبناء أندونيسيا واستنتج من هذا أن العرب لا يترددون على المساجد . فقد ظلم العرب . والحقيقة أن المخرج العربى قد استبعد هذه المناظر المألوفة .

وهذا بالضبط ما فعله المخرج الأمريكى . .

وحكاية التليفون الذى تدبر قرصه عشر مرات . . ليس أكلوبة سينمائية .

فأنت تستطيع أن تطلب أى أمريكى فى أمريكا من نفس التليفون الذى أمامك .
فى استطاعتك أن تطلب بغداد من أسيوط فى ثانية . لقد جربت هذا عدة مرات
فقد كنت أطلب سفارتنا فى واشنطن من هوليوود فلا تكاد تمضى لحظة حتى
يكون أحد موظفى السفارة على الخط وبصوت واضح جداً . . وبعض المكالمات
هنا شخصية : فتطلب صديقاً مثلاً ولا تجده فى البيت ، فتحولك عاملة التليفون
على مكتبه فلا تجده ، فتحولك على المعمل أو النادى فلا تجده . . وبعد ذلك
لا تدفع مليماً واحداً ، لأن هذه المكالمة كلها شخصية . . أى من شخص إلى
شخص !

وحكاية اللبان الأمريكى . . هذا اللبان هو من غير سكر ، وهو مفيد للأسنان
فعلاً . . وقد قرأت بحثاً طبيياً عن بعض اللبان . . وأنا تعودت مضغ اللبان . .
ولكن سأعدل عن المضغ قبل عودتى إلى القاهرة ، فليس شيئاً لطيفاً عندنا .
ولاحظت أن اللبان يجعل الإنسان أقل توتراً . . لا يجعله عصبياً . . وقد رأيت
فى التليفزيون هنا أحد علماء النفس يتحدث إلى أحد مرضاه . . وقد بدا المريض
عصبياً . . فطلب منه الطبيب أن يأخذ قطعة من اللبان . . فأخذها بعد تردد
وارتاحت أعصاب المريض بعض الشيء وأشهد أن هذا لم يكن إعلاناً عن أى نوع
من أنواع اللبان .

والتليفزيون هو الآخر يصور الواقع . . وإن كنت قد رأيت فيه أخيراً
شيئاً يضايقنى جداً . إنه شئ واقعى ولكن الإنسان لا يجب أن يراه . . لقد
رأيت أحد رعاة البقر يضرب والده . . يضربه ويوقعه على الأرض ويحاول قتله . .
يحاول قتل والده ! ! .

منظر بشع وأعتقد أن الأفلام البريطانية تحذف هذا النوع من العنف بالنسبة
للأب والأم وتمنع ضرب الزوج لزوجته أو العكس . .

وقد سألت أحد الأمريكان إن كان هذا المنظر لا يؤذيه ، فأجاب أنه
موجود فى الواقع ، فلماذا لا يظهر على الشاشة . . ؟

إلى هذه الدرجة من «فوق» الواقعية في التليفزيون، وهذه الدرجة من «تحت» الواقعية في السينما ، يذهب الشعب الأمريكي في تسليية نفسه وغيره من الناس . .
وهذا ليس كلام سينما ، وإنما هو الواقع فعلا ! .

وهنا في المكتبات مئات الكتب تروى لك كيف نجح ملايين الأغنياء .
وهذه الكتب ليست ممتعة وليس فيها فن ولا عبقرية . ومعظم الأغنياء ليسوا فلاسفة
ولأدباء ولا يعرفون فن الكلام أو التعبير ولكن شيئاً واحداً تستطيع أن تجده عندهم
جميعاً : إنهم عملوا وصبروا ونجحوا . .

وكما نجحوا في الكويس نجحوا في الشر أيضاً : عصابات وحروب وصهاينة !

● إنه عالم أضرار.. أضرار

الحقيقة أن أمريكا بهرتنى .. رغم أننى رأيت أوروبا عدة مرات وعشت فى آسيا وأستراليا أكثر من خمسة شهور .. بهرتنى فعلاً .. الناس وحياتهم ونظرتهم للنديا !

كل شئ واسع فى أمريكا إلا البنطلونات .. كل شئ موجود فى أمريكا : الطعام والأمن والعلاج والتجارة وفرص النجاح فى الحياة وحب السلام .. كل شئ إلا : الذوق !

فليس عند الأمريكان أى ذوق فى الأكل أو فى اللبس أو تأثيث البيت .. وفى الأكل ذوقهم عجيب جداً .. كل شئ جائز عندهم .. فهم يبدأون الطعام بالبارد جداً وينتهى طعامهم بالبارد جداً .. فى الصباح يشربون العصير المثلج واللبن المثلج. وفى الغداء يسألونك إن كنت تريد شوربة باردة أو ساخنة .. ثم يقدمون لك القهوة أو الشاي مع الأكل .. وكل شئ « منقوع ومزروع » فى السكر أو فى العسل أو فى المربة الحامضة الحارقة أيضاً .. فالصلصة عليها سكر واللحم عليه سكر حتى الخيار مخلل فى السكر أو مسكر فى الخل ، وتستطيع أن تلخبط أى أكل . وقد يتفرج عليك بعض الأمريكان وأنت تضع العدس على اللبن وتضيف إليه بعض الخيار .. وإذا نظر إليك الأمريكان ووجدوك جاداً جداً فى هذه الخبطة ، فن المؤكد أن موقفهم منك سيكون كما يأتى : إذا كان المتفرج فتاة فإنها ستطلب توقيعك وعنوانك ومن أى بلد أنت ، وعن أثر هذه الخلطة

في الصحة ، وهل هي السبب في أن لك أظافر لامعة وشعر أكرت ..؟ أما إذا كان المتفرج رجلاً فإنه يطلب إليك تسجيل هذا الاختراع العجيب على أن يكون هو مديراً للعاية وأن نصيبه خمسين في المائة من صافي الإيراد ..

وأؤكد لك أن هذا يحدث وينجح في أمريكا .. فكل شيء ممكن هنا .. !

أما ملابس الأمريكيان فهي مضحكة جداً .. كل شيء ممكن ارتداؤه في أى وقت .. الألوان الفاقعة جداً ممكنة .. كل أذواق الأمريكيان هنا تؤكد لك أنهم ليسوا من أوروبا وإنما هم من الهنود الحمر . أما بياض الوجه وزرقة العينين وصفرة الشعر فكلها مسائل سطحية جداً .. والمرأة الأمريكية لا تعرف كيف تلبس وتجعلك تدهش كيف أن مثل هؤلاء الفتيات الجميلات السليات الجسم الكاملات الصحة لمن هذا الذوق المريض .. فن الممكن أن تجد المرأة الأمريكية العجوز في ملابس الفتيات الصغيرات ، والفتيات الصغيرات في ملابس العجائز .. ولكن إذا عرفت أن الأمريكيان يعيشون بلا كلفة فالابن ينادى والده باسمه العادى والبنت تعامل أمها كأنها أخت كبرى أو كأنها صديقة .. وإذا عرفت أن أى أمريكي يقابلك فإنه بعد خمس دقائق يكون قد روى لك تاريخ حياته ولماذا هو هنا وما الذى يسعده وما الذى يشقيه .. وبعد ذلك يسأل عن اسمك ثم يتحدثك عن بلدك .. وأنت لم تتكلم كلمة واحدة ويصبح هذا الأمريكي كأنه يعرفك منذ سنوات .. إذا عرفت ذلك أدركت أنه من الممكن أن البنت الصغيرة تدخل في ملابس جدتها والجددة تدخل في ملابس حفيدتها وتخرج الاثنان إلى الشارع ولا يدهش الناس .. فالحال من بعضه !

وحكاية الأزرار التى نراها فى الأفلام الأمريكية يظهر أنها صحيحة هنا جداً .. فقبل رؤية أمريكا كنت أميل إلى الذين يقولون إنها تخريف .. فالمتفرج يضع بالونات فوق رموس المتفرجين فتطير بهم إلى أعلى ولم يكن المتفرجون يشلون شعرهم ولكن البالونات تتولى عنهم ذلك وتطير بهم إلى عوالم غريبة .. عوالم كل شيء فيها يتم بسهولة .. هناك زر تضغط عليه فتطير البنت التى تحبها وتدخل فى حضنك وهى تلهث ولسانها مطبوع عليه كلمة : أحبك ... وزرار آخر تضغط

عليه فإذا بك تضغط على «زمارة» رغبة حمائك فتموت في لحظة .. ووزير للكذب
وآخر للصدق .. ووزير يفتح لك كنوز سليمان .. ووزير للنوم ووزير للأرق ..

وكان كثيرون يقولون إن المخرج ليس حالماً ولا مستخفاً بعقول المتفرجين ،
وإنما هو يلعب دوراً سياسياً خطيراً .. فليست هذه الأضرار إلا حبوباً مخدرة لكي
تشغل الناس عن حاضرهم ، تشغلهم عن مشاكلهم السياسية والاجتماعية ، وتجعلهم
ينامون ويمدون أرجلهم وأيديهم ويحلمون بعالم الغد الذي يبشر به الأمريكان ..
فالأمريكي رجل يحاول أن يذر الرماد السحري في عيون القراء وأن ينقلهم على
بساط سليمان إلى دنيا من ذهب وفضة وحرير ونعيم ليس له أول ولا آخر ..

ليست هذه الأضرار كلها أوهاماً في أمريكا .. فإذا جلست في غرفتك
في الفندق فكل شيء حولك يتحول بزرار صغير جداً .. هذا الزرار يطوق
الثور ويفتح جهاز التلفزيون ويفتح الراديو على المحطة رقم ٣ أو رقم واحد ..
وفي الأسانسير هناك صوت يقول لك : صباح الخير .. وقبل أن تصل إلى
الدور الذي تريده يقترح عليك طبق اليوم والمكان الذي تجلس فيه وأحياناً
يروي أهم الأحداث التي وقعت في نفس اليوم .. وباب الفندق يفتح بمجرد
وقوفك إلى جواره وإذا أشرت إليه أن يقف فإنه يقف .. وفي الأتوبيس توجد
ماكينة حاسبة تضع فيها ثمن التذكرة بعملات مختلفة وهذه الماكينة تفرز العملات
وتضع كل عملة في المكان المخصص لها .. وفي المطعم وفي الشوارع آلات لبيع
السجائر ، السجائر العلب والسجائر الفرط .. اضغط على زرار صغير إن هذا
الجهاز يرد لك العملة إذا أخطأت في الحساب أو إذا تعمدت الخطأ ويرد لك
بقية الحساب إذا وضعت فيه أكثر مما يجب .. وعلى المائدة في المطعم تجد ماكينة
صغيرة تقول لك عن بختك هذا اليوم .. ولكن قبل أن تضغط عليه ضع القرش ..

وفي دورات المياه توجد آلات أخرى فيها كل ما تحتاج إليه .. ففيها مشط
وفرشاة وقطعة قماش لمسح الحذاء ، وفيها فرشاة أسنان وفيها لبان وفيها أسبرين
وفيها صابون .. اضغط على الزرار وضع القرش .. والمطعم الكبير جداً تجد فيه
عدداً قليلاً جداً من الجرسونات إنهم ينقلون إليك ما صنعته الأزرار .. فكل
شيء تصنعه الآلات تصنعه الأزرار ، والأغاني لها أزرار ، والموسيقى لها أزرار ،

والروائح لها أزرار .. الأزرار تفتح لك الأبواب والنوافذ، وتنقل سريرك من جانب الحائط إلى جانب السرير الآخر وترفع لك الحنطة وتنزلها .. لقد دخلت أحد المطاعم هنا ولم أجد فيه جرسوناً واحداً ولكني وجدت الكثير من الزبائن يأكلون ويخرجون .. ضع العملة واضغط على الزرار ينزل لك الطبق الذى تريده ومعه ملعقة وشوكة وسكين وورقة وفاتورة بالحساب وكلمة شكر .. كل واشرب واضحك واخرج .. هذا المحل يعمل ٢٤ ساعة ولم يختف طبق واحد ولا شوكة ولا سكين ، يظهر أن هناك زراراً آخر فى قلب كل زبون .. إنه ضميره !

ولكن أمريكا ينقصها زر واحد مهم . جداً .
وقبل أن تعرف هذا الزرار أرجوك أن تستمر فى القراءة ..

قبل أن تدخل أى مطعم وتشير إلى الجرسونة أرجوك أن تقرأ السطور التالية :
ويكنى أن تنطق الحروف الأولى من أى طعام تريده حتى تجد الجرسونة قد كتبتة ، وبعد لحظات تعود إليك بشئٍ آخر غير الذى طلبته .. وهى تحضره فى « حماسة » وفى جفاف جاويش فى الجيش وكأنك عسكرى « دفعة » ..
وتدهش لهذه الخشونة فتحاول أن تعترض فإذا هى تخرج ورقة أخرى وتكتب لك ما تريد وحالا تحضر لك شيئاً آخر وإذا أبدت أية دهشة لغرابية الطعام كانت دهشتها هى أكثر منك فالأمريكان يدهشون من الناس الذين لا يعجبهم الأكل الأمريكى كأن أمريكا هذه هى الدنيا .

هل عرفت الزرار الذى لم تحترعه أمريكا .. !
إنه زرار الأنوثة .. وأنا لا أريد أن أظلم الأمريكان فقد دللتنا جرسونات اليابان وهونج كونج وسنغافورة .. حتى تعودنا على الركوع والسجود ف شعرنا أننا من نسل الآلهة .. ربما كان هذا هو السبب ..

وهناك سبب آخر .. هو أننى لم أر من أمريكا إلا القليل جداً .. رأيت جزر هاواى ولوس أنجليس وهوليوود واستوديوهات مترو وبارامونت وفوكس ووارنر ووالت دزنى وسان فرانسيسكو .. ومارلين مونرو !

• • •

اليوم هو يوم الشكر فى أمريكا كلها .

إنه اليوم الذى تجلس فيه الأسرة كلها : الأب والأم والأولاد والأحفاد ويشكرون الله على ما أعطاهم من صحة ومال ومن ديوك روى . . . !
وكان الفيلسوف اليونانى أفلاطون يشكر الله على أنه خلقه لإنساناً ولم يخلقه حيواناً ، وعلى أنه جعله رجلاً ولم يجعله امرأة وعلى أنه جعله يونانياً ولم يجعله ممجياً ..
وأفلاطون كان يعتقد أن كل الناس عدا اليونانيين همجيون !
والأمريكان يشكرون الله فى هذا اليوم على ما أعطاهم من كل شئ وخصوصاً على أنه جعلهم من أبناء أمريكا . . . وهم يحتفلون بهذا اليوم منذ مئات السنين أى منذ هاجروا من أوروبا إلى أمريكا ووصلوا إلى الأرض الجديدة بسلام .

وقد استقر المهاجرون فى أمريكا . . . ولكنهم الآن يشكرون الله على المال والصحة والأولاد والجنسية الأمريكية وعلى أموالهم التى تزيد . . . وعلى الطمأنينة التى يعيشون فيها ، والتى يحرصون على أن تبقى كذلك دائماً . . . ولذلك فالأمريكان يخافون من الشيوعية خوفاً جنونياً . . . يخافون من الحرب . . . يخافون على المدن الجميلة أن تنهار ، على الأرض الواسعة أن تتحول إلى معسكرات للسخرة .
يخافون على السيارة الجميلة التى خلقتها المنافسات الحرة ، يخافون على أجهزة التكييف وعلى الفسالات الكهربائية ، على التليفزيون ، على أولادهم ، على حرياتهم على نشاطهم المستمر .

هذا هو الجنون الأمريكى . . . الذى على أصله !

الأمريكان يجب عليهم أن يشكروا الله .. فقد أعطاهم باليدين وجعل السماء تمطر لهم الذهب والفضة . . . ولكن الأمريكان كانوا يملكون أيديهم إلى السماء يلتقطون الذهب والفضة . . . إنهم لم يضعوا أيديهم فى جيوبهم ثم ينتظروا الذهب أن يتحول من تلقاء نفسه إلى عملة وإلى مصانع وإلى حدائق . . . إنهم عملوا الكثير ولا يكفون عن العمل . . . وكل إنسان يعمل يلقي جزاءه المادى . . . أى عمل له ثمن والسلعة المنتشرة والغالية الثمن هنا هى : العمل !

فالحادم مرتبه ١٠٠ جنيه فى الشهر ويصل إلى ٣٠٠ جنيه ، والعامل فى مصنع الصلب مثلاً يصل مرتبه إلى ٥٠٠ جنيه و ٧٠٠ جنيه .
فإنه يستحق الشكر من كل أمريكى . . .

في هذا اليوم تلتف كل أسرة أمريكية حول الديك الرومي وتشكر الله بصورة عملية . . فالدعاء في أفواههم واللحم في أيديهم !

أما الشوارع ففيها مهرجانات . . فالمدينة تزدهن بالأشجار المضيئة على جانبي كل شارع . . فشارعنا - هوليوود بوليفار - طويل جداً ، عريض جداً ، مضئ منذ ثلاثة أيام ليلاً ونهاراً . . ويبدأ المهرجان بمجموعات من الفتيات الحلوات جداً بالشورت الأبيض والقمصان الضيقة القصيرة ، وفي يد كل فتاة منديل أو علم ، وعلى رأسها قبعة تختلف باختلاف كل مجموعة ، ووراء كل مجموعة فرقة موسيقية تعرف أحياناً جميلة . . وبعد كل مجموعة توجد سيارات مكشوفة يركبها ناس . . شبان وشيوخ ، ملكات جمال وملكات وحاشية ، والتصفيق لهم جميعاً والصراخ من الأطفال . . هؤلاء جميعاً نجوم التلفزيون ، والغريب أن الأطفال يعرفونهم جميعاً ويستمعون لهم ولقصصهم . وبعض النجوم كان يرتدى الملابس التي يظهر بها في التلفزيون كملابس رعاة البقر أو البهلوان . . والأغرب من هذا كله أن الأطفال الواقفين إلى جوارى كانوا يقولون : إن فلاناً هذا أقصر مما كنت أتصور أو هذه زوجته الثانية . . وهذا ابنه الذي كان مريضاً !

وبعض السيارات كانت تعرض مناظر من الأفلام المعروضة هنا في هوليوود وبعض السيارات كانت تعرض مناظر من القصة المسلسلة في إحدى محطات التلفزيون .

ويستغرق المهرجان الغنائى الراقص الضاحك المثير مدة ساعتين وتبقى المدن الأمريكية كلها حية ساهرة حتى الصباح ، وتبقى الشوارع مملوءة بالأوراق والقراطيس حتى اليوم الثالث . . فالناس في إجازة !

فاشكروا الله أيها الأمريكيان ، واعملوا على أن يسود السلام في العالم كله ، لينعم بالديوك الرومي التي تلتهمونها اليوم وضدّاً !

● ليلة من نار!؟

لم يعد « هز البطن » من الفنون الشرقية . . .
فكل راقصة تستطيع أن تهز بطنها على أنغام الموسيقى أو بلا موسيقى .
وإذا كانت الراقصة الشرقية قد اختشت وغطت بطنها أو وضعت غلالة
شفافة على بطنها ، فالمهم ألا ترى بشرتها . . . وفي كثير من الأحيان تشكر الذي
اتخذ هذا القرار بتغطية بطن الراقصات - فإن الراقصة الأوربية أو الأمريكية في
استطاعتها أن تتعري تماماً وتنهزها الكباريات فرصة للتنافس على اختصار الأماكن
المغطاة من جسم المرأة . والإعلانات عن هذه الكباريات تقول : إن شجرة التوت
قد أصبحت موضحة قديمة . . .

ومعنى ذلك أن الراقصة التي تهز بطنها أمامك لا تستخدم ورقة التوت . . .
ولنما تغطي بشئ أقل من ورقة التوت . . . ورقة البوستة مثلاً . . .
فورقة التوت هي أضيّق مكان يلتقي فيه الدين والفن معاً !

ففي مدينة بالتيemor وهي تبعد عن واشنطن العاصمة الأمريكية بحوالى ٨٠ كيلو
توجد بها كباريات كثيرة جداً . . . تحت الأرض ، وعلى وجه الأرض ، وفي
الأدوار العليا من بيوت قديمة ، وفوق الأسطح . . . وأحياناً في البلكونات . . . فمن
الممكن جداً أن نجد كباريه في بلكونة ، ويجلس الناس ويقفون في زحام شديد . . .
لا هم جلوس ولا هم وقوف . . . ولا هم في طريقهم إلى الخروج أو في طريقهم إلى
الدخول . . . وأنا مثل لقمة انحسرت في الزور . . . وفي هذا الزحام الشديد تظهر
الأجسام العارية أو « تنفض » هذه الأجسام العارية . . . - « وعلى فكرة

لا يعرفون العطور الجيدة في أمريكا !

أذكر أنني وقفت عند إحدى المكتبات . . ليس في المكتبة أحد . . الكتب كثيرة ولكنها من أنواع غريبة . . وأسماء المؤلفين لم أسمع بهم . . طبعاً لا أستطيع أن أقول : إنني أعرف أسماء المؤلفين في كل الدنيا . ولكن من المؤكد أنني أعرف أسماء أشهر الأدباء في الدنيا . . أو على الأقل أشهر الأدباء الأمريكيان . . أو كل الأدباء الأمريكيان الذين فازوا بجائزة نوبل في الأدب . . لم أجد اسماً واحداً أعرفه . . ومددت يدي إلى الكتب ألقها ، ومن بعيد كانت عين ضيقة ترمقني ، وبادلتها النظرات وانزلت النظرات من العين الضيقة فوق الأنف الطويل ، وهرشت في أنني كأنني أوكد له أن أنني أيضاً طويل .

والجملات التي أمامي كلها جنسية عارية . . أو عارية بلا جنس . . فقط عارية في كل الأوضاع . . عارية تماماً فيما عدا ورقة التوت . . فهذه الورقة ليست في مكانها . . مجلة وراء مجلة . .

واقرب مني الرجل ذو الأنف الطويل والعيون السوداء الضيقة ذات الأهداب الحمراء ، وسألني ما الذي أريده . فقلت لا أعرف بالضبط ، ولكنني ألق في الكتب لعل أجد شيئاً جديداً . وأعاد الرجل نفس السؤال : أي أنواع الجملات العارية أو الصور العارية تريد . فقلت له : ليس من الضروري أن تكون عارية المهم أي شيء جديد .

ونظر الرجل إلى نظرة لها معنى وسألني ، وكأنني فهمت ما يريد أن يقول فقلت له : نعم .

وقال : هل أنت من إسرائيل ؟

وتضايقت . ولكن قلت : نعم . وسألني : وكيف الحياة هناك ؟

فقلت له : زفت . . إياك أن تذهب !

وهز رأسه وهو أكثر اقتناعاً مني : أعرف ذلك . .

ومع ياسي من أن أجد كتاباً جديداً ، هز الرجل رأسه مودعاً . وجلس وتركني أخرج . . ودخلت مكتبة أخرى . . نفس الكتب . . نفس الجملات . . نفس الوجوه . . ومكتبة ثالثة ورابعة . . كلها صور عارية وكتب عارية ومذكرات

فتيات عاريات . . . وشئٌ جديد جداً وهو عناوين وأرقام تليفونات لفتيات حقيقيات . . . شئٌ جديد جداً هو أن صاحب المكتبة يطالب بالعمولة !
وكانت الدنيا مظلمة . . . والمطر بدأ ينزل .

ومحبت الباطل على عنتي . . . وخنقت نفسي بزوار . . . وتحت إغراء الإعلانات الملونة . . . ومشياً في طابور طويل من الناس الذين نزلوا السلام . . . واتجهوا إلى اليمين . . . إلى الشمال . . . إلى أسفل ثلاث أو أربع درجات . . . ثم إلى أعلى سبع درجات وإلى اليمين . . . وانفتح الباب وانفجر بركان من الدم والموسيقى والسجائر والضحكات الهستيرية . . . وعلى مقعد طويل جلست بين رجال ونساء . . . وكأننا على ظهر سفينة . . . فالمكان على شكل سفينة مع فارق واحد هو أن السفينة أمامنا . . . ونحن نجلس بعيداً عنها ، أو بالقرب منها . . . وعلى ظهر السفينة التي أمامنا تدور فتيات عاريات تماماً . . . والناس حولهن في ذهول ويمزقهم الصراخ ، كأنهم في الأدغال . . . كأنهم محرومون . . . كأنهم يرون النساء لأول مرة . . .

وعرفت أن الفرائز تجعل الناس متساوين . . . الجوع يمزقهم . . . والشبع يلدوهم . . . تماماً ككل الناس . . . الغنى والفقير ، الأمريكي الأبيض والأمريكي الأسود . . . والأبيض والأسود اللذان ليسا من أمريكا سواء !

وعلى ظهر السفينة جلست فتاة عارية في طشت من الماء . . . وراحت تنزع ملابسها وتستحم . . . ويظهر أن هذه ليست نمرّة مسرحية . . . وإنما هي تستحم بصابون حقيقي وهي بالفعل في حاجة إلى الاستحمام . . . فقد غير الصابون والماء لون بشرتها !

وكانت حريصة على أن يدخل الصابون فيها ، ثم تبصقه بصوت تجعله الموسيقى قوياً . . . ثم حرصت على أن يدخل الصابون عينيها وتبكي . . . وتأخذ الشهامة أحد المتفرجين فيعطيا منديله، وفي المنديل ورقة مالية ، أو ورقة بها عنوانه ، لا أحد يعرف ولكن لا بد من أن يؤذيها الصابون . . . لا بد أن يرى الناس دموعها ! . شنوذ فظيع ! .

ثم يجيء دور زوج يبحث عن زوجته ، على ظهر السفينة أيضاً . . . ويجدها يتحدث رجلاً أخسر أو تقبله . . . وينهال الزوج على زوجته . . . ويمزق ثوبها . . .

ويترك علامات على جسدها . . . وهنا تتكهرب الصالة . . . ويتكهرب المسرح وتولول الموسيقى ويتفرق الضوء . . . وتظلم الصالة كلها ويظهر رجل خائف تبحث عنه زوجته . . . ثم تجده وتنهال عليه ضرباً حقيقياً . . .

ولابد أن هؤلاء الناس « ينضربون » كل ليلة . . . فهناك علامات على الجسم والوجه . . .

ولابد أن أناساً يجدون لذة في هذا التعذيب لغيرهم ولأنفسهم أيضاً .
وهذه هي « السادية » أى المتعة في تعذيب الغير .

وهذه هي « الماسوشية » أى المتعة في تعذيب الإنسان لنفسه . . .

والناس يدفعون الفلوس لكي يتعذبوا هم أنفسهم ، ويشربوا الخمر وهم يتعذبون ، فهم يبحثون عن العذاب ويجدون لذة كبرى في أن يروا غيرهم يتعذب !
ومثل هذه الكباريات . . . كثيرة جداً أو مثل هذه النمر في الكباريات كثيرة في هذه المدينة وفي كل المدن .

وعندما تلفت حولي وجدت وجوهاً غريبة . . .

وجدت السعادة في وجوه الناس . . . سعادة شاذة . . . سعادة أناس يحسون بالكرابيج تنزل على ظهورهم ووجوههم . . . وعيونهم تطلب المزيد من الضرب .

وبحثت عن ورقة في جيبى وقرأت فيها اسم إحدى دور السينما . ثم انسحبت أنزل وأطلع السلام أتجه يميناً وشمالاً كأننى أمشى في أحشاء حيوان مفترس مات . . . لأن له رائحة كريهة . . . أو في طريقه إلى أن يموت فلا يزال دمه ساخناً وأنفاسه لاهته . . .

وخرجت . . .

ومررت من جديد على أحد أصحاب المكاتب أسأله عن مكان هذه السينما وأشار بيده إلى نهاية شارع آخر . ومشيت في الشوارع . . . وأنا أعرض وجهى لقطرات المطر ، ولبرودة شديدة في الجو . . . وتلفت حولي لعلى أجد أجزخانة فلم أجد .

واقتربت من أحد المشاة أسأل عن أجزخانة ، ولكن عندما اقتربت منه

أكثر وجدته يترنح بشدة ونجست أن أسأل عن الأجزخانة رجلا في حاجة إلى إسعاف !

ومضيت في الشارع والموسيقى تتجدد طول الطريق . . ففي كل مكان كباريه أو حفلة في بيت خاص أو بيت عام . . واتجهت عيني ورأيت أضواء الفلورسنت الصفراء على شكل فستان . . وتحته أضواء النيون الحمراء على شكل جسم بلا فستان . . مفهوم إذن أن هذه السينما للأفلام العارية . .

الصور على الباب عارية . . الأسماء غير معروفة . . الفيلم غير معروف الاسم . . عاملة التذاكر قد ارتدت الفستان الغامق والبالطو . . في غاية الحشمة . . وسلو أنها غير مقتنعة بالصور العارية التي على الشاشة ، أو أن صاحب العمل لم يرغها بعد على أن تنزع ملابسها . .

ولكن لاحظت أن فستانها الغامق له فتحة طويلة جداً . فهي إذن قد تعرت قليلا . . ومعنى ذلك أن صاحب السينما قد فكر في نزع ملابس بائعة التذاكر ثم عدل عن هذه الفكرة في آخر لحظة . . والسينما تعمل ٢٤ ساعة بلا توقف . .

ففي استطاعة أي إنسان أن يدخل في أي وقت ولم أعرف لماذا يدخلها أي إنسان . إنها ذات موضوع واحد وممل وبخيف ولا يمكن للإنسان أن يحتمله إلا عشر دقائق على سبيل الاستطلاع . . وخمس دقائق أخرى في انتظار الموضوع . . وخمس دقائق أخرى في انتظار النهاية . . وخمس دقائق للملاحظة ما يفعله الناس أثناء عرض الفيلم . .

الغريب أن كل المتفرجين من الرجال . .

ولا يوجد اثنان يجلسان متجاورين . كل واحد يجلس وحده . . ويحرص على أن يكون بعيداً عن أقرب جار له بخمسة أو ستة مقاعد . .

أما الأفلام فهي تلور في إحدى مستعمرات العراة . . وهي تبدأ بفتاة عارية تماماً . . وتمشي طول الوقت بالجنب . . أي أنك لا ترى منها إلا جانبها فقط . . أو ظهرها ولا تراها مواجهة أبداً . . وكل حركاتها عبارة عن تحايل

لكى تراها مواجهة . . ولكنها لا تظهر كذلك . . وهى تحكى حكاية من غير كلام . .

مثال ذلك : أنها خرجت من بيتها وفوجئت بسيدة تستدرجها إلى سيارة وفى السيارة تنزع السيدة ملابسها . . ثم تلقى بها فى الماء . . وتصرخ الفتاة . . وينهض رجل لإنقاذها . . هذا الرجل عريان جاهز ، ولا تعرف أين كان . . ويأخذها إلى الغابة ويجلسان معاً . . متجاورين . . لا قبلات ولا عناق . . وإنما حركات بلا كلام ولا صوت . .

أما الكلام والحركات فهما فى صالة السينما . .

وهى حركات مفرقة وأصوات تبعث على الغثيان . . وحتى لا أصاب بشئ من هذا ، فالذى عندى من القرف يكفى المتفرجين فى هذه السينما أياماً كاملة . . خرجت . . وفتحت فى أبتلع قطرات المطر . . ماء من السماء . . أى شئ من السماء .

* * *

وعلى باب السينما قابلت رجلاً . . أعرف وجهه . . أعرف ابتسامته . . قابلته قبل ذلك فى باريس وفى روما وفى لندن . . وفى خرائب برلين وفى بيروت . . وقابلته فى آخر مرة فى طوكيو . . إنه نفس النوع من الرجال يطلب إليك أن تقضى سهرة على النحو الذى يعجبك وفى جيبه صور لفتيات ونساء . . ويؤكد لك أنهم أجمل فتيات المدينة . . وأنهن لسن محترفات ، وإنما هن فتيات من صاحبات المزاج . . ويشير : هذه سمراء من إيطاليا . . وهذه من أسبانيا . . وهذه من السويد . . وهذه من أصل زنجى . . وهذه لم تعرف الشقاوة إلا من أسبوع . . لقد خدعها أحد البحارة فقررت أن تنتقم منه ، بأن تعطى نفسها لأى إنسان . . أى إنسان . . وهذه من تركيا وهى لأسباب سياسية خرجت من تركيا فهى لا تحب كمال أتاتورك ، وهو لا يعرف أن كمال أتاتورك لم يعد له وجود من عشرين سنة . . وهذه ابنة غير شرعية للملك فاروق . . وهذه صديقة لأحد أصحاب الملايين الذى أضاع أمواله على جريتا جاربو ، ثم فضل هذه الفتاة على الممثلة السويدية . . وهى معلومات لا بأس بها ، وطريقة مثيرة لتسويق هذه المحوم البيضاء . . أو هذا الرقيق

الأبيض . ولما لاحظ الرجل ضيقى وقرى ، ويبدو أنه قد اعتاد شكلى أنا أيضاً . فأخرج من جنبه ورقة مكتوباً عليها اسم كافريا . . . وسألته أين توجد . فأشار إلى شارع قريب . . . وإذا رفضت أن أذهب إلى الكافريا فإنه سيعطينى عنوان إحدى شركات الأتوبيس أو أحد الفنادق . . .

المهم أن هذا الرجل إعلان متحرك عن عدد كبير من السلع وهو ينادى عليها ويبيعها بحماس متعادل . . . وإخلاص واضح . وربما كان هذا هو الإخلاص الوحيد الذى رأيت فى تلك الليلة . !

وفى الكافريا وجدت عدداً من الناس قد تجاوزوا فى جلوسهم دون أن ينطق واحد منهم بكلمة . . . أمام كل واحد كوب كبير من اللبن . . . وبعضهم يأكل السنونشات ولكن أحداً لا يتكلم . . . واقتربت وهزرت رأسى ، على غير العادة الأمريكية . . . ولم أكد أجلس حتى وجدت أمامى كوباً من اللبن . . . اللبن بارد . . . ورشفت منه القليل . . . لقد كان دسماً . . . شديد الدسم . . . وبلا سكر . . . وسألت إن كان يمكن أن يضع لى فى اللبن بعض القهوة . . . وهز الرجل كتفيه يقول : على كيفك .

وسألته : إن كان هذا اللبن لا تناسبه القهوة . . . فعرفت أن القهوة لها لبن أخف دسماً . أما هذا اللبن الذى لا أعرف قيمته فهو وجبة غذائية . فالقهوة يجب أن أشربها بعد ذلك . . . وإذا لم أصدق ذلك . فمن الواجب أن أنظر إلى الإعلانات الملتصقة فى داخل الكافريا التى تؤكد ارتفاع نسبة الفيتامينات فيه . . . كل أنواع الفيتامينات ، ولاحظت أن معظم الجالسين إلى جوارى بلا أسنان . . . إنهم يتشاءبون فتصبح أفواههم مثل أفواه السلحفاة . . . عبارة عن حفر سوداء وصفراء . . . بقايا أسنان . . . أو بقايا تجاويف كانت بها أسنان . . . مقابر أسنان . !

وأدركت أن هؤلاء يشربون اللبن ، لأنهم لا يستطيعون أن يأكلوا أى شئ آخر . . .

وتمنيت لو طلبت منه عود قصب ، لكى أمصه بأسنانى مؤكداً لهؤلاء الناس أن أسنانى سليمة . . . وأن الغربية وجهلى بالمدينة ، هما اللذان جعلانى أذهب إلى هذا المحل . . . ورغبتى فى أن أبين لهم أننى صاحب أسنان ، تدل على أننى

شعرت بشئ من الهوان أو شئ من الإهانة ، وأن حرصى على أن أبدو أحسن منهم يؤكد أن أبحث فوراً عن رد اعتبار . . .
وجاء رد الاعتبار فوراً . . .

ودخل واحد وتحدث بالفرنسية التى لم يفهما أحد . وطلب بعض اللحم المشوى وبعض القهوة السادة . . ولم يفهم صاحب المحل . وتقدمت أترجم له :
وتطلع لى صاحب المحل يسألنى إن كنت فرنسياً أنا أيضاً . فأكدت له أننى لست فرنسياً ، أى أنه ليس من الضرورى أن يكون الإنسان فرنسياً ليعرف الفرنسية . .
فأنا لست أمريكياً ومع ذلك أتحدث الإنجليزية وأقرأ بها مئات الكتب أحسن منك . إن هذا البائع الأمريكى قد قذف بكوب اللبن أمامى ، كأنه يلعب هاندبول . . بلا ذوق ولا أدب ودون أن يرى منى غير يدى . . لم ير وجهى . .
لم يسألنى . . ثم أنه رأى أصابع يدى كأنها شفاه مفتوحة عطشى . .

ونبهت الرجل الفرنسى إلى أنه يجب أن يجلس . . لأننى أشك فى قدرته على التقاط كوب اللبن أو فنجان القهوة إذا قدمه صاحب المحل . وبدت الدهشة على وجه الفرنسى وظللنا نتحدث عن الجوى . وصاحب المحل ينتظر أن يجد الفرنسى مكاناً ليرميه بفنجان القهوة . وأخيراً طلب منى أن أفسح له مكاناً . . وأفسحت له مكاناً . . وطار الفنجان على حجر الفرنسى . . وسقط على بنظونه الرمادى . .
وانسحبت وتركت الفرنسى يلعن آباء هذا الأمريكى دون مترجم !

وعندما خرجت وجدت نفس الرجل . . ذلك الإعلان المتحرك يعرض أسماء عدد من الفنادق المريحة . . أو المطاعم التى يمكننى أن أتناول فيها غذائى فى اليوم التالى . .

وقد زاد من قرفى حماسه الشديد . . .
ولا أعرف بالضبط ما الذى أغاظنى فيه . . ربما كانت «آليته» أى تحوله إلى آلة . . إلى شريط مسجل . . إلى شئ ليس فيه إنسانية . . ولا كرامة . .
أو لأنه لا يتعب ولا يقرف ولا يميل . . فكأنه بذلك يحتقر تعبى وملى ، أو أنه يهون من قيمة كل ما أشكو منه . . فهو يعمل . . طبعاً هذا عمل . . ليلاً ونهاراً . .
بلا تعب وبحماس شديد . .

أما ما الذى يعملهُ فهو موضوع آخر !

● حكاية بالطول!

وأنا جالس في المطعم بالمقعد المواجه للبنك الدولي في مدينة واشنطن ، تذكرت قصة للأديب الروسي تشيخوف . . والقصة لها دلالة خاصة . .

ففي قصة تشيخوف يروي حكاية طفل وحيد ذهب لطبيب يشكره على أنه أنقذ حياته ، ويقدم له تحفة ثمينة عبارة عن تمثال من البرونز لامرأتين عاريتين بينهما شمعدان ، والشمعدان له معنى مثير ومقصود في القصة . ويرفض الطبيب في أول الأمر . ولكن أمام إصرار الطفل الذي يوافق . . ولا يدرى أين يضع هذا التمثال . فالعبادة يدخلها الرجال والنساء . . ثم أنه زوج وله أولاد . . ولا يعرف ما الذي يقوله لهم . . ثم إن التمثال ليس صورة يمكن وضعها وإخفاؤها في أى وقت . . .

ويبدى الطفل أسفه ، وأسف والدته ، على أنه كان من الأفضل أن يأتى له بتمثال آخر شقيق لهذا التمثال . . لولا أنه لم يجد من كل ما تركه أبوه من التحف الفنية غير هذا التمثال .

ويخرج الطفل ويقرر الطبيب أن يهدى هذا التمثال إلى صديق له . . ويذهب إلى صديقه المحامى ويعطيه التمثال في إحدى المناسبات ويصر على موقفه . وصديقه يرفض لأنه هو الآخر يخشى من الزبائن . . ويخشى ما سيقولونه عنه إذا رأوا هذا التمثال العريان الفاجر . .

وأخيرا يوافق المحامى وفي ذهنه أن يعطيه لصديق يعمل ممثلا . . ويقول إن

الممثل لا يهم كثيراً بمثل هذه التماثيل العارية . . . ففي حياته نساء وخر وحفلات أكثر فجوراً من هذا التمثال . . .

ويذهب إلى صديقه الممثل . . . وتكون مفاجأة . فالممثل يرفض هذا التمثال . . . فهو وإن كانت حياته عريانة إلا أنه يريد أن يبدو محترماً . فإحساسه بأنه فاجر يجعله يبالي في الاحتشام أمام الناس . . . ولكن الليلة تمضى والنساء يضحكن والرجال أيضاً . . . ويخفى الممثل هذا التمثال . وفي نيته أن يبيعه لسيدة صاحبة دكان التحف الفنية . . . إنها أم هذا الطفل ! ! .

وفي الصباح يذهب إلى السيدة ويبيع لها التمثال . . . وتشكره السيدة على هذا التمثال الذي كانت تحلم به من وقت طويل . . .

وفي المساء يدخل الطفل عيادة الطبيب وفي يده ورقة ملفوفة ويقول له : لا تعرف مدى سعادتي . . . أنت أنقذت حياتي . . . وأنا الابن الوحيد لأمي . . . وأمي بعثت لك بهذا التمثال الذي هو شقيق للتماثيل الذي عندك .

ويغنى على الطبيب !

* * *

اليوم ذهبت أشتري بالطو مطر .

دخلت أول محل . وكان في نيتي أن أدخل أى محل آخر ، إذا لم تعجبني البضاعة . وهذا قرار نادر لا أعرف كيف اتخذته . فأنا من الذين إذا دخلوا أى محل فلا بد أن يشتري أى شيء . لا بد . لأنني لا أستطيع أن أناقش وأفاضل . مستحيل وقد اكتسبت هذه العادة - عادة الشراء في أول لحظة - من سنغافورة وهونج كونج . فهناك يوجد كل شيء في الدنيا ولا يمكن أن تطلب شيئاً لا تجده . يستحيل ، فأمام المستحيل ، كنت أشتري أى شيء .

واستقبلني أحد الموظفين وعرف أنني أريد بالطو مطر . وسألني من أى نوع ، فلم أحاول استعراض معلوماتي القليلة في البلاطى . فقلت وأنا أضحك وأدارى جهلي : بالطو للقيام برحلة للقطب الشمالى . . .

وضحك الرجل وهو يقول : موجود . . .

ومن الممكن أن يكون هذا النوع من البلاطى موجوداً . . . فالقطب الشمالى

ليس بعيداً عن هنا . . . يعني ليست هذه نكتة تستحق الضحك من جانبي !
ورحت أقلب في البلاطى . . الأبيض والأسود والجلد والصوف . . والقصير
والطويل والذي له جيوب من الخارج والذي له جيوب من الداخل . . والذي
بمائة جنيه ، والذي بنصف وربع هذا المبلغ . .

ووجدت الباطو المناسب . وكلمة المناسب رددتها وراء البائع بعد أن رأيت
منظرى فى المرأة . . وبعد أن قلت : والله خسارتك . . لو كان معك مليون
دولار فقط ! .

ولفت الباطو القديم الذى كان معى فى ورقة وقبل أن أخرج من باب
المحل ألقىته بالقرب من الباب وتظاهرت بأن شيئاً لم يحدث . . وانجهدت بعيداً
عن المحل ليستوقفنى أحد موظفى المحل ويعطينى الباطو ولا ينتظر أن أشكره . .
ومعظم سكان واشنطن من الزوج . . إنهم أكثر من ٨٠٪ من السكان . .
فواشنطن العاصمة يحكمها رئيس الجمهورية شخصياً . ولا يوجد بها أى تفرقة
عنصرية . . وتوجد بها كل السفارات الأجنبية . . فالزواج هنا فى حماية
الدستور . . وكلهم يرتدون بلاطى أحسن وأفخم من الباطو المناسب لى . .

وظللت أبحث عن مكان ألقى فيه بهذا الباطو وأخيراً وجدت . . رأيت سيارة
طويلة عريضة واقفة على جانب من الشارع . . ولا أحد ينظر ناحيتى . . الناس
كلهم فى حالهم . . يدبدبون فى الأرض . . وكل واحد منهم ينظر إلى فوق كأنه
ينظر إلى ذبابة وقفت فوق أنفه .

وبحركة رشيقة ألقىته بالباطو تحت السيارة . . ووقفت إلى جوارها . .
وثلفت بنفس الرشاقة فلم أجد أحداً . . ورحت أتطلع إلى اللافئات هنا وهناك . .

ومشيت بعيداً لتلحقنى سيدة عجوز لعلها لاحظت أنى أثناء قراءتى
للافئات لم أتبه إلى أن الباطو سقط . . وشكرتها وخجلت منها .

وذهبت إلى المطعم الذى يواجه البنك الدولى . .

وعندما دخلت المطعم لم أجد به أحداً . . وإنما وجدت الجرسونات ، شغولين

جداً .. وأول شيء فعلته هو أنني تركت البالطو القديم بجوار الباب ، على مقعد .. وجلست على أبعد مقعد من الباب .. وطلبت قديماً من الشاي وبعض السندوتشات ولكني حمدت الله أنني تخلصت من هذا البالطو الذي يرفضه أى أمريكى ..

وقلت لنفسى ربما كان السبب فى رفض هذا البالطو أنه من اليابان ، وأن العلاقات بين أمريكا واليابان هى الاحتقار المتبادل .. فالأمريكان لا يزالون يحتلون اليابان .. واليابانيون يحاولون أن يتحرروا منهم .. بل إن اليابانيين رفضوا وبإصرار أن تحتل اللغة الإنجليزية ولو مكاناً صغيراً جداً من أفواههم أو آذانهم .. ولقد عانيت الكثير جداً فى العثور على واحد ، فى أى مكان ، يتكلم الإنجليزية .

ولكن على كل حال لقد تركت البالطو فى مكان أمين .. ولا بد أن يعثر عليه أى إنسان ولا يهمنى ما الذى سيفعله به .. قد يحرقه .. قد ينزع العبارة المكتوبة عليه : صنع فى اليابان .. ثم يرتديه بعد ذلك .. على أساس أن المطر والبرد والعواصف لا تفرق بين يابانى وأمريكى .. وبين صناعات يابانية وصناعات روسية . !

وبارتياح شديد .. ولذة واضحة شربت الشاي ورفضت ما تساقط من السندوتش على البالطو الجديد .. الذى لا يشعر أحد أنه جديد إلا أنا ، ولا يعرف أحد أن ممته يساوى ستين جنياً إلا أنا .

ولمحت بعينى منظر البالطو اليابانى وهو يشبه جلد حيوان سلخوه .. ثم تركوا الجلد فى انتظار سيارات الإسعاف ، كما يحدث عندنا فى عيد الأضحى عندما يمر سيارات الإسعاف تجمع جلود الضحية !

ودخلت سيدة وظننتها لأول وهلة أنها نفس السيدة التى التقطت البالطو قبل ذلك .. ثم دخل رجل .. وجلس إلى جوار البالطو .. وسقط البالطو على الأرض فوضعه فى مكانه .. وكنت قد فرغت من الطعام .. ونهضت وتفاديت بحركاتى ونظراتى أن أقرب من البالطو .. ونادانى أحد الجرسونات ونهبنى إلى أنني نسيت

البالطو . . فقلت بلهجة جادة جدا : لست في حاجة إليه !

وتفاديت نظرتة وأخفيت رأسي في البالطو الجديد، واختفيت أنا بين الناس . .
ويظهر - وهذا أكيد - أن الجرسون لم يستمع بوضوح إلى ما قلته فلحقني
وأعطاني البالطو . . وحملته على ذراعي . . وقررت أن آخذه معي إلى الفندق .

وفي الفندق أعطيته للسيدة الزنجية المعجوز ونظرت إليه باحتقار ضايقتني فقلت
لها : إن هذا البالطو أثرى جدا . . لقد كان هدية من إمبراطور اليابان . . ومكتوب
عليه أنه مصنوع في اليابان !

ويبدو أنها لم تهوش من هذا الكلام . . فأخذت منها البالطو وألقيته على
أحد المقاعد . .

وانتهت حكاية البالطو الذي اشتريته من الهند، وهو صناعة يابانية . . وأخذته
معى وأنا مسافر إلى استراليا . . ونسيت أن أبيعته في استراليا وأشترى بدلا منه
بالطو جديداً . . وظللت أحمله على ساقى من استراليا إلى أمريكا خوفاً من أن
أضعه في إحدى الحقائب فتحاسبني شركات الطيران على وزنه . . وتكاليفه
وزنه يساوى ثمنه عدة مرات !

ومن نافذتى نظرت إلى شوارع مدينة واشنطن . . إنها هادئة . . والبيوت فيها
على الطراز الإنجليزي القديم . . وهى شبيهة بمدينة كانبرا بإستراليا . . والشوارع
فيها أهدأ . . والأضواء فيها خافتة . . والألوان باهتة . . كأنها ليست أمريكية . .
وأحسست أننى أعطيت لعينى أجازة . .

وفجأة « لعلت » الدنيا مرة واحدة . .

وعلى فكرة كلمة « لعلت » مأخوذة من كلمة « اللعل » وهو نوع من
الياقوت الأحمر . . والأنوار كانت حمراء . . وعلى درجات . . وبأحجام مختلفة . .
وسألت عامل التليفون عن مصدر النور الذى أضاء كل المنطقة فجأة . .

وبسرعة مجنونة قال لى عامل التليفون : إنها حريقة . .

وقبل أن أقفل السكة سمعته يقول : هنا . . الحريقة هنا . . وفتحت النافذة
وألقيت بالطو . .

وحملت حقائبي التي كانت مقللة . . وتركت أمواس الخلاقة والصابون
وزوجاً من الأحذية ونزلت السلالم بأقصى سرعة . .

وفي الشارع ، وأمام الفندق وجدت الجرسون في انتظاري ومعه الفاتورة
والدموع في عينيه ومعه بالطو . . ولحسن الحظ أنه بالطو آخر !

● درس في الكراهية!

منظر نيويورك من الجو لا يمكن أن تنساه . .
فكلمة نيويورك لها معنى خاص للذى لم يرها بنفسه . . وإنما رآها فقط في
السينما . . فهي مركز القارة الأمريكية . . مركز الذهب . . وفيها خمسة ملايين
يهودى . . وهى مدينة . . عليها عفریت . . ألف عفریت . . وهؤلاء الناس
المجانين هم الذين يتحكمون في العالم كله .

وهذه البيوت العالية . . التى تنطح السحاب . . سواء كان السحاب موجوداً
أو غير موجود . . عبارة عن أشجار من حديد وصلب في غابة مخيفة اسمها
نيويورك . . غابة يأكل فيها الإنسان الصغير جداً ملايين الناس في أى مكان بجرة
قلم أو بجرة قدم . . أو نعمة عين . . هنا أناس يتحكمون في ملايين الناس في
أركان العالم الأربعة . . هنا الناس الذين يتاجرون في الحروب ويتاجرون في
السلام . . هنا أناس صناعتهم الكراهية . . لأنهم يصلدون الكراهية لكل مكان
ومجاناً . . لأنهم لا يريدون للإنسان أن يهدأ ، لأنهم يريدون للإنسان أن يموت
محارباً ويعيش محارباً . .

لأن الحرب معناها صناعة الأسلحة وترويج الأدوية . . واضطراب الأعصاب
يؤدى إلى أن يضغظ إنسان على زرار في طائرة لتنفجر قبلة خطأ وتقوم الحرب .
وفي أثناء الحروب يبيعون ويشتررون من أى مكان . . من أى طريق . .

اليهود يحكمون نيويورك ونيويورك تحكم أمريكا وأمريكا تحكم الدنيا . .

اليهود لاوطن لهم . . . ولذلك يريدون أن يهدموا كل وطن . . . وكل قومية . . . وهم حاقدون على أى دين وأى جنس . . . وهم يريدون أن يشغلوا الناس عنهم وهم الذين يملكون الفلوس وأجهزة الإعلام فى أمريكا . . .

وهم وحوش البشر . . .

يكنى أنهم لا يريدون السلام . يكنى أنهم تجار الدماء والشرف . . .

منظر نيويورك من الجو عبارة عن سهام مرفوعة . . . عبارة عن صواريخ منصوبة إلى أعلى . . . إنها شئٌ يخيفك ولكنك إذا أحسست أنك لا تستطيع أن تحبه ، فأنا أهنتك لأن هذا هو إحساس صادق . فحتى عندما تنزل من الطائرة لا تستطيع أن تحب هذه المدينة . إنها تتحداك . . . إنها تحترق . . . إنها لا تدرى بك . . . لا هى ولا سكانها ولا أحد فيها يدري بأحد . . . المطار الذى اسمه الآن مطار كنيدي ، وكان اسمه ايدل وايلد هو من أكبر مطارات الدنيا وأكثرها ازدحاماً ونظماً . . . ومن الممكن أن تضيع فيه بسهولة، ولا تهتدى إليك أحد . . . ولا تهتدى أنت إلى أحد . . .

المطار اسمه كنيدي وهو الرجل الأمريكى المسلم الذى قتله يهودى . . .
وهذا القاتل قتله يهودى أيضاً !

لم يكن من السهل أن أجد فندقاً . فالفنادق هنا مرتفعة الأسعار جداً . والحياة من نار . والنار إذا أراد إنسان أن يشعلها فى نفسه فإن هذا يكلفه الكثير جداً . يكلفه أولاً ثمن النار، ويكلفه غرامة لإزعاج الناس . . . ويكلفه تهديداً بإحراق فندق من مائة دور ، وهذه الغرامة يجب ألا تدفعها لإحدى شركات التأمين . . . وقد تكون محاولة الانتحار هذه معناها الهرب من التاكسى الذى نقلك من المطار إلى الفندق . . .

كل شئٌ هنا غال جداً . . . ومع ذلك فالحياة أرخص من الموت ! .
وحمدت الله أن استضافنى أحد الأصدقاء . . .

بيته صغير جداً . ولحسن الحظ كان على خلاف مع زوجته . فأنا الآن سأنام فى سريرها . وتركت له ولديها الاثنيين . ويكنى أن أنام فى بيت هذا الصديق لأوفر عشرين جنيهاً فى اليوم الواحد على الأقل . . .

أما الطعام الذى كنت أتناوله فهو ولا شك فضل منه وكرم . .
فى الصباح تناول الشاى مع اللبن والبليلة . .
وفى الظهر كذلك مع البطاطس الجافة . .

وفى الليل بلا بطاطس ولا بليلة . وهى ولا شك غالية التكاليف . . ويستحق
هذا الصديق على كل هذه الوجبات الكثيرة كل الشكر وكل الاحترام والامتنان
وبعملية حسابية وجدت أننى فى عشرة أيام فى نيويورك قد كلفت صديقى
هذا حوالى ٢٠ جنيها ووفرى هو أكثر من ٣٠٠ جنيه . . نعم مائة جنيه مضروبة
فى ثلاثة !

حتى لو كان السرير الذى أنام عليه ليس مريحاً . . وأن بعض ألواح
السرير مكسرة مما يقطع بأن العلاقات بين الزوجين فى الأيام الأخيرة لم تكن
على ما يرام ، يشهد بذلك بعض ضربات على جانبي وجه صديقى هذا ، لكن
هذا السرير الرخيص المحبب يساوى أفخر جناح فى فندق والدروف استوريا
الذى أعجبت به جداً ، عندما مررت به صاعداً هابطاً أحبي الجرسونات كأننى
أعرفهم أو كأنهم يعرفوننى بسبب تحيأتى الطويلة التى عدلت عنها لأسباب
اقتصادية . . ولكثرة وجود سعوديين وكويتيين فى الفندق فى تلك الأيام !

شوارع نيويورك متشابهة . . وكلها متقاطعة . . ولها أرقام . . والمشى فيها
ليس متعة . . وركوب السيارة ليس متعة . . ولا توجد بها أية متعة على الإطلاق .
وربما كانت المتعة الوحيدة هى أن تدخل المحلات . وتفرج . وهنا تشعر بألم
خفيف فى أعلى الصلر إذا لم تكن تفهم فى الطب فهو على كل حال أعراض
وجع قلب . وهذا الوجع سببه الحشرات التى تشيلك وتهبك لأنك مفلس فى
نيويورك ، مفلس فى مركز ملايين الملايين . .

ولا بد أن تبقى فى نيويورك بضعة أيام لتعرف أنك لن تتحسر طويلاً . كل
شئ موجود وبأسعار معقولة . . فى المحلات الكبيرة جداً توجد بضائع قديمة . .
بضائع فيها عيوب . . فستان فيه ثقب فى حجم هذه النقطة . . أو بالطوم من غير
زراير . أو جزمة بها خربشة قطة . . أو كرافتة سقطت عليها سيجارة . . أو بدلة
بها بقعة لا تخرج بسهولة . .

وأنا أنصحك إذا ذهبت إلى نيويورك واشترت بعض هذه السلع ، فلا
تشتري الكثير منها فربما تقع على الأرض وتزحلق . . ولو وقعت فلن تمتد لك يد
واحدة . . تماماً كما يفعل بعض حكام كرة القدم عندما يسقط اللاعب في منطقة
الجزاء حتى يحتسبها الحكم ضربة جزاء . . فهم في نيويورك مشغولون بشئٍ أهم
منك . ولا يمكن أن تكون أنت ، أيا كنت ، أهم من الفلوس ، والنظر إليك
وسؤالك عن صحتك وعن الذي أصابك ، تضيق للوقت الذي هو من ذهب !

سمعت هنا عن سيدة حامل وقعت على الأرض على أثر دوخة أصابها
فلم تمتد لها يد ، ومعظم الأرجل كادت تمتد لها وتصطدم بها لأنها تعترض
الطريق العام . ولكن طفلاً صغيراً لم يتحول بعد إلى مواطن نيويورك
أصيل ، وقف إلى جوارها ولفت نظر الناس لها . ومضى الناس في طريقهم . .
وتساندت هي على الجدران ووقفت . . وتلفتت لتشكر الطفل فوجدته يمسح دموعه
على خده . . إن أم هذا الطفل قد عاجلته بصفعة شديدة لأنه تركها وانصرف عنها
لشيءٍ تافه !

وأنا أصدق هذه الحادثة . .

وكل يوم أجد طعم نيويورك مرّاً على شفتي . .

وأحس بما أصاب أوسكار وايلد عندما دخل ميناء نيويورك وسأله : هل معك
شيء ممنوع ؟ فقال : عبقرتي !

والشيء ممنوع الذي أحسست به هو إنساني . . أى مجرد أنتى إنسان .
لا يمكن أن تحس بأنك إنسان . . وإنما تحس هنا بأنك إنسان في طريقه إلى
النهاية . . بأنك مهدد في إنسانيتك . . بأن واحداً من هؤلاء الملايين قد اقترب منك
ونشل منك إنسانيتك . . ولكي يقلد أرسين لوبين ترك لك بطاقة . . وهذه البطاقة
تضعها في منحك وأنت تمشي كأنك نائم . . ومكتوب على هذه البطاقة : عش
في قرف !

هذا القرف جعلني أكره نيويورك . .

وأحقر جوها وأهلها . . مع أنني لا أعرف واحداً منهم . . وإنما جوها هو
الذي جعلني أكثر قرفاً وسخطاً وأتمنى أن أمسك ورقة وقلماً وألن الأيام التي
حملتني إلى مدينة كلها تصدك . . كلها تردك . . كلها تفصعك . . جدرانها
حديد وشوارعها حديد وأهلها صلب . . باردة جامدة . . إنها تنحيك عنها . .
إنها لا تريدك أن تلمسها . .

إن جوركي معذور عندما جاء إلى نيويورك وخرج منها بقصة واحدة اسمها
« الأم » هي عبارة عن منشور ثوري ضد الرأسمالية . !

وأحسست بما أحس به بطل مسرحية « القرد الكثيف الشعر » للكاتب
الأمريكي أونيل . إن بطل هذه المسرحية نزل ميناء نيويورك . . كل شيء
فيها لا يعبأ به . . كل شيء لا يريده . . كل شيء ليس في حاجة إليه . . كل
شيء يبصقه كأنه نواة . . كأنه قشر لب . . كأنه مسبار في جزية . . كأنه
ذبابة . . مع أنه شيء . . مع أنه هو الذي صنع نيويورك . . فهو الذي يعمل في
السفن . . وهو الذي يضع الفحم في الفرن والفرن يطلق البخار والبخار يدفع السفن
بكل ما حملت . . فهو أسود كالفحم ، وهو لزج كالزيت ، وهو حديد
كالآلات . . وهو صانع الآلات والتروس وهو الذي يعيش ويموت منبوذاً كأنه
زنجي . . مع أنه أبيض . . ولكنه أبيض حقير . . فهو أبيض زنجي !

وكان بطل هذه المسرحية يدق الجدران بيديه . . ويدقها بنظراته أيضاً . .
وتبقي نيويورك كما هي . . نوع من اللامبالاة الشاهق . . نوع من الاكتراث
الذي ينطح السحاب .

وعندما أعود إلى البيت ، أمسح عيني أمام قنوات التليفزيون وأثناء
بين البرامج . . وأنا وأنا أحاول أن أتذكر أياماً هادئة ناعمة أمضيها في مدينة
هوليوود وأنا أتحسر على أيام جزر هاواي !

الليلة كانت رأس السنة . .

كل شيء يدل على أن حادثاً غريباً سيقع . . العرب يتحدثون عن الفول
المدمس والملوخية والكشك والطعمية . وهي أطعمة لا يأكلها الإنسان عادة بهذه

الكثرة إلا إذا سافر خارج القاهرة . فالجاليات العربية تقدمها على أنها أغلى ما عندها !

وإمعاناً في المحاملة كنت أجد لها طعاماً مختلفاً عن طعامها في القاهرة . وأتهم ذاكرتى . وأقول إنها هنا مختلفة . وإنما في القاهرة شئٌ آخر . . والحقيقة أنها في القاهرة أحسن لأن سيدات السلك الدبلوماسى لا يعرفن الطبخ . ونظراً لصعوبة نقل هذه الأطعمة مطبوخة في الحقائب الدبلوماسية فلا بد أن يقمن بطبخها ، والمحاملة وحدها هى التى تتولى بلع الظلط الصغير الذى يقرقش في الطعمية وذرات الرمل التى هى عبارة عن جثث سوس عندما نكتشفها في الفول .
وهناك حركة غير عادية في المترو تحت الأرض . .

والمترو في نيويورك هنا شئٌ مزعج . . فهو سريع جداً وله ضوضاء شديدة . . والناس ينزلون في صمت ويصعدون في صمت . . وعلى وجوههم كآبة قائمة أو نائمة .. ويبدون أنهم بدأوا يوقظون هذه الكآبة استعداداً لقبلة رأس السنة .

وقبل موعد هذه القبة بنصف ساعة كنت أقف أمام « راديو سبتي » أعظم معالم نيويورك . . وعلى رأسى طرطور وفي يدي مزاروفى فى بعض اللبان الذى يجعلنى أشعر بشئٍ من « الأمركة » . . وكأى عبيط أزمر وأنفخ حتى لا أبدو شاذاً بين الناس أو غير مهمت بنهاية عام وبداية عام آخر . .

ولاحظت أنه من الممكن أن يشعر الإنسان بأنه سخييف جداً ، ومع ذلك لا يستطيع أن يمنع نفسه من الاستمرار في هذه السخافة . . وزمرت سخافتى ، وطلبت سخافتى ، وفي لحظات صرت من أصحاب السخافة . . ومعى مائة ألف نسمة في هذا الميدان !

ولا أعرف كم مضى من الوقت . . وأنا على هذه الحال . . ونسيت تعبي . . واقتربت من أحد أعمدة النور أو التليفون . . عمود والسلام . . وركنت ظهرى لأستريح . . وكان للعمود أصابع ناعمة امتدت واحتضنتنى . . وقلت في نفسى :
يجوز . . فنحن في بلاد العجائب . .

واستدرت لأرى إن كان هذا صحيحاً . .

وهنا اكتشفت أن البالطو الجميل الذى اشتريته من أيام قد التصق بالعمود
التصاقاً تاماً . . ولا ينقص البالطو والعمود إلا قسيس يعلن زواجهما وارتباطهما
إلى نهاية الحياة !

وعلى العمود مكتوب أن هذا العمود مخصص لإعلانات شركة مش عارف إليه
الخاصة بالصباغة والصبغ . . وأن أى إنسان يصاب بضرر فالشركة - مع الأسف
له والشكر له أيضاً - على استعداد لدفع التكاليف !
وتعاونت أنا وأربعة ونزعنا البالطو . . وبعد أن ترك أحد جيوبه كذكرى
لعناق بالإكراه فى ليلة رأس السنة ؟

ولم يختلف أهل نيويورك عن أهل أية بلد فى الدنيا فى ليلة رأس السنة .
إلا فى أن أهل نيويورك ينتعلون الإنسانية . . ويفتعلون الطفولة . . فى حين أنهم
فى أى بلد آخر - حتى فى أمريكا - أناس عاديون بلا افتعال . . وبلا محاولة
كاذبة لأن يتذكروا أنهم كانوا بشراً فى قرن من القرون !

* * *

وفى نيويورك حى اسمه « قرية جيرنيتش » . .

وهى أخذت الاسم طبعاً من مدينة صغيرة بالقرب من لندن اسمها جيرنيتش
وهى التى تقع على خط طول : صفر . . والعالم كله يضبط ساعاته على توقيت
هذه المدينة التى عدد سكانها تسعون ألفاً ولها عضو فى البرلمان وبها مصانع
وبها متحف القائد نلسون - إننى أتكلم عن جيرنيتش الأصلية !

أما هذه الجيرنيتش أو هذه القرية فهى شئ آخر . .

فالأمرىكان يحاولون أن يقلدوا الحى اللاتينى فى باريس . .

ففيها زرائب تحولت إلى بارات ومطاعم تحت الأرض . . واصطبلات للخيول
تحولت بفضل الإضاءة الحاملة إلى جنات تجرى من تحتها أنهار البيرة والويسكى . .
ومعظم هذه الأماكن يقف فيها الناس . . فلا مكان لإنسان يحاول أن يجلس . .
فهو يشرب وهو واقف ، ويأكل وهو واقف ، ويدفع وهو واقف . . ويخرج
من غير مطرود إلى مكان آخر ليحجز له موطناً لقدم . . لقدم واحدة طبعاً .
لأنه بعد هذا التعب لا يمكن أن يقف على قدم إلا ليرفعها ويقف على القدم الأخرى

ويجد نفسه طول الليل في هذا الوضع الغريب ، ويقف كالأوزة ، ويشرب
البيرة كأنه سمكة ، ويترنح كأى مسطول ، ويدفع كأى قروى من أقاصى الريف
المصرى !

وإذا حاول أن يتظاهر بفقدان الوعي ، فهناك فتوات في استطاعتهم أن يردوه
إلى وعيه . . . بعدة طرق : بأن يضربوه حتى يفيق . . . وبأن يلبسوا المحفظة . . .
أو ينزعوا ملبسه . . . وبخبرة السامسة يقلدون بالضبط كم تساوى ملبسه الخارجية
والداخلية . . . وجواز السفر أو البطاقة الشخصية . . . أو يسلموه لرجال البوليس .
وهذا لا يعفيه من دفع التكاليف نقداً أو حبساً !

ولاحظت أنهم يطيلون شعر المحية . . . والشارب . . . وأنهم يرتدون بنطلونات
مقلوبة . . . وأن بعضهم يرتدى قمصاناً سوداء . . . أو بيضاء . . . وهذا شئ غريب . . .
لأن الأمريكانى العادى أو الأمريكى الوجودى يلبس القميص السادة . ولا يحمل
في يده ساعة . . . ولا في جيبه ورقة ولا قلماً ولا مفتاحاً للبيت ولا نوتة بها أرقام
تليفونات ولا في جيبه فلوس . . . لأن الأمريكى العادى يحمل في جيبه شيكات . . .
مضمونة من أحد البنوك وبذلك يكون قادراً على تناول الطعام في أى مطعم !

سألنى واحد من هؤلاء الأمريكان ذوى القمصان السادة : هل رأيت باريس ؟
فقلت : عدة مرات . . .

وسألنى : هل هذه القرية شبيهة بها ؟

قلت : بصراحة لا . . .

قال : كثير من الفرنسيين يؤكلون هذا الشبه . . .

فأفهمته أنهم يقصدون الشبه الموجود بينه وبين شباب الحى اللاتينى ! .

فأخرج من جيبه نصف سيجارة وابتلعها أيضاً . . . وشرب وراءها وسألته :

ماذا فعلت ؟

فقال : ابتلعت بعض الدخان الذى لم يحترق بعد !

وسألنى إن كانوا في باريس يفعلون مثله ؟

فقلت : في نيويورك فقط ؟

وضحك وأخنى وجهه في كأس كبيرة شربها وانهار . . . وقبل أن يلمس

الأرض امتدت أربع أذرع قوية وحملته وأسندته ليكمل كأسه . وأكمله واختفى مع الأذرع الأربع . وجاء شاب آخر بقميص أسود . . في جيوبه كتب وقصاصات من الصحف وبعض الصور . . وعلى خده شفاه حمراء وفي جبهته وفي وجنتيه . . وفي صدره وعلى قميصه الأبيض . .

وسألني إن كنت أريد بعض هذه الشفاة . فلم أفهم السؤال . أو حاولت أن أبدو كأنني أريد مزيداً من المعلومات . . فأخرج من جيبه ورقاً مطبوعاً عليه بعض الشفاه . . وألصق هذه الأوراق على وجهه المبلل بالعرق . . فانظبت هذه القبلات !

فقلت له : ولكن كل الناس يعرفون أن هذه قبلات صحفية . . قبلات ورق جرائد !

فهز كتفيه بعدم اكتراث .

وسألته إن كان سبب ذلك هو أنه لا يهमे الناس أو أنه لا يجد فتاة في هذه الليلة السعيدة . . فقال عبارات فهمت منها أنه يفعل ما يعجبه ولا يهमे الناس . . ثم مد يده وأخرج قبلات سوداء وألصقها بوجهه . . وتطرع وألصقها بوجهي . . وذهبت إلى زريبة أخرى في هذه القرية التي بيوتها تصل إلى عشرة أذوار وعشرين دوراً . . وهي طبعاً بالنسبة لناطحات السحاب تعتبر أكشاكاً صغيرة . وهي زريبة من الناحية الفنية ألطف وأجمل . .

فدخلها لا بأس به . . ستائر حمراء . . وأضواء حمراء . . وكل شيء فيها تحول إلى لون الدم . . حتى الأحجار كأنها دماء جفت . . أو قلوب انخلعت وكادت تقع لولا خرفوها أن تسقط على الزجاجات المكسورة التي في أيدي الزبائن . الأكواب كلها مكسورة عن عمد . . ولها أطراف مدبية . . والناس يشربون من خراطيم من الجلد . .

أوضح لك هذه العبارة مرة أخرى : الناس هنا ارتدوا الجاكتات بالمقلوب . واضح هذا . والجاكتات مزررة أيضاً . والبنطلونات واسعة جداً والشعر منكوش . . والخراطيم تشبه « اللي » الموجودة في الشيشة . . أما الأكواب فكلها مكسورة أو

مشروخة . . وزجاجات البيرة لا يفتحونها وإنما يكسرونها فى الحائط . . فىكون لانفجارها دوى . . وما تبقى من الزجاجاة يضعونه فى الأكواب المكسورة ويشربونها .
وليس من العقل أن تسأل مجنوناً عن الحكمة وراء هذا الجنون فلو كان يعرف الحكمة لاختار شيئاً آخر . ولكنه لا يعرف . ولا يريد أن يعرف وليس من الضرورى أن أعرف . فإما أن يعجبني ، أو أتركه إلى أى مكان آخر . . ولن يدري بي أحد ، داخلاً ، أو خارجاً مندهشاً أو معجباً !

وقبل أن أستقر على رأى . . انفجرت زجاجاة ودخل خرطوم فى فمى ، وسالت البيرة على ملابسى ، وتقدمت فتاة شبه عارية تطلبني بالحساب . وحاترت يدى بين الخرطوم وبين بقايا الزجاجاة . . ويصطدم بي أحد السكارى فتسقط الكوب والزجاجاة والخرطوم . . وتظهر فتاة أخرى معها خرطوم آخر . . والخرطوم هنا من الورق ويغيرونها مع كل كوب وكل زجاجاة . . سواء كانت زجاجاة كوكا . . أو زجاجاة عصير . . أو زجاجاة بيرة . . وطلبت من الجرسونة المصبوغة بلون الدم ، كأنها دجاجاة فى أحد المطاعم الهندية ، أن تقف إلى جوار الحائط حتى لا أصطدم بأحد . . وحتى أتمكن من دفع الحساب أولاً بأول . . وهنا اصطدمت بي الجرسونة نفسها . أين شهامتى !؟ أين رجولتى !؟ لا يمكن أن أبدى أى ضيق أو أى قرف . . بل هذا شرف عظيم . . ليبتها تفعل ذلك مرة أخرى . . واعتذرت الفتاة واعتذرت أنا لاضطرابها لأن تعتذر عن عمل غير مقصود ، وحتى لو كان مقصوداً فهى مداعبة لطيفة . . ولا شك أن قدمى فى حاجة إلى أى سائل بارد يدخل فيهما ليخفف من حرارة المشى والوقوف !

وفى المرة الرابعة عندما حاولت أن أخفى ضيقى الشديد كسرت الزجاجاة بشكل غير فى . . فسقطت كلها على الأرض !

وخرجت أبحث فعلاً عن زريبة حقيقية . فلا يمكن أن تصدر عن إنسان هذه التصرفات كلها ، ولا يستحق فى آخر الليل أن يتعلق من حبل والحبل فى وتد والوتد فى زريبة والزريبة فى نيويورك ! . .

وكأنتى أريد أن أعفى نفسى من هذه المحن ، دخلت أحد المطاعم وأكلت بعض السبانخ المسلوقة ، وهى أقرب الأطعمة شهاً بالبرسيم !

والأمريكان فى الحقيقة عندهم كل شئ يتمناه أى إنسان . . إلا شيئاً واحداً :
الإحساس بالحياة !

إن هذه القرية فى حاجة إلى ألف سنة لتكون فى قدارة وبدائية وظلام وبساطة
الحى اللاتينى فى باريس . . أين الموسيقى . . أين الرقص . . أين النعومة . . أين
الهمس . . أين اللمس . . أين الكلام الحلو الذى تسمعه من فتاة مسحورة بك
أو بغيرك . . أين الغناء الذى يتردد من حنجرة ذات حشجة بفعل السجائر
والسوائل الباردة والملابس الشفافة . . أين الآه . . والليل والعين . . تسمعها من
عربى سعيد مع فتاة سعيدة فى كل من أركان باريس . . أين عشرات الأيدى
ملفوفة فى حنان حقيقى . . لا حنان سينمائى فى سان ميشيل . . وسان جرمان دبرى . .
وفى مقاهى الفوكيه والدييون ودى فلور . . ودى لاييه . . إلى آخر الأسماء الساحرة
فى باريس . . أين الليل الذى تنتشر سحبه القاتمة . . فوق أبراج الكنائس وأقواس
النصر والطيور ترفرف كأنها مناديل حريرية . . أو كأنها أعلام نصر . . إن
انتصار الإنسان على حياته الآلية يستحق التكريم . . إنهم فى باريس أناس أولاد
ناس . . لهم قلوب . . كلهم قلوب . . ولكنهم فى أمريكا . . لا أحد يعرف
إن كانوا من الناس . . لا أحد يعرف إن كانوا عندما هاجروا من أوربا قد نزعوا
قلوبهم ورموها فى البحر !

لا أعرف ماذا حدث . .

إن المقارنة بين أمريكا وأوربا صعبة . . بين بلاد بلا حضارة ، وبلاد
الحضارة العميقة ، مقارنة ظالمة لأمريكا . .

والمقارنة بين « عشش الترجمان » الأمريكية هذه وبين الحى اللاتينى فى
باريس ، إهانة لباريس كلها . .

وعشش الترجمان أحد الأحياء المهدمة فى القاهرة ، والمرشحة للاختفاء قريباً
جداً - أو هكذا أتمنى !

* * *

وأنا أقفل باب غرفتى . . أقفلت فى على هذه العبارة : عندهم فلوس . .
ولكن ليس عندهم ذوق !

فالذوق هناك على الجانب الآخر من المحيط !

● قَبلة في النهاية!

اليوم أول يناير ..

وكل الناس ينصحونني بالبقاء بضعة أيام ، إذا كان في نيتي أن أشتري شيئاً لأن كل هدايا عيد الميلاد يعيدها الأمريكيان بنصف السعر إلى المحلات . . فكان إنسان أهداك شيئاً ، لست في حاجة إليه تذهب . ببساطة جداً وتبيعه . ومن الممكن أن تبيعه للشخص الذي أهداه لك إذا كان هذا الشخص صاحب محل مثلاً !

ولاشئ يدل على أننا في بداية عام جديد . . ربما كان عدد الناس في الشوارع أقل . . وربما كانت وجوههم أكثر اصفراراً .. أما الأوراق والطرابير والزمامير والأحذية والبرانيط الموجودة في الشوارع ، فسوف تبقى يوماً آخر .. لأن الكناسين في إجازة أيضاً . . إنهم بشر أو على الأقل في هذا اليوم !

ولم أشغل نفسي بموضوع الكناسين . وإنما اتجهت إلى أحد مكاتب الطيران . أريد أن أحجز مكاناً إلى القاهرة . واندفعت في داخل مكتب شركة الطيران أحاول أن أسبق أحداً إلى حجز مكاني . وبعد لحظات عرفت أن الذين سيهربون الإطنطلي من أمريكا إلى أوروبا قليلون جداً . وربما يسعدني الحظ فأكون المسافر الوحيد . وكيف يكون شعوري عندما تقوم الطائرة من مطار نيويورك وليس فيها إلا أنا . . ثم عندما تهبط في مانشستر بإنجلترا ويرتفع السلم ويفتح الباب وأنزل وحدي . .

الفكرة غريبة ولكنها مخيفة أن أعبّر الإطلنطى ليلا في طائرة ليست نفائفة
وأكون أنا المسافر الوحيد . !

لم تعجبني الفكرة وكدت أترجع في حجز تذكرة وفي نيتي أن أذهب
إلى شركة طيران أخرى . . وخشيت إن أنا عدت إليها بعد لحظات ألا أجد لي
مكاناً . واستسلمت . . فلم أجد فكرة أخرى وحجزت مكاناً .

وفي المطار وجدت اثنين آخرين مسافرين على نفس الطائرة . . ثلاثة مسافرون
إلى أوربا ليلا . وفي طائرة تنسع لمائة راكب !

وشعرت بشئ من الخوف . . أو بكثير جداً من الخوف . . فهذه أول مرة
أعبّر فيها الإطلنطى . وقد لاحظت أن رياحاً باردة كانت تهب على المطار .
وأن إحدى الطائرات قد اصطدمت بطائرة أخرى في المطار بسبب الضباب
واتجاه الريح . .

ولا بد أن هذه الطائرة ستكون ورقة أو ريشة في قلب العاصفة التي فوق
الإطلنطى في هذه الليلة . .

وإذا سألت الطيار فسوف يؤكد لي أن الجو معتدل . . وأن الارتفاع سيكون
عشرين ألف قدم . . والسرعة ٥٠٠ كيلو . . والطائرة في أحسن حالة ، وكل
هيئة قيادة الطائرة في خدمة الركاب . . وفي انتظار أية إشارة منهم !

وهي عبارات لطيفة تقال في كل الظروف . . ولو احترقت الطائرة لاقتربت
المضيفة تعلن أن الطائرة تسقط في أحسن حال إلى قاع المحيط . !

واستسلمت وحشرت نفسي في المقعد ونظرت من النافذة إلى الظلام الذي
يفرز وهجاً مخيفاً يخرج من محركات الطائرة ومن ماسورة العادم . . وهو منظر
لا يراه المسافرون إلا في الليل !

ولا أعرف إن كانت هذه عاصفة تلك التي تهب الطائرة بعنف وهي تبرح
الأراضي الأمريكية . . على كل حال يجب ألا أهتم كثيراً ، فابتزال الرحلة طويلة
جداً . وقد قرر المسافران الآخرا ن اختصار هذه الرحلة ، بأن تمددا وصحب كل
واحد منهما بطانية على رجليه ، وبسرعة غريبة في وقت واحد ، أخذ كل منهما
يصلر الصوت المعروف لأي إنسان مستغرق في نومه وعنده بعض الزكام الخفيف .

وصحوت من نومي على ضوء النهار . . وعلى إحساس بتجميد أطراف يدي
ورجلي . . وعلى الرغم من أنني ارتديت جورباً فوق حذائي . . وعلى الرغم من أنني
لقد كنت ثلاث بطاطين حولي . . وعندما طلع النهار كانت روحي قد ردت لي . .
ولم أر ما الذي فعله بهذه الروح بعد أن عادت إلى جسمي . أول شيء فعلته
هو أنني جعلت أنبه يدي النائمة . . ورجلي أيضاً . وشعرت بالعطش والجوع
وبالأمان . . وبرغبة شديدة في استئناف الحياة التي استولى عليها الظلام والخوف
والعواصف فوق المحيط . .

والسحب تحت الطائرة . . وفوقها أيضاً . .

فما تزال على مسافة طويلة من الجزر البريطانية . وتقدمت المضيئة وبالابتسامة
التي تراها على شفطي لإحدى الممرضات وهي تداعب طفلاً صغيراً قالت لي :
ما الذي استطيع أن أقدمه لك ؟

قلت ضاحكاً : قطعة أرض !

فضحكت وقالت : إن الأرض قريبة جداً . . بعد كوب من الشاي
وقطعة سندوتش وفنجان قهوة وثلاث صفحات في هذه المجلة تصل إلى مطار
مانشستر .

وجاء الشاي والسندوتش . . وشربت القهوة وتصفححت المجلة . . ومجلة
أخرى . . وشربت شايا وقهوة ومجلة وكتاباً . . وأضيت الطائرة وممنوع التدخين
واربط الحزام . . استعداداً للهبوط .

وبعد عشر ساعات من الطيران فوق الإطلنطي هبطت الطائرة إلى أرض
إنجلترا . . وكانت السماء صافية . . شيء غريب . . والشمس طالعة . . شيء
غريب جداً . . والجو دافئ . . والناس في دهشة رزينة . .

وهذه هي المرة الرابعة التي أسافر فيها إلى الجزر البريطانية . .

وفي مطعم المطار . رأيت الوجوه الوقورة . والملامح الهادئة . والابتسامات
المتزنة . واللغة الإنجليزية الأصلية . وكأني أعرف الجرسون ، وكأني أريد منه أن
يكرر كلمة : سيدي .

طلبت منه شايا . . أية كمية من الشاي . . فهذه بلاد الشاي . . وطلبت
منه أي فاكهة وأي سندوتش . .

ولاحظ الزجل لهفتى على الشاى وعلى الطعام . .

وسألنى إن كانت الرحلة مرهقة عبر الإطلنطى . . فأشرت إليه بأنها كانت كذلك . وقلت هذه العبارة بصوت منخفض حتى لا يسمعا أحد الطيارين . لأن الرحلة لم تكن متعبة بالمرّة . إنما أنا أحاول أن أبرر تعطشى للشاى .

وبعد لحظات جاء الجرسون ومعه الشاى ومعه سلة فاكهة ومعه سيّدة تقول لى صباح الخير والحمد لله على السلامة . .

وانتشيت من هذه الكلمات وأحسست أننى فى أوربا . . أننى قريب من أسعد أيام حياتى . . فى هذه الجزر العريقة أحسست لأول مرة فى حياتى عندما زرتها ما معنى أن تكون للإنسان شخصية مستقلة ، فالرجل الإنجليزى العادى جداً له رأى . وله موقف . . وهو حريص على حريته . . ولكنهم — كشعب — حريصون أيضاً على أن يعيشوا على حساب حريات الشعوب الأخرى !

ولكن الإنجليز يفهمون فى الحياة . ويفهمون فى السياسة . ولذلك لهم أدب عظيم ، لأنه قائم على الفهم السليم العميق للحياة الإنسانية . .

ولو كانت هذه السيّدة التى جاءت مع الجرسون كبيرة فى السن قليلاً نهضت وقبلتها . وكأننى أقبل أوربا كلها . . أقبل فيها باريس وروما ومدريد وبرلين وفيينا وأثينا وكوبنهاجن وبروكسل واستكهولم . . أقبل فيها الحضارة العريقة . .

ولكنها — مع الأسف — كانت شابة صغيرة .

وليس من الأدب ولا من الفلسفة أن أنهض بكامل قواى العقلية ، وأصاب بالجنون عند أول قطعة أرض فى أوربا وفى الساعة المبكرة من الصباح .

واكتفيت بنية أن أقبلها . . وقبلتها فى سرى . .

وعدت إلى الطائرة أحسن حالا وأهدأ بالا . . وأكثر اطمئناناً على نفسى . .

فبعد ساعة نصل إلى مطار بروكسل بيلجيكا . .

وكان الجو دافئاً فالطائرة تتجه إلى الجنوب . .

وكانت السحب منخفضة ولكنها ممزقة . .

ونزلت الطائرة إلى بروكسل . . وهذه هى المرة الثالثة التى ألمس فيها الأرض

البلجيكية . . وكان في المطار بقايا مطر . . وتغيرت معالم الوجوه . وتغير اللسان أيضاً . إنهم هنا يتكلمون الفرنسية إلى جانب اللغة الفلمنكية . يتكلمون الفرنسية بلهجة خاصة وبتغيير في نطق بعض الحروف . .

وفي بروكسل أنت على مسافة دقائق من باريس . .

ومن بروكسل سافرت إلى جنيف . . وهذه هي المرة العشرون التي أعبّر فيها جبال الألب . . من الشمال إلى الجنوب . . ومن الجنوب إلى الشمال . . وهذه هي المرة السادسة التي ألمس فيها الأراضي السويسرية . . ومن طائرة بدت الجبال مغطاة بالجليد . . كانت أقرب ما تكون إلى سقف من الحرير الأبيض . . ولاحظت أن الأوروبيين ينظرون إلى الثلج بلهفة . . كما ينظر الإنسان إلى لوح ثلج في عز الصيف . .

ومرت الطائرة على بحيرة جنيف . . ومن الطائرة لمحت جزيرة جانجاك روسو . . ولمحت الحديقة الإنجليزية . . وبحيرة جنيف وكازينو جنيف . . والجو المغسول النظيف . . والناس في دقة الساعات ، وفي نظافة الصنبي بعد غسله . وسويسرا هي سقف القارة الأوروبية . . إنها جافة وهواؤها منعش له رائحة خاصة وطعم خاص وملمس غريب على الخلد . . وعلى الشفتين . هواؤها أنثوى . ولكن في صلابة وفي كبرياء . يلمس فقط . ويثير فقط . ولكنه يجعلك تشعر بالجوع . ويجعلك تمنى أن تعيش هنا إلى الأبد . . والأبد هذه كلمة ليس لها معنى إلا في سويسرا . فكل شيء على ما هو عليه من مئات السنين . . لا شيء يتغير . فهم هنا لا يعرفون الخوف . إنهم لا يخافون الحرب ، فهم على الحياد . ولا يخافون الفقر ، فكل فلوس الدنيا عندهم . ولا يخافون المرض فبلادهم هي مصحة البشرية . . إنهم شعب لا يعرف الخوف من الموت !

ومن عشرات من تفاحات الخلدود ، واللولى بين الشفاه ، والذهب المنثور تحت البيريهات الزرقاء والرمادية ، والقطن المصرى على شكل بلوزات محشوة بالورد ، ومن رنة أوتار صوتية ناعمة جداً . . ومن طرقات الأحذية على أرض المطار الجليدى . . ومن نشوة الهواء والصحة والراحة . . من هذا كله استأذنت

وسحبت نفسى وصعدت الطائرة المتجهة إلى روما . !

ولم أشأ في الطائرة أن أنظر من نافذة . . أو أطلب شراباً أو طعاماً . . ولم أنظر إلى وجه كائنى أريد أن أدخر كل قواى من أجل روما . . أريد أن أغسل أذنى وشفتى وعينى . . ونفسى وقلبى وعقلى . . أن أولد من جديد . . فى روما ولد الكثير من الأشياء السعيدة فى حياتى . .

وفى روما عرفت الشوق واللهمفة وعرفت الألم والفراق . . وعرفت كل ماحرك جوانبى وكل ما دفع عقلى . وعرفت معنى الجاذبية الأرضية وعرفت معنى انعدام الوزن قبل أن يعرفه رواد الفضاء . وعرفت معنى كل شئ له معنى . كل شئ محبوب فى داخلى . .

كل شئ يتفجر فى أذنى وفى عينى . . كل شئ يريد أن يمزقنى . . . لا أعرف ما الذى أفعله عندما أهبط فى مطار روما . . إننى أتخيل الوجوه . . بل أعرفها . . إننى أتخيل الطريق . . أى طريق فكل الطرق عرفتها . . كل الشوارع . . كل المطاعم . . كل الفنادق . . كل التماثيل . . كل النافورات هنا . . وهناك . . وهناك . . وفوق . . وتحت . . هنا فى مطار روما . . وهناك فى محطة روما . . وفى شارع فنيتو . . وفى شارع الكورسو . . وفى ميدان البندقية . . وفى ميدان الشعب . . وفى حديقة بورجيزة . . وفى ميدان ديوان المحاسبة . . وفى الكامبودوليو . . وفى البانتيون . . وفى مقهى الدونة . .

وفى كل مكان من مدينة روما . .

إننى أستطيع أن أمشى فيها مغمض العينين . . إن أذنى تستطيع أن تدلنى . . وأمشى فيها معلق الأذنين أيضاً . . إن أنى يعرف رائحة الزهر والشجر والماء ويعرف رائحة المكرونة والنيبيذ والسّمك . . إننى أستطيع أن أمشى نائماً . .

إن فرحتى يوم أن رأيت روما لأول مرة من عشرين عاماً لا يمكن أن أصفها . وظللت هذه الأعوام أحاول أن أصفها . . ولكن لا تزال معانيها غامضة . . معانيها بعيدة عن متناول أفكارى . . عن متناول ألسانى . . كأنها حريصة على أن أظل طول عمرى أحاول وأحاول أن أقرب منها . .

وفى مطار روما . . رأيت الوجوه التى أعرفها . . أعرفها كلها . . أعرف هذه

العيون العسلية . . أعرف هذه الوجوه السمراء . . أعرف هذه الشعور السوداء . .
وهذه الحناجر العالية لا تضايقنى . . وهذا القوام المشدود . . وهذه الأحذية السمكة
وكلمات سى . . ونو . . كما تفعل بنات روما . .
ويوم قرأت قصة « فتاة روما » لألبرتو مورافيا لأول مرة . .

ومورافيا هو الرجل الذى قدمته لأول مرة باللغة العربية ولم يكن يعرفه أحد .
وكتبت عنه أول مرة سنة ١٩٤٧ . وصارحته بذلك عندما قابلته فى روما . وعصا
قابلته فى القاهرة وعندما قلت له رأيت فى أدبه . وأسعدنى بما قاله لى بعد ذلك . .
يوم قرأت هذه القصة ويوم بكيت مع البطلة أدريانا . . لم تكن أدريانا تتحرق
البكاء . ولكن حياتها مؤلمة وبساطتها تبعث على الألم أيضاً . لقمة العيش مرة . .
والبحث عن الطعام مر . . والحب مر . .
والذكريات أكثر مرارة .

ومشيت فى شوارع روما . . فى نفس الحوارى الضيقة . . وكنت أرى فى
كل فتاة هذه الأدريانا . . الفتاة التى خلفتها الحرب فى إيطاليا وتركها تتضور
جوعاً . ولا تعرف كيف يمكن أن يكون الإنسان شريفاً وجائعاً فى نفس الوقت . .
وحاولت أدريانا أن تقف بين الجوع والشرف . . هى وملايين من الرجال وقسم
فى أوروبا بعد الحرب . . وراحت أدريانا ضحية هذه المعادلة الصعبة !

لا أعرف كم من المرات دخلت روما وكم من المرات خرجت منها . . ربما
عشرين مرة . . ربما ثلاثين مرة . . ربما لم أخرج منها حتى الآن . .

وهبطت من الطائرة إلى مطار روما . لآتمرغ بعينى فى كل هذه الوجوه وكل
هذه الصدور . . وكل هذه العيون . . فقد احتفظ أبناء وبنات إيطاليا بكل ما فى
بلادهم من جمال . . زرقة البحيرات وسمرة التربة وعلى صلورهن براكين
فيزوف وسترومبولى . . كل هذا أعرفه . . كل هذا عرفته . . كل هذا اقتربت
منه . . كل هذا عشته . . وبكيت له . . وبكيت منه . . وبكيت عليه .
وكأى نخمور نزل من الطائرة . .

وكأى بطل حملوه على الأكتاف . . وهتفوا فى أذنه . . وهو لا يبرى .
وكأى ميت وضعوه فى نعش العطر المميت والسحر القاتل . .

وكأى جريح عائد من ميدان القتال إلى أهله ووطنه . . مع أن إيطاليا ليست أهلى ولا وطنى . . ولكن الأيام . . الشهور . . السنوات السعيدة التى أمضيها هنا . . قد « أهلتنى » قد أعطتنى كل حقوق المواطنين على المواطنين وعلى الوطن نفسه . .

عندما كنت فى مدينة هيدلبرج فى ألمانيا كنت أتغنى مع الألمان وأقول على أنغام الفالس : فقدت قلبى فى هيدلبرج . .

ولكن فى روما فى إيطاليا من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ما الذى فقدته . . لم أفقد إلا ملى وإلا قرى وإلا تفاهة الدنيا . . وإلا اليأس من الحياة . وفى روما طال بقائى . . وأقت أياماً كاملة أمشى فى الشوارع . . وأتوقف عند النواصي . . وأضع الورود فى النوافذ . . وأشد على يدى الذين مات أعزائهم وأعزائى . . ولأرفع سماعة التليفون لأقول إلى اللقاء . . ووداعاً . .

وقبل أن أغادر روما ذهبت برغبة غريبة لا أعرف سببها ، إلى ميدان أيسديرا . وهو أشهر ميادين روما . . وقفت عند بائعة الصحف . واشترت كل الصحف التى صدرت فى نفس اليوم . . بكل اللغات التى أعرفها . .

وبصدفة غريبة جداً . . ووقفت فى الميدان . . وإلى جوار أحد التاكسيات تماماً كما فعلت فى أول يوم ذهبت إلى روما من عشرين عاماً .

وبصدفة أغرب رأيت أول وجه عرفته فى إيطاليا . .

ووسط الزحام والكلاكسات والسيارات والذين يشيرون إلى أن أحترس . . والذين أمسكونى من يدى . . والذين توهمت أننى أمسكهم من أيديهم . . ومن شعورهم حتى لا تلوسهم العجلات . . ووسط هذا الفيضان المفاجئ فى الميدان ضاعت صرخاتى وأنا أنادى هذا الوجه بأعلى صوتى . . أناديه بكل أيامى بكل سنوائى . . بكل الذى كان وكان وراح وضاع ولن يعود . .

واختفى الصوت والصدى والوجه والظل والميدان ، ونسمة الهواء ، وقطرات الماء على الحجر ، ولون السماء ، ورائحة القهوة ، وطعم النبيذ ، ومرارة الفراق . . وعادت بعد ذلك إلى دنياى كل ما كان فيها : الأرق عاد، والمثلل عاد، واليأس عاد . . وصغرت الدنيا حتى أصبحت كعين الإبرة . . وأصبحت أحس فى كل لحظة

أننى فيل أريد أن أنفذ منها إلى العالم الآخر ..
وكانت الدنيا قبل ذلك حلوة .. لولا هذه الساعات فى روما .. لولا هذه
اللمسات لأحجار الميادين .. لولا هذه الرشقات من مياه النافورات ..
لولا لوحات دافنشى .. ولولا الشفاء والصدور والسيقان ..

وحملت حقائبي وكانت أخف منى ..
فأنا الآن أصبحت أنقل من حقائبي . وصعدت الطائرة عائداً إلى القاهرة .
وقد نقص وزنى ، وجف عودى ، واقترب جلدى من عظمى .. واختفت عيني
تحت حاجبي ..

وكأننى كنت قادماً من الإسكندرية نزلت أرض مطار القاهرة .. كأننى
نزلته على يدي .. فقد أحسست بأرض المطار لينة كأنها صدر حنون ..
وتمنيت لو ألقيت نفسى على هذا الصدر .. لقد كان الصدر الوحيد الذى
ينتظرنى أو الذى كنت أنتظره .. أو الذى توهمت أننى على موعد معه !

لا أعرف أحداً من هذه الوجوه .. ولا يد أن بعضها قد قرأ كل ما كتبت
وأنا أدور حول الأرض .. ولا بد أن واحداً منهم تمنى أن يدور دورتى ، وأن
يدوخ دوختى ، ولا بد أنه تمنى ذلك فى ساعة .. فأصابنى ذلك بالمرض والخوف ..
وقد مرضت كثيراً . وخفت كثيراً . وأخفيت دموعى فى عرقى ، وأخفيت
عرقى فى حبرى .. وكتبت .. وبكيت وتعبت . ولكن رأيت أجمل ما فى الدنيا .
وعرفت أفسى ما فى الدنيا : الوحدة ..

وحققت أعظم ما فى الحياة : أن أسعد الآخرين ..

وفى اللحظة التى هبطت إلى أرض المطار ..

كانت شفتاى فى قدمى .. فقبلت أرضاً حبيبة عزيزة ..

وكانت هذه القبلة هى فى نفس الوقت نقطة البداية والنهاية فى وقت واحد ..
فن هنا بدأت دورتى حول الأرض ماراً بالهند . وهنا أنهيت دورتى حول الأرض
قادماً من إيطاليا ..

وهذه النقطة هى الشئ الوحيد الذى أحاول منذ مائتى يوم ، ومنذ مئات
الصفحات أن أضعه فى نهاية هذه الرحلة ، وفى نهاية هذا الكتاب .

فهرس السلسلة الثانية

نعتذر عن أدراس كل أسماء الكتب ، وليس كتب السلسلة الثانية فقط .

المؤلف	الكتاب
أ. محمد حسنين هيكل . أ. محمد حسنين هيكل . أ. مصطفى أمين . أ. وجيه عتيق . أ. أنيس منصور . أ. انيس منصور . أ. أنيس منصور . أ. أنيس منصور . أ. أنيس منصور . تشارلز ديكنز . تشارلز ديكنز . تشارلز ديكنز . هـ. ج. ويلز . مكتبة الأسرة بمصر . جيمس برستيد . ريتشارد دوكنز . ستيفن هوكنج . أ. مصطفى محمود .	- خريف الغضب . - أحاديث في العاصفة . - سنة الثالثة سجن . - الملك فاروق وألمانيا النازية . - أعجب الرحلات في التاريخ . - مواقف . - القوة الخفية . - حول العالم في ٢٠٠ يوم . - لعنة الفراعنة . - الذين عادوا من السماء . - الآمال الكبرى . - ديفيد كوبر فيلد . - ترنيمة عيد الميلاد . - الرجل الخفي . - المختار من القصص العالمية . - فجر الضمير . - رجل الساعة أو الجديد في التطور الطبيعي .. - تاريخ موجز لزمان . - اينشتين والنسبية .

مختارات من الكتب

المختار

الكتاب

<p>ضد التبجح . رسالة لم تعد لنشر أصلاً .</p> <p>قصة أيام المظاهرات .</p> <p>بعض النوادر الجميلة التي وردت فيه .</p>	<p>- (بحثاً عن عالم أفضل) . للفيلسوف \كارل بوير .</p> <p>- (تاريخ حياة أحد اللصوص) . أحسان عبد القدوس .</p> <p>- (نوادر وطرائف من الصين العظيمة) . ترجمة إبراهيم البشمتي</p>
---	--

للحصول على أى من الكتب السابقة ، بالرجاء زيارة هذا الموقع المؤقت :

www.geocities.com/theknowledge_walls

ولتواصل معنا :

Theknowledge_walls@yahoo.com